صفحات مشرقة من

التاريخ الإسلامي

الدكتور

علي محمد محمد الصلابي

دار الإيمان
إسكندرية

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الخيري
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

صفحات مشرقة من

التاريخ الإسلامي

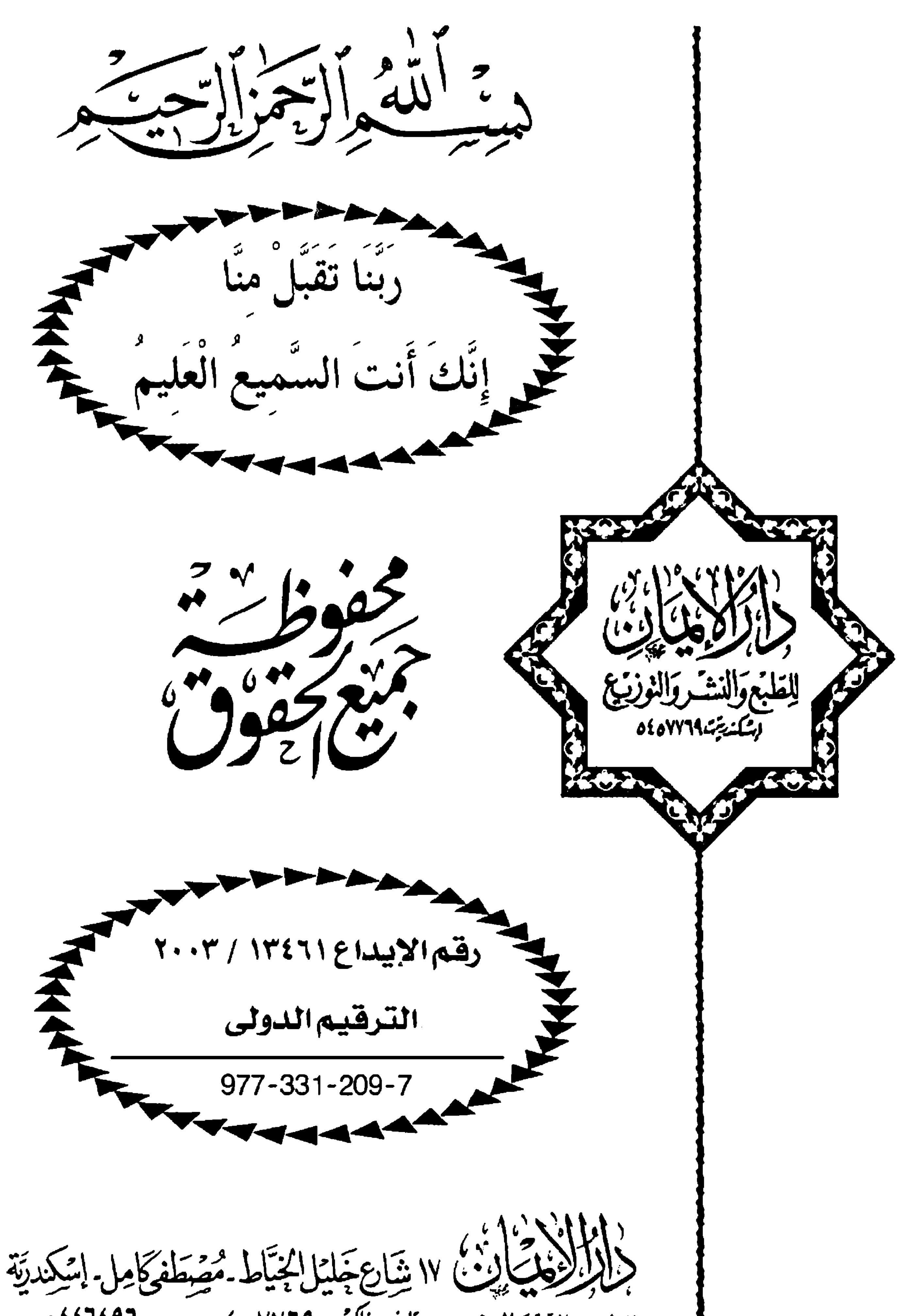
تأليف الدكتور

علي محمد محمد الصلابي

الجزء الثاني

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والتسجيلات
فاكس: ٥٤٥١١٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢



بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة

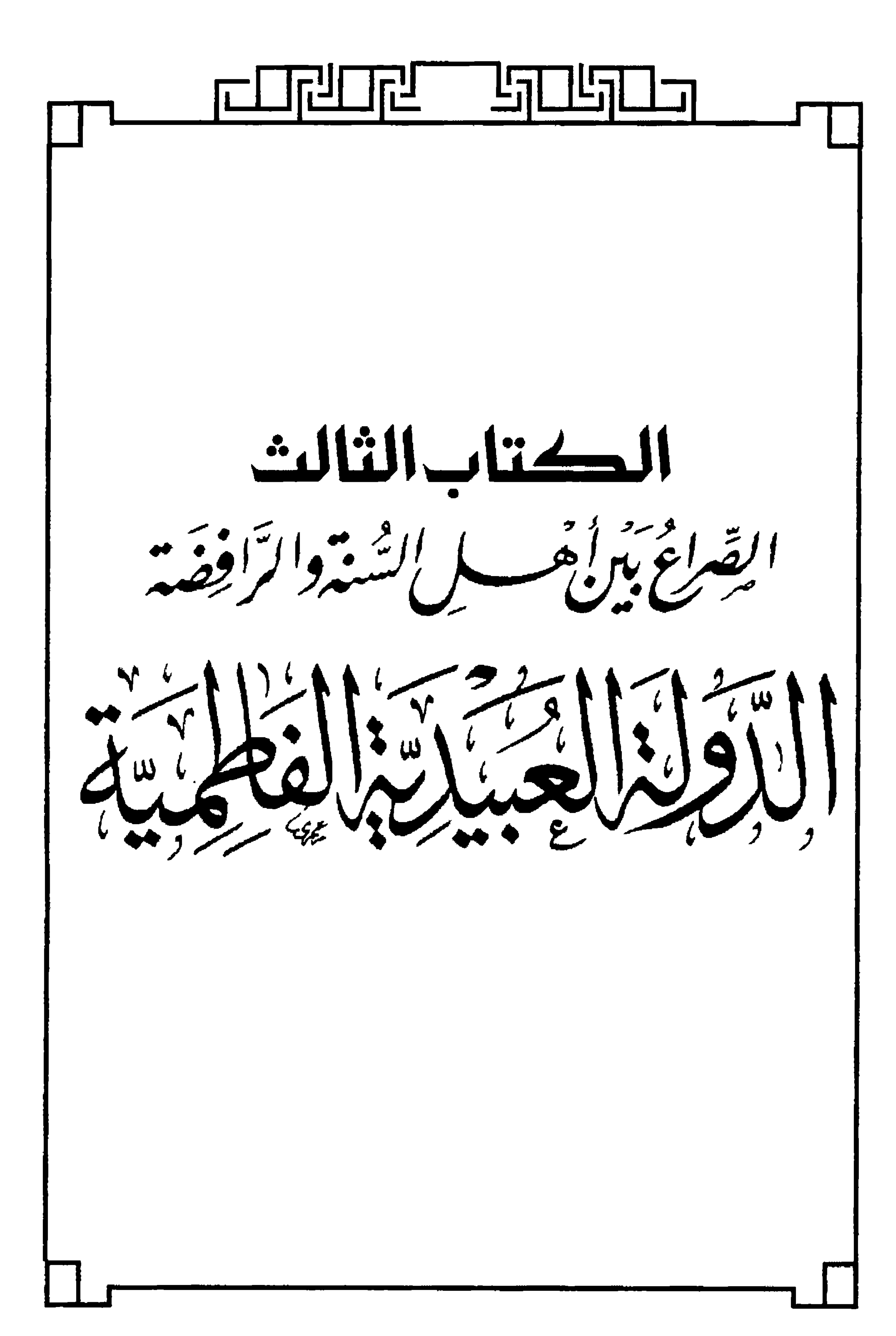
دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ١٣٤٦١ / ٢٠٠٣

الترقيم الدولى

977-331-209-7

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦



الكتاب الثالث

الصراع بين أهل السنة والرافضة

الدولة العبيدية الفاطمية

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١] .

أما بعد:

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الثالث **[صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي]** يتحدث عن الدولة **[العبيدية - الفاطمية -]** الرافضية منذ نشأتها وحتى سقوطها، ويتعرض للبحث في فرق الشيعة وخطرها على الأمة الإسلامية المجيدة، ويحاول أن يُسلط الأضواء على أسباب نجاح الدولة الباطنية في الشمال الإفريقي، ويبين حقيقة الصراع بين الرافضة وأهل السُّنَّة ، ويذكر أساليب الرافضة المتنوعة في محاربة أهل السُّنَّة ، وموقف أهل السُّنَّة من ذلك، ويتطرق إلى المجهودات العظيمة التي قام بها أهالي الشمال الإفريقي للقضاء على الدولة العبيدية ودور العلماء من أهل السُّنَّة في التعليم والتربية وحمل السلاح ضد الروافض.

ويسلط الأضواء على تأثير الدولة الصنهاجية في نشر معتقدات أهل السُّنَّة ، وإزالة جذور الروافض من الشمال الإفريقي كله، وخصوصاً في زمن المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم بن المعز، ويسرد الأحداث التي وقعت بين الدولة العبيدية في مصر والدولة الصنهاجية، ويشرح الأسباب التي كانت سبباً في سقوط الدولة الصنهاجية، وينتقل بالقارئ إلى الصراع بين الروافض في مصر وأهل السُّنَّة في العراق ليؤكد على معنى مهم، وهو أن تاريخ الشمال الإفريقي جزء من تاريخ الأمة يتأثر بالأحداث التي تقع في مصر والحجاز والشام والعراق وفي غيرها سلباً وإيجاباً، وأننا لا نستطيع أن نفصل تاريخ الأمة بعضه عن بعض، ويركز على فقه التمكين عند القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين من خلال سيرتهم الجهادية المباركة، وعن جهود العلماء والمحدثين والمربين الذين ساهموا في ظهور جيل النصر والتمكين، ويحاول أن يفسر سُنن الله في المجتمعات والدول والشعوب من خلال التفسير التاريخي للأحداث، ويشير إلى أهمية معرفة سُنن الله، وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة والحرص على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي يتحقق بها النصر على الأعداء ويتحدث عن أهمية سُنَّة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول، ويعطي للتربية النبوية والقرآنية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العظمى للأمة سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم، وجهادهم أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسُنَّة نبيها وقيادتها المخلصة.

وهذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد، وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية في هذه الحقبة الزمنية التي وقعت في الشمال الإفريقي، والتي تأثرت بالمشرق الإسلامي في حركتها التاريخية، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك، والمجال

مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفي من هذا الكتاب:

﴿ ١ ﴾ التأكيد على أن أصول المد الإسلامي في بلادنا أصول سنية لا شيعية ولا خارجية، وإنما ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

﴿ ٢ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سُنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

﴿ ٣ ﴾ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وتربية أبناء الأمة عليها وكشف معتقدات الروافض التي تخالف القرآن الكريم، وسُنَّة سيد المرسلين ﷺ وإجماع العلماء الراسخين.

﴿ ٤ ﴾ التعريف ببعض القادة الربانيين في المغرب، كالمعز بن باديس، وتميم بن المعز، وفي المشرق كنور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، حتى تستفيد من سيرتهم العطرة أجيال المسلمين التي تنشد النصر والتمكين لدين الله تعالى.

﴿ ٥ ﴾ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيداً عن سموم المستشرقين، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

أما خطة الكتاب فقد قمت بتقسيمه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: الدولة الشيعية في الشمال الإفريقي:

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: الشيعة في اللغة:

أولاً: تعريف الشيعة لغة واصطلاحاً.

ثانياً: تعريف الرافضة.

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم.

الفصل الرابع : أسباب سقوط الدولة العبيدية :

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: أسباب سقوط الدولة العبيدية.

المبحث الثاني: نور الدين محمود.

- توحيد بلاد الشام والديار المصرية.
- وفاة نور الدين.

المبحث الثالث: صلاح الدين الأيوبي.

[أ] القاضي الفاضل.

- وفاته.

[ب] وفاة السلطان الناصر صلاح الدين.

[جـ] الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين.

[د] من أروع المراثي في صلاح الدين.

[هـ] من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين.

ثم نتائج البحث.

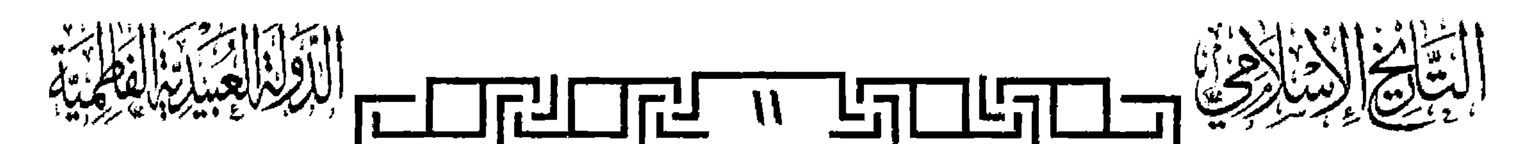
وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول
الدولة الشيعية في الشمال الإفريقي

المبحث الأول
الشيعة في اللغة

قال الجوهري - رحمة الله - :

« **شيعة الرجل**: أتباعه وأنصاره ، يقال: شايعه كما يقال: والاه من الولي. . وتشيع الرجل أي: ادعى دعوى الشيعة، وتشايع القوم صاروا شيعاً، وكلُّ قومٍ أمرهم واحد يَتْبَع بعضُهم رأي بعض فهم شِيَعٌ، وقوله تعالى: ﴿ **كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ** ﴾ [سبأ: ٥٤] أي بأمثالهم من الأمم الماضية [١] .

وجاء في المصباح المنير: « والشيعة الأتباع والأنصار، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صارت الشيعة نبزاً – أي وصفاً – لجماعة مخصوصة والجمع شيع مثل سدرة وسدر، والأشياع جمع الجمع وشيعت رمضان بست من شوال أتبعته بها» [٢] .

فالشيعة : من حيث مدلولها اللغوي تعني: القوم والصحب والأتباع والأعوان، وقد ورد هذا المعنى في بعض آيات القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿ **فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ [القصص: ١٥] .

وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لإِبْرَاهِيمَ** ﴾ [الصافات: ٨٣] .

فلفظ الشيعة في الآية الأولى تعني القوم، وفي الثانية: تشير إلى الأتباع الذين

---

(١) الصحاح للجواهري، ولسان العرب: « شيع » .

(٢) المصباح المنير :« شيع » .

يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما [١] .

أولاً : تعريف الشيعة اصطلاحاً :

كلمة « شيعة » اتخذت معنى اصطلاحياً مستقلاً حيث أطلقت على جماعة اعتقدوا أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي ترجع إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل إنها ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة، بل يجب عليه أن يعين الإمام للأمة [٢] .

فقد قال أبو الحسن الأشعري في صدد ذكره للشيعة : « وإنما قيل لهم الشيعة : لأنهم شايعوا علياً رضي الله عنه، ويقدمونه على سائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » [٣] .

وقال عبد الرحمن بن خُلدون : « اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعًا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض نظر الأمة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوماً من الكبائر والصغائر، وإن علياً رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السُّنَّة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة » [٤] .

ثانياً : تعريف الرافضة :

الرفـض لغـة: الترك وقد رفضه يرفضه رفضاً .

قال الأصمعي: « سموا بذلك لتركهم زيد بن علي رضي الله عنه » [٥] . [٦] .

---

(١) المصباح المنير (جـ١ ـ ٣٢٩) .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون، ص (١٩٦ ـ ١٩٧).

(٣) مقالات الإسلاميين (جـ١ / ٦٥).

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص (١٦٩ ـ ١٩٧).

(٥) الصحاح للجوهري، (جـ٢ / ١٠٧٨)، لسان العرب (جـ٧ / ١٥٧) : « رفض » .

(٦) هو : زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم .

فالرفض في اللغة معناه : الترك والتخلي عن الشيء.

وأما في الاصطلاح: هم قوم من الشيعة سموا بذلك، لأنهم تركوا زيد بن علي.

قال الأصمعي: «كانوا بايعوه ثم قالوا له: ابْرأ من الشيخين نقاتل معك، فأبى، وقال: كانا وزيرَيْ جدَّي فلا أبْرَأ منهما، فرَفَضُوه، وانْفَضُّوا عنه فسُموُا رافضة» [١] .

قال عبد الله بن أحمد رحمه الله: قلت لأبي: «من الرافضي ؟ قال: الذي يشتم ويسب أبا بكر وعمر» [٢] .

ثالثاً: سبب تسميتهم بهذا الاسم :

عندما خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ على هشام ابن عبد الملك كان في جيشه من يشتم أبا بكر وعمر فمنعهم، فرفضوه، ولم يبق معه إلا مئتا فارس، فقال لهم - أي زيد بن علي -: رفضتموني، قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم [٣] ، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومئة.

يقول ابن كثير - رحمة الله - في صدد بيانه ما حدث في هذه السنة :

« فيها كان مقتل زيد بن عليّ بن الحسين ابن عليّ بن أبي طالب، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة أمرهم في أول هذه السُّنَّة بالخروج والتأهب له، فشرعوا في أخذ الأهبة لذلك، فانطلق رجل يُقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره - وهو بالحيرة يومئذ - خبر زيد ابن علي هذا ومن معه من أهل الكوفة فبعث يوسف ابن عمر يتطلبه ويلح في طلبه، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن علي فقالوا له : ما قولك - يرحمك الله - في أبي بكر وعمر ؟ فقال: غفر الله لهما ما سمعت

---

(١) لسان العرب (جـ٧/١٥٧) .

(٢) مناقب الإمام أحمد بن الجوزي، ص (١٦٥) .

(٣) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص (٥٢) .

أحداً من أهل بيتي تبرأ منهما، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً، قالوا: فلم تطالب إذاً بدم أهل البيت؟ فقال: إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً، وقد وُلّو فعدلوا وعملوا بالكتاب والسُّنَّة، قالوا: فلم تقاتل هؤلاء إذاً؟ قال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم، وإني أدعو إلى كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ وإحياء السُنن وإماتة البدع، فإن تسمعوا يكن خيراً لكم ولي، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل، فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه، فلهذا سموا الرافضة من يومئذٍ»[1].

وبهذا يتبين سبب تسميتهم بالرافضة، لرفضهم زيد بن علي الذي منعهم من سب الشيخين رضي الله عنهما، وأصبحت كلمة الرافضة تطلق على كل من غلا في مذهب الشيعة وأجاز الطعن في الصحابة.

رابعاً: بداية نشأة التشيع:

تذكر كتب التاريخ أن أول من زرع فكرة التشيع في الأمة رجل يهودي يُقال له عبد الله بن سبأ أظهر الإسلام للطعن فيه، وكان ذلك زمن الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتنقل ابن سبأ بين المدينة والبصرة والكوفة ومصر والشام، والتف حوله المفسدون والحاقدون من المنافقين والجهال بحقيقة الدين.

ونشط ابن سبأ المعروف بابن السوداء في بث فكرتين أساسيتين لأهدافه اليهودية هما:

الأولى: دعوته إلى اعتقاد رجعة النبي ﷺ وكان يقول: «عجباً ممن يزعم أن عيسى سيرجع ويكذب بأن محمداً سيرجع، وقد قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ**﴾ [القصص: ٨٥].

الثانية: دعوته إلى اعتقاد «أن لكل نبي وصياً وعلي وصي لمحمد، ومحمد

---

(١) البداية والنهاية (جـ٩ / ٣٧٠ - ٣٧١)

خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء، ومن أظلم ممن يمنع وصية رسول الله ﷺ ووثب على حق وصيته وتناول أمر الأمة».

وأرسل ابن سبأ أصحابه وأتباعه في الأمصار ليكتبوا ظلماً وزوراً وبهتاناً للطعن فى الولاة، وينسبوا ذلك لخليفة المسلمين وحثهم على الظهور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يلتف حولهم العوام، وزوروا رسائل نسبوها إلى عثمان رضي الله عنه للدس والوقيعة بين الأمة وخليفتها وولاتها.

وهيج الأمصار واستجاب أهل البصرة والكوفة ومصر لأهدافه القريبة، وكان من نتائج دسائسه قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه بغير حق ظلماً وعدواناً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - مبيناً أن ابن سبأ أول من أحدث الرفض والغلو المذموم ، قال: «وأصل الرفض من المنافقين والزنادقة فإنه ابتدعه ابن سبأ الزنديق وأظهر الغلو في علي بدعوى الإمامة والنص عليه وادعى العصمة له» (١).

وذكر أيضاً: «أن ابن سبأ المنافق الزنديق أراد فساد دين الإسلام، وأراد أن يصنع بالمسلمين ما صنع بولس بالنصارى لكن لم يتأت له ما تأتى لبولس لضعف النصارى وعقلهم، فإن المسيح عليه السلام رُفِعَ ولم يتبعه خلق كثير يعلمون دينه ، ويقومون به علماً وعملاً، فلما ابتدع بولس ما ابتدع من الغلو في المسيح تبعه على ذلك طوائف أحبوا الغلو في المسيح، فقام أهل الحق فخالفوهم وأنكروا عليهم فقتلت الملوك بعضهم، وبعضهم اعتزلوا في الصوامع والأديرة، وهذه الأمة ولله الحمد لايزال فيها طائفة ظاهرة على الحق، فلا يتمكن ملحد ولا مبتدع من إفساده بغلو أو انتصار على الحق، ولكن يضل من يتبعه على ضلاله» (٢).

ولوضوح خبثه وكيده وشدة حقده على الإسلام والمسلمين لم يذكره أحد من

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية(جـ٤ / ٤٣٥) .

(٢) منهاج السنة(جـ٣ / ٢٦١) .

أهل الإيمان بخير، وإنما وصفوه بأنه أول من سن لأهل الخذلان النيل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ووصفوه بالخبث والكذب والنفاق والزندقة وبأنه ضال مضل.

ذكر ابن حجر من طريق أبي إسحاق الفزاري: أن سويد بن غفلة دخل على عليّ في إمارته، فقال إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر ويرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، فقال علي: ما لي ولهذا الخبيث الأسود، ثم قال: معاذ الله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبداً، ثم نهض إلى المنبر حتى اجتمع الناس، ثم أثنى على الشيخين ثناءً طويلاً، وقال في آخره: «ألا ولا يبلغني عن أحد يفضلني عليهما إلا جلدته حد المفتري» [١].

وتذكر بعض الروايات أن علياً رضي الله عنه هم بقتله ودعا بالسيف، فكلم فيه، فقال: لا يساكنني ببلد أنا فيه، قال: فسيره إلى المدائن [٢].

وذكر ابن عساكر بإسناده إلى أبي الجلاسي قال: سمعت علياً يقول لعبد الله السبئي: «ويلك والله ما أفضى إليّ بشيء كتمه أحد من الناس وقد سمعته يقول: إن بين يدي الساعة ثلاثين كذاباً وإنك لأحدهم» [٣].

فعلي رضي الله عنه حكم على ابن سبأ بأنه خبيث، وَهَمَّ بقتله ولما تراجع عن قتله نفاه إلى المدائن، وبين بأنه أحد الدجالين.

وقال الحافظ الذهبي في شأن ابن سبأ: «عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة ضال مضل أحسب أن علياً حرقه بالنار، وزعم أن القرآن جزء من تسعة أجزاء وعلمه علي فنفاه عليّ بعد ما هم به» [٤].

---

(١) **انظر**: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص (١٠٠-١٠١).
(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (جـ ٣٤/٧).
(٣) المصدر السابق (جـ ٣٤/٦).
(٤) ميزان الاعتدال (٢/٤٢٦).

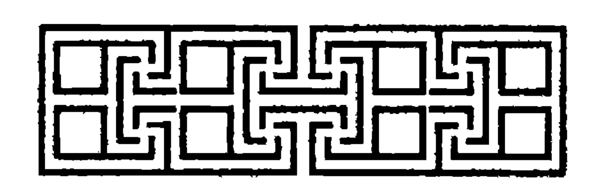
وقال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد روايات في ذمه :

« وأخبار عبد الله بن سبأ شهيرة في التواريخ وليست له رواية ولله الحمد وله أتباع يُقال لهم السبئية يعتقدون إلهية علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته » (١) .

قلت : والحرق بالنار منهي عنه شرعاً ، كان يكفي قتلهم بالسيف .

وبذلك يتضح للقارئ الكريم أن ابن سبأ اليهودي هو أول من زرع فكرة التشيع وقال بالرجعة والوصية وتلقفها عنه أتباعه وبعض من قلَّتْ بضاعتهم من العلم والهدى (٢) .

والدارس للتاريخ يتضح له أن الأمة في هزاتها العنيفة يكون سببها رجال حاقدون على الإسلام، ويُتْقِنون دور التخفي بين أوساط المسلمين ولا يكلون ولا يملون من بذر ونشر أفكارهم الشيطانية المناهضة للعقيدة الإسلامية المنبثقة من كتاب الله وسُنَّة النبي ﷺ .



(١) لسان الميزان (٣/١٢٢،١٢٣).

(٢) ابن سبأ حقيقة لا خيال (سعدي الهاشمي).

المبحث الثاني

التعريف بأهم فرق الشيعة

إن علماء الفرق صنفوا كتباً كثيرة في فرق الشيعة ورأيت في بحثي هذا أن أذكر أسماءها ولا أتعرض بالتفصيل منها إلا للباطنية لكونها حكمت الشمال الإفريقي، والاثنى عشرية لكونها لها دولة حالياً تقوم بنشر ودعم المذهب الشيعي، وللنصيرية لكونها تحكم سوريا منذ بداية السبعينات حتى الآن،**ومن فرق الشيعة التي ذكرها علماء الفرق:**

السبئية، والغرابية، والبياتية، والمغيرية، والهاشمية، والخطابية، والعلبائية والكيسانية، والزيدية الجارودية، والسليمانية، والصالحية، والبترية، وبعض هذه الفرق غالت غلواً عظيماً والبعض الآخر أقل غلواً، ومن أراد الاستزادة فليراجع مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والملل والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفِرق، لأبي الطاهري البغداي.

أولاً: النصيرية:

وتعتبر هذه الفرقة من غلاة الشيعة وينتسبون إلى محمد بن نصير النميري وقد انبثقت هذه الفرقة من الاثنى عشرية «الرافضة» وغالوا في علي بن أبي طالب ﷺ حتى ألَّهوه.

واشتهرت هذه الفرقة بحرب الإسلام والمسلمين وبمناصرة النصارى الحاقدين والوقوف مع التتار المفسدين، كما اشتهرت بالإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ عن مواضعه، وإليك ما قال شيخ الإسلام عن النصيرية في إجابته عن سؤال عنهم: «الحمد لله رب العالمين، هؤلاء القوم المتسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى، بل

وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جُهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين، يتأولونه على أمور يفترونها يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه» إلى أن قال: «ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائماً مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين .

فهؤلاء المعادون لله ورسوله كثروا حينئذٍ على السواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإن أحوالهم السيئة كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كـ: نور الدين الشهيد، وصلاح الدين وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى، وممن كان بها منهم وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة، واتفقوا هم والنصارى، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد... ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم... ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين تارةً يسمون «الملاحدة» وتارة يسمون «القرامطة» وتارةً يسمون «الباطنية» وتارة يسمون «الإسماعيلية» وتارةً يسمون «الخرمية» وتارة يسمون «المحمرة».

وهذه الأسماء منها ما يعمهم ومنها ما يخص بعض أصنافهم ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصديق وسائر الصحابة ﷺ بدءوا بجهاد المرتدين قبل الكفار من أهل الكتاب ، فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك. ويجب على كل مسلم أن يقوم بذلك على حسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه عن أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله ورسوله... والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى » (١) .

وهذه الفرقة الخبيثة سمت نفسها في العصر الحاضر بالعلويين وفي فترة الاحتلال الفرنسي لبلاد الشام وقفت هذه الفرقة مع النصارى الغزاة الحاقدين، وما خرج الاستعمار الفرنسي حتى مكنهم من سوريا وعندما تقلدوا أمور البلاد انتقموا من أهل السُّنَّة انتقاماً تشيب منه الولدان وتضع كل ذات حمل حملها من شدة التعذيب، وزهق النفوس، واغتصاب العفائف الحرائر من نساء أهل السُّنَّة ، والزج بهن وبالرجال في السجون، ولا يزال هؤلاء الحاقدون يتقلدون أمر عاصمة بلاد الشام، نسأل الله أن يعجل بأخذهم ويمكن لأهل دينه وشريعته.

وهم ينتشرون في جبال اللاذقية،وحماة وحمص في سوريا وفي لواء الإسكندرونة وطرطوس وأدنة ، أو أظنه «في تركيا حالياً » وفي كردستان وغيرها (٢) .

---

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (جـ ٣٥/ ١٤٩-١٥٩) .

(٢) انظر : الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفاري ص (١٣٧) .

ومن عقائدهم الفاسدة :

[١] **تأليه الإمام علي بن أبي طالب** ﷺ :ويعتقدون أنه يسكن السحاب، والرعد صوته، والبرق ضحكه ، وهم لهذا يعظمون السحاب ، ومنهم من يعتقد أن علياً يسكن في القمر أو الشمس.

[٢] **تناسخ الأرواح** :عقيدة من عقائدهم ، فالذين لا يعبدون علياً يولدون – في زعمهم – من جديد على شكل إبل أو حمير، أما المؤمن « وهو من يعبد علياً عندهم » فيتحول عندهم سبع مرات ، ثم يأخذ مكانه بين النجوم، ومن ينحرف منهم يولد من جديد، حتى يتطهر ويكفر عن سيئاته [١] .

وغير ذلك من العقائد الفاسدة.

ولهم أعياد يحتفلون بها يقدمون فيها النبيذ ويرتكبون الفواحش وهي: عيد الغطاس، والبربارا، وهما عيدان نصرانيان وعيد « النيروز » وهو مجوسي [٢] .

ويعتبرون هذه الديانة الفاسدة سر من الأسرار، ونساؤهم لا دين لهن مطلقاً، لأنهم يعتبروهن ضعيفات العقول لا يستطعن حفظ الأسرار، والرجل لا يطلع على سر دينه إلا بعد أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره، فيلقن العقيدة النصيرية في جلسات خاصة ووسط مؤثرات شتى، وإرهاب فكري، وطقوس عجيبة، وتجد هذا فى كتاب « الباروكة السليمانية » لسليمان الأردني الذي كان نصيرياً ثم تنصر، فألف هذا الكتاب، ولا زال به أهله حتى أماتوه شر ميتة بإحراقه حياً [٣] .

والذي يجدر الانتباه له أن الدول النصرانية « أمريكا، بريطانيا، فرنسا . . إلخ » وإسرائيل يحرصون على طعن الأمة بهذه الخناجر المسمومة ، بتقويتها

---

(١)المصدر السابق، ص (١٣٨)

(٢)المصدر السابق، ص (١٣٩)

(٣)انظر : الموجز في الأديان والمذاهب لناصر العقل والقفازي، ص (١٤٠)

والوقوف معها حتى تصل إلى الحكم لعلمهم أن هذا المسلك من أفضل الوسائل في إضعاف أمة الإسلام ﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

[الأنفال : ٣٠] [١] .

ثانياً: الشيعة الاثنا عشرية :

ولهم أسماء كثيرة اشتهرت بين الناس منها : الإمامية لأنهم يقولون بوجوب الإمامة بالنص الظاهر والتعيين الصادق .

ويقول صاحب كتاب « أعيان الشيعة » إن هذا الاسم « لقب ينبذ به من يقدم علياً عليه السلام في الخلافة، وأكثر ما يستعمل للتشفي والانتقام » [٢] .

إلا أن الكليني الشيعي في كتابه الكافي وهو عمدة في مذهبهم بل أعظم كتاب عندهم ينزلونه منزلة صحيح البخاري عند أهل السنّة ساق ما يدل على أنهم راضون بهذا الاسم واللقب، ويكذبون على الله ويختلفون الإفك ويقولون إن الله خلع عليهم اسم الروافض [٣] والقوم اشتهروا بالوقاحة وعدم المبالاة بالافتراء على الله وعلى خلقه .

ومن الأسماء التي اشتهروا بها اسم « الاثنى عشرية » لقولهم واعتقادهم بإمامة اثنى عشر إماماً وهم على هذا الترتيب :

[١] أبو الحسن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٤٠هـ) .

[٢] الحسن بن عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه (ت ٥٠هـ) .

[٣] الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (ت ٦١هـ) .

[٤] عليّ زين العابدين بن الحسين بن علي (ت ٩٥هـ) .

---

(١) من أراد الزيادة عن النصيرية فليراجع تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة العلويون، أو النصيرية للعسكري، فتاوى ابن تيمية، (جـ ٣٥) .

(٢) أعيان الشيعة لمحسن الأمين، (جـ ١ / ٢٠) .

(٣) فروع الكافي (جـ ٨ / ٢٨) حديث رقم (٦) من كتاب الروضة .

[٥] محمد الباقر بن علي (ت ١١٤هـ).

[٦] جعفر الصادق بن محمد (ت ١٤٨هـ).

[٧] موسى الكاظم بن جعفر (ت ١٨٣هـ).

[٨] علي بن موسى الرضا (ت ٢٠٣هـ).

[٩] أبو جعفر محمد بن علي «الجواد» (ت ٢٢٠هـ).

[١٠] أبو الحسن علي بن محمد «الهادي» (ت ٢٥٤هـ).

[١١] أبو محمد الحسن بن علي «العسكري» (ت ٢٦٠هـ).

[١٢] أبو القاسم محمد بن الحسن «المهدي» (ت ٢٥٦هـ) (١).

هؤلاء هم الأئمة الإثنا عشر عند الشيعة الإمامية، والشيعة الإثنا عشرية يعتقدون في هؤلاء الأئمة اعتقادات كلها غلو وإطراء وضعوها من عند أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن معتقداتهم في أئمتهم: أنهم معصومون «من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكونوا معصومين من السهو والخطأ والنسيان، لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم من ذلك حال النبي» (٢).

ووصفوا أئمتهم بصفات جاوزوا فيها المنقول والمعقول، فعلى سبيل المثال ما ذكره الكليني في كتابه الكافي المسمى عندهم «أصول الكافي» حيث إنه عقد أبواباً أورد فيها أحاديث من إفكهم وزورهم كلها تضمنت غلوهم في أئمتهم.

وإليك بعض عناوين تلك الأبواب:

«باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه» (٣)، «باب أن الأئمة هم أركان

---

(١) **انظر**: عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر، ص (٦٢-٦٣).

(٢) عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر، ص (٥١).

(٣) الأصول من الكافي (جـ١/١٩٢).

الأرض »[١] ، « باب أن الأئمة عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عز وجل، وأنهم يعرفونها على اختلاف أدلتها »[٢] ، « باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة »[٣] ، « باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل »[٤] ، « باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم »[٥] ، « باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيء »[٦] ، « باب أن الله لم يعلم نبيه علماً إلا أمر أن يعلمه أمير المؤمنين وأنه شريكه في العلم »[٧] ، « باب أن الأئمة لو ستر عليهم لأخبروا كل امرئ بما له وعليه »[٨] ، « باب أن الإمام يعرف الإمام الذي يكون بعده »[٩] ، « باب في أن الأئمة إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البيئة »[١٠] ، « باب أنه ليس شيء من الحق في أيدي الناس إلا ما خرج من عند الأئمة وأن شيئاً لم يخرج من عندهم فهو باطل »[١١] .

وهكذا أخي القارئ:

تجد الغلو الممقوت عند علماء الاثنى عشرية فإذا راجعت « مرآة العقول » للمجلسي وجدته في مستنقع الغلو الآسن وقع حيث زعم أن عصمة الأئمة فوق عصمة الأنبياء، لأنهم أعلى درجة منهم[١٢] وأما إمامهم المعاصر، ومرجعهم الأعلى، وآيتهم العظمى، وهو ما يعرف بزعيم الثورة الإيرانية فيحتاج إلى شيءٍ من البيان والإيضاح لالتباس الأمر على شباب السُّنَّة ، بل حتى على بعض

---

(١) المصدر السابق(جـ ١ /١٩٦) .
(٢) المصدر السابق(جـ ١ /١٢٧) .
(٣) المصدر السابق(جـ ١ /٢٢٨) .
(٤) المصدر السابق(جـ ١ /٢٥٥) .
(٥) الأصول من الكافي(جـ ١ /٢٥٨) .
(٦) المصدر السابق(جـ / ٢٦٠١) .
(٧) المصدر السابق(جـ ١ /٢٦٣) .
(٨) المصدر السابق(جـ ١ /٢٦٤) .
(٩) المصدر السابق(جـ ١ /٢٧٦) .
(١٠) المصدر السابق(جـ ١ /٢٩٧) .
(١١) المصدر السابق(جـ ١ /٣٩٩) .
(١٢) **انظر** : مرآة العقول للمجلسي(جـ ٢ /٢٨٩) .

دعاتهم وبعض علمائهم الذين انخدعوا بشعارات الشيعة البراقة لكسب أهل السُّنَّة غير مبالين بعهود قطعوها ، ومواثيق ألزموا بها أنفسهم، بل غدروا بهم في إيران وقتلوهم وسجنوهم، وهدموا بيوتهم، فإذا رجعت كتاب «وجاء دور المجوس» (١) رأيت العجب العجاب في أعمالهم الشنيعة وأقوالهم القبيحة حيث إن الكاتب أجاد في كشفهم وفضحهم وبين عوراتهم ووسائلهم في التستر وعلاقتهم ببقية فرق الشيعة في قوفهم سداً منيعاً ضد أهل السُّنَّة .

إن الاثنى عشرية لم يحترموا عقلاً ولم يقدسوا شرعاً ولم يلتزموا نقلاً ولم يكرموا علماءهم ولا شيوخهم بعكس أهل السُّنَّة الذين أعطوا لهؤلاء الأئمة من الحق والتكريم وإنزالهم منزلتهم التي يستحقونها، ويعجبني في هذا المقام ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله تعالى مبيناً عقيدة أهل السُّنَّة فيهم: «فمولانا الإمام علي»: من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة ﷺ، نحبه أشد الحب، ولا ندعي عصمته، ولا عصمة أبي بكر الصديق، وأبناءه الحسن والحسين فسبطا رسول الله ﷺ وسيدا شباب أهل الجنة، ولو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر، من سادة العلماء العاملين يصلح للإمامة، وكذلك ابنه جعفر الباقر: سيد إمام فقيه يصلح للخلافة.

وكذلك ولده جعفر الصادق: كبير الشأن من أئمة العلم كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى: كبير القدر، جَيدُ العلم، أولى بالخلافة من هارون، وله نظراء في الشرف والفضل.

وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن له علم وبيان، ووقْعٌ في النفوس صيره المأمون ولي عهده لجلالته، فتوفي سنة ثلاث ومائتين

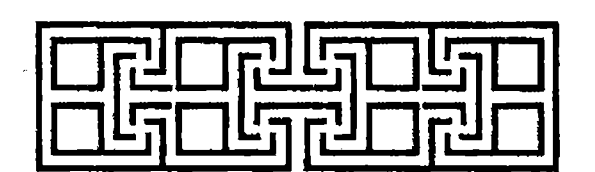
(١) اسم المؤلف : عبد الله محمد الغريب .

وابنه محمد الجواد: من سادة قومه، لم يبلغ رتبة آبائه في العلم والفقه.

وكذلك ولده الملقب بالهادي: شريف جليل.

وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري، رحمهم الله تعالى [١].

وأما الإمام الثاني عشر فقال فيه: «ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة وأنه صاحب الزمان، وأنه صاحب السرداب بسامراء، وأنه حي لا يموت حتى يخرج فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، فوددنا ذلك - والله - وهم في انتظاره من أربعمائة وسبعين سنة [٢] ومن أحالك على غائب لم يُنْصِفْكَ، فكيف بمن أحال على مستحيل؟ والإنصاف عزيز، فنعوذ بالله من الجهل والهوى» [٣].



(١) سير أعلام النبلاء (جـ١٣/ ١٢٠-١٢١).

(٢) المراد زمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ.

(٣) سير أعلام النبلاء (جـ١٣/ ١٢٠).

استمرار الإثنى عشرية في العصر الحاضر

الإمام الشيعي في العصر الحاضر ودولته التي أقامها

تفاعل العالم الإسلامي مع المد الشيعي بعد وصوله إلى مقاليد الحكم في إيران، وإزاحة الشاة المخلوع، واستطاعت وسائل إعلام الاثنى عشرية أن تخدع كثيراً من المسلمين في طرحهم المعاصر، وساندتها أجهزة الإعلام الغربي، وأجاد الإمام الخميني في تمثيل الدور الماكر فتعاطف كتّاب وصحفيون ودعاة محسوبون على أهل السُّنَّة في تمجيد الخميني ووصفه بأنه من المجددين، بل يسير في موكب المصلحين من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، وعبد الحميد بن باديس، ومحمد بن علي السنوسي وحسن البنا..

وبما أن تلك المقالات والكتابات أصبحت في ذاكرة التاريخ ، وتكون سبباً في تضييع الحقائق لأجيال المسلمين رأيت من النصح للأمة وأبنائها أن أبين أن الخميني امتداد لمدرسة الاثنى عشرية الشيعية ، ذات العقائد الفاسدة والمنحرفة عن هدى الله ، وأن ثورته وجمهوريته الإسلامية المزعومة جيء بها لتكون خنجراً مسموماً لكل محاولة جادة لتطبيق الإسلام الصحيح ، بل أتيحت للثورة الإيرانية الفرصة أمام العالم لتشويه الإسلام الصافي النقي ، الذي جاء به محمد ابن عبد الله ﷺ .

ولكون الدولة الإيرانية امتدت في العالم الإسلامي ناشرة للعقائد الفاسدة في إفريقيا وآسيا وجمهوريات الاتحاد السوفيتي والشمال الإفريقي، وأوربا وأستراليا وأمريكا، وتأثر بها كثير من عوام المسلمين الذين لا يملكون فهماً ولا علماً ولا إطلاعاً بحقيقة أمرهم، ومرمى أهدافهم، ورأيت من المناسب أن أبين عقائد هذا القديس المزعوم «الخميني ومن جاء بعده»، حتى نحذر الأجيال من هذه المدرسة الشيطانية التي نخرت بنيان الأمة، ولاتزال تنخر بدون كلل ولا ملل.

ومن عقائد الإمام الخميني الفاسدة ما ذكره في كتابه الحكومة الإسلامية:

« وأن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وقد ورد عنهم: أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل » (١) .

فهذا اعتراف واضح في كونه يفضل أئمة الاثنى عشرية على الأنبياء والرسل، وهذا مذهب غلاة الروافض في حكم كبار أئمة السُّنَّة .

يقول عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩ هـ): « وزعمت الغلاة من الروافض أن الأئمة أفضل من الأنبياء ونعلم أن هذا باطل » (٢) .

يقول القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ): « وكذلك نقطع بتكفير غلاة الروافض في قولهم أن الأئمة أفضل من الأنبياء » (٣) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): « والرافضة تجعل الأئمة الاثنى عشرية أفضل من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وغلاتهم يقولون إنهم أفضل من الأنبياء » (٤) .

ويقول محمد بن عبد الوهاب: « ومن اعتقد في غير الأنبياء كونه أفضل منهم أو مساوياً لهم فقد كفر،وقد نقل على ذلك الإجماع غير واحد من العلماء »(٥) .

إن الخميني مرجعه في المعتقد والتصور الشيعي، شيوخه الذين سبقوه ووضعوا هذا المنهج المنحرف فهو يعظم ويقدس كتاب الكافي للكليني والاحتجاج للطبرسي وغيرها، وترحم في كتبه على المجوسي حسين النوري

---

(١) الحكومة الإسلامية للخميني ص(٥٢) .

(٢) أصول الدين، ص(٢٩٨) .

(٣) الشفا، جـ٢ / ٢٩٠ .

(٤) منهاج السنة جـ١ / ١٧٧ .

(٥) الرد على الرافضة ص(٢٩) .

الطبرسي صاحب كتاب « فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب » وتجده يوثق كتاباً حوى « دعاء علي على صنمي قريش » وهما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيه وصف الشيخين اللذَيْن حرفا كتابك [١] وله تفسير باطني في بعض الآيات مثلاً في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ .

[النساء: ٥٨].

فقد أمر الله الرسول ﷺ برد الأمانة أي الإمامة إلى أهلها وهو أمير المؤمنين عليّ وعليه هو أن يردها إلى من يليه وهكذا.. » [٢] .

وأما اعتقاده في الصحابة: فإن معتقد الاثنى عشرية لا ولاية إلا بالبراءة من أعدائهم وهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فالخميني يرى مشروعية التبرؤ من هؤلاء الأخيار والتولي للاثنى عشر في الصلاة، فيذكر أن المصلي يشرع له أن يقول في سجوده: « الإسلام ديني ومحمد نبيي وعلي والحسن والحسين – تعدهم إلى آخرهم – أئمتي بهم أتولى ومن أعدائهم أتبرأ » [٣] .

ويطعن في الصحابة لمخالفتهم النص المزعوم على إمامة علي يقول: وفي غدير خم في حجة الوداع عينه – يعني علياً – النبى ﷺ حاكماً من بعده، ومن حينها بدأ الخلاف يدب إلى نفوس القوم » [٤] .

وكتابه الحكومة الإسلامية وغيرها من كتبه مليئة بالانحراف عن الصراط المستقيم فالخميني لا يختلف في اعتقاده عن الرافضة إن لم يكن أشد غلواً وشططاً، ونشط الخميني قبل وفاته محاولاً بسط سلطان الشيعة على شعبه

---

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة(جـ ٢ / ٢٣٧) .

(٢) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة(جـ ٢ / ٢٣٧) واستفدت من هذا الكتاب في هذا الفصل.

(٣) الخميني « تحرير الوسيلة »(جـ ١ / ١٦٩) .

(٤) الحكومة الإسلامية ص(١٣١) .

بالقوة، وقامت دولته بتصدير الثورة كما يقولون، واعتمدت الشيعة على المراوغة والكذب والتضليل، وهؤلاء الجدد لا يختلفون عن شيعة الأمس في المراوغة والكيد، وفي الغلو أيضاً.

ويعتمدون على مبدأ التُقية في جلب الناس حولهم،**وإليك ما قاله الخميني لأتباعه في أحد خطاباته :** «لا تبعدوا الناس عنكم الواحد تلو الآخر، لا تكيلوا التهم لهم بالوهابية تارة، وبالكفر تارة أخرى، فمن يبقى حولكم إذا عمدتم إلى ممارسة هذا الأسلوب (١) .

ولهذا أمر الخميني الحجاج الإيرانيين بأن يصلوا مع أهل السُّنَّة تقية منهم وخداعاً للناس، كما كان يفعل قادة الشيعة، حينما كانوا يصلون خلف أهل السُّنَّة أحياناً ثم يعيدون صلاتهم بعد ذلك، كما صرح بهذا أحد علماء الشيعة المعاصرين، ولقد بلغ الحقد الشيعي على المسلمين، وخصوصاً أهل السُّنَّة في عصرنا الحاضر إلى حد الاستهتار بدماء المسلمين وأعراضهم وتهديد أمنهم في بيوتهم، ولعل ما فعلوه في مكة في حج١٤٠٧هـ أقوى شاهد على حقدهم ونظرتهم للمخالفين لهم، حينما تظاهر في حرم الله بمكة ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً منهم، وهجموا يريدون الكعبة، وتجمعوا في مظاهرات غوغائية، وكانوا يهدفون إلى تحقيق مخطط رهيب رافعين شعاراتهم وصور زعيمهم الخميني، وتقدموا رجالاً ونساءً يريدون الحرم، لولا أن الله تعالى بفضله ومنهّ أفشل مخططهم وحيل بينهم وبين دخول الحرم واشتبكوا مع المسلمين والجنود وبقية الحجاج في مذبحة عظيمة، وأوعزوا إلى أتباعهم وعملائهم في حج عام ١٤٠٩هـ بعمل متفجرات حول الحرم المكي الشريف فييوم ٧ من ذي الحجة وراح ضحيتها حجاج أبرياء جاؤوا لأداء فريضة الحج» (٢) .

---

(١) فرق معاصرة للعواجي جـ ١ / ٢٦٢) .

(٢) فرق معاصرة للعواجي جـ ١ / ٢٦٣) .

وأما عن تعذيبهم لأهل السُنَّة في إيران فذكر عبد الله محمد الغريب في كتابه أهل السُنَّة في إيران أنواعاً وأشكالاً وأهوالاً من التعذيب والتنكيل والقتل والاغتصاب، **وإليك بعض أساليب الاضطهاد والتعذيب والتقتيل التي اتخذها أولئك الأشرار تجاه أهل السُنَّة في إيران :**

﴿ ١ ﴾ ربط الأرجل بالحبال وضربها بالأسلاك.

﴿ ٢ ﴾ ربط الأيدي من وراء، ووضع المسجون في زاوية من السجن، وصب الماء أو النفط تحته، فعلوا هذا مع عدد من المسلمين.

﴿ ٣ ﴾ ربط المسجون وضربه في المواضع المختلفة من جسده من عشر إلى مائة وخمسين ضربة، فإن مات فذلك، وإلا استمروا على هذا الحالة مدة خمسة عشر يوماً.

﴿ ٤ ﴾ يضعون المسجون في الإصطبل ويتركونه إلى أن يموت.

﴿ ٥ ﴾ ومن أنواع التعذيب سلخ جلد الرأس وثقبها وثقب العين بالمثقب وإحراق الأسير حياً وتقطيع الأعضاء وقلع الأظفار [١].

وهذا قليل من كثير إنهم يبغضون الصحابة ويشككون في القرآن ويطعنون في السُنَّة ، فماذا ننتظر منهم ؟!.

هل يمكن التقريب بين أهل السُنة والشيعة؟! :

إن كل محاولات التقريب بين السُنَّة والشيعة باءت بالفشل لأن الخلاف بيننا وبينهم في الأصول وليس في الفروع ، ولن يجتمع السُنَّة والشيعة إلا إذا تخلى أحد الطرفين عن معتقده.

فأي علماء يرون التقريب مع أهل الشيعة ، عندما يُشتم أهل السُنَّة الصحابة ويعتقدون معتقداتهم الباطلة، وهذا ما خرج به الشيخ الدكتور مصطفى

---

(١) أهل السنة في إيران. ص (٥٤).

السباعي من تجربته في هذا الموضوع مع أحد شيوخ الشيعة، واسمه عبد الحسين شرف الدين الموسوي حيث إن الدكتور السباعي كان متحمساً لفكرة التقريب واتصل بسياسيين وأدباء وتجار، وأعطوه عهوداً وكلاماً معسولاً وعلى رأسهم الشيخ الشيعي عبد الحسين الذي كان متحمساً ومؤمناً بها، وإذا بالشيخ الموسوي يخرج كتاباً في أبي هريرة ﷺ مليء بالسباب والشتائم، بل انتهى فيه إلى القول: «بأن أبا هريرة ﷺ كان منافقاً كافراً ، وأن الرسول قد أخبر عنه بأنه من أهل النار» [١] .

يقول السباعي: «لقد عجبت من موقف عبد الحسين في كلامه، وفي كتابه معاً، ذلك الموقف الذي لا يدل على رغبة صادقة في التقارب ونسيان الماضي[٢] .

وإن أهداف الشيعة من مسألة التقريب: أن يفُتح لهم مجال لنشر عقائدهم في ديار السُّنَّة ، وأن يستمروا في طعن الصحابة الكرام، وأن يسكت أهل السُّنَّة عن بيان الحق وإن سمع الروافض صوت الحق يعلو ماجوا وهاجوا قائلين إن الوحدة الإسلامية في خطر.

تجربة الشيخ موسى جار الله :

إن موسى جار الله من تركستان فازاني روسي، وصل إلى منصب شيخ مشايخ روسيا، كان في نهاية العهد القيصري، وبداية الحكم السوفيتي الملحد صاحب الكلمة الأولى والأخيرة في أمور مسلمي روسيا الذين كانوا يزيدون عن الثلاثين مليون نسمة، ثم هَبَّ عليه إعصار الشيوعية فأصبح بعيداً عن دياره وأهله، له تأليف ورسائل وكتب، تنقل بين الهند والحجاز ومصر والعراق وإيران، قال عن نفسه: «كان بوسعي أن أغدو كاتب روسيا الأول وأحد زعماء الطليعة فيها لو أنني تخليت عن إيماني، ولكنني آثرت أن أشتري الآخرة بالدنيا...» [٣] .

(١) السنّة ومكانتها في التشريع للسباعي (ص ٩).
(٢) المصدر السابق (ص ١٠).
(٣) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ ٢ / ٢٠١).

وهذا العالم الجليل مُلم بلغات متعددة منها الفارسية، والتركية، والتترية، والروسية، وتضلع في اللغَة العربية، وتعلم أصولها وصرفها ونحوها وبيانها وقريضها، فلا تكاد تذكر أمامه مادة من مواد اللغة إلا أجابك على الفور عما إذا كانت وردت في القرآن أم لا، وكم مرة وردت وفي أي سورة، لأنه مستظهر أتم الاستظهار (١) .

فحاول هذا العالم الجليل أن يجمع شمل الأمة، وأن يوحد أهل السُّنَّة والشيعة وبذل جهوداً في هذا الجانب عظيمة، فبدأ بدراسة كتب الشيعة وطالعها باهتمام كما يذكر أنه طالع «أصول الكافي وفروعه» و«من لا يحضره الفقيه» وكتاب «الوافي» و «مرآة العقول» و «بحار الأنوار» و «غاية المرام» وكتباً كثيرة غير هذه الكتب (٢) .

ثم زار ديار الشيعة، وعاش فيها أكثر من سبعة أشهر يزور معابدها ومشاهدها ومدارسها، ويحضر محافلها وحفلاتها في العزاء والمآتم، ويحضر حلقات الدروس في البيوت والمساجد وصحونها، والمدارس وحجرتها، وأقام بالنجف أيام المحرم، ورأى كل ما تأتي به الشيعة أيام العزاء ويوم عاشوراء.

وخرج هذا العالم الجليل بنتيجة علمية عملية وهي أن كتب الشيعة قد أجمعت على أمور لا تتحملها الأمة، واتفقت على أشياء كثيرة لا يرتضيها الأئمة ولا تقتضيها مصلحة الإسلام، وتناقض أكثر مصالح الأمة، ثم هي جازفت في مسائل كثيرة منكرة مستبعدة ما كان ينبغي وجودها في كتب الشيعة، ولا يظن بالأئمة اعتقادها (٣) ، ولا يتحملها العقل والأدب ودعوى الائتلاف وليست إلا كيراً ينفخ في ضرم العداء. وكلمة التوحيد توجب اليوم على

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي (جـ ٤ / ٢٦٦).

(٢) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ ٢ / ٢٠١).

(٣) الوشيعة في نقد الشيعة. ص (٢٠).

مجتهدي الشيعة نزاع تلك العقائد من الكتب لتجتث جذورها من القلوب.. وإلا فإن الكلمات هراء وأثر المؤتمرات عداء (١).

فرأى الشيخ ببصيرته النافذة وعلمه الغزير أن نقد عقائد الشيعة هو أول مرحلة من تأليف قلوب الأمة لا تأليف بدونها (٢).

وقد امتلأ الشيخ حسرة وألماً مما رآه من منكرات في كتب الشيعة وواقعها، وكان أول مساعيه في التقريب لقاؤه مع شيخ الشيعة محسن الأمين في طهران، وجرى بينهما بعض الحديث، ثم قدم له الشيخ موسى ورقة صغيرة كتب فيها ما يلي:

﴿ ١ ﴾ أرى المساجد في بلاد الشيعة متروكة مهملة وصلاة الجمعة فيها غير قائمة، والأوقات غير مرعية، والجمعة متروكة تماماً، وأرى المشاهد والقبور عندكم معبودة ما أسباب كل هذا؟

﴿ ٢ ﴾ لم أر فيكم لا بين الأولاد، ولا بين الطلبة، ولا بين العلماء من يحفظ القرآن، ولا من يقيم تلاوته، ولا من يجيد قراءته، أرى القرآن عندكم مهجوراً ، ما سبب سقوط البلاد إلى هذا الدرك الأسفل من الهجر والإهمال ، أليس عليكم أن تهتموا بإقامة القرآن الكريم في مكاتبكم ومدارسكم ومساجدكم؟

﴿ ٣ ﴾ أرى ابتذال النساء وحرمات الإسلام في شوارع مدنكم بلغ حدًّا لا يمكن أن يراه الإنسان في غير بلادكم.

وكان تاريخ تلك الرسالة ٢٦ / ٨ / ١٩٣٤م ثم أرسل رسالة إلى علماء النجف، وأرسل رسالة نفسها إلى علماء الكاظمية.

فكتب فيها: «أقدم هذه المسائل لأساتذة النجف الأشرف بيد الاحترام، بأمل

---

(١) مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ٢ / ٢٠٣).

(٢) الوشيعة في نقد الشيعة. ص (١٧).

الاستفادة، بقلب سليم صادق، كله رغبة في تأليف قلوب عالمي الإسلام [١] الشيعة الإمامية الطائفة المحقة - يعني على زعمهم -[٢] وعامة أهل السُّنَّة والجماعة راجياً إجابة الأساتذة جميعاً أو فرادى، كل ببيانه البليغ، بتوقيع يده مؤكداً بخاتمه ومهره»، ثم أورد في الرسالة ما في كتب الشيعة من أمور منكرة مشيراً إلى أرقام الصفحات في كل ما يذكره ،**فذكر عدة قضايا خطيرة في كتب الشيعة تحول بين الأمة والائتلاف مثل:**

[١] تكفير الصحابة.

[٢] اللعنات على العصر الأول.

[٣] تحريف القرآن الكريم.

[٤] حكومات الدول الإسلامية وقضاتها وكل علمائها طواغيت في كتب الشيعة.

[٥] كل الفرق الإسلامية كافرة ملعونة خالدة في النار إلا الشيعة.

[٦] الجهاد في كتب الشيعة مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل حرمة الميتة وحرمة الخنزير، ولا شهيد إلا الشيعة، والشيعي شهيد ولو مات على فراشه، والذين يقاتلون في سبيل الله من غير الشيعة فالويل يتعجلون.

ثم قال الشيخ بعدما نقل شواهد هذه المسائل من كتب الشيعة المعتمدة مخاطباً شيوخ الشيعة: هذه ست من المسائل، عقيدة الشيعة فيها يقين، فهل يبقى في توحيد كلمة المسلمين في عالم الإسلام أمل وهذه عقيدة الشيعة؟.

وهل يبقى بعد هذه المسألة، بعد هذه العقيدة، لكلمة التوحيد في قلوب أهليها من أثر، وهل يمكن أن يكون للأمم الإسلامية، ولهم هذه العقيدة في سبيل غلبة الإسلام في مستقبل الأيام من سعي؟ .

---

(١) **انظر**: مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة (جـ ١ [illegible]) .

(٢) الوشيعة في نقد الشيعة. ص (١٧) .

وذكر غير ذلك من المسائل في انحراف الشيعة ثم قال : « فتفضلوا أيها الأساتذة السادة بالإفادة حتى يتوحد الإسلام وتجتمع كلمة المسلمين حول كتاب الله المبين » فانتظر الشيخ سنة وزيادة، ولم يسمع جواباً من أحد إلا من كبير مجتهدي الشيعة بالبصرة، وما كان إلا طعناً في العصر الأول، وكان طعنه أشد من كتب الشيعة، ثم كتب الشيخ موسى جار الله كتابه القيم وسماه « الوشيعه في نقد عقائد الشيعة » ويقول: إنني أدافع بذلك عن شرف الأمة وحرمة الدين، وأقضي به حقوق العصر الأول عليّ وعلى كل الأمة [١] .

وتوفي هذا الشيخ الجليل بمصر سنة **١٣٦٩ هـ** فعليه من الله الرحمة والرضوان وجمعنا به من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وتعمدت هذا الإطناب لخطورة الدعوة الشيعية في العصر الحديث، حيث إنها تحالفت مع النصيرية في سوريا، ومع حزب أمل الشيعي في لبنان، وتحالفت سراً مع اليهود والنصارى للقضاء على هذه الأمة العظيمة، كما أني طالعت اهتمامهم البالغ بالشمال الإفريقي وغربه وحرصهم على إيصال نفوذهم إليه، والعمل على إرجاع ركامهم القديم.

ونجحوا في المغرب، وجندوا شباباً في الجزائر، وأثروا في تونس، وتحالفوا مع ليبيا في أهدافهم الاستراتيجية في حرب العراق.

بل تأكد وجود مجموعات لا يُستهان بها من أبناء الشمال الإفريقي في إيران للتتلمذ على شيوخهم والرجوع بأفكارهم المسمومة إلى بلاد الفاتحين العظام مراعين في ذلك السرية والتدرج ودقة التنظيم.

واستغلوا الأحداث الدامية في الجزائر بين الحكومة وإخواننا المسلمين، فأظهر الإعلام الإيراني عطفه وتأييده للحركة الإسلامية في الجزائر، فتأثر كثير من

---

(١) الوشيعة في نقد الشيعة ، (ص ٣٩) . من أفضل ما قرأت في هذا: مسألة التقريب رسالة جامعية اسمها مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة.

إخواننا بهذا الإعلام المزيف الماكر الخادع.

ومن أراد من أبناء الصحوة أن يوسع مداركه وثقافته في هذا الباب فيراجع ما كتبه الشيخ سعيد حوى - رحمة الله - «الخمينية شذوذ في العقائد والمواقف» وما كتبه أحمد عبد العزيز الحمدان «ما يجب أن يعرفه المسلم عن عقائد الروافض الإمامية».

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ . [القلم: ٤٤ - ٤٥].

ثالثاً: الشيعة الإسماعلية:

بعد موت الإمام جعفر بن محمد الصادق افترقت الشيعة إلى فرقتين: -

فرقة: ساقت الإمامية إلى ابنه موسى الكاظم، وهؤلاء هم الشيعة الاثنى عشرية.

وفرقة: نفت عنه الإمامة، وقالت: إن الإمام بعد جعفر، هو ابنه إسماعيل، وهذه الفرقة عرفت بالشيعة الإسماعيلية.

قال عبد القاهر البغدادي في شأن الإسماعيلية: «وهؤلاء ساقوا الإمامة إلى جعفر وزعموا أن الإمام بعده ابنه إسماعيل» [١].

وقال الشهرستاني: «الإسماعيلية امتازت عن الموسوية وعن الاثنى عشرية بإثبات الإمامة لإسماعيل بن جعفر وهو ابنه الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر».

قالوا: ولم يتزوج الصادق رضي الله عنه على أمة - أم إسماعيل - بواحدة من النساء، ولا تسرى بجارية كسُنَّة رسول الله ﷺ في حق خديجة رضي الله عنها، وكسُنَّة

---

(١) الفرق بين الفرق ص (٢٦).

علي رضي الله عنه في حق فاطمة رضي الله عنها [١] .

فالإسماعيلية إحدى فرق الشيعة : وهي تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ولهم ألقاب كثيرة عرفوا بها غير لقب «الإسماعيلية» منها الباطنية!، وإنما أطلق عليهم هذا اللقب لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ويطلق عليهم القرامطة والمزدكية، وقد عرفوا بهذين اللقبين في بلاد العراق، ويطلق عليهم في خراسان التعليمية والملحدة ، وهم لا يحبون أن يعرفوا بهذه الأسماء، وإنما يقولون: نحن الإسماعيلية لأنا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم [٢] .

[أ] خطر المذهب الباطني على الأمة:

اعلم أخي الكريم : أن المذهب الباطني من الأسباب التي أضعفت الأمة، وأنهكت قواها، لقد أدخل أهله عقائد فاسدة مبنية على الفلسفة القديمة، والأصول الإلحادية، فخدعوا ضعاف العقول، والذين لا حظ لهم من المنهج الرباني القويم، وتحالفوا مع النصارى والتتار ضد الإسلام والمسلمين. وعندما قوت شوكتهم وأقاموا دولة البحرين فعلوا ما تقشعر منه الجلود، وتشيب منه الرءوس من قتل وسفك ونهب واغتصاب.

بل تجرءوا على حجيج بيت الله الحرام، ففعل أبو طاهر الجنابي بالحجيج أفاعيل قبيحة، فدفن منهم في بئر زمزم الكثير، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم، وفي المسجد الحرام.

وعندما أقاموا دولتهم في الشمال الإفريقي أظهروا عقائدهم الفاسدة، وقتلوا العلماء، وأذلوا أهل السُّنَّة ، وهذا ما سوف تعرفه، لأنه من صميم البحث.

---

(١) الملل والنحل (١ / ١٩١) .
(٢) المصدر السابق (١ / ١٩٢) .

إن العلامة البغدادي أوجز عداوة الفرق الباطنية للإسلام والمسلمين فقال:

« اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس ، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر آخر الزمان، لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال من وقت ظهوره، لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها عن أربعين يوماً، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر » [١] .

وذكر ابن كثير أعمالهم التي قادها أبو طاهر الجنابي الباطني حين وصل مكة فقال: « فانتهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها ، وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبو طاهر لعنه الله على باب الكعبة والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام، في الشهر الحرام ، في يوم التروية الذي هو من أشرف الأيام وهو يقول »:

أنا الله وبالله أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً، بل يقتلون، وهم كذلك ويطوفون فيقتلون وهم في الطواف.. إلى أن قال: « فلما قضى القرمطي لعنه الله أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثيراً منهم في أماكنهم من الحرم وفي المسجد الحرام، وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها وشققها بين أصحابه.. » [٢] ، وقد حدد بعض العلماء عدد من قتل بثلاثة عشر ألف نسمة وقيل: زهاء ثلاثين ألفاً [٣] وكان ذلك سنة ٣١٧ هـ .

---

(١) الفرق بين الفرق ص (٣٨٢).

(٢) البداية والنهاية (جـ ١١ / ١٦٠).

(٣) كشف أسرار الباطنية ص (٣٩) ، سير أعلام النبلاء (١٥ / ٣٢١).

وأما متى ظهر مذهب الباطنية فاختلف العلماء في ذلك فبعضهم قال سنة **٢٠٥هـ**، والبعض الآخر يرى **سنة ٢٥٠ هـ**، ونتيجة السرية المفروضة على أتباع المذهب يتعذر التحديد الدقيق لزمن ظهورهم وإن كانت أقوال العلماء تترجح ما بين سنة **(٢٠٠ هـ - إلى ٢٥٠هـ)** أي بعد انتشار الإسلام وإعزاز أهله، وانطفاء نار المجوسية واندحار اليهودية، واندثار الأصنام الوثنية، وانهزام الأمة الصليبية، فأكل الحسد قلوب الخارجين عن الإسلام من هذه الأمم المنهزمة ، وبدءوا يخططون في الخفاء بطريقة ينفسون فيها عن أحقادهم للطعن في الإسلام وأهله، ورفع راية الشيطان وحزبه، **فاتخذوا لهذا الهدف الدنيء عدة أقنعة تستروا بها لتحقيق ما يهدفون إليه منها :**

﴿ ١ ﴾ اعتمادهم على تأويل النصوص تأويلات تنافي ما يقرره الإسلام ويأمر به.

﴿ ٢ ﴾ إظهار مذهب التشيع لعلمهم بأن مذهب التشيع يحتمل كلامهم، إذ لم يجدوا مدخلاً إلى الإسلام إلا من جهة إظهار التشيع والانتساب إلى المذهب الشيعي، وقد تم تأسيس هذا المذهب فيما يذكره الغزالي كما يلي: «تم في اجتماع لقوم من أولاد المجوس والمزدكية من الثنوية الملحدين، وطائفة كبيرة من ملاحدة الفلاسفة المتقدمين - زاد الديلمي - وبقايا الخرمية واليهود ، جمعهم نادو شنو[1] في حيلة يدفعون بها الإسلام» وقالوا إن محمداً غلب علينا، وأبطل ديننا، واتفق له من الأعوان ما لا نقدر على مقابلتهم، ولا مطمع لنا في نزع ما في أيدي المسلمين من المملكة بالسيف والحرب، لقوة شوكتهم وكثرة جنودهم، وكذلك لا مطمع لنا فيهم من قبيل المناظرة لما فيهم من العلماء والفضلاء والمتكلمين والمحققين، فلم يبق إلا اللجوء إلى الحيل والدسائس، ثم اتفقوا على وضع حيل وخطط مدروسة يسيرون عليها لتحقيق أهدافهم.

---

(١) **انظر** : فضائح الباطنية ص ﴿ ١٨-٢٠ ﴾ بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص ﴿ ١٩ ﴾

ومن وسائلهم في تحقيق الأهداف: الدخول على المسلمين عن طريق التشيع، وعلى مذهب الرافضة، وإن كان هؤلاء الباطنيون يعتبرون الروافض أيضاً على ضلال، إلا أنهم رأوهم ـ على حد ما ذكر الغزالي ـ أقل الناس عقولاً، وأسخفهم رأياً، وألينهم عريكة لقبول المحالات وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات [١]، وأكثر الناس قبولاً لما يُلقى عليهم من الروايات الواهية الكاذبة، فتستروا بالانتساب إليهم ظاهراً للوصول إلى إضعاف الناس، فكان ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض «كما ذكر الغزالي [٢]! أو كما قال بعض العلماء: إن الإمامية دهليز الباطنية.... وهذا هو التفسير المعقول لما نلاحظ من التقارب الشديد بين الباطنية والرافضة [٣].

وقال ابن كثير في حوادث سنة (٢٧٨هـ): وفيها تحركت القرامطه، وهي فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقدون بنبوة زارادشت ومزدك، وكانوا يبيحون المحرمات، ثم هم بعد ذلك أتباع كل ناعق إلى باطل، وأكثر ما ينقادون من جهة الرافضة ويدخلون إلى الباطل من جهتهم، لأنهم أقل الناس عقولاً ويقال لهم الإسماعيلية، لانتسابهم إلى إسماعيل الأعرج بن جعفر الصادق [٤].

[ب] عقائد الباطنية الفاسدة:

إن المتتبع لأخبار الباطنية وفرقهم ومذاهبهم يلاحظ تناقضاً واضحاً، ويرجع ذلك إلى أهل هذه الفرقة الباطنية الخبيثة إذ أرادوا ذلك لكي تتضارب الأقوال فيهم عند الناس، وبذلك ينفون ما يريدون، ويثبتون ما يريدون وأصل مذهبهم

---

(١) فضائح الباطنية ص(١٩).
(٢) المصدر السابق ص(٣٧).
(٣) انظر: فرق معاصرة للعواجي(جـ١، ص ٢٨٠).
(٤) البداية والنهاية(جـ١١/ ٦١).

كله مبني على الكذب والحيل والخداع ، كما أن مذهبهم لا يقوم إلا على هذا التلون الكثير، ولذلك قال الغزالي : « والذي قدمناه في جملة مذهبهم يقتضي – لا محالة – أن يكون النقل عنهم مختلفاً مضطرباً، فإنهم لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال، فلذلك تختلف كلماتهم ويتفاوت نقل المذهب عنهم » (١) .

ولذلك يتضح للدارس أن عقائد الباطنية عبارة عن مجموعات من أفكار منحرفة من مذاهب متفرقة، كلها تخبط واضطراب واختلاف، وأحياناً يستدلون بأحاديث موضوعة ويحرفون الآيات عن مدلولها ومرادها .

وترجع عقائدهم إلى عدة نقاط منها :

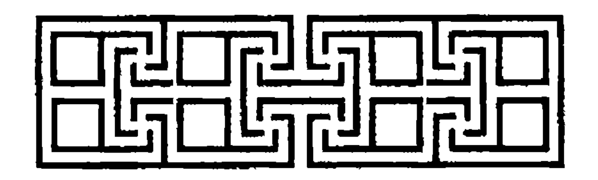
﴿ ١ ﴾ إنكار وجود الله .

﴿ ٢ ﴾ جحد أسمائه وصفاته .

﴿ ٣ ﴾ تحريف شرائع النبيين والمرسلين .

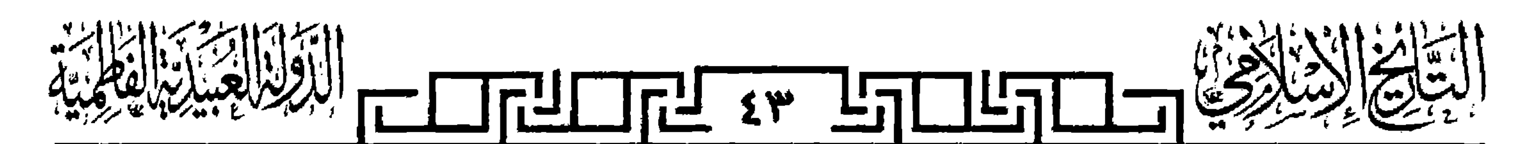
﴿ ٤ ﴾ ويسترشدون في ذلك كله بالتشيع لآل البيت أو بزعمهم التجديد والتقدم ولهم مقدرة عجيبة في وضع الشعارات والأكاذيب .

والموضوع أوسع من ذلك، ومن الكتب النافعة في هذا الباب فضائح الباطنية للغزالي، وفرق معاصرة للعواجي .



---

(١) فضائح الباطنية ص(٣٨) .



المبحث الثالث

داعية الباطنية في الشمال الإفريقي

أبو عبد الله الشيعي

وقع الاختيار على اليمن لكي تكون مركزاً لدعوة الشيعة الإسماعيلية لبعدها عن أنظار الدولة العباسية، ومن هناك بدءوا في إعداد القوة العسكرية السرية التي هي عدتهم في المستقبل، وتسلم القيادة في اليمن رجل يدعى رستم بن حوشب الذي استطاع أن يستقطب بعض الفرس المعادين للمسلمين ، إلا أن ابن حوشب رأى أن أرض المغرب خصبة للبذور الشيعية، فأرسل من اليمن رجلين من أنصاره هما «سفيان والحلواني» إلى طرابلس وتونس لنشر المذهب الشيعي واستطاعوا أن يتوغلوا بأفكارهم في قبائل البرانس ذات القوة والشكيمة والعدة والعتاد، والتي تتطلع إلى إقامة دولة في المغرب على نهج الأدارسة في المغرب الأقصى، والأغالبة الذين عاصمتهم تونس.

ومن بين الذين اختارهم ابن حوشب في اليمن: أبو عبد الله الشيعي حسن ابن أحمد بن محمد بن زكريا الشيعي من أهل صنعاء، وكان قد وقع اختيار ابن حوشب على هذا الرجل لما لمس فيه من صفات قيادية بارزة من علم وذكاء ومقدرة في التعامل مع الناس، ويعتبر أبو عبد الله الشيعي اليماني الصنعاني المؤسس الفعلي لدولة العبيديين الرافضة الإسماعيلية في المغرب، فأرسله ابن حوشب بعد موت الحلواني وأبي سفيان الداعيتين بالمغرب، وقال له: «إن أرض كتامة في بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وسفيان، وقد ماتا وليس لك غيرها فبادر فإنها موطأة ممهدة لك» [1].

---

(١) **انظر**: موسوعة المغرب العربي (جـ٢/٥٧) للدكتور عبد الفتاح الغنيني.

وفي ما بين ٢٨٨هـ إلى ٢٨٩هـ وصل أبو عبد الله الشيعي الرجل الداهية المراوغ الماكر صاحب الحيل العجيبة إلى مكة، وبحث عن وفود المغاربة التي جاءت للحج واستطاع أن يتعرف على حجيج كتامة، وتقرب إليهم بما أظهره لهم من زهد وفقه وعلم وتمكن هذا الداعية من قلوب الشيوخ الكتاميين ورجع معهم موهماً إليهم أنه يريد مصر لتعليم الأولاد القرآن، وعرضوا عليه الذهاب معهم إلى المغرب، فأظهر عدم الرغبة، ثم بسياسته الماكرة لبى طلبهم ونزل في القيروان ليبحث عن مواطن الضعف في دولة الأغالبة، ويجمع المعلومات لمعرفة أقوى القبائل، وما هي الوسائل النافعة للدخول في بلاد المغرب ، وبعد أن أيقن أن أقوى القبائل في المغرب هي الكتامية قرر الذهاب إلى بلدة تسمى « إيكجان » وهي بلدة في جبل وعر، وعرف أنها منازل قبيلة « سكتاتة » التي هي بطن من بطون كتامة [1] ونهج في حياته نهج المعلم المؤدب الورع، وسلك سلوك الزهد والعفاف حتى تملك قلوبهم، واشتهر صيته، وأقبلت عليه القبائل البربرية وتصدى لتعليمهم وتفقيههم المذهب الشيعي، ثم دخل في الأمور السياسية ونظام الحكم ودور الإسلام في الحكم بالشورى، وفضل العلويين وأحقيتهم في الحكم.

وبسبب الظلم الذي مارسته دولة الأغالبة على الناس ، استجابت بعض القبائل للداعية الشيعي الذي رأوا فيه المخلص وبدأ الصدام مع الأغالبة، وانتقل أبو عبد الله الشيعي إلى حصن منيع في جبال الأوراس في بلدة « تازروت » ومن هناك كان يوجه الضربات المتتالية لدولة الأغلبة، واعتمد في ذلك على فضح الأغالبة ونشر ظلمهم وبيان أن حكمهم خارج عن الإسلام وشريعة الرحمن، وأثار الأحقاد القديمة بين الدولة الأغلبية وبعض القبائل، وأعطى عهوداً ومواثيق لرجال وزعماء

---

(١) المصدر السابق (جـ٢/٥٦).

كتامة أن المستقبل والدولة والتمكن لهم، فخضعت له القبائل وتوالت المدن في السقوط وغنم غنائم واشتد حماس أتباعه، وساعده على ذلك انحلال وضعف دولة الأغالبة وانغماسهم في الترف، وتذمر الناس من الأمراء ومن ظلمهم، وأظهر أبو عبد الله من الحزم والشجاعة والمقدرة السياسية والكفاءة العسكرية ما جعله ثقة لمن حوله من القادة والجنود، فأعطاه ذلك شعوراً بأن الوقت حان لكشف دعوته بأن يدعو للرضى من آل البيت النبوي الذي سيظهر عن قريب وتولى أمور الحكم.

واستطاع أبو عبد الله الشيعي أن يستولي على جميع النقط الحربية ما بين حصنه في جبال الأوراس حتى عاصمة الأغالبة.

وفي أوائل جمادى الأولى **عام ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م** سقطت مدينة الأريس في يد قوات أبي عبد الله الشيعي، وهذه المدينة هي مفتاح دخول القيروان العاصمة السياسية للبلاد، فعجل زيادة الله الأخير بالرحيل إلى مصر في **جمادى الآخرة عام ٢٩٦هـ**، ودخل عبد الله الشيعي القيروان [١].

وأعلن عبد الله إثر هذا النصر الحاسم على الأغالبة أن الإمام الحقيقي للمسلمين هو عبيد الله المهدي وأنه قريباً سيصل إلى بلاد المغرب ويظهر العدل والمساواة، فانضم إليه بعض قواد الأغالبة، وأصبح جيشه مائتي ألف مقاتل لكي يدافعوا عن المذهب الشيعي الإسماعيلي والدولة الجديدة، ومعلوم من دراسة التاريخ أن الانتصارات تستحوذ على عوام الناس ويظنون أن المنتصر على حق، ومع الإشاعة الشيعية القوية والانتصارات الملموسة وإيمان الناس بالمهدي المنتظر أصبح الناس قادة وجنوداً لا رأي لهم، ولا عقل، بل مثل الآلات في التنفيذ، وحاول أبو عبد الله الشيعي أن يعتمد في نشر مذهبه بالدعاية والمناظرة لإقناع

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢ / ٦٠).

علماء السُنَّة والجماعة من أمثال عثمان بن سعيد الحداد، إلا أنه أسقط في يديه عندما أقاموا الحجة عليه وعلى دعاته، ولذلك اضطر أخو عبد الله الشيعي «أبو العباس» أن يستخدم القوة لقلع مذهب أهل السُنَّة والجماعة من عاصمة الشمال الإفريقي فمارس مع علماء أهل السُنَّة أصناف العنف والشدة والتعذيب وضربوا الفقهاء بالسياط وقطعوا ألسنة بعضهم، وضربوا الرقاب وقطعوا أجزاء الجسم إلى عدة أجزاء، وصلبوا الفقهاء، وصادروا الأموال، وبطحوا الناس على ظهورهم وأمروا عبيدهم بأن يدوسوهم بالأقدام.

واشتد الصراع المذهبي، وهز الدولة الوليدة فتدخل الداهية أبو عبد الله الشيعي ومنع المناظرة والمجادلة حسماً للصراع وعزل أخاه عن ولاية القيروان.

ونجح أبو عبد الله الشيعي في تثبيت دعائم الحكم في القيروان بواسطة زعماء قبيلة كتامة وخصوصاً سيدهم ومطاعهم «غزوية بن يوسف» وأخيه وبقية قومه، وأرسل إلى عبيد الله المهدي وابنه القاسم للمجيء إلى القيروان وشد عبيد الله من الشام رحاله «من مدينة سلمية» إلى مصر، ثم برقة، ثم طرابلس متخفياً في ثياب التجار، ولفقت قصص عجيبة في نجاته من ولاة الدولة العباسية، ووقع في أسر بني مدرار أمراء سجلماسة [١].

واستطاع أبو عبد الله الشيعي الصنعاني في ٢٩٧ هـ / ٩١٠م أن يجهز جيشاً ضخماً حطم به دولة بني مدرار وخلص عبيد الله المهدي وابنه من السجن، وفي طريق عودته مر الجيش بتاهرت وأزال دولة بني رستم في عام ٢٩٧ هـ / ٩١٠م وأصبح الغرب الأوسط إلى تلمسان دولة عبيدية.

وتولى عبيد الله المهدي الذي أعلن قيام الدولة الفاطمية التي نسبها إلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ لخداع الناس وتضليلهم.

وبدأت الدولة الفاطمية المزعومة تسعى للقضاء على الخلافة العباسية خصوصاً

---

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢/٦٥).

بعد أن تمكنوا من القضاء على دولة بني مدرار في سجلماسة ودولة رستم في تاهرت ودولة الأغالبة في إفريقية «تونس».

وكانت بيعة عبيد الله المهدي في القيروان عام ٢٩٧هـ / ٩١٠م وانتهت ولاية أبي عبد الله الشيعي بعد أن دامت عشر سنوات على قول بعض المؤرخين [١].

وكطبيعة الثورات تخلص عبيد الله المهدي من أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس وغزوية بن يوسف بمؤمرات متتالية وكل من كان من أنصارهم.

وهذا ملاحظ أيضاً في دراسة التاريخ القديم والحديث، وهو أن الأصدقاء والرفقاء الذين لا تقوى لهم، وإنما تجمعهم مصالح ومبادئ فاسدة يُصَفُّون بعضهم بعضاً، وهذا حدث في الثورة الفرنسية ١٨٧٩م، والثورة الجزائرية، والثورة السورية، والمصرية، والليبية، والعراقية، وهكذا قديماً وحديثاً.

وظهر لي أن ذلك سُنَّة من سُنن الله الجارية في المجتمعات «من أعان ظالماً سلطه الله عليه» ﴿ **وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾.

[الأنعام: ١٢٩].

وذكر المؤرخون أن الخلاف الذي وقع بين عبيد الله المهدي، وأبي عبد الله الشيعي على الأموال التي استأثر بها النزق الكاذب عبيد الله المهدي وبعضهم يرى أن أبا عبد الله الشيعي شك في عبيد الله المهدي بأنه ليس المهدي المنتظر.

وصاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح مقلد الغنيمي ذكر السببين [٢] ولم يرجح ثم إنه دافع عن نسب العبيديين وأنه في رأيه يرجع إلى فاطمة الزهراء، وشن حملة على من طعن في نسب العبيديين ونسبهم إلى اليهود، أو إلى المجوس، واتهمهم أنهم موالين للخلافة العباسية في بغداد أو الأموية في الأندلس وأن الخلافتين شنتا حملة شعواء على النسب العبيدي.

---

(١) (٢) انظر: المرجع السابق ص(٧٠).

وأقول :

إن ابن كثير رحمه الله الذي نقل أقوال العلماء في البداية والنهاية في الطعن في النسب العبيدي أقوى حجة ،وأمتن سنداً، وأعرف بحقائق الدول ومؤسسيها، وعرف بالصدق والأمانة العلمية المتناهية، وكلامه واضح في البداية والنهاية، وأما ابن الأثير فلم يجزم ومال إلى إثبات النسب بدون تصريح وذلك في « الكامل في التاريخ » [١] وهو معروف بميوله الشيعية، وابن تيمية في الفتاوى يؤكد ويصرح على عدم ثبات النسب الفاطمي، وإليك شهادة المؤرخ القدير ابن خلكان حيث قال « والمحققون ينكرون دعواه في النسب، وَيَنُصُّون على أن هؤلاء المنتسبين بالفاطميين أدعياء، وأنهم من أصل يهودي من سلمية بالشام، وأن والده لقب بالقدّاح، لأنه كان كحالاً يقدح العيون، وقد هلك عبيد الله **سنة ٣٢٢هـ** ، وتمكن حفيده المعز من الاستيلاء على مصر، واستمر ملك العبيديين نحو قرنين من الزمان إلى أن قضى عليهم بطل الإسلام صلاح الدين الأيوبي في **سنة (٥٦٧ هـ)** وأزال منها كل آثار العبيدين، وقطع شرورهم عن الناس وأراح الله العباد منهم » [٢] .

وعلى كل حال فأعمالهم وعقائدهم تدل على أن أبناء المسلمين من السلالة النبوية الشريفة وعلماءهم الأبرار الأطهار وفقهاءهم الأخيار براء من هذه الأقوال الشنيعة، والأفعال القبيحة، وأنا شخصياً أميل إلى أن أبا عبد الله الشيعي اتضح له أن عبيد الله المهدي رجل طامع في الملك والجاه، ومستبد ويسعى لمجده وشعر أبو عبيد الله ببعده عن مكانته فعمل على الخلاص منه، فحاول إقناع من حوله بأنه ليس هذا هو الذي يحدثهم عنه، إلا أن عبيد الله المهدي كان أسرع منه فتخلص الأخير من خصومه، وأما عن نسبه فالحق الواضح البين أن عبيد الله المهدي دعيّ في نسبه، ولا صلة له بأهل البيت، وهذا ما سينبرهن عليه في ترجمته إن شاء الله.

---

(١) **انظر** : الكامل في التاريخ (جـ ٥ / ١١) وما بعدها.

(٢) فرق معاصرة (جـ ١ / ٢٨٩).



المبحث الرابع

عبيد الله المهدي الخليفة الشيعي الرافضي الأول

(٢٩٧هـ - ٣٢٢هـ / ٩١٠م - ٩٣٤م)

ذكر الإمام الذهبي ترجمة لعبيد الله المهدي في سير أعلام النبلاء فقال «عبيد الله أبو محمد أول مَنْ قام مِنَ الخلفاء الخوارج العُبيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرفض، وأبطنوا مذهب الإسماعيلية وبثوا الدُّعاة يستغوون الجبليةَ والجهلة» [١].

وذكر ما قيل عنه في نسبه ثم قال: والمحققون على أنه دَعيٌّ بحيث إنَّ المُعزَّ منهم لما سأله السيد ابن طَبَاطَبَا عن نسبه، قال غداً أخرجه لك، ثم أصبح وقد ألقى عُرَمَة من الذهب، ثم جَذبَ نصْف سَيفه من غمده، فقال: هذا نسبي، وأمرهُمْ بنهب الذَّهب، وقال: هذا حسبي [٢] أما مفتي الديار الليبية رحمه الله الشيخ طاهر الزاوي فقد قال في ترجمة عبيد الله المهدي: «هو مؤسس الدولة العبيدية وأول حاكم فيها، وهو عراقي الأصل، ولد في الكوفة **سنة (٢٦٠هـ)**، واختبأ في بلدة سَلَميةَّ بؤرة الإسماعيلية الباطنية في شمال الشام. ومن يوم أن ولد إلى أن استقر في سَلَميةَّ كان يعرف باسم سعيد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن ميمون القداح».

وفي منطقة سَلَميةَّ مقر الإسماعيلية مات علي بن حسن بن أحمد بن محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وأقام له الإسماعيلية مزارات سرية، وقرروا نقل الإمامة من ذرية إسماعيل بن جعفر الصادق إلى ابنهم بالنكاح الروحي [٣] ثم قال: «هذا أصل عبيد الله المهدي، وهذا أصل العبيدين المنسوبين إليه».

(١) **انظر**: سير أعلام النبلاء (جـ ١٥ / ١٤١).

(٢) المصدر السابق (جـ ١٥ / ١٤٢).

(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص (٢٥٣).

وقد خالفهم في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جميع المسلمين في المغرب وفي كل مكان، وفي مقدمة الذين أنكروا عليهم هذا النسب الأشراف العلويون، وإنما هم منسوبون إلى سعيد بن أحمد القداح الذي ادعوا أنه ابن إسماعيل بن جعفر الصادق من طريق النكاح الروحي الذي ذكرنا آنفاً.

وبعد أن تخلص عبيد الله المهدي من خصومه أراد أن ينشر مذهبه في القيروان، ومن ثَمَّ الشمال الإفريقي، ولكن طلائع علماء أهل السُّنَّة والجماعة نابذوه العداء، وأقنعوا الناس بأن دولة العبيدي كفرية بعيدة عن الشريعة الإسلامية، وحدثت بين العبيدين وأهل السُّنَّة حروب طاحنة، فانتقل عبيد الله المهدي إلى المهدية بعد أن بذل في بنائها وتحصينها أموالاً طائلة، إلا أن شعور الاستقرار والاطمئنان جانب العبيديين في الشمال الإفريقي لضراوة المقاومة التي قادها علماء أهل السُّنَّة ضدهم، فأخضع المدن بقوة السلاح وفكر في الانتقال إلى مصر، وأرسل عدة حملات إليها إلا أنها فشلت أمام جيوش العباسيين التي قادها «مؤنس الخادم».

وكانت أشد هذه الحملات خطراً على مصر الحملة التي كانت في عام (٣٢١هـ)، واستطاع العباسيون صد هذه الحملة بفضل جهود «محمد الإخشيدي» [١].

واستمر عبيد الله في حكمه إلى أن هلك في عام ٣٢٢هـ وله اثنتان وستون سنة، وكانت دولته خمساً وعشرين سنة وأشهر [٢].

وبهذا نلحظ: أن قبائل المصاميد وكتامة التفت حول الدعوة العبيدية لظنهم أنه هو المهدي المنتظر، ونجد في التاريخ الإسلامي كثيراً من الثورات والدول التي قامت واعتمدت على هذا المعتقد. فرأيت من المناسب والمهم في بناء السياج العقيدي الصحيح على أصول أهل السُّنَّة والجماعة في هذه المسألة

---

(١) موسوعة تاريخ المغرب (جـ ٢/٧٦).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/١٥١).

أن أبين معتقد أهل السُّنَّة في قضية المهدي المنتظر حتى يسهل على الناس كشف الدجالين الأفاكين وسأجعل معتقد أهل السُّنَّة في المهدي عقب انتهاء ترجمة العبيدي.

نجد أن عبيد الله المهدي اعتمد على ادعائه على هذه الدعوي حتى بعد أن استطاع أبو عبد الله الشيعي أن يزعزع ثقة البرابرة فيه ذهب إليه كبير كتامة وقال لعبيد الله المهدي قد شككنا فيك، فائت بآية، فأجاب بأجوبة، قَبِلهَا عَقْلُهُ وقال إنكم تيقنتم، واليقين لا يزول إلا بيقين لا بشك.

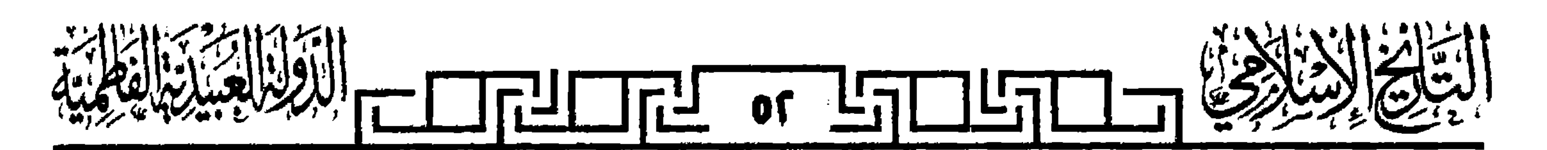
وكانت المسائل التشكيكية في المهدي التي طرحها أبو عبد الله الشيعي على زعماء كتامة من أن الإمام يعلم الأمور قبل وقوعها، وهذا قد دخل معه بولدين. ونص أن الأمر في الصغير بعده، ومات الولد بعد عشرين يوماً، فلما سأل كبير زعماء كتامة عبيد الله المهدي عن الطفل قال عبيد الله المهدي: إن الطفل لم يمت، وإنه أمَامُك، وإنما الأئمة ينتقلون، وقد انتقل لإصلاح جهة أخرى، قال كبير زعماء كتامة آمنت.

وقال أبو عبد الله الشيعي: إن الإمام لا يلبس الحرير والذهب وهذا قد لبسهما. وليس له أن يطأ إلا ما تحقق أمره، وهذا قد وطئ نساء زيادة الله التغلبي يعني عبيد الله المهدي، فلما سأل كبير كتامة عبيد الله المهدي فأجاب أنا نائب الشرع أحللّ لنفسي ما أريد، وكل الأموال، وزيادة الله كان عاصياً [1].

والمقصود في نقلي هذا اعتماد الدجالين على استخفاف عقول الناس وتغريرهم لجهلهم، واعتمادهم على معتقدات في الأئمة من تعظيم آل البيت والإيمان بالمهدي المنتظر، وغير ذلك، فالمقام مناسب لبيان عقيدة أهل السُّنَّة في المهدي المنتظر.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٤٦).



المبحث الخامس

عقيدة أهل السنة والجماعة في المهدي

بينت الأحاديث الصحيحة أن الله تعالى يُخْرِجُ في آخر الزمان رجلاً من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً، كما مُلئت جوراً وظلماً ، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتُخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء قطرها، ويُعطى المال بغير عدد .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: « في زمانه تكون الثمار كثيرة،والزرُّوع غزيرة، والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم، والخير في أيامه دائم »(١) .

اسمه وصفته :

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه، كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد أو أحمد بن عبد لله ، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ ثم من ولد الحسن بن علي رضي الله عنهما .

قال ابن كثير رحمه الله في المهدي: « وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسيني رضي الله عنه » (٢) . **وصفته الواردة :** « أنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف » (٣) .

مكان خروجه :

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**يقتل عند كنزكم ثلاثة : كلهم ابن خليفة ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق ، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم**». ثم ذكر شيئاً لا أحفظه. . . فقال : «**فإذا رأيتموه، فبايعوه ، ولو حبواً على الثلج ، فإنه**

---

(١) النهاية، الفتن والملاحم، (جـ ١ / ٣١) ، تحقيق د/ طه زيني .

(٢) النهاية، الفتن والملاحم (جـ ١ / ٢٩) .

(٣) **الأجلي**: الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين، والذي انحسر الشعر عن جبهته .

خليفة الله المهدي» [١] .

قال ابن كثير - رحمه الله -: « والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق » لا من سرداب سامراء، كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك، ولا برهان، لا من كتاب ولا من سُنَّة ، ولا معقول صحيح، ولا استحسان. . . . إلى أن قال: « ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سودٌ أيضاً وهو زيٌّ عليه الوقار، لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: العقاب » .

إلى أن قال : « والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث » [٢] .

وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم؟** » [٣] .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة** » إلى أن قال: « **فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم: تعال صل بنا فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة** » [٤] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب خروج المهدي (جـ ٢ / ١٣٦٧)، ومستدرك الحاكم (٤ / ٤٦٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. جل مبحث المهدي المنتظر اختصرته من كتاب أشراط الساعة، وهو رسالة ماجستير ليوسف الوابل.

(٢) النهاية، الفتن والملاحم (جـ ١ / ٣١).

(٣) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء، نزول عيسى ابن مريم عليه السلام (جـ ٦ / ٤٩١) مع الفتح.

(٤) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى عليه السلام (جـ ٢ / ١٩٣) مع شرح النووي.

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين :

أحدهما : أنه عند نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته للمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدلّ على صلاح هذا الأمير وهُداه.

وجاءت الأحاديث في السُنن والمسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمىً: محمد بن عبد الله، ويقال له المهدي، والسُّنَّة يفسر بعضها بعضاً .

[١] فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه**» (١) .

[٢] وعن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صلِّ بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله هذه الأمة**» (٢) .

[٣] وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين**» (٣) .

أولاً: تواتر أحاديث المهدي :

﴿ ١ ﴾ **قال الشوكاني**: «الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما

(١) رواه أبو نعيم في «أخبار المهدي» صححه الشيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع الصغير (٥/ ٧١٧٠).
(٢) المنار المنيف«لابن القيم»، ص(١٤٧-١٤٨).
(٣) سنن أبي داود، كتاب المهدي، (جـ١١/ ٣٧٥) رقم(٤٢٦٥).

الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً، لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك »[١] .

﴿ ٢ ﴾ **قال صديق حسن خان:** « الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التواتر المعنوي، وهي في السُنن وغيرها من دواوين الإسلام من المعاجم والمسانيد »[٢] .

﴿ ٣ ﴾ **وقال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني:** « والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ، وكذا الواردة في الدَّجاَّل، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ »[٣] .

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي بالإضافة إلى كتب الحديث المشهورة، كالسُنن الأربعة، والمسانيد، « مسند أحمد »، و« مسند البزار »، و« مسند أبي يعلى »، و« مسند الحارث بن أبي أسامة »، و« مستدرك الحاكم »، و« مصنف ابن أبي شيبة »، و« صحيح ابن خزيمة »، وغيرها من المصنفات[٤] التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه.

ثانياً: المنكرون لأحاديث المهدي والرد عليهم :

ومما يؤسف له أن طائفة من الكُتَّاب من أمثال الشيخ محمد رشيد رضا، في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطُلان، وأن المهدي ليس إلا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السُّنَّة[٥] .

---

(١) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

(٢) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ص (١١٢).

(٣) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، ص (١٤٧).

(٤) عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر للعباد، ص (١٦٦-١٦٨).

(٥) تفسير المنار (جـ ٥ / ٤٩٩-٥٠٤).

وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين»[1] محمد فريد وجدي، وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضُحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكُتَّاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التصحيح والتضعيف، ومع هذا فقد قال ـ بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: ـ «فهذه جملة الأحاديث التي خرَّجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي ـ كما رأيت ـ لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه»[2].

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون:

«ونقول: لو صح حديث واحد، لكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة»[3].

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون:

«إن ابن خُلدون لم يحسن قول المحدثين» الجرح مقدَّم على التعديل ولو اطلع على أقوالهم وفقهها، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف، ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره[4] ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مملوء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العلل،واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصحَّحين.

وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد ـ رحمهم الله ـ ليس صواباً.

---

(١) دائرة المعارف القرن العشرين(جـ ١٠ / ٤٨٠).

(٢) مقدمة ابن خلدون(جـ ١ / ٥٧٤).

(٣) أشراط الساعة للوابل، ص(٢٦٧).

(٤) تعليق أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد(جـ ٥ / ١٩٧-١٩٨).

وإنما الحجة في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواترة تواتراً معنوياً، وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح، ولكن أئمة الحديث بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السُّنَّة من عبث العابثين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه، فإذا عينَّ إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة، فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد، بل يظهره الله في الناس إذا شاء، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لم تصح، وأما الأحاديث الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله.

وأيضًا: فإن خلاف الشيعة مع أهل السُّنَّة لا يُعتدُّ به، والحَكَم العدل هو الكتاب والسُّنَّة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يُردُّ بها ما ثبت من حديث رسول الله ﷺ [1].

قال العلامة ابن القيم في كلامه عن المهدي: « وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو: أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد

---

(١) انظر: أشراط الساعة، ص (٢٦٧)

الحسين بن علي لا من ولد الحسن، الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا، ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة ، فلم تره بعد ذلك عين ، ولم يُحَسَّ فيه بخبر ولا أثر ، وهم ينتظرونه كل يوم !! ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا! اخرج يا مولانا ! ، ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن يلد الذي ... كلَّمتموهُ بجهلكم ما آنا ؟

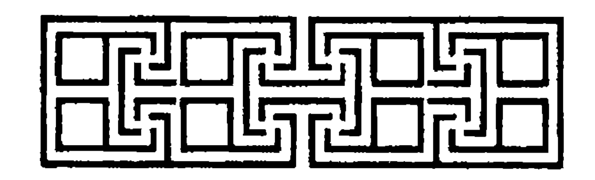
فعلى عقولكم العفاء فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم ، وضحكة يسخر منها كل عاقل» [1] .

وإلى هنا يكفي الإيضاح في بيان حقيقة المهدي عند أهل السُّنَّة والجماعة، وبذلك يتضح للقارئ الكريم الميزان الصحيح في دعوة كل مدعي للمهدية.

إن من أسباب الكارثة الكبرى التي وقعت في قبائل الشمال الإفريقي:

هي جهلهم بحقائق الأمور المستنبطة من الكتاب والسُّنَّة، ولذلك سهل على أبي عبد الله الشيعي أن يقود القبائل الكتامية إلى معتقداته الباطنية الرافضية الفاسدة.



---

(١) انظر : المنار المنيف، ص (١٥٢-١٥٣).

الفصل الثاني

الصراع بين الدولة العبيدية وأهالي الشمال الإفريقي

المبحث الأول

ثورة قبيلة هوارة في طرابلس

بعد أن احتل عبيد الله المهدي طرابلس عين ماكنون بن ضبارة اللحياني الكتامي والياً عليها، وثارت قبيلة هوارة على والي طرابلس لعدم استقرار الأمور، وحاولت أن تستفيد من فرصة العهد الجديد الذي لم تستقر فيه الأحوال في الشمال الإفريقي.

وانضمت قبائل من زناتة ولماية وغيرها من القبائل البربرية إلى قبيلة هوارة وقاد هذه الثورة ضد العبيدين في طرابلس أبو هارون الهواري، وحاصروا طرابلس واحتمى ماكنون بسور المدينة.

وأنجده عبيد الله المهدي بجيش بقيادة تمام بن معارك «أبازاكي - وهو ابن أخي ماكنون».

واستطاعت جيوش العبيديين أن تقضي على هذه الثورة الوليدة في مهدها.

وأوعز عبيد الله المهدي إلى ماكنون بن ضبارة للتخلص من تمام بن معارك بزعمه أنه يتآمر عليه فقتل العم ابن أخيه تمام في غرة ذي الحجة سنة ٢٩٨هـ وشعر ماكنون بأمان واستقرار، فتطاول في الحكم وسمح لبني قومه من كتامة بالتعدي على أموال الناس والاستهانة بأعراضهم والتدخل في أمورهم، فثار به أهل طرابلس سنة ٣٠٠هـ وأخرجوه منها، فلحق بالمهدي برقادة وقتل أهل طرابلس من كان فيها من أنصار ماكنون الكتاميين، وأغلقوا أسوار المدينة، فأرسل عبيد الله المهدي أسطولاً بحريًا استطاع الأسطول الطرابلسي أن يحرقه وأن يقتل

من فيه، فأرسل عبيد الله ابنه أبو القاسم بجيش عرمرم بطريق البر فاعترضت له هوارة، إلا أنه استطاع أن يهزمها ووصل إلى أسوار المدينة وضرب عليها حصاراً أفنى ما بقي من أقوات الناس في المدينة حتى أكلوا الميتة، ولم يستطع ابن إسحاق أن يواصل المقاومة وتفاوض أعيان طرابلس مع أبي القاسم الشيعي وطلبوا منه الأمان فأمنهم بشرط أن يسلموا محمد ابن إسحاق، ومحمد بن نصر، ورجلاً آخر يقال له: الحرحجة فقبلوا ذلك وسلموهم إليه، ودخل طرابلس وأرهق أهلها بغرامة مالية قدرها ثلاثمائة ألف دينار، وتخلص أبو القاسم الشيعي من الأغالبة الذين كانوا في المدينة مدعياً أنهم هم الذين حرضوا على الفتنة.

وتولى جباية مال الغرامة رجل يُقال له الخليل بن إسحاق من أبناء جند طرابلس.

وجابي مال الغرامة هو الذي أتم بناء جامع طرابلس الكبير أيام العبيدين وبنى منارته، وقد قتل على يد ابن كيداد اليفرني لما استولى على القيروان سنة ٣٢٢هـ.

وبعد أن استقرت الحال في طرابلس قفل أبو القاسم الرافضي إلى رقادة وطاف بالرجال الثلاثة الذين تسلمهم من طرابلس في شوارع القيروان على الجمال تشهيراً بهم ثم قتلهم [١].

ويتضح من هذه الثورة المبكرة ضد العبيديين أن أهل طرابلس وقفوا في مواجهة الفكر الشيعي والمد الرافضي والمعتقد الباطني الذي تكفلت دولة بني عبيد بنشره في الشمال الإفريقي.

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص(٢٤٦-٢٤٧).

المبحث الثاني

زحف العبيدين على برقة

فلما استقر أمر طرابلس أرسل عبيد الله جيوشه نحو برقة بقيادة حباسة بن يوسف الكتامي، وكان قاسياً شديداً نزعت الرحمة من قلبه، فتوجه في **عام** ٣٠١هـ نحو سرت، لأنها لازالت تحت حكم الأغالبة فدخلها بدون حرب، وهجرها من كان فيها من جنود العباسيين والأغالبة، ثم تقدم حباسة إلى أجدابية فهجرها من كان فيها من العباسيين والأغالبة، وطلب أهلها الأمان فأمنهم ودخلها بدون قتال، واحتل مدينة برقة وكانت جيوش العبيديين تتدافع نحو حباسة بدون انقطاع.

وكان حباسة هذا لا يفي بوعد، وكلما دخل مدينة قتل أهلها وأخذ أموالهم وسبى نساءهم، ومن فظاعة أعماله التي ذكرتها كتب التاريخ ما فعله بمجموعة من الناس كانوا يلعبون بالحمام في برقة فأمر بهم فأجلسهم حول النار، وأمر بلحومهم أن تقطع وتشوى، ثم أمر بهم فألقوا في النار، إن هذه الأعمال الوحشية تدل على عداوة العبيديين لكل من له رائحة سنُية، وربما يتقربون بها إلى الله على زعمهم الفاسد.

ومن أعماله الشنيعة ما قام بإعلانه في برقة: من أراد العطاء فليأت إلينا، فحضر إليه من الغد ألف رجل، فأمر بهم فقتلوا جميعاً، ثم وضع جثثهم بعضاً على بعض، وجيء له بكرسي فوضع على الجثث وجلس عليه، وأمر بالوجهاء من أهل البلد فدخلوا عليه فحبسهم وأهانهم، وقد مات منهم أناس من هول ما رأوا، وقال لهم: إن لم تأتوني غداً بمائة ألف مثقال قتلتكم جميعاً، فأحضروها له.

وانتقم من حارث ونزار ابني جمال المزاتي في نفر من أبناء عمومتهم في مدينة

برقة، وباع نساءهم وأخذ جميع أموالهم وخيراتهم وقد اغتم أهالي برقة من هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة فأرسلوا إلى عبيد الله المهدي، فاعتذر الملعون وحلف يميناً كاذبة أنه ما أمر بشيء من ذلك، وكتب إلى حباسة أن يرحل عن برقة فرحل إلى جهة مصر، وأتى أموراً أقبح مما كان يفعله في برقة (١) .

وفي سنة ٣٠٢هـ تقدمت جيوش أبي القاسم الرافضي إلى الإسكندرية ولم ينل ما أراده ورجع مهزوماً ، وسبب ذلك أن أبا القاسم أرسل قصيدة إلى بغداد يفخر فيها ببيته وبما وصل إليه ملكهم فرد عليه الصولي بقصيدة على وزنها ومنها :

فلو كانت الدنيا مثالاً لطائر لكان لكم منه بما حزتم الذنب

فغضب من هذا البيت وقال: «والله لا أزال حتى أملك صدر الطائر ورأسه إن قدرت أو أهلك دونه» (٢) .

ثورة أهل برقة على العبيدين :

وفي هذه السنة٣٠٢هـ انتقم أهل برقة من العبيديين فقتلوا عاملهم وكثيراً من رجال كتامة، فأرسل المهدي جيوشهسنة ٣٠٣هـ لتأديبهم والانتقام مهم، وقاد هذه الجيوش أبو مديني ابن فروخ اللهيفي وحاصر مدينة برقة ثمانية عشر شهراً ودخلهاسنة ٣٠٤هـ عنوة، فقتل أكثر أهلها، وأحرق دورها، وهتك أعراض نساءها ، وبعث بالأسرى إلى عبيد الله الذي أمر بقتلهم ، وبقي أبو مديني ببرقة إلى أن مات بهاسنة ٣٠٦هـ (٣) .

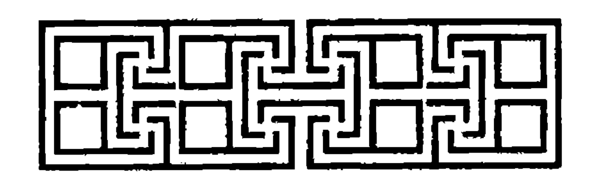
وفي سنة ٣٠٤هـ حارب العبيديون أهل صقلية وغزوا مصر فيذي القعدة سنة ٣٠٦هـ واستولوا على الإسكندرية وأكثر الصعيد ولم يستقروا بل رجعوا .

---

(١) **انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، صـ(٢٤٧) .
(٢) المصدر السابق، صـ(٢٤٨)
(٣) **انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، صـ(٢٤٨)

وفي سنة (٣٠٨هـ) تم بناء المهدية وانتقل إليها المهدي وفي سنة ٣١٠هـ خرجت نفوسة على عبيد الله وقدموا عليهم أبابطة ، فقوي شأنه وعظمت شوكته وكان مذهبهم إباضي ، فأرسل إليهم عبيد الله جيشاً بقيادة علي بن سليمان الداعي ، فانهزم جيش العبيديين وفر علي إلى طرابلس ، ثم أعاد الكرة على نفوسة وحاصروها.

وعُيِّن محمد بن عمر النفطي قاضياً على طرابلس، واستطاعت الدولة العبيدية أن تفرض نفوذها بقوة السلاح على إفريقية، وطرابلس، وبرقة، وجزيرة صقلية في حكم عبيد الله المهدي .



المبحث الثالث

خروج أبي يزيد الخارجي على العبيدين

هو مخلد بن كيداد اليفرني بن سعد الله، بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن يفرن، ويفرن هذا أخو مغراو الذي تنسب إليه قبيلة مغراوة، وأمه أم ولد واسمها سيكة، وهي من بلاد السودان التي كان يتردد عليها والده للتجارة فاتخذها جارية له [١].

وعاش أبو يزيد فقيراً وطلب المذهب الخارجي فتتلمذ على النكارية[٢]، وكان في أ ول أمره معلم لتحفيظ القرآن الكريم، وقضى معظم وقته في التعليم وظهر في بداية أمره بمظهر الزهاد، فكان يركب حماراً ينتقل به بين القبائل والجبال فلقب بصاحب الحمار، وتذكر بعض كتب التاريخ أنه لما قاد الثورة ضد العبيدين كانت سنه تقارب التسعين، واستغل العداء بين زناتة والعبيدين وما مارسته دولة الروافض من أخذ الضرائب حتى فاقوا في ظلمهم الأغالبة واشتدت معارضة البرابرة بعد أن أعلن الروافض لعن الشيخين «أبي بكر وعمر رضي الله عنهما» على المنابر وفي المنتديات والحلقات وفي خطب الجمعة، فبدأ أبو يزيد في إعداد العدة في منطقة الجريد وأشعل الشمال الإفريقي بحروب طاحنة، وكانت بداية ثورته في زمن عبيد الله إلا أن الأخير هلك قبل القضاء عليه، وثار أبو يزيد على محمد ابن عبيد الله في جهات طرابلس وتابعه كثير من البربر من شدة جور محمد بن عبيد الله المهدي لأهل السُّنَّة ، وظلمه لهم، وتعذيبه إياهم، ورأى علماء أهل السُّنَّة الوقوف مع أبي يزيد ضد بني عبيد وقالوا: هم أهل القبلة أي أصحاب أبي

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٤٨).

(٢) المصدر السابق ص (٢٤٩).

يزيد وأولئك ليسوا من أهل القبلة، وهم بنو عدو الله [١] ، وسمى أبو يزيد نفسه شيخ المؤمنين ، وكان يضمر لأهل السُنَّة أشد العداوة، لأنه كان نكاريًّا [٢] يستحل أموال أهل السُنَّة ونساءهم، فانتهز كراهية أهل السُنَّة لمحمد بن عبيد الله وأخفى عليهم عقيدته وأظهر لهم صداقته، ولما رأى القدرة من نفسه غدر بأهل السُنَّة وخلى بينهم وبين محمد بن عبيد الله يقتلهم ويستبيح نساءهم ويغتصب أموالهم ، ولولا أنه خاف أن يقال عنه قتل حلفائه وأعوانه فينفض الناس من حوله لفعل بأهل السُنَّة الأعاجيب.

ومع ذلك فقد فُضِحَ أمره وانفض الناس من حوله وكان أبو يزيد الخارجي قاسي القلب، جباراً عنيداً، قال الشيخ طاهر الزاوي: « تدل أفعاله على نبذ الأديان[•]، وعدم احترام الإنسانية دخل القيروان بعد أن خرب البلاد، وقتل الرجال، وسبى النساء وشق فروجهنّ، وبقر بطون الحوامل، والتجأ الناس إلى القيروان حفاة عُراة، ومات كثير منهم عطشاً وجوعاً، وشكا إليه بعض الناس ما حل بالبلاد من الخراب، فقال لهم في سخرية واستهزاء : « وما يكون لو خربت مكة والبيت المقدس » [٣] .

وهكذا إذا غابت العقيدة السليمة، وغاب التصور الصحيح،والمنهج الرباني يصبح الإنسان وحشاً مفترساً في حروبه لا منهج يلزمه، ولا عقل يمنعه،ولا شرع يوجهه.

إن عقيدة أبا يزيد الخارجي الفاسدة جعلته جباراً عنيداً وغادراً ومفسداً لا يراعي عهداً ولا ذمة لأحد، وهذا دليل على انطماس الفطرة، وانغماسه في وحُول المستنقعات النتنة البعيدة عن نور الوحيين « كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ».

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٥).

(٢) النكارية فرقة من فرق الخوارج.

(•) ليس هناك أديان ، وإنما هناك شرائع ، وأما الدين فواحد فقط منذ آدم عليه السلام وإلى محمد ﷺ وهو دين الإسلام « التوحيد » .

(٣) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٥١).

واستطاع العبيديون الروافض القضاء على ثورة أبي يزيد في زمن إسماعيل بن محمد المهدي الملقب «بالمنصور» حيث استطاع المنصور أن يوقع بجيوش أبي يزيد خسائر فادحة في الأموال والرجال وتابعه حتى تمكن منه بعد جهد جهيد وظفر به مثخناً بجراحه ومات متأثراً بها، فسلخ المنصور جلده وحشاه تبناً وصلبه [١].

وقال العبيديون في هذا الموقف شعراً نظمه على بن محمد الأيادي الشاعر:

فارتقى الملعون من خيفته ... في ذرى أعيط عال مُصعد

في ذرى حلقاء ملساء على ... ذلك المعقل ليست بصدد

معقل من فوقه الله ومن ... تحته المنصور في جيش مُعد

فارتقى المنصور بالسيف له ... يوم طعن كشآبيب البرد

فإذا مخلد في كف الردى ... موثق الجيد بحبل من مسدد

فأبى الله سوى إعجاله ... وعذاب الله للجسم أهد

فنفى عنه أيدما دنساً ... كان قد أسرف فيه ومرد

كأديم التيس لما لم يطب ... ريحه جرد منه فانجرد

وحشاه سالخوه وسعفاً ... مالياً ما بين كعب وكند

ثم رقاه على مستحصد ... باسق أجرد ما فيه أود

وبقي مصلوباً حتى تمزق جلده وأذرته الرياح، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٣٦هـ، وواصل ابنه الثورة مطالباً بثأر أبيه، فأرسل إليه المنصور قائده زيزي ابن مناد [٢] فقتله، وانتهى أمر أبي يزيد الخارجي وابنه.

لم تكن ثورة أبي يزيد ذات خطة واضحة، ولم تكن لها أهداف لتكوين دولة، حيث إنه استطاع بجيوشه أن يكبل العبيديين خسائر فادحة، وينتزع منهم

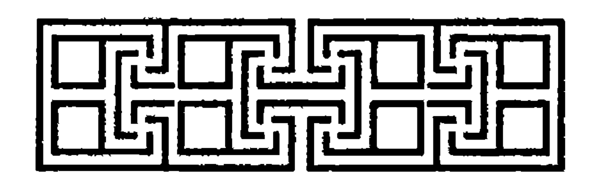
---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٧).

(٢) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٥١).

المُلك ويحاصرهم في المهدية، ومع هذا وقف حائراً فأساء السيرة مع كثير من القبائل، ففقدت الثقة فيه وانفضت من حوله، وإنما الواضح في ثورته الانتقام وسفك الدماء من مخالفيه بطريقة وحشية همجية تدل على قلب حقود لكل من يخالفه، واستغرقت هذه الثورة النارية أربعة عشر عاماً انشغلت بها دولة العبيدين الروافض.

ولعل هذا من سُنَّة الله في تسليط بعض الظالمين على بعض، حيث قتل الألوف من أتباع الطرفين وفقد الأمن والأمان في الشمال الإفريقي.



المبحث الرابع

القائم بأمر الله الخليفة الثاني الرافضي

أبو القاسم نزار بن عبيد الله

(٣٢٢-٣٣٤هـ، ٩٣٤-٩٤٥م)

هو أبو القاسم محمد بن المهدي بن عبيد الله، ولد في سلمية سنة ثمان وسبعين ومائتين، بويع له بخلافة الروافض في سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة

وكان مهيباً شجاعاً قليل الخير، فاسد العقيدة، خرج عليه في سنة اثنتين وثلاثمائة أبو يزيد مخلد بن كَيداد البربرى الخارجي، وجرت بينهما ملاحم وحروب، وحصره مخلد بالمهدية، وضيق عليه واستولى على بلاده ثم وسوس القائم، واختلط وزال عقله وكان شيطاناً مريداً يتزندق فأظهر سب الأنبياء، وكان أتباعه يصيحون العنُوا الغار وما حوى. وأباد عدداً من العلماء، وكان يراسل قرامطة البحرين، ويأمر بإحراق المساجد والمصاحف.

واستغل أبو يزيد الخارجي كفر أبي القاسم وألب عليه إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان، وكاد أن يتملك أبو يزيد المغرب بأجمعه وركزت ألويته عند جامع القيروان فيها: لا إله إلا الله لا حكم إلا لله، وعلمان أصفرن فيهما: نصر من الله وفتح قريب، وعلم لأبي يزيد فيه: اللهم انصر وليك على من سَبَّ نبيك [١].

وكان القائم العبيدي يقذف الصحابة علناً ويطعن في النبي ﷺ حتى إنه أمر بتعليق رءوس كباش على الحوانيت، وكُتبَ عليها إنها رءوس الصحابة، وبسبب

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ١٥/١٥٢-١٥٦).

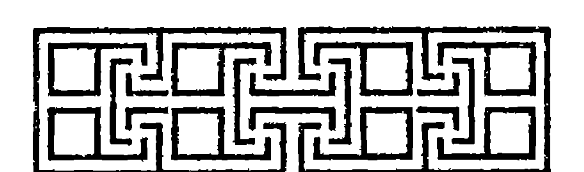
كفرهم وطغيانهم .

قال الشاعر في بني عبيد:

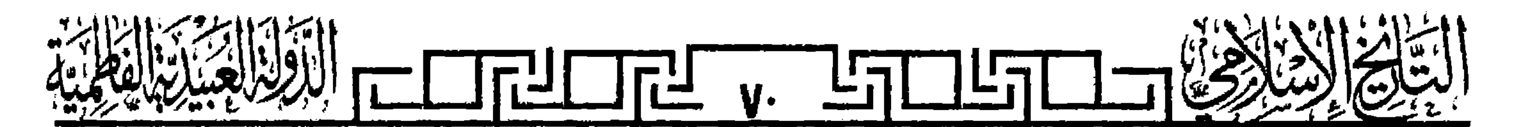
الماكر الغادر الغاوي لشيعته ... شرُّ الزنادقة من صحب وتُبَّاع

العابدين إذاً عجلا يخاطبهم ... بسحر هاروت من كفر وإبداع

لو قيل للروم أنتم مثلهم لبكوا ... أو لليهود لسدوا صمخ أسماع [1]



(١) المصدر السابق (جـ١٥/١٥٦) .



المبحث الخامس

الخليفة الشيعي الرافضي الثالث في الشمال الإفريقي

المنصور بنصر الله أبو الطاهر إسماعيل

(٣٣٤-٣٤١هـ / ٩٤٥-٩٥٢م)

هو أبو الطاهر إسماعيل بن القائم المهدي، العُبيدي الباطني صاحب المغرب.

تولى خلافة الروافض بعد أبيه، وهو الذي قضى على ثورة أبي يزيد الخارجي النكاري.

قال عنه الذهبي: «وكان بطلاً شجاعاً، رابط الجأش فصيحاً مُفوهاً يرتجل الخُطب، وفيه إسلامٌ في الجملة وعقل بخلاف أبيه الزنديق» [١].

قلت: وقول الذهبي وفيه إسلام في الجملة فيه نظر.

وذكر الذهبي شيئاً في كرمه فقال: «وقد جمع مرة من أولاد جنده ورعيته عشرة آلاف صبي، وكساهم كُسوة فاخرة، وعَمَلَ لهم وليمة لم يُسمع قط بمثلها، وختنهم جميعاً، وكان يهب للواحد منهم المائة دينار والخمسين دينار على أقدارهم»، ومن محاسنه أنه ولى محمد بن أبي المنظور الأنصاري قضاء القيروان، وكان من كبار أصحاب الحديث، ولقد لقي إسماعيل القاضي، والحارث بن أبي أسامة، فقال: بشرط أن لا آخُذ رزقاً ولا أركب دابة، فولاه يتألف الرعية، فأحضر إليه يهودي قد سَبَّ فبطحه، وضربه إلى أن مات تحت الضرب لعلمه أنه لو رفع إلى المنصور لا يقتله فضربه القاضي مظهراً ضرب الأدب حتى قتله [٢].

توفي في سنة إحدى وأربعين ومائة، بسبب برد وريح عظيمة أصابته مع جنوده وحاشيته عندما كان يتنزه.

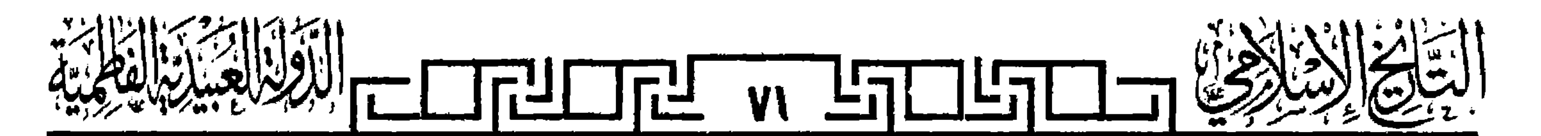
وكان يتودد إلى رعيته واقتصر على إظهار التشيع، وقام بعده المعز ولده [٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ١٥٨).

(٣) المصدر السابق (جـ١٥/ ١٥٩).



المبحث السادس

المعز لدين الله أبو تميم معد

(ذي القعدة ٣٤١ ـ ربيع ٣٦٥ هـ)

هو معد بن إسماعيل المنصور، وكنيته أبو تميم، ولد بالمهدية في ١١ من رمضان سنة ٣١٩هـ وعهد له والده بالخلافة بعده وجلس على سرير الملك من ذي الحجة سنة ٣٤١هـ، وهو الخليفة العبيدي الرابع الذي حكم الشمال الإفريقي.

واستطاع أن يمد نفوذه على معظم الشمال شرقاً وغرباً، ففي سنة ٣٤٢هـ ولي باسيل الصقلي عاملاً على سرت، وولي على إجدابية ابن كافي الكتامي، وولى على برقة وأعمالها أفلح الناسب. وتوسعت أملاكه في صقلية سنة ٣٥٤هـ، وفي أيامه دخل اليهود إفريقية، وأصبحت حدود مملكته إلى حدود مصر، ومن ثم استطاع أن يتابع أحوال الحكام والأمراء في مصر عن كثب، وأصبحت نفسه تسول له الاستيلاء على مصر، وبموت كافور الإخشيدي في سنة ٣٥٥هـ اضطربت الديار المصرية، فاقتنص المعز الفرصة ولم يجعلها تمر مر السحاب، فعزم ودبر وأقدم على حفر الآبار والقصور فيما بين القيروان إلى حدود مصر، وحشد الجيوش العظيمة، وجمع الأموال الجزيلة، واختار جوهر الصقلي قائداً لتلك الجيوش التي كانت تزيد عن مائة ألف، وأمر المعز كل أمرائه وولاته أن يسمعوا ويطيعوا ويترجلوا في ركاب جوهر الصقلي وتحركت الجيوش العبيدية لنقل المذهب الباطني إلى مصر ليتخلص من الأزمات والثورات والصراعات العنيفة التي قادها علماء أهل السُّنَّة في خمس عقود متتالية في الشمال الإفريقي، رافضين المذهب الباطني معلنين عقائد أهل السُّنَّة والجماعة، فاستفاد المعز من ضعف الحكم الإخشيدي التابع للدولة العباسية في مصر، فرمى بسهامه المسمومة إليها، ودفع إليها جيوشه المحمومة طالباً من أعوانه وشياطينه أن يقضوا

على الخلافة العباسية الأبية ذات التوجهات السنية.

وقد حاول المعز أن يضم الأندلس السنية إلا أن رجالها البواسل منعوه من أن يصل إلى هدفه، وفي جمادى الآخرة سنة ٣٥٨هـ استطاعت جيوش المعز دخول مصر بقيادة خادمه جوهر الصقلي الذي لم يجد أي عناء في ضمها لأملاك العبيديين وجوهر الصقلي هذا هو الذي بنى الأزهر الذي تم بناءه سنة ٣٦١هـ ليكون منبراً من منابر العبيديين الروافض في بث معتقداتهم الباطلة وأفكارهم الفاسددة ثم تحول بفضل الله ثم جهود صلاح الدين الأيوبي الذي قضى على العبيديين في مصر إلى قلعة من قلاع أهل السُّنَّة ، ودخلت جيوش العبيديين إلى دمشق سنة ٣٥٨هـ بقيادة جعفر بن خلاف أحد قواد العبيديين [١] . [٢] .

رحلة المعز إلى مصر :

وبعد أن مهدت مصر للمعز العبيدي جهز جيوشه وحاشيته وأهله وأمواله وسار مفارقاً شمال إفريقيا إلى مصر، ليتولى أمرها، فأسند زعامة الشمال الإفريقي إلى الأمير الصنهاجي بلكين ابن زيري وضم المعز إلى مصر كلاً من طرابلس وسرت وبرقة ، **وكان معه شاعره الملحد الذي غالى في مدح المعز محمد بن هانئ الأندلسي الذي قال:**

فكأنما أنت النبي محمد	وكأنما أنصارك الأنصار
ما شئت أنت لا ما شاءت الأقدار	فاحكم فأنت الواحد القهار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً	حقاً وتُخمد أن تراه النار

ومن شعره في المعز:

النور أنت وكل نور ظلمة	والفوق أنت وكل فوق دون
فارزق عبادك فضل شفاعة	واقرب بهم زُلفى فأنت مكين

---

(١) **انظر**: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٦٣).

(٢) خُطب على منابر دمشق للعبيديين عام (٣٥٨هـ) ، واستقر لهم الحال بها عام (٣٦٠هـ) .

ومنه:

تدعـوه منتـقـمـاً عـزيزاً قـادراً غـفـاراً مـوبقـة الذنوب صـفـوحـاً

أقـسـمت لولا أن دُعـيت خليـفـة لدُعـيت من بعـد المسيح مسـيحـا

شـهـدت بمفـخـرك السـموات العلا وتـنزل القـرآن فـيك مـديحـا

ومنه:

وعلمت من مكنون سـر الله مـا لـم يؤت في الملكوت مـيكائيـلا

لـو كـان آتى الخلق مـا أوتيتـه لـم يخلق التـشـبيـه والتـأويلا

وكان المعز وكذلك أجداده يستمعون إلى مثل هذه الكفريات ولا ينكرونها ويقرونهم عليها وكانت بداية رحلة المعز نحو مصر في ٣٦٢ هـ .

وقتل الملحد الكافر ابن هانيء في برقة « مقبرة الملاحدة » في رجب سنة ٣٦٢هـ ، وهو في الثانية والأربعين من عمره ووجدوا جثته مرمية رمي الكلاب على ساحل بحر برقة .

وتأسف المعز على قتله وقال: هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يُقدَّر لنا ذلك [١] ، واستمر المعز في سيره، حتى قارب الحدود المصرية، ووصل الإسكندرية يوم ٢٣ من شعبان سنة ٣٦٢هـ واستقبلته وفود عظيمة من أعيان القادة والزعماء والحكام في مصر .

وامتد ملك المعز من سبتة بالمغرب إلى مكة بالمشرق يأتمر بأوامره سكان سواحل المحيط الأطلنطي .

وبقي المعز في مصر سنتين ونصف، وتوفي بالقاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٣٦٥هـ ، ودامت ولايته بإفريقية ومصر ثلاثاً وعشرين سنة [٢] .

---

(١) **انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٣٦٢) .

(٢) المصدر السابق ص (٣٦٢) .

قال الشيخ طاهر الزاوي رحمه الله : «ودامت دولة الفاطميين ٢٦٠ سنة، منها اثنتان وخمسون سنة بالمغرب، ومائتان وثمان سنوات بمصر، وعدد خلفائها أربع عشر خليفة، أولهم عبيد الله المهدي، وآخرهم العاضد الذي توفي بمصر يوم عاشوراء سنة ٥٦٧هـ وبموته انقرضت دولة الفاطميين من المشرق والمغرب والمُلك لله وحده يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء» (١) .

قال الذهبي رحمه الله : «ظهر في هذا الوقت الرفض، وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحجاز والمغرب بالدولة العُبيدية، وبالعراق والجزيرة والعجم بني بُويَه، وكان الخليفة المطيع ضعيف الرتبة مع بني بُوية وضعف بدنه ثم أصابه فالج (•) ، وخَرَسٌ فعزلوه وأقاموا ابنه الطائع لله ، وله السكة والخطبة ، وقليلٌ من الأمور فكانت مملكة المعز أعظم وأمكن» (٢) .

وكان المعز شاعراً فمن شعره :

لله مـــا صنعت بنا	تلك المحاجر في المعاجر (٣)
أمضى وأقضى في النفوس	من الخناجر في الحناجر
ولقد تعبتُ ببينكم	تَعب المهاجر في الهواجر (٤)

وقال الذهبي رحمه الله في المعز:

«وعاش ستًّا وأربعين سنة وكان مولده بالمهدية ودفن بالمعزية بالقاهرة في عام خمسة وستين وثلاثمائة» (٥) .

---

(١) **انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٢٦٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/١٦٤).

(•) **فالج** : شلل .

(٣) **المعاجر** : وهو ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها .

(٤) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/١٦٣-١٦٤).

(٥) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/١٦٦).

المبحث السابع

جرائم العبيديين في الشمال الإفريقي

لقد ارتكب الباطنيون الروافض الشيعة في أهالي الشمال الإفريقي من أهل السُّنَّة ما تشيب منه الولدان ولا تصدقه العقول، وأنزلوا غضبهم وصبوا سخطهم على العلماء خاصة:

﴿ ١ ﴾ فعندما ادعى عبيد الله الرسالة أحضر فقيهين من فقهاء القيروان وهو جالس على كرسي ملكه وأوعز إلى أحد خدمه، فقال للشيخين: «أتشهدا أن هذا رسول الله ؟ فقالا بلفظ واحد: والله لو جاءنا هذا والشمس عن يمينه والقمر عن يساره يقولان: إنه رسول الله ، ما قلنا ذلك. فأمر بذبحهما » (١) وهذا الشيخان المغربيان هما ابن هذيل وابن البردون.

قال الذهبي عن ابن بردون: «هو الإمام الشهيد المفتي، أبو إسحاق، إبراهيم ابن البَرْذُون الضبي مولاهم الإفريقي المالكي، تلميذ أبي عثمان الحداد (٢) .

وطلب منه لما جرِّد للقتل: أترجع عن مذهبك ؟ قال: أعن الإسلام أرجع ؟ وقيل في سنة تسع وتسعين ومائتين (٣) إن عبيد الله المهدي الزنديق لم يدَّعِ الرسالة فحسب، بل سمح لأتباعه أن يغرقوا في كفرهم حتى ألَّهُوه فقد كانت أيمانهم المغلظة: «وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا الذي برقادة». ومن أكفر ممن ادعى معرفة الغيب والغيب لا يعلمه إلا الله، وهذا الأمر من خصوصيات الألوهية، فمن ادعاه لغير الله يقع في الشرك والكفر العظيم، قال تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا**

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ ١٤/ ٢١٧).

(٢) المصدر السابق (جـ ١٤/ ٢١٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (جـ ١٥/ ٢١٥).

وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ .

[الأنعام: ٥٩].

﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

[النمل: ٦٥].

كما أن الحلف لا يكون بمخلوق وإنما يكون بالخالق، قال رسول الله ﷺ : «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» وجاءت الأحاديث بالنهي عن الحلف بالآباء [(١)] .

﴿ ٢ ﴾ لقد كان شعراء الدولة العبيدية يمدحون خلفاءهم إلى درجة الكفر البواح وينشرونها بين الناس، وقد ظهر لك في شعر ابن هانئ الأندلسي في مدحه للمعز وكان أحد شعرائهم مدح عبيد الله فقال:

حلّ برقادة المسيح ... حل بها آدم ونوح

حل بها الله ذو المعالي ... فكل شيء سواه رايح [(٢)]

كما شبه شعراؤهم المهدية بمكة المكرمة وقصر المهدي بالكعبة.

هي المهدية الحرم المُوقى ... كما بتهامة البلد الحرام

وإن لثم الحجيج الركن أضحى ... لنا بعراص قصركم التثام [(٣)]

﴿ ٣ ﴾ شنوا حرباً نفسية على أهل السُنَّة وذلك بتعليق رءوس الأكباش والحمير على أبواب الحوانيت والدواب وكتبوا عليها أسماء الصحابة ﷺ (لعنهم الله أنى يؤفكون) وأظهروا سب الصحابة ﷺ ، وطعنوا فيهم وزعموا أنهم ارتدوا بعد النبي ﷺ وخصصوا دعاة للنداء بذلك في الأسواق.

---

(١) **انظر**: كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب ص (٩٠).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (جـ ١ / ٧٢).

(٣) البيان المغرب (جـ ١ / ١٨٤).

ومن ذكر الصحابة بخير أو فضل بعضهم على علي رضي الله عنه قُتلَ أو سُجِنَ [١] .

﴿ ٤ ﴾ عمل العبيديون على إزالة آثار بعض من تقدمهم من الخلفاء السُنيين، ولذلك أصدر عبيد الله أمراً بإزالة أسماء الحكام الذين بنوا الحصون والمساجد، وجعل اسمه بديلاً منهم، واستولى هذا الرافضي الخبيث على أموال الأحباس وسلاح الحصون، وطرد العبَّاد والمرابطين بقصر زياد الأغلبي وجعله مخزناً للسلاح [٢] .

﴿ ٥ ﴾ حرص العبيديون على منع التجمعات خوفاً من الثورة والخروج عليهم، ولذلك جعلوا بوقاً يضربونه في أول الليل فمن وجد بعد ذلك ضرب عنقه، كما أنهم كانوا يفرقون الناس الذين يجتمعون على جنازة من يموت من العلماء [٣] .

وهذا الفعل لا يزال مستمراً في الأنظمة القمعية البوليسية التي لا تري إلا ما يراه حكامها وطاغوتها وفرعونها: ﴿**مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر: ٢٩].

﴿ ٦ ﴾ أتلفوا مصنفات أهل السُّنَّة ، ومنعوا الناس من تداولها كما فعلوا بكتب أبي محمد بن أبي هاشم التُّجيبي (ت٣٤٦هـ) توفي وترك سبعة قناطير كتب، كلها بخط يده، فرفعت إلى سلطان بني عبيد فأخذها «ومنع الناس منها كيداً للإسلام وبغضاً فيه» [٤] .

﴿ ٧ ﴾ حرّموا على الفقهاء الفتوى بمذهب الإمام مالك، واعتبروا ذلك جريمة يعاقب عليها بالضرب والسجن أو القتل أحياناً، ويعقب ذلك نوع من الإرهاب النفسي، حيث يدار بالمقتول في أسواق القيروان وينادى عليه «هذا جزاء من يذهب مذهب مالك»، ولم يبيحوا الفتوى إلا لمن كان على مذهبهم كما فعلوا

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان(جـ١/٧٣) .

(٢) انظر : رياض النفوس(جـ٢/٥٦) .

(٣) انظر : رياض النفوس(جـ٢/٢٩) وجل هذا المبحث من كتاب الحديث في القيروان مع تصرف واضح .

(٤) المصدر السابق(جـ٢/٤٢٣) .

بالفقيه المعروف بالهزلي «أبو عبد الله محمد بن العباس بن الوليد» المتوفى في عام تسعة وعشرين وثلاثمائة [١] .

﴿ ٨ ﴾ منعوا علماء أهل السُّنَّة من التدريس في المساجد، ونشر العلم، والاجتماع بالطلاب، فكانت كتب السُّنَّة لا تقرأ إلا في البيوت خوفاً من بني عبيد فكان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو محمد بن التبان وغيرهما، يأتيان إلى أبي بكر بن اللباد، شيخ السُّنَّة بالقيروان في خفية، ويجعلان الكتب في أوساطهما حتى تبتل بالعرق خوفاً من بني عبيد [٢] .

وهذا المسلك لا زالت الدول القمعية في العالم الإسلامي تمارسه ضدَّ شعوبها فبعضها تمنع هذا الأمر كليًّا، وبعضها تسمح ببعض أمور الدين التي لا تصطدم مع مصالح الدول الكبرى.

﴿ ٩ ﴾ اجبروا الناس على الدخول في دعوتهم فمن أجاب تركوه، وربما ولوه بعض المناصب، ومن رفض قُتِلَ، كما فعلوا عقب أول جمعة خطبها عبيد الله بالقيروان، وقعت بين الدولة العبيدية وأهل القيروان مقتلة عظيمة، فأمر الشيعي بالكف عن العوام، وافتعل مناظرات صورية، فدارت على علماء السُّنَّة محن عظيمة، وقتل منهم عدة آلاف بسبب تمسكهم بإسلامهم ودفاعهم المستميت عن السُّنَّة ، قال القابسي: «إن الذين ماتوا في دار البحر - سجن العبيديين - بالمهدية من حين دخل عبيد الله إلى الآن أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح» [٣] هذا عدا من كانوا يقتلون دون سجن ويمثل بهم في شوارع القيروان، فأثر ذلك على سير الحياة العلمية، وقد خمل ذكر كثير من العلماء الذين آثروا اعتزال الفتنة، مثل أبي محمد الورداني [٤] ومع ذلك فإن

---

(١) المصدر السابق (جـ٢ / ٥٦) .

(٢) انظر : مدرسة الحديث بالقيروان (جـ/٧٦) .

(٣) المصدر السابق (جـ١ / ٧٤) .

(٤) المصدر السابق (جـ/٧٥) .

هذه المنحة لم تزد أهل الشمال الإفريقي إلا عزيمة وصبراً واحتساباً وتمسكاً بأصول أهل السُّنَّة والجماعة [١] .

﴿١٠﴾ عطلوا الشرائع، وأسقطوا الفرائض عمّن تبع دعوتهم ، حيث يقع إدخالهم إلى داموس ويدخل عليهم عبيد الله لابساً فرواً مقلوباً، داباً على يديه ورجليه، فيقول لهم: «بَحْ» ثم يخرجهم ويفسر لهم هذا العمل بقوله: «فأما دخولي على يدي ورجلي فإنما أردت بذلك أن أعلمكم أنكم مثل البهائم لا شيء، لا وضوء، ولا صلاة، ولا زكاة، ولا أي فرض من الفروض، وسقط جميع ذلك عنكم، وأما لباس الفرو مقلوباً فإنما أردت أن أعلمكم أنكم قلبتم الدين، وأما قولي لكم بَحْ، فإنما أردت أن أعلمكم أن الأشياء كلها مباحة لكم من الزنى وشرب الخمر ...» [٢] .

ويعجبني في هذا المقام ما قاله شاعر أهل السُنَّة في الشمال الإفريقي أبو القاسم الفزاري في هجاء بني عبيد:

عبدو ملوكهم وظنوا أنهم ... نالوا لهم سبل النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم ... فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق ... في أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحاً ... وأبا قدرة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا ... عمن أصارهم الإله نجوما
يا ليت شعري من هم إن جهلوا ... دنيا، ومن هم إن عددت صميما
أمن اليهود ؟ أم النصارى؟ أم هم ... دهرية جعلوا الحديث قديما
أم هم من الصابين أم من عصبة ... عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما

(١) المصدر السابق(جـ/٧٥) .
(٢) رياض النفوس(ج٢ / ٥٠٤) .

أم هم زنادقة معطلة رأوا أن لا عذاب غداً ولا تنعيما ؟
أم عصبة ثَنَوِيَّة قد عظموا النورين عن ظُلماتهم تعظيما ؟
من كل مذهب فرقة معلومة أخذوا بفرع وأدعوه أروما [1]

وستأتي قصيدته الرائية التي هجا فيها بني عبيد ، وكيف نجَّاه الله منهم بإذن الله تعالى .

﴿ 11 ﴾ زادوا في الأذان : « حي على خير العمل »، وأسقطوا من أذان الفجر « الصلاة خير من النوم »، ومنعوا الناس من قيام رمضان، وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة، ومنعوا صلاة الضُّحى، وقدموا صلاة الظهر لفتنة الناس، أما خطبة الجمعة فقد أظهروا فيها سب الصحابة وضروباً من الكفر، فتركها الناس، وأقفرت المساجد في زمانهم، وكان بعض أئمتهم يصلون إلى رقادة فلما انتقل عُبيد الله إلى المهدية صلوا إليها [2] وكثيراً ما يجبرون الناس على الفطر قبل رؤية هلال شوال [3] بل قتلوا من أفتى بأن لا فطر إلا مع رؤية الهلال كما فعلوا بالفقيه محمد ابن الحُبُلي قاضي مدينة برقة .

قال الذهبي رحمه الله في ترجمته :

«الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة، محمد ابن الحُبُلي».

أتاه أمير برقة ، فقال: غداً العيد، قال: حتى نرى الهلال، ولا أفطر الناس، وأتقلَّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور ـ وكان هذا من رأي العبيدية يفطِّرون بالحساب، ولا يعتبرون رؤية ـ فلم يُر هلال، فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد، فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلاً خطب. وكتب بما جرى إلى المنصور، فطلب القاضي إليه، فأحضر، فقال له: « تَنَصَّلْ،

---

(١) رياض النفوس (جـ٢ / ٤٩٤ – ٤٩٥) .
(٢) ، (٣) **انظر** : مدرسة القيروان (جـ ١ / ٧٣) .

وأعفو عنك، فامتنع، فأمر به ، فعُلِّقَ في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش، فلم يُسقَ، ثم صلبوه على خشبة، فلعنة الله على الظالمين [١] .

﴿ ١٢ ﴾ من جرائم عبيد الله الكثيرة أن خَيْلَهُ دخلت المسجد، فقيل لأصحابها : كيف تدخلون المسجد ؟ فقالوا : إن أرواثها وأبوالها طاهرة، لأنها خيل المهدي، فأنكر عليهم قيّم المسجد، فذهبوا به إلى المهدي فقتله، يقول ابن عذارى : وامتحن عبيد الله في آخر حياته بعلة قبيحة : دود في آخر مخرجه يأكل أحشاءه فلم يزل به حتى هلك [٢] .

إن إجيال المسلمين الذين يقرءون تاريخ العبيديين لا يعلمون إلا ما كتب لهم عن التاريخ السياسي لهذه الدولة، ذهب فلان وخلفه فلان، وأنها دولة تحب العلم وتنشره، والمقصود نشر كتب الفلاسفة ولكن لا أحد يذكر ـ عدا الذين ترجموا للعلماء ـ بطش هؤلاء الأوغاد الظلمة بالعلماء من أهل السُّنَّة ، بل إن الطلبة الذين يدرسون التاريخ الإسلامي يذكرون معد بن إسماعيل الملقب بالمعز، يذكرونه وكأنه بطل من أبطال التاريخ [٣] .

وهذا كله نتيجة لغياب التفسير العقدي الإسلامي لتاريخنا، بل إن المؤرخين الذين كتبوا لنا التاريخ تأثروا بمدارس الاستشراق أو بالفكر الشيعي، أو بذلت لهم أموال لطمس الحقائق التي لا بد من بيانها للأجيال الصاعدة لتعرف عدوها من صديقها، ولتعرف أن الأفكار لا تموت وإنما تتغير الأشكال والوجوه والمسوح، وأن هؤلاء الملاعين من أعداء الإسلام لا يزالون يعملون سراً وإعلاناً ليلاً ونهاراً للقضاء على العقيدة البيضاء الناصعة التي تلقفتها جموع أهل السُّنَّة والجماعة من الحبيب المصطفى ﷺ وأصحابة الغر الميامين الطاهرين الطيبين رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، (جـ١٥ / ٣٧٤) .
(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ ، محمد العبادة ، (ص ٣٩) .
(٣) أيعيد التاريخ نفسه ؟ ، محمد العبادة ، (ص ٤٠) .

المبحث الثامن
موقف علماء أهل السُنة وأساليب المقاومة

لقد قاوم علماء أهل السُّنَّة المد العبيدي الرافضي بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل للسلاح ضد الطغاة الظالمين ، وتمحورت طرقهم في عدة أساليب منها :

﴿ ١ ﴾ صمود العلماء والفقهاء ضد أعمال العبيديين وتحملهم للأذى والسجن والقتل مما ساهم في تثبيت عوام المسلمين على عقيدة أهل السُّنَّة ، وقد عمل العبيديون على إخلاء الساحة من العلماء بالترغيب وضمهم في دعوتهم أو بالترهيب حتى يسقط العامة.

﴿ ٢ ﴾ قاطع العلماء جميع مؤسسات الدولة العبيدية فلا يختصمون إلى قضائهم، ولا يصلون وراء أئمتهم، ولا يأتون مهنئين، ولا معزيين، ولا يتوارثون معهم، ولا يصلون على موتاهم، ولا يناكحونهم (١) .

وبرز في هذا العمل الجليل العلامة الفقيه أبو يوسف جلبة بن حمود بن عبد الرحمن الذي قاطع العبيديين علانية في أول خطبة لبني عبيد في جامع القيروان فعندما سمع ما لا يجوز سماعه قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ومشى إلى آخر باب في الجامع ، جامع القيروان ، والناس ينظرون إليه حتى خرج من الباب وهو يقول: قطعوها قطعهم الله، فمن حينئذٍ ترك العلماء حضور جمعتهم وهو أول من نبه على ذلك (٢) .

﴿ ٣ ﴾ حصن علماء أهل السُّنَّة أهل الشمال الإفريقي بالفتاوى التي أوضحت

---

(١) انظر : مدرسة أهل الحديث في القيروان (جـ١ / ٧٨) .
(٢) انظر : رياض النفوس للمالكي ، (جـ٢ / ٤٣) .

كفر بني عبيد، وأنهم ليسوا من أهل القبلة، كما كفروا من دخل في دعوتهم راضياً، ومن خطب لهم في دعوتهم، وقد انتشرت هذه الفتاوى، وعرفها الخاص والعام، فكانت حاجزاً منيعاً بين العوام، وبين التردي في دعوة الرافضة [١] ومن أشهر هؤلاء العلماء الذين حصنوا الأمة بمنهج أهل السُّنَّة والجماعة في الشمال الإفريقي في تلك الفترة الحرجة الشيخ أبو إسحاق السبائي رحمه الله، والذي رأى أن الخوارج من أهل القبلة فاجتهد في الوقوف معهم ضد الكفرة العبيديين.

قال الشيخ الفقيه أبو بكر بن عبد الرحمن الخولاني:

«خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي ـ رحمه الله تعالى ـ مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عدو الله مع أبي يزيد فكان أبو إسحاق يقول ـ ويشير بيده إلى عسكر أبي يزيد هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة ـ يريد عسكر بني عدو الله ـ فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من» هو «على غير القبلة ـ وهم بنو عدو الله ـ فإن ظفرنا» بهم «لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عز وجل يسلط عليه إماماً عادلاً فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا.

والذين خرجوا معه من الفقهاء والعباد: أبو العرب ابن تميم، وأبو عبد الملك مروان بن نصروان، وأبو الفضل المسمى، وأبو سليمان ربيع القطان [٢].

وكان ربيع القطان أول من شرع في الدعوى إلى الجهاد ضد العبيديين وندب الناس وحضهم عليه.

ولما حضرت صلاة الجمعة طلع «الإمام» على المنبر، وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد وخطب خطبة أبلغ فيها، وحرض الناس على الجهاد وأعلمهم بما

---

(١) رياض النفوس للمالكي (جـ٢ ، ٣٤٠) .
(٢) المرجع السابق (جـ٢ /٣٤٣) .

« لهم » فيه من الثواب، وتلا هذه الآية: ﴿ **لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ** ﴾ [النساء: ٩٥].

يا أيها الناس جاهدوا من كفر « بالله » وزعم أنه رب من دون الله تعالى وغيَّر أحكام الله عز وجل، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه.

فبكى الناس بكاءً شديداً، وقال في خطبته: « اللهم إن هذا القرمطي الكافر المعروف بابن عبيد الله المدعي الربوبية من دون الله، جاحدٌ لنعمك، كافرٌ بربوبيتك طاعنٌ على أنبيائك ورسلك، مكذبٌ لمحمد ﷺ نبيك وخيرتك من خلقك، سابٌّ لأصحاب نبيك وأزواج نبيك، أمهات المؤمنين، سافكٌ لدماء أمته، منتهكٌ لمحارم أهل ملته، افتراء عليك، واغتراراً بحلمك، اللهمَّ فالعنه لعناً وبيلاً، واخزه خزياً طويلاً، واغضب عليه بكرة وأصيلاً، وأصله جهنم وساءت مصيراً، بعد أن تجعله في دنياه عبرة للسائلين، وأحاديث في الغابرين، وأهلك اللهم شيعته، وشتت كلمته، وفرق جماعته، واكسر شوكته، واشف صدور قوم مؤمنين، ونزل فصلى الجمعة ركعتين وسلم، وقال: ألا إن الخروج غداً يوم السبت إن شاء الله » [١].

وركب ربيع القطان فرسه وعليه آلة الحرب، وفي عنقه المصحف، وحوله جمع من الناس من أهل القيروان متأهبون معدون لجهاد أعداء الله، وعليهم آلة الحرب فنظر إليهم القطان، فسر بهم وقال: الحمد لله الذي أحياني حتى أدركت عصابة من المؤمنين اجتمعوا لجهاد أعدائك، وإعزاز دينك، يا رب بأي عمل وبأي سبب وصلت إلى هذا ؟ ثم أخذ في البكاء حتى جرت دموعه على لحيته، ثم قال لهم: لو رآكم محمد رسول الله ﷺ لَسُرَّ بكم، وقال في موطن آخر بعد أن أنصت الناس: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**

---

(١) رياض النفوس للمالكي (جـ٢ / ٣٤٣، ٣٤٤).

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]، ثم قال: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٣ - ١٥].

ثم أشار بيده وقال: اذكروا الله يذكركم، فكبر الناس، ومشى حتى بلغ الجامع ودخل في قتال أعداء الله، حتى قتل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة مقبلاً غير مدبر[١] واستشهد معه فضلاء وأئمة وعُبَّاد صالحون.

قاطع العلماء من استجاب وداهن العبيديين من الفقهاء وإن لم يدخل في دعوتهم، ولذلك أفتى العلماء بطرح كتب أبي القاسم البَرَاذِعي[٢].

﴿٥﴾ فتح العلماء والفقهاء بيوتهم للناس لفضح معتقدات الباطنية العبيدية، وكان أبو إسحاق السبائي يفتح داره ويأخذ في ذم العبيديين والتحذير منهم، وكان يُكثر من ذكر فضائل الصحابة والثناء عليهم، ولانتشار أمر العبيديين وكانت داره كالمسجد لكثرة من يقصدها من الطلبة، وكذلك أحمد بن نصر الهواري، وأحمد بن يزيد الدباغ، واضطروا لذلك بعد منعهم العبيديون من التدريس في المساجد، واجتهد العلماء سراً في تعميق عقائد أهل السُّنَّة وأصولهم وفقههم في قلوب أهل الشمال الإفريقي[٣].

وهكذا الدعاة الربانيون والفقهاء العاملون مهما ضيق الطغاة والظلمة العتاة فإنهم لا بد أن يجدوا سبيلاً لتعليم الناس ودعوتهم إلى الرشاد.

﴿٦﴾ اجتهد علماء أهل السُّنَّة في غرس منهج أهل السُّنَّة في أبناء الكتاميين

---

(١) رياض النفوس للمالكي (جـ٢ /٣٤٣، ٣٤٤).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (جـ١ /٧٨).
(٣) انظر: مدرسة الحديث (جـ٢ / ٧٩).

والصنهاجيين والبرابرة الموالين للعبيديين وذلك ما قام به العلامة أبو إسحاق الجبنياني وغيره، فإنهم كانوا يعلمون الأولاد الصغار أبناء حملة الدعوة العبيدية بحيل لطيفة وكانوا لا يأخذون منهم أجراً، ترغيباً لهم في الإقبال عليهم، فكان من علمهم أبو إسحاق الجبنياني فيما بعد من أهل السُّنَّة والجماعة (١) .

ويظهر من هذا أن الاهتمام بأبناء السياسيين والمفكرين العلمانيين ووزراء الدول ومسئولي وموظفي الدولة في كل قطر ضرورة دعوية شرعية وحركية نحو إقامة شرع الله، والتمكين لدينه، وأما العداء وقطع الطرق والوسائل للوصول إلى أوكار العلمانيين ونزع أبنائهم من صولة الشياطين فأمر لا يليق بأصحاب الدعوة من أهل السُّنَّة والجماعة.

﴿ ٧ ﴾ ومن وسائل علماء السُّنَّة في الذب عن عقائد السلف وسيلة المناظرة والجدل وإفحام الخصم أمام عوام الناس، وممن سجلت لنا كتب التاريخ مآثره النيرة في هذا المضمار العلامة الفقية العالم الرباني أبو بكر القمودي الذي ناظر أبا العباس الشيعي مناظرة أفحمه فيها (٢) .

وإبراهيم بن محمد الضبي، وكان رجلاً صالحاً فقيهاً بارعاً في العلم وقتله بنو عبيد ظلماً وزوراً.

وبرز في المناظرة أبو محمد عبد الله بن التبان ، إلا أن أبا عثمان سعيد بن محمد الحداد كان أقدرهم في هذا الباب، فقد كانت له: « مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفاع عن الإسلام والذب عن السُّنَّة ».

أشهر مناظرات الإمام أبو عثمان سعيد بن الحداد :

دعاه عبيد الله المهدي وبين له عبيد الله حديث «غدير خم»: «من كنت مولاه فعلي مولاه». وهو حديث صحيح، فعطف عبيد الله «لعنة الله عليه» فقال لأبي

---

(١) المصدر السابق(جـ٢ / ٨٠) .

(٢) انظر : مدرسة الحديث(جـ/ ٨٠) .

عثمان فما للناس لا يكونون عبيدنا؟ ، فقال له أبو عثمان : أعز الله السيد لم يرد ولاية الرق، وإنما أراد ولاية في الدين، قال: فقال الله عز وجل: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ .

[آل عمران: ٧٩ ـ ٨٠].

فما لم يجعله الله عز وجل لنبي لم يجعله لغير نبي، وعلي لم يكن نبياً، وإنما كان وزير النبي ﷺ، فقال عبيد الله له: «انصرف لا ينالك أحد»، ويذكر أن أبا عبد الله الشيعي قال له يوماً: القرآن يقرّ أن محمداً ليس بخاتم النبيين.

فقال له: في قوله: ﴿ **وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فقال له سعد: هذه الواو ليست من واوات الابتداء، وإنما هي من واوات العطف كقوله عز وجل: ﴿ **هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ [الحديد: ٣]. فهل (من) أحد يوصف بهذه الصفات غير الله عز وجل؟، وتكلم (عنده) يوماً فغضب من كلامه رجل من كتامة يعرف بأبي موسى شيخ المشايخ وقام إليه بالرمح فمنعه أبو عبد الله من ذلك، ثم عطف على أبي عثمان فقال له: يا شيخ لا تغضب أتدري إذا غضب هذا (الشيخ) كم يغضب لغضبه اثنا عشر ألف سيف.

فقال أبو عثمان: ولكني (أنا) يغضب لغضبي (الله) الواحد القهار «الذى أهلك عاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً» [١] ، وقد جمع الله للشيخ سعد الحداد جهارة الصوت وفخامة المنطق وفصاحة اللسان وصواب

---

(١) **انظر** : رياض النفوس (جـ٢ / ٦٠).

المعاني، وكان عالماً باللغة والنحو، وإذا لحن في لفظة استغفر الله عز وجل، وكان إذا تكلف الشعر أجاده.

وذات مرة خرج لمناظرة الشيعي «أبو عبد الله» فخرج معه أهله وولده وهم يبكون فقال لهم: لا تفعلوا لا يكون إلا خيراً،حسبي من له خرجت ، وعن دينه ذببت .

فلما دخل على الشيعي في قصر إبراهيم بن أحمد فكان حوله جماعة من أصحابه وجماعة مما ينسب إليهم العلم سلم ثم جلس، فقال أبو عبد الله الشيعي لإبراهيم بن يونس ـ وقد قيل له: إن هذا الشيخ كان قاضياً على هذه المدينة ـ بأي شيء كنت تقضي؟

فقال له إبراهيم : بالكتاب والسُّنَّة .

فقال له أبو عبد الله : فما السُّنَّة ؟ .

فقال (له) إبراهيم : السُّنَّة السُّنَّة .

قال أبو عثمان: فلما سمعته على قوله «السُّنَّة... السُّنَّة».

قلت لأبي عبد الله: المجلس مشترك أو خاص؟.

فقال : مشترك.

فقال أبو عثمان: أصل السُّنَّة في كلام العرب !. المثال الذي يتمثل عليه، قال الشاعر:

تُرِيكَ سنة وجه غير مقرفة   مأساء ليس بها خال ولا ندب

أي صورة وجه ومثاله.

والسُّنَّة محصورة في ثلاث:

الائتمار بما أمر الله به رسوله ﷺ، والانتهاء عما نهى عنه، والائتساء به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي ﷺ وجاءت به السُّنَّة من طرق؟.

فقلت له: أنظر إلى أصح الخبرين نقلاً فآخذ بأصحهما، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين، ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة، فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي: فلو استووا في الثبات؟ .

فقلت له: يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً.

قال: فمن أين قلتم بالقياس؟.

فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله عز وجل.

قال: فأين تجد ذلك؟.

قلت: قال الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ [المائدة: ٩٥].

فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد (المعلومة) عينه ليس بمنصوص فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم ينص ذكر عينه: بالقياس والاجتهاد، ومنه قول الله عز وجل: ﴿ **يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ** ﴾ .
[المائدة: ٩٥].

فلم يكله إلى حاكم واحد بل جعلهما اثنين: ليقيسا ويجتهدا، فقال أبو عبد الله الشيعي: ومَنْ ذوا عدل؟ وأومأ «ذوا عدل» إنما هم قوم مخصوصون بنص الآية.

قال: فقلت: هم الذين قال الله عز وجل فيهم في آية المراجعة: ﴿ **وَأَشْهِدُوا**

ذوي عدل منكم﴾ [الطلاق: ٢]. ومثل ذلك في تثبيت القياس قوله عز وجل: **﴿ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ...﴾**. [النساء: ٨٣]. والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف (أبو عبد الله الشيعي) على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى؟.

فقال له موسى: قال النبي ﷺ: «**من شربها فاضربوه بالأردية، ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي، ثم إن عاد فاضربوه بالجريد**».

فقال له أبو عبد الله على النكير منه: أين هذا؟ أقول لك أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى، تقول: اضربوه بالأردية والأيدي ثم بالجريد؟.

قال أبو عثمان: فقلت له: إنما حد قياساً على حد القاذف «لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذي، وإذا هذي افترى، فوجب عليه ما يئول أمره إليه وهو حد القاذف» (١).

فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي صلى الله علي...».

وأعلمكم بحلال الله وحرامه معاذ، وأرأفكم أبو بكر، وأشدكم في دين الله عمر» ﷺ أجمعين.

فقال له الشيعي: وكيف يكون أشدهم في دين الله، وقد هرب بالراية يوم حنين؟.

فقال له موسى: ما سمعنا بهذا ولا نعرفه: قال أبو عثمان: فقلت له: تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى، قال الله عز وجل: **﴿إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة﴾**. [الأنفال: ١٦].

---

(١) انظر: رياض النفوس (جـ ٢ / ٧٩).

(فمن تحيز إلى فئة) كما أمر الله عز وجل فليس بفار .

فمال الشيعي بوجهه إلى بعض أصحابه فقال : أتسمع ما قال الشيخ، قال : انحاز إلى فئة كما أمر الله سبحانه .

فقال مجيباً - وهو يشير بيده - وأي فئة أكثر من رسول الله ﷺ وقد كان حاضراً ولم يتحيز وكأنه تخافت في كلامه ويسمع من يليه .

فقلت : جاء عنه ﷺ أنه قال : «**عمر فئة فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة**»، فسكت الشيعي [1] .

وسأل أبو عبد الله الشيعي أبا عثمان الحداد فقال : أفلا أوجب قول الله تعالى عند من سمعه : ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ**﴾[آل عمران : ١٤٤] . انقلاب أصحاب محمد ﷺ .

فقال له أبو عثمان : « لا »، لأن معناه أفإن مات أو قتل أفتنقلبون على أعقابكم لأن معنى « أفإن مات » : استفهام ومعنى « انقلبتم » : أفتنقلبون والاستفهامان إذا جاءا في قصة واحدة اجتزئ بأحدهما عن الآخر، وهذا الاستفهام إنما هو في معنى التقرير بأن لا تنقلبوا على أعقابكم .

فقال له : فهل تجد في كتاب الله عز وجل نظيراً يكون لهذا دليلاً؟ .

فقال له : نعم . قول الله عز وجل : ﴿**أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ**﴾[الأنبياء : ٣٤]، أي إنك إن مت فهم لا يخلدون، فلما التقى استفهامان أجزأ ذكر أحدهما عن الآخر، فكان لفظ الاستفهام من ذلك مراداً به التقرير : « بأنهم لا يخلدون » [2] .

وهكذا كان أبو عثمان سعد الحداد في دفاعه ومناظرته لأجل نصر عقائد أهل السُّنَّة والجماعة .

---

(١) **انظر** : رياض النفوس (جـ٢ / ٨٠).
(٢) المصدر السابق (جـ٢ / ٨٣).

ولما توفي رثاه الشعراء فقال فيه سهل بن إبراهيم الوراق:

وقالوا قضى نحبا وذاق منية ... فيالك من خطب يحل عُرى الصبر
وكم مارق عادى سعيداً وسبه ... وضاق به ذرعاً وبداه بالهجر
يود بقلب ذاب همًّا وغصة ... لو أن أبا عثمان في ظُلَم القبر
وأن امرءاً منكم تمنى وفاته ... وليس له عذر ففي واسع العذر
فليت الذي أمسى شجى في حلوقهم ... يمد له حبل الحياة إلى الحشر
أليس لسان المسلمين وسيفهم ... إذا كادهم أهم الضلال والكفر
أليس هلال الأرض بل شمس دجنها ... وبدر دجاها حين أمسيت بلا بدر
يجيب وما غاصت دقائق فكره ... جواباً عتيداً في أدق من السحر [1]

هذه بعض الأساليب والطرق والمناظرات التي قام بها علماء أهل السُّنَّة في الذود والدفاع عن عقائد المسلمين، فعليهم من الله الرحمة والرضوان على ما أبلوا وأقاموا به من جهاد ودعوة وفداء.

﴿ ٨ ﴾ قام شعراء أهل السُّنَّة بدور مجيد، وجهاد حميد في الدفاع عن الإسلام والهجوم على بني عبيد بالسنان والقوافي التي كانت على بني عبيد أشد من السيوف القواطع، وتبوأ مركز الصدارة في هذا الباب الشاعر المجيد أبو القاسم الزاري ، ومن أشهر ما قال قصيدته الرائية التي انتشرت في الآفاق والبلدان التي قال فيها:

عجبت لفتنة أعمت وعمت ... يقوم بها دعي أو كفور
تزلزلت المدائن والبوادي ... لها وتلونت منها الدهور

---

(١) المصدر السابق(جـ٢ / ١١٥) .

وضاقت كل أرض ذات عرض ... ولم تغن المعاقل والقصور
فنجى القيروان وساكنيها ... إله دافعٌ عنها قديم
أحاد بأهلها علماً وخُبراً ... وميزا ما أكنته الصدور
وجللهم بعافية وأمن ... وأسبل فوقها ستر ستير
وأثبت جلة العلماء فيها ... بحار لا تعد لا بحورُ
ومنها سادة العلماء قدما ... إذا عُدُّوا وليس لهم نظير
وفيها القوم عباد خيارا ... فقد طاب الأوائل والأخير
هم افتكوا سبايا كل أرض ... وفادوا ما استبد به المغير
كفيناهم عظائمها جميعاً ... فزالت عنهم تلك الشرور
وسكناً قلوباً خافقات ... أمات عروقها ضر ضريرُ
وأوينا وآسينا وكنا ... لهم أهلاً وأكثرهم شطير
فبات طعامنا لهم طعاماً ... هناك ودُورنا للقوم دورُ
وكان لنا ثواب الله ذُخراً ... وقام بشكرنا منهم شكور
ولولا القيروان وساكنوها ... لغاب طعامهم والمخ ريرُ (١)

ثم مضى في القصيدة إلى أن قال:

وليس لنا كما لهم حصون ... ولا جبل أعاليه وعورُ
ولا سور أحاط بنا ولكن ... لنا من حفظ رب العرش سُورُ
ولا نأوي إلى بحر وإنا ... إذا قضى القضا تُنحَى البحُورُ
ولكنا إلى القرآن نأوي ... وفي أيماننا البيض الذكور

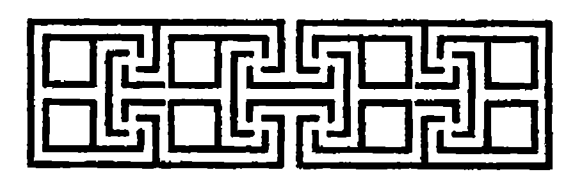
---

(١) المصدر السابق (جـ٢ / ٤٩٣).

عقائق كالبوارق مرهفات بها تحمي الحرائم والثغور
وسُمر في أعاليهن شهب بها ظمأ، مواردها النحورُ

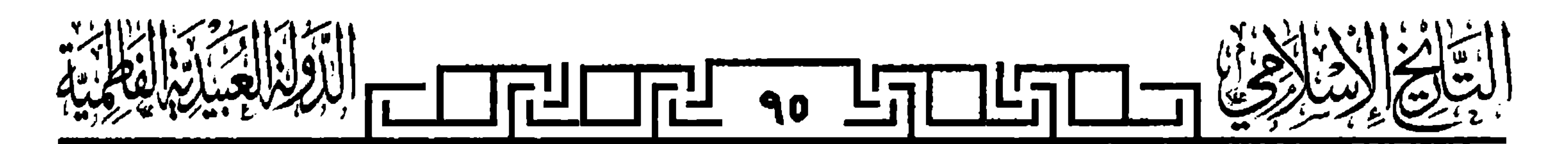
إلى أن قال:

وإنا بعد من خوف وأمن نُحب إذا تشعثت الأمور
رسول الله والصديق حباً به تُرجَى السعادة والحبورُ
وبعدهما نحب القوم طُراً وما اختلفوا فربهم غفورُ
ألا بأبي وخالصتي وأمي محمد البشير لنا النذيرُ
سأهدي ما حييتُ له ثناء مع الركبان ينجد أو يغور [١]



---

(١) انظر : رياض النفوس (جـ٢ / ٤٩٤).



الفصل الثالث

الدولة الصنهاجية

استمال خلفاء الدولة العبيدية القبائل البربرية الصنهاجية واستبدلوها بدلاً من القبائل الكتامية وأسندوا إليها الأمور المهمة في الدولة، وارتفع نجم الصنهاجيين في زمن عائلة بني زيري الصنهاجية التي استطاعت أن تثخن في ثورة أبي يزيد الخارجي، فأهدى العبيديون للصنهاجيين حكم إفريقية والمغرب، ومؤسس الدولة الصنهاجية هو أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي (٣٦٢ - ٣٧٣ هـ) الذي افتتح سنوات حكمه بقمع الثائرين وتمهيد البلاد.

المبحث الأول

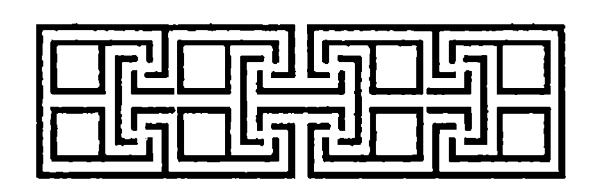
أبو الفتوح يوسف بُلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي

(٣٦٢-٣٧٣هـ/ ٩٧٢-٩٨٣م)

أصبح يوسف بلكيني بن زيري والياً أو أميراً لكل بلاد إفريقية، وهو أول حاكم لبلاد المغرب من أصل بربري بعد الفتح الإسلامي، وكان متفانياً في خدمة العبيديين وتوسيع أملاكهم، واشتد الصراع العنيف بين قبائل صنهاجة وقبائل زناتة، واستعمل الحاكم الصنهاجي أبو الفتوح القوة والعنف والشدة للقضاء على سيادة قبائل زناتة، واستطاعت الدولة الأموية في الأندلس أن تستفيد من هذا الصراع وتوجه ضربة موفقة للدولة العبيدية فدعمت قبائل زناتة بكل ما تملك حتى استطاعت أن تقف في وجه الصنهاجيين التابعين للعبيديين وكانت سياسة الصنهاجيين مبنية على العنف والقوة مع الزناتيين فلم يسعوا لكسب ودهم أو مهادنتهم واستغلت الدولة الأموية هذا الصراع حتى فصلت المغرب الأقصى عن

سيادة بني زيري [١] .

وأظهر الأمير بلكين نشاطاً واسعاً وعملاً دءوباً ، وكان محافظاً على تبعيته للعبيديين وولائه للمذهب الإسماعيلي الباطني ، إلا أنه لم يتشدد هو والأمراء الذين جاءوا بعده بمطالبة الناس بالتشيع، فانفسح المجال نسبياً أمام علماء أهل السُنَّة لنشر السُنَّة وبدأت الحياة العلمية تعود إلى المساجد والكتاتيب شيئاً فشيئاً، غير أن تلك المظاهر الرسمية من التبعية لحكام مصر والدعوة لهم على المنابر كانت تقلق العلماء وأسهمت في إيجاد هوة عميقة بينهم وبين حكام بني زيري، فمضوا في محاربة هؤلاء الحكام الذين لم يكونوا متحمسين للدعوة الإسماعيلية، والتف أهل الشمال الإفريقي حول علمائهم، وواصلوا مقاطعة الدولة، غير أن هؤلاء الحكام لم يستطيعوا الإعلان بموافقة علماء أهل السُنَّة خوفاً على سلطانهم، وأحسن أهل القيروان بذلك فراح علماؤهم يعملون جاهدين على نشر السُنَّة وآراء السلف، فعجت حلقات العلماء بطلاب العلم في القيروان من جديد، وكثرت المؤلفات في بيان دين الإسلام الصحيح وكان التخلص النهائي من أتباع العُبيديين، وانتصار أهل السُنَّة على الروافض في الشمال الإفريقي على عهد الأمير السُني والسيف القاطع والطود المنيف الأمير المعز بن باديس .



---

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢ / ٢٤ – ٣٠) .

المبحث الثاني

المعز بن باديس الصنهاجي

(٤٠٦-٤٤٩ هـ)

قال عنه الذهبي: « صاحب إفريقية، المعز بن باديس بن منصور بن بُلُكِّين بن زيري بن مناد الحميري، الصنهاجي، المغربي، شرف الدولة ابن أمير المغرب »(١).

نودي به أميراً يوم السبت الثالث من ذي الحجة سنة ٤٠٦هـ بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام(٢).

استطاع بعض فقهاء المالكية أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة وأثروا في بعض الوزراء والأمراء - الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السُنة.

وأخص بالذكر العلامة أبو الحسن الزجال الذي اجتهد على الأمير المعز بن باديس في تربيته على منهج أهل السُنَّة والجماعة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز إفريقية، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة الذين كانت الدولة دولتهم، وكان هذا العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة، ومبغض للمذهب الإسماعيلي الشيعي.

واستطاع أن يزرع التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس الذي تم على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الإفريقي.

وهذا درس لنا نحن الدعاة في الاهتمام برجالات الدولة وأبنائهم من أصحاب

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٤٠).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (٢٨٦).

المناهج العلمانية والبعيدة عن هدي المولى عز وجل، وليكن شعار العاملين في هذا المجال قوله تعالى: ﴿ **وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا** ﴾ [الكهف: ١٩ - ٢٠].

وقد وصف المؤرخون المعز بن باديس بأوصاف في غاية الروعة والجمال، فقال فيه الذهبي: «وكان ملكاً مهيباً، وسرياً شجاعاً، عالي الهمة، مُحباً للعلم، كثير البذل، مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بإفريقية فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام، فخلع طاعة العبيدية، وخطب للقائم بأمر الله العباسي، فبعث إليه المستنصر يتهدده، فلم يخفه» (١).

ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الذي هدده فيه وقال له:

هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء، في كلام طويل، فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم (٢).

وبينت لنا كتب التاريخ أن المعز تدرج في عدائه للإسماعيلية ولحكام مصر، وظهر لك في عام ٤٣٥ هـ عندما وسع قاعدة أهل السُنَّة في جيشه وديوانه ودولته فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الكفرية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله ﷺ فأوعز للعامة ولجنوده بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فسارعت العامة في كل الشمال الإفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفي الشمال الإفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه.

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الجليل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس رحمه الله وذكر الشعراء قوافي وأشعاراً في مدح المعز ودونوا تلك البداية،

---

(١) سير أعلام النبلاء (جـ١٨ / ١٤٠).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزواوي (ص٢٨٩).

فقال القاسم بن مروان في تلك الحوادث:

وسوف يقتلون بكل أرض ... كما قتلوا بأرض القيروان

وقال آخر:

يا معز الدين عش في رفعة ... وسرور واغتباط وجذل
أنت أرضيت النبي المصطفى ... وعتيقاً في الملاعين السفل
وجعلت القتل فيهم سنة ... بأقاصي الأرض في كل الدول (١)

استمر المعز بن باديس في التقرب إلى العامة وعلمائهم وفقهائهم من أهل السُنَّة وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن العبيديين في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته، وأعلن انضمامه للخلافة العباسية، وغيرَّ الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم وأحرق أعلام العبيديين وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها ١٤٥ سنة وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وكتب على الآخر: ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقضى المعز بن باديس على كل المذاهب المخالفة لأهل السُنَّة من الصفرية والنكارية والمعتزلة والإباضية.

وفي سنة ٤٤٣ هـ انضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له.

وكان أول من قاد حملة التطهير على الإسماعيلية في طرابلس وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته أبو

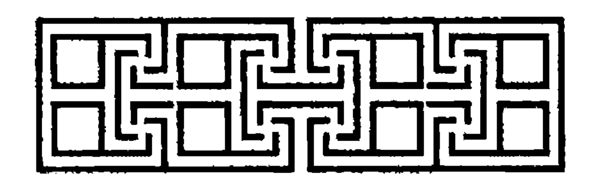
---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزواي (ص ٢٨٩).

الحسن [١] المتوفى عام ٤٣٢هـ.

واشتاط الحقد الباطني وتفجرت براكين الغضب في نفوسهم وقرروا الانتقام من قائد أهل السُنَّة في الشمال الإفريقي ومن أهله الذين فرحوا بعودة بلادهم لحظيرة أهل السُنَّة فانعقد في القاهرة مجلس رافضي باطني إسماعيلي بقيادة الخليفة العبيدي وخرجوا برأي شيطاني مفاده رمي الدولة السنية الصنهاجية الزيرية بقبائل بني سليم وبني هلال، فإن انتصرت الدولة الصنهاجية تكون الدولة العبيدية قد تخلصت من هذه القبائل المتعبة، وإن انتصر بنو سليم وبنو هلال يكونوا بذلك انتقموا من عدوهم اللدود المعز باديس، وكان الذي تبنى هذه الفكرة الوزير العبيدي أبو محمد الحسن ابن علي اليازوري الذي شرع في إغراء القبائل المقيمة على ضفاف النيل وأمدهم بالمال والسلاح والكراع وأباح لهم برقة والقيروان، وكل ما يكون تحت أيديهم، واتصل العبيديون بالمعارضين للمعز وأمدوهم بما يملكون من مال وسلاح وعتاد.

وبدأت حلقة الصراع العنيف بين المعز بن باديس والقبائل العربية المدعومة من الروافض العبيديين.



(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، لطاهر الزواوي (ص ٢٩٠، ٢٩١).



المبحث الثالث

زحف بني هلال وبني سليم وغيرهما من القبائل إلى الشمال الإفريقي

تمهيد :

كانت قبائل بني هلال وبني سليم تسكن الجزيرة العربية وكانت مضاربها متوزعة حول المدينة النبوية ومكة والطائف ونجد، واستطاع القرامطة أن يستغلوهم في حروبهم ضد الخلافة العباسية والدولة العبيدية، وتأثر بعض زعماء هذه القبائل بأفكار وعقائد القرامطة، ولم يكن تأثرهم عميقاً وإنما كانت له أسباب اقتصادية ونزعة تمردية على الانقياد للدولة العباسية، وفي قتال القرامطة مع العبيديين لعبت هذه القبائل دوراً بارزاً في الشام وكانت لها شوكة ومنعة وعدة وعتاد.

فاستطاع الأمير العبيدي في مصر أن يجلبهم ويقربهم له بالعطايا والهدايا والأموال، واستجابت لطرح الخليفة العبيدي الذي كان حريصاً على وجود العنصر العربي في دولته، وأعطتهم الدولة العبيدية أراضي خصبة على ضفاف النيل، وأعطت القبائل ولائها للدولة العبيدية، وتبنت شعارات الدولة الباطنية لجهلها وبُعْدها عن فهم حقيقة دينها، وأخلصت للخليفة العبيدي الذي قرر الانتقام من المعز بن باديس بهذه القبائل ذات الشوكة والشكيمة والمنعة والدراية بالحروب، وخصوصاً أن الدولة العبيدية كانت لا تستطيع إرسال جيوشها بسبب انشغالها بالقرامطة، ومشروعاتها بالشام والمشرق عموماً، ولأن طوائف من جيشها من نفس جنس المغاربة، بل من قادتها من هو من نفس قبيلة المعز بن باديس، ولا سيما أن الدولة أهملت هؤلاء القادة والجنود منذ أيام العزيز والخليفة العبيدي.

وكانت القبائل العربية التي في صعيد مصر - بعضها يرجع للفتح الإسلامي - قد ازدادت بعد تركهم للجزيرة العربية ومجيئهم إلى مصر في زمن العزيز العبيدي.

واشتهرت تلك القبائل في صعيد مصر بفعل القلاقل وإشاعة الاضطراب والفوضى في البلاد، فكانت هذه المرة فرصة ذهبية للتخلص منها والانتقام من عدو الدولة وقهره والتشفي منه.

وينسب للمستنصر قوله: «والله لأرمينّه بجيوش لا أتحمل فيها مشقة»، فدعا العرب وأباح لهم مجاز النيل إلى المغرب، وكانت ممنوعة عنها قبل ذلك، فعبر منهم خلق عظيم [١].

واجتمع الأمير المستنصر العبيدي مع زعماء القبائل العربية ومنّاهم بالمساعدة المالية والمعنوية وأعطاهم خيولاً وسلاحاً وعتاداً ومالاً وكل ما يساعدهم في تحقيق أهدافه الشريرة وأباح لهم إفريقية يفعلون فيها ما يشاءون، وقال لهم: «لقد أعطيناكم إفريقية وملك ابن باديس فلا تفتقرن بعدها» [٢].

وعندما تحركت جموع العرب في ٤٤٢ هـ - ١٠٥٠ م أرسل الوزير العبيدي الحاقد إلى المعز بن باديس رسالة قائلاً له: «أما بعد، فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً، وحملنا عليهم رجالاً كهولاً، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً» [٣].

فسيطرت هذه القبائل على برقة بدون مقاومة تذكر، وكانت برقة قد تمردت على العبيديين أيام الحاكم، وأعلنت الطاعة للمعز أيام المستنصر، وأحرقت المنابر التي كان يخطب فيها للعبيديين، وأحرقت إلى طرابلس وضواحي تونس، وكان تعداد هذه القبائل المهاجمة على الشمال الإفريقي أربعمائة ألف، ولحقتها أفواج تترى.

---

(١) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، د. عبد المنعم ماجد (ص ٢٢٣).

(٢) **انظر**: تاريخ الفتح العربي، (ص ٢٩٤).

(٣) ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها، د. عبد المنعم ماجد (ص ٢٢٤).

ويذكر بعض المؤرخين أن العدد الكلي وصل إلى مليون نسمة على مراحل متعددة، وعندما استقرت هذه القبائل في برقة أرسلت أحد شيوخها وهو مؤنس بن يحيى ابن مرداس من رياح أحد بطون بني هلال لينزل ضيفاً على المعز، فعجب مؤنس من النعيم والأبهة التي كانت للمعز بن باديس، فأكرمه المعز وأحسن في ضيافته، وعرض عليه المعز أن يتخذ من بني عمه رياح جنداً له، فأشار عليه مؤنس بألا يفعل معللاً ذلك بعدم انقيادهم واختلاف كلمتهم فلم يقتنع المعز بما قاله مؤنس.

وقال مؤنس للمعز: إنهم قوم لا طاقة لك بهم .

فقال له المعز: هم دون ذلك، فاعتبرها مؤنس إهانة للعرب، وظن المعز أن مؤنساً لا يريد أن يكون لغيره سلطان على قومه، وصارحه بذلك.

فلما رجع مؤنس إلى قومه رغبهم ووصف لهم من خيرات إفريقية وأبهة المعز ما رغبهم في الإسراع بالرحيل، فانسابوا في أرض إفريقية في جموع لا يدرك أولها ولا ينتهي آخرها [١] .

ومن أشهر القبائل العربية التي زحفت على ملك المعز بن باديس بنو سليم بن منصور، وبنو هلال بن عامر وهم من مضر وكانت قبائل زغبة والأثيح، وعدي، ورياح من الهلاليين من بني عامر بن صعصعة وبني هاشم بن معاوية بن بكر، وهذه القبائل مضرية عدنانية.

وقبيلة كهلان وهي قحطانية، وقبائل أخرى كثيرة غير مشهورة.

وعندما رحلت بنو رياح والأثيح وبنو عدي إلى إفريقية يريدون اللحاق بالقيروان، قال لهم مؤنس: ليس هذا برأي والأمر يحتاج إلى تدبير، فقالوا له: وماذا تصنع؟ فقال: ائتوني ببساط فأتوه به، فبسطه وقال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه؟ فقالوا: ومن يقدر على ذلك؟ فقال: أنا،

---

(١) انظر : تاريخ الفتح العربي ، (ص ٢٩٥) .

فطوى وقال: هكذا فاصنعوا ببلاد المغرب، املكوها شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى عليكم إلا القيروان فاتوها فإنكم تملكونها، **فقال له رافع بن حماد ـ وهو أحد رؤساء العرب ـ** : صدقت يا مؤنس، والله إنك لشيخ العرب وأميرها، فقد قدمناك على أنفسنا، فلسنا نقطع أمراً دونك:

وقد اقترعوا على البلاد فخرج لنبي سليم شرقيها: برقة وما حولها، وخرج لبني هلال غربيها: طرابلس وقابس، وانضم بنو جشم إلى بني هلال.

وكان في العرب كثير من غير بني هلال وبني سليم من فزارة وأشجع من بطون غطفان، وجشم بن معاوية بن بكر بن هوزان، وسلول بن مرة بن صعصعة بن معاوية، والمعقل من بطون اليمنية، وكلهم مندرجون في بني هلال وفي الأثبج على الخصوص، لأن الرياسة كانت عندهم للأثيج وهلال فأدحلوا فيهم.

وكانت الأثيج من الهلاليين أوفر عدداً، وأكثر بطوناً، وكان التقدم لهم في حملتهم، وكان منهم الضحاك، وعياض، ومقدم، والعاصم، ولطيف، ودريد، وكرفة، وغيرهم حسبما يظهر في نسبهم.

وكان لهم القوة، وكانوا أحياء غزيرة من جملة الهلاليين الداخلين لإفريقية [1] ومن أشراف رجالات العرب: حسن بن سرحان، وأخوه بدر، وفضل ابن ناهض، وهؤلاء من دريد بن الأثيح.

ومنهم ماضي بن مقرب، وسلامة بن رزق في بني كبير، في بطون كرفة، من الأثيح. وذياب بن غانم، وينسبونه في بني ثور، وموسى بن يحيى، وينسبونه في مرداس رياح، لا مرداس سليم. وهو من بني صقر، بطن من مرداس رياح. ومنهم زيد بن زيدان، وينسبونه في الضحاك، وفارس بن أبي الغيث، وأخوه عامر، والفضل بن أبي علي، ونسبهم في مرداس وكل هؤلاء يذكرون في أشعارهم [2] .

(١)، (٢) **انظر** : تاريخ الفتح العربي، (ص٢٩٧) .

المبحث الرابع

الصدام المسلح بين المعز بن باديس والقبائل العربية

ذكر ابن الأثير دخول العرب إلى إفريقية في حوادث عام ٤٤٢ هـ إلى أن قال: « ثم قدم أمراء العرب إلى المعز بن باديس فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً، فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنوا الغارات، وقطعوا الطريق، وأفسدوا الزروع، وقطعوا الثمار، وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قط، فحينئذٍ احتفل المعز، وجمع عساكره، فكانوا ثلاثين ألف فارس ومثلها رجّالة، وسار حتى حيل بينه وبين القيروان ثلاثة أيام وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس » « والصحيح أنهم كانوا على قدر جيش المعز على قول صاحب موسوعة المغرب العربي » فلما رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك، وعظم عليهم، فقال لهم موسى بن يحيى: ما هذا يوم فرار؟ فقالوا: أين نطعَنُ هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر؟ قال في أعينهم، فسمى ذلك اليوم يوم العين، والتحم القتال، واشتدت الحرب، فاتفقت صنهاجة على الهزيمة، وترك المعز مع العبيد حتى يرى فعلهم، ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب، فانهزمت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعز، فكثر القتل فيهم، فقتل منهم خلق كثير، وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب، فلم يمكنهم ذلك، واستمرت الهزيمة، وقتل من صنهاجة أمة عظيمة، ودخل المعز القيروان مهزوماً، على كثرة من معه وأخذ العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره [(١)].

وقد وصفت كتب التاريخ هذه الواقعة بأبشع ما توصف به الحروب من فظاعة

---

(١) الكامل في التاريخ (جـ٦ /١٥٣).

القتل وكثرة القتلى، نتيجة لصمود كل من الجيشين للآخر في سبيل دحر خصمه والقضاء عليه، وقال الشاعر العربي علي بن رزق الرياحي أبياتاً في هذه المعركة يصف فيها ما دار بينهم وبين المعز:

وإن ابن باديس لأحزم مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال

ثلاثة آلاف لنا غلبت له ... ثلاثين ألفاً إن ذا لنكال [١]

ولما كان يوم النحر من هذه السنة (٤٤٢ هـ) جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس، وهجم على العرب على حين غرة وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولهم وهجمت على جيوش المعز فهزمتهم وأثخنتهم قتلى، ثم جمع المعز وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، وهاجم العرب في منازلهم، واحتدم القتال وتبارز الشجعان فانكسرت شوكة صنهاجة وولت زناتة الأدبار، وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله وتناقلته الركبان، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من رجال المعز فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة، ثم أقبلت العرب حتى استقرت بمصلى القيروان ووقعت حروب طاحنة مع المعز قتل من المنصورية ورقادة خلق كثير، فلما دخلوا استطالت عليهم العامة، ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامي، وكانت الغلبة للعرب وفي سنة ٤٤٦ هـ أشار المعز على الرعية بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من العرب [٢].

بعد أن رتب أمور العاصمة الزيرية الجديدة ونقل لها كافة وظائف الدولة انتقل المعز إلى المهدية ٤٤٩ هـ فتلقاه ابنه تميم ومشى بين يديه واستولى العرب على القيروان وهدموا حصونها وقصورها وقطعوا الثمار، وخربوا الأنهار، وكانت الوقائع والمعارك والحروب التي خاضها المعز مع العرب درساً قاسياً له، أقنعته بألا

---

(١) تاريخ الفتح العربي، (ص ٢٩٩).

(٢) الكامل في التاريخ، (جـ٦ /١٥٤).

طاقة له بالعرب ، أيقن أن العبيديين مكروا به مكراً عظيماً ، وكان من أسباب الهزائم المتلاحقة التي لحقت بالمعز قوة العرب وشجاعتهم ، وخذلان جنوده من البرابرة الذين لا زالوا يعظمون الخلافة العبيدية ، حيث خذلوه في أكثر من موقع ، وتقريب المعز لعبيده مما أوغر نفوس صنهاجة وزناتة عليه .

وعندما استقر المعز في المهدية فوض أمر الدولة وشئون الحكم لابنه تميم الذي آنس فيه والده حسن التصرف وأصالة الرأي .

وبقي هذا المجاهد العظيم في ضيافة ابنه إلى أن توفاه الله سنة ٤٥٣ هـ [١] .

ويشهد التاريخ الإسلامي لهذا القائد الإسلامي البربري أن له الفضل بعد الله في القضاء على عقائد الباطنية الإسماعيلية في الشمال الإفريقي وكان درعاً حصيناً لمنهج أهل السُنَّة والجماعة ودافع عنه ، واحترم علماء أهل السُنَّة وقدمهم في دولته وكلفه ذلك ثمناً باهظاً من قِبل أعدائه .

كما يشهد التاريخ للمعز بن باديس وأتباعه من البرابرة أنهم تبنوا منهج أهل السُنَّة والجماعة، وربطوا شمالهم الإفريقي بالخلافة الشرعية العباسية في بغداد ويشهد التاريخ أن المعز أصبح علماً من أعلام المسلمين ورمزاً من رموزهم ودخل تاريخهم من أوسع أبوابه مسجلاً أعمالاً عظيمة ونرجو من الله أن تكون في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم .

ذكر ابن الأثير في أحداث سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وفاة المعز بن باديس وولاية ابن المعز فقال : « في هذه السُنَّة توفي المعز بن باديس، صاحب إفريقية، من مرض أصابه، وهو ضعف الكبد، وكانت مدة ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لما ملك إحدى عشرة سنة، وقيل ثماني سنوات وستة أشهر » .

وكان رقيق القلب، خاشعاً، متجنباً لسفك الدماء إلا في حد، حليماً، يتجاوز

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، طاهر الزاوي ، (ص ٣٠٠) .

عن الذنوب العظام، حسن الصحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم، كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرة ألف دينار للمستنصر الزناتي وكان عنده وقد جاءه هذا المال، فاستكثره، فأمر به فأفرغ بين يديه، ثم وهبه له، فقيل له: لم أمرت بإخراجه من أوعيته؟ قال: لئلا يقال لو رآه ما سمحت نفسه به، وكان له شعر حسن.

ولما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكل حي وإن طال المدي هُلُكُ ... لا عز مملكة يبقى، ولا ملك

ولى المعز على أعقابه فرمى ... أو كاد ينهدُّ من أركانه الفلك

فقيداً وأبقى في خزائنه ... هام الملوك، وما أدراك ما ملكوا

ما كان إلا حساماً سله قدر ... على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا

كأنه لم يخض للموت بحر وغي ... خضر البحار، إذا قيست به، برِكُ

ولم يُجدْ بقناطير مقنطرة ... قد أرخت باسمه إبريزها السكك

روح المعز وروح الشمس قد قبضا ... فانظر بأي ضياء يصعد الفلك [1]

---

(١) تاريخ الفتح العربي، (ص ٢١٤).

المبحث الخامس
أبناء وأحفاد المُعز

أولاً: تميم بن المُعز:

ولد بالمنصورية في الثالث من رجب سنة ٤٢٢هـ ، وولاه أبوه على المهدية سنة ٤٤٥هـ ، ثم أسندت إليه ولاية إفريقية من والده المعز ، وسار في الناس بسيرة حسنة، وقرب أهل العلم وكان شجاع القلب، ذا همة عالية، وسياسة، ودهاء، استطاع أن يستعيد المدن التي سلبت من والده، واستمال زعماء العرب بالمال والعطايا، وصاهرهم وامتزج معهم، وجعل منهم جنوداً لدولته بكياسة وفطانة وسياسة نادرة، واستطاع أن يضم مدينة سوسة في عام ٤٥٥ هـ بعد أن قضى على منافسه حمو بن مليك، وعفا عن أهلها وحقن دماءهم بعد أن قضى على المقاومة المسلحة التي واجهته [١] .

وفي سنة ٤٥٧ هـ أراد الناصر بن علناس الحمادي زعيم الدولة الحمادية احتلال المهدية والقضاء على ملك تميم وجهز جيشه من صنهاجة وزناتة وبني هلال، فاستدرج تميم بن المعز القبائل العربية للوقوف بجانبه، وأعطاهم السلاح والمال والعتاد، واستطاع أن يقضي على جيش الناصر، وقتل منهم ٢٤ ألفاً، وترك الغنائم والأموال للعرب التي استغنت بذلك، وقال تميم: يقبحُ بي أن آخذ سلب ابن عمي فأرضى العرب بذلك [٢] .

وفي سنة ٤٨٤ هـ ضم تميم مدينة قابس بعد أن تولى أمرها عمرو بن المعز، وكان قبل عمرو رجل يسمى قاضي بن إبراهيم بن بلمونة، وكان ضمه لقابس بالجيوش الجرارة فقال له أصحابه: يا مولانا لما كان فيها قاضي توانيت عنه

---

(١) الكامل لابن الأثير(جـ٦ / ٢٣٤) .
(٢) المرجع السابق نفسه(جـ٢ / ٢٤٣) .

وتركته، فلما وليها أخوك جردت إليه العساكر، فقال: لما كان فيها غلام من عبيدنا كان زواله سهلاً علينا، وأما اليوم وابن المعز بالمهدية، وابن المعز بقابس فهذا لا يمكن السكوت عليه.

وفي فتحها يقول ابن خطيب سوسة القصيدة المشهورة التي أولها:

ضحك الزمان، وكان يلقى عابساً ... لما فتحت بحد سيفك قابساَ
الله يعلم ما حويت ثمارها ... إلا وكان أبوك قبل الغارسا
من كان في زُرق الأسنة خاطباً ... كانت له قلل البلاد عرائساَ
فابشر تميم بن المعز بفتكة ... تركتك من أكناف قابس قابساَ
ولّوا فكم تركوا هناك مصانعاً ... ومقاصراً ومخالداً، ومجالساً
فكأنها قلبٌ، وهن وساوسُ ... جاء اليقين، فذاد عنه وساوساَ [١]

وفي سنة ٤٩٣ هـ استطاع تميم أن يضم مدينة صفاقس وأن ينتزعها بالقوة من حاكمها المتمرد حمو بن فلفل البرغواطي [٢].

ويعتبر عصر تميم أزهى من عصر والده فيما بعد دخول القبائل العربية.

وكان يضرب به المثل في الجود والشجاعة والكرم والعطاء، قال فيه ابن كثير: «من خيار الملوك حلماً وكرماً، وإحساناً، ملك ستًّا وأربعين سنة وعمر تسعاً وتسعين سنة، ترك من البنين أنهد من مائة، ومن البنات ستين بنتاً، وملك بعده ولده يحيى، **ومن أحسن ما مدح به الأمير تميم قول الشاعر:**

أصحُّ وأعلى ما سمعناه في الندا ... من الخبر المروي منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم [٣]

---

(١) الكامل في التاريخ (جـ٦/ ٣٦٧).
(٢) تاريخ الفتح العربي (ص ٣٠٢).
(٣) البداية والنهاية (جـ٢/ ١٨١).

وكان عالماً فاضلاً، وشاعراً رقيق العاطفة، ومن شعره:

فإما الملوك في شرف وعز ... على التاج في أعلى السرير
وإما الموت بين ظُبا العوالي ... فلستُ بخالد أبد الدهور (١)

وقال ابن الأثير- رحمه الله -

«كان شهماً شجاعاً، ذكيًّا، وله معرفة حسنة، وكان حليماً، كثير العفو عن الجرائم العظيمة، وله شعر حسن، فمنه أنه وقعت حرب بين طائفتين من العرب، وهم عدي، ورياح، فقتل رجل من رياح، ثم اصطلحوا، وأهدروا دمه، وكان صلُحهم مما يضر به وببلاده، فقال أبياتاً يحرض على الطلب بدمه، وهي:

متى كانت دماؤكم تُطَل ... أما فيكم بثأرٍ مستقلٌ
أغانمُ ثم سالمُ إن فشلتم ... فما كانت أوائلكم تُذلٌّ
ونمتم عن طلاب الثأر حتى ... كأن العز فيكم مُضمَحِلٌّ
وما كسرتم فيه العوالي ... ولا بيض تُفَل، ولا تُسلٌّ

فعمد أخوة المقتول فقتلوا أميراً من عدي، واشتد بينهم القتال، وكثرت القتلى، حتى أخرجوا بني عدي من إفريقية (٢) .

ومن أقواله التي صارت مثلاً في إفريقية «أسرار الملوك لا تذاع» .

وانطوت صفحة حياته في عام ٥٠١ هـ بعد أن عادت للدولة الزيرية هيبتها.

ثانياً: يحيى بن تميم بن المعز بن باديس:

عهد إليه أبوه بالولاية في حياته في السادس عشر من ذي الحجة سنة ٤٩٧ هـ، واستقل بالأمر يوم وفاة أبيه، وعمره ثلاث وأربعون سنة وستة أشهر وعشرون يوماً فكان موفقاً (٣) .

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، (ص ٣٠٢) .
(٢) الكامل (جـ٦ /٤٨٥) .
(٣) المصدر السابق .

ولما استقر في الملك جهز أسطولاً إلى جزيرة جربة، وسببها أن أهلها يقطعون الطريق ويأخذون التجار، فحاصرها وضيق عليها، فدخلوا تحت حكمه، والتزموا ترك الفساد، وضمنوا صلاح الطريق (١) .

وكان مهتمًّا بعلم الأخبار وأيام الناس والطب وكان مغرمًا بالكيمياء ، وحاول ثلاثة من الباطنية قتله فدخلوا عليه زاعمين أن لهم دراية بالكيمياء إلا أن الله نجاه منهم.

قال الذهبي: « وقد وقف ليحيى ثلاثة غرباء، وزعموا أنهم يعلمون الكيمياء فأحضرهم ليتفرج وأخلاهم، وعنده قائد عسكره إبراهيم، والشريف أبو الحسن، فسل أحدهم سكيناً، وضرب الملك، فما صنع شيئاً ورفسه الملك فدحرجه، ودخل مجلساً وأغلقه، وقتل الآخر الشريف، وشد إبراهيم بسيفه عليهم، ودخل المماليك، وقتلوا الثلاثة، وكانوا باطنية، أظن الآمر العبيُدي ندبهم لذلك » (٢) .

وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه، وخلدوا مديحه في دواوينهم، ومن جملة شعرائه أبو الصلت ابن عبد العزيز أمية بن أبي الصلت الشاعر الذي عاش في كنفه بعد أن جاب البلدان، وله في يحيى مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن، ومن جملة ما قاله من مديحه قصيدة:

فارغب بنفسك إلا عن ندى ووغى ... فالمجدُ أجمع بين البأس والجود

كدأب يحيى الذي أحييت مواهبه ... ميتَ الرجاء بإنجاز المواعيد

معطي الصوارم والهيف النواعم ... والجرد الصلادم والبزل الجلاعيد

أشم أشوس مضروب بسرادقه ... على أشم بفرع النجم معقود

إذ بدا بسرير الملك محتبياً ... رأيت يوسف في محراب داود

---

(١) **انظر** : التذكار ، (ص ٣٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (جـ١٩/ ٤١٤) .

إلى أن قال :

هذي موارد يحيى غيرُ ناضبة وذا الطريق إليها غير مسدود
حكم سيوفك فيما أنت طالبه فالسيوف قضاء غير مردود[١]

وتوفي الأمير يحيى سنة ٥٠٩ هـ متأثراً بمرض أصابه بعد الاعتداء من قبل الباطنيين الذين حاولوا قتله ولازمه المرض إلى أن توفي[٢] وقال ابن الأثير: كانت وفاته يوم عيد الأضحى فجأة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وخمسة عشر يوماً ، وكانت ولايته ثماني سنين وخمسة أشهر وخمسة وعشرين يوماً، وخلف ثلاثين ولداً، فقال عبد الجبار بن محمد بن حمديس الصقلي يرثيه ويهنئ ابنه علياً بالملك:

فقال :

ما أغمد الغضب إلا جرد الذكر ولا اختفى قمر حتى بدا قمر
بموت يحيى أميت الناس كلهم إن حتى إذا ما عليٌّ جاءهم نُشِروا
يبعثوا بسرور من تملكه وعينها من أبيه دمعها همرُ
شقت جيوب المعالي بالأسى فبكت في كل أفق عليه الأنجم الزهرُ
وقل لابن تميم حزن مادهما فكر حزنٍ عظيمٍ فيه محتقرُ
قام الدليلُ ويحيى لا حياة له ن المنية لا تبقي ولا تذر[٣]

ثالثاً: الأمير علي بن يحيى بن تميم بن المعز:

ولد يوم ١٥ من صفر سنة ٤٩٩ هـ وولاه والده على صفاقس وتولى الحكم بعد وفاة والده.

---

(١) وفيات الأعيان ، (جـ٦ / ٢١٥) .
(٢) ابن عذاري (جـ١ / ٣٠٦) .
(٣) الكامل (جـ٦ / ٥٢٤) .

وبعد عامين من حكمه جهز علي أسطولاً في البحر وأرسله إلى مدينة قابس وضرب عليها حصاراً، وذكر ابن الأثير السبب في ذلك فقال: «وسبب ذلك أن صاحبها رافع بن مكن الدهماني أنشأ مركباً بساحلها ليحمل التجار في البحر، وكان ذلك آخر أيام الأمير يحيى، فلم ينكر يحيى ذلك، جرياً على عادته في المداراة، فلما ولي علي الأمر بعد أبيه، أنف من ذلك وقال: لا يكون لأحد من أهل إفريقية أن يناوئني في إجراء المراكب في البحر بالتجار، فلما خاف رافع أن يمنعه علي، التجأ إلى اللعين رجار حاكم صقليه حتى ينصره ويعينه على إجراء مركبه في البحر، وأنفذ في الحال أسطولاً إلى قابس، فاجتازوا بالمهدية، فحينئذٍ تحقق علي اتفاقهما، وكان يكذبه».

فلما جاز أسطول رجار بالمهدية أخرج علي أسطوله في أثره، فوصل إلى قابس، فلما رأى صاحب أسطول الفرنج المسلمين لم يخرج مركبه، فعاد أسطول الفرنج، وبقي أسطول علي يحصر رافعاً بقابس مضيقاً عليه، ثم عادوا إلى المهدية [١].

وبعد ذلك أراد رافع أن يحاصر المهدية وجمع شتات الأعراب وجهز جنوداً وزعم أنه يريد الدخول في طاعة الأمير علي إلا أن الأمير لم تنطل عليه الحيلة وحاربه وكسر شوكة رافع حتى تدخل بعض الأعيان من العرب وغيرهم للصلح بين الطرفين [٢].

وشعر الأمير علي بن يحيى بخطورة زعيم صقلية «رجار» عليه فأصدر أوامره بتجديد الأسطول وإعداد العدة لدحر قوات رجار البحرية، وكاتب المرابطين بمراكش في الاجتماع معهم على الدخول إلى صقلية، فكف رجار عن شره [٣] وتوفي الأمير علي بن يحيى بن تميم، صاحب إفريقية، في العشر الأخير من ربيع

---

(١)، (٢)، (٣) الكامل (جـ٦ / ٥٢٤).

الآخر ،وكانت حروبه وأعماله تدل على علو همته، ولما توفي ولي الملك بعده ابنه الحسن، بعهد أبيه،وقام بأمر دولته صندل الخصي، لأنه كان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة لا يستطيع أن يستقل بتدبير الملك، فقام صندل بالأمر خير قيام، فلم تطل أيامه حتى توفي، فوقع الخلاف بين أصحابه وقواده، كل منهم يقول أنا المقدم على الجميع، وبيدي الحل والعقد، فلم يزالوا كذلك إلى أن فوض أمور دولته إلى قائد من أصحاب أبيه يقال له: أبو عزيز موفق، فصلحت الأمور [١] .

رابعاً: الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم:

ولد بسوسة سنة ٥٠٢ هـ، وتولى بعد وفاة أبيه وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها، وضعفت دولته وأصبحت هدفاً للنصارى الحاقدين، ورأوا أن الفرصة قد حانت لاحتلال مدن جنوب البحر المتوسط وإذلال المسلمين، واستطاع رجار الصقلي احتلال طرابلس وبعدها المهدية.

وخرج الحسن بن علي من المهدية وهو يقول: «سلامة المسلمين أحب إلي من الملك والقصر».

وأراد الذهاب إلى العبيديين في مصر ثم تنحى عن هذه الفكرة وراسل ابن عمه زعيم الدولة الحمادية في المغرب الأوسط إلا أن ابن عمه حبسه في إقامة جبرية خوفاً من أن يتصل بخليفة الموحدين عبد المؤمن بن علي، واستطاع الحسن بن علي أن يتصل بخليفة الموحدين ودخل تحت سلطانه وعملا على تحرير أراضي المسلمين والمدن الساحلية من كل وجود للنصارى راضياً بخلافة الموحدين، وتضاربت الأقوال في سنة وفاته إلا أنه بالتأكيد كانت بعد سنة ٥٥٥ هـأثناء ذهابه لعاصمة الموحدين حيث عاجلته المنية وهو في شد الرحال إليها.

وبسقوط المهدية في قبضة النصارى الحاقدين بقيادة رجار الصقلي سنة ٥٤٣ هـ

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٤ / ٨٢، ٨٣).

انتهت دولة بني زيري بعد أن دام ملكها على أرض إفريقية والمغرب الأوسط نحو مئة وثمانين عاماً (١٨٠سنة) منذ زمن مؤسسها الأول بلكين ٣٦٢ هـ إلى الحسن ابن علي عام ٥٤٣هـ ، وقبل الدخول في أسباب سقوط الدولة الزيرية خصوصاً والدولة العبيدية عموماً نبين ما حدث لطرابلس الغرب من هجوم شرس غادر من قبل النصارى وما مر من أحداث في تلك الفترة.

[أ] والي طرابلس في زمن الأمير الحسن بن علي الصنهاجي :

وهو محمد بن خزرون بن خليفة بن ورو.. ولي طرابلس بعد شاه ملك وقرب منه شيوخ بني مطروح لما لهم من الزعامة والرئاسة والمكانة والنفوذ في طرابلس، وأسند إليهم رئاسة الجند وتدبير الأمور وأصبح لا يصدر إلا عن رأيهم وخلع يد الطاعة من الحسن بن علي، وامتنعوا عن دفع الأموال إليه وأعلنوا طاعتهم للعبيديين في مصر.

[ب] رجار يهاجم طرابلس:

وفي سنة ٥٣٧ هـ هاجم رجار طرابلس وحاصرها بأسطوله ونقبوا أسوار المدينة فدافع أهلها عنها دفاعاً مستميتاً واستنجدوا بسكان الضواحي من العرب وغيرهم فأنجدوهم، ولم يتمكن رجار من دخول المدينة فرجع إلى صقلية خائباً، وغنم الطرابلسيون منه بعض الأسلحة، وبقي ابن خزرون مستقلاً بطرابلس يدبر ويرتب وينظم شئونها ويدين بالطاعة للعبيديين في مصر [١] .

[جـ] المجاعة في طرابلس:

في سنة ٥٤٠ هـ تعرضت طرابلس لمجاعة كبيرة فاضطر بعض السكان إلى ترك البلاد والجلاء عنها، وكان محمد بن خزرون عنيفاً شديداً على سكان البلاد قاسياً في حكمه ضايق الناس في معيشتهم فضاقوا به ذرعاً وهو لا يزداد إلا

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٠٥) .

تعسفاً.

وكان بنو مطروح في مقدمة وجهاء طرابلس ومن زعمائهم وكانوا معينين لمحمد ابن خزرون، ولكنهم نقموا عليه أعماله وحاولوا أن يخففوا من وطأته فجمعوا الناس وخرجوا عليه وأبعدوه هو وشيعته من المدينة وكان رجار حاكم صقلية يتابع هذا التنازع، فاستغل الظروف، واستفاد من وقوع كارثة المجاعة وثورة السكان على ابن خزرون وطرده من المدينة، فأراد الانتقام لهزيمته الأولى فأرسل جيوشه وأساطيله وهاجم بهم طرابلس فدخلها بدون مقاومة واحتلها بدون متاعب عام ٥٤١ هـ.

وبانتهاء محمد بن خزرون انتهى حكم بني خزرون في طرابلس.

وأصبح قائد أسطول رجار «جرجي بن مخائيل الأنطاكي» الذي تعلم في الشام ورافق تميم بن المعز حاكماً على طرابلس وطلبوا منه الأمان فأمنهم، وشرط لهم ألا يلزمهم بما يخالف دينهم.

وهذه هي المرة الأولى التي يستولي فيها النصارى الحاقدين على طرابلس، أما المحاولة التي كانت سنة ٥٣٧ هـ فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها [1].

وحاول رجار أن يسيطر على أهل طرابلس بأهلها فأسند لهم رجار ولاية طرابلس، وعين يوسف بن زيري قاضياً، وكنيته أبو الحجاج، وحكم رافع بن مطروح اثنتي عشرة سنة وهو يدين لرجار بالطاعة.

وفي تصوري أن رضاه بالعمل تحت راية النصارى مضطراً إليها اضطراراً خارجاً عن إرادته، واجتهد الشيخ في تقليل المضار ودفع عن المسلمين ما أمكنه من ضرر مع انقياده لرجار في صقلية.

ولما هلك رجار سنة ٥٤٨ هـ بعد أن ملك ما بين المهدية وطرابلس ما عدا قابس

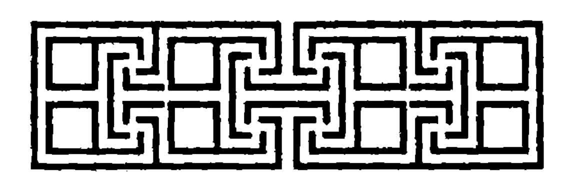
---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٠٧).

خلفة في الحكم ابنه غاليالم وسمى نفسه رجار الثاني، فقويت شوكته في الشمال الإفريقي، ودخلت قابس في طاعته، وكان شديد الوطأة على المسلمين، فملوا حكمه ، وسئمت نفوسهم تحت حكمه وتشجعوا مع ظهور دعوة الموحدين في إفريقية وقربهم من المهدية.

وبدأت الثورة المسلحة ضد غاليالم في صفاقس، وانتشرت في البلاد الساحلية، ووصلت إلى نواحي طرابلس، وقد خاف غاليالم أن يتصل الطرابلسيون بالثورة فأحدث فتنة بين الأهالي لتلهيهم عن التفكير في الثورة، وعن الاتصال بالموحدين وطلب من أهالي طرابلس أن يشتموا الموحدين، فامتنع أهل طرابلس ولجئوا إلى القاضي أبي الحجاج، وكلفوه بأن يفهم غاليالم بأن طلبه هذا يخالف الدين وتمكن القاضي من إقناعه فأعفاهم من طعن الموحدين وشتمهم.

ودفعت معاملة غاليالم الطرابلسيين للثورة ضده بسبب ظلمه وتعسفه فقاد رافع ابن مطروح الثورة ضده وتحررت طرابلس عام ٥٥٣ هـ من حكم النصارى، وأصبح رافع بن مطروح حاكماً على طرابلس لما له من جاه ومكانة عند أهل طرابلس، ومع امتداد دعوة الموحدين في الشمال الإفريقي دخلت طرابلس في طاعة عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين ، وكان ذلك في عام (٥٥٥ هـ) [١] .



(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٠٧)

المبحث السادس

أسباب سقوط الدولة الزيرية في الشمال الإفريقي

﴿ ١ ﴾ عجز الدولة الزيرية في توحيد الشمال الإفريقي كله، لظهور بعض القبائل المناهضة للصنهاجيين مثل قبائل زناتة التي تحالفت مع الدولة الأموية في الأندلس.

﴿ ٢ ﴾ الانقسام الداخلي الذي حدث للعائلة الزيرية وترتب على ذلك ظهور الدولة الحمادية في المغرب الأوسط.

﴿ ٣ ﴾ الصراع المسلح الذي استمر عشرات السنين بين الصنهاجيين والزناتيين والكتاميين مما أضعف الدولة أمام التحديات الخارجية.

﴿ ٤ ﴾ المكر الباطني بالدولة الزيرية وتمثل ذلك في محاولة اغتيال سلاطينهم وإرسال قبائل بني هلال وبني سليم للانتقام من المعز بن باديس سلطان الدولة الزيرية في زمانه.

﴿ ٥ ﴾ انفصال بعض المدن عن عاصمة الدولة الزيرية بسبب الزحف العربي المدعوم بالحقد الباطني ومحاولة سلاطين الدولة الزيرية إرجاع هذه المدن المنفصلة مما كلف الدولة الزيرية جهداً ووقتاً ودماءً وأرواحاً من أجل إرجاع تونس وتخليصها من بني خراسان وصفاقس وتخليصها من البراغواطي وفاس وتخليصها من بني جامع.

﴿ ٦ ﴾ الغزو الصليبي القادم من وراء البحر الأبيض المتوسط، وصراع الدولة الزيرية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوربا، بدأ ذلك الغزو النصراني الحاقد بعد أن استولت قوات النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤ هـ فاحتلوا جزيرة جربة عام ٥٢٩ هـ، وزحفوا على فاس ٥٤٢ هـ،

وأنهكت الصراعات الداخلية التي حدثت بين العرب وزناته وبني حماد قوة الدولة الزيرية مما جعل الحملات الصليبية تستسهل مهمتها في القضاء على الدولة الصنهاجية الزيرية، وتم لها ذلك بسقوط المهدية عام ٥٤٣ هـ .

﴿ ٧ ﴾ هجرة العلماء والفقهاء من القيروان والمهدية إلى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى .

﴿ ٨ ﴾ تعرضت التجارة والصناعة والزراعة لهزات عنيفة نتيجة الاضطرابات والصراعات الداخلية مما جعل الناس تهاجر إلى الأندلس وصقلية والمشرق الإسلامي .

حكام بني زيري في القيروان والمهدية :

﴿ ١ ﴾ بلكين بن زيري بن مناد بن منقوش الصنهاجي (٣٦٢ – ٣٧٤ هـ، ٩٧٣ – ٩٨٤ م) .

﴿ ٢ ﴾ المنصور بن بلكين بن زيري (٣٨٦ – ٣٨٦ هـ، ٩٨٤ – ٩٩٦ م) .

﴿ ٣ ﴾ باديس بن المنصور بن بلكين (٣٨٦ – ٤٠٦ هـ، ٩٩٦ – ١٠١٥ م) .

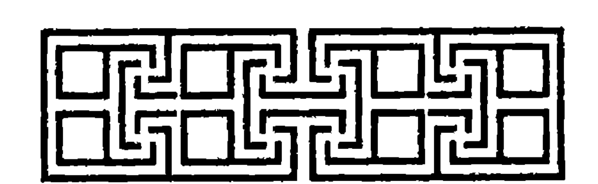
﴿ ٤ ﴾ المعز بن باديس بن المنصور (٤٠٦ – ٤٥٣ هـ، ١٠١٥ – ١٠٦٢ م) .

﴿ ٥ ﴾ تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١ هـ، ١٠٦٢ – ١١٠٧ م) .

﴿ ٦ ﴾ يحيى بن تميم بن المعز بن باديس (٥٠١ – ٥٠٩ هـ، ١١٠٧ – ١١١٦ م) .

﴿ ٧ ﴾ علي بن يحيى بن تميم (٥٠٩ – ٥١٥ هـ، ١١١٦ – ١١٢١ م) .

﴿ ٨ ﴾ الحسن بن علي بن يحيى (٥١٥ – ٥٤٣ هـ، ١١٢١ – ١١٤٨ م) .



الفصل الرابع

سقوط الدولة العُبيدية

المبحث الأول

من أسباب سقوط الدولة العبيدية وانحدار المد الباطني والتغلغل النصراني الصليبي

﴿ ١ ﴾ مقاومة المغاربة الباسلة للمد العبيدي الباطني بقيادة العلماء والفقهاء والمحدثين مما جعل زعماء الدولة العبيدية يقررون نقل ملكهم وزعامتهم إلى مصر.

﴿ ٢ ﴾ ظهور القائد الإسلامي المغربي البربري المعز بن باديس الذي أعلن انفصاله السياسي والعسكري والعقدي عن الدولة العبيدية في مصر.

﴿ ٣ ﴾ صراع الدولة العبيدية مع القرامطة في الشام من أجل الأطماع الدنيوية الأرضية.

﴿ ٤ ﴾ استعانة العبيديين بالنصارى الأوربيين للوقوف ضد تقدم السلاجقة في بلاد الشام، ثم غدر النصارى بالعبيديين بعد مجيئهم وخذلانهم للدولة العبيدية في مصر.

﴿ ٥ ﴾ رفض المصريين للمذهب العبيدي الباطني والعمل الجاد من قبل العلماء والفقهاء وأبناء الشعب المصري في نخر الدولة العبيدية الباطنية.

﴿ ٦ ﴾ رجوع الدولة العباسية إلى التمسك بالكتاب و السُنَّة والدعوة إليها، وكانت من أوائل بدايات الرجوع ما قام به الخليفة القادر بالله عام ٤٠٨ هـ حيث استتاب فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرءوا من الاعتزال والرفض والمقالات

المخالفة للإسلام [١].

وامتثل السلطان محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك واستن بسنته في عقوبة المعتزلة والرافضة والإسماعيلية، وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم كما أحرق كتب الفلسفة [٢] وحسر المجاهد محمود الغزنوي المد الباطني الرافضي الإسماعيلي في بلاد الهند وبلاد أفغانستان.

قال فيه ابن كثير في ترجمته: « الملك الكبير، المجاهد الغازي أبو القاسم صاحب بلاد غزنه وما والاها، فتح فتوحات كثيرة في بلاد الهند، لم يتفق لغيره من الملوك لا قبله ولا بعده، وغنم مغانم كثيرة، وكان مع هذا في غاية الديانة وكراهة المعاصي وأهلها، كان يحب العلماء والمحدثين، ويحب أهل الخير والدين» [٣].

وعندما حاول العبيديون في مصر إغراءه بالهدايا كي يقيم الدعاية لهم في بلاده، أحرق كتبهم وهداياهم [٤]، وقتل التاهرتي «مندوبهم للدعوة، وأهدى بغلته إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي، وقال: كان يركبها رأس الملحدين، فليركبها رأس الموحدين [٥] واستطاع هذا الملك السني الميمون أن يكسر شوكة الإسماعيلية والمبتدعة في بلاده فجزاه الله خيراً وتوفي هذا الملك المجاهد عام ٤٢١ هـ واستمرت دولته في غزنة فترة طويلة، وكان حفيده مثله في سيرته الميمونة، واستمر الغزنويون يحكمون الهند بمذهب أهل السُنَّة إلى القرن الثالث عشر الهجري حين تحكم الإنجليز ونقلوا السلطة إلى الهنادكة بعد رحليهم» [٦].

﴿ ٧ ﴾ ظهر السلاجقة السنيون في بلاد خراسان وامتد نفوذهم إلى عاصمة

---

(١) الكامل (جـ٩ / ٣٠٥).
(٢)، (٣) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٨، ٣٢).
(٤) **انظر**: البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٢، ٤٣)، وأيعيد التاريخ نفسه ؟، (ص ٦٦، ٦٨) والروضتين، (ص ٣١).
(٥)، (٦) أيعيد التاريخ نفسه ؟، (ص ٦٦).

الخلافة واستطاعوا أن يقضوا على البويهيين عام ٤٤٨ هـ وبذلك سقطت دولة البويهيين الشيعية وقضى السلاجقة على فتنة البساسيري الشرير، وفي عام ٤٤٨ هـ أزيل ما كان على أبواب المساجد من سب الصحابة، وأمر رئيس الرؤساء بقتل شيخ الروافض أبي عبد الله الجلاب لغلوه في الرفض (١).

وعي عهد ألب أرسلان زعيم السلاجقة عاد للأمة عزها المفقود، ورجعت لهم الانتصارات الكبيرة على النصارى، وعمل ألب أرسلان على تخليص حلب وديار الشام من الهيمنة العبيدية وإرجاعها للخلافة العباسية، وفي عام ٤٦٢ هـ رجعت مكة إلى السيادة العباسية، وانخلعت من التبعية العبيدية، وأعطى السلطان ألب أرسلان لمحمد بن أبي هاشم حاكم مكة ثلاثين ألف دينار (٢).

وفي زمن وزارة نظام الملك «الحسن بن علي» اهتمت الدولة السلجوقية بتولية الأمور القيادية في الدولة للقواد والأمراء الذين فيهم خلق ودين وشجاعة، ونشروا علوم أهل السُّنَّة، قال المؤرخ أبو شامة: «فلما ملك السلجوقية جددوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس لا سيما في وزارة نظام الملك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها» (٣).

وهذا الوزير الصالح «نظام الملك» الحسن بن علي« هو الذي شجع بناء المدارس للطلبة، ففي عام ٤٥٩ هـ فرغ من عمارة المدرسة النظامية في بغداد، وأسس المدارس في نيسابور وغيرها من البلدان، وقد سرى هذا الاتجاه في بناء المدارس السنية إلى مصر، وهي تحت النفوذ العبيدي الباطني فقد أنشأ أبو الحسن علي بن السلار وزير الظافر سنة ٥٤٤ هـ مدرسة وجعل رياستها للحافظ السلفي، وكانت المدرسة الوحيدة للشافعية في الإسكندرية، كما أنشئت المدرسة العوفية ٥٣٢ هـ

---

(١) البداية والنهاية (جـ ١٢ / ٤٣)
(٢) أيعيد التاريخ نفسه؟ (ص ٦٨)
(٣) الروضتين في أخبار الدولتين (٣١)

وعلى رأسها الفقيه المالكي أبي الطاهر بن عوف، ومن أغراض هاتين المدرستين الوقوف في وجه المذهب الشيعي والدعوة للمذهب السني » [١] .

قال المؤرخ أبو شامة عن نظام الملك: « كان عالماً فقيهاً ديناً خيراً متواضعاً عادلاً، يحب أهل الدين ، وأما صدقاته وأوقافه فلا حد لها، ومدارسه في العالم مشهورة لم تخل بلد منها ، حتى جزيرة ابن عمرو التي هي في زاوية من الأرض بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة، وكان يحافظ على أوقات الصلوات محافظة لا يتقدمه فيها المتفرغون للعبادة » [٢] قتل – رحمه الله – بيدي الغدر والخيانة الباطنية قرب نهاوند في اليوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥ هـ [٣] .

﴿ ٨ ﴾ نشط علماء المدرسة الشافعية وعلى رأسهم الإمام الجويني أبو المعالي إمام الحرمين الذي اهتم بمشاكل عصره وكتب كتابه المعروف « غياث الأمم في التياث الظلم » في السياسة الشرعية التى تبحث في مشكلات المسلمين الواقعية، ومن تلاميذ الإمام الجويني النابغين: أبو حامد الغزالي والكيا الهراسي، وقد ألف الغزالي كتابه « إحياء علوم الدين » وفي نيته أن هذا من أسباب إصلاح أحوال المسلمين،ولكن يؤخذ على الكتاب حشوه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والقصص غير المعقولة من شطحات الصوفية، والكلام الفاسد من الفلاسفة، ومع ذلك ففي كتابه نظرات إصلاحية من خلال إصلاح النوايا والقلوب، وكانت بحوث الغزالي في النفوس البشرية عميقة أثرت تأثيراً كبيراً في واقع المسلمين [٤] .

وكان قبل الإمام الجويني الإمام الماوردي الذي حاول أن يمهد الطريق لإمام الحرمين فكتب « الأحكام السلطانية » لمعالجة مشكلة الحكم وكتب « أدب الدنيا

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٦٩) .

(٢) الروضتين في أخبار الدولتين (جـ/١ ، ٥) .

(٣) البداية والنهاية (جـ١٢ / ١٥٠) .

(٤) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٧٠ – ٧٣) .

والدين » لمعالجة مشكلة دقيقة في حياة المسلمين وهي : كيف نجمع بين الدين والدنيا في توازن شرعي ؟ .

إن علماء المدرسة الشافعية السنية من أمثال أبي إسحاق الشيرازي وتلاميذهم ساهموا في اندحار الرفض والمذاهب الباطنية (١) .

﴿ ٩ ﴾ ظهور العلماء العاملين المخلصين المنتسبين للمدرسة الحنبلية في مدارس بغداد الذين تربى علماء الأمة، وطلاب العلم على أيديهم كالشيخ أبي الوفاء بن عقيل، والشيخ أبي الفرج ابن الجوزي الإمام الحافظ الواعظ وكان لهم تأثير في رجوع الناس إلى الدين على أصول سنية، وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور بارز في تعليم الأمة وتربيتها وخصوصاً بعد أن تولى أمرها العالم الرباني عبد القادر الجيلاني، فكان كبار علماء بلاد الشام يرحلون إلى بغداد لدراسة الفقه الحنبلي وللاتصال بهذه المدرسة التربوية الفقهية العقيدية، وممن تربوا في هذه المدرسة الحافظ عبد الغني المقدسي الذي دخل بغداد سنة ٥٦٠ هـ مع الموفق ابن قدامة وأكرمهم الشيخ عبد القادر الجيلاني غاية الإكرام (٢) .

وهؤلاء المقادسة أبو عمر وأخوه الموفق، وابن خالهم عبد الغني والشيخ العماد كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس (٣) وكان لهؤلاء العلماء تأثير عظيم في نفوس المسلمين ودفعهم نحو الجهاد والاستشهاد في سبيل العقيدة ومحاربة العقائد الباطنية الإلحادية العبيدية الإسماعيلية وكشف مخططاتهم وأساليبهم الماكرة.

وكان الواعظ الفقيه الحنبلي الدمشقي علي بن إبراهيم بن نجا، من تلاميذ المدرسة الحنبلية في بغداد، وانضم إلى صلاح الدين، وأصبحت له حظوة عنده، وهو الذي ساعد صلاح الدين في كشف مؤامرة عبيدية انتقامية للقضاء على

---

(١) ، (٢) ، (٣) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٧٠ – ٧٣) .

أهل السُنَّة في مصر وإرجاع الدولة العبيدية [(١)].

وفرح الناس ببلاد الشام بعودة السُنَّة ، قال أبو المظفر الجوزي: «كان الشيخ العماد يحضر مجلسي دائماً ويقول صلاح الدين: يوسف فتح الساحل، وأظهر الإسلام وأنت يوسف أحييت السُنَّة بالشام» [(٢)].

وكان العماد المقدسي رحمه الله يجلس من الفجر إلى بعد العشاء يعلم الناس القرآن والأحكام ويشرح لهم الإسلام، لقد ساهمت مدرسة الحنابلة السنية في محاربة الجهل، ودحر الرفض، وإحياء السُنة، وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس المسلمين.

﴿ ١٠ ﴾ الحملات المتتابعة التي قام بها حكام السلاجقة لاقتلاع جذور الباطنية وإليك ما قام به هؤلاء الأمراء من خدمة جليلة للعالم الإسلامي.

ففي سنة ٤٣٦ هـ قام سلطان بلاد ما وراء النهر بغراخان بحملة مباركة للقضاء على طائفة الإسماعيلية، وبدأ بالقضاء على من دخل بلاده من دعاة العبيديين الذين أرسلتهم الخلافة العبيدية في مصر، فقتلهم كلهم وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، وسلمت تلك البلاد منهم [(٣)] بقتل الباطنية، فقام أهل أصبهان بقتل من عندهم يقودهم في ذلك الفقيه الشافعي السني مسعود بن محمد الخجندي.

وفي سنة ٥٠٠ هـ قتل السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مقتلة عظيمة منهم، وأجلاهم عن قلعة أصبهان بعد حصارها وبعد مخادعة ومخاتلة منهم، وقتل صاحبها ابن غطاش [(٤)].

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟(ص ٧٠ - ٧٣)

(٢) سير أعلام النبلاء(جـ٢٢ ، ٥٠)

(٣) أيعيد التاريخ نفسه ؟(ص ٧٤ - ٧٥)

(٤) الكامل (جـ١٠ / ٤٣٠)

وفي سنة ٥٢٣ هـ حاول الإسماعيلية تسليم دمشق للصليبيين مقابل أن يسلمهم الصليبيون مدينة صور واكتشف أمير دمشق هذه المؤامرة الشنيعة «بوري بن طغتكين» فقتل متولي الإسماعيلية المزوقاني ونادى في البلد بقتل الباطنية فقتل منهم ستة آلاف وكان ذلك في شهر رمضان (١) .

وفي حوادث سنة (٥١١ هـ) قال ابن الأثير:

« علم السلطان محمد » السلجوقي «أن مصالح العباد والبلاد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم وكان في أيامه المقدم عليهم والقيم بأمرهم الحسن بن الصباح الرازي صاحب قلعة ألموت ، وكانت أيامه قد طالت، فقد ملك القلعة ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له في أقبح صورة من كثرة غزاته لهم وقتله رجالهم، فسير السلطان له العساكر بقيادة أنوشكتين ، فملك عدة قلاع منهم، ثم سار إلى قلعة ألموت ، وحاصرهم أشهراً وهم يراوغون لأخذ الأمان وترك القلعة، واستمر هذا القائد في حصارهم، ثم جاء الخبر بوفاة السلطان محمد فتفرق عنه العساكر ولم تفتح القلعة (٢) ، وفي عهد السلطان سنجر (٥٢١هـ) أوقع بالباطنية في «قلعة ألموت» وقتل منهم خلقاً كثيراً » .

إن محو آثار هؤلاء المجرمين أثخنت الدولة العبيدية وساهم في إضعاف المد الباطني في العالم الإسلامي وانحساره .

إن أعمال السلاجقة في تتبع آثار الباطنية لا يستطيع أحد أن يجزيهم عن أعمالهم الجليلة التي خدمت الأمة الإسلامية إلا الكريم المنان الرزاق الفتاح الغفور الرحيم .

---

(١) محمد كرد علي ، خطط الشام (جـ٢ /٣) نقلاً عن كتاب : أيعيد التاريخ نفسه ؟ .

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٧٥، ٨١).

﴿ ١١ ﴾ ظهور أمراء ربانيين أصحاب ديانة وتقوى ودراية بالحروب وحب للشهادة، وأخص بالذكر الأمير الرباني والقائد الميداني الذي بدأ بجهاد الصليبيين وأعاد الثقة إلى نفوس المسلمين، ووحد مدن الجزيرة والموصل، وبدأ في الزحف على النصارى ينتزع منهم ما أخذوا من الحصون والمدن بقوة الإيمان ومضي الفرسان «الأمير عماد الدين زنكي» الذي استطاع تخليص حلب من يد النصارى في عام ٥٢٢ هـ ،وفي سنة ٥٣٢ هـ جاء الروم بجيش عظيم ومعهم الفرنجة فتحالف عماد الدين زنكي مع سلطان ابن منقذ الكناني حتى ردوا النصارى على أعقابهم خاسرين.

وفي سنة ٥٣٤ هـ جهز زنكي حملاته على الإفرنج، وصبر المسلمين صبراً لم يسمع بمثله إلا ما يحكى عن ليلة الهرير «القادسية» ، ونصر الله المسلمين وهرب ملوك الإفرنج .

وكانت من أعظم أعماله فتح «الرها» في سنة ٥٣٩ هـ وعادت هذه المدينة إلى حكم الإسلام وهي من أشرف المدن عند النصارى ، وسقطت بعدها الحصون القريبة وأخلى ديار الجزيرة من حكم الفرنج وشرهم [١] .

ولم يستطع زنكي إتمام هذه المرحلة، فقد قتل وهو يحاصر قلعة «جعبر» التي تقع على نهر الفرات في إقليم الجزيرة، وكان رحمه الله من خيار الملوك وأحسنهم سيرة، وكان شجاعاً مقداماً حازماً مدحته الشعراء في أعماله، وتوفي عام ٥٤١ هـ مقتولاً.

ومما مدحه من الشعراء في أعماله ما قام به الأمير زنكي في رد ملك الروم عندما زحف على شيزر.

---

(١) أيعيد التاريخ نفسه ؟(ص ٧٥ ، ٨١) .

حيث قال المسلم بن خضر بن قسيم الحموي من قصيدة أولها:

بعــــزمك أيهــــا الملك العظيم ... تذل لك الصعاب وتستقيم

ومنها:

ألـم تـر أن كـلـب الـروم لمـا ... تبين أن الملك الرحـيـم

فـجـاء يطبق الفلوات خـيـلاً ... كـأن الجحفل الليلُ البهيمُ

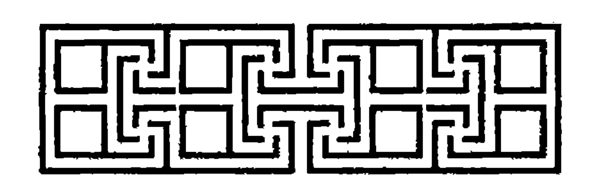
وقـد نزل الزمـان على رضـاه ... ودان لخطبـه الخطب العظيم

فحين رميـتـه بك في خـمـيس ... تيـقـن أن ذلك لا يدوم

وأبصـر في المفاضة منك جيشاً ... فـأحـرب لا يسـيـر ولا يقـيـم

كـأنك في العجاج شـهـاب نور ... توقـد وهو شـيطان رجـيـم

أراد بقـاء مُـهـجـتـه فـولـىّ ... وليس سوى الحمام له حميم [1]



---

(١) الكامل(جـ٧ / ٢١ ، ٢٢) .

المبحث الثاني

نور الدين محمود

تولى أمور الدولة الزنكية بعد وفاة عماد الدين زنكي ابنه نور الدين، الذي نشأ مع والده في العراق ثم الموصل وبلاد الشام. وبعد وفاة والده قام مقامه وأظهر السُنَّة في حلب وغير البدعة وقمع الرافضة، وبنى المدارس وأوقف الأوقاف وأظهر العدل، وكان كثير المطالعة للكتب الدينية متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق،متحرياً في المطاعم والملابس،لم تسمع منه كلمة فحش[١] .

وقال ابن الأثير- رحمه الله -:

« طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وبعده إلى يومنا هذا فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة منه »[٢] .

ومن زهده وتقواه أنه كان لا يأكل ولا يلبس إلا من ملك كان له اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، وقد شكت إليه زوجته الضائقة وزيادة النفقة فاحمر وجهه وقال: « من أين أعطيها ما يكفيها والله لا أخوض نار جهنم في هواها، ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة دكاكين ملكاً، وقد وهبتها إياها فلتأخذها »[٣] .

وقال ابن الأثير- رحمه الله -: « وكان يصلي كثيراً من الليل ويدعو ويستغفر ولا يزال كذلك إلى أن يركب ».

جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب[٤]

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (جـ١ / ٥) .

(٢) ، (٣) ، (٤) الكامل (جـ٧ / ٢٤٢) .

وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة، وليس عنده تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء، وعلى الحقيقة فهو الذي جدد للملوك اتباع سُنة العدل والإنصاف، وترك المحرمات من المأكل والمشرب والملبس، فإنهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرة، فلم يترك في بلاده ضريبة ولا مكساً ولا غشاً، بل منعها رحمه الله جميعاً في بلاد الشام والجزيرة ومصر [١] .

ومن عدله أنه بنى داراً للعدل، وكان سبب بنائها أن أمراءه وقواد جيوشه تعدوا على من يجاورهم، فكثرت الشكاوى إلى القاضي كمال الدين، فأنصف بعضهم ولم يتجرأ على القائد أسد الدين شيركوه، فلما سمع نور الدين بذلك بنى هذه الدار وأحس أسد الدين بهذا فقال لنوابه : « والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة فأرضوه وافصلوا الحال معه، فقالوا: إذا فعلنا هذا فإن الناس يشتطون في الطلب، فقال: خروج أملاكي عن يدي اسهل علي من أن يراني نور الدين بعين ظالم، وكان نور الدين يجلس في هذه الدار يومين في الأسبوع، فلما علم ما حصل مع أسد الدين شيركوه سجد لله شكراً » .

وكان فعاله في بلاد الإسلام من المصالح كثيرة، فقد بنى أسوار مدن الشام جميعها وأحكم بناءها، وبنى المدارس بحلب وحماة ودمشق وكان أهل الدين عنده في أعلى محل. وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، فقد ذكر أحد الأمراء الشيخ قطب الدين النيسابوري أمام نور الدين فقال له السلطان: يا هذا الذي تتكلم عليه فله حسنة تغفر كل زلة وهي العلم والدين، وأما أنت وأصحابك ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، وأنا أحمل سيئاتكم مع

---

(١) انظر : الروضتين (جـ١ / ٦).

عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئة هذا - إن صحت - مع وجود حسناته، على أنني والله لا أصدقك فيما تقول، وإن عدت وذكرته بسوء لأؤدبنك [١] .

ومن عفته وتقواه أن ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك لا يتصرف في شيء منه لا قليل ولا كثير، بل يخرجه إلى مجلس القاضي، ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة [٢] ، وكان نور الدين رحمه الله يتقبل النقد بصدر رحب مهما بلغت شدته، ومن ذلك ما فعله الواعظ أبو عثمان المنتخب بن أبي محمد الواسطي - كان من صالحي زمانه - تناول نقداً للدولة الزنكية في أخذها الضرائب والمكوس في حضور نور الدين نفسه ، فحذره وخوفه مما هو فيه ، **وقال لنور الدين هذه القصيدة:**

مثل وقوفك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً ... فاحذر بأن تبقى ومالك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت في ... كأس المظالم طائش مخمور
عطلّت كاسات المدام تعففّاً ... وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا وقفت إلى البلى ... فرداً وجاءك منكرٌ ونكير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مسلسل مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق القبور موسد مقبور
ووددت أنك ما وليت ولاية ... يوماً ولا قال الأنام أمير
وبقيت بعد العز رهن حفُيرة ... في عالم الموت وأنت حقير
وحسرت عرياناً حزيناً باكياً ... قلقاً ومالك في الأنام مجير

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين (جـ١ / ٨ ، ٩) .
(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (ص ٨٣) .

أرضـيـت أن تحـيـا وقلبك دراس عـافي الخراب وجـسـمك المعـمـور
أرضـيـت أن يـحظى سـواك بـقـربه أبداً وأنت مـعـذب مـهـجـور
مـهـد لنفـسك حـجـة تنجـو بـهـا يوم المعـاد يوم تبـدو العـور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات بكي بكاءً شديداً، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر البلاد (١) .

وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول لهم: إنما صرف ذلك في قتال أعدائكم من الكفرة والذب عن بلادكم ونسائكم وأولادكم وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار، وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم المكاس العشار الظالم محمود الكلب (٢) .

وكان رحمه الله يحارب روح التزلف والنفاق للمسئولين، فمن ذلك أنه منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له ويصفونه بالعبارات الرنانة التي تعودوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين، فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له الصيغة التالية:

« اللهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك: أبا القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر ناصر أمير المؤمنين ».

فقرأ نور الدين نسخة الدعاء وعلق عليها العبارة التالية: « مقصودي ألا يكذب على المنبر، أنا بخلاف كل ما يقال أأفرح بما لا أعمل؟! قلة عقل عظيم، الذي كتبت هو جيد اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد» ثم أضاف:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢/٣٠٢).
(٢) انظر: د. حسين مؤنس، نور الدين محمود (ص ٤٠٠، ٤٠١).

« ثم يبدأ بالدعاء : اللهم أره الحق حقاً ، اللهم أسعده ، اللهم انصره ، اللهم فقهه... من هذا الجنس » [١] .

وعندما طلب من نور الدين أن يسمح للأمراء أن يعلموا بنوع من السياسة لأن المفسدين وقطاع الطرق قد كثروا ويحتاج إلى نوع من السياسة، ومثل هذا لايجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية من يجيء ليشهد له ؟.

فلما وصل الكتاب إلى نور الدين قلبه وكتب على ظهره: « إن الله تعالى يخلق الخلق وهو أعلم بمصلحتهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شرعه على وجه الكمال، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه لنا، فما لنا حاجة إلى زيادة على ما شرعه الله تعالى، فمن زاد فقد زعم أن الشريعة ناقصة فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على الله وشرعه، والعقول المظلمة لا تهدي فالله سبحانه وتعالى يهدينا إلى الكتاب وإلى الصراط المستقيم، وكان الذي طلب من السلطان نور الدين الشيخ عمر الملا بطلب من الأمراء ، فلما وصل رد السلطان إلى الشيخ عمر جمع أهل الموصل وقرأ عليهم الكتاب وقال: « انظروا في كتاب الزاهد إلى الملك ، وكتاب الملك إلى الزاهد » [٢] .

هذا الذي ذكرت بعض سيرة السلطان نور الدين محمود ليعلم القارئ أن الذي يكرمه الله بنصره وتأييده لابد أن يكون ربانياً موصولاً بالله تعالى.

وكانت سياسة دولة نور الدين محمود لها أهداف رسمتها وسعت سعياً حثيثاً لتحقيقها ، ومن أهم تلك الأهداف تلك الأهداف الواضحة المعالم:

أولاً: إعداد الشعب إسلامياً وتطهير الحياة الدينية والثقافية من التيارات الفكرية المنحرفة كالباطنية وآثار الفلسفة اليونانية، والممارسات العبيدية

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٤٠ ، ٤٠١).

(٢) ابن القاضي شهبة ، الكواكب الدرية (ص ٢٥ ، ٢٦).

للعبادات والشعائر، ولهذا الهدف النبيل عمدت الدولة إلى بناء المدارس ودور القرآن ودور الحديث، واستقدمت مشاهير العلماء وفرغتهم للدعوة والتعليم والتربية، وخاصة الذين تخرجوا من المدرستين التربويتين الغزالية والقادرية وانصبت الخطة التعليمية التربوية في زمن السلطان نور الدين محمود على صياغة الجماهير المسلمة بما يتفق مع أهداف الإسلام على أسس عقدية واضحة المعالم، وكانت محاضن هذا الإعداد في المدارس والمساجد، وكان في دمشق وحدها أكثر من مائة مسجد وركزت تلك الانطلاقة العلمية التربوية على بث روح الإسلام ذات المفاهيم السنية والطريقة النبوية، واستهدفت تجفيف وحسر التعاليم والمذاهب الإسماعيلية والفلسفية التي تركت آثاراً عميقة في عقائد السكان وعاداتهم ومواقفهم السياسية والاجتماعية، و التي من أجلها وصفهم ابن جبير بأنهم لا إسلام لهم، وأنهم أهل أهواء وبدع إلا من رحم الله، ومنعت الدولة الزنكية كل المظاهر العبيدية في البلدان التي ضمتها إلى أملاكها، فمنعت من الأذان «حي على خير العمل» والتظاهر بسب الصحابة ، وأنكرت ذلك إنكاراً شديداً ، ووقف علماء أهل السُنَّة مع الدولة كجنود لها مخلصين، وعظم الخطب على طائفة الإسماعيلية الباطنية العبيدية وأهل التشيع عموماً، وضاقت صدورهم وهاجوا وماجوا، ثم سكتوا وأحجموا للخوف من سطوة الدولة الزنكية السنية [١] وكان الفقيه الشافعي قطب الدين محمود، وكذلك ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر البغدادي كان من أعمدة الدولة الزنكية ، وانضم إلى الدولة النورية من أصبهان شرف الدين عبد المؤمن بن شوردة .

وأوضح السلطان نور الدين سياسة الدولة التعليمية بقوله: « ما أردنا ببناء المدارس إلا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين» .

---

(١) **انظر** : بدر الدين بن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ، تحقيق : محمود زايد ، بيروت ، دار الكتاب الجديدة ١٩٧١م .

وتبارى الوزراء والقادة والأغنياء والرجال والنساء في إنفاق أموالهم في بناء المدارس والمؤسسات التعليمية وتوفير الفرصة لأفراد الأمة لدخولها والاستفادة منها .

وكانت جماهير المسلمين العريضة من العمال والمزراعين والتجار مستهدفة من قبل الدولة الزنكية، فلم تترك إرشادهم وتوجيههم فزرعت في نفوسهم العقيدة والأخلاق والقيم، وكان للتصرف المعتدل بقيادة الشيخ عبد القادر الجيلاني أثر واضح في نفوس الجماهير، واستفادت الدولة الزنكية من الحركة الصوفية الإصلاحية القادرية، فأقامت لهم الأربطة والزوايا، واحترمت شيوخهم واستقدمتهم وهذبت الجماهير وزكتهم وفق خطة الدولة المرسومة، واهتمت الدولة بالإعداد العسكري إلى جانب التعليم والإرشاد والتربية، ودربت كافة أتباعها تدريباً عسكرياً وبثت روح الجهاد في صفوفهم .

وكان التدريب يقوم على دعامتين :

[١] الإعداد المعنوي والروحي .

[٢] ثم التدريب العسكري وألف زعيم الدولة الزنكية السلطان نور الدين محمود كتاباً في الجهاد .

وتكاملت جهود العلماء والفقهاء والمربين والقادة والزعماء في داخل مؤسسات الدولة المتعددة، وسعت في تحقيق برامج الدولة النورية السنية .

وبسبب هذا التكامل والوفاق أصبحت الدولة النورية قطباً جذاباً لكافة العلماء والشيوخ فهاجروا إليها من كافة بقاع العالم الإسلامي، وانضووا تحت لوائها الإسلامي المجيد، وتجاوز عددهم الآلاف، واستفادت الدولة منهم وفق برامجها وتذكر كتب التاريخ أسماء الآلاف من المدارس ودور القرآن والحديث والأربطة والزوايا التي تضافرت فيها الجهود المذكورة، وأصبحت الدولة الزنكية بقيادة السلطان نور الدين تشرف على كافة الخطط والبرامج المرسومة التي بدأت تعطي ثمارها بتغيير البنية القديمة لبلاد الشام، ونشأ جيل التغيير الفعلي،

وسيطرت الروح الإسلامية لدى هيئات المجتمع وأفراده، ووجهت نشاطاتهم في جميع ميادين الحياة القائمة، وأصبح التغيير تغير أمة، وتحققت سُنة الله الجارية فيهم (١) ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** .... ﴾ [الرعد : ١١].

ثانياً: استطاعت الدولة الزنكية أن تصبغ الإدارة بالصبغة الإسلامية وأن تدمج القيادات السياسية والفكرية بالمفاهيم والأحكام الشرعية.

فكان رجال نور الدين ومعاونوه وقادة جيشه على مستوى راق من العلم والأخلاق، ومن أمثلة ذلك وزيره أبو الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري، فقد كان فقيهاً أصولياً شغل مناصب مختلفة ، منها السفارة والوزارة وناظر الأوقاف وناظر المالية والقضاء، واستمر على ذلك حتى قيادة صلاح الدين (٢) .

ومنهم عبد الله بن محمد بن أبي عصرون الذي شغل منصب قاضي دمشق وناظر الأوقاف (٣) وكذلك كان صلاح الدين فقيهاً درس الفقه الشافعي، وسمع الحديث من أبي طاهر السلفي وغيره، روى الحديث عنه أناس مثل يونس بن محمد الفرقي والعماد الكاتب وغيرهم، ويقال: إنه كان يحفظ القرآن و« التنبيه » في الفقه و« الحماسة » في الشعر (٤) .

ومثله وزيره الشهير وكاتبه ومستشاره القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي والذي قال صلاح الدين عنه: لم أفتح البلاد بسيفي وإنما برأي القاضي الفاضل، وكان القاضي الفاضل يجمع إلى حكنته السياسية ورعاً فائقاً، فكان كثير الصيام والصلاة وقراءة القرآن، وكان متواضعاً يكُثر عيادة المرضى والإحسان للفقراء، لقد أظهر هذا الرعيل من صنوف المهارات في التخطيط والتنفيذ وحشد مقدرات

---

(١) **انظر** : هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، (ص ٢١٥ - ٢١٧) .
(٢) **انظر** : السبكي ، طبقات الشافعية (جـ٦ ، ١٨٨) .
(٣) **انظر** : السبكي ، طبقات الشافعية (جـ٤ ، ٢٣٧) .
(٤) المصدر السابق (جـ٧ / ٣٤) .

الأمة وتنظيمها ما هيأها لمجابهة التحديات في الداخل والخارج .

ومن أمثلة المهارات والمزايا ما يلي :

الأولى: تكامل القيادات الفكرية والسياسية، فقد أدركت هذه القيادات خطورة الارتجال أو انفراد فريق من القيادات الفكرية دون الآخر، واعتمدت في القرارات التي تتخذها على آراء العلماء والمختصين، فكان لدى نور الدين مجلس دوري يلتقي فيه القادة والعسكريون مع العلماء المختصين حيث يحتل العلماء المختصون المنزلة الأولى فيه [١] .

الثانية: اعتماد الشورى وعدم الانفراد باتخاذ القرارات، ولقد تميزت إدارة نور الدين بالشورى، وتبادل الآراء في كل أمور الدولة، فكان له مجلس فقهاء يتألف من ممثلي سائر المذاهب والصوفية، يبحث في الإدارة والميزانية، فإذا بحث أمراً يخص الأمة جميعها، أو كان ذا علاقة بالأموال المرصودة لصالح المسلمين جمع أعضاء هذا المجلس وشاورهم فيه، وسأل كل عضو ما عنده من الفقه، ولا يتعدى الرأي الذي يتفق عليه، ومن ذلك ما حدث في قلعة دمشق في (١٩ صفر عام ٥٥٤ هـ ١١ يوليو سنة ١١٤٩ م) حين عقد نور الدين مجلساً دعا إليه القضاة وكبار رجال الدولة ونفراً من الأعيان وشهود العدالة للنظر في الأوقاف المرصودة للجامع الأموي، وكان شيوخ الجامع فيما مضى قد أدخلوا في أوقاف الجامع عقارات وأعياناً أخرى داخلة في المنافع العامة، فأحب نور الدين أن يفصل هذه عن تلك، لكي يستخدم أموال المنافع في التحصينات العسكرية في الثغور وبناء سور دمشق لصيانة المسلمين وأموالهم، لأن هذا من «أهم المصالح» عند نور الدين، وأقر المجلس رأياً يخالف ما أراده نور الدين ولم يأذنوا له بصرف «فواضل الأوقاف في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة على المسلمين،

---

(١) هكذا ظهر جيل صلاح الدين ، (ص ٢٢٥) .

وأجازوا له أن يأخذ قرضاً من هذه الفواضل يستخدمه في تلك المصلحة على أن يرده من بيت المال، ومع شدة حاجة نور الدين إلى المال لمطالب الحرب وأعمال الدفاع في ذلك الحين فإنه قبل رأي المجلس بنفس راضية، ولم يمس أوقاف الجامع الكثيرة احتراماً للرأي وتكريماً للدين ورجاله» [١] .

الثالثة: من الميزات التي ميزت تلك الإدارة هي غلبة المصلحة العامة على الانفعالات والمصالح الشخصية في معالجة المشكلات التي قد تثور بين الأقران.

الرابعة: التفاني في أداء الواجب المقدس بتعاون وتآخ إسلامي رفيع ابتغاء مرضاة الله ، وكان تعلقهم بالدين والشرع شيء يدل على تربية عالية ومن حبهم لدينهم جعل الأمراء والحكام والسلاطين يتخيرون أسماء تدل على ذلك: عماد الدين، سيف الدين، معين الدين، نور الدين، صلاح الدين، أسد الدين، نجم الدين، وزين الدين، وكان البويهيون الشيعة من حبهم للدنيا يسمون: عضد الدولة بهاء الدولة، صمام الدولة.

وكان أمراء وحكام الدولة النورية يحبون الموت في سبيل الله في ساحات الوغى، وإذا تعذر ذلك كتبوا في وصيتهم أن يدفنوا في المدينة النبوية، فعل ذلك جمال الدين الموصلي، وأسد الدين شيركوه، وأخوه نجم الدين والد صلاح الدين [٢] .

توحيد بلاد الشام والديار المصرية :

كانت سياسة نور الدين محمود الرشيدة تسعى لتوحيد المسلمين تحت قيادة واحدة ومنهج أصيل فاستطاع أن يضم دمشق مع حلب والرها وغيرها من المدن الإسلامية التي حررها المسلمون بقوة السيف وحب الشهادة، وبدأ نور الدين في زحفه على حصون النصارى ومدنهم الواقعة بين مصر والشام، وكانت رغبة نور

---

(١) د . حسين مؤنس ، نور الدين محمود (ص ٤٠٤ - ٤٠٥) .
(٢) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٧٢) .

الدين في تخليص بلاد مصر من العبيديين الباطنيين الحاقدين حلفاء النصارى أمنية غالية ومطلباً شرعياً رفيعاً فأرسل إلى مصر علماء وفقهاء ووعاظ لدعوة الناس، وتهيئة الرأي العام للفتح السني المجيد، وتخليص البلاد من نتن الروافض البغيض، ومن أشهر العلماء الذين قاموا بهذا الدور محمد بن الموفق الخبوشاني الذي دخل مصر في عام ٥٦٠ هـ وبدأ يبشر بالإسلام الصحيح، ويلعن العبيديين، ويصفهم بالزندقة واليهودية، وتطاير الركبان بأخباره في أنحاء العالم الإسلامي (١).

وكانت الدولة النورية السنية تتحين الفرصة للدخول العسكري إلى مصر وجاءت الفرصة المناسبة عندما اختلف حكام مصر العبيديين فيما بينهم من أجل مصالحهم الدنيوية، فاستنجد الوزير شاور بنور الدين محمود، والقائد ضرغام بن ثعلبة بالصليبيين.

واحتدم الصراع ومر بمراحل حتى استطاع أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين إلى مصر أن يُحْكم قبضته، واستقر الأمر لنور الدين في عام ٥٦٤ هـ عندما تولى أمر مصر صلاح الدين بعد عمه أسد الدين، وتدرج صلاح الدين في القضاء على الدولة العبيدية في مصر، وإعادة السُنَّة فيها ووحد الصفوف الإسلامية لفتح بيت المقدس.

وفاة نور الدين محمود - رحمه الله - :

في عام ٥٦٩ هـ (٢) انتقل إلى رحمة الله السلطان السُني الغيور المخلص المجاهد مميت البدعة ومحيي السُنَّة وهازم النصارى وناصر الدين السلطان نور الدين محمود بعد جهاد عظيم، وعمل جليل، وتفان نادر، وخدمة للدين، وتقدم تلميذه المخلص الذي تربى على يديه واختاره لقيادة الجيوش السلطان صلاح الدين الأيوبي.

---

(١) انظر : هكذا ظهر جيل صلاح الدين (ص ٢٦٢) .

(٢) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٩٧) .

المبحث الثالث

صلاح الدين الأيوبي محرر القدس
ومزيل دولة العبيديين من مصر

ولد السلطان يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢ هـ بقلعة تكريت في العراق، وكان والده أيوب بن شادي والياً عليها، ثم انتقل الوالد إلى الموصل ومعه أخوه أسد الدين شيركوه، وتربى الشبل الأيوبي في كنف والده وعمه المجاهدين، وبدأ يترقى في كتائب المجاهدين، وانتدب لمرافقة عمه أسد الدين عندما أرسل نور الدين محمود إلى مصر، وتسلم منصب وزارة التفويض بعد وفاة عمه في نهاية الدولة العبيدية، وبدأ في إرجاع مصر للخلافة السنية العباسية متدرجاً في تنفيذ هدفه النبيل، والذي اشتاقت إليه نفوس المسلمين، فعزل قضاة مصر الروافض العبيديين، وأسند أمر القضاء إلى عبد الملك بن درباس الشافعي، وقطع الأذان بـ «حي على خير العمل» وأقام الخطبة للخليفة العباسي بعد أن انقطعت الخطبة للعباسيين بمصر ٢٠٨ سنة، وبشر نور الدين محمود الخليفة العباسي بذلك، وفرح الناس، وقضى صلاح الدين على كل المحاولات الفاشلة لإرجاع مصر للخلافة العبيدية، وأحسن إلى الرعايا إحساناً كثيراً.

وقال العماد الأصبهاني في رجوع مصر للخلافة العباسية أبياتاً شعرية رائعة ، بعد وفاة العاضد العبيدي وزوال ملكه ودولته من مصر:

توفي العاضد الدعي مما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما

وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها في الأمور محتكما

قد طفئت جمرة الغواة وقد ... داخ من الشرك كل ما اضطرما

وصار شملُ الصلاح ملتئمًا ... بها وعقدُ السداد منتظما

لما غدا مشعراً شعار بني ... العباس حقاً والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتظراً ... ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال في ظلل ... داحية من عبائة وعمى
وارتكس الجاهلون في ظلم ... لما أضاءت منابرُ العلما
وعاد بالمستضيء معتلياً ... ببناء حقٍّ بعدما كان منهدما
أعيدت الدولة التي اضطهدت ... وانتصر الدين بعدما كان اهتفما
واهتزَّ عطف الإسلام من جلل ... وافتر يغر الإسلام وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحاً ... فليقرع الكفر سنة ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الهوى ... وفي الطغاة منقسما
قصور أهل القصور أخربها ... عامر بيتٍ من الكمال سما
أزعج بعد السكوت ساكنها ... ومات ذلاً وأنفهُ رغما [(١)]

وكان سقوط الدولة العبيدية سنة ٥٦٧ هـ، وقال ابن كثير في ذلك: «قد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين سنة وكسراً، فصاروا كأمس الذاهب: ﴿**كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا**﴾ [هود: ٩٥].

وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سلمية حداداً سمه عبيد، وكان يهودياً، فدخل بلاد المغرب وتسمى بعبيد الله، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء والأئمة بعد الأربعمائة والمقصود أن هذا الدعي الكذاب راج له ما افتراه في تلك البلاد، وآزره جماعة من الجهلة، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار ملكاً مطاعاً، يظهر الرفض وينطوي على الكفر المحض، ثم كان من بعده ابنه القائم محمد، ثم ابنه المنصور إسماعيل، ثم ابنه معد، وهو أول من دخل ديار مصر منهم، وبنيت له القاهرة المعزية والقصران، ثم ابنه العزيز

(١) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٨٤).

نزار، ثم ابنه الحاكم المنصور، ثم ابن الطاهر علي، ثم ابنه المستنصر معد، ثم ابنه المستعلي أحمد، ثم ابنه الآمر منصور، ثم ابن عمه الحافظ عبد المجيد، ثم ابنه الظافر إسماعيل، ثم الفائز عيسى، ثم ابن عمه العاضد عبد الله وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكاً، مدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة، وكذلك عدد بني أمية أربعة عشر أيضاً ولكن مدتهم نيفاً وثمانين سنة إلى أن قال»...

وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء وأكثرهم مالاً، وكانوا من أغنى الخلفاء وأجبرهم وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، وظهرت في دولتهم البدع والمنكرات وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثرت بأرض الشام النصيرية والدرزية والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكامله، حتى أخذوا القدس ونابلس وعجلون والغور وبلاد غزة وعسقلان وكرك والشوبك وطبرية وبانياس وصور وعكا وصيدا وبيروت وصفد، وكل هذه البلاد كان الصحابة قد فتحوها وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف ، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق ولكن الله سلم ، وحين زالت أيامهم وانتقض إبرامهم أعاد الله عز وجل هذه البلاد كلها إلى المسلمين بحوله وقوته وجوده ورحمته (١) .

وقد مدح علماء أهل السُنَّة وفقهاؤهم وحكامهم هذا الفعل الجميل لصلاح الدين ، ألا وهو القضاء على دولة العبيديين الرافضية الباطنية ، **وأكثر الشعراء القصائد في مدح صلاح الدين فقال بعضهم:**

أبدتم من بلى دولة الكفر من بني عبيد بمصر إن هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يُسرّون كفراً يظهرون تشيعاً ليستروا سابور عمهم الجهل (٢) .

(١) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٨٧) .
(٢) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٢٨٨) .

إن نور الدين محمود كان يرى إزالة الدولة العبيدية هدفاً إستراتيجيًّا للقضاء على الوجود النصراني، والنفوذ الباطني في بلاد الشام، ولذلك حرص على إعادة مصر للحكم الإسلامي الصحيح، فوضع الخطط اللازمة وأعد الجيوش المطلوبة وعين الأمراء ذوي الكفاءة المنشودة، فتمم الله له ما أراد على يد جنديه المخلص صلاح الدين الذي نفذ سياسة نور الدين الحكيمة الرشيدة.

وبعد أن استقرت أمور البلاد والعباد في بلاد مصر، وأُزيلت البدعة، وأُحييت السُّنَّة، وأميتت الفتنة، وانتقل نور الدين إلى ربه الغفور الرحيم، آل الأمر إلى صلاح الدين بعد فتن استطاع أن يقضي عليها، ووحد بلاد الشام ومصر تحت زعامته الفتية، وشرع في تنفيذ الأهداف المرسومة للدولة النورية.

وكان من أهداف نور الدين العظيمة تحرير ديار المسلمين من النصارى وتحرير بيت المقدس، حتى إنه هيأ منبراً عظيماً لهذه الغاية، ولكنه مات قبل تحقيق هذا الهدف الغالي الذي ادخره الله لصلاح الدين، فعزم صلاح الدين على مواصلة حركة الجهاد المقدس، وفك الحصون والمدن من النصارى بالقوة بخطة واضحة محكمة، فانتصر على الفرنجة في موقعة «مرج العيون» سنة ٥٧٥ هـوموقعة «بانياس» وأسر رؤساءهم ودمر حصن الأحزان في صفد، وما زال يناوش الفرنجة وينتزع منهم الحصون حصناً بعد حصن حتى تجمع عنده جيش كبير في سهل حطين، حيث كانت الموقعة الكبرى التي كسرت عظام الصليبيين ومهدت لفتح القدس، وقد أسر وقتل معظم من حضرها من الفرنجة: «فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هنالك من قتيل، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للمسلمين كيوم حطين غليل» [١].

وكان من الأسرى صاحب الكرك «أرناط» الذى كان يؤذي الحجاج سب رسول

(١) انظر: الروضتين (٢/ ٧٨).

الله ﷺ، وكان قد وصل صلاح الدين ذلك فنذر لله ليقتلنه بنفسه حمية لدينه وحباً لرسوله ﷺ فقتله صلاح الدين بنفسه ووفى بنذره وخلص المسلمين من شره.

وكانت موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ وركب الصليبيين النصارى غم وهم وحزن ورعب وزحفت جيوش الناصر صلاح الدين تحرر مدن المسلمين، وتذل النصارى الحاقدين، وتخلص أسرى المسلمين من الأسر الذي طال أمده، وأرسل السلطان صلاح الدين أعيان الفرنج ومن لم يقتل من رءوسهم، وبصليبهم الذي كانوا يحملونه في حروبهم ويزعمون أن المسيح عليه السلام صلب عليه والمسمى عندهم صليب الصلبوت بصحبة القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق لِيُودَعَ في قلعتها، فدخل الصليب منكساً وكان يوماً مشهوداً.

وسار السلطان إلى قلاع النصارى ومدنهم فحرر قلعة طبرية، ثم خلص عكا من النصارى وفك أسرى المسلمين منها وكانوا أربعة آلاف مسلم ثم صيدا وبيروت ثم عسقلان ونابلس ثم بيسان وأرض الغور، فملك ذلك كله.

وأمر السلطان جيوشه أن ترتاح في هذه الأماكن وتستعد لفتح القدس وطار في الناس الخبر، وعلموا عزم السلطان على ذلك فقصده العلماء والصالحون من أماكن عديدة تطوعاً، وجاءوا إليه كجنود في خدمته الميمونة [(١)].

وحين وبدأت بشائر التحرير بزحف جيوش صلاح الدين نحو بيت المقدس وصلته رسالة من أحد المأسورين في القدس فيها أبيات على لسان المسجد الأقصى:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس [(٢)]

---

(١) **انظر**: الروضتين (٢/ ٧٨).
(٢) **انظر**: صلاح الدين بطل حطين، لعبد الله علوان (ص ٧٥).

وبعد اشتداد الحصار على النصارى طلبوا الأمان ونزل حاكم الرملة بلبان بن بيرزان يترقق للسلطان وذل ذلاً عظيماً، فأجابهم صلاح الدين ودخل المسلمون القدس ووفوا بالصلح المضروب مع النصارى، وشرعوا في تنظيف المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير، وأعيد غسلها بماء الورد والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها وعادت إلى حرمتها، وامتن السلطان صلاح الدين على بنات الملوك ومن معهن من النساء والصبيان والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم وشفع في أناس كثيرين فعفا عنهم ، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئاً مما يقتنى ويدخر ، وكان رحمه الله كريماً مقداماً شجاعاً حليماً [(١)] وكان ذلك في عام ٥٨٣ هـ من شهر رجب وذكر ابن كثير رحمه الله أول خطبة ألقيت في بيت المقدس فقال: «لما تطهر بيت المقدس مما كان فيه من الصلبان والنواقيس والرهبان والقسس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وقرئ القرآن ووحد الرحمن، وكانت أول جمعة أقيمت في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، [(٢)] فصف المنبر إلى جانب المحراب ، وبسطت البسط وعلقت القناديل وتلي التنزيل، وجاء الحق وبطلت الأباطيل، وصفت السجادات وكثرت السجدات وأقيمت الصلوات، وأذن المؤذنون، وخرس القسيسون، وزال البؤس، وطابت النفوس، وأقبلت السعود، وأدبرت النحوس، وعُبِد الله الأحد الذي: ﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص: ٣ ـ ٤]. وكبره الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع وسالت لرقة القلوب المدامع، ولما أذن المؤذنون للصلاة قبل الزوال كادت القلوب تطير من

---

(١) **انظر** : صلاح الدين بطل حطين ، لعبد الله علوان (ص ٧٥) .

(٢) دخل صلاح الدين – رحمه الله – وجيشه بيت المقدس يوم الجمعة (٢٧ رجب ٥٨٣ هـ) ولم يتمكنوا من صلاة الجمعة في ذلك اليوم بالمسجد الأقصى ، وذلك لانشغالهم بتطهيره من رجس الصليبيين .

الفرح في ذلك الحال، ولم يكن عيَّن خطيب فبرز من السلطان المرسوم الصلاحي وهو في قبة الصخرة أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكي اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وخطب للناس خطبة سنية فصيحة بليغة، وذكر فيها شرف بيت المقدس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وقد أورد الشيخ أبو شامة الخطبة في الروضتين بطولها وكان أول ما قال: ﴿ **فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: «الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله من طله وهطله «الندى والمطر» الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عبادة فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، حمد من استشعر الحمد باطن سرِّه وظاهر إجهاره وأشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك له الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى: ﴿ **عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ ، ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ﴾ [النجم: ١٥ - ١٧]. وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان» [١].

---

(١) البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٤٦).

واستمر في خطبته الرفيعة المنيعة الممزوجة بالعاطفة الجياشة والمشاعر والأحاسيس المحبوسة إلى أن قال: فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية، والفتوحات العمرية، والجيوش العثمانية والفتكات العلوية جددتم للإسلام أيام القادسية والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم الله عن نبيكم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل الله منكم ما تقربتم إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء، فاقدروا ـ رحمكم الله ـ هذه النعمة حق قدرها، وقوموا إلى الله بواجب شكرها فله النعمة بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة [١] .. إلى آخر ما جاء في الخطبة.

وبعد أن تم هذا الفتح العظيم توافد إلى السلطان الشعراء والعلماء والكتاب والمؤرخون ينثرون أمامه من بلاغة الشعر، وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال.

وإليك ما قاله الشاعر العالم أبو الحسن بن علي الجويني:

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيدُ في يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا
تسهون عاماً بلاد الله تصرخ ... والإسلام أنصاره صم وعميانُ
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم ... بأمر من هو للمعوان معوان
إذ طوى الله ديوان العباد فما ... يُطوى لأجر صلاح الدين ديوان [٢]

---

(١) انظر: صلاح الدين بطل حطين(ص ٧٨).
(٢) انظر: صلاح الدين بطل حطين(ص ٧٨، ٧٩).

وقال محمد بن سعد نقيب الأشراف بالديار المصرية:

أترى مناماً ما بعيني أبصر — القدس تفتح والفرنجة تُكسَرُ
ومليكهم في القيد مصفود ولم — يُر قبل ذلك لهم مليك يؤسر
فُتح الشام وطُهر القدسُ الذي — هو في القيامة للأنام المحشر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها — فاروقها عمرُ الإمام الأطهرُ
ولأنت عثمان الشريعة بعده — ولأنت في نصر النبوة حيدر [١]

وكانت بنود الصلح التي تمت بين صلاح الدين والنصارى «أن يسمح لهم بالخروج لمدة أربعين يوماً [٢]، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير، والمرأة خمسة، والولد اثنين، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير» [٣].

إلا أن السلطان صلاح الدين تجاوز بند المعاهدة وعامل الصليبيين معاملة عطف ورحمة وإحسان، ليعطي للبغاة المعتدين، والملوك المستبدين الظالمين والصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين النموذج الطيب، والقدرة الصالحة في السماحة والعدل والعفو عند المقدرة.

فأعطى للنصارى العاجزين الذين تركهم أمراؤهم ولم يجدوا من يعينهم أعطاهم أموالاً ودواباً لتحمل أثقالهم إلى ما يريدون.

وكانت إحدى نساء ملك من ملوك الروم قد ترهبنت واستأذنت للذهاب إلى زوجها والمكث معه ،فأذن لها وسيرها إلى زوجها السجين للبقاء معه بقلعة نابلس واجتمعت مجموعة من النساء وتوسلن للسلطان في أزواجهن وأبنائهن، فرق لهن، وأمر بالإفراج عنهم، وفتح للعجزة والفقراء باب الخروج بدون دفع جزية، وذكر كتاب الغرب من أمثال «استيفن سن» استانلي لين بول «الشي الكثير في بر وإحسان صلاح الدين بالنصارى» وأذن السلطان صلاح الدين لرجال الدين

---

(١) انظر : صلاح الدين بطل حطين (ص ٧٩) .
(٢) يعني خلال أربعين يومًا .
(٣) انظر : صلاح الدين بطل حطين (ص ٧٩) .

والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال، فأخذوا ما شاءوا دون أن يعترضهم معترض، تاركين ما لا قبل لهم بحمله ، فابتاعه المسلمون منهم.

وكان أحد البطارقة قد خرج بأمواله وذخائره، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين، فقيل للسلطان: «لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تُقَوِّي به أمر المسلمين ؟» فقال لهم السلطان: «لا آخذ منه غير الدنانير العشرة ، ولا أغدر به» (١) .

أما معاملة النصارى الحاقدين للمسلمين عندما انتزعوها من أيدينا في عام (٤٩٢هـ) **فإليك ما قاله «مل» المؤرخ الإنجليزي:** «كان المسلون يُقتَلون في الشوارع والبيوت، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ إليه من نتائج النصر، فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار، وانزوى البعض الآخر في القصور والأبراج وحتى في المساجد، غير أن هذا كله لم يخفهم عن اعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا ثم يقول: «وقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين، فلم يسمع في وسط هذا الجمع المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوى».

فهذا صلاح الدين المسلم السني الرباني يقدم للأجيال الإنسانية دروساً في غاية الروعة والجمال نحتت في صفحات تاريخ البشرية لتدل على عظمة هذا الدين الذي أخرج للوجود مثل نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، فعليهم من الله المغفرة والرحمة والرضوان ، **قال الشاعر:**

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح

---

(١) **انظر** : صلاح الدين بطل حطين (ص ٨٣) .

إني وصلت في دراساتي للشخصيات الإسلامية أنه ما ظهر قائد رباني وحقق انتصارات ميدانية وأزاح شعارات كفرية إلا كان خلفه علماء وفقهاء يوجهونه ويرشدونه نحو الرأي السديد، وهذا ما حدث لصلاح الدين حيث كان اهتمامه بالعلماء والفقهاء عظيماً، إلا أن هناك عالم وفقيه وأديب له أثر واضح في حياته لا بد من التعريف به ألا وهو.

[أ] القاضي الفاضل :

قال الذهبي في ترجمته : « المولى الإمام العلامة البليغ، القاضي الفاضل محيي الدين، يمين المملكة، سيد الفصحاء، أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد بن المفرج، اللخمي، الشامي العسقلاني المولد، المصري الدار، الكاتب، صاحبُ ديوان الإنشاء الصلاحي، ولد سنة ٥٢٩ هـ » (١) .

قال عنه العماد الأصبهاني : « قضى سعيداً، ولم يبُق عملاً صالحاً إلا قدَّمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عقد برٍّ إلا أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه متجاوزة الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك الأسرى، وأعان المالكية والشافعية بالمدرسة، والأيتام بالكتاب، كان للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، والسلطان له مطيع، وما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد آرائه، ومقاليد غناه وغنائه، وكنت من حسناته محسوباً، وإلى آلائه منسوباً، وكانت كتائبه كتائب النصر، ويراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبر، وعبارته نافثة في عقد السحر، وبلاغته للدولة مجمّلة وللمملكة مُكمِّلَة ، وللعصر الصلاحي علي سائر الأعصار مفضلة، نسخ أساليب القدماء بما قدَّمه من الأساليب وأعربه من الإبداع، ما ألفيته كرر دعاء في مكاتبه ، ولا ردد لفظاً في مخاطبة إلى أن قال: فإلى من بعده الوفادة؟ وممن الإفادة، وفيمن السيادة؟ ولمن السعادة؟ » (٢) .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٣٨ ، ٣٣٩) .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤٠) .

ومَدَحَه الشعراء على حسن تدبيره وآرائه النافذة ، وقدرته على حل المعضلات التي تتعرض لها دولة صلاح الدين، واجتهاده في الصيام والقيام وحبه للعلم ، وتواضعه وحلمه وجوده وكرمه وإنفاقه وجهاده ، **فقال فيه هبة الله ابن سيناء الملك :**

وأتت سعادته إلى أبوابه لا كالذي يسعى إلى أبوابها

فلتفتخر الدنيا بسائس ملكها منه ودارس علمها وكتابها

صوامها قوامها علامها عمالها بذالها وهَّابها[١]

ركن إليه السلطان صلاح الدين ركوناً تاماً، وتقدم عنده كثيراً.

وكان رحمه الله ذا غرام بالكتابة وبالكتب أيضاً، اشتهر بالدين والعفاف، والتقى، والمواظبة على أوراد الليل والصيام والتلاوة، فلما تملك أسد الدين مصر، أحضره فأعجب به، ثم استخلصه صلاح الدين لنفسه، وكان قليل اللذات، كثير الحسنات، دائم التهجد، يشتغل بالتفسير والأدب، وكان قليل النحو، لكنه له دربة قوية، وكان متقللاً في طعامه ومنكحه وملبسه، ولباسه البياض، وكان يكثر من تشييع الجنائز، وعيادة المرضى، وله معروف في السر والعلانية، ضعيف البنية رقيق الصورة [٢] .

قال في حقه السلطان صلاح الدين: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل» [٣] .

وقال في مدحه العماد الأصبهاني:

عاينت طود سكينة ورأيت الشمس فضيلة ووردت بحر فواضل

ورأيت سحبان البلاغة ساحباً ببيانه ذيل الفخار لوائل

---

(١) **انظر** : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤١) .

(٢) **انظر** : سير أعلام النبلاء (جـ٢١ / ٣٤٣) .

(٣) النجوم الزاهرة (٦ / ١٥٧) .

حلفُ الحصافة والفصاحة — والسماحة والحماسة والتقى والنائل
بحر من الفضل الغزير خضمه — طامي العباب وما له من ساحل
في كفه قلم يعجل جريه — ما كان من أجل ورزق عاجل
أبصرت قُساً في الفصاحة معجزاً — فعرفت أني في فهَّة باقلِ [1]

وعندما طلب القاضي الفاضل من السلطان صلاح الدين أن يعين بدله عماد الدين الأصبهاني ليحل تراجم الأعاجم، فقال له صلاح الدين: ما لي عنك مندوحة، أنت كاتبي ووزيري، وقد رأيت على وجهك البركة فإذا استكتبت غيرك تحدث الناس [2] واتفقا أن يقوم عماد الدين الأصبهاني بدل القاضي عندما يغيب القاضي الفاضل.

قال صاحب النجوم الزاهرة:

وفضل الفاضل وبلاغته أشهر من أن يذكر ومن شعره قوله:

وإذا السعادة لاحظتك عيونها — نم فالمخاوف كلهن أمان
واصْطَدْ بها العنقاء فهي حبائل — واقتد بها الجوزاء فهي عنان [3]

إن القاضي الفاضل رحمه الله كان موضع ثقة صلاح الدين ومحل أسراره واستشارته فلا يقطع أمراً دونه [4]، فكان يستشره في المهمات الكبيرة خاصة، بل كان يقول العماد الأصبهاني الكاتب عنه: «سلطانه مطاع والسلطان له مطيع، وهو صاحب القريحة الوقادة والبصيرة النفاذة» [5].

وهو الذي كتب لصلاح الدين وهو محاصر لعكا يخوفه من الذنوب، ويحذره

---

(١) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٣، ٧٤).
(٢) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٤).
(٣) النجوم الزاهرة (٦/ ٧٥).
(٤) البداية والنهاية (جـ١٢/ ٣٤٠).
(٥) الروضتين (جـ٢/ ٢٤١).

من أن يظلم الجنود أحداً فيكون سبباً للهزيمة .

يقول ابن كثير رحمه الله في ذلك: «وكان القاضي الفاضل بمصر يدير الممالك بها، ويجهز للسلطان ما يحتاج إليه من الأموال، وعمل الأسطول والكتب السلطانية، فمنها كتاب يذكر فيه أن سبب هذا التطويل في الحصار كثرة الذنوب، وارتكاب المحارم بين الناس، فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار، والمعاصي في كل مكان فاشية، وقد صعد إلى الله منها ما يتوقع بعده الاستعاذة منه، ومنها كتاب يقول فيه إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلا نفسه وعمله، ولا يرج إلا ربه، ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمن من أن يكلنا الله إليها، والنصر به واللطف منه، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق، إلى أن قال ابن كثير فيه: «وقد أورد الشيخ شهاب الدين صاحب الروضتين ها هنا كتباً عدة من الفاضل إلى السلطان صلاح الدين، فيها فصاحة وبلاغة ومواعظ وتحضيض على الجهاد، فرحمه الله من إنسان ما أفصحه، ومن وزير ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه» [١] .

وبأمثال هؤلاء ينصر الله دينه ويسدد رمي أوليائه، وقد أكرم الله تعالى صلاح الدين بهذا العالم الجليل الأديب الفقيه الوزير الناصح الزاهد التقي الورع المنفق صاحب الدعوة المستجابة .

---

(١) **انظر** : البداية والنهاية (جـ١٢ / ٣٦١) .

وفـاتـه :

في سنة ٥٩٦ هـلبى القاضي الفاضل نداء ربه عندما كان أحوج ما كان إلى الموت عند تولي الإقبال وإقبال الإدبار، وهذا يدل على أن لله به عناية (١) .

وذكر صاحب النجوم الزاهرة أنه كان بين الملك العادل أبي بكر بن أيوب والفاضل وحشة فلما بلغ الفاضل مجيء العادل إلى مصر دعا الله أن يقبضه إليه فمات قبل دخول العادل، فعندما كان العادل داخلاً من باب النصر، كانت جنازة القاضي الفاضل خارجة من زويلة (٢) .

[ب] وفاة السلطان الناصر صلاح الدين :

عندما وقفت على ترجمة صلاح الدين رحمه الله، ووصلت إلى آخر لحظات حياته ذرفت عيوني بالدموع، واهتز قلبي بالخشوع، لهذا البطل العملاق الذي كان للإسلام ردءًا وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وكانت وفاته في عام ٥٨٩ هـوتذكر كتب التاريخ أن أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه، وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، فعندما كان يقرأ عليه القرآن وهو في سكرات الموت مر القارئ على قوله تعالي: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾[الحشر: ٢٢].

فقال صلاح الدين - رحمه الله -:

وهو كذلك صحيح. فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿**لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ**﴾[التوبة: ١٢٩]. تبسم وتهلل وجهه وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله وجعل الجنة مثواه ، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، ثم أخذوا في تجهيزه وحضر

---

(١) **انظر** : سير أعلام النبلاء (جـ٢١/٣٤٣)

(٢) **انظر** : النجوم الزاهرة (جـ٦/١٥٧)

جميع أولاده وأهله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال، وأمَّ الناس عليه القاضي ابن الزكي، ثم دفن في داره بالقلعة المنصورة في دمشق، ونزل ابنه الأفضل في لحده ودفنه وهو يومئذٍ سلطان الشام، ويقال إنه دفن معه سيفه الذي كان يحضر به الجهاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله [(١)] .

لقد وقع نبأ صلاح الدين على المسلمين جميعًا وقع الصاعقة للصدمة الفادحة، والمصاب الجلل وهذا القاضي ابن شداد يصف لنا ذلك المشهد المريع إذ يقول: «وكان يوم موته يوماً لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين ﷺ وغشي القلعة والمُلك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعال، وبالله لقد كنت أسمع الناس أنهم يتمنون فدا من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوز والتخرص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل الفداء لفدي بالأنفس» [(٢)] .

لقد كان صلاح الدين رحمه الله قائداً ربانياً تربى في أجواء علمية رسخت في زمن نور الدين محمود، واستمرت في عهده فأخرجت هذا الأنموذج الرفيع الذي أعاد الله به للأمة عزتها وقوتها.

[جـ] الملامح الرئيسية في شخصية صلاح الدين:

أولاً: تقريبه للعلماء وحبهم واحترامهم واستشارتهم وإعطائهم المكانة اللائقة بهم، وإحياء المدارس والعلم، وحضور السلطان مجالس العلم، بل إن السلطان صلاح الدين يذهب إلى الإسكندرية مصطحباً معه ولديه علي وعثمان لحضور مجلس الحافظ السلفي، وترقى العالم كمال الدين الشهرزوري إلى مرتبة

---

(١) **انظر** : البداية والنهاية (جـ١٢/٥) .

(٢) **انظر** : النجوم الزاهرة (٦/٥٢) .

الوزارة، ومن مستشاري صلاح الدين العالم الواعظ ابن نجا الحنبلي، ووزيره القاضي الفاضل من أكابر الكتاب محبًا للعلم وأهله،ومنهم نجم الدين الخبوشاني، والفقيه الشافعي، وهو الذي شجع صلاح الدين على إنهاء الدولة العبيدية وقطع الخطبة لهم(•)،بنى له صلاح الدين مدرسة وفوض تدريسها إليه، ومن الفقهاء الأمراء الفقيه الهكاري: «وكان جندياً شجاعاً كريماً، تفقه على الشيخ أبي القاسم البرزي واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه، وكان يخاطب صلاح الدين بما لا يقدر عليه غيره، توفي وصلاح الدين محاصر لعكا» (١) .

وكان إذا زاره عالم اهتم به جداً، ولا يتركه حتى يزوده بالمال والأمتعة له ولجيرانه وأقربائه.

إن هذه الانتصارات العظيمة لا تكون إلا بوجود مثل هذا التلاحم والتعاطف بين الأمراء والعلماء، وقال القاضي ابن شداد: «وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً» (٢) وكان آل المقدسي الذين سكنوا حي الصالحية في دمشق أبو عمر محمد ابن أحمد بن قدامة وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني والشيخ العماد، كانوا لا ينقطعون عن غزاة يخرج صلاح الدين فيها، وقد حضروا معه فتح القدس والسواحل وغيرها (٣) .

إن القادة الذين يحترمون العلماء والفقهاء في حقيقة عملهم هذا قد أخذوا بسُنة من سُنن التمكين والنصر والغلبة على الأعداء.

إن الذين يهاجمون علماء الأمة ومفكريها وساستها ومربيها وفقهاءها

(•) جاء الأمر من نور الدين محمود إلى صلاح الدين بقطع الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد، وسهّل الله عز وجل هذا الأمر لصلاح الدين حيث توفى العاضد بعد وقت قصير من وصول أمر نور الدين.

(١) وفيات الأعيان (جـ٣/٤٩٧).

(٢) أيعيد التاريخ نفسه ؟ (٩٤).

(٣) انظر: البداية والنهاية (جـ١٣/٣٩).

ومحدثيها وحركييها يخدمون المخططات اليهودية والنصرانية والطاغوتية والاستخبارية سواء شعروا بذلك أم لا، والذين لا يزالون يطعنون في علماء الأمة بفعلهم هذا يكونون ، **قد ابتعدوا عن منهج أهل السُنَّة والجماعة الذي يقول :**

« وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر لا يذكرون إلا بالجميل،ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل » [١] .

ولقد رأيت أقواماً يستهزئون بالعلماء والفقهاء والمحدثين والدعاة، بل بعضهم كفر بعض قادات الحركات الإسلامية بدون بينة، بل بجهل وعناد و استخفاف، وبعضهم يتلذذ بغيبة العلماء والطعن فيهم، وينشر ذلك على المنابر وفي الصحف، ولو أتيحت له الإذاعة لهذا الغرض لطار فرحاً، وما يدري المسكين أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، وما يدري هذا المتعالم أن الاعتبار في الحكم على الأشخاص بكثرة الفضائل، قال ابن القيم رحمه الله: « ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يحوز أن يتُبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته في قلوب المسلمين » [٢] .

إن تاريخ الأمة الإسلامية المجيد يبين لنا أهمية احترام العلماء والدعاة وتقديمهم في إعزاز هذا الدين. فعلى العاملين لإعادة ماضينا المجيد وعزنا التليد أن يعملوا على إعادة دور العلماء والفقهاء، وإلزام الناس باحترامهم، ومنع العملاء المندسين في صفوفنا للطعن في علمائنا بالأقوال المزخرفة والأساليب الملتوية للضحك على شبابنا حتى لا يفلحوا في دنيا ولا في آخره.

---

(١) شرح الطحاوية (جـ٢ / ٧٤٠)

(٢) أعلام الموقعين (جـ٣ / ٢٨٤)

ثانياً : ومن الملامح الواضحة في شخصية صلاح الذين شغفه بالجهاد، قال القاضي ابن شداد : « وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد، وفي الإرفاد لصدق، وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد قد استولى عل قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه، ولقد هجر في محبته « الجهاد » أهله وولده ووطنه وسكنه، وقنع بالدين وبالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد، وقد سرنا مع السلطان على الساحل نطلب عكا وكان الزمان شتاء عظيماً، والبحر هائجاً وموجه كالجبال، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم عندي، واستخففت رأي من يركب البحر، بينما أنا في ذلك إذ التفت إليّ وقال في نفسه : إنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي وحكيت له ما خطر لي، فانظر إلى هذه الطوية ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه، وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبته بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر، وهو صابر على شدة الألم ويقول: « إذا ركبت يزول عني الألم حتى أنزل » [1] .

إن في زماننا هذا اندفاع عظيم نحو ساحات الوغى، والشاهد على ذلك ما

---

(١) الروضتين (جـ٢ / ٢٢١-٢٢٢)

حدث في أفغانستان، وما نسمعه من تضحيات عظيمة في الأرض المحتلة، إلا أن في بعض بلاد المسلمين من أشرف على الحركات الجهادية أخوة لنا تنقصهم خبرات كثيرة من فهم لسنن الله في تغيير الشعوب والمجتمعات، والأهم من ذلك معرفتهم في دين الله ضعيفة، وخصوصاً في السياسة الشرعية وأحكام الدماء والأعراض والأنفس، والتدرج في تربية الشعوب حتى تتهيأ لتصبح مجاهدة وشرعوا في إصدار الفتاوى والأحكام التي قرءوها من كتب تخدم غرضهم واهتموا بتربية الشباب عليها، واقحموا أتباعهم في معارك خاسرة ضد حكوماتهم في صراع عنيف ينتهي بقتل بعضهم، وسجن آخرين منهم ومن غيرهم، وتشريد العوائل الأخيار من المسلمين، وتسببوا في تعطيل مشاريع دعوية تربوية وفعلهم هذا فيه تجاوز من عدة أمور:

أولاً: إن الجهاد حق الأمة وليس حق أفراد أو جماعات وتقرره الأمة بواسطة أهل الحل والعقد من الفقهاء والعلماء الذين تختارهم، ويسبق هذا مجهود تربوي وعلمي وفقهي في أوساط الشعب لتعريفهم بحقيقة دينهم، واستفاضة البيان، ويكون ذلك تحت إشراف العلماء والفقهاء، فإن كان الشعب الذي نتكلم عنه لا يوجد فيه علماء وفقهاء فلا بد من دفع مجموعة من أبنائه للتفرغ لطلب العلم وأخذه من أهله، ممن شهدت لهم الأمة أنهم أهلٌ لذلك حتى يتهيئوا للإشراف على هذا العمل الجليل، حتى تجد الأمة من ترجع إليه في مشاكلها العظيمة، ويأخذ بيدها نحو تحكيم شرع الله بسُنة الله في التدرج، وخصوصاً في عصرنا هذا الذي تموج فيه الفتن.

فالأمور العظيمة كالجهاد في سبيل الله تعالى مردها إلى أهل العلم والبصيرة النافذة قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ٨٣]. لا إلى من قضى عمره في

الهندسة المعمارية أو الصناعية ، أو قضى عمره في دراسات الجراحات الطبية أو غيرها من الفنون، ثم قرأ بعض الكتب فحفظها وفهمها على حسب فهمه المحدود وشن حرباً على العلماء والفقهاء والحركات الإسلامية صاحبة الفهم الشامل، التي أشرف على تأسيسها وحركتها علماء ودعاة وفقهاء شهدت لهم الأمة بعلمهم وإخلاصهم وصدقهم، ولا الرجوع إلى من عاش في متابعة الجرائد والإذاعات وتتبع سقطات الدعاة، وتتملذ على كتب حرب العصابات مثل ماوتسي تنج في الصين ، وجيفارا في أمريكا اللاتينية ، والبعد عن قيادتنا العظيمة أمثال نور الدين وصلاح الدين وقبل هؤلاء سيد المرسلين ﷺ وأصحابه الميامين الطيبين وأراد أن يدفع بشباب الأمة نحو أهدافه التي رسمها.

قال الشيخ العلامة ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في تفسيره للآية المذكورة:

« هذا تأديب من الله لعباده على فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين،أو الخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول ﷺ وإلى أولي الأمر وهم أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة ،الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا ما فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرته أكبر من مصلحته لم يذيعوه ولهذا قال ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ أي :يستخبرون بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة ».

وفي هذا دليل لقاعدة مهمة وهي : إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يوكل إلى من هو أهل لذلك، ويُجْعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب للصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ.

وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام، و النظر فيه هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان أم لا فيحجم عنه [١] .

---

(١) تفسير السعدي (جـ٢ / ٥٤ ، ٥٥) .

إن قضايا الجهاد والسياسة الشرعية ما كان يفتي فيها إلا العلماء الراسخون في المعرفة والعلم والفقه والذين أصبحت لهم دراية بمقاصد الشريعة، والموازنة بين المصالح والمفاسد، والأدلة التفصيلية ولا يمكن لشباب في مقتبل العمر ضاعت أوقاتهم في القيل والقال، ولم يجلسوا في حلقات العلم ويأخذوه عن شيوخه أن يفتوا في أمور الجهاد التي تزهق فيها الأرواح، وتنفق فيها الأموال ويعتدى فيها على الأعراض.

بعد الدرس العميق لسيرة المصلح الجهادي صلاح الدين يتبين لنا أن الذين كانوا يفتون في زمانه هم العلماء الذين فهموا الشريعة ومقاصدها، واستوعبوا الموازنة بين المصالح والمفاسد، وواقعهم الذي عاشوا فيه، وتفننوا في معرفة المصالح والمفاسد.

وأنصح إخواني أبناء المسلمين أن لا يغترُّوا بمن أوتى جدلاً باللسان ولم يُشهد له بأنه من أهل الفتوى، وأن لا يأخذ الإنسان دينه إلا ممن شهدت لهم الأمة بالعلم وعرفوا بالحرص عليه وتعلموا على أيدي العلماء، وصبروا على أخذ العلم، لأن الدين وفهمه عظمك ولحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ دينك فلا تأخذه من النكرات الذين أخذوا بعض ثقافاتهم من الصحف والأوراق والكتب واعتزوا بعقولهم وتفاخروا بنفوسهم.

إن العلم الشرعي علم يؤخذ بالتلقي فلا يجدي الأخذ من الكتب فقط، بل الاقتصار في التلقي على الأخذ من الكتب بلية من البلايا، وكذا اجتماع الشباب والطلبة على التدارس دون أخذ عن شيخ عالم عامل.

يقول الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

«من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام» [1].

---

(١) ابن جماعة تذكرة السامع (ص ٨٧).

وكان بعض السلف يقولون : « من أعظم البلية تشيخ الصحيفة » [١] .

إن علماء الأمة على مر العصور والأزمان لا يرفعون فوق رءوسهم الرايات ولا يدعون إلى شعارات، ولا يطالبون الناس بالانتماء إليهم، إنما يطالبون الناس بالانتماء إلى سُنة سيد المرسلين ﷺ، وإياك أخي أن تكون مثل الخوارج الذين تركوا أهل العلم والفضل من الصحابة، وتابعوا الأعراب الذين لا يُجيدون إلا الخطابات الحماسية، وتأجيج العاطفة، فاحرص على الموثوق في دينه وعلمه: « فإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم » [٢] . (•) .

إن جيل صلاح الدين قادة وجنوداً جماعات وأفراداً، فهموا معنى قيمة العلم وممن يؤخذ، وأعطوا الفتوى لأصحابها، وتسلم العلماء الربانيون سياسة الأمة فقطعوا بها المراحل، وتدافع الجميع نحو مرضاة الله وزراء وقواد وسلاطين وعوام، فأصبح شغفهم بالعلم والعلماء واضحاً معلوماً، وحرصهم على الجهاد وتفجير طاقاته شيئاً ملموساً من سيرتهم، إن الجهاد حق الأمة وليس حق الأفراد، وتقرره الأمة بالالتفاف حول أهل الحل والعقد الذين تقدمهم الأمة، وليس مجموعة من الأفراد يطعنون في من يخالفهم.

ثانياً: من السمات الشخصية في صلاح الدين حرصه على العدل. وكان الأمراء والوزراء من قبل يتسلطون على الناس في أموالهم وأراضيهم، والملوك يسمحون لهم بذلك إرضاءً لهم وحتى تبقى طاعتهم.

ثالثاً: زهده في الدنيا ولذلك لم يخلف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم، وحتى إلى أعدائه، وكان متقللاً في ملبسه ومأكله، ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف.

---

(١) ابن جماعة تذكرة السامع (ص ٨٧) .

(٢) مقدمة صحيح مسلم (جـ١ / ١٤) .

(•) هذه مقولة ابن سيرين وقد ردَّدها الشافعي من بعده – رحمهما الله – .

رابعاً: كان مهتماً بالعلوم في اللغة والأدب وأيام الناس، وكان يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام.

خامساً: كان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في الجماعة يقال: إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، وكان يتجشم القيام مع ضعفه.

سادساً: كان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع القرآن الكريم، والحديث الشريف.

سابعاً: كان ضحوك الوجه كثير البشر، لا يتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات.

فرحمة الله على أمثاله وأعلى ذكره في الصالحين.

[د] من أروع المراثي في صلاح الدين الأيوبي رحمه الله:

قال العماد الأصبهاني رحمه الله: «دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في زيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء إلى أن قال العماد الأصبهاني مرثيته المشهورة.

شمل الهدى والملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذي	لله خالصة صفت نياته
أين الذي مذ لم يذل مخشية	مرجوة رهباته وهباتُهُ
أين الذي كانت له طاعتنا	مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا	يُرجى نداهُ وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله	وسمت على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبون مات شخصاً واحداً	قد غم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً	أبداً لماذا أسلمته حُماتُه
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره	لما خلت من بدره داراته

دُفِنَ السماح فليس تنشر بعدما ... أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف ... محفوفة بوروده حافاته
مَنْ لليتامى والأرامل راحُم ... متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت ... في ذكره من ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت ... من سلها وركوبها عزماته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت ... من كل قلب مؤمن روعاته
يا داعياً للدين حين تمكنت ... منه الذئاب وأسلمته رُعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعياً ... ديناً تولى مذ رحلت ولاتُهُ
فارقت مُلكاً غير باق مُتعباً ... ووصلت مُلكاً باقياً راحاتُهُ (١)
من للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تعد عاداته
ما كان أسرع عصره لما انقضى ... فكأنما سنواته ساعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً ... رضوان رب العالمين بل صلواته (٢)

[هـ] من أروع الرسائل في أخبار وفاة صلاح الدين :

قال صاحب النجوم الزاهرة: وفي ساعة موت السلطان صلاح الدين كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

كتبتُ إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مُصابه، وجعل فيه الخلف للملك المرحوم، وقد زلزل المسلمون زلزالاً عظيماً، وقد حفرت الدموع

---

(١) النجوم الزاهرة(جـ٦ / ٦٠ ، ٦١) .

(٢) صلاح الدين بطل حطين ومحرر القدس(ص ١٠٢) .

المهاجر، وبلغت القلوب الحناجر، وقد قبلت أباك ومخدمي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المغمدة، ما لا يدفع البلاء ، ولا يرد القضاء ، وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يُرضي الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزنون، وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المُصاب عنها، وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما وعدتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلية أهونها موته، وهو الهول العظيم والسلام (١) .

فرحمة الله على صلاح الدين ومن قبله من السابقين ، ومن بعده من المسلمين الذين أخذوا بسنن التمكين.

قد يتساءل القارئ لماذا هذا الإطناب في سيرة صلاح الدين ونور الدين :

وجوابي على ذلك أن الدولة العُبيدية لها أسباب مباشرة في السقوط وأسباب غير مباشرة، وإن في رأيي أن من أهم الأسباب في زوال الدولة العُبيدية : جهود القائدين العظيمين نور الدين محمود، وصلاح الدين، ولذلك أطنبت في سيرتهم العطرة وإيضاح أهم أسباب النصر التي التزاموا بها وأخذوا بها، وإظهار الجهود العلمية والتربوية والفقهية التي قام بها العلماء في عصرهم وعصر من سبقهم، ليصل القارئ الكريم أن صلاح الدين ونور الدين لا يأتيان فجأة دون تمهيدات وإرهاصات وجهود تبذل من قبل أفراد الأمة وجماعاتها وعلمائها ودعاتها، وليعلم القارئ أن التغيير لا يحدث في الأمة إلا إذا سبقة حرص جماعي على الأخذ به، وعلى أهمية معرفة أسباب النصر وعوامل الهزيمة وأهمية مزج

---

(١) النجوم الزاهرة (٦ ، ٥٢ ، ٥٣) .

الإخلاص في النية بالصواب في التفكير والعمل لا غنى لأحدهما عن الآخر.

وبهذا أكون قد انتهيت من كتابة الدولة العبيدية في الشمال الإفريقي.

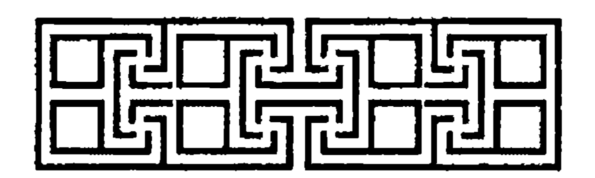
فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي وتقصيري.

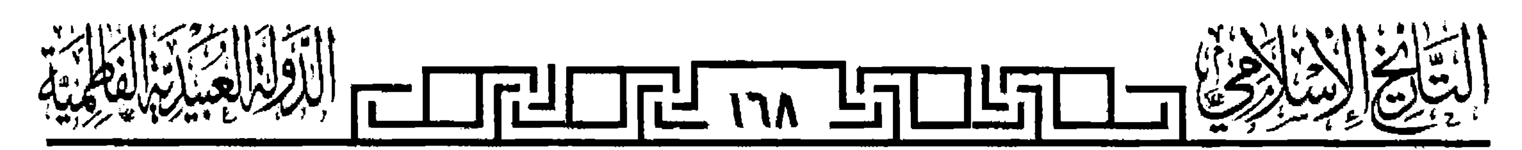
أسأل الله أن يكون علمي خالصًا لوجهه الكريم، وأن تنتفع به أجيال المسلمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين





نتائج البحث

[١] عندما تكون الأمة قوية يعمدُ أعداؤها إلى لباس ثوب الدين ليسهل لهم تفتيتها ونخرها من الداخل وخصوصاً اليهود ويتفننون في رفع الشعارات المزيفة والكاذبة لخداع عوام المسلمين، وهذا ما فعله الزنديق اليهودي الحاقد عبد الله بن سبأ وهو أول من بذر بذرة الرافضة في الأمة باسم التشيع ومناصرة أهل بيت النبوة.

[٢] إن أهل البيت رضوان الله عليهم وخصوصاً علماءهم ابتداءً من الإمام علي رضي الله عنه يعتبرون من علماء أهل السُّنَّة والجماعة، وحاربوا بكل ما يملكون أهل البدع والابتداع في الأمة.

[٣] إن زيد بن علي خذله أهل الرفض لكونه امتنع عن سب الشيخين رضي الله عنهما وهذا يدل على حقد الروافض للصحابة الكرام.

[٤] إن التشيع كثرت فرقه وانتشرت في بقاع الأرض وأصبحت له دول تحمي أتباعها ومن المعلوم أن الأفكار لا تموت في الغالب وإنما يتغير أشكالها ولباسها وفق ما يحتاجه أهل كل مكان وزمان، ولذلك فإن بيان فرقهم التى لا زالت منتشرة وغيرت أسماءها جهاد يحبه الله ورسوله.

[٥] إن من أخطر فرق الشيعة في الوقت الحاضر النصيرية التي تحالفت في الماضي مع النصارى لاحتلال ديار الشام، وكانوا يحزنون إذا انتصر المسلمون ويفرحون إذا هزم المسلمون ولا زالت تحالفاتهم مع النصارى واليهود مستمرة ولهم دولة في سوريا أذاقوا أهل السُّنَّة فيها الويلات من قتل وسجن وتعذيب وتشريد.

[٦] ومن أخطر الفرق المعاصرة الاثنا عشرية التي أقامت دولة في إيران، وتتدرج

في نشر أفكارها على مستوى العالم أجمع، ولا نستغرب إذا استمر أهل السُنَّة في نومهم العميق أن يضموا الإمارات العربية وقطر والبحرين وجزءاً من العراق والسعودية، ويرون هذا التوسع جهاداً وديناً وقربة لله.

[٧] إن الإسماعيلية أتقنت تنظيمها ووفرت له كافة الأسباب ـ التي تنقل التنظيم إلى حكم دولة ـ من أسباب عسكرية، وأمور مادية، واختيار كفاءات عالية لها المقدرة على التخطيط والتنفيذ.

[٨] إن القيادة الإسماعيلية اختارت مكاناً مليئاً بالظلم وفيه صراع عنيف بين القبائل والدولة العباسية، وأرسلت دعاتها على مراحل حتى جاء دور الماكر الخادع أبي عبد الله الشيعي الذي تدل كتب التاريخ أنه رجل دولة له مقدرات عسكرية وفكرية وظفها في تحقيق أهدافه، وعندما استطاع أن يعرف مواطن القوة في المجتمع المغربي ومواطن الضعف شرع في الأخذ بأسباب القوة وإنهاك دولة الأغالبة وزيادة ضعفها مما ساعده على إسقاطها عام ٢٩٧ هـ .

[٩] كان الناس في زمن مجيء أبي عبد الله الشيعي مهيئين للتغيير ويبحثون عن بديل ويسعون لإزالة الظلم وتولدت نفرة عظيمة بين الأمراء والشعب في الشمال الإفريقي.

[١٠] إن عبيد الله المهدي عندما تقلد أمور الحكم عمل على تصفية أتباعه المخلصين الذين أسسوا دولته، وهذا شيء ملاحظ في تاريخ البشرية، وهو ما يسمى بأن الثورة تأكل أبناءها، وأقول: إن هذا الأمر يدخل في سُنَّة الله الجارية: من أعان ظالماً سلطه الله عليه، وما انتقام الرئيس العراقي من وزيره وعامله وصهره عنا ببعيد ، بل جل الثورات تتعرض لهذه التصفيات.

[١١] إن عبيد الله استفاد من معتقد المسلمين في المهدي المنتظر وزين الأمر

وزخرفه حتى أقنع كثيراً من الناس بأنه هو المقصود.

[١٢] إن علماء أهل السُّنَّة دائماً وأبداً عندما تشتد الظلمة ويغيب الإسلام يقومون بدورهم الريادي في إحياء الأمة، ولو كلفهم ذلك نفوسهم وأموالهم وأهاليهم.

[١٣] إن تربية الأمة على معتقد أهل السُّنَّة والجماعة هو السياج العقدي والفكري والنفسي الذي يحميها من الدعوات الضالة المضلة.

[١٤] إن أهالي طرابلس قاوموا المد الرافضي والمعتقد الباطني، ودخلوا في قتال عنيف مع بني عبيد وفي نهاية المطاف إنقاد أهل طرابلس بالقوة والسلاح لدولة العبيديين.

[١٥] لقد فعل العبيديون في أهالي برقة ما تقشعر منه الأبدان وتشيب منه الرءوس، وثار أهل برقة ضدهم ، ولكنهم أخمدوا بالتنكيل والتعذيب والقتل وسبي النساء.

[١٦] استطاع أبو يزيد الخارجي أن يهز كيان الدولة العبيدية وكاد أن يقضي عليها إلا أنه لم يحقق ذلك، لأن عقليته لم تكن عقلية رجل دولة، ولم تكن له خطة واضحة الأهداف كما أنه غدر بحلفائه مما أفقد ثقة الناس فيه.

[١٧] إن علماء أهل السُّنَّة اجتهدوا في مناصرتهم لأبي يزيد الخارجي إذ رأوا أنه أخف الضررين والدرس العميق الذي تخرج به هو شدة الحذر في مثل هذه التحالفات وتقدير المصالح والمفاسد وخصوصاً عند أهل البدع الاعتقادية والأحزاب العلمانية، فالمسلم كيس فطن ولا يلدغ من جحر مرتين.

[١٨] من أسباب نجاح ثورة أبي يزيد أن القائم بأمر الله الخليفة العبيدي سب

الأنبياء وأظهر كفره، فاستغل أبو يزيد ذلك وألب إباضية المغرب وجموع القبائل وفقهاء وزهاد القيروان عليه.

[١٩] أظهر الخليفة المنصور العبيدي الإسلام وقدم الفقهاء والعلماء ورفع الظلم عنهم حتى سكنت البلاد وقضى على الخارجين عليه.

[٢٠] إن أهالي الشمال الإفريقي طويلوا النفس لا يرضون بغير منهج أهل السُّنَّة ولهم استعداد أن يقدموا الغالي والرخيص في سبيل هذه العقيدة الصحيحة، لذلك اضطر خلفاء العبيديين أن يفكروا في الانتقال إلى مصر والتخلص من الثوارت والاضطرابات.

[٢١] أصبحت الدولة العبيدية راعية الفكر الباطني في العالم الإسلامي، وتمده بالمال والسلاح وبكل ما يحتاجه، لتقويته ضد أهل السُّنَّة فتم التعاون بين القرامطة والعبيديين إلا أنهم اختصموا واختلفوا على الدنيا.

[٢٢] اتخذت الدولة العبيدية أساليب متنوعة في القضاء على عقيدة أهل السُّنَّة وكلها لم تحقق هدفها.

[٢٣] قاوم علماء أهل السُّنَّة المد العبيدي الرافضي بكافة الأساليب المتاحة لهم من حجة وتعليم ودعوة وحمل سلاح ضد الطغاة الظالمين وتحملوا القتل والسجن والتعذيب.

[٢٤] استهدف علماء أهل السُّنَّة في دعوتهم الأمراء الصنهاجيين ونجحوا في إرشادهم وتعليمهم وأخص بالذكر الفقيه أبا الحسن الزجال.

[٢٥] كان الاهتمام بالمعز بن باديس مكسباً عظيماً لأهل السُنة، وكان المعز بن باديس حكيماً في تدرجه للانفصال عن الدولة العبيدية الباطنية، إذ شجع العلماء والفقهاء من أهل السُّنَّة في دعوتهم، وضايق الروافض، بل استدرجهم لمعارك طاحنة للقضاء عليهم بالسيف.

[٢٦] إن الدولة الصنهاجية البربرية الزيرية تحولت في زمن المعز إلى دولة سنية وهذه بداية ضعف الدولة العبيدية، بل من أسباب سقوطها.

[٢٧] إن إلغاء المذاهب السنية وإلزام الناس على الالتزام بمذهب واحد ضيق قاعدة الدفاع في الشمال الإفريقي، وكان الأولى للمعز أن يتبنى التيارات السنية كافة كما فعل نور الدين محمود مع كونه حنفي، إلا أنه قدر وقدم بقية المذاهب السنية، وكما فعل صلاح الدين رغم كونه شافعيًّا.

[٢٨] لقد كانت سُنة الله واضحة في آجال الملوك والحكام، وكذلك قوة الأفكار التي تحميها الدول، وكم من تغيير حدث من أحفاد وأبناء من هم أعداء لمنهج أهل السُنة.

[٢٩] مكرت الدولة العبيدية بالمعز بن باديس بإرسالها القبائل العربية للشمال الإفريقي، وكان من أسباب انهزام المعز الصراع العنيف بين صنهاجة وكتامة وزناته، وتركيب الجيش وارتكازه على العبيد الذين لم يتحصلوا على قسط وافر من التربية الإيمانية.

[٣٠] يعتبر عصر تميم بن المعز أفضل من والده، إذ استطاع أن يضم المدن التي انفصلت إلى دولته وأن يجند القبائل العربية في جيشه وأن يهزم بني عمه أصحاب الدولة الحمادية واستمر على نهج أبيه والدعوة إليه.

[٣١] يعتبر عصر يحيى بن تميم من أقوى العصور الزيرية خصوصاً في مجال البحر، وشن الحروب على النصارى، وإرسال الحملات الجهادية في حوض البحر المتوسط، كما أن التجارة ازدهرت ازدهاراً عظيماً انعكس على الرعايا، واستطاع أن يسوس العرب بسياسة حكيمة.

[٣٢] في عصر الأمير علي بن يحيى بدأت الأطماع النصرانية تظهر للعيان، وتحركت أساطيل النصارى من صقلية للمناوشات في البحر المتوسط.

[٣٣] سقطت المهدية عاصمة الزيريين في عام ٥٤٣ هـ في أيدي « رجار » النصراني حكام صقلية ، وكذلك طرابلس ومدن الساحل في الشمال الإفريقي .

[٣٤] استطاع الموحدون أن يطهروا الشمال الإفريقي من النصارى وأن يحافظوا على وحدة البلاد السياسية من المغرب الأقصى إلى الحدود المصرية .

[٣٥] كان لسقوط الدولة الزيرية أسباب كثيرة من أهمها الصراع الداخلي بين صنهاجة وزناتة وكتامة، وتوسع الصراع بدخول العرب حلبة الصراع مما أضعف الدولة في نواحيها العسكرية والتجارية والسياسية وغيرها، وجعل العلماء والفقهاء يهاجرون إلى المشرق أو الأندلس أو المغرب الأقصى .

[٣٦] حكمت الدولة الزيرية ١٨٠ سنة هجرية ثم انتهت وأصبحت كالأمس الغابر : ﴿ **لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ [يونس: ٤٩]. وهذا يفيدنا عبرة واتعاظاً .

[٣٧] إن كان العبيديون نجحوا في إضعاف المعز بن باديس ودولته فإن الله سلط عليهم إخوان المعز في العقيدة نور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي للقضاء على ملك العبيديين.

[٣٨] تكاتفت جهود الأمة لمحاربة المد الباطني الإسماعيلي، وظهر ذلك جلياً فيما قام به السلطان محمود الغزنوي في بلاد الهند والسلطان ألب أرسلان السلجوقي في بلاد الشام، من حرب العبيديين وكان الغزنويون والسلاجقة سُنِّيين في معتقدهم .

[٣٩] برز في الدولة السلجوقية الوزير نظام الملك « الحسن بن علي » وكان ذا صلاح وتقوى وهمة في إحياء السُّنَّة وإماتة البدعة، فوضع خطة طويلة المدى متعددة المراحل ترمي لإخراج أجيال متفقهة في الدين مستعدة للتضحية في سبيله، فأسس المدارس في ديار المسلمين في نيسابور

والعراق والشام، وامتدت إلى مصر، وشجع العلماء والفقهاء على التعليم والدعوة وتفقيه الناس، ووفر للعلماء والطلاب كافة سبل الراحة، وكان من أشهر العلماء في هذه المرحلة العصيبة أبو المعالي الجويني، والإمام الغزالي وقبلهم الماوردي، وأبو إسحاق الشيرازي فعملوا جادين على محاربة الرفض وإحياء السُنن وهؤلاء زعماء المدرسة الشافعية، السنية التي كان لها دور ملموس في فترة نهوض الأمة من كبوتها وتهيئتها لفتوحات نور الدين محمود، وصلاح الدين.

[٤٠] ظهور علماء المدرسة الحنبلية السنية أمثال «أبو الوفاء بن عقيل وأبو الفرج الجوزي» وتفرغهم لتعليم الناس وتربيتهم، وكان لمدرسة أبي سعيد المخرمي الحنبلي دور ملموس في هذه الجهود، وخصوصاً بعد أن تولى أمر هذه المدرسة الداعية الرباني والعالم الجليل عبد القادر الجيلاني الذي تربى على يديه كثير من علماء الشام في بغداد.

[٤١] بعد أن بذلت جهود تربوية عظيمة من أشهر روادها «الإمام الغزالي» وعبد القادر الجيلاني، وبذلت جهود علمية لا يُستهان بها من أشهرها ما قامت به المدرسة الحنبلية الشافعية تولد جيل واضحة أهدافه، عالية همه، وظهر في هذا الجيل الجديد قادة ربانيون من أمثال عماد الدين زنكي الذي بدأ في انتزاع أراضي المسلمين من النصارى والحاقدين وحلفائهم الباطنية الملاعين.

[٤٢] كان عصر نور الدين زمن تغيير للأمة وكانت معالم وملامح التمكين ظاهرة من عدل شامل، وحب للمصلحة العليا وتفانٍ في أداء الواجب وتكامل بين أبناء الأمة، وانصهروا جميعاً في تحقيق الأهداف العليا.

[٤٣] رأت الدولة الزنكية أن لا قوة للأمة إلا باتحاد العراق مع الشام فبدأت الدولة الفتية في توحيد أقطارها الإسلامية، ورأت بمنظورها البعيد أن لا

عزة للأمة ولا قضاء على النصارى إلا بالقضاء على دولة الرافضة العبيدية، فأعدوا للأمر عدته، واستطاع نور الدين أن يسقط الدولة العبيدية، ويوحد جبهة القتال الشامية المصرية عام ٥٦٤ هـ، وكان ذلك على يد أحد أعوانه المخلصين صلاح الدين الأيوبي.

ويظهر لقارئ التاريخ أن الأمة لا تستطيع أن ترد هجمات النصارى إلا إذا اتحد الشام مع مصر ويكون ما خلفها من ديار المسلمين رداً لهما.

وأما دور الأمة الهجومي لاستمرار عجلة الجهاد والتوغل في أوربا لا يكون لها ذلك إلا إذا انضم الشمال الإفريقي مع بلاد الشام والديار المصرية.

[٤٤] أجادت الدولة الزنكية في إقامة شبكات أمنية على مستوى أملاكها تتبع كل التنظيمات البدعية التي تعمل على إسقاط الدولة السنية الزنكية الفتية، فكانت الدولة الزنكية تهتم بتتبع أقليات النصارى في ديارها، وخنق أتباع العبيديين وجعلهم تحت أعين الدولة. ولذلك فإن الحركات الإسلامية السنية التي تسعى للوصول للحكم من أجل تحكيم شرع الله عليها أن تهتم بمكاتبها الأمنية وتطورها بما يليق مع مستوى المرحلة التي تمر بها حتى تستطيع أن تحجم دور الجيوب الداخلية في الأمة «تنظيمات بدعية أو علمانية أو نصرانية أو يهودية» وإتقان هذا الجانب من أهم أسباب التمكين.

[٤٥] إن الدولة النورية الزنكية ما كانت تسند أمورها القيادية إلا لجنودها وقادتها المخلصين لفكرتها، ولذلك بعد ما مات نور الدين محمود التقط الراية صلاح الدين، واستمر في تحقيق الأهداف المرسومة.

إن من الأخطاء القاتلة التي تمر بها الأمة أحياناً أن تتعلق بالأشخاص فإن ماتوا ضعفت وإن انحرفوا انحرفت، ولذلك يجب على الدعاة أن يجعلوا الأمة تتعلق بالمنهج حتى تستطيع أن تستمر في أداء وظيفتها الرسالية.

[٤٦] لا بد للأمة التي تسعى لإزالة الدول الكفرية والأحكام الجاهلية أن يمتزج فيها الجانب العلمي التربوي في الاستعداد العسكري الجهادي، وأن تكون القيادة العليا لأصحاب العلم الربانيين. ومن ظن أن الأمة بالقوة العسكرية وحدها ترجع مجدها فقد أخطأ السبيل، وما أفغانستان عنا ببعيد، ومن ظن أن الجانب العاطفي الجياش وحده يقوي الأمة فقد خالفه الصواب، وما ديار الجزائر عنا ببعيد، ومن ظن أن الجانب العلمي وحده أو السياسي وحده هو الحل العلمي فقد جانبه الصواب، وإنما الحل في الأخذ بالإسلام جملة، فالإعداد لا بد أن يشمل كافة المجالات التي يتناولها الإسلام من دولة ووطن أو حكومة وأمة، أو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، أو ثقافة أو قانون، أو علم وقضاء أو مادة وثروة أو كسب وغنى، أو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء. وهذا الذي اهتم به جيل التمكين في زمن نور الدين محمود وصلاح الدين.

[٤٧] إن صلاح الدين الأيوبي تدرج في القضاء على الدولة العبيدية ورضي بأن يتولى وزارة التفويض وبدأ في تقليص الوجود العبيدي وإظهار التوجه السني، ولم يستعجل النتائج، ولا بد من مراعاة سُنة التدرج في تغيير الشعوب وإزالة الدول، كما أنه لا بد من الاهتمام بالتخصص في أمور الدولة ومن التفنن في توزيع الأدوار حتى يتكامل العاملون لتحقيق أهدافهم.

[٤٨] إن صلاح الدين أمضى سلاح العفو عند المقدرة مع خصومه ، فكان له أثر بالغ في كسب النفوس ومداواة الأمراض، وتوحيد الصفوف والقضاء على الفتن الداخلية، فالعفو عند المقدرة عندما يكون في محله يقوي الدولة ويجذب القلوب ويقضي على الخصوم.

[٤٩] عندما تمكن صلاح الدين من توحيد الجبهة الداخلية تحرك بجيوشه الجرارة لتطهير الشام من الصليبيين، وكان تحركه الميمون وفق خطة عسكرية محكمة، بدأ في انتزاع الحصون والمدن القريبة من مصر، واستدرج النصارى إلى مواقع اختارتها أركان حرب صلاح الدين ألا هو « حطين » ووجه ضربته المباركة في حطين التي كانت مفتاح القدس.

[٥٠] إن أخلاق القادة الرفيعة تظهر في الفتوحات العظيمة، ولقد ضرب صلاح الدين أروع الأمثلة في الأخلاق والعفة والكرم والصفح في فتحه للقدس، حتى إن ملوك النصارى ومؤرخيهم تأثروا بهذه الأفعال الجميلة والأيادي الجزيلة والفضل ما شهدت به الأعداء.

[٥١] إن القيادة الفكرية والعلمية لم تكن في يد صلاح الدين، وإنما كانت مرتكزة عند العلماء والفقهاء، وبرز من أعوان صلاح الدين القاضي الفاضل الذي أخذ بيد صلاح الدين نحو تطبيق شرع الله، فعندما تكون القيادة الفعلية في الأمة للعلماء الربانيين والقادة العسكريين الذين ينقادون لأحكام الله يكون النصر حليفهم ويمكن الله لهم ما داموا على نهجه سائرين.

[٥٢] إن الأمة تتفاعل مع قيادتها العلمية التي تنزل الأفكار في دنيا الناس وتعيش بها وتلتف الأمة حولها وتقدم لقادتها كل ما تملك، أما إذا كان القادة أصحاب كلام لا فعال وعقيدتهم ميتة لاتحيي قلباً، ولا تدفع شخصاً، وجلسوا للتنظير والقيل والقال، فإن الأمة تتمزق وتنشطر وتتفرق، ويعم الشتات، وهذا ملاحظ من سيرة نور الدين محمود الذي أقام الإسلام على نفسه، ونزل بنفسه ساحات الوغى ، وكذلك في سيرة صلاح الدين وتلاميذه.

[٥٣] مهما استطال الظلم وامتد وتوسع فلا بد من نهاية له سواء تمثل في فرد أو

في دولة، وهذه النهاية خاضعة لتقدير الله وفق سنته وقانونه في استدراج الظالمين والانتقام منهم وجعلهم عبرة لغيرهم فأين حكام العبيديين وأين ملكهم ودولتهم.

[٥٤] إن الجهاد عندما تقوم به الأمة كلها بقيادة أهل الحل والعقد يؤتى أكله بعد حين وعندما يتصدى لقيادة الجهاد جهال وأنصاف علماء وشباب متحمسون تكون النتائج وخيمة.

[٥٥] إني أعتبر ما قام به صلاح الدين ونور الدين من أعمال مجيدة ثمرة لجهود علماء وفقهاء ومربين بذلوا جهوداً عظيمة أخرجت هذا الجيل الذي قضى على دولة العبيديين وكسر شوكة النصارى في حطين، وطهر المسجد الأقصى من أسر الحاقدين.

[٥٦] إن الاهتمام بصفات القادة الربانيين والعلماء العاملين يفيد الأمة في تربيتها الطويلة وإعدادها الجاد لعودة صولتها وجولتها في دنيا الوجود على منهج قويم وتوجيه سليم.

[٥٧] إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة متواضعة وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

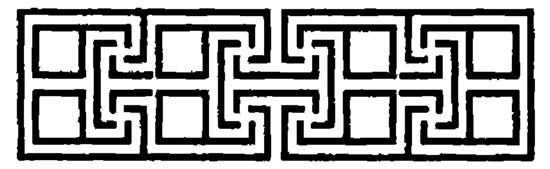
إن تجد عيباً فسدَّ الخللا ... جلّ من لا عيب فيه وعلا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين




تم
الكتاب الثالث
بحمد الله

الكتاب الرابع

دولة المرابطين

مُقدِّمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾[الأحزاب: ٧٠-٧١] .

وبعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

أما بعد :

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

هذا الكتاب الرابع [**صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي**] ، يتحدث عن [**دولة المرابطين السُنية**] منذ نشأتها وحتى سقوطها ، ويتعرض لسُنن الله في بناء الدول وإحياء الشعوب ، فيعطي نبذة تاريخية عن أصول القبائل التي قامت عليها دولة المرابطين ، فيتكلم عن مواطنها ومواقعها وحياتها الإجتماعية والسياسية والاقتصاية والدينية قبل دخول الإمام عبد الله بن ياسين

في قلب الصحراء الكبرى لدعوة قبائل صنهاجة إلى الإسلام ، وكيف تعامل ذلك الإمام مع تلك القبائل وجعل منها أمة تحمل الإسلام عقيدة ودعوة ومنهجاً ، كما يسلط هذا الكتاب الأضواء على زعماء دولة المرابطين من أمثال : الأمير يحيى بن إبراهيم ، والأمير أبي بكر بن عمر ، ويوسف بن تاشفين ويتكلم عن خط سير المرابطين في توحيد المغرب الأقصى ، وتوغلهم الدعوي في جنوب المغرب نحو غانا ومالي ، وغيرها من دول إفريقيا ،**ويتحدث عن** دفاع المرابطين عن مسلمي الأندلس وأسباب ضعف المسلمين هناك ، وعن أثر تحكيم شرع الله في مجتمع المرابطين ، وعن سياستهم الداخلية والخارجية ، وكيف أعطوا حقوق الرعية من خلال دستور دولتهم السُنية ، وما موقف الرعية من دولة المرابطين ؟ .

ويتحدث عن علاقة دولة المرابطين بالخلافة العباسية ، ودولة بني حماد وملوك الطوائف والإسبان والنصارى ، ويعطي نبذة مختصرة عن أنظمة الدولة المرابطية ، كنظام الحكم والإدارة ، والنظام القضائي والنظام العسكري ، والنظام المالي ، ويدافع عن دولة المرابطين ويبين مآثرها الحضارية من أعمال معمارية وحياة أدبية علمية وفقهية وتاريخية وجغرافية وطبية ، ويجد القارئ الكريم في ثنايا هذا البحث تركيزاً على معرفة سُنن الله وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية ، وأهمية العلماء في قيادة الأمة نحو المجد والعزة والكرامة ، وكيف حرصوا على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي حققت النصر على الأعداء ، **ويتحدث عن** أهمية سُنة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول ، ويعطي للتربية القرآنية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العظمى للأمة سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم وجهادهم ، أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربها وسُنَّة نبيها ﷺ وقيادته المخلصة .

وهذا الجهد المتواضع حاول أن يُسلط الأضواء على فقه التمكين من خلال التحليل والتفسير للأحداث التي وقعت في دولة المرابطين .

والهدف من هذا الكتاب :

﴿ ١ ﴾ التعريف بزعماء دولة المرابطين من أمثال : عبد الله بن ياسين ، ويحيى بن إبراهيم ، وأبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبي عمران الفاسي .

﴿ ٢ ﴾ إظهار معانٍ في فقه التمكين من خلال المنظور التاريخي لدولة المرابطين ، فيوضح مراحل التمكين التي مرت بها الحركة المرابطية إلى أن وصلت إلى الدولة ، وما الأسباب التي اتخذوها والشروط التي حققوها ، وما الأهداف التي نفذوها لما وصلوا إلى الحكم .

﴿ ٣ ﴾ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها وأسباب سقوطها،والنظر في سُنن الله في الآفاق،وفي الأنفس والمجتمعات .

﴿ ٤ ﴾ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، وتربية أبناء الأمة عليها ، وكيف كان اهتمام المرابطين بهذه العقيدة التي استمدوها من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ .

﴿ ٥ ﴾ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصور سليم بعيد عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم .

أما خطة الكتاب : فقد قمت بتقسيمه إلى خمسة فصول :

الفصل الأول : بناء دولة المرابطين :

ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول: الجذور التاريخية للمرابطين .

المبحث الثاني: الأمير يحيى بن إبراهيم .

المبحث الثالث: أبو عمران الفاسي .

المبحث الرابع: الزعيم الديني لدولة المرابطين عبد الله بن ياسين .

المبحث الخامس: المراحل التي مر بها ابن ياسين لبناء الدولة .

المبحث السادس: مرحلة التمكين .

الفصل الثاني : المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس :

ويشتمل على تسعة مباحث :

المبحث الأول: الصراع بين طليطلة وقرطبة .

المبحث الثاني: أسباب ضعف المسلمين في الأندلس .

المبحث الثالث: العالم في زمن ظهور دولة المرابطين .

المبحث الرابع: أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين .

المبحث الخامس: الأندلس بعد الزلاقة .

المبحث السادس: الفتاوى في جواز ضم الأندلس .

المبحث السابع: العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين .

المبحث الثامن : الجواز الرابع .

المبحث التاسع: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله .

الفصل الثالث : السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين .

ويشتمل على ستة مباحث :

المبحث الأول: حقوق الرعية في دولة المرابطين .

المبحث الثاني: موقف الرعية من دولة المرابطين .

المبحث الثالث: موقف المرابطين من الخلافة العباسية .

المبحث الرابع: علاقة الأمير يوسف مع بني حماد .

المبحث الخامس: علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف .

المبحث السادس: علاقة المرابطين مع الإسبان النصارى .

الفصل الرابع : سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة :

ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : نظام الحكم والإدارة .

المبحث الثاني: النظام القضائي .

المبحث الثالث: النظم العسكرية .

المبحث الرابع: النظام المالي .

الفصل الخامس : أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية :

ويشتمل على سبعة مباحث :

المبحث الأول: الآثار المعمارية في المغرب والأندلس .

المبحث الثاني: الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين .

المبحث الثالث: من مشاهير علماء دولة المرابطين .

المبحث الرابع: علوم اللغة في زمن المرابطين .

المبحث الخامس: علوم التاريخ والجغرافيا .

المبحث السادس: علوم الطب في عصر المرابطين .

المبحث السابع: أسباب السقوط .

■ نتائج البحث .

وأخيراً :

أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني

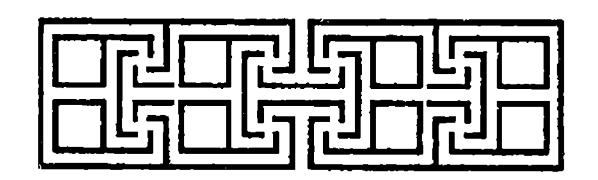
بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الفصل الأول
بناء دولة المرابطين

المبحث الأول
الجذور التاريخية للمرابطين

تمهيد :

تعتبر قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر و أشدها و أمنعها، واشتهرت بقوة شكيمتها وكثرة رجالها الذين ملؤا الشمال الإفريقي و سكنوا جباله، وسهوله وخصوصاً من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصي.

واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلث شعباً انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة ، وهي التي تكونت منها دولة المرابطين السنية. وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حمير بن سبأ أي: أن أصلهم يمانيون.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب [١] .

[١] تسمية الملثمين :

اشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم المثلمين، وأصبح اللثام شعاراً عرفوا به إلى أن تسموا بالمرابطين، ويري بعض المؤرخين أن المثلمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدي بطون صنهاجة وكانت لمتونة تتولي رئاسة سائر قبائل مسوفة، ومسراته، ومداسة، وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة

---

(١) انظر : دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، د . سعدون عباس(ص ١٢ ، ١٣) .

علي عهد الأمير يحيي بن إبراهيم الجدالي [١] .

ويبدو أن إطلاق اسم الملثمين في بدايته كان خاصًّا بقبيلة لمتونة ثم توسع وأصبح شعاراً لكل من حالف لمتونة ودخل تحت اسم سيادتها.

[٢] سبب تسميتهم:

وأما سبب تسميتهم فقد وردت أقوال كثيرة في سبب تسميتهم بذلك، منها: أن أجدادهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر، ويذهب إلى هذا الرأي من ظن أن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى الهجرات القديمة من المشرق لأسباب متعددة، منها اقتصادية وسياسية.

ومنها : أنهم آمنوا بالرسول ﷺ وكانوا قلة ، فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر ، فتلثموا بقصد التمويه ، وقيل إن طائفة منهم أغارت علي عدو لهم فخالفهم إلى مواطنهم وهي خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ ، فأمر الشيوخُ النساءَ بأن يرتدين لباس الحرب ويتلثمن، ففر الأعداء وهكذا اتخذوا اللثام سُنة مُلْتَزَمَه ، وارتقي عندهم إلى مستوي رفيع في حياتهم وأعرافهم ومما قيل في اللثام:

قوم لهم العلا في حمير وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحْرَازَ كُلَّ فضيلة غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثموا [٢]

[٣] موطن الملثمين:

سكن الملثمون الصحراء الكبري الممتدة من غدامس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبري جنوباً.

ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجري بها أنهار دائمة وكانت قليلة الأمطار

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د . حمدي عبد المنعم (ص ٢٧) .
(٢) **انظر** : وفيات الأعيان (جـ٧ / ١٣٠) .

وأحياناً تحبس عنها الأمطار لسنوات عديدة ، فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحات الصغيرة في تلك الصحاري الممتدة الأطراف، وكونوا قري بدائية تتماشى مع ظروف حياتهم الرعوية [١] .

[٤] حياتهم الاقتصادية:

توزع الملثمون حول الواحات بحثاً عن المياه وعملوا في الزراعة وخاصة زراعة الشعير الذي ينبت في الأرض الفقيرة ويكفيه قليل من الماء، وقد ازدهرت زراعته في منطقة أزكي التي تسكنها قبيلة لمتونة.

وكان النخيل من أهم أشجارهم، وكانت مدينة سجلماسة من أهم واحات الصحراء عمراناً بشجر النخيل واستفاد الملثمون من ظل أشجار النخيل فزرعوا البطيخ والقرع والقثاء ، وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة ، وازدهرت في واحة سلجماسة زراعة القطن، وقصب السكر، وكانت وسيلة الزراعة في تلك الواحات الصحراوية المحراث البدائي الذي تجره الجمال.

وكانت تلك القبائل تهتم بتربية الحيوانات للحصول علي القوت ، ولكي يستعملوها في تنقلاتهم ، ومن أهم الحيوانات التي اهتموا بها الإبل ، والتي كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويستفيدون من أوبارها وجلودها لصناعة العباءات والألبسة والنعال ، وسقف البيوت الصغيرة .

وكذلك اهتموا بتربية البغال والحمير لاستخدامها في النقل المحلي [٢] .

واهتموا بتربية المواشي من بقر وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها في غذائهم، وجلودها وأصوافها في لباسهم، واهتموا بتربية النحل للحصول علي العسل والشمع، وقد مارسوا الصيد وخاصة صيد البقر الوحشي.

---

(١)**انظر** : دولة المرابطين في المغرب والأندلس (ص ١٣) .

(٢)**انظر** : دولة المرابطين (ص ١٥) .

وازدهرت الصناعات المحلية للاكتفاء الذاتي، وتطورت في الكم والنوع الصناعات المنزلية وكذلك الأدوات الحربية التي ازدهرت بسبب الحروب المستمرة بين الملثمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانا، واهتموا بصناعة السروج ولجم الخيل، وازدهرت الصناعات الغذائية فاستخرجوا الزيت من ثمر الفرتي وذلك بعصر قشره، واستعملوه في طهي الطعام وإنارة السرج ليلاً، وكانوا يمزجونه بالرمل ويطلون به أسطح المنازل فيخفف من شدة الحر ، ويمنع تسرب الماء، واشتهرت مدينة تارودانت بصناعة قصب السكر، والمنسوجات والألبسة من الصوف والقطن والوبر، وكانوا يصنعون من ثمار القرع أواني يضعون فيها الملح والبهارات.

ومن أهم المعادن في بلاد الملثمين ، الملح ويكثر في أوليل وتغاري والأخيرة تضم معظم مناجمه وهي علي شكل ألواح يقطعها العبيد وتحملها الجمال إلى بلاد السودان وغانا، وكان الحمل الواحد يُباع في السودان بعشرة مثاقيل من الذهب، أما في مالي فكان يُباع بعشرين مثقالاً، وربما ارتفع إلى الثلاثين، كان للملح أهمية في حياتهم الاقتصادية، إذ كانوا يقطعونه قطعاً صغيرة يقايضون به كالذهب والفضة ، وكان الفائض من إنتاجهم الزراعي والصناعي يُصدر إلى خارج بلادهم [1].

[٥] أهمية موقع الملثمين :

كانت بلاد الملثمين الممر الوحيد بين الأندلس وأواسط افريقية فكانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق ، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلي على المحيط الاطلسي ينطلق من أغادير مارا بنواكشوط حتى مصب نهر السنغال يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت أويل أما الطريق الثاني وهو

(١) **انظر** : دولة المرابطين(ص ١٦) .

الأوسط فيمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء حتى بلدان مالي والنيجر يبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر باسكي حتى ود غشت في بلاد النيجر.

والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقا ولا تخلوا هذه الطرق من صعوبات طبيعية كتحرك الرمال يمحى معالمها وتتعرض القوافل المارة بها إلى مخاطر لا يحمد عقباها ولذلك احتاجت هذه القوافل للقُصَّاص من الملثمين لكي يقودوا القوافل في تلك الصحارى حتى تصل إلى بر أمانها مقابل مبالغ مالية على المجهود الرائع العظيم.

ونشطت حركة التجارة بين افريقية الغربية وبلاد المغرب والأندلس بسبب الدور الريادي الذي قامت به قبائل لمتونه ومسوفه وجداله التي كونت حلقة الاتصال الناجحة والمستمرة للأطراف المشاركة وكثرت الأسواق التجارية التي تعرض فيها بضائع بلاد الأندلس وبلاد المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي حتى يتم التبادل بالتقايض أو بالذهب والفضة على حسب الاتفاق بين المتبايعين من أشهر تلك الأسواق التي اشتهرت في تاريخ البلاد اوغشت أغمات أسيلا [١].

[٦] الحياة الاجتماعية في بلاد الملثمين:

وأدى ازدهار التجارة في بلاد الملثمين إلى ظهور طبقة من الأثرياء تجمعت لديهم أموال عظيمة بسبب نشاطهم التجاري، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء الذين استأثروا بالحكم وحافظوا على مصالحهم، وكانت هذه الطبقة مستعدة لمقاومة من يهدد مصالحها ويحاول انتزاع مكانتها ووجاهتها، مستخدمين من أجل هذه الأهداف الأساليب المشروعة والمحرمة، ويساندهم في ذلك الفقهاء المحليون الذين ارتبطت مصالحهم بهم، وأصبحت أطماعهم والسعي لتحقيقها فوق أحكام الله.

---

(١) انظر: دولة المرابطين (ص ١٨).

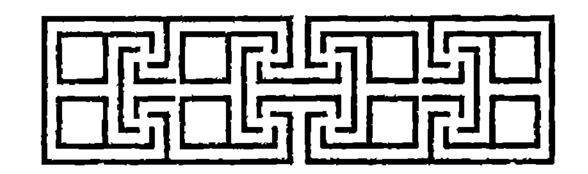
واحتكرت هذه الطبقة الأراضى الزراعية في الواحات وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشية أي جميع مصادر الثروة وكانت تبنى بيوتها بطريقة تدل على ترفعها عن سائر الناس ومعلوم لدى الدارسين والباحثين في تاريخ المجتمعات البشرية انه عندما تظهر طبقة ذات غناء مفرط ينتج عنه ظهور طبقة من الفقراء المدقعين وهذا ما حدث في المجتمع الملثم حيث نجد أن عامة الناس أصابهم الفقر واضطروا إلى الاشتغال برعي المواشي وبالعمل في الاراضى الزراعية ويؤدون الضرائب للأمراء والأعيان الذين استغلوهم استغلاً مشيناً ، وكانت طبقة الفقراء تتعرض للمجاعة في سنوات الجفاف ، وكانت منازلهم من أغصان الأشجار مغطاة بالجلود كالأكواخ.

وظهرت في المجتمع الملثم كثرة العبيد الذين استخدموا وسخروا للعمل في مناجم الملح ، وجلهم كانوا أسرى في الحروب التي نشبت بين الملثمين والوثنيين وارتفع شأن العبيد فيما بعد فكانوا فرقة خاصة في جيش المرابطين واشتهرت المرأة الملثمة بالجمال وهي سمراء اللون وبعض نساء الطبقة العليا كانت لهن منزلة رفيعة فاقت منزلة الرجال في بعض الأحيان.

و انتشرت عادات خبيثة في المجتمع الملثم يتنافى مع تعاليم الإسلام ، بل هي عادات غارقة في مستنقعات جاهلية ، ومن أبشع هذه العادات السيئة الزواج بأكثر من أربعة حرائر ، وعادة الزنا ، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره ، وغابت العقيدة الإسلامية الصحيحة عن ذلك المجتمع واضطربت تصوراته ، وانحرف عن الصراط المستقيم بعدما كان أجداد هذا المجتمع قد امنوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمدﷺ نبيا ورسولاً ، ونبذوا ديانتهم المجوسية القديمة بل كان أجداد هذا المجتمع دعاة إلى الله ورفعوا لواء الجهاد وخاضوا حروبا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام الخالدة التي وصلتهم بعد فتح الأندلس.

واشتهر من ملوك الملثمين بحرصهم على نشر الإسلام وكسر شوكة من يعاديه الملك تيولوثان بن تيكلان اللمتونى ، الذي حارب القبائل الوثنية ونشر بينها الإسلام بعد وفاته (سنة ٢٢٢هـ) خلفه حفيده الذي دام حكمه حتى وفاته (عام ٢٨٧ هـ) فخلفه ابن تميم الذي قتل (عام ٣٠٦ هـ ٩٢٠م) على يد مشايخ صنهاجة .

وبعد ذلك افترقت كلمة الملثمين وضاعت كثير من تعاليم الدين واستمر شتاتهم مدة (١٢٠ سنة) إلى أن قام بالأمر الأمير محمد بن تيفاوت اللمتونى [١] الذي وحدهم وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات من حكمه على يد الوثنين وقام بالأمر بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالى الذي قاد قومه نحو دين الله بعد رجوعه من حجته ورحلته المشهورة .



(١) **انظر** : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، (ص ٧٤٦) نقلاً عن دولة المرابطين (ص ١٩)



المبحث الثاني
الأمير يحيى أبن إبراهيم الزعيم السياسي

كان الأمير يحي بن إسماعيل سيداً مطاعاً في قومه لما عرف عنه من شجاعة وكرم وجود ومقدرة قيادية عالية واشتهر برجاحة عقلة ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار الملثمين قاصدا بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج تاركاً الحكم لابنه إبراهيم عام ٤٢٧ هـ ١٠٣٥/م (١).

وكانت العادة أن يقترن الحاج بطلب العلم وبعد أداء الفريضة انطلق الحاج يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالباً العالم لرواء روحه الظمأى إلى نور المعرفة الإسلامية التي اندثرت معالمها في بلاده ورمت به أقدار الله في حلقة إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» الذي تعلقت نفس الأمير يحيى بتعاليمه وفقه وعرض نفسه على الإمام أبى عمران الفاسى الذي وردت زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهيمنة الإسماعيلية العبيدية الباطنية الرافضية واستردت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح معلما من معالم أهل السُّنَّة في الشمال الإفريقي.

وأعجب الشيخ أبو عمران بالأمير يحيى لما لمسة من حبه للخير وحرصه على التعليم ، وتحدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتماعية في بلاده وجهل قبائلها بأصول الدين وفروع الشريعة ، وطلب من أبي عمران أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية (٢).

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١٩) .

(٢) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين (ص ٣٨) .

وتذكر بعض كتب التاريخ أن أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط الأولى مع الزعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنية في المغرب على أسس دينية صحيحة كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة وفي ذلك يقول صاحب كتاب: «بعض مشاهير أعيان فاس في القديم» : «ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم ندبه إلى قتال برغواطة وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم واستنزل رؤسائهم من الولاية فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك» [1] .

وكان يحيى بن إبراهيم حريصاً على اخذ فقيه وعالم معه إلى قومه ورأى أبو عمران الفاسي من أجل تحقيق الأهداف التي رسموها انه لابد من المرور بمراحل ضرورية في بناء الدولة المنشودة من مرحلة التعريف بالمنهج وتكوين أفراده وتربيتهم عليه وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القوة والتمكين.

فأحال أبو عمران أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي ، الذي كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين ، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله ا بن ياسين الجازولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم.

وكان يحيى بن إبراهيم بجانب تفكيره في إخراج قومه من الظلمات إلى النور يفكر في إنقاذ قومه من الهيمنة الزناتية الظالمة التي كانت قبائل صهناجة الملثمة تعانى من جورها وقسوتها وإذلالها وإهانتها.

لقد رأى الأمير يحيى أن طريق عزة قومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح وقد لاحظ الأمير يحيى بن إبراهيم أن كل من حركوا القبائل البربرية وهيأها لإنشاء

---

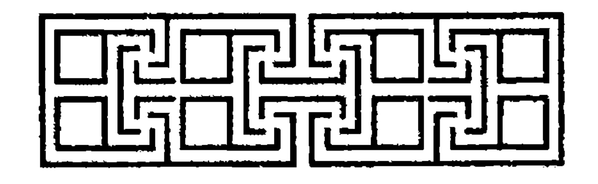
(١) **انظر** : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد العبادي ، (ص ٢٧١) .

الدولة كانوا جميعاً من المتحمسين من علماء الدين، أو أصحاب الدعوات الدينية ، سواء كانت خارجية بدعية أو اسماعلية كفرية ، أو إدريسية مالكية ، من أمثال أبي الخطاب بن عبد الأعلى بن السمح المعا فرى الخارجي ، وأبي عبد الله الشيعي الباطني وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب حتى برغواطة ذات الديانة الشركية المجوسية اليهودية ، تزعمها رجل يدعي انه من أهل العلم وهو ميسرة الفقير ، وحتى قبيلة غمارة تزعمها صالح البرغواطي الذي زعم أنه صالح المؤمنين الذي ورد ذكره في القرآن [١] .

لهذه الجولة الأخيرة التي مرت في ذاكرته حرص على الاهتمام بالشيخ عبد الله ياسين الرجل الفقيه العالم السني ليعلم قومه ويزكيهم ويفقههم.

كما كان الأمير يحيى بن إبراهيم يخشى من خطر الجنوب ويهتم بدعوة القبائل الوثنية للإسلام.

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقة المليء بالأشواك من اجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة ورجع إلى أهله وعشيرته ومعه الرجل الرباني الفقيه المالكي والمربي الصبور والزعيم الديني الإمام عبد الله بن ياسين وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه.



---

(١) **انظر** : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، د . حسين مؤنس(ص١٦٠) .

المبحث الثالث

أبو عمران الفاسي

مهندس الخطوط العريضة لدولة المرابطين (٣٦٨ هـ - ٤٣٠ هـ)

ذكر القاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ترجمة أبي عمران الفاسي فقال: «هو موسى بن عيسى بن حجاج بن الخير الرفجومي، ورفجوم فخذ من زناتة من هوارة واصله من فاس وبيته بها بيت مشهور يُعرفون ببني أبي حاج ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن» [١].

[١] شيوخه:

تفقه بالقيروان عند أبي الحسن القاسي وسمع بها من أبى بكر الدويلي وعلى بن احمد اللواتي السوسي ورحل إلى قرطبة فتفقه بها عند أبي محمد الاصيلي وسمع الحديث من أبي عثمان سعيد بن نصر وعبد الوارث بي سفيان واحمد بن قاسم وغيرهم ثم رحل إلى المشرق فحج ودخل العراق فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس وأبي الحسن علي بن إبراهيم المستملي وأبي الحسن الخضر وغيرهم من العراقيين [٢] ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبى الحسن بن أبي فراس وأبي القاسم السقطي وبمصر من أبي الحسن ابن أبي جدار واحمد بن نور القاضي ثم رجع إلى القيروان وسكنها وأصبح سيدها المطاع واقبل عليه طلاب العلم من كل صوب وطارت فتاويه في المشرق والمغرب واعتنى الناس بقوله [٣].

---

(١)، (٢) ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، (جـ٧ / ٢٤٣ / ٢٤٤)

(٣) **انظر**: مدرسة الحديث في القيروان (جـ٢ / ٧٦٥ - ٧٦٦)

[٢] أثره وتلاميذه:

ابتدأ نشاطه العلمي سنة ٤٠٢ هـ حين عاد من المشرق فقد جلس للطلبة في المسجد وفي داره أيضا وسرعان ما عرف قدره واشتهرت إمامته وطار ذكره الآفاق وقد خلف الإمام الفاسي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ في نشر علوم السُّنَّة في افريقية ورئاسة العالم بها ورحل إليه الناس من الأقطار لسماع مروياته ونقلها لمن لم يستطع الاجتماع به [١].

وكان يجلس في حلقته العلمية من بعد صلاة الصبح إلى صلاة الظهر يحدثهم ويملي عليهم ويقرأ لهم، «فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أن مات» [٢].

وكان يحدث بصحيح البُخاري و«التاريخ الكبير» له أيضا و«تصحيف المحدثين» للدار قطني، وكان يحدث كذلك بمصنفاته في الحديث والرجال والفقه وقد انتشرت روايتها في الأندلس أيضا عن طريق تلاميذه من أهلها [٣].

وكان متضلعاً في كلام الرواة جرحاً وتعديلا ومعرفة سبرهم ووفياتهم وغير ذلك.

وكان العامة من أهل القيروان خصوصاً يرجعون إليه فيما يلم بهم ويستفتونه.

كما كان الموفدون في مهمات سياسية إلى القيروان يسألونه ويستفتونه ويستفيدون من علمه.

وكان له اهتمام بالبلاد البعيدة ويرسل إليها من يقوم بنشر العلم كما حدث في اهتمامه بصحراء المغرب وما نتج عن ذلك من الاهتمام من قيام دولة المرابطين في تلك المناطق النائية [٤].

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الناس من أهل افريقية والمغرب والأندلس وصقلية قال الذهبي: «تخرج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء» [٥].

---

(١)-(٤) **انظر**: مدرسة الحديث في القيروان (جـ٢ / ٧٦٥؛ ٧٦٦).

(٥) سير أعلام النبلاء (جـ١٧ / ٥٤٦).

[٣] ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه حاتم الطرابلسي: «لقيته بالقيروان في رحلتي سنة ٤٠٢ هـ وكان من أحفظ الناس وأعلمهم وكان جمع حفظ المذهب المالكي ، وحفظ حديث النبي ﷺ والمعرفة بمعانيه وكان يقرىء بالسبعة ويجودها مع المعرفة بالرجال والمعدلين منهم والمجرحين (١) .

وقال الذهبي : «الإمام الأكبر العلامة عالم القيروان . . . احد الأعلام . . . . تخرج على يديه خلق من الفقهاء والعلماء» (٢) .

وقال أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسي : «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر ـ وكان إذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع فيها علم مالك : أنت تحفظه وهو ينصره لو رآكما مالك لسر بكما» (٣) .

[٤] شعره :

عندما كتب محمد بن علي الطيني أبياتا من الشعر وأرسلها إلى أبي عمران الفاسي بمناسبة العزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام، أجابه أبي عمران الفاسي بهذه الأبيات :

حياك ربك من خل أخي ثقة ... وصان نفسك بالتكريم مولاها
من كل عم وشان لا يوافقها ... فهو العليم بما يبديها مولاها
ولا أضاع لها الرحمن حرمتها ... وقولها أن تسر ودعتك الله
فالله يجمعنا من بعد أوبتنا ... ويؤتنا من وجوه البر أسناها (٤)

هذه ترجمة موجزة لواضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين.

وتوفى - رحمه الله - سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة .

---

(١) ترتيب المدارك (جـ٧ / ٢٤٦) المطبعة المغربية .
(٢) سير أعلام النبلاء (جـ١٧ / ٥٤٥-٥٤٦) .
(٣) ترتيب المدارك (جـ٧ / ٢٤٦) .
(٤) المصدر السابق (جـ٧ / ٥٢) .

المبحث الرابع

الزعيم الديني لدولة المرابطين

عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجز ولي أصله من قرية تماماناوت في صحراء غانة [١].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا ثم رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين [٢] واجتهد في تحصيل العلوم الإنسانية ثم أصبح خير طلاب الفقيه وجاج بن زلوا فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهاً عالماً ديناً تقياً مربياً فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي كان عالماً بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن الملثمين من قبيلة جداله في عام ٤٣٠هـ-١٠٣٨م فاستقبله أهلها واستمعوا له وأخذ يعلمهم فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم والإرشاد الديني وللعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيراً من الصعوبات فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، وعُمِّي الجهل عليهم ، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة ، وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف ، فثاروا عليه وكادوا أن يقتلوه ، إلا أنه ترك قبيلة جدالة

---

(١) دولة المرابطين ، (ص٢١) ، نقلاً عن البكري المغرب ، (ص ١٦٥).

(٢) ابن الخطيب ، الحلل ، (ص ١٩١).

وانتقل إلى قبيلة لمتونة ومن ثم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال بعد انتشار صيته وتعلق الناس به فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم ويعلمهم.

ومن خلال كتب التاريخ نستطيع أن نقول : أن عبد الله بن ياسين رحمه الله نجح في رسالته الدعوية لأسباب مهمة يجب أن يعرفها الدعاة إلى الله إلا وهي ما وهبه الله من صفات فطرية وما اكتسبه في حياته من صفات عقلية وحركية.

[أ] ومن أهم الصفات الفطرية التي ظهرت لي من سيرته:

(١) **الذكاء :** فكان رحمة الله ـ عميق الفهم صاحب حجة يقيم الدليل على خصومه من الفقهاء والمحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيان للقضاء عليه أو طرده.

واختياره لمكان انسب لتربية إتباعه وتعليمهم يدل على ذكائه وبعد نظره ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائل الصنهاجية ثم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصور.

(٢) **الشجاعة:** حيث انه دخل الصحراء داعياً إلى الله تعالى مع إن غيره من تلاميذ أبي عمران الفاسي اعتذروا وكذلك من تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتاز بشجاعة وصلابة عظيمة في دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وفي جهاده حتى استشهد في أحدى معاركه ضد أعدائه.

فكان شجاعاً عظيم الاحتمال ومارس أفضل الشجاعة ألا وهي الصراحة في الحق وكتمان السر إذ انه قد خطط مع يحيى بن إبراهيم المراحل التعليمية ولم يتسرب منها شيء لأعدائه حتى أخذت حيز التنفيذ والشجاعة في الحق في ميادين القتال بالنسبة للمسلم تدل على قوة عقيدته وسلامتها من غبش التصور وانحراف المنهج ومن المعلوم أن صفاء العقيدة يرفع الهمة وينمي الشجاعة ويلهب المشاعر ويذكي الروح ويربط الفؤاد وينور العقل ويوسع المدارك والعاملون في الدعوة إلى الله ينبغي عليهم أن يكونوا شجعاناً فهي منه وإليه.

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٤].

وحامل دين الله لا ينبغي أن يستكين ولا يجبن ولا يخور عزمه لأنه صاحب رسالة مقدسة من عند العليم الحكيم سار على نهجها رسل الله من قبل فنصرهم الله وانتقم من عدوهم.

قال الشاعر:

أن نفساً ترتضي الإسلام ديناً	ثم ترضى بعده أن تستكينا
أو ترى الإسلام في ارض مهيناً	ثم تهوى العيش نفسا لن تكونا

في عداد المسلمين العظماء [١] .

وكم نحن محتاجون إلى شجاعة الدعاة إلى الله من أمثال الفقيه عبد الله بن ياسين لندك بها الباطل ونزيل بها المنكرات الظاهرة وندمغ الشبهات الخادعة بالنورين كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ .

قال الشاعر :

وإذا اضطررت إلى الجدال ولم تجد	لك مهرباً وتلاقت الصفان
فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً	والشرع سيفك وابد في الميدان
والسُّنَّة البيضاء دونك جنة	ركب جواد العزم في الجولان
واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى	فالصبر أوثق عدة الإنسان
واطعن برمح الحق كل معاند	لله در الفارس الطعان
واحمل بسيف الصدق حملة مخلص	متجرد لله غير جبان[٢]

---

(١) انظر : الصفات اللازمة للدعاة ، أحمد القطان ، جاسم المهلهل (ص ٢٠) .

(٢) نونية أبي عبد الله القحطاني (ص ٣٩) .

وكم نحن محتاجون للدعاة الذين يتوغلون في مواطن القبائل التي ابتعدت عن إسلامها ودينها وإيمانها ليقودها من جديد إلى دعم حركة الإسلام المعاصرة التي استهدفها كل النصارى واليهود والملاحدة الحاقدين.

[٣] **المهابة** :ومن الصفات التي ظهرت لي في سيرة عبد الله بن ياسين أنه كان مهيباً قوياً شديداً فمن الأدلة على قوته البد نية خوضه الحروب بنفسه وتقدمه في ميدان الفروسية بل جعل من منهجه الذي ربى عليه أصحابه في هذا الجانب قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفسر الرسول ﷺ القوة في هذه الآية بالرمي بقوله: «**ألا أن القوة الرمي**» (١) والرماية أن لم تخرج من ساعد قوي ومتين فهي لن تحقق الهدف المطلوب وفي السُّنَّة نجد أن القوة البد نية لاقت حظاً وافراً فالرسول ﷺ هو أقوى الأقوياء وكان يشجع أصحابه ﷺ على اكتساب هذه الصفة بل ربما كان يباريهم ويصارعهم ويسابقهم وكما تحدثنا السيرة عن ذلك ويروى مرة انه تسابق مع عائشة ﷺ فسبقها مرة ثم سبقته مرة وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته ﷺ لأحد المشركين فصرعه.

ومر ﷺ على صبيان يرمون بالسهام فأخذ يرمي معهم ويشجعهم ويزكى فيهم روح البطولة والشجاعة والقوة ويقول : «**ارموا فأن أباكم إسماعيل كان راميا**» (٢).

وهذه الآية والأحاديث الفعلية كانت منهج عبد الله بن ياسين وأصحابه ولذلك تظهر لنا صلابة وقوة أتباعه في ميادين القتال.

ومفهوم القرين للقوة عام يشمل كل أنواع القوة قال السعدي: رحمه الله في

---

(١) رواه مسلم رقم (٩١٠).

(٢) رواه البخاري فتح الباري (جـ٦ /٤٣١).

تفسيره في قوله تعالى : ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ أي « كل ما تقدرون عليه من القوة العقلية والبد نية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك » .

دخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات والبنادق والطيارات الجوية والمراكب البرية والبحرية والقلاع والخنادق وآلات الدفاع والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم بها شر أعدائهم وتعلم الرمي والشجاعة والتدبير [١] .

لقد جمع عبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ من القوة الفكرية أنواعا متعددة من قوة الإدراك وقوة الصبر وقوة العلم وقوة التلقي وغيرها من القوى .

ومن هنا يتضح لنا حاجة العاملين في الحركة الإسلامية إلى هاتين القوتين البدنية والعقلية وجميع أنواع القوى الفكرية لتوظيفها في الدعوة إلى الله [٢] .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة القوة العقلية والفكرية والى القوة البدنية في بناء أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال في سبيل عقيدتها وحريتها وكان من صفات قائدها أن الله أعطاه ومن عليه بهاتين القوتين البد نية والعقلية قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] . فبسطة العلم إشارة إلى القوة العقلية وبسطة الجسم إشارة إلى القوة البد نية .

قال الشيخ حسن البنا ـ رحمه الله ـ في الأصل الأول من الأصول العشرين :

« أن القوة تشمل قوة الإنسان التي تجعله قوياً في بدنه وعقله وعليه أن يباشر الأسباب التي تجعله قوياً أما قوة نفسية فبالإيمان وإما قوة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها أما قوة عقله فبالعلم » [٣] .

والإنسان الذي وهبه الله القوة العقلية والفكرية والبد نية لا ينسى دائماً ،

---

(١) ، (٢) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص٢٢) .

(٣) **انظر** : رسالة التعاليم ، (ص ١٠) .

وابدأ قوة القوى العزيز الذي أمده بكل خير وصلاح وفلاح وما سوى الله فهي قوة ضئيلة هزيلة مهما أوتيت من وسائل البطش والقوة والتنكيل فهي بمثابة خيوط العنكبوت: ﴿ وإنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوت لَبَيْتُ الْعَنكَبُوت لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .
[العنكبوت: ٤١] [1] .

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في ظلاله:

«وان أصحاب الدعوات الذين يتعرضون للفتنة والأذى والإغراء والإغواء لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة وهم يواجهون القوى المختلفة المعادية التي تحاول سحقهم وأبادتهم فكلها خيوط عنكبوت في حساب العقيدة الصحيحة» [2] .

[٤] **الأمانة:** ومن الصفات الفطرية التي تميز بها الزعيم الديني لدولة المرابطين ؛ الأمانة ، فحين وجد الفقيه عبد الله بن ياسين أن القلوب التفت حوله وأصبح الأمر الناهي في قبائل الملثمين لم ينافس الأمير يحيى بن إبراهيم في منصبه بل نجده لم يتجاوز حدوده ولم يتدخل في سلطات الأمير يحيى مع مقدرته على إزاحته وإبعاده من الطريق ليتبوأ الزعامة السياسية والدينية معاً وهذا يدل على أمانة الداعية الفقيه عبد الله بن ياسين والأمانة صفة مهمة للعاملين في الحركة الإسلامية فهي ذات أنوار تشع على من حول الدعاة إلى الله فتجذبهم للانخراط في ميادين العمل الإسلامي الواسعة ، والمحتاجة لكل جهد وشخص مخلص لهذا الدين.

والأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحملها ومفهوم الأمانة في القرآن واسع جداً.

---

(١) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص٢٢) ، نقلاً عن طريق الدعوة في الظلال .

(٢) **انظر** : الظلال لسيد قطب ، نقلاً عن الصفات اللازمة لأصحاب الدعوات (ص٢٢) .

وقد وصف الله المؤمنين الذين نالوا الفلاح في الدنيا والآخرة وورثوا جنة الفردوس بصفات منها الأمانة.

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنين: ٨].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية:

«وراعون لأماناتهم وعهدهم أفراد، وراعون لعهدهم وأماناتهم جماعة، والأمانات كثيرة في عنق الفرد وفي عنق الجماعة، والجماعة المسلمة مسؤولة عن أمانتها العامة وعن عهدها مع الله تعالى، وما يترتب على العهد من تبعات، والنص يحمل التعبير ويدعه ويشمل كل أمانة وكل عهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون فهي صفة دائمة لهم في كل حين وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدى فيها الأمانات وترعى فيها العهود» (١).

فعبد الله بن ياسين ـ رحمه الله ـ اتصف بالأمانة فعظم شأنه في نظر اتباعه وفي تاريخ المسلمين لأنه كان أميناً في نفسه ومع أخوته، وحمل أمانة الإسلام وبذل كل ما في وسعه وتحرك بمنهج الله في دنيا الناس لتحكيم شرع الله فأكسبته هذه الصفة في نفوس الناس قبولاً.

[**٥**] **الحياء:** والصفة الخامسة التي جبل عليه عبد الله بن ياسين الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان ويظهر ذلك جلياً عندما طلب شيخه منه الذهاب مع يحيى بن إبراهيم للدعوة فلم يعارض ولم يناقش بل استجاب لشيخه كما نلاحظ ذلك في سيرته مع يحيى بن إبراهيم الذي تملك قلبه حب عبد الله بن ياسين واسر فؤاده بإحسانه وكرمه وحرصه على دعوة الناس لدين الله فعندما عرض الأمير يحيى على عبد الله بن ياسين رباطاً في ضفاف نهر السنغال أجابه عبد الله بن ياسين الذي كان عازماً على ترك جدالة ولمتونة لما أصابه من عنتهم

---

(١) في ظلال القرآن (ص ٢٤٥٦).

وظلمهم وجورهم في بداية دعوته لهم وعرف العلماء الحياء فقال : « اصل الاستحياء الانقباض عن الأشياء والامتناع منه خوفاً من مواقعة القبيح » (١) .

وقال الجنيد: « إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير » (٢) .

فالحياء من المعاني والصفات الرائعة التي يتصف بها النبلاء والشرفاء من الناس وكان الرسول ﷺ اشد الناس حياءً وقد وصفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري رضي الله عنه بقوله : « كان رسول الله ﷺ اشد حياءً من العذراء في خدرها ، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه من وجهه » (٣) .

وقال رسول الله : ﷺ : « **الحياء لا يأتي إلا بخير** » (٤) ، ومن الحياء غض البصر وخفض الجناح وعدم رفع الصوت إلا في وجه الباطل .

فعلى العاملين في الدعوة إلى الله أن يلازموا هذه الصفة الجميلة .

فالحياء المطلوب في صفة الداعية والذي تدعوا إليه الشريعة وتحث عليه هو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والوقوع في الآثام وفي نفس الوقت يحث صاحبه على العمل الدءوب للإسلام ومناصرة الحق والذود عنه والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه .

قال رسول الله ﷺ : « **الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا اله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من شعب الإيمان** » (٥) .

أن هذا الخلق الكريم والصفة الفاضلة لابد منها في أخلاق الدعاة والربانين ولا يمنعهم هذا الخلق أن يفرطوا في معالي الأمور والصعود على سلم الفضائل والوصول إلى الغايات النبيلة من تفقه في الدين وتعلم العلم والحرص عليه .

---

(١) ،(٢) الصفات اللازمة لحياة الدعاة(ص ٢٦ ، ٢٧) .

(٣) البخاري فتح الباري(جـ١٢ /١٥١) .

(٤) رواه البخاري(٦١١٧) .

(٥) رواه مسلم رقم(٣٥) .

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين**».

[٦] **الحلم**: والصفة السادسة من الصفات الفطرية التي يلاحظها الباحث في حياة الفقيه عبد الله بن ياسين هي صفة الحلم فنجده عندما تمكن من قبائل جدالة ولمتونة التي حاربت دعوته عفا عنها وأحسن إليها، وكل من انصاع وانقاد لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنه.

والحلم كما هو معلوم سيد الأخلاق، فالحليم هو الذي يتحمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور.

ومن هنا ينبغي على الداعية أن يملأ صدره بالحلم لان طريق الدعوة محفوفة بالمكار ه والمتاعب والإيذاء والبطش والسخرية وهذه كلها عقبات تزدحم في وجه الداعية والدعاة إلى الله [1].

ولقد ضرب الله لنا في كتابه العزيز نماذج من حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قومهم قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)** ﴾ [الأعراف: ٦٦ - ٦٨].

صورت لنا هذه الآيات مقدار الحلم الذي يتصف به هود عليه السلام وسعة صدره، حيث لم يعبأ بهذا السباب وبهذه السخرية والشتائم، ولم يطش لها حلمه، بل قابل هذه الشتائم وهذه السخرية بدعوة التوحيد، ووضح له مهمة رسالته، وأخيرا نصحهم بالحسنى وانه أمين على ذلك.

---

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، (ص ٣٠)

أما رسول الله ﷺ فكان حلمه يفوق حد التصور وخصوصاً إذا علمنا أن حلمه كان مع القدرة على البطش ورد الفعل بأنكى واعتي فقد روى انس بن مالك ﷺ قال: «كنت امشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه من رداءه جذبة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء» (١) .

أن الدعاة إلى الله الذين يسعون لإقامة شرع الله على منهج النبوة الخالدة لمحتاجون لهذه الصفة الرفيعة في حركتهم الدائبة والمستمرة وان كتب التاريخ الإسلامي تبين لنا طلائع الفتح والتمكين دائماً وأبدا تكون هذه الصفة بارزة في صفوفهم.

[٨] **الجاذبية الفطرية** : وهذه الصفة بارزة للعيان ففي شخصية الفقيه عبد الله بن ياسين وبها جذب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلف وهي من أقوى العناصر التي تكونت منها شخصية الفقيه بن ياسين.

لقد استطاع أن يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى بن إبراهيم ويحيى بن عمر وغيرهم من قادة الصنهاجيين وشيوخهم ولاشك ما ذكرناه من هذه الصفات المهمة في شخصية الداعية هي من العطايا العظيمة التي يهبها الله لفئة من عباده الذين اخلصوا القول والعمل.

وكان قول الله تعالى متمثلاً فيهم: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)** ﴾

[الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

---

(١) أخرجه البخاري فتح (٧/ ٦٣) ، الحديث (٣١٤٩)

[ب] من الصفات المكتسبة في شخصية الفقيه ابن ياسين :

[١] الصدق:

وظهر ذلك في أقواله وأفعاله ومخالطته للناس فكان صادقاً في دعوته وفي عرضها وفي مخاطبته للناس ولا يهاب أحدا ولا يخشى في الله لومة لائم ولا همزة هماز ولا لمزة لَمّاز.

ولمس الناس صدقه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وفي حربه للبدع ، وفي تعليمه للناس وجهاده في سبيل الله ، فتأثر به أتباعه غاية التأثر.

وحثنا القرآن الكريم على التخلق بهذه الصفة فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وقال تعالى : ﴿ **وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ** ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

وكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة رضوان الله عليهم تحثهم على الصدق فعن بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ انه قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»[١] .

ويعتبر الصدق من أهم الصفات للمنتسبين للعمل الإسلامي والقائمين بإرشاد الناس إلى دين الله فليعلم ذلك كل داعية وليعِ تماماً أن دعوته جاءت بالصدق كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ .

[الزمر : ٣٣] .

وقد شهد المؤرخين حتى الذين طعنوا في دولة المرابطين على صدق زعيمها عبد الله بن ياسين في قبائل الملثمين بصدقه في دعوته.

---

(١) أخرجه البخاري فتح (٣١ / ١٢١) ، الحديث (٢٠٩٤) .

[٢] ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال :

ويظهر ذلك جلياً في شخصية بن ياسين عندما باشر الأمير يحيى بن عمر اللمتوني القتال وامضي الحرب بنفسه فأدبه بن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة وبين له إن ذلك خطأ لان الأمير لا يقاتل ، إنما يقف يحرض الناس ويقوي نفوسهم فأن حياة الأمير حياة عسكره وموته فناء جيشه.

واعتبر عبد الله بن ياسين إن إقدام الأمير عمر بن يحيى على القتال فيه تهور وعدم ضبط النفس.

كما يدل على ضبط نفس الفقيه بن ياسين وابتعاده عن التهور أنه لم يعلن الجهاد حتى أعد عدته واستكمل أمره وأخذ بمراحله ، وربى رجاله ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقاً منصوراً ، ولم تستطع القوة المعارضة له أن تقضي عليه [١] .

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحي إلى الكثير من الجدل والتحدي فعليه أن يتحلى بالصبر وضبط النفس لان طريق الدعوة كما هو معروف طريق طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

فعملية ضبط النفس وعدم التهور والإسراع في تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورط فيما لا تحمد عقباه.

إن ضبط النفس يتم بموازين محددة تقي صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصور له خياله ويراه في نظره هو الأسلم فعندئذ يغضب ويندفع ويتعجل الأمور فيتورط ولقد ذكر القرآن قصة تعطي هذه المعاني وتصورها لنا تصويراً كائناً نلمسه ونشاهده فتلك قصة الملأ من بني إسرائيل : ﴿ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[البقرة: ٢٤٦].

---

(١)انظر : روض القرطاس (ص ٧٩ – ٨٠).

وفي هذه القصة عبر وعظات فأن اشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً قد يكون اشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة ونقضاً للعهد : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

وهكذا نكثوا عهدهم وتفلتوا من الطاعة ونكصوا عن التكاليف ، هذا شأن المتهورين المتسرعين الذين لا يقدرون الظروف ولا يحسبون الصحيح ولا يعرفون قيمة التكاليف الملقاة على عاتقهم (١) .

ورحم الله الشيخ حسن البنا حيث يقول :

«أيها الأخوان المسلمون وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر في مؤتمركم الجامع - إن طريقكم هذه مرسومة خطواته موضوعة حدوده ولست مخالفاً لهذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول فمن أراد أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقطف زهرة قبل أوانها فلست معه في ذلك بحال وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . . . أَلجِموا نزوات العواطف بنظرات العقول وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف والزموا الخيال صدق الحقيقة والواقع ، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ولا تصادموا نواميس الكون فأنها غلابة واستخدموها وحولوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد » (٢) .

فينبغي على العاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا هذا جيداً ويتفهموا أصول العمل ويدركوا الواقع الذي يحيط بهم وينبذوا المجازفات الفاشلة إن واقعنا

---

(١) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص ٤٤).

(٢) مجموعة الرسائل ، لحسن البنا (ص ١٨٠).

المعاصر يحتاج إلى ضبط النفس وعدم التهور للعاملين في الدعوة إلى الله عز وجل.

[٣] الإرادة القوية :

لقد شهد المؤرخين وغيرهم أن ابن ياسين ـ رحمه الله ـ كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال آمن بسمو دعوته وقدسية فكرته وعزم على أن يعيش لها ويموت في سبيلها ، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة فعليه أن يصبر في عزيمة قوية وإيمان ثابت ويقين لا يدخله تردد ولا شك.

فداوم على العمل الجاد واخذ بقوة وعزم ومثابرة ، حتى تحقق إعزاز دين الله في تلك الصحاري القاحلة القفرة الخالية من العلماء والفقهاء ، فأصبحت بفضل الله ثم بجهده وجهاده مليئة بالدعاة والفقهاء والعلماء والمجاهدين.

فينبغي علينا ونحن في طريق الدعوة سائرين أن نأخذ أمر الدعوة بقوة وإرادة قوية وعزيمة ماضية وهمة متطلعة للمعالي ونترك حياة الرخاء واللين والدعة ونقتدي بسيد الدعاة الرسول ﷺ في عزمه وقوة إرادته ، وجمال صبره ، وشدة تحمله ، وعظم حمله.

[جـ] الصفات العقلية التي ظهرت في شخصية ابن ياسين:

[١] القدرة على الفهم والاستيعاب:

استطاع ابن ياسين أن يفهم ويستوعب المناهج العلمية التي كانت في زمانه من فقه وحديث ولغة وأصول وغيرها حتى تأهل لان يكون أهلاً لحمل الرسالة التي كلفها بها شيوخه كما انجلى لي قدرته على فهم واقعه الذي يريد تغييره وحدد أوليات المرحلة التي هو فيها وشرع في إصلاحها كما انه استوعب الظروف السياسية في زمانه واستطاع أن يستفيد منها لدعوته.

فينبغي على العاملين في الدعوة الإسلامية أن يكون لهم وعي سياسي بواقعهم

وخبرة بالأساليب الحركية والتنظيمية ومهارة في التخطيط المنظم المتزن حتى نستطيع أن نواجه العداون الشرس الموجه لأمتنا الإسلامية ونتصدى له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

ومن هنا يتوجب على الأخ الداعية أن تكون عنده قدرة على الفهم والتجاوب وسرعة التنفيذ وان يتسلح بالمعرفة التامة وأن يفهم دعوته حق الفهم كي يستطيع أن يبلغها حق التبليغ قال عمر ﷺ: «لست بالخب ولا الخب يخدعني».

[٢] النظرة الثاقبة والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

ويظهر ذلك في سيرة الفقيه عبد الله بن ياسين عندما طلب فقهاء سجلماسة درعه في عام ٤٤٧ هـ منه القدوم ليخلصهم من الحكام الطغاة الظلمة من زناتة المغراويين ومن أميرهم مسعود بن أنودين فجمع بن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة الفقهاء سلجماسة فأشاروا عليه بمد يد العون لهم وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر على بركة الله»، فأخذ قراره الحاسم وتحركت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة واشتبكت مع المغراويين الذين انهزموا أمام المرابطين وتشتت جموعهم ودخل ابن ياسين سلجماسة وأصلح أحوالها وقدم عليها عاملاً من أتباعه وجعل فيها حامية من جنوده ورجع إلى الصحراء [١].

فعلى العاملين في الدعوة الإسلامية الاتصاف بصفة النظر الثاقب وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون اى تردد ودون أي ريب لأن الداعية الرباني ينظر بنور الله وهذا النور الإلهى إذا حل في قلب المؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة التي يعرف بها الحقائق ويزن بها الأمور، ويدرك بها الصعاب [٢].

﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم (ص٤٢).

(٢) **انظر**: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله (ص ٦٣).

[د] الصفات الحركية التي ظهرت للباحثين في شخصية بن ياسين:

[١] الشعور بالمسؤولية :

وبدأ الشعور بالمسئولية في حياة بن ياسين منذ أن رغب في التحصيل والتزود بالعلم والاستعداد للدعوة وازداد ظهور ذلك في شخصيته عندما دخل مع الأمير يحيى بن إبراهيم في قبائل الملثمين حيث تولد في أعماقه شعورا بمسئولية الدعوة في هذه الأمة الجاهلة من قبائل الصنهاجة وكان شعوراً جرى في عروقه جريان الدم فأحس بعظمة التكليف وأعباء المسؤولية فقام بأدائها خير أداء.

إن الأمة الإسلامية في هذه الفترة بمسيس الحاجة إلى العناصر التي تتحرك ذاتيًا نحو مسئوليتها ، وبحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعوراً وإحساسًا بواجباتها الإسلامية ، وبحاجة إلى عناصر يغلى فيها الشعور بهذا الدين ، وهي تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليلٍ أو نهار.

فالشعور بالمسؤولية أمر لابد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه ، وعليه أن يتحرك في هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية ، لان حياة الداعية هي التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود [١] .

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى عندما قال :

قُلت الحيلة هي التحرك ... لا السكون ولا الهمود
وهي الجهاد وهل يجاهد ... من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتاعب ... لا التلذذ بالركود
هي أن تزود عن الحياض ... وأيُ حُر لا يزُود

---

(١) انظر : الصفات اللازمة للدعاة إلى الله (ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣).

هي أن تحس بأن كاس الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة في الأرض شأنك أن تسود (١)

[٢] **النظام والدقة :**

وظهرت صفة النظام والدقة في شخصية الفقيه ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطة الذي اتخذه قريباً من نهر السنغال حيث وضع شروطاً في قبول كل جديد كي يحفظ صفو جماعته من المقربين فكان ينتقي أطهر الملثمين نفساً وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق ومن توفرت فيه الشروط واجتاز التجربة بنجاح يتولى تعليمة وتثقيفه من قرآن وسُنة وحديث وأحكام الدين (٢) .

وأصبح رباطه قمة في النظام والدقة واختار لإدارته أحد الأمراء وفي الأمور المهمة كان شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة (٣) .

أن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شئ ومن التطبيقات العملية نأخذ مثال السفر حيث أمر الإسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يأمروا عليهم أميراً ، حتى لا يختلفوا في الطريق وتتبعثر جهودهم وخصوصاً إن السفر كما قال الرسول ﷺ قطعة من العذاب فعملية التنظيم واختيار الأمير لا شك أنها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة قال ﷺ : «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليأمروا أحدهم**» (٤) ، فلا بد من تعويد النفس وضبطها على النظام فالمسلم لا يتربى تربية منظمة إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ودقة في كل شئ كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره في بوتقة الطاعة والنظام (٥) .

---

(١) المصدر السابق (ص ٧٣) .
(٢) ، (٣) دولة المرابطين (ص ٢٧) .
(٤) مسلم ، كتاب المساجد ، باب من أحق بالإمامة (١ / ٤٦٤) رقم (٦٧٢)
(٥) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة (ص ٧٥) .

[٣] **القدرة على التعامل مع الناس:**

تميزت شخصية الفقيه بن ياسين في تعامله مع أصناف الناس من أمراء وأعوان وتجار وغيرهم من طبقات المجتمع الصنهاجي كان - رحمه الله - رقيق الشعور جيَّاش العاطفة يقظ القلب بعيد الآمال كبير المطامح في الإصلاح وكان كل همه أن ينتفع الناس بعلمه ودعوته ولذلك اختلط بالناس ودرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب وكان في خطابه للناس متحلياً بمكارم الأخلاق بعيداً عن التجريح والإساءة.

واتخذ من القرآن منهجاً في أسلوبه ودعوته متمثلاً بقوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ .

[النحل: ١٢٥].

وقد وصف نبيه الكريم ﷺ: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. فليقتد الداعي المسلم برسول الله ﷺ، وليكن شأنه وديدنه لمن يدعوهم، ويتحمل صدور أي آذى منهم.

[٤] **الاستعداد للبذل والتضحية بكل شيء:**

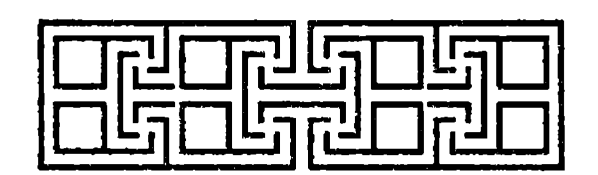
نجد أن الفقيه عبد الله بن ياسين - رحمه الله - بذل نفسه وماله ووقته وحياته وكل شئ في سبيل الغاية التي خرج من اجلها إلى قبائل صنهاجة وقد أيقن هذا الداعية الرباني انه ليس في الدنيا جهاد بلا تضحية معه .

إن المسلم عندما يبذل ما في وسعه من أجل دينه ورضا ربه يرجو بذلك أعظم الدرجات عند الله والفوز والخلود والنعيم المقيم في الجنة وأعظم من ذلك إحلال رضوان الله عليه قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١)** ﴾ [التوبة: ٢٠ - ٢١].

إن الذين ضحوا وبذلوا وجاهدا استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ ؛ ويبدلوا أفكار ومبادئ البشر الأرضية ؛ بمبادئ سامية ربانية.

فينبغي على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يجردوا أنفسهم من الهوى وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة وان يبذلوا المال برضاء وسخاء ويبذلوا الصحة والعافية والسير المضني لرفع دعوة الله ، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح فلا يضنون بها بل يجعلونها رخيصة بجانب مغفرته ورحمته ورضوانه وجنته [١].

وقد تعمدت الإسهاب في ذكر الصفات اللازمة في الشخصية ، التي تريد أن تربي أمة ؛ وتنشأ شعباً ؛ وتبني دولة ؛ لعل الله ينفعنا بالدراسة التحليلية للشخصيات الربانية التي ظهرت في أمتنا العظيمة.



---

(١) **انظر** : الصفات اللازمة للدعاة إلى الله ، (ص ٧٤ وما بعدها) .

المبحث الخامس
المراحل التي مر بها ابن ياسين في دعوته

نستطيع أن نقرر من الاستقراء التاريخي أنه مر بعدة مراحل قبل أن تقوم دولة المرابطين وبعد المراحل عاصرها فأشرف عليها وبعضها الأخر قام بها إتباعه المخلصون .

أما المراحل التي مرت بها دولة المرابطين قبل قيامها فهي مرحلة التعليم والتكوين وجزء من التنفيذ أما بقية المعارك فقام بها تلاميذه المخلصين من أمثال بكر بن عمر ويوسف ابن تاشفين وأما صاحب الفضل بعد الله تعالى في مرحلة التمكين والتوسيع والانتشار الفعلي فهو يوسف ابن تاشفين منقذ الأندلس من الضياع ومبيد الحركات الكفرية البدعية من الوجود .

[أ] مرحلة التعريف:

قام ابن ياسين فهذه المرحلة بتعريف الناس بالعقيدة الإسلامية الصحيحة موضحًا لهم أركان الإيمان الستة : «الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والأخر وقضاءه وقدره» على أصول منهج أهل السُّنَّة والجماعة واهتم بتنقية العقيد الإسلامية من اللوثات الشركية والوثنية التي خالطت عقائد الملثمين في تلك الفترة .

واهتم بتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الصيام حيث وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه وحارب العادات السيئة التي تصطدم مع ثوابت الدين من زنا وزواج بأكثر من أربع ، وغير ذلك من الأعراف والتقاليد الممزوجة بالجهل والتخلف والضلال وبذل جهداً في بيان أصول الإسلام للناس وحاول جاهداً أن يربطهم بالكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمة أوضح للناس ضرورة الالتزام بالسُّنَّة ، وأنها

هي المبينة للقرآن الكريم بل هي شرح وتفسير للقرآن العظيم وعمل على تفسير نصوص الدين بأسلوب يناسب عقول الملثمين ، وأزال الشبهات التي تعلقت بأذهان الناس من قبائل صنهاجة ، وكان همه جمع الناس على الإسلام ومبادئه والعمل به على العموم ، ودعا الناس جميعاً إلى محبة إعمال الخير وكراهية كل أنواع الشر.

ونستطيع أن نقول أن هذه المرحلة في دعوة ابن ياسين كانت انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون** (١٥١) ﴾ [البقرة: ١٥١].

وهذه الآية حدد الله بها وظيفة النبي ﷺ وواجبة وكذلك الدعاة من أمته من بعده.

حيث نجد الداعية الفقيه ابن ياسين ، سلك في دعوته هذه الأمور أو الوظائف أو الواجبات إلا وهي:

﴿ ١ ﴾ تبليغ وحي الله إلى الناس وذلك في قوله تعالى ﴿ **يتلو عليكم آياتنا** ﴾.

﴿ ٢ ﴾ تزكية نفوس الناس وتطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقاً للأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة وذلك في قوله ـ سبحانه وتعالي ﴿ **ويزكيكم** ﴾.

فالداعية إلى الله يطهر نفوس الناس بوحي الله وينمي أرواحهم وأقوالهم وأبدانهم ويرتفع بهم إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق.

﴿ ٣ ﴾ التعليم تعليم الناس العلم النافع أى : القرآن والحكمة وذلك في قوله سبحانه من هذه الآية ﴿ **ويعلمكم الكتاب والحكمة** ﴾ .

فهو واجب النبي ﷺ وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين و« الكتاب هو

القرآن الكريم وهو هدى للناس كل الناس إذ ما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا أمر به القرآن وما من شيء من هذا وذاك إلا أشتمل عليه القرآن ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] و﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يوسف : ١١١] و ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى ﴾ [النحل : ٨٩] .

وقد سمي القرآن الكريم قرآنا من بين كتب الله لأنه جمع ثمرة هذه الكتب كلها بل جمع المعارف والعلوم كلها إذ القرآن من معانيه الجمع والإثبات .

والحكمة هي :

إصابة الحق بالعلم والعقل : ولها معان فهي من الله سبحانه : معرفة الأشياء وإيجادها على غاية ما يكون الإحكام ومن الإنسان معرفة الموجودات والعلم بها وفعل الخيرات و« الكتاب والحكمة » بهذه المعاني هما تنوير الأذهان بما تفتقر إليه من هدايات في عالمي الغيب والشهادة وكم كانت قبائل صنهاجة محتاجة لهذه الهدايات التي أصلحت اعتقادها وتصورها ومنهجها وأصبحت قبائل تحمل أهم رسالة ودعوة ربانية بفضل الله عليها ثم بجهود المخلصين من أمثال الفقيه بن ياسين .

﴿ ٤ ﴾ واجتهد بن ياسين ـ رحمه الله ـ في نقل الناس من ضلال الباطل إلى طريق الحق ومن ظلام الجهل إلى نور العلم مسترشداً بقول الله تعالى : ﴿ **وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي يبصركم بحاضركم ويرسم اسلم طريق لمستقبلكم .

وكان اثر التربية القرآنية واضحاً في شخصية بن ياسين ـ رحمه الله ـ حيث نجده في تبليغ رسالات الله لا يداهن ولا يجامل بل يأخذ بكافة الأخلاق الشرعية ويتوكل على الله في الصدع بكلمة الحق وكأن بين عينيه قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩)** ﴾

[الأحزاب : ٣٩] .

وكان يشعر في قرارة نفسه بالإثم والمعصية إن قعد وكتم ما علَّمه الله سبحانه وتعالى وهذا من أثر القرآن في نفسه حيث قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩)** ﴾[البقرة - ١٥٩] .

والآية واضحة في بيان أن من عرف الحق فقد وجب عليه أن يبينه للناس ومن لم يفعل فقد أثم.

إننا محتاجون بأن نتربى على آيات الله لنفهمها ثم لننطلق في دنيا الناس عاملين بها ابتغاء مرضاة الله وطمعًا في ثوابه ورغبة في جنته وخوفًا من عقابه وشفقة من ناره.

نعى الله تعالى في كتابه العزيز على أهل الكتاب عدم بيانهم لأحكام الله للناس وكتمانها مقابل ثمن قليل من متاع الدنيا.

فقال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (١٨٧)** ﴾ .

[أل عمران : ١٨٧] .

وهكذا يا أخى الكريم نجد القرآن الكريم في تربيته للدعاة إليه يرغبهم ويرهبهم فتنطلق القلوب تسعى للمثوبة والدرجات العلى ، لأن ما عند الله خير وأبقى.

كما نجد الأحاديث النبوية التي تربى عليها ابن ياسين وتلاميذه مشجعة لهم في السعي الدءوب من أجل إكمال مرحلة التعريف بنجاح.

فان السُنَّة النبوية المطهرة شارحة القرآن قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال.

روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بنْ عباس رضي الله عنهما في باب تعريف النبي ﷺ وفد عبد قيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم ويخبروا من وراءهم قال مالك ابن الحويرث وهو من بنى عبد القيس قال لنا النبي ﷺ : «**ارجعوا إلى أهليكم**

فعلموهم » .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قال النبي ﷺ لما قدم إليه وفد عبد القيس : «**من الوفد أو من القوم ؟**» قالوا : ربيعة فقال : «**مرحباً بالقوم أو الوفد ، غير خزايا ولا ندامى**» ، قالوا : إنا نأتيك من شقة بعيدة وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة ، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع : أمرهم بالأيمان بالله – عز وجل – وحده قال : «**هل تدرون ما الإيمان بالله وحده ؟** » ، قالوا الله ورسوله أعلم .

قال : «**شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وتعطوا الخُمس من المغنم** » .

ونهاهم عن الدباء والحنتم و المزفت قال شعبة : ربما قال : « النقير» وربما قال : « المقير» قال : «**احفظوه واخبروه من ورائكم**» [١] .

وهذا الحديث النبوي الشريف نهج للقوم لمعرفة أصول الدعوة في مرحلة التعريف ومعالجة الأمراض بالمجتمع حيث كانت عادة شرب الخمر قد انتشرت في ربوع هؤلاء القوم انتشار النار في الهشيم ولذلك نهاهم رسول الله ﷺ عن الدباء والحنتم والمزفت التي كانت عبارة عن أوان لشرب الخمر ومن مثل هذا الحديث يستلهم الدعاة اولويات مرحلة التعريف في الدعوة إلى الله تعالى وغيره من الأحاديث الكثيرة والإرشادات النبوية الكريمة .

استمر الفقيه ابن ياسين في تعريف الناس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاق التي تطلبها الشريعة وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة .

إلا أن الله تعالى ابتلاه بقوم غلاظ قساة القلوب فاصطدمت دعوة المصلح الفقيه بأطماعهم فتعرض للتضييق والشدة والعسف من بعض وجهاء قبائل

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الامر بالإيمان بالله تعالى ورسوله (١ / ٤٦ رقم ١٧)

صنهاجة من قبيلة جدالة وحاولوا قتله إلا أن الله نجاه منهم.

فأشار الأمير المخلص والتلميذ الوفي يحيى بن إبراهيم على ابن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة في حوض السنغال ليتربى الأتباع فيها ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

وقال له: إن الجزيرة إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا، وإذا ملأ دخلنا في الزوارق وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية وصيد البر والبحر ومن أصناف الطير والوحوش والحوت [١].

وبذلك يكون ابن ياسين - رحمه الله - ترك ديار الملثمين واختار جزيرة في حوض نهر السنغال للمرابطة وتربية المريدين على كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ بعد أن ترك صدى ودوياً لدعوته في ديار الملثمين وبذلك قرر ابن ياسين أن ينتقل إلى مرحلة التكوين مختاراً مكاناً مناسباً لهذه المرحلة المهمة في تاريخ دولة المرابطين بعد أن نجح في مرحلة التعريف في إبلاغ الدعوة والتعريف بها لهم.

[ب] مرحلة التكوين عند الفقيه ابن ياسين:

تمهيد :

اشتهر في تاريخ المرابطين ما يُسمى برباط ابن ياسين وقبل أن نتعرض لرباط ابن ياسين الذي اتخذه في مرحلة التكوين أرى من باب الفائدة للقارىء الكريم أن يأخذ فكرة مختصرة عن معنى الرباط في الإسلام.

الرباط:

الرباط حصن حربي يُقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المسلمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسُنَّة النبوية المطهرة.

---

(١) انظر: دولة المرابطين (ص ٢٣).

أما القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

ومن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]

وفي الحديث النبوي في البخاري جاء فضل الرباط في سبيل الله تعالى عن سهل ابن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والروحة يروحه العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**» [(١)] .

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذي خرج إلى الثغور للدفاع عن المسلمين ضد أعدائهم وأطلق المسلمون على الثغر ، أي المحل الذي يقيمون فيه اسم الرباط .

ويحتوى الرباط على برج مراقبة وحصن صغير وقد أقام الولاة الثغور كثير من هذه الربط لحماية حدود الدولة الإسلامية على مر التاريخ ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة ألاف رباط ، وكذلك في سهول الجزيرة الفراتية ، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها فأقيمت فيها الربط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها حتى أن عقبة بن نافع الفهري عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه أقامتها على الساحل للمرابطة فيها ، وقالوا له : قربها من البحر ليكون أهلها من المرابطين» [(٢)] .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجهاد والسير(جـ٣ / ٢٩٥) ، حديث رقم(٢٨٩٢) .

(٢) **انظر** : المالكي رياض النفوس ،(ص ٦) .

وقد توسعت الربط في عهد العباسين الدولة العباسية وبنى الوالي العباسي هرثمة ابن أعين أول رباط في افريقية عام (١٧٩هـ-٧٩٥م)[١] ، وتوسع الاغالبة في هذا المجال توسعاً عظيماً وأقام الوالي زيادة الله الاغلبي رباط سوسة عام ٢٠٦هـ ٨٢٢م.

وكان الاغالبة يسمون هذا الربط بالقصور والمحاريث ، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الاطلسي وكان أهالى الشمال الإفريقي يلجئون إليها إذا داهمهم الغزاة وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحري عن احتلال الساحل الافريقى ، وقد التزم المقيمون في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصة بالإضافة إلى كافة التدريبات الجهادية الأخرى التي أهلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المسلمين والجهاد في سبيل الله.

وإلى جانب المهمات الجهادية التي قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العلمية فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها وقد قام فقهاء أهل السُّنَّة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادي عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية ، التي عصفت بالمشرق وكانت الربط والثغور والقلاع والحصون هي المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة ، وأصبحت الثغور في الشمال الافريقى مدارس علمية تدرس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية ، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البرى والبحري حسب موقع الرباط وكذلك يقومون بإعداد الطعام وكل ما تتطلبه عمليات التموين من

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة رياض (ص ١٩).

زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة [١] .

وإما من ناحية العبادة فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة وقد وضعت عقوبات لمن تأخر عنها.

وفى أوقات السلم كانوا يحفظون القران وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة ويقومون بالمهمات التي تتعلق بحياة الرباط وبما أن التبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجبا تهم فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها في الإسلام وتربيتها عليه وقد أدت الثغور في الشمال الإفريقى خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق ، وكان لمنهج أهل السُّنَّة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي ، و تميز أهل الثغور عن غيرهم بالزهد والتقشف والتفاني في سبيل الله ، ولا يبتغي أهلها من الناس من وراء ذلك جزاء ولا شكوراً وإنما لسان حالهم إنا نخاف من ربنا يوماً عـ ـاً قمطريراً [٢] .

[١] رباط عبد الله بن ياسين :

أقام الفقيه الرباني المربي المجاهد ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها ، فهو يقع قريبًا من مملكة غانة الوثنية ، لذلك فهو مهدد دائمًا بالأعداء ، ولابد للجماعة المقيمة فيه من الجهاد ، وهو غير بعيد عن ديار الملثمين ، فيستند إليهم في حالات الخطر ، وتشكل تلك الديا ر موردًا بشريًا لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه ، وهذا يفسر كثرة عدد رجال .

دخل ابن ياسين الجزيرة التي في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام (٤٣٣هـ /

(١)انظر : دولة المرابطين (ص ٢٤ ، ٢٥).
(٢)المصدر السابق ، (ص ٢٧).

١٠٤٠م) ، ومعه أتباعه المخلصون ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء الملثمين وتكاثر عددهم حتى بلغ الألف رجل ، ولما كثر أتباعه وضع ابن ياسين شروطًا رآها لازمة لكي لا يتأثر تنظيم رباطه الجديد ومرحلته التي بدأ الشروع فيها ، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفسًا وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق ، كان يطلب منهم أن يتخلوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوراتهم التي تخالف الإسلام ويدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة ، وهمم عالية تسعى لتحكيم شرع الله على وجه المعمورة [١] .

وعمل جاهدًا على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مجتمعه الجديد ، وكان يرى أن من فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها ، وهي مسألة فقهية اختلف علماء الأمة فيها ، فمنهم من يكتفي بالتوبة النصوح ، ومنهم من يطلب قضاء ما فات .

وكان ابن ياسين يهتم اهتمامًا بالغًا بالفقهاء والعلماء ويرفعهم إلى مراتب عالية حيث التف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه على تربية الناس وتعليمهم وتأهليهم للمرحلة القادمة ، وكان لا يمنعه الحياء من طرد من لا يراه مناسبًا لهدفه المنشود .

وكان أهل الرباط في قمة من الصفاء الروحي ويعيشون حياة مثالية في رباطهم ، فيتعاونون على قوتهم اليومي معتمدين على ما توفره لهم جزيرتهم من الصيد البحري ، يقنعون بالقليل من الطعام ويرتدون الخشن من الثياب [٢] .

كان رباط السنغال الذي أسسه الداعية الرباني ابن ياسين منارة يشع نورها وخيرها وعلمها في تلك الصحاري القاحلة ، فأصبح قطبًا جذابًا عاملاً على

---

(١) ، (٢) **انظر** : دولة المرابطين(ص ٢٧ ، ٢٨) .

جذب أبناء قبائل صنهاجية إليه ، ووفر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة فأصبحت القوافل تمر بأمن وسلام دون أن يتعرض لها أحد بسوء ، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة .

وتميز ذلك الرباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله مما ساعد على قوة النواة الأولى لدولة المربطين حيث تشكل مجلس الشورى جماعة للحل والعقد تطورت مع مر الأيام ؛ وأصبحت مرجعية عليا للملثمين .

[٢] أصول المنهجية العلمية والفقهية عند الفقيه ابن ياسين التي ربى عليها أتباعه :

يعتبر الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السُنَّة والجماعة ، مالكي المذهب ، استمد أصول فهمه من أصول المالكية التي كانت ولا زالت ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشمال الإفريقي ، إلا أنه كانت له اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها وتحرك بها ، وبذلك نستطيع أن نقول عنه بأنه فقيه مالكي حركي ، ويرى علماء المالكية الذين تتلمذ ابن ياسين على كتبهم وفقههم ، أن المذهب المالكي له أصول في الاستنباط واستخراج الأدلة الشرعية ، ومن هذه الأدلة :

المصدر الأول : القرآن الكريم :

كان الإمام مالك يرى أن القرآن قد اشتمل على كليات الشريعة ، وأنه عمدة الدين ، وآية الرسالة ، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين ، فابتعد عن نظر المتكلمين ، هل القرآن لفظ ومعنى أو معنى فقط ، وهو عنده اللفظ والمعنى ، كما هو إجماع من يعتد بهم من المسلمين ، وروى أنه كان يقول : إن من يقول بأن القرآن مخلوق فهو زنديق يجب قتله ، ولذا لم يعتبر الترجمة قرآنًا يُتلى تجوز به الصلاة ، بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول ، وهو يأخذ بنص

القرآن ، وظاهره ومفهومه ، ويعتبر العلة التي يأتي التنبيه عليها [١] .

إن القرآن الكريم هو المرجعية العليا لابن ياسين وأتباعه ، وكان موقفهم الإذعان والتسليم لكل ما جاء فيه ، ومما يتعلق بالعقائد أو العبادات أو الأخلاق أو المعاملات ، فالقرآن الكريم لم يفرق بينها ، فكلها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل ، الداعية إلى كل هدى ورشد ، والمحذرة من كل ضلالة وغي ، فكان وأتباعه على بينة من ربهم وبصيرة من دينهم فلم تتحير عقولهم أو ترتاب قلوبهم أو يتردد عزمهم في أي تصور أو معتقد أو خلق أرشد إليه القرآن ، لإيمانهم العميق بقوله تعالى : ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)** ﴾ [فصلت : ٤٣] .

وكان تدبر ابن ياسين وفقهاء المرابطين للقرآن الكريم معيناً لهم على استنباط الأحكام الشرعية .

قال تعالى :﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (٢٩)** ﴾ [ص : ٢٩] .

وقال تعالى :﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (٨٢)** ﴾ [النساء : ٨٢] .

وقال عز وجل : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)** ﴾ .

[محمد : ٢٤] .

لقد فهم المرابطون أن القرآن الكريم لم ينزل ليُتلى على الأموات ، بل نزل ليحكم الأحياء ، وأنه لم ينزله الله تعالى إلا من أجل اتباعه والعمل به ، وبذلك

---

(١) **انظر** : تاريخ التشريع ، مناع القطان (ص ٢٩١) .

ينال المتبع والعامل به رحمة الله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

إن الله تعالى حدد في كتابه أهداف القرآن الكريم في الحياة والمجتمع في عبارات أبين من الشمس في رابعة النهار ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) ﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

إن من أسباب قوة المرابطين وتوفيق الله لهم تمسكهم بكتاب الله .

المصدر الثاني : السُّنَّة النبوية :

اعتمد المرابطون وخصوصاً فقيههم الأكبر ابن ياسين على السُّنَّة النبوية في استنباط الأحكام الشرعية وألزموا أنفسهم وغيرهم بمنهج الله تعالى .

والسُنَّة عند المرابطين هي: المنهج النبوي المفصل في تعاليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويتمثل ذلك في أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته .

فالقرآن: هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام عقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه.

والسُنَّة: هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

ورأى علماء المرابطين وجوب اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وتقريراته مستندين بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾.
[النساء ٥٩].

وجعل طاعته لله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠].

وجعل سبحانه وتعالى طاعته الاهتداء: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤].

وجعل سبحانه وتعالى اتباع النبي ﷺ دليلاً على محبة الله ومغفرته: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأمرهم بإتباعه فيما أمر ونهى:

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧].

وأمرهم بالاستجابة لدعوته، واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خياراً في قبول حكمه: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (٣٦) ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأقسم على نفي الإيمان عمن أعرض عن تحكيمه، أو لم يقبل حكمه راضياً مسلّماً: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٦٥) ﴾ [النساء: ٦٥].

وجعل سبحانه وتعالى قبول حكمه أو التولي عنه المحك الذي يميز الإيمان من

النفاق . قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) ﴾ [النور: ٤٧ - ٤٨].

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾ [النور: ٥١].

وحث على الاقتداء بالنبي ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ودلت أحاديث كثيرة على وجوب اتباع النبي ﷺ، ولذلك سعى المرابطون لتحقيقها في حياتهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة ﷺ أنه قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**»[1].

ومن ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال:

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا يا رسول الله، كأنها موعظة مُودِّع: فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمر، فإن كل بدعة ضلالة**»[2].

إن قبائل صنهاجة الذين عرفوا بالملثمين ثم أطلق عليهم اسم المرابطين ظهرت آثار التزامهم بسُنة النبي ﷺ في كافة مناشط حياتهم في التعلم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي كونوا بها دولتهم المعروفة.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦).

المصدر الثالث: عمل أهل المدينة:

الذي اهتمت به المدرسة المالكية المغربية السنية عموماً عمل أهل المدينة حيث إنها دار الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ ومعه أصحابه بها، وأهل المدينة اعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله ﷺ، على هذا رأى المالكيون أن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة في أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدموا ذلك على القياس، وعلى خبر الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث ابن سعد الفقيه المصري: « إن الناس تبع لأهل المدينة ، التي إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن » (١) .

وسار فقهاء الدولة المرابطية وعلى رأسهم الفقيه عبد الله بن ياسين على هذا الطريق ولم يغيروا أو يبدولوا أو يرضوا بغيره حولاً .

المصدر الرابع: قول الصحابي:

جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يعرف له مخالف حجة، واعتمدوا في ذلك على ما ذكر الإمام مالك في «الموطأ»حيث اعتمد في كثير من فتاويه على العديد من أقوال الصحابة الذي هم أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد .

وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة يختار علماء المالكية من أقوالهم ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

المصدر الخامس: المصالح المرسلة:

اعتبر المالكية المصالح المرسلة دليلاً شرعياً ومارسوها ممارسة عملية في الحياة وأصلوا لها أصولاً في جلب المنفعة، ودفع المفسدة وقاسوا بهذه القواعد الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، والمقاصد إما ضرورية أو حاجية، أو تحسينية.

---

(١) **انظر** : تاريخ التشريع الإسلامي ، (ص ٢٩١ - ٢٩٢) .

والضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمس في الملل جميعًا وهي: حفظ الدين والنفس، والنسل، والمال والعقل.

والحاجية: هي التي تودي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هي المتعلقة بمكارم الأخلاق وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسُّنَّة، مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب المالكية إلى أن المصلحة تكون حجة ويعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب المالكية.

المصدر السادس: القياس:

وهو من أصول المنهجية العلمية التي سار عليها ابن ياسين وربى عليها أتباعه.

المصدر السابع: سد الذرائع:

سار عليه ابن ياسين في منهجه العلمي في تأصيل أصول فقه مذهبه، وسار على نهج فقهاء المالكية في الاقتداء بالإمام مالك ـ رحمه الله ـ الذي أكثر إكثاراً شديداً من العمل بسد الذرائع حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه حتى وصفه الشاطبي بأنه كان شديد المبالغة في سد الذرائع [1].

[جـ] مرحلة التنفيذ التي قام بها ابن ياسين:

بعد أن قطع ابن ياسين بأصحابه وأتباعه مرحلة التكوين العقدي والفقهي والحركي والتنظيمي والتربوي، وأصبح معه رجال يعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله على فهم صحيح لكتاب الله، وفقه واسع لسُنَّة نبيه ﷺ، ورغبهم في ثواب الله تعالى، وطلب مرضاته، وخوّفهم من عقابه، وتمكن حب الاتباع من قائدهم العالم الفقيه، بدأ ابن ياسين بإرسال البعوث إلى القبائل، لترغيب الناس في

---

(١) انظر: التشريع والفقه في الإسلام، مناع القطان، (ص ٢٩٤).

الإسلام، فلبى مجموعة من أشراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله.

ثم أمر ابن ياسين أتباعه وتلاميذه أن يذهب كل منهم إلى قبيلته أو عشيرته يدعوهم إلى العمل بأحكام الله وسُنَّة نبيه ﷺ، فلما لم يجدوا استجابة من أقوامهم، خرج إليهم بنفسه، فجمع أشياخ القبائل، ووعظهم وحذرهم عقاب الله، واستمر في ذلك سبعة أيام، فلم يزدادوا إلا فسقاً، فلما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم [١].

تحركت جموع المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة، حيث اشتبكوا معها في معركة شرسة وأوقعوا بها الهزيمة، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وانقاد الباقون لأحكام الإسلام، ثم سار ابن ياسين إلى قبيلة لمتونة فقاتلهم وانتصر عليهم، ودخلوا في طاعة ابن ياسين، وبايعوه على إقامة الكتاب والسُّنَّة، ثم مضى إلى قبيلة مسوفة التي دخلت تحت لوائه وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة، فلما شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث بادرت إلى مبايعة ابن ياسين على بذل الطاعة له، وقلدتها كثير من القبائل الصحراوية في ذلك [٢].

ووضع ابن ياسين خطة شاملة تركزت على توزيع النابغين من تلاميذه على القبائل التي دخلت في دعوته ليعلموها القرآن وشرائع الإسلام، وبدأ ابن ياسين في تخطيط الدولة التي شرع لتأسيسها على أسس شرعية ربانية، وفي ظني أن الذي أسس الدولة المرابطية فعلياً ونفذ أحكامها الشرعية هو يوسف بن تاشفين، وهذا ما يتضح من خلال دراسة هذه الدولة البهية، ولما توفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، قدم ابن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتوني وكان من أهل الدين والفضل، كما كان منقاداً في جميع أموره لإمامه ابن ياسين [٣].

---

(١) **انظر**: ابن أبي زرع، روض القرطاس (ص ٨٥).

(٢) **انظر**: تاريخ المغرب والأندلس، د. حمدي عبد المنعم (ص ٤١).

(٣) **انظر**: دولة المرابطين (ص ٣١).

وبذلك أصبحت القبائل الصنهاجية في المغرب الأقصى لها قيادة دينية وسياسية ومجالس شورى تدير دفتها وحركتها فتطلعت لتوحيد المغرب الأقصى كله وإزالة كل عائق يمنعها من تحكيم شرع ربها.

[أ] الوضع السياسي في المغرب الأقصى عند ظهور المرابطين:

كان المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس الهجري في محنة سياسية ودينية حيث ظهرت دعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تشكل كياناً سياسياً تحتمي به وأصبح المغرب الأقصى شبيهاً بالأندلس في زمن ملوك الطوائف، وكانت الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين تتكون من أربع شوكات قوية لها وزنها في المغرب الأقصى.

أولاً : قبائل غمارة في الشمال.

ثانياً : قبائل برغواطة في المغرب.

ثالثاً: قبائل زناتة وكانت تكوّن نطاقًا حول الطوائف السابقة ولا سيما برغواطة.

رابعاً: طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين في الجنوب.

[١] الطائفة الأولى قبائل غمارة:

كانت تسكن جبال الريف الممتدة من ناحية البحر المتوسط من سبتة وطنجة غرباً، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيْمة الحالية شرقاً، وتمتد بلادهم جنوباً إلى قرب فاس، وكانت غمارة بطناً من بطون مصمودة وظهر فيها مشعوذون، وقصدتهم الخوارج للمنعة في جبالهم، ووصفهم المؤرخون من أمثال ابن خلدون وغيره: بأنهم «عريقون في الجاهلية، بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتنبأ فيهم إنسان يعرف حاميم بن مَنّ الله، ولقب بالمفتري، وفي رواية أخرى بالمقتدي ـ ولعلها هي الأصل ثم حرفت إلى

المفتري - والجبل الذي تنبأ فيه ينسب إليه، وهو جبل على مقربة من تطوان، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها، فرض لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ووضع لهم قرآناً بلسانهم «أي البربري»، ومن تعاليمه أنه أحل لهم أكل أنثى الخنزير، وأسقط عنهم الحج والطهر والوضوء، وحرم عليهم الحوت حتى يُذكى، وحرم بيض كل طائر... إلخ» [١] .

وقد قتل هذا المشعوذ الزنديق في النصف الأول من القرن الرابع الهجري في طنجة في حروبه مع قبائل مصمودة الساحلية على حد قول البكري وابن خلدون، أو في حروبه مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على حد قول صاحب «الاستبصار»، وصاحب «مفاخر البربر» [٢] .

واستمرت البدع الكفرية بالرغم من موت المتنبئ المشعوذ ، وظهر أحد أبنائه ويدعى عيسى ، وكان مبجلاً في قومه ، وكانت قبائل غمارة غارقة في الإباحية بين النساء والرجال، وكان رجالهم يربون شعورهم كالنساء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها... إلخ [٣] .

[٢] الطائفة البرغواطية:

كونت هذه الطائفة الكافرة دولة لها في القرن الثاني للهجرة في إقليم تامسنا أو ما يُسمى اليوم بالشاوية [٤] وكانت دولتهم تمتد من الرباط الحالية وتمتد إلى ثغر فضالة الذي كان قاعدة لأسطولها، وتنتهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع.

---

(١) انظر : الاستبصار في عجائب الأمصار ، لمؤلف مجهول ، (ص ١٩٠)
(٢) انظر : كتب الاستبصار ، (ص ١٩١ -١٩٢) ، ومفاخر البربر ، (ص ٧٧)
(٣) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . العبادي (ص ٢٧٨) .
(٤) المصدر السابق (ص ٢٧٩) .

ونجد أن المؤرخين اختلفوا حول اسم برغواطة ، فبعضهم يرى بأنه لم يكن اسماً لقبيلة معينة يجمعها أصل واحد أو أب واحد، بل كان اسماً لأخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل، ادعى النبوة، اسمه صالح بن طريف ابن شمعون البرباطي، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس فصارت كلمة برباطي تُطلق على كل من اعتنق ديانته، ثم حرفت إلى برغواطي [١] .

ويرى ابن خلدون بأن برغواطة قبيلة من المصامدة وأن ملوكها كانوا من مصامدة المغرب [٢] .

ومن عقائد هذه الطائفة الضالة اعتقادهم بأن صالح بن طريف هو المقصود بقوله تعالى في سورة التحريم: ﴿ **وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** ﴾ [التحريم: ٤]. وزعم زعيمهم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه.

وشرع لأتباعه صوم رجب والأكل في رمضان، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين، وفرض عليهم خمس صلوات في النهار وخمس صلوات في الليل، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى، ويقول بالبربرية ابسمن باكش، وتفسيره باسم الله، ثم مقر ياكش، أي الله أكبر، ويقولون في تسليمهم بالبربرية أيحن ياكش، ووردام ياكش الله أحد لا مثيل له، وضع صالح بن طريف قرآناً باللغة البربرية في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين ، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس .

---

(١) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . العبادي (ص ٢٧٩) .
(٢) ابن خلدون ، العبر (جـ٦ / ٢١٠) .

وأباح لهم تزوج النساء فوق الأربع، وأباح لهم الطلاق، وحرم عليهم زواج بنت العم، وزواج المسلمات، كذلك شرع قتل السارق، ورجم الزاني، ونفي الكاذب، وحرم رأس كل حيوان، وحرم ذبح الديك، والحوت أي السمك، ولا يؤكل إلا أن يذكى «أي يذبح» والبيض عندهم حرام ، وليس عندهم آذان ولا إقامة ، وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك ، ولذلك حرموها إلى غير ذلك من التعاليم الشيطانية ، وإلى حد كبير تشبه ديانة حاميم المفتري في غمارة [١] .

لقد كانت تعاليم هذه الدولة الكفرية متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة، وكذلك ببعض التعاليم الإسلامية حيث يمكننا أن نقول إنها ديانة مشوهة للإسلام تعمل للقضاء عليه. وكانت هذه الدولة عند أهل السُّنَّة والجماعة منحرفين مارقين عن الدين الحنيف، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم.

واستمرت هذه الدعوة الكفرية منذ سنة ١٢٥هـفي خلافة هشام بن عبد الملك إلى ظهور أهل السُّنَّة المرابطين الملثمين الذين قضوا عليهم قضاءً مبرماً، وقد ذكرت كتب التاريخ إن حكام المغرب قبل مجيء المرابطين، كالأدارسة والأمويين والزناتيين قد قاتلوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة.

لقد قاسى المغرب الأقصى محنة كبيرة بسبب هذه الدولة الكفرية والطائفية البدعية وكان خطرها أشد وأقوى مما تصوره كتب التاريخ [٢] .

[٣] الطائفة الثالثة وهي الدولة الزناتية:

وهي تتكون من قبائل مكناسة ومغراوة وبني يفرن وغيرها من القبائل الزناتية التي حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة حيث قامت بدور إيجابي في

---

(١) نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر ، (ص ٧٧)انظر : في تاريخ المغرب والأندلس (ص٢٨١).

(٢)في المغرب والأندلس ، (ص ٢٨٧).

حرب الدول البرغواطية، إلا أن حكام هذه الدولة اشتهروا بالجور والظلم والتعسف في آخر زمانهم [١].

[٤] الطائفة الرابعة طوائف الشيعة والوثنيين :

كان محلهم جنوب المغرب في أقصى بلاد السوس، وكانوا عبارة عن أقليات مبعثرة.

أما الشيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت ونواحيها وكانوا دعاة للفكر الشيعي الرافضي، وبعضهم يرجع جذورهم وأصول فكرتهم للدولة العبيدية الرافضية التي جاء ذكرها في صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي «الدولة العبيدية الرافضية» لقد كان الصراع عنيفاً بين الشيعة وبين أهل السُّنَّة في كل ناحية وضاحية ومكان في المغرب كله، وتوج جهاد أهل السُّنَّة بالقضاء على الدولة العبيدية إلا أن بقايا جذورهم أزالها المرابطون بقوتهم السنية الميمونة، أما الوثنيون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير في جبل وعر، وكان الوثنيون يعبدون الكبش، ويبدو أنهم تأثروا بديانات مصرية قديمة كانت تعبد الكبش في زمن الفراعنة ويسمونه الإله خنوم، فكأن طقوس هؤلاء الوثنيين وعباداتهم من رواسب مؤثرات مصرية قديمة [٢].

لقد اتضح لي في دراستي التاريخية لبلاد المغرب أنها كانت تعاني من تفكك سياسي وتكونت دول طائفية على مناهج منحرفة عن دين رب البرية، وكانت شعوب تلك الديار قد غرقت في وحل الجهل، ومستنقعات الانحراف وفساد التصور، وضياع الأخلاق، وكثرة الظلم، وانتشار العسف والجور وكان علماء وفقهاء المرابطين على علم ودراية، وقد وضعوا في خطتهم الجهادية توحيد المغرب الأقصى والقضاء على الدولة الطائفية الكفرية، وإزالة الظلم والجور والتعسف.

---

(١) في المغرب والأندلس، (ص ٢٨٩) .

(٢) في المغرب والأندلس، (ص٢٩١) .

وعملوا على توحيد الديار المغربية وتربيتها على منهج سني مالكي، ومحاربة المناهج الكفرية، والقضاء على المذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض ومنعها من الانتشار أو أن يكون لها وجود.

[هـ] الشروع في توحيد المغرب الأقصى :

في عام (٤٤٧ هـ - ١٠٥٥م) اجتمع فقهاء سجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، قالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله» (١) .

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة، فتصدى لهم الأمير مسعود بن واندين بالقتال، وانتهت المعركة بهزيمة المغراويين ومصرع مسعود وتشتت جيشه وأسرع ابن ياسين بدخول سلجماسة، وأصلح أحوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء (٢) .

وفي عام (٤٤٨هـ-١٠٥٦م) توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فعين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، ثم تأهب أبو بكر لغزو بلاد السوس ففي ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ سار المرابطون صوب بلاد السوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمه الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التمكين وتمكنوا من احتلال اروادنت، وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السُّنَّة والجماعة (٣) .

---

(١)، (٢) **انظر** : موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٢٨).

(٣) في المغرب والأندلس (ص ٢٩٣).

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذ لقوط بن يوسف بن علي المغراوي وحاصرها واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة، فخرج يتملس النجاة في أهله وحشمه تحت جناح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام (٤٤٩هـ-١٠٥٧م) وأقاموا فيها ما يقارب من الشهرين، وتحركوا حركات حربية محكمة للقضاء على فلول المغراويين، واستطاعوا قتل أمير أغمات وتزوج أبو بكر ابن عمر من زينب النفراوية زوجة لقوط المغراوي.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم يومئذ أبو حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس أصيب فيها العالم الرباني والمقاتل الميداني والفقيه الموجه ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحداً حمل على إثر تلك الجراح إلى مقر القيادة في معسكر المرابطين، وقبل خروج روحه جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة، ولم يلبث أن فارق الحياة [(١)] ، فعلى أمثال هؤلاء الرحمة والمغفرة والرضوان من الرحيم الواحد المنان، واتفق رأي المرابطين على اختيار أبي بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية ، بينما يؤكد كل من القاضي عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو، ليرجعوا إليه في مشاكلهم وقضايا دينهم، وتولى القائد الجديد الزعامة بهمة عالية وشجاعة فائقة، واستعداد للتضحية والفداء من أجل إحياء دين الله على منهج النبوة، وطمس المعالم الكفرية للدولة البرغواطية، فأمر بتعبئة جيوشه

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٤) .

المجاهدة وخرج للقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب، فأثخن في جنود الدولة البرغواطية، وفرق جموعهم، وكسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة، ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة (٤٥٢هـ-١٠٦٠م) ثم تابع سيره في بلاد المغرب، يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثاني ٤٥٢هـ، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين ومقراً للأمير وأخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بناءها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعين ابن عمه يوسف وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذي شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبني يفرن وغيرهم ووقع اختياره على أربعة من القواد هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي ومدرك التلكاني، وسير بن أبي بكر اللمتوني، وعقد لكل منهم على خمس آلاف من قبيلته، وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار في أثرهم فغزا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة وبلداً بعد بلد ، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

واستمر في توحيد بلاد المغرب وسنرى جهوده الجهادية في سيرته الميمونة.

أما أبو بكر فقد استطاع تأمين الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية ، رجع إلى

المغرب الأقصى بجيوشه فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكراماً يليق بالقائد الرباني أبو بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائباً عنه على حكم المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمسلمين ثم ودعه إلى الصحراء وقد زوده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهناك استأنف الجهاد والغزو حتى قتل في إحدى غزواته في سنة (٤٨٠هـ-١٠٨٧م) [(١)].

قال ابن كثير - رحمه الله - في «البداية والنهاية» -عنه أي عن أبي بكر بن عمر- : «اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من ملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كلهم يعتقد طاعته، وكان يقيم الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحة اعتقاد ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته» [(٢)].

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعاً وديناً وحباً للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحارى القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميزة .

[و] تأملات في مسيرة ابن ياسين الجهادية :

لقد سار ابن ياسين في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، وتدرج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين ثم التنفيذ حيث شرع في قتال

---

(١)، (٢) البداية والنهاية (١٢/١٤٣) .

القبائل التي لم تحترم أو تقدس حرمات الله، وأزال المنكرات، واعتبر ذلك جهاداً في سبيل الله.

وقد لاحظت أن إعلان الجهاد على القبائل التي تفشت فيها المنكرات جاء بعد إعداد وشورى من أهل الحل والعقد، وبعد أن أصبحت لهم شوكة قوية وإمام مطاع، ومجلس من العلماء والفقهاء يقلبون أمور السلم والحرب.

ويكفي هؤلاء الأبطال على صحة جهادهم ما رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي ﷺ: **«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون، وأصحاب يأخذون بسُنَّته ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف خلوف يقولون ما لا يفعلون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل»** [1].

إن حركة المرابطين كانت موفقة حيث استطاعت أن تنسق مع علماء وفقهاء سلجماسة لإسقاط الدولة الزناتية التي تفشى فيها الظلم والجور والعسف، فعندما رأوا من أنفسهم الاستطاعة والمقدرة على إزالة الظلم، ورأوا أن تحقق المصلحة كان أرجح، سارع الفقهاء والعلماء بالموافقة على مقترح ابن ياسين، وتدفقت جيوش المرابطين، وتعاونت مع المستضعفين، وطهرت البلاد من هيمنة العابثين، ونشرت العدل بين المسلمين، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين، وفي نظري أن نجاح حركة المرابطين كان بتوفيق الله، ثم إن القيادة الفعلية للعلماء والفقهاء ومجلس الشورى الذي يمثل أهل الحل والعقد ممن شهدت لهم جموع المرابطين بأنهم أهل لذلك كانت حساباتهم دقيقة، وفتاويهم موزونة، ومعاركهم مدروسة.

أما قتالهم لبرغواطة، وغمارة، ذات المعتقدات الكُفرية والانحرافات العقدية

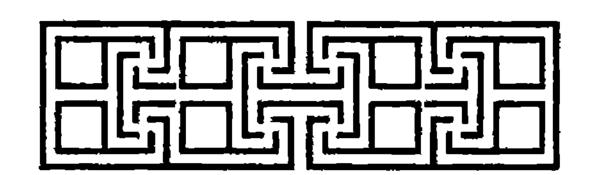
---

(١) صحيح مسلم رقم (٥٠، جـ١ / ٧٠)

فهذا يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية عندما وقفوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها، وبدلت بأصول سنية زكية بهية.

كما لاحظت أن للعلماء شبكة عملية للاتصال والتشاور ووضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام في الشمال الإفريقي، حيث نجد أن الإمام أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط العريضة والإرشادات النافعة لدولة المرابطين، ثم وجه الأمير يحيى بن إبراهيم إلى موقع من مواقع حلقة الاتصال الواسعة بين العلماء ليرسل قائد تلك الجهة وهو ابن وجاج مع الأمير يحيى أحد الأفراد الذي يتوسم فيهم ذكاءً ونجابةً وصلاحاً وتفوقاً للدعوة في قبائل صنهاجة، وكان اختيار ابن وجاج في محله.

كما أن علماء سلجماسة كانوا ضمن شبكة من شبكات التعاون بين فقهاء أهل السُّنَّة، فهم الذين شجعوا جيوش المرابطين لتوحيد الديار المغربية تحت لواء دولة سُنِّية.



المبحث السادس

مرحلة التمكين والتوسع لدولة المرابطين

القائد الرباني يوسف بن تاشفين

(٤٠٠-٥٠٠ / ١٠٠٩هـ-١١٠٦م)

تمهيد :

قد علمت بأهم المراحل في فقه الدعوه إلى الله التي مر بها الإمام ابن ياسين حيث نجده نجح نجاحاً عظيماً في تنفيذ مرحلة التعريف والتكوين والتنفيذ واستشهد في مرحلة التنفيذ وتولى القيادة في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الذي سار على نفس المنهج الذي رسمه ابن ياسين.

واستمر في فتح مدن المغرب إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف ودخل بالباقي نحو الجنوب داعياً ومجاهداً ومصلحاً واستمر في فتوحاته حتى استشهد - رحمه الله - وتولى الأمر بالكلية القائد الرباني ابن تاشفين الذي أنهى مرحلة التنفيذ وانتقل إلى مرحلة التمكين.

[أ] نسبه :

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي وأمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين. وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة، واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي فنما عزيزاً كريماً في قومه.

قال عنه المؤرخون من أمثال أشياخ: «خلق الزعامة» [١].

ملك له الشرف العلي من حمير ... وإن اتهموا صنهاجة فهم هم [٢]

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، (ص ٦٥).
(٢) وفيات الأعيان (جـ٧ / ١٣٠).

كان يوسف أسمر اللون نقيه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجبين، أجعد الشعر [١] .

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم، وبين أبدع المواهب، كان بطلاً شجاعاً، نجداً حاذقاً، جواداً كريماً، زاهداً في زينة الدنيا، عادلاً متورعاً، متقشفاً لباسه الصوف، وطعامه خبز الشعير ولحوم الإبل وألبانها [٢] كان عزيز النفس كثير الخوف من الله .

كان يحب الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت ما عدا الذين يرتكبون الخيانة في حق الدين ، فلا مجال للعفو عنهم [٣] .

ربته الأحداث وصاغت من شخصيته قائداً فذاً وبرهنت الأيام على أن له مقدرة على فهم واقعة قادراً على النهوض بقومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل .

تلقى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المحدثين والفقهاء، ونما وترعرع وتربى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين، ونبغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام، وسنرى ذلك بإذن الله في بحثنا هذا.

تذكر كتب التاريخ أنه تزوج زينب النفروية بعد أن طلقها ابن عمه أبو بكر ابن عمر عندما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح، فقال لها : أنت أمرأة جميلة بضة، لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإني مطلقك فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين، وتزوجها يوسف بعد تمام

---

(١) دولة المرابطين(ص ٣٦) .

(٢) انظر : الروض القرطاس(ص ٨٧) .

(٣) دولة المرابطين(ص ٣٦) .

عدتها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة بارعة الحسن حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي سديد ومعرفة بإدارة الأمور، فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة واعتبرتها من خيرة نساء دولة المرابطين، وتوفيت (عام ٤٦٤هـ-١٠٧١م) .

وتزوج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تدعى قمر ، ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئاً ، ويقال: هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد، وأمير الأندلس والمغرب بعد والده.

وتزوج يوسف امرأة تسمى عائشة وأنجبت له الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد بن عائشة، ورزق يوسف مجموعة من الذكور والإناث بكرهم تميم الذي توفي غداة معركة الزلاقة وكان والياً على سبتة، وعلي الذي تولى الإمارة بعده، وإبراهيم ومحمد الذي كان أحد القادة البارزين في جيش والده وأما بناته فهما: كونة ورقية [1] .

[ب] المراحل العسكرية التي مر بها يوسف في الجيش المرابطين:

﴿ ١ ﴾ (٤٤٨ ـ ٤٥٢ هـ / ١٠٥٦ ـ ١٠٦٠م) :

كان في هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقى الأوامر وينفذها بكل نجاح، وكانت هذه المرحلة غنية بالتجارب والخبرات التي شحذت ذهنه وأهلته للمرحلة التالية ، فكأنها كانت ممارسة للسلطة، والاطلاع على خفاياها دون تحمل المسئولية، استطاع بعدها تسلم الإمارة والقيام بكل الأوامر التي وكلت إليه بكل همة ونشاط دون تردد، وقاد المرابطين إلى النصر في ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف.

وظهر نجم يوسف للمرابطين في معركة الواحات ٤٤٨هـ-١٠٥٦مالتي كان

---

(١) دولة المرابطين (ص ٣٨).

فيها قائداً لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، وبعد فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر والياً عليها فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة ثم سار إلى تارودانت قاعدة بلاد السوس وفتحها، وكان بها طائفة من الشيعة البجليين نسبة إلى مؤسسها علي بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الشيعة وتحول من بقي منهم على قيد الحياة إلى السُنة .

ثم جاء دور أغمات ، كانت مدينة مزدهرة حضارياً إذ كانت إحدى مراكز النصرانية القديمة ومقراً للبربر المتهودين، كان يحكمها الأمير لقوط بن يوسف بن علي المغراوي.

تلقى يوسف التعليمات من الأمير أبي بكر بالزحف نحوها ومهاجمتها ودكها، ودخل المرابطون المدينة ٤٤٩هـ-١٠٥٧م.

وسار المرابطون وفي جملتهم يوسف نحو دولة براغوطة «الدولة الكافرة الملحدة» ونشبت المعارك بين الفريقين، وأصيب خلالها الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على أثرها كما علمت في ٤٥١ هـ-١٠٥٩م.

كان استشهاد الإمام الفقيه عبد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

إذ أن جانب الإمامة يغلب على جانب الإمارة في عهد الإمام ابن ياسين، وبعد وفاته تولى أبو بكر بن عمر، فرجح جانب الإمارة على جانب الإمامة وأخذت الدولة الناشئة تتحول إلى طابع سياسي جديد ومرت بها ظروف تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلى الصحراء وأناب ابن عمه يوسف على المغرب ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم الناس بزعامته وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكتاب والشهود، وأشهدهم على نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إني قد وليتك هذا الأمر وإني مسئول عنه فاتق الله في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمر رعيتك شيئاً فإنك مسئول عنهم، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم» [1].

ويحلو لبعض الكتاب من المؤرخين أن يفسر هذا الإيثار والتنازل عن الملك بأن أبا بكر خشي من سطوة يوسف الذي أظهر له عدم استعداده عن التنازل عن الملك وسيرة الرجلين من الصلاح والتقوى تنافي ادعائهم الباطل.

﴿ ٢ ﴾ فتح المغرب الأقصى الشمالي ٤٥٤هـ ـ ٤٧٧هـ :

قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشمالي لينتزعه من أيدي الزناتيين واستخدام من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين مستفيداً من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فاس صلحًا عام ٤٥٥هـ ، ثم تمرد أهلها عليه إلا أنه ا ستطاع إخماد كافة الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمر، حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م .

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مئة ألف جندي عام ٤٦٢هـ / ١٠٦٩م ، فقضى على شوكة مغراوة وبني يفرن وسائر زناتة، ونظم

---

(١) انظر : روض القرطاس ،(ص ٨٦) .

المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام ٤٦٣هـ إلى بلاد ملوية وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة [١] .

﴿ ٣ ﴾ لقب الإمارة :

بعد هذه الانتصارات الناجحة استدعى شيوخ وأمراء المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغمارة، وأكرمهم وبذل لهم العطاء وأحسن إليهم، وبايعوه على الإمارة وخرج بهم يطوف في أقاليم المغرب يتابع الأمراء ويحاسب الولاة وينشر العدل ويرفع المظالم فهابته النفوس، واقتنعت أنها أمام رجل دولة عبقري فذ.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (٤٦٥هـ / ١١٧٢م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان وفي عام (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) استولى على جبل غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا وجعلها حداً فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق، وأبعد عن المغرب كل من ظن فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصاً له مرتاحاً إلى طاعته مطمئناً إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغراً منيعاً بينه وبين زناتة ولذلك اعتبر المؤرخون عام (٤٦٧هـ / ١٠٧٤م) فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى والشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

وسير يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشاً من اثني عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفاً من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠هـ وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب بن سكوت على رأس جيس وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت [٢] وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف

---

(١) روض القرطاس (ص ٩١) ، العبر (٦ / ١٨٥) .

(٢) انظر : دولة المرابطين (ص ٥٠) .

توسعه نحو الشرق لمطاردة زناتة التي لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تهدد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلي بن يعلي المغراوي الذي قتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش ، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي يحكمها بنو حماد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعاً لا يزال إلى اليوم ويعرف بالجامع الكبير.

وعاد إلى مراكش عام ٤٧٥هـ / ١٠٨١م وبذلك توحد المغرب الأقصى بعد جهاد استمر ثلاثين عاماً، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، وفي عام ٤٧٦هـ /١٠٨٣م وجه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سبتة لفتحها إذ كانت المدينة الوحيدة التي لم تخضع له، كان يحكمها بعد وفاة الحاجب سكوت ابنه ضياء الدولة يحيي، فحاصرها المعز براً وبحراً ودارت معركة بحرية كانت طاحنه ، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفتحوا سبتة، وقتل ضياء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه، وكان ذلك عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م[١] ، بعد هذه الجولة الجهادية الموفقة تم توحيد المغرب الأقصى بكافة نواحيه بعد عمل جاد مستمر، وأصبحت الدولة المرابطية قوى لا يُستهان بها تُشكل خطراً على النصارى في الأندلس، وملجأ وحصناً أميناً للمسلمين في الأندلس، حيث إن النصارى استفحل خطرهم في الأندلس، حيث قامت دويلات في كل مدينة

---

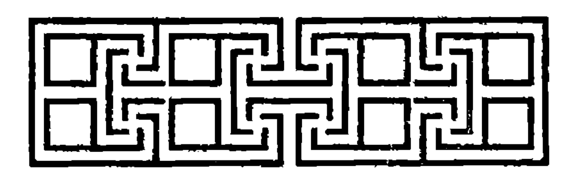
(١) انظر : الاستقصار (١/ ١١١) ، وانظر : دولة المرابطين (ص ٥٣) .

وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها، وعرف حكامها بملوك الطوائف وتلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

لقد آلت أوضاع الأندلس إلى السوء، وأصبحت لا حول لها ولا قوة مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المسلمين، وقد شنوا حرباً لا هوادة فيها نابعة من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين، وتهدف إلى طردهم من إسبانيا، وبدأت هذه الحرب بدافع الحقد الصليبي وأضافوا إليها مع مرور الأيام عامل القومية وأطلقوا عليها حرب الاسترداد [(١)] .

ولم تكن للمقاومة الإسلامية في الأندلس القدرة على إيقاف المد الصليبي الزاحف للخلاص من المسلمين ، فاضطر أهل الأندلس إلى طلب العون من المرابطين .



---

(١) **انظر** : دولة المرابطين(ص٥٩) .

الفصل الثاني

المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس

تمهيد :

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ ، وبدأ عصر الخلافة الأموية في الأندلس سنة (٣١٦هـ / ٩٢٩م) عندما أعلنها عبد الرحمن الناصر، الذي اشتهر بالحزم والذكاء والعدل، والعقل والشجاعة وحبه للإصلاح وحرصه عليه.

ووحد الأندلس بالقوة والسياسة وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها ، حارب المتمردين من حكام الشمال الإسباني وأخضعهم لشروطه .

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية، وظهور الدولة العبُيدية في الشمال الإفريقي، فأعلن الخلافة، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله [١] وفي عام ٤٠٠هـ /١٠٠٩م بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، الذي دام حتى عام ٤٨٤هـ / ١٠٩١م .

وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم، وسعي بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسياً في ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتقف صفاً واحداً أمام أعدائها .

لقد انقسمت الأندلس إلى دويلات واتخذ حكامها ألقابهم تبعاً لحجم دويلاتهم فإحدهم: ملك أو أمير، والٍ أو قاض.

ونظراً لاختلاف القوى والرياسات، فقد أخذ القوي يبطش بالأضعف،

---

(١) انظر : في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد العبادي ،(ص ١٦٨ إلى ١٧٠)

والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحياناً يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ.

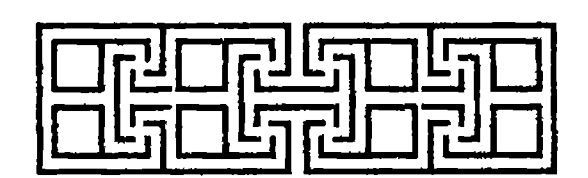
وتكونت من هذه الدويلات العديدة أربع دول رئيسية :

﴿١﴾ في جنوب الأندلس، حكم الأدارسة الإفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة ، فضلاً عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب.

﴿٢﴾ بنو عباد أمراء إشبيلية، أقوى ملوك الطوائف، ومن حلفائهم بنو جهور في قرطبة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأندلس.

﴿٣﴾ بنو ذي النون أمراء طليطلة، الذين حكموا أواسط إسبانية، والذين وقفوا في وجه بني عباد، وكلفهم ذلك دفع جزية لملك قشتالة النصراني التماساً لعونه ضد خصومهم.

﴿٤﴾ بنو عامر في بلنسية ومرسية الذي حكموا في شرقي إسبانية، وطبقاً لظروفهم، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد، أو بني ذي النون تارة أخرى.. بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصب نهر أبرة سنة ١٠٥١م [١].



(١) **انظر** : الزلاقة ، شوقي أبو خليل(ص ١٢) .

المبحث الأول

الصراع بين طليطلة وقرطبة

عندما تولى المأمون يحي بن ذي النون عام ١٠٤٣م، إمارة طليطلة اغتنم عون حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر، واستأجر الفرسان النصارى من القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة، فتدخل بنو عباد أصحاب إشبيلية، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس للوقوف ضد صاحب طليطلة الذي كان يهددهم جمعياً، وسار أمراء لبلة وولبة وجزيرة شلطيش إلى الانضمام إلى الحلف الذي تزعمه صاحب لبلة عبد العزيز اليحصبي ليعقد محالفة مع قرطبة.

تحرك الجميع تطبيقاً لهذا التحالف لإنجاد قرطبة، فانتهز ابن عباد أمير إشبيلية هذه الفرصة واكتفى بإرسال خمسمائة فارس إلى ابن جهور، وزحف في جيش قوي على لبلة، وولبة وجزيرة شليطش وأكسونية واستولى عليها، ثم فتح قرمونة سنة ١٠٥٣م طالت الحرب بين طليطلة وقرطبة، ودامت أعواماً، وكانت سجالاً، وأراد المأمون صاحب طليطلة حسم الموقف، فأوقع بقوات قرطبة وحليفاتها هزيمة شديدة، واستطاع الوصول إلى قرطبة فحاصرها، فبادرت إشبيلية إلى إغاثتها، فأرسل ابن عباد ابنه محمداً على رأس جيش قوي فيه وزيره أبو بكر محمد بن عمار الموصوف برجاحة عقله وشدة ذكاءه وزودهما بخطة وأوامر سرية خاصة.

واستطاع جيش ابن عباد أن يفك الحصار على قرطبة واضطر الطليطليون لرفع الحصار وارتدوا عنها، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم فأتموا بذلك هزيمة الطليطليين [١].

ونفذت خطة ابن عباد السرية وكان محتواها دخول قرطبة عندما يخرج منها

---

(١) انظر : الزلاقة، (ص ١٤) .

أهلها خلف الطليطليين، ودخلتها قوات ابن عباد دون معارضة، واحتلت مراكزها الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن من جاء لنصرتهم غدر بهم، وبذلك سقطت دولة بني جهور في قرطبة ولم يمض على قيامها ثلاثون عاماً في محنة محزنة وخيانة فظيعة، وأصبح ابن عباد أمير إشبيلية التي نمت نمواً سريعاً وبخاصة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة المرية ودانية، فحاول التحالف مع صهره زوج ابنته عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذي رفض ذلك محتجاً بأن وقوف العامريين إلى جانب إشبيلية يجعل إقدامه على هذا التحالف خطراً على بلنسية، فما كان من المأمون إلا أن عقد حلفاً مع فرديناند الأول صاحب قشتالة.

وهجمت القوات المشتركة المتحالفة «قوات المأمون وفرديناند الأول» على بلنسية، فسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون في تشرين الأول سنة ١٠٦٥م عاد بعدها إلى طليطلة ليجهز قواته مع فرديناند سنة (١٠٧٠م) ، فهرب أخوه ألفونسو إلى المأمون صاحب طليطلة والتجأ أخوه الثاني جارسية إلى المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، وفي سنة (٤٦١هـ / ١٠٦٩م) وتوفي المعتضد بن عباد أمير إشبيلية ، فخلفه ابنه الملقب بالمعتمد على الله، ولم يكن أمام الأمير الجديد ما يخشاه إلا أمير طليطلة الذي ملك بلنسية في الوقت نفسه، أما بقية ملوك الطوائف فقد انكسرت شوكتهم وتزعزع كيانهم في حروبهم الداخلية ومن غزوات النصارى المتتابعة عليها.

واستطاع المأمون حاكم طليطلة أن يتوسع ويحقق انتصارات واسعة سنة ١٠٧٣م على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى، وبهذا أصبح الأمير الأقوى الذي يسيطر على أواسط إسبانية كلها، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة «شانجة» وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق.

وأصبح أمير إشبيلية في خوف من توسع أمير طليطلة الذي فجأ المعتمد بتحالفه مع بني هود أصحاب سرقسطة وبني الأفطس أصحاب بطليوس وهاجم خصمه من ثلاث جهات لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة، فسقطت دون مقاومة تذكر سنة ٤٦٨هـ ، ولكن المأمون توفي بعد دخولها بأيام قلائل فرجع جنده عنها إلى طليطلة، واسترد ابن عباد قرطبة، وبقيت إشبيليية تحت ابن عباد حتى دخلها عليه المرابطون سنة ٤٧٤هـ .

وأرسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذٍ وتحالف مع ألفونسو، وتعهد بها ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وتعهد بألا يتعرض مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة، وهكذا ضحى ابن عباد بمعقل المسلمين إسبانية المسلمة، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد، وهي إمارات غرناطة وبطليموس وسرقسطة [١].

واستفاد ألفونسو من هذه الاتفاقية وأعلنها حرباً لا هوادة فيها على طليطلة التي حمته من مطاردة أخيه سانشو ونسي الأمير الطموح للتوسع كل عهوده ومواثيقه وشرع في غدره بمن أحسن إليه.

وتحرك المعتمد بن عباد بجيشه نحو غرناطة ليضمها إلى سلطانه وكان حاكمها عبد الله بلكين بن باديس، وكان ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول ملك أرجون، فلم يستطع إنجاد طليطلة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو، ولكن ألفونسو الذي كان قد أثخن في ولاية طليطلة، حتى صيرها قفراً بلقعاً، شعر باقتراب المنصور، فانسحب ولكنه كرر الرجعة في العام التالي فعاث في

---

(١) انظر : الزلاقة ، (ص ١٧) .

بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى، وزحف المتعمد على بطليوس، وبهذا استطاع أن يحول دون معاونة بني الأفطس لطليطلة حيث القادر بن ذي النون، ولم يستطع أمير سرقسطة من بني هود «المؤتمن» معاونة القادر معاونة قوية ، خشية أن تقع سرقسطة ذاتها فريسة لابن عباد أو النصارى، وهو في جهاد ضد أرجون وبرشلونة، واستمرت الحرب أعواماً، وألفونسو يفسد في بلاد المسلمين «طليطلة» ومن حولها فساداً.

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨هـ الخامس والعشرين من أيار «مايو» سنة ١٠٨٥م استطاع أن يدخل طليطلة «عاصمة القوط القديمة» ودخلت طليطلة بذلك إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً، واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانية النصرانية.

وهكذا انتهت دولة ذي النون في طليطلة لتستمر في بلنسية [١].

تأثر المسلمون بسقوط طليطلة تأثراً عميقاً على كافة الساحة الإسلامية في الأندلس، وتفجرت قريحة الشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد، والتحذير من تفاقم الخطر، ومما قيل في قول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن عسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حشو مطيتكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات في سفط [٢]

---

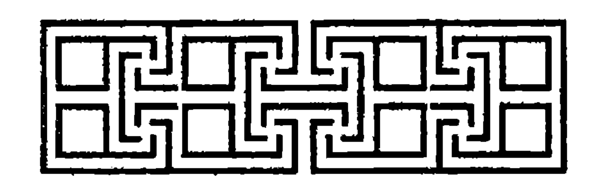
(١) انظر : الزلاقة(ص ١٨) .
(٢) وفيات الأعيان(جـ ٥ /٢٨) .

ومن ذلك أيضاً:

يا أهل أندلس ردوا المعار فما ... في العرف عارية إلى مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه ... وشاهنا آخر الأبيات شهمات [١]

لقد كانت روما تقف بكل ما تملك من قوة معنوية ومادية خلف ألفونسو وجنوده للقضاء على المسلمين، وأسبغوا على قتال المسلمين صفة الحرب الصليبية المقدسة وأصبح البابوات لهم دور في توجيهها.

وندم المعتمد بن عباد على فعلته خصوصاً عندما رأى ألفونسو يتوسع في ضم ممالك المسلمين إليه، وأيقن أن الدائرة عليه قادمة، واجتمع أمراء المسلمين عندما رأوا أن شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو وإذا كانت قواتهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين في إفريقية واستدعائهم إلى الأندلس، علماً بأن ملوك الأندلس كانت ترهب الفرنج بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين، وكانت له شهرة تطايرت في الآفاق لما حققه من ضم دول إلى دولته وقضائه عليها ، اشتهر بين الناس أن لأبطال الملثمين في المعارك ضربات بالسيوف تقد الفارس وطعنات تنظم الكلى، فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم [٢].



(١) **انظر** : الزلاقة (ص ١٩) .
(٢) وفيات الأعيان (جـ٧ / ١١٤) .

المبحث الثاني

أسباب ضعف المسلمين في الأندلس وقوة النصارى

أولاً: ضعف العقيدة الإسلامية والانحراف عن المنهج الرباني وهذا السبب هو الأساسي.

ثانيا: موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم:

حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه، فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧)** ﴾. [المائدة: ٥٧].

وقوله عز وجل: ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبراء، فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله**» [1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسند (جـ٤ / ٢٨٦).

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ: «**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب**» [١] .

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسُنَّة نبيها وتخالفه ، فلا بد أن تُرى فيها سُنَّة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فحين تجد أن المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، نراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة، وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب [٢] .

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى إن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام، فهل يؤمن الذئب على الغنم!! [٣] .

ثالثاً: السبب الثالث الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد:

إن الأمة التي تركن إلى الدعة والترف واللهو، وهي غالبة قاهرة يجب أن تُعد غير مستحقة للريادة والقيادة، فما بالك بأمة تغرق في اللهو والدعة والترف، وهي لا تدري إن كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها ، أم أنه لا يزال ينتظر تلك اللحظات؟!.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح، والاسترسال بالشهوات» [٤] .

---

(١) البخاري ، فتح الباري ، كتاب الرقائق ، باب (٣٨ ، رقم ٦٥٠١) .
(٢) انظر : تاريخ الأندلس ، (ص ٣٩٠) ، د . عبد الرحمن الحجي .
(٣) سقوط الأندلس ، د . ناصر العمر ، (ص ٢٤) .
(٤) مصرع غرناطة ، (ص ٩٣) .

إن المؤرخين رأوا: « أن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، ناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي ، من أبرز المميزات أيام الاضمحلال لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة ، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد » [١] .

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور « الله أكبر » وبقوا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه الخمر ليشرب قال إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه » [٢] .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس:

« كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخصية، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حُبَّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم » [٣] .

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

ووزن العود وهات القدحا   راقت الخمرة والورد صحا

وعند قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦ هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلي :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم   حلل الحرير عليكم ألواناً
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها   لو لم يكن ببطرنة ما كانا [٤]

---

(١) مصرع غرناطة ، (ص ٩٣) .
(٢) سقوط الأندلس (ص ٢٧) .
(٣) **انظر** : التاريخ الأندلس ، (ص ٢١١) .
(٤) **انظر** : النصر والهزيمة (ص١٢٢) .

ضعف المسلمون في الأندلس وسلب كثير من ديارهم لما تنافس الولاة والحكام من أجل إسعاد زوجاتهم وجواريهم بالباطل.

وإليك ما فعله المعتمد مع إحدى زوجاته : اشتهت زوجة المتعمد بن عباد أن تمشي في الطين وتحمل القرب فأمر المعتمد بن عباد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران وتحمل قرباً من طيب المسك وتخوض فيه تحقيقاً لشهواتها !!.

ولكن الله المعز المذل ، أراد أن تنقلب الأمور على المعتمد، فيؤخذ أسيراً في أغمات وتبقى بناته يغزلن للناس يتكسبن ، **وفي ذلك يقول المعتمد وهو شاعر مجيد:**

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً   فساءك العيد في أغمات مأسوراً
ترى بناتك في الأطمار جائعة   يغزلن للناس ما يملكن قطميراً
برزن نحوك للتسليم خاشعة   أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية   كأنها لم تطأ مسكاً وكافوراً
من بات بعدك في ملك يسرُّ به   فإنما بات بالأحلام مغروراً (١)

وصدق الحبيب ﷺ المؤتي جوامع الكلم إذ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم**» (٢) .

رابعاً: إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على أثر ذلك عهد السنوات العصاب، كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحد فأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

(١) نفح الطيب، (جـ٤ / ٢٧٣ ، ٢٧٤) .
(٢) أخرجه أبو داود، كتاب البيوع، باب (٥٦ ، ت / ٥٤ م) .

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد [١]

وكما قال الآخر:

وتفرقوا شيعاً فكل محلة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام : «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه» [٢] .

ويقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام:

«وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم معه مصالح الأمة، وتُركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخُلُقي السليم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف ، الذي به كانت الأندلس وحضارته».

خامساً: الاختلاف والتفرق بين المسلمين:

كان الاختلاف والتفرق سمة من سمات عصر ملوك الطوائف، وكان بعضهم يستعدي النصارى على إخوانه ويعقدون مع النصارى عهوداً وأحلافاً ضد إخوانهم في العقيدة، ومن أجل شهوة السلطة تراق على أرض الأندلس دماء المصلين، **حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:**

---

(١) سقوط الأندلس ،(ص ٣١) .

(٢) التاريخ الأندلسي ، د . عبد الرحمن الحجي ،(ص ٣٢٥) .

مـا بـال شـمـل المسلمين مـبـددُ فـيـهـا وشـمـل الضـد غـيـر مـبـدد
مـاذا اعـتـذاركم غـداً لـنـبـيـكـم وطريق هذا الغـدر غـيـر ممهـد
إن قـال لـم فـرّطتم في أمـيـت وتركـتـمـوهم للعـدو المعـتـدي
تـالله لـو أن العـقـوبة لـم تـخـف كفى الحيا من وجه ذاك السيد [١]

ولما سقطت طليطلة كان من العجيب أن بعض ملوك الطوائف وقفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلة وكأن الأمر لا يعنيهم فاغرين أفواهم جبنًا وغفلة وتفاهة، بل إن عدداً منهم كان يرتمي على أعتاب ألفونسو ملك النصارى طالباً عونه أو عارضاً له الخضوع، بذلة تأباها النفوس المسلمة، تغافلوا على أن ألفونسو لا يفرق بين طليطلة وغيرها من القواعد الأندلسية، لكن العجب يزول إذا تذكرنا نزعتهم الأنانية والعصبية [٢] .

سادساً: تخلي بعض العلماء عن القيام بواجبهم:

لا شك أن حياة الأمة في حياة علمائها فهم تاجها ومنارتها وهم روحها ومادة حياتها، فكلما كان علماء الأمة ربانيين كان أمر الأمة في طريقة نحو العزة والرفعة والكرامة، وكلما ابتعد العلماء عن الربانية وتثاقلت نفوسهم إلى الأرض وحرصوا على مصالحهم الذاتية خبا نور الأمة، ودب في الأمة الضعف والجهالة.

«فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها» [٣] .

وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم رحمه الله: «ولا يغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل

(١) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، (ص ٣٣).
(٢) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، (ص ٣٤).
(٣) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، (ص ٣٥).

الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم» [١] .

ولا ننسى دور العلماء الربانيين الذين قاموا بجمع شتات الأمة الممزق، وبذلوا وسعهم في ذلك من أمثال أبي الوليد الباجي، وأبي محمد بن حزم، وأبي إسحاق الإلبيري وغيرهم، عليهم رحمة الله وبركاته.

سابعاً: عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي، «فرفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال داثرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في باطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب» [٢] .

لم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة، ولم تنفعهم نصائح العلماء حتى حلت بهم مصيبة وكارثة ألا وهي سقوط طليطلة.

ثامناً: مؤتمرات النصارى ومخططاتهم:

استطاع النصارى أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرنادو ملك قشتالة.

---

(١) مجموع رسائل ابن حزم (جـ٣ / ١٧٣) .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني، القسم الثاني (ص ٩٥) .

تاسعاً : وحدة كلمة النصارى :

في الوقت الذي كان المسلمون في الأندلس يعانون من التفرق والشتات، كان النصارى في وحدة كلمة وتراص صفٍّ في مواجهة أمة الإسلام في الأندلس.

عاشراً: غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عباد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم (١).

قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)** ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض، وقتل النفوس وسبي النساء.

قال تعالى: ﴿ **لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)** ﴾ .

[التوبة: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾ .

[البقرة: ١٢٠].

لقد استمات النصارى في حربهم للمسلمين ، فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

الحادي عشر: التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة :

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ : «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**» (٢) .

---

(١) سقوط الأندلس ، (ص ٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٢) ، مع الفتح (جـ٥ / ١١٦) .

وقوله ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان ، يشد بعضه بعضاً**» (١) .

لقد تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث في طليطلة.

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

« قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحَمَوْها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته ، وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمل ذليل المكان مهزوز القواعد » (٢) .

فهذه مجموعة من الأسباب التي أدت إلى الحالة التعيسة التي آلت إليها الأندلس. وعندي أن من أعظم الأسباب في خذلان الأمة ابتعادها عن منهج ربها وضياع عقيدتها وتربيتها على الرفاهية والدعة ، وترك الجهاد في سبيل الله. ولذلك عندما تربى المرابطون على معاني الجهاد في سبيل الله ومنهج أهل السُّنَّة وفقهم الله لإقامة دينه وإعزاز سُنة نبيه ونصرة إخوانهم في الدين.

إن الجهاد من أعظم الدروس فلما وجد في الأندلس بقيت الأمة في عزة ومنعة ومهابة، ولما فقد أصبحت الأمة مطمعًا لكل جبار عنيد أو متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، قال رسول الله ﷺ : «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد**» (٣) .

وقال ﷺ : «**لغدوة في سبيل الله أو روحة ، خير من الدنيا وما فيها**» (٤) .

---

(١) البخاري مع الفتح ، كتاب المظالم رقم (٢٤٤٦ ، جـ٥ / ١١٧)

(٢) **انظر** : التاريخ الأندلسي .

(٣) الترمذي ، باب الإيمان ، باب (٨) رقم (٢٦١٦)

(٤) البخاري مع الفتح رقم (٢٧٩٢ ، جـ٦ / ١٧)

المبحث الثالث

العالم في زمن ظهور دولة المرابطين

كانت أوروبا يتحكم فيها الإقطاعيون في حالة همجية بعيدة عن التحضر ، ومعالم الحضارة والمدينة .

وكان العالم الإسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين، فظهر ملوك الطوائف في بلاد الأندلس، واستطاع السلاجقة أن يطهروا العراق من بني بوية، والعبيديون حكموا مصر، وبنو حماد في المغرب الأوسط، والمعز بن باديس وأحفاده في المهدية .

وتوسع المرابطون وشملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمالي إفريقية « جزء من الجزائر والريف في المغرب » وضربت جذورها في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال، فرفعوا راية الإسلام في تلك الأماكن البعيدة .

وكان المشرق الإسلامي في ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية حيث أمر الخلافة في بغداد مهتز، والخليفة معرض للخطر، ولا يملك من أمر الخلافة شيئاً وإنما هو رمز تحكم فيه البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة، أما العبيديون في مصر فتحالفوا مع الإفرنج من أجل مصالحهم وأطماعهم، فكان أمر المسلمين في غاية الخطورة حتى قيض الله لأهل المشرق نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي الذين قاما بدور عظيم في القضاء على النصارى والعبيديين ودحرهم، وفي هذه الظروف الصعبة والعصيبة ، شاء الله أن تخرج دولة المرابطين السنية لتكون سداً منيعاً ضد أطماع النصارى في الأندلس، ولتحمي الشمال الإفريقي من غاراتهم وأطماعهم إنه تدبير العزيز العليم .

لقد أكرم الله تعالى المرابطين وجنودهم بالدفاع والذود عن الإسلام والمسلمين وعن أعراضهم وأموالهم وعقائدهم التي لا تقدر بثمن .

وأعـز الله الأمـة بهـم في زمن عـصـيب ورفع الله بهـم لواء الإسـلام في المغـرب والأندلس.

واستطاعوا بجهودهم الجهادية أن ينقذوا إخوانهم في الدين من ظلم النصارى وحـقـدهـم الدفين، ويكبلوهـم هزائـم عـسـكرية أصـبحت نبـراساً للأمـة على مر العصور ومر الدهور.

أولاً: تكالب النصارى على المسلمين وأطماع ألفونسو التوسعية:

بعـد سـقـوط طليطلة بيـد ألفـونسـو، بدا له أن كل شيء ممكن وعـمـل على توحيد جهـود النصارى، واتفقوا على سحق دولة الإسلام في الأندلس، معتقدين أن قدرتهم تكفيهم لأداء هذه المهمة المقدسة لديهم.

وترك النصارى خصوماتهم الداخلية، وتوحدت مدنهم، وكونوا جيشاً ضخماً واحتلوا مدينة «قورية» من بني الأفطس، ووصلوا إلى ضواحي إشبيلية، وأحرقوا قراها وحقولها وسارت فرقة من الفرسان إلى شذونة، ثم اخترقت جزيرة طريف قرب مضيق جبل طارق، كما حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين الذي وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته قلعة سرقسطة الحصينة التي يضع سقوطها منطقة الأبير «ابرة» في يد النصارى حتماً، وتصبح الشواطئ الإسبانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط عرضة لغاراتهم، يقول المؤرخ يوسف أشياخ: «وأثخن النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار إنساني مادام الأمر متعلقاً بأعداء الدين، كما يعتقدون، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة، وتلقى المؤتمن بن هود وعداً لوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة، بيد أن النصارى شددوا الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم، وخشي المسلمون سقوط المعقل المنيع، بعد أن أصبحت قواتهم وأحوالهم في حالة يرثى لها، فقد كانت حتماً دون قوى النصارى، فتطلعوا إلى عون من الخارج، فاتجهت أبصارهم إلى

قوة المرابطين المجاهدة في المغرب الأقصى» [١] .

وأصبح ألفونسو اللعين يضغط على ممالك المسلمين الكبرى المجاورة له أي مملكتي بطليوس وإشبيلية فأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يسلم إليه القلاع والحصون المجاورة لحدوده مع تأدية الجزية، وضعف مسلمو الأندلس أمام هذه الضربات الماكرة، وأصبح سقوط الممالك قاب قوسين أو أدنى، وظل حكام الممالك منغمسين بملذاتهم وفسادهم، يحاربون أنفسهم ويحالفون النصارى ضد إخوانهم، ويؤدون لهم الجزية مقابل بقائهم على عروشهم التي تزعزعت أمام ضرباتهم، واستخدام ملوك الطوائف المرتزقة من النصارى لحماية أنفسهم بعد أن فقدوا الأمل في شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجورهم وتعسفهم، وجعل الله بين أمراء الطوائف من التنافس والتدابر والتقاطع والتحاسد والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات والعشائر المتغايرات، فلم تصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم [٢] ، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأى من أمرائه التخاذل والخيانة حتى كاد هذا الشعب الصابر يفقد القدرة على القتال بما كان يرهقه حكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارى، وأصبح بين حاكم مبتز وعدو متربص، فقد ارتقى عرش إسبانيا النصرانية ألفونس السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في احتلال الجزيرة الإيبرية وعادت حرب الاسترداد قوية على يده، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها سبع سنوات حتى سقطت بيده في ٢٥ أيار ١٠٨٥م مستهل صفر ٤٧٨هـ ، وقد أحدث سقوطها دوياً هائلاً في العالم الإسلامي الغربي، وبات المسلمون في حال من الضياع التام [٣] لا يعرفون كيف يتصرفون وبدأوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونس، وأصبحت مملكة

---

(١) **انظر** : الزلاقة (ص٣٢) .

(٢) **انظر** : أعلام الأعلام ، تحقيق د . عبادي (ص ٢٤١) .

(٣) دولة المرابطين (ص ٦١) .

طليطلة خالية من السكان الذين هجروها إلى بطليوس هرباً من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم، ورأى ألفونس أن زمام الأندلس أصبح في يده، فضاعف غاراته على جميع البلاد وتساقطت المدن والقرى بين يدي اللعين الحقود وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون، والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، فرد المتوكل بشجاعة ونبل معلناً تحديه، وفي هذه الرسالة معانٍ عميقة وفهم دقيق للموقف الحرج الذي أصبح فيه المسلمون حيث قال المتوكل... » ولو علم - أي ألفونس - إن لله جنوداً أعز بهم كلمة الإسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ وأعزه على الكافرين... وأما تعييرك للمسلمين فيما وهى من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك سترى أي مصاب أذقناك كما كان أبوك يتجرعه... وبالأمس كانت قطعية المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه » [١] .

وأرسل المتوكل قاضيه العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على حواضر الأندلس يدعو إلى لم الشعث وتوحيد الكلمة، ومدافعة العدو، ولكن مهمة القاضي لم تكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء، وانهيار مقومات الدولة، وتخاذل الشعب فرضت على الحكام استرضاء العدو، عندئذٍ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين [٢] ويصور له محنة الأندلس ويستنصره [٣] ، « لما كان نور الهدى أيدك الله دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائم، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعي لما عضل الداء، وتستغاث لما أحاط بالجزيرة

---

(١) دولة المرابطين (ص ٦٢) .

(٢) تاريخ ابن الكردبوس (ص ٨٨) ، عن كتاب دولة المرابطين (ص ٦٢) .

(٣) د . عدنان ، دولة الإسلام في الأندلس ودول الطوائف ، (ص ٩١ ، ٩٢) .

من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيره، وتسترضي بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا ، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب ، فيا لله ويا للمسلمين أيسطوا هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفرُ، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامي لما استبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ـ أعزك الله ـ بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليه عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركباناً ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله ﷺ إنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتساباً، وتكلف المشقة

إليك طالباً ثواباً، عولت على بيانه ووثقت بفصاحة لسانة والسلام [١] .

ثانياً: ألفونس والمعتمد بن عباد:

لقد وقع المتعمد بن عباد في أخطاء كثيرة حيث تعاهد مع ألفونس ضد أخوانه المسلمين في طليطلة مقابل أن يسمح له ألفونسو بأخذ ممالك ممن حوله إلا أن النصارى كما علمت لا عهود لهم ولا مواثيق، فأراد ألفونس أن يجد مبرراً لضرب الحصار على إشبيلية واحتلال قرطبة، فطلب من المعتمد حصوناً وقرى الموت أحب إليه من تسليمها ، ومارس ألفونس مع المعتمد أنواعاً من الإذلال والتجني لتخرج المتعمد عن طوره ويلغي الاتفاقية الهزيلة بين الطرفين ويجد ألفونس والنصارى ما يبرر أفعاله الانتقامية والوحشية.

فطلب ألفونس من المعتمد أن يسمح لزوجته القمطجية أن تلد في جامع قرطبة بناءً على نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم [٢] وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهودي ابن ساليب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقل أدبه إن كان له أدب، وخرج على العرف الدبلوماسي، وأغلظ في القول للمعتمد وقال :«لا تعتقدوني بسيطاً لأقبل مثل هذه العملة المزيفة لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القادمة ستكون مدناً» [٣] فأخذت المعتمد النخوة الإسلامية وصلب اليهودي، وقتل البعثة، وبذلك يكون ألفونسو قد تحصل على ما يريده وكان ألفونسو متجهاً لحصار قرطبة فلما وصل خبر البعثة أقسم بألهته ليغزون المعتمد في إشبيلية، وحرك جيوشه نحو غرب الأندلس فدمر كل القرى والتخوم التي في

---

(١)، (٢) دولة المرابطين (ص ٦٣ ، ٦٤).

(٣) المصدر السابق (ص ٦٦).

طريقة نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريق آخر ليدمر ويخرب ويقتل ويحرق ويسفك ويسبي،حتى وصل إلى جزيرة طريف أقصى جنوب الأندلس على المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً : « هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته » (١) .

ومن هنا أرسل إلى الأمير يوسف بن تاشفين: « أما بعد فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين بل الملة الإسلامية، كما أنا أمير الملة النصرانية، ولم يخف عليك ما عليه رءوساكم بالأندلس من التخاذل والتواكل، والإهمال للرعية والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار وأهتك الأستار، وأقتل الشبان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم إن أمكنك معرفة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تعالى فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً، وبلغنا عنك وأنك في الاحتفال عن نية الاستقبال فلا يدري أكان الجبن يطغى بك أم التكذيب بما أنزل عليك، فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك فإن غلبتني فتلك نعمة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا عليك واستكملت الإمارة، والله يتم الإرادة » (٢) .

فكان رد يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ على ظهر الكتاب ذاته: « الجواب ما ترى لا ما تسمع ، إن شاء الله تعالى » ، وأردف :

ولا كتب إلا المشرفين والقنا رسل إلا الخميس العرمرم(٣)

وعاد ألفونس المغرور المتكبر إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصر المعتمد بن عباد بضفة النهر، وحاصر المدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المعتمد يسأله

---

(١) المصدر السابق(ص ٦٦) .

(٢) المصدر السابق(ص ٦٦) .

(٣) تاريخ ابن الكردبوس ،(ص ٩١) .

أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب ، ولم يتحمل المعتمد هذه الإهانة فرد: «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر إليك في مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك» [١].

ترك ألفونس إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيراً، ثم أخذ بلنسية وأعطاها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة كان الخطر على الأندلس شديداً وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ إن ثمانين قشتالياً هزموا أربعمئة من المرية [٢].

ثالثاً: اجتماع علماء قرطبة:

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المعتمد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة، فجد في تقوية جيشه ورمّ الحصون والقلاع، وقرر أن يطلب النجدة من إخوانه المسلمين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونس والرضوخ لشروطه، ولكن هذا الرأي لم يجد هوى في نفس المعتمد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولي عهده وقال له: «أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يرجى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش فقد أخذ طليطلة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا».

وإن نزل علينا طليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأي أن

---

(١) الرياض المعطار، (ص ٨٠) للحميري.
(٢) تاريخ ابن الكردبوس (ص ٨٩)، نقلاً عن دولة المرابطين (ص ٦٦).

نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا، ليدافع عنا الكلب اللعين إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا وبغضتنا العامة والخاصة [١] فأجابه الرشيد يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبداً إني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم عليَّ اللعنة من على منابر المسلمين مثل ما قامت على غيري، والله خرُز الجمال عندي خير من خُرز الخنازير [٢] .

ولما انتشر رأي المعتمد بن عباد في الأندلس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد» ، وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطراً من النصارى، ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأندلسيين [٣] فأجابهم المعتمد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[٤] وأضاف: إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرين أمر الملثمين» [٥] .

وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إني في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك، ولابد لي من أحدهما، أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفيا لي ويبقيا عليَّ، ويمكن أن لا يفعلا فهذه الحالة شك.

وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأي شئ أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ حينئذٍ قصر أصحابه عن لومه [٦].

ولما عزم على طلب النصرة من المرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس

---

(١) ، (٢) دولة المرابطين (ص ٦٨) .
(٣) المصدر السابق (ص ٦٩)
(٤) ، (٥) وفيات الأعيان (٧/١١٥) .
(٦) نفح الطيب (٦/٩١)

صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة، وطلب منها أن يرسل كل منهما قاضي مدينته حتى يكونوا وفداً إلى المرابطين لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، وتشكلت البعثة من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليموس ابن مقانا وقاضي غرناطة ابن القليعي ومعهم وزير المعتمد أبي بكر بن زيدون وأسند المعتمد إلى القضاة وعظ الأمير يوسف وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره إبرام العقود، وحملت البعثة معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة (٤٧٩هـ) ، وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة الخليفة، الإمام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبارها، الشاكر لأجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها، اللائذ بحرامها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته».

كتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية في غرة جمادى الأولى (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) وإنه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، فإنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا مع ضيعتنا ، فصرنا شعوباً لا قبائل وأشتاتاً لا قرابة ولا عشائر، فقل نصرنا، وكثر شماتنا، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش وأناخ علينا بطليطلة ووطئها بقدمه، وأسر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت أيدك الله سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعت بهمتي إليك واستنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة

الإسلام وتدينون على دين محمد ﷺ، ولكم عند الله الثواب الكريم على حضرتكم السامية السلام ورحمة الله وبركاته ، ولا حول ولا قوى إلا بالله العلي العظيم [١] .

وأرسلت وفود شعبية من الشيوخ والعلماء رسائل تحث الأمير على إنقاذ الأندلس ، وتأثر المرابطون لمصاب إخوانهم في الدين، وعرض أميرهم قضية مسلمي الأندلس على أهل الحل والعقد عنده، وأجمعوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التوحيد، وكان وزير يوسف ومستشاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمن ابن أسباط ، فنصحه المستشار بأن يطلب من المعتمد بن عباد الجزيرة الخضراء لكي تكون آمنة لعبور الجيش، ولحماية خطوط التموين، وقال له : إن الأمر لله تعالى ولكم، وواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، اقتنع الأمير يوسف برأي وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء ، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن صدقت يا عبد الرحمن لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك .

وكتب ابن أسباط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه:

« بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله تعالى المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه الله من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشرع وفي كتاب الله تعالى، وإنه لا

---

(١) دولة المرابطين(ص ٧١) .

يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فاشهد على نفسك بذلك وابعث إلينا بعقودها ونحن في إثر خطابك إن شاء الله تعالى».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب؟، فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين، ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون رهن بتصرف الأمير يوسف [1]، وبعد موافقة المعتمد تجهز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة راغباً في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أماناً لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي»، وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش ومن الصحراء وبلاد الزاب ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات وكان أول من نفذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود بن عائشة وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولما ركب واستوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً

---

(١) دولة المرابطين (ص ٧٤)، مذكرات الأمير عبد الله صاحب غرناطة (ص ١٠٢، ١٠٣).

للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه » [١] .

وسهل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩هـ حزيران ١٠٨٦م وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء، ورمم أسوارها وما تصدع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ثم ساروا نحو إشبيلية [٢] .

سارع المعتمد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقًا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة دين المسلمين، وكان المعتمد محملاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المعتمد كريماً جواداً باذلاً للخير.

واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى « عسكراً نقياً ومنظراً بهياً » [٣] .

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المعتمد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة ثم قال للمعتمد : « إنما جئت ناوياً جهاد العدو حيثما كان توجهت » [٤] .

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد [٥] ، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين(ص ٧٩) .
(٢) دولة المرابطين(ص ٧٥) .
(٣) **انظر** : الحلل ،(ص ٧٩) .
(٤) دولة المرابطين(ص ٧٩) .
(٥) مذكرات الأمير عبد الله بن رير(ص ١٠٤) .

صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه، وسار الأمير الرباني والقائد الميداني نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاث مراحل من المدينة [١] وقدم لهم الهدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكرم، وأقام الأمير أيام عدة حتى يصل باقي المتطوعين إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهادي حتى حط رحاله عند سهل الزلاقة [٢] وكان يبعد عن بطليوس ثمانية أميال.

ونظم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأندلسيين جيشاً مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المعتمد بن عباد الذي تولى المقدمة، وأسندت الميمنة إلى المتوكل بن الأفطس، وجعل أهل شرق الأندلس على الميسرة، وباقي أهل الأندلس في الساقة.

أما الجيش المرابطي فتولى داود بن عائشة قيادة فرسانه، وأما سير بن أبي بكر فتولى قيادة الحشم، وبقية المرابطين مع حرس الأمير يوسف بن تاشفين إلى جانب قيادته للجيش الإسلامي ، وعسكر المرابطون خلف الأندلسيون تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه، وكان تعداد جيش المرابطين والأندلسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي [٣] وتضاربت الروايات في ذلك.

وكان ألفونسو مشغولاً بمحاصرة سرقسطة ، ولما وصله الخبر السعيد ارتبك وجزع، وطلب من المستعين بن هود حاكم سرقسطة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، فامتنع ابن هود لما علمه من وصول المرابطين وقرر ألا يساعد ألفونسو بأي مال يستعين به على قتال المسلمين.

(١) دولة المرابطين (ص ٨٠) .
(٢) وفيات الأعيان (جـ٥ / ٢٩) .
(٣) دولة المرابطين (ص ٨١) .

واضطر ألفونسو لرفع الحصار، ورجع مسرعاً إلى طليطلة وأعلن الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى من وراء جبال ألبرتات فأتته أفواج عديدة من النصارى متطاوعة من أجل الحرب المقدسة، وجند ألفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيراً أو كبيراً، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين، أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا وروديك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة أثر خلاف مع ألفونس الذي أبقى ردريك في القيادة ، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعين على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند وتولى هو القلب[1] وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته.

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبريائه، وقال قولة تدل على تجذر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى محمداً وآل محمد والأنس والجن والملائكة» [2].

وكانت جموع الرهبان والقيسيين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفاً» [3].

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتاباً جاء فيه: «إن صاحبكم يوسف قد أتانا من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً، وأمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم» [4].

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون

---

(١) انظر: الحلل (ص ٣٤).
(٢) انظر: الأندلس في عهد المرابطين (ص ٨٣).
(٣) انظر: الكامل، (جـ٦ /٣٠٣).
(٤) الروض المعطار، (ص ٨٨)، نفح الطيب (٦/ ٩٦).

مسيرهم في أرضهم ولا بد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون [١].

لقد انزعج ألفونسو من مجيء المرابطين انزعاجاً كبيراً، حيث شعر بعودة الروح المعنوية إلى أهالي الأندلس الذين كان يسومهم سوء العذاب، يقتل رجالهم ويسبي نساءهم، ويأخذ منهم الجزية، ويحتقرهم ويزدريهم، ويتلاعب بمصيرهم وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الأندلس، لتعم النصرانية في سائر البلاد، ويرتفع الصليب على أعناق العباد، و إذا بالمرابطين يربكون مخططاته ويبددون أحلامه.

لذلك أراد ألفونسو أن يوجه ضربة قاصمة لمن كان السبب في استدعاء المرابطين وخصوصاً للفارس المغوار المعتمد بن عباد وقرينه المتوكل بن الأفطس، وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الداخلية في الأندلس بالهزائم المتتالية والمتلاحقة.

أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلي المغرب، وبالقضاء على الأندلس سيسهل القضاء على المرابطين بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

ومما ساعد ألفونسو على أن يعيش في تلك الأحلام فتور معظم أهل الأندلس بسبب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الشهادة ، كما أن أسباب الهزيمة نخرت في ذلك المجتمع المتهالك.

أما المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس فقد قررا امتشاق الحسام، فمن ظفر عاش سعيداً ومن مات كان شهيداً [٢].

---

(١) ابن الكردبوس (ص ٩٣) . روض القرطاس (ص ٩٤) ، نقلاً عن دولة المرابطين (ص ٨٤) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، د. [illegible] عباس (ص ٨٥) .

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السُنَّة والجماعة ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد تربية عميقة، وتكوين فريد وإيمان راسخ ساهم علماء وفقهاء المالكية في ذلك، وعلى رأسهم الفقيه الشهيد ابن ياسين فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم، وأصبحوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد، آخذين بأسباب النصر المعنوية والمادية.

وكان رأي المرابطين أن المعركة في الأندلس مصيرية للأمة الإسلامية وبذلك لا يمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع في أسر المعاصي والذنوب.

وكما أن انتصارهم في الأندلس يرعب أعداءهم وخصومهم في المغرب ، ويتم بنصرهم إنقاذ الإسلام والحضارة في ذلك البلد البعيد عن العالم الإسلامي.

كان ألفونسو يقود حرباً صليبية شرسة ضد المسلمين، ودعمته الكنيسة في روما بالجنود والعتاد والأموال، ورغبت بلدان الإفرنجة بالوقوف مع ألفونسو في حربه المقدسة ضد المسلمين.

إن الجانب المادي عند النصارى كان أعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكن الجانب المعنوي عند المرابطين لا حدود له.

وأرسل يوسف بن تاشفين إلى ألفونس كتاباً يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت الاجتماع بنا وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترى عاقبة ادعائك ﴿**وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ**﴾ (1) [غافر : ٥٠] .

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟» (2) وقال لرسول

(١) وفيات الأعيان (٧/١١٦) .

(٢) دولة المرابطين (ص٧٨) .

الأمير يوسف : « قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك » [١] ، وإننا سنلتقي في ساحة المعركة [٢] ، ومعنى ذلك أن ألفونسو اختار الحرب ، وحاول ألفونسو حامي حمى النصرانية في إسبانيا أن يخدع المسلمين ويمكر بهم، فكتب إلى الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه : « أن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعد السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين » فكان جواب الأمير يوسف : « اتركوا اللعين وما أحب » [٣] فاعترض المعتمد وقال للأمير يوسف : « إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة فليكن الناس على استعداد له يوم الجمعة كل النهار » [٤] .

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المعتمد صائباً صحيحاً ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الأندلسيين فتصدى فرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني وظهرت من داود ابن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه « المعتمد بن عباد وأهل إشبيلية » وأبلى بلاءً عظيماً وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المعتمد مع

---

(١) روض القرطاس (ص ٩٤) .
(٢) الأندلس في عصر المرابطين (ص ٨٢) .
(٣) الحلل الموشية ، (ص ٣٦) .
(٤) أعمال الأعلام ، تحقيق العبادي (ص ٢٤٢) .

داود بن عائشة حتى فلت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة صبراً عظيماً سجل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد .

وبدأت قوة المسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر معتقداً أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقياده سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية، فتقوت بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حراسها، ولم ينج منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض، ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم [١] ، وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارين، وأتته الأخبار من داخل العسكر باستيلاء المرابطين عليه، وإنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[٢] ووجد ألفونسو نفسه محاصراً من المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقض عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً : يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداد الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة» وكان رحمه الله يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحمية [٣] وكان فقهاء المسلمين وصالحيهم يوعظون

---

(١) الحلل (ص ٤٢) .

(٢) ابن الكردبوس (ص ٩٣) .

(٣) الأندلس في عهد المرابطين (ص ٨٥) .

الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدين، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ونزاريق الزان [١] .

اندفعوا في المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسرت شوكتهم وانقض أسد من أسود المسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين [٢] .

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طليلطة، وصل إليها مغموماً حزيناً كسيراً جريحاً بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رءوس القتلى من النصارى فعمل المسلمون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي [٣] وجمع المسلمون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام [٤] .

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أما بعد حمداً لله المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا

---

(١) الروض المعطار، (ص ٩٢).

(٢) ملوك الطوائف، (ص ٣١٤).

(٣) الروض المعطار، (ص ٩٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

محمد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب وقال: الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين، وفرسان المجاهدين فتغشته قبل أن يتغشاها، وتعدته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المسلمين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح وأظلتهم سحائب الرماح ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفونسو ، وحملوا على المسلمين حملة منكرة فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المهج وأقبلت سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج».

وولى ألفونسو مطعوناً في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص إلى جبل هنالك ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب وهو من أعلى الجبل ينظرها شذراً، ويحيد عنها صبراً، ولا يستطيع عنها دفعاً. لا لها نصراً، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنو،

المنتشرة منصوراً لجهاد الأعداء ، ويشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأي العين دمارها ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشي عليه، ويعض غيظاً وأسفاً على أنامل كفيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذراً من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواد، أبو القاسم المعتمد بن عباد، فأتى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلل ألفونسو تحت الظلام فاراً لا يهدي ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليلطة إلا مائة فارس والحمد لله على ذلك كثيراً.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة (١٢ رجب ٤٧٩هـ /٢٣ شهر أكتوبر ١٠٨٦م) العجمي [١] .

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزف إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها : « اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية ألفونس اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين ، والحمد لله رب العالمين، فاعلم بذلك من قبلك إخواننا المسلمين والسلام » وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونس من الغدر والآخرة للصالحين [٢] .

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك : « يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه يوم كبير ما

---

(١) انظر : الحلل المواشية ، (ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) .

(٢) المصدر السابق (ص ٤٧) .

كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة :

كانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة من أهمها :

[١] رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس وخصوصا بعد أن أنقذ الله بها سقوط سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها.

[٢] سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم خاصة وأنهم قد هُزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأندلس.

[٣] امتناع الرعية من دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلقهم بالمرابطين.

[٤] مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

[٥] ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

[٦] انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتتنظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزلاقة أن جعلت تلك القبائل تخلد إلى السكينة وأعلنت ولائها التام.

[٧] عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه ، واعتقت الرقاب ؛ وسر العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.

[٨] أصيب نصارى الأسبان بهزيمة تعيسة أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

[٩] جعلت النصارى يرتبون أمورهم ويوحدون صفوفهم ويتنازلون عن صراعاتهم الداخلية.

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيرت مجرى تاريخ الأندلس وبلاد المغرب.

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزلاقة عاد إلى إشبيلية، ودعا رؤساء الأندلس إلى اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم ، فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته . وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر [١] .

رابعاً: رجوع الأمير يوسف إلى المغرب:

لقد عدد المؤرخون أسباب رجوع يوسف إلى المغرب وهو لم يجنِ ثمرة الانتصار بعد إلى أسباب منها :

[١] وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه على سبتة وكان مريضاً.

[٢] اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بني حماد مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية .

[٣] أراد أن يتفقد الولاة والحكام الذين تركهم في المدن والقرى، وينظر في أمور الرعية .

[٤] أراد أن يخرج من إلحاح مسلمي الأندلس الذين طلبوا منه تعقب ألفونسو وجنوده حيث إنه رأى أن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أرضيها .

[٥] خشي من إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي زعم أنه له حق شرعي في استخلاف والده المجاهد الكبير.

إن نظرتي للتاريخ الإسلامي تؤكد لي معنى عظيماً في حياة أمتنا ، ألا وهو أن المعارك الفاصلة في تاريخها المجيد؛ لا تكون إلا لقوم أقاموا الشريعة على مستوى الشعب والجيش والقادة ، وهذا المعنى واضح في سيرة المرابطين الذين تدرجوا في

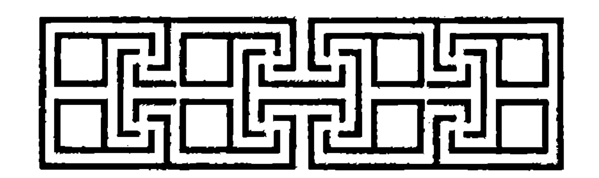
---

(١) **انظر** : الحلل الموشية (ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) .

مراحلهم ، وأقاموا شرع ربهم على أنفسهم .

ولهذا أرى أن من أقوى الأسباب على الإطلاق في نصر الله للمرابطين :

هو تمسكهم وتحكيمهم للقرآن والسُّنَّة على مستوى شعبهم ودولتهم وجيشهم وقائدهم ، ولذلك يهمنا كثيراً أن نبين أثر تحكيم شرع الله في الأمم والشعوب والجيوش والأفراد .



المبحث الرابع

أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين

تمهيد :

إن التأمل في كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وفي حياة الأمم والشعوب تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سُنن الله في الأنفس والكون والآفاق وأوضح مكان لسُنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** (٢٦) ﴾ [النساء : ٢٦] .

وسُنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سُنَّته ﷺ فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السُنن ، ومن ذلك أنا ناقته ﷺ « العضباء » كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفاً عن سُنَّة من سُنن الله : « **حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه** » [١] .

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السُنن في الأمكنة بالسعي والسَّيْر، وفي الأزمنة من التاريخ والسير.

قال تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** (١٣٧) **هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ** (١٣٨) ﴾ .

[آل عمران : ١٣٧ ـ ١٣٨] .

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السُنن بالنظر والتفكر قال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ** (١٠١) **فَهَلْ**

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب ناقة رسول الله ﷺ (جـ٦ / ٨٦) حديث رقم (٢٨٧٢) .

ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين (١٠٢) ﴾ .
[يونس : ١٠١ - ١٠٢] .

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: أنها قدر سابق:

قال تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا (٣٨) ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

أي أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة، وواقع لا حيد عنه، ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثانياً: أنها لا تتحول ولا تتبدل:

قال تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً (٦٠) ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً (٦١) ﴾ [الأحزاب : ٦٠ - ٦٢] .

وقال : ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليًا ولا نصيراً (٢٢) سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً (٢٣) ﴾ [الفتح : ٢٢ - ٢٣] [١] .

ثالثاً: أنها ماضية لا تتوقف:

قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين (٣٨) ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

رابعاً: أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم

---

(١) لقد استفدت من كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، للشيخ / عبد العزيز مصطفى كامل في بيان أثر الحكم بما أنزل الله .

كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

خامساً: لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتعظ بها المتقون:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٨].

سادساً: أنها تسري على البر والفاجر:

فالمؤمنون ـ والأنبياء أعلاهم قدراً ـ تسري عليهم سُنن الله ، ولله سُنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه ، وبما أن المرابطين التزموا بشرع الله في كافة شئونهم ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح بيّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي في دراستي لشعوب الملثمين التي قامت بهم دولة المرابطين ، أمور منها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن المرابطين منذ زعيمهم عبد الله بن ياسين حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله تحاكمهم في سرهم وعلانيتهم، فالله سبحانه وتعالى قواهم وشد أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام المرابطون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكن لهم المولى عز وجل الملك ووطأ لهم السلطان.

وهذه سُنَّة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله تعالى.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد هذه السُنَّة ماضية في الأفراد والشعوب والأمم، فيوسف عليه السلام استخلف في الأرض بعد أن ابتُلي، فأبلى وظهر منه أنه كان من المخلَصين، وعندما قال له الملك: ﴿ **إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ** ﴾ [يوسف: ٥٤]، عرف أنه قد جاء أوان الاستخلاف، فاستعد لتبعته ونهض لحمل رسالته فقال: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)** ﴾ [يوسف: ٥٥]، وصار بهذا من أهل التمكين: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦)** ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقد بين الله تعالى تحقق سُنَّة التمكين في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)** ﴾.

[القصص: ٥ ـ ٦].

وكان بعد وراثة الأرض والاستخلاف فيها أن منّ الله عليهم بالتمكين إنفاذاً لمشيئة السابقة، قال تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)** ﴾[القصص: ٥ ـ ٦].

وبذلك تتضح هذه السُنَّة في القرآن الكريم كما هي ملموسة في واقع الأمم والشعوب.

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين من هذه الأمة، واعداً إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال سبحانه في سورة النور: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ** ﴾[النور: ٥٥]. أي بدلاً عن الكفار

﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ من بني إسرائيل [١] فإذا حقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين.

وهذا ما رأيته في دراستي للدولة السنية التي أقامها المرابطون.

ثانياً: الأمن والاستقرار :

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين دويلات متنازعة فيما بينها، بل بعض هذه الدويلات لها معتقدات تخرجها عن الملة، كما أن قبائل الملثمين كانت متناحرة فيما بينها، وصراعهم مع الزنوج لم يستقر مما ولد لهم الخوف والإزعاج الشديد.

وبعد أن أكرم الله المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة، وساروا في جهادهم المجيد سيرة حسنة، وتوحد المغرب الأقصى كله، يسر الله لهم الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن دولة المرابطين بعد أن استخلفت ومكن الله لها أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سُنَّة جارية ماضية، ضمن اللهُ لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن يُيسر لهم الأمل الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم، فبيده سبحانه مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه.

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته. إن الله تعال بعد أن وعد

---

(١) انظر : تفسير الجلالين، (ص ٤٦٦).

المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع. قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥]. وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب.

وهذا ما حدث لقيادات المرابطين وشعبهم الذي انقاد لمنهج رب العالمين.

ثالثاً: النصر والفتح:

إن المرابطين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سُنَّة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)** ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

يقول سيد قطب رحمه الله: «وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة من هدي الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف وأعدها لحمل أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة... إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله ﷺ: ﴿ **إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا** ﴾ [القصص: ٥٧]» [١].

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن، أو

---

(١) في ظلال القرآن (جـ٤ / ٢٧٠٤).

أقل من الزمان [١] ، إن الله تعالى أيَّد المرابطين على الأعداء ومنَّ عليهم بالفتح؛ فَتْحُ الأراضي وإخضاعها لحُكم الله تعالى، وفَتْحُ القلوب وهدايتها لدين الإسلام.

إن المرابطين عندما استجابوا وانقادوا لشريعة الله جَلَبَتْ لهم الفتح، واستنزلت لهم نصر الله . إن الحكام والشعوب الإسلامية التي تبتعد عن شريعة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسئولية الحكام والقضاة والعلماء في الدعوة إلى تحكيم شرع الله مسئولية عظيمة ، يسألون عنها يوم القيامة أمام الله.

قال ابن تيمية - رحمه الله -:

«إذا حكم ولاة الأمر بغير ما أنزل الله، وقع بأسهم بينهم...وهذا من أعظم أسباب تغير الدول كما جري هذا مرة بعد مرة في زماننا وغير زماننا ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره، ويجتنب مسلك من خذله الله وأهانه، فإن الله يقول في كتابه ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ۝٤١** ﴾[الحج: ٤٠ - ٤١].

فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم [٢] .

رابعاً: العز والشرف:

إن عز المرابطين وشرفهم العظيم الذي سطر في كتب التاريخ يرجع إلى تمسكهم بكتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ ، إن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة، وبه يعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح وأصاب سُنَّة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسُنة رسوله ﷺ ، قال تعالى:

---

(١) مجموع الفتاوى (جـ٣٥/٣٨٨). (٢) **انظر** : تفسير ابن كثير (جـ٣ / ١٧٠).

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فيه شرفكم [١]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله» [٢]، فعمر رضي الله عنه كشف لنا بكلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمة عزاً وذُلاً، مع موقفها من الشريعة إقبالاً وإدباراً، فما عزت في يوم بغير دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه.

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]. يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله عز وجل [٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾. [المنافقون: ٨].

إنني عندما مررت بسيرة الإمام ابن ياسين ذكرت وصفه بأنه ذو مهابة عظيمة في نفوس أتباعه ونال شرفاً وعزة في قومه.

وعندما مررت بسيرة الإمام أبي بكر بن عمر، ذكرت أنه إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف من قومه يجاهدون معه.

وعندما ذكرت بسيرة الأمير يوسف بن تاشفين ذكرت وصف له كأنه خُلقَ للزعامة، ورأيت في سيرة هؤلاء الأبطال عزاً وشرفاً نالوه بالاستعلاء على شهوة النفس وبالاستعلاء على القيد والذل، كان استعلاؤهم على الخضوع الخانع لغير الله واضحاً في سيرتهم العطرة، كانت حياتهم خضوع لله وخشوع، وخشية لله وتقوى ومراقبة لله في السراء والضراء، وهذا هو سر عزهم وشرفهم في تاريخنا

(١) **انظر**: تفسير ابن كثير (جـ٣/ ١٧٠).
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (جـ١/ ٦٢)
(٣) ابن كثير (جـ٢/ ٥٢٦).

الإسلامي المجيد، لقد عاش المرابطون في بركة من العيش، ورغد من الحياة الطيبة التي وصلوا إليها بإقامة دين الله.

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) ﴾ [الأعراف: ٩٦].

خامساً: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل في عصر المرابطين وانحسرت الرذائل فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة متطلعاً إلى ما عند الله من الثواب، يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحييه يخشى من عقاب الله لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحكامه إلى ما يحييه من الإيمان والقرآن وسُنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله، ونواهيه ظاهرة بيّنة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة المرابطين لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي ولا تتبدل ولا تتغير فأي شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده ودولته وحكامه.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم وسعيهم الدءوب لتحكيم شرع الله، وأخذهم بسنن التمكين، وفقه ومراعاة التدرج والمرحلية، والانتقاء من الشعب والارتقاء بهم نحو الكمالات الإسلامية المنشودة، إن الانتصارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وزكى نفسه، ولهذا لم يأت فتح الزلاقة من فراغ، لقد جاهد المرابطون في الأندلس وحققوا نصراً عظيماً وفتحاً مبيناً في معركة الزلاقة وأنقذ الله بهم المسلمين.

المبحث الخامس

الأندلس بعد الزلاقة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التي ذكرتها تولى قيادة المرابطين القائد الميداني سير بن أبي بكر الذي واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلي تاجة وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع.

كما وجه المعتمد بن عباد ضربات موفقة بقيادته على عدة مدن حول طليطلة ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور في أحد الحصون القريبة التي تشن غاراتها على مدن المسلمين وخاصة مدينة المرية إلا إن المعتمد انهزم واضطر أن يلتجئ إلى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن ليون ثم توجه نحو قرطبة تاركاً مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذي أربك مدن شرق الأندلس متخذين من حصن لييط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزاً لشن الغارات على أراضي المسلمين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه ونقل مقر العمليات إلى شرق الأندلس الذي خيمت عليه الفرقة السياسية.

بعكس غرب الأندلس الذي كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على رأسها القائد العظيم سير بن أبي بكر [١].

تأذى أهل غرب الأندلس من النصارى الحاقدين فتوافدت وفودهم على الأمير

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٦٢).

يوسف وخصوصاً أهل بلنسية ومرسية ولورقة يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدي النصارى الذي يتحكمون في حصن لييط.

وعبر المعتمد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، تمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرك الأمير يوسف إلى مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح، فضلاً إلى المعتمد بن عباد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان ولم يختلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لييط الذي كان يسكنه ألف فارس واثني عشر ألفاً من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصارى في الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المسلمين وإلحاق الخسائر بهم.

واستمر الحصار بدون جدوى، وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذي ساءه ذلك كثيراً.

وشكى المعتمد بن عباد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقرباً إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين عبد الله وتميم للأمير يوسف، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذي دفع أموالاً طائلة لألفونسو وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوه بإزاحته من حكمه وتسليمه للمعتمد واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا

يستطيع مخالفتها (١) .

وأمر القائد سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمعتمد مشترطاً عليه إبقاؤه حياً (٢) .

وكانت لفتوى الفقهاء عند قادة المرابطين مكانة عظيمة يضعونها فوق كل اعتبار.

وفرّ جيش ابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد عن جيش المرابطين ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التي وقعت حشد جيشاً من أجل فك الحصار في معركة خاسرة غير مأمونة النتائج ، خاصة بعد الذي رآه من حكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود بن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة محمد بن تاشفين (٣) .

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن لأنه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرر إخلاءه وتدميره واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن أصبح أطلالاً.

لقد أيقن الأمير يوسف أن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام ٤٨٢هـ / ١٨٤٩م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأندلس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي (٤) فتوى تؤيد عمله الجليل

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ،(ص ١١٢) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ،(ص ١٠٨) .

(٣) ،(٤) ابن خلدون ، العبر(جـ٦ ، ص ١٨٧) .

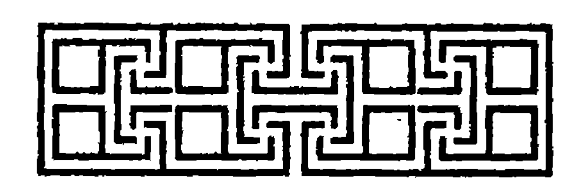
من أجل توحيد صفوف المسلمين.

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية في بغداد.

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا» (١) .

وكان المسلمون في الأندلس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين وعبر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة» الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة إذ كان أحد أعضائها وكان يرى في الأمير يوسف صلاحاً وعدلاً وحزماً.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بخلع ملوك الطوائف وتفاعل مسلمو الأندلس مع هذه الفتوى الموفقة (٢) .



---

(١) محمد بن عبد الله عنان، دول الطوائف، (ص ٤٠٦) نقلاً عن رسالة ابن حزم.

(٢) دولة المرابطين (ص ١١٣)

المبحث السادس

فتوى في جواز ضم الأندلس بالقوة والقضاء على ملوك الطوائف

أرسل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي إلى الإمام الغزالي كتاباً يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، قال الإمام أبو بكر بن العربي: «وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتاباً، واختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها لكن أنبه على معناها وهو: في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربيين الأندلس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين، والذب عن المسلمين، وهو حميري النسب ومعه المرابطون، وقد وقفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنه سنة أربعمائة، عدة ثوار تسوروا على البلاد، فضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقبوا بألقاب الخلفاء وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستبانوا الفساق من الأرقاء والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً، واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة المسلمين، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين، طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤونة ولا مشقة، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاء للمشركين، وحقداً على المسلمين في

استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله نصراً ، وألحم الكفار السيف، ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو، وتحصن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى عل من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلباً، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا لا جهاد إلا مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أو ليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ ، وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ ، وهل على المسلم حرج في قتالهم؟ ، وهل على الإمام العباسي أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبداً، وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية».

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله تعالى [1] .

أولاً: فتوى الإمام الغزالي - رحمه الله - في موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف والخلافة العباسية ؟ .

فأجاب الإمام الغزالي رحمه الله: «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى بشهادته عن غيره وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم، من

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب ، د . أحمد العبادي ، (ص ٤٧٩ — ٤٨٠) .

سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهري ، حرس الله على المستظهرين ظلاله، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق، وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولي بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته هي مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي وقد قال تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحجرات: ٩]. والفيئة إلى أمر الله بالرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق ، المنتسب إلى الخلافة العباسية ، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته ، لاسيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية ويتركوا المخالفة، وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا، لم يجز أن يتتبع مدبرهم، ولا أن يُذففَّ [1] على جريحهم بل متى سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكف عنهم، أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد من التشاغل بقتل المسلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها، وحكمهم في الجملة في البغي على

---

(١) **لا يُذَفَّف** : أي لا يجهر .

الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة حكم الباغي على نائب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على الإمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادي بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه».

وإن توقف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير، وأما الإذن والرضا بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه، وإن لم يكن أن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك .

فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن. قال عمر ﷺ: «**لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسئول عنها يوم القيامة**» قال سليمان بن عبد الملك يوماً وقد أحدق به الناس: «قد كثر الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين» يعني أنك مسئول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته. فلا رخصة في التوقيف عن إطفاء الفتنة في قرية تحوي عشرة، فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، والمواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنه إلا لعذر ظاهر وجب على أهل المغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد

إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور، أو تقصر في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها ، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغي عليهم، والله أعلم [١] .

يتضح لي من فتوى الإمام الغزالي أن رأيه في قتال يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف مبني على كون أولئك الملوك من البُغاة والخارجين عن سلطة الدولة المرابطية ، التابعة للخلافة الإسلامية .

وبهذا يتضح أن الفقهاء والعلماء رأوا ضرورة ضم الأندلس لقيادة المغرب الأقصى بعد أن فرط أمراء الأندلس في أمور الشرع ومصالح الرعية وحالفوا النصارى ضد إخوانهم المسلمين.

ولا شك في أن ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف صحيح من الناحية الشرعية والاستراتجية العسكرية والمنطلقات السياسية .

بل في رأيي أن وجود ملوك الطوائف مفسدة عظيمة ، والسعي لإزالتهم خطوة نحو توحيد الصفوف ونجد كُتاباً من الغرب وأذيالاً لهم من أبناء المسلمين يصفون ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف بأنه خروج عن الإنسانية، ودليلاً على الهمجية ، حسب وجهة نظرهم المشوَّشة ، وتصورهم المغلوط، أما بالنسبة للمؤرخ المسلم فإن ما قام به يوسف يعتبر عملاً عظيماً قدمه للأمة، وحفظ به الإسلام في الأندلس من انهيار محقق، وضبط الأمور بعزم وحزم بعد

---

[١] **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد عبادي ، (ص ٤٨٤) .

فوضى وضياع وخنوع واستسلام مارسه ملوك الطوائف دون اهتمام بدين أو شعب أو عقيدة.

لقد تميز يوسف بن تاشفين بوفائه التام للعهود، وابتعاده عن الأطماع الدنيوية، وحرصه على إعزاز الدين، وإزاحة العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين، ولذلك أقدم على الخطوة المباركة من أجل توحيد الأندلس، وضمها تحت قبضة دولته الميمونة التابعة للخلافة العباسية السنية.

إن كثيراً من الحكام المعاصرين المتسترين بالدين، والذين يحالفون النصارى الحاقدين واليهود الماكرين وأشياعهم وأتباعهم الكافرين واجب على الدولة الإسلامية السنية الفتية أن تعمل على تخليص المسلمين من قبضتهم وتضمها إليها، وتسعى من أجل تحقيق ذلك بكافة الأمور الشرعية المعروفة.

وإذا تعذر وجود دولة سُنية لها هموم إسلامية وتطلعات شرعية فعلى الحركات الإسلامية أن توحد صفوفها للوصول إلى هذا الهدف المنشود، ومن ثم السعي لتوحيد الأمة تحت دولة إسلامية تقوم على عقيدة التوحيد، وتحكمها شريعة الرب المجيد وإذا ما وصلت أي حركة معاصرة إلى ذلك الهدف المذكور تجد نفسها تحتاج إلى فتاوى شرعية وتجارب لتستأنس بها في مسيرتها المباركة ولذلك أرى من الفائدة العميمة والخبرة الرشيدة دراسة الدول الإسلامية التي قامت، واجتهاداتهم في الحروب، وتربيتهم للشعوب، لنسترشد بها ولنطورها على حسب متطلبات المرحلة التي تمر بها.

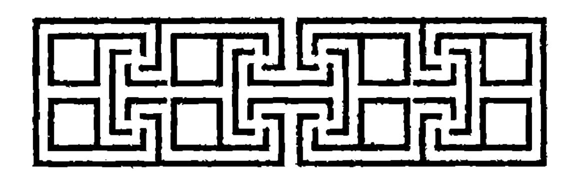
ولذلك نجد أن الأمم عموماً عندما تعد طلائع قيادية تهتم بدراسة الشعوب والحركات التحررية، والثوارت الإنسانية لتكون رصيداً لأولئك الذين يعدون ويربون على قيادة أمتهم في المستقبل المنظور.

إن العقلية الضيقة المتحجرة عندما تكون في سدة القيادة لا تستطيع أن ترتقي

بجنودها، وتجد نفسها تصطدم اصطداماً عنيفاً مع مستجدات الحياة ومشاكلها المعقدة.

إن تجارب التاريخ الإسلامي تُكسب الطلائع القيادية للحركة الإسلامية المعاصرة خبرات مهمة في مجال البناء والحركة ، والتنظيم والتكوين ، والتنفيذ والتمكين.

إن دروس التاريخ تعلمنا أن العلماء الربانيين ، والفقهاء العاملين لهم مكانة في نفوس شعوبهم، ومهابة عند حكامهم، ولفتاويهم شأن عظيم في شئون الحكم والدول والحروب وعزل الملوك وتولية غيرهم. . . .إلخ.



المبحث السابع
العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء من الأندلس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضم الأندلس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السنية، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طليطلة وأرسل فرق من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها، عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيراً إلى المغرب، واستقر في أغمات بالقرب من مراكش [١].

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يثنيا الأمير يوسف عن عزمه، ولكنه رفض مقابلتهما وأيقنوا أن زوالهم قريب.

وألقى المرابطون القبض على تميم بن بلكين والي مالقة وأرسل إلى إفريقية، ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة وتولى القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبي بكر، وبدأ الأمير يوسف في إرسال الجيوش من المغرب إلى الأندلس للقضاء الكلي على ملوك الطوائف، وأصحبت القوة المرابطية في الأندلس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها .

وقسم الأمير يوسف جيوش المرابطين إلى أربعة أقسام :

﴿ ١ ﴾ جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجه إلى إشبيلية.

﴿ ٢ ﴾ وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج وواليها، آنذاك، ولد

---

(١) انظر : معركة الزلاقة ، (ص ٦٢) .

المعتمد الفتح أبو النصر.

﴿ ٣ ﴾ وسار جرور اللمتوني إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمعتمد وهو يزيد الراضي بالله.

﴿ ٤ ﴾ وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التي فيها المعتصم بن صمادح، صديق المعتمد الحميم.

وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك [١].

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر(٤٨٤هـ /١٠٩١م) بعد مقاومة عنيفة من أبناء المعتمد اللذين قتلا «المأمون ويزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحي طليطلة مهددين ملوك النصارى، واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتد الخوف بالمعتمد بن عباد الذي أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم.

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير في ربيع الأول (٤٨٤هـ/ ١٠٩١م)، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مترجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسائرهم نصراً كبيراً مبيناً، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها الحصار، وكان سير ابن أبي بكر يقود الجيش المحاصر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م وكانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة حزينة، وكانت عبرة لتقلب الدهر، وذلك

---

(١) انظر : معركة الزلاقة ، (ص ٦٢) .

أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يضع يديه على مصاير إسبانية، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة، والذي يرجع إليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة، والذي استدعى المرابطين إلى الأندلس، اختتم حياته الحافلة بالأحداث في غمرة البؤس والحزن في أغمات المغرب فقد قبض عليه به سقوط إشبيلية، وعلى نسائه وأبنائه وبناته ـ وهم نحو مائة ـ وأرسلوا إلى مراكش [١] وفي طريقة تألم المتعمد من قيدة وضيقة وثقله فقال:

تبدلت من ظل عزّ البنود ... بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سناناً ذليقاً ... وعضباً رقيقاً صقيل الحديد

وقد صار ذاك وذا أدهما ... يعض بساقي عض الأسود

لقد أطنب الشعراء والمؤرخون وأهل الأدب في سيرة المعتمد بن عباد وسبب ذلك أمور كثيرة وأهمها في نظري أن قضيته غريبة، وشخصيته عجيبة، ومرّ بأمور رهيبة وكانت سيرته مليئة بالمتناقضات فهو الذي قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» وهو الذي استعان بالنصارى، وأجلب خليهم ورجالهم ضد المسلمين، وسيرته تبين لنا سُنن الله في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، وإعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

[آل عمران: ٢٦].

وتوفي المعتمد بن عبادّ في أغمات سنة ٤٨٨هـ رحمه الله تعالى.

ومن النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظم

---

(١) انظر: معركة الزلاقة (ص ٦٤).

سلطانه وجلالة شأنه، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء [١] .

من شعر المعتمد بن عباد :

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال :

قيدى، أما تعلمني مُسلمًا	أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شرابٌ، واللحم قد	أكلته ولا تهشم الأعظُما
يُبصرني فيك أبو هاشم	فينثني، والقلب قد هُشما
ارحم أخياتٍ له مثله	جرّعتهن السُّم والعَلقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدى معاركه :

لما تماسكت الدموع	وتَنْهنه القلبُ الصديع
قالوا الخضوعُ سياسة	فليبدُ منك لهم خُضوع
والذ من طعم الخُضُوع	على فمي السّمٌّ النقيع
أتسلبْ عني الدُّنا	ملكي وتُسلمْ القلبَ الضُّلوع
قد رُمتُ يومِ نزالهم	أن لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميص	عن الحشى شيء دَفُوع
أجلي تأخر، لم يكنْ	بهواي ذُلي والخُضوع
ما سرت قطُّ إلى القتال	وكان في أملي الرجوع
شيم الأولى إنا منهم	والأصل تتبعه الفُروعْ [٢]

ولما توفي في أغمات رثاه الشعراء بقصائد معبرة عن المشاعر الإنسانية الدفينة وممن رثاه شاعره المخلص أبو بحر عبد الصمد بقصيدة طويلة أجاد

---

(١) وفيات الأعيان (جـ٥ / ٣٧) .

(٢) التاريخ الإسلامي ، للذهبي ، حوادث ووفيات ، مجلد (٤٨١ ، ٤٩٠ هـ) ، (ص ٢٧١) .

فيها. وأولها:

ملك الملوك، أسامع فأنادي   أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما نقلت عن القصور ولم تكن   فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في الثرى لك خاضعاً   وجعلت قبرك موضع الإنشاد [١]

لقد كانت محنة المعتمد بن عباد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلطة وأنه صحرواي بدوي نزعت الرحمة من قلبه، واستدلوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأندلس وتخلص منهم.

والواقع يقول: إن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس، وتردد كثيراً قبل العبور، وعفّ عن الغنائم بعد الزلاقة وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس، ولم يأخذ منها شيئاً، وكانت عودته، ثم عاد في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف الهزلي، وتحالف بعضهم مع ملوك النصارى، ولما اشتد الخطب أهل الأندلس وأفتى العلماء بخلع ملوك الطوائف حرصاً على سلامة الدين والعقيدة قرر الأمير يوسف أن يضع حداً لمهزلة ملوك الطوائف لقد آن «من أجل الشريعة والمصلحة العظمى للأمة» لهذه الدويلات الهزيلة الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي، **وكما قال الشاعر محمود غنيم:**

من عالج الباب العصي فلم يلن   لديه، حطَّم جانب المصراع

فقد شغله هؤلاء الأمراء المتفرقون عن الجهاد والفتوحات والمرابطة في سبيل الله لضعفهم وفرقتهم، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم، وابن تاشفين خص الأمراء وحدهم بشدته وعقابه وعفا عن الشعب المسلم، لأن التناقض جلي بين الشعب الذي تعلق بالمرابطين وبالأمير يوسف لعدله وحزمه وجهاده، والذي حرص على

---

(١) وفيات الأعيان (جـ٥ / ٣٧).

رفع المظالم والضرائب والمكوس عن كاهل الشعب الذي طلب من ملوكه الاتحاد في وجه النصارى، وبين الأمراء والملوك الذين آثروا التفرق والخلاف، حباً في الحكم، وحفاظاً على مصالحهم الشخصية.

وهذا الذي قام به الأمير يوسف، وإزاحة الملوك من أعظم حسناته ومآثره الخالدة في تاريخه المجيد الذي تعتز به أمتنا العريقة ، وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المدن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهراً.

ولما سقطت المرية بيد داود بن عائشة، هذا القائد المجاهد المرابط في سبيل الله المنصور بإسلامه ودينه وصفاء عقيدته وحفظه للعهود، واصل سيره الموفق مع جنوده البواسل، وافتتح مربيطر وبلنسية وشنتمرية ولم تغن أمراءهم معاونة الكمبيادور وفرسانه، فبلنسية كان بها يحيى بن ذي النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان منضوياً تحت حماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر على الرغم من كل هذا سقطت بلنسية بيد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمر داود بن عائشة في فتح حصون وقلاع مدن شرق إسبانية تحفه العناية الإلهية، وتنزل عليه الفتوحات الربانية ويخط للمغاربة وللأمة الإسلامية تاريخاً مجيداً باقياً على مر العصور والأزمان، واضحة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أما القائد الرباني والفارس الميداني سير بن أبي بكر فكان جهاده الميمون في غرب الأندلس حيث زحف إلى بطليوس وأميرها يومئذٍ محمد بن الأفطس «المتوكل» بعد أن فتح إشبيلية كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة، ثم فتح بطليوس في صفر ٤٨٧هـ-آذار (مارس ١٠٩٤م).

وفي الوقت الذي سقطت بطليوس، استطاع المرابطون أن يفتحوا جزر البليار، التي كان واليها يومئذٍ من بني شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية، وأحسن المرابطون صنعاً بفتح الجزر الشرقية «بليار» في الوقت الملائم، فقد كانت منعزلة تعيش تحت هيمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست.

وبذلك أصبحت إسبانيا المسلمة تحت قبضة دولة المرابطين الفتية سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ونستثني من ذلك ولاية سرقسطة التي كان واليها أحمد بن هود «المستعين بالله» الذي أبلى بلاءً حسناً في جهاد النصارى وظهرت فيه شهامة ورجولة أقنعت الأمير يوسف على إبقائه في ملكه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيدة ضد أعدائهم في الدين، وكان سداً منيعاً في الثغور الشمالية وقد كلف النصارى خسائر هائلة في الأموال والأرواح.

واستطاع النصارى أن يحتلوا مدينة «بلنسية» عام ٤٨٧هـ بقيادة القائد النصراني الكمبيادور الذي أمن قاضيها «ابن جحاف» ثم أحرقه بالنار، وعمل المرابطون على إرجاع بلنسية والحصون التي وقعت في يد النصارى، وتمكنوا من تحرير بلنسية عام ٤٩٥هـ.

والجدير بالذكر أن بابا الفاتيكان أفتى لأهل إسبانيا ومن حولهم من الإفرنج أن قتالهم في الأندلس ضد المسلمين جهاداً مقدساً ولذلك لم يشارك الإسبان في حروب النصارى الصليبية في شرق العالم الإسلامي في هذه الفترة.

لقد كانت سياسة الإسبان في حروبهم للمسلمين صليبية النزعة، همجية الخُلق، خالية من الأخلاق، ممزوجة بالغدر بعيدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية على نشر الإسلام ومكارم الأخلاق في أطر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ(١).

---

(١) انظر: معركة الزلاقة، (ص ٦٨).

المبحث الثامن
الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانية المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سرقسطة التي حكمها بنو هود، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة ٤٩٦هـ /١١٠٣م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، يبتغي تنظيم شئونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأندلس، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة، وعين ولده الأصغر عليًّا «أبا الحسن» وليًّا للعهد، فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة [١] .

أولاً: نص ولاية العهد للأمير علي بن يوسف:

عهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهوراً ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة».

أما بعد:

فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة [٢] ، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة في المصلحة الخاصة والجمهور، إن

---

(١) انظر: معركة الزلاقة (ص ١٧).

(٢) يعني الموت.

أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في الأمور الدينية الشريفة، قد أعزّ الله رماحه وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى، ودعاه لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعى فيما استرعاه، فأحضر مشترطاً عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامي قصية، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضي إمامتها على البعيد والقريب وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م (١).

[أ] وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليًا، بما يلي:

ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطعمون على حساب الدولة، ويوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة، وسبعة آلاف في إشبيلية، وثلاثه آلاف في غرناطة، وألف في قرطبة، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى من المغاربة، وأن يعمل على تشجيع الأندلسيين على روح الجهاد وأن يكافئ المتفوقين في الحرب منهم بالخيل

---

(١) الزلاقة (ص ٧١ - ٧٢)، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة (٢/ ٥١٩ - ٥٢٠).

والسلاح والثياب والمال.

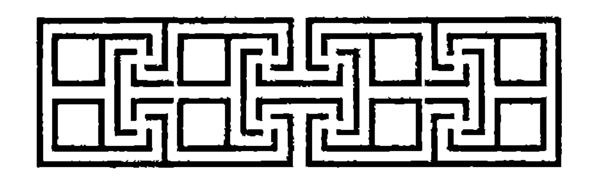
ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندلس وخصوصاً قرطبة بالرفق واللين، وأن يقوي علاقته الأخوية مع بني هود الذين هم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى، ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شئون الأندلس وقسمها إلى ست ولايات هي إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، مرسية، وسرقسطة، عاد ابن تاشفين إلى مراكش.

[ب] لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث :

﴿ ١ ﴾ مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

﴿ ٢ ﴾ مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

﴿ ٣ ﴾ مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حدًّا لمهزلة ملوك الطوائف.



المبحث التاسع

آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على ملوك الطوائف

﴿ ١ ﴾ إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وهلاكاً وعذاباً في الآخرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فنجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاب بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في المعركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنك من العيش ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

﴿ ٢ ﴾ أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه، وأصابهم ما أصاب بنو إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله ﷺ: «**كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعننكم كما لعنهم**» (١).

إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سُنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

﴿ ٣ ﴾ إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت، ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هٰذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله، وتركوا الحق وانقادوا لضلال، وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله تعالى.

﴿ ٤ ﴾ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

---

(١) أبو داود كتاب الملاحم باب الأمر بالمعروف، رقم الحديث (٤٦٧٠).

﴿ ٥ ﴾ بسبب الابتعاد عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة ، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين ، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

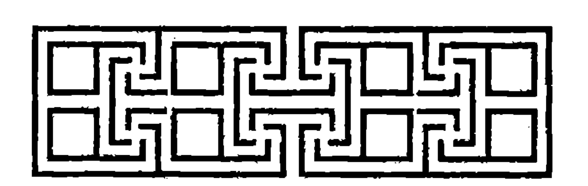
﴿ ٦ ﴾ إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

﴿ ٧ ﴾ إن من سُنن الله تعالي المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله تعالى ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين، والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم، ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين، منقادين لشريعة رب العالمين.

﴿ ٨ ﴾ إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

الأول : معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

وثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً .



الفصل الثالث

السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين

المبحث الأول

حقوق الرعية في دولة المرابطين

إن الله تعالى جعل بين الحاكم والمحكوم حقوقاً وواجبات متبادلة وبينت الشريعة الغراء هذه الحقوق المتبادلة فمن أهم حقوق الرعية على الراعي:

أولاً: العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية:

وذلك عن طريق حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فهذا هو أهم الأمور التي تلزم ولاة الأمر تجاه الرعية[(١)] وأهم هذه الأصول: التمسك بالكتاب والسُنة وإجماع القرون المفضلة الأولى، وفي دراستي التاريخية لدولة المرابطين وجدت أن حكامها ساروا على هذا المنهج الذي رسمه شيوخهم الذين سبقوهم، ولذلك توحدت دولة المرابطين، وكان لذلك المسلك سبب في حماية الأمة من التفرق في الدين إلى دروب الأهواء والضلالات وكان حماية ووقاية للحاكم والمحكوم في دولة المرابطين على السواء من الزيغ عن السبيل، قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. أي: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم، في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله»[(٢)] لقد كان يوسف بن تاشفين ومن سبقه من حكام دولة المرابطين على منهج الفرقة الناجية وسبيل أهل السُنَّة والجماعة، لا سبل أهل الزيغ والتفريق التي نهى عنها في قوله:

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، (ص ٢٢).

(٢) تفسير الطبري (جـ٧/٧٠).

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ [آل عمران: ١٠٥ - ١٠٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني تبيض وجوه أهل السُّنَّة والجماعة، وتسود وجوه أهل الفرقة والزيغ» (١) لقد قام يوسف بن تاشفين بحماية أصول أهل السُّنَّة والجماعة بتشجع العلماء والفقهاء وبنشرها وحمل الناس عليها واستخدام في ذلك سلطانه وصلاحياته الشرعية (٢).

ثانياً: توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية:

قام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب الأقصى تحت راية الخلافة الإسلامية واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب المشروعة سواء بإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من استعصى عن الإجابة، وكان يسعى سعياً حثيثاً للقضاء على الشرور في بلاده، ويعمل على إغلاق أبوابها أولاً بأول وسبيله في ذلك: «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم» (٣).

ثالثاً: العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين:

حيث استطاع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يأمن السبل في بلاده وأن يبسط الأمن ويقمع الأخطار التي هددت دولته من المارقين ونظم طرق الأسفار ومسارب التجارات.

وقد عد علماء الإسلام تأمين السبل والطرق حقاً من حقوق الرعية التي سيسأل عنها كل راع، فذكروا أن الإمام يلزمه: «حماية بيضة الإسلام والذب عن الحُرم، ليتصرف الناس في معايشهم وينتشروا في أسفارهم آمنين على أنفسهم

---

(١) تفسير ابن كثير (جـ١ / ٣٦٩).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم، (ج٢ / ٥١٤).

(٣) الأحكام السلطانية للماوردي، (ص ٢٢).

وأموالهم [١] ولا شك أن تأمين السبل دليلاً بارزًا على انتصار الدين وتمكينه، فإنه ﷺ لما دَعا عدي بن حاتم إلى الإسلام، وعده ـ إن طالت به الحياة ـ أن يرى طرق المسلمين آمنة، وسبلهم محفوظة لما يؤول إليه الأمر من قوة المسلمين بعد ضعفهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن عدي بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدي هل رأيت الحيرة**»؟ ، قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها ، قال: «**فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحد إلا الله...**»وفيه أن عدياً ﷺ قال بعدها: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله» [٢] .

رابعاً: العمل على حماية الأمة من أعدائها في الخارج :

قام الأمير يوسف بن تاشفين ـ رحمه الله ـ بأعمال عظيمة حماية لدولته وشعبه من كل عدو يحاول أن يعتدي، واتخذ كافة الأسباب المتاحة من أجل تحقيق هذا العمل المنشود من تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرماً ويسفكون دماً لمسلم أو معاهد» .

وقضى على كل محاولات أعداء دولته من البرغواطيين والمغورة والحماديين ، الذين حاولوا ضم أراضي من دولته ، وقضى على دويلات الكفر والإلحاد وألزم الحماديين احترامه بالقوة .

خامساً: حفظ ما وضعت الشريعة لأجله :

فقام بإقامة الحدود، حتى تصان محارم الله عن الانتهاك وتحفظ حقوق العباد من أي إتلاف أو استهلاك ونفذ في رعيته قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[النساء: ٥٨] .

---

(١) **انظر** : الأحكام السلطانية ، للماوردي ، (ص ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب المناقب ، باب علامة النبوة (جـ٦ / ٧٠٦)، رقم الحديث (٣٥٩٥).

سادساً: إعداد الأمة إعداداً جهادياً:

ومسيرة المرابطين منذ خروجهم من رباط عبد الله بن ياسين تدل على أنهم قوم مجاهدون، وقام قادتهم بجهاد الوثنيين واستمر يوسف بن تاشفين في قتال أهل الردة وغلاة المبتدعة وتوحيد القبائل الخارجة عن نطاق الدولة، وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى أسلموا أو دخلوا في ذمة المسلمين قياماً بحق الله تعالى في ظهور دينه على الدين كله» (١).

سابعاً: القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء:

حيث قام الأمير يوسف بالإشراف على جباية وصرف الزكاة في مصارفها الشرعية من غير حيف ولا عسف، فكانت من مصادر دولة المرابطين الزكاة والخراج والفيء وغيرها، فكان الأمير يوسف لا يأخذ الضرائب والمكوس، بل أسقطها وإنما يأخذ المال من حله، ويضعه في حقه، ولا يمنعه من مستحقه (٢).

ثامناً: تحري الأمانة في اختيار المناصب:

حرص الأمير يوسف أن يختار الأمناء والأكفاء وأسند إليهم الولايات وقيادات الجنود ومناصب القضاة، وحرص على أن يولي كل عمل من أعمال المسلمين، أصلح من يجده لذلك العمل، واختار وانتخب أحسن وأنفع العناصر لدولته السنية من أجل أن يقوم بواجبه نحو رعيته.

تاسعاً: الإشراف المباشر على شئون الدولة:

اعتاد الأمير يوسف أن يُشرف بنفسه على أمور رعيته، ويتابع ولاته ويزورهم في مواطنهم ويستمع للناس، وما كان يعتمد على التفويض وحده، خوفاً من الله تعالى الذي قال في كتابه: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾

---

(١) انظر: الأحكام السلطانية، للماوردي (ص ٢٣).

(٢) انظر: السياسة الشرعية، لابن تيمية (ص ٢٩).

[ص : ٢٦]، وقد عد الإمام الماوردي هذا الأمر من حقوق الرعية على الوالي، وذكر أنه يلزمه: «أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة فقد يخون الأمين ويغش الناصح...» (١).

كان الأمير يوسف يراقب ولاته مراقبة شديدة ولا يتردد في تبديلهم وعزلهم إذا أساءوا، وكان يضع مصلحة الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة ويوصيهم بها خيراً، وقد جاء في كتابه إلى عبد الله بن فاطمة: «فاتخذ الحق إيمانك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد بابك، ووطن للرعية أحاطها الله أكنافك، وابذل لها إنصافك، والحرج من كل ما يحيف عليها ويؤذيها، ومن سدد عليها من عمالك زيادة، أو خرق في أمرها عادة، أوغيَّرَ رسماً، أو بدل حكماً، أو أخذ لنفسه منها درهماً ظلماً فاعزله من عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه في رد ما أخذ متعدياً إلى أهله، واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله» (٢).

وكان الأمير يوسف يخطر أهل الولاية بتعيين الوالي الجديد فكتب إلى أهل سبتة بشأن الأمير يحيى بن أبي بكر: «ونحن وراء اختياره والفحص عن أخباره، فإذا وصل إليكم كتابنا فالتزموا له السمع والطاعة، والنصح والمتابعة جهد الاستطاعة» (٣) بالإضافة إلى ذلك كان الأمير يوسف كثير الطواف في مملكته للإشراف على تنفيذ أوامره وتعليماته من قبل الولاة (٤) والاطلاع على أحوال الرعية والنظر في أمورها.

---

(١) السياسية الشرعية ، (ص ٢٩) . (٢) دولة المرابطين ، (ص ٢٦) .

(٣) المرجع السابق ، (ص ١٦٦) .

(٤) الأندلس في عهد المرابطين . استفدت في مباحث أثر حكم الله على دولة المرابطين ، وأثر ترك حكم الله والواجبات السياسية التي قام بها الأمير يوسف في كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي ، للمؤلف عبد العزيز مصطفى كامل .

المبحث الثاني

موقف الرعية في دولة المرابطين

لقد استوفت الرعية في دولة المرابطين حقوقها الشرعية، فكان طبيعياً جداً أن تؤدي واجباتها إلى حكامها وولاتها وأهم هذه الواجبات التي أدتها.

أولاً: الطاعة :

كان مسلموا المغرب في زمن دولة المرابطين يتقربون إلى الله تعالى بطاعة أميرهم والانقياد له في كل معروف، ويرون هذا الطاعة حقاً ثابتاً لحكامهم بنص القرآن وصريح السُنَّة وصحيحها.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي مجتمع المرابطين كان الشريعة فوق الجميع يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فإن طاعة الحكام كانت عندهم مقيدة دائماً بطاعة الله ورسوله.

قال ﷺ: «**لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف**»[(١)].

ثانياً: النصرة :

كان المسلمون تحت قيادة أمراء المرابطين يعاضدون وينصرون أمراءهم في أمور دينهم وجهادهم لعدوهم عاملين بقوله تعالى: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى** ﴾. [المائدة: ٢].

وكانوا يكرمون من يقيم شرع الله من حكامهم، ويدافعون وينافحون عنه ويكرمونه ويجلونه لقوله ﷺ: «**إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة، حديث (٧١٤٥).

المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط» [١] .

ثالثاً: النصح :

قامت هذه الدولة الميمونة المباركة على النصح المتبادل بين الحاكم والمحكومين، ونجد أن أحد الوزراء يطلب من الأمير يوسف عدم جواز البحر في جهاده ضد النصارى حتى يسلم المعتمد بن عباد له الجزيرة الخضراء، فيسمع الأمير يوسف هذه النصيحة وينفذها في أرض الواقع، وامتنع عن جواز البحر حتى تحصل على تلك الجزيرة التي أفادته في جهاده كثيراً ، لقد كانت قيادات المرابطين تستمع للنصح في تواضع جم ، واستعداد نفسي رفيع يدل على عمق التربية العميقة التي تحصلوا عليها.

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تناصح ولاة أمرها، وقد جاء الأمر بذلك في حديث جوامع الكلم لرسول الله ﷺ إذ يقول: «**الدين النصيحة**» ـ ثلاثاً ـ ، قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**» [٢] .

ومعنى النصيحة لهم في هذا الحديث: «معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق» [٣] .

وقال ﷺ: «**ثلاث لا يُغل عليهن قلب امرئ مسلم : إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**» [٤] .

---

(١) رواه أبو داود كتاب الأدب ، باب تنزيل الناس منازلهم (٢٣ / ٤٨٢٢) .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان ، باب : بيان أن الدين النصيحة (٢٣ / ٥٥) .

(٣) جامع العلوم والحكم ، لابن رجب (ص ٧٩) .

(٤) **انظر** : صحيح ابن ماجة ، للشيخ الألباني – رحمه الله – (جـ٢ ، ١٨٢ رقم ١٤٨) .

لقد أكرم الله حكام المرابطين ببطانة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر مرشدة للصواب، ناصحة للراعي والرعية لا تخشى إلا الله.

رابعاً: التقويم :

كان المسلمون الذين ارتبطوا بدولة المرابطين لا يجدون حرجاً ولا مانعاً في إيصال ما يرونه من النصح والإرشاد ؛ وتقويم الأخطاء التي يقع فيها الحكام ؛ أثناء اجتهاداتهم في شئون الحياة.

وهذا المبدأ قد استقر في مفهوم الصحابة منذ بداية دعوة الإسلام، فهذا الصديق رضي الله عنه عندما تولى الخلافة، قام في الصحابة خطيباً، فقال: «أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعيونني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله» (١).

وكان عمر رضي الله عنه لا يكتفي بإنصاف الناس من نفسه، حتى ينصفهم من عُماله وولاته، يسأل الرعية عمن أساء منهم، وكان يقول: «إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسُنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علي، ليرفعها إليَّ حتى أقصه منه» (٢).

إن علاقة الحاكم بالمحكوم في الإسلام غرضها الأول :إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ولمصلحة الراعي والرعية.

---

(١) البداية والنهاية (جـ١ /٣٠٦).

(٢) الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد (جـ٨ /٢٢٢)

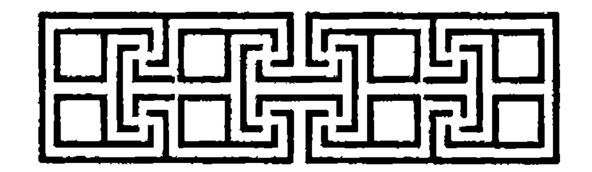
ثانياً: فهي بعيدة كل البعد عن من يجعلون في مرتبة من لا يسألون فيها عما يفعلون، وبين من يحقرون ويمتهنون حكامهم بدون وجه حق، إن الحاكم في الإسلام له احترامه وحقوقه المستمدة من كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، وكذلك للمحكوم حقوقه المستمدة من أصل عقيدة الإسلام، لذلك نجد النصح والنقد والتقويم بين الحاكم والمحكوم في تاريخ الإسلام على مر العصور والأزمان، فإذا تأملت في الدول التي سارت على شرع المولى عز وجل ، وجدت هذه المعالم واضحة.

وهذا يوسف بن تاشفين عندما دخل في بلاد الأندلس للجهاد في سبيل الله فأرسل إلى أهل المرية من ممالك الأندلس، وذكر لهم أن جماعة أفتوه بجواز طلب العون اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه فرد قاضي المرية «أبو عبد الله بن الفراء» على الأمير يوسف ردًّا فيه نقد وتقويم ونصح، فلم يتعرض ذلك القاضي لعقوبة، بل استمع إلى نصحه وإرشاده وما رآه حقًّا، وكان هذا القاضي من الدين والورع بمكان، وهذا نص الجواب الذي أرسله إلى الأمير يوسف: «أما بعد ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخيري عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدُوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، وكان صاحب رسول الله ﷺ وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ وحلف أن ليس عنده درهم واحد من بيت مال المسلمين ينفقه عليهم، فلتدخل المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم، وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذٍ تستوجب ذلك، والسلام» (١) .

---

(١) وفيات الأعيان (جـ٧/ ١١٩) .

ومحل الشاهد من هذه الرسالة هو النقد والتقويم المستمر في حياة الأمة بين علمائها وأمرائها بدون ظلم وجور واعتداء من الطرفين على بعضهما البعض، وبذلك تنطلق حضارة الأمة بآفاقها المتنوعة لتحدث تغييراً حضارياً في دنيا الناس، مبني على النصح والتناصح ، والنقد والتقويم ، كما حدث في دولة المرابطين السنية .



المبحث الثالث

موقف المرابطين من الخلافة العباسية

رأى المرابطون أن مبايعة الخليفة العباسي واجبة، ولذلك أعطوا بيعتهم له لكونهم مالكيين سنيين، فاعترفوا بالخلافة العباسية واتخذوا السواد شعاراً لهم، ونقشوا اسم الخليفة العباسي على نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وبعد أن بسط الأمير يوسف سيادته على الأندلس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة، ونزولاً عند رغبتهم اتصل بالخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله ٤٨٧ ـ ٥١٢هـ /١١١٨م ، وأرسل إليه بعثة من عبد الله بن محمد بن العربي الإمام المعروف، وزودها بهدية ثمينة وبكتاب يذكر فيه ما فتح الله على يده من البلاد في المغرب والأندلس، وما أحرزه من نصر للمسلمين، وعز للإسلام، ويطلب في النهاية تقليداً بولاية البلاد التي بسط نفوذه عليها، وأدت البعثة مهمتها بنجاح فتلطفت في القول وأحسنت الإبلاغ وعادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين الذي سر بذلك سروراً عظيماً (١) .

لقد كانت دولة المرابطين من الناحية العملية تستطيع أن تستغني عن الخلافة العباسية الضعيفة حيث إن السلطان لا يملك من السلطة إلا اسمه، بل كان الأمير يوسف أكثر قوة منه يملك ويحكم، ولكن حبهم لشريعة الإسلام وحرصهم على تنفيذ أحكام الله في أسوأ الظروف جعلهم يتقيدون بذلك، لقد كانت توجيهات القرآن الكريم في وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق واضحة المعالم بالنسبة إليهم ولقد كانت أحاديث رسول الله ﷺ في هذا المضمار هي التي

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٥٧) .

أرشدتهم للانضمام للخلافة العباسية الضعيفة ، قال تعالى: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم (١٠٥) يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (١٠٦) وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون (١٠٧) ﴾[آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٧].

لقد ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: قوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ ونحو هذا في القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله»[١].

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من فارق الجماعة شبراً فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه**»[٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من فارق الجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية**»[٣].

والمراد بميتة الجاهلية وهي بكسرالميم حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له أمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافراً، بل يموت عاصياً، لقد ذهب علماء المرابطين إلى أن الجماعة المقصودة في الحديث جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، موافق للكتاب والسُّنَّة[٤].

هذا في نظري سبب دخول المرابطين تحت الخلافة العباسية، وأما ما ذكره

---

(١) جامع البيان (جـ٤ / ٣٩).
(٢) البخاري ، فتح الباري (جـ١٣ / ٧).
(٣) **انظر** : الشيخ الألباني – رحمه الله – في السلسلة الصحيحة (جـ / ٩٨٤).
(٤) **انظر** : وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ، د . جمال أحمد (ص ٩٧).

المؤرخون أن من أسباب ذلك بعدهم عن العباسيين، ولذلك كانوا لا يخشونهم خاصة بعد أن تطرق إليهم الفساد، ودب الضعف فيهم، وهى لا تشكل أي خطر عليهم، فإني استبعد ذلك حيث أن سياسة قادة المرابطين تقاد بالشرع، وليس العكس، فهم إسلاميون سياسيون، وليسوا سياسيين إسلاميين في علاقاتهم الخارجية وشئون دولتهم الداخلية وارتباطاتهم الدولية.

أولاً: الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي إلى الخليفة المستظهر بالله:

«٤٨٧ - ٥١٢ هـ» يلتمس فيه تقليداً يخول يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والأندلس: بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي:

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، وضاعف مددها، ولا أرى المسلمين أمدها بغرائب مجد تبدعها، وفرائض تشرعها الخلافة، ومستأنف سعود تحرس جنابها، ولا زالت الأيام التي هي لأيامها غرر، وفي إكليل الخلافة درر، وللدهر تمائم، وفي المحل غمائم، والحمد لله الذي جعل المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السواد، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب، كابراً عن كابر إلى أعلى خندف [1] فهي أعلاها عماداً وأوراها في مواقف الفضل زناداً، أرومة الرسالة وجرثومة الخلافة، إليها ينزع هاشم، وعنها أخذت المكارم، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل، وعهد بتخليدها مخبراً عن الوحي في آله وعقبه النبي المرسل، قد آمنت بعصمة الله من الغير، وتحققت أواخرها على السنن أولها في هداية البشر بحسن السير، أوزعنا الله الشكر على ما منّ به من توقيفنا للتمسك بعراها الوثيقة والإهداء بهداها إلى واضح الطريقة، فهم في الدين أمتنا ويوم الدين وسليتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي إلى مرضاته ومرضاتهم، إنه الموفق الهادي لا رب غيره.

---

(١) **خندف**: هي امرأة إلياس بن معز أحد جدود العرب، وقد عرف بنوه بها: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، (ص ٣٤٨).

وأن الخادم بالأدعية المنقلبة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، ألهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الإمام العادل من أركان الديانة، ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة.

هاجر إلى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغرب، معتقداً أن علمه أفضل القرب والرغائب، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر، واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر، ولم يثنه بحر يزخر، ولا قفر يذعر ويحتسب في ذلك أثره، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عشره، إلى أن انتهى هو وابنه إلى مدينة السلام لا زالت محروسة من غِيرَ الأيام، عاصمة لمن التجأ إليه من مهتضمي الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته، ويتقرب بخلوص علانيته وسريرته، ويسأل تشريف رقاعه بملاحظاتها، والنظر من انقطاعه، رغبة في الحظ الجسيم، إلى أن وصل إلى المجلس السامي وخدم البساط العالي، زاده الله تعظيماً وتشريفاً، وأنهى أغراض وفادته ومقاصد إدارته، فنفذت الأوامر الشريفة، أدام الله سموها وتشريفها واصطفى على الجميع ستر سلطانها، وكنف إحسانها بقبول وسائله، وإلحاح مطالبه، وإضافة الإحسان عليه.

ولما بسط له في الأمل، وكان هو وابنه في محل الكرامة والجذل، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين، وجامع كلمة المسلمين، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد المتجهز إلى المسلمين باستئصال فئة العناد، ولمة الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم، ولا من شعبة الطاهر الصميم، فنبه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاماً إلى أن صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة، واجتمعت

بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة، فيخطب الآن للخلافة، بسط الله أنوارها، وأعلا منارها على أكثر من ألفي منبراً وخمسمائة منبراً، فإن طاعته ضاعفها الله من أول بلاد الإفرنج استأصل الله شأفتهم، ودمر جملتهم إلى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد غانة وهي بلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم قد فللت غربهم، وقللت حزبهم، وألفت جموعه حربهم، وهو مستمر على مجاهدتهم، ومضايقتهم في كل أفق، وعلى كل الطرق، وقد استرجع كثيراً من المعاقل التي استباحها الروم من أمور المسلمين، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه، وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها، واحترمت لحرمة المسلمين والإسلام وعز سلطانه وهذا دأبه، وهجيراه الذي لا عمل له سواه.

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس وكان أمله مواصلة الخدمة والتشريف بإنهاء أعماله، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله وباحتماله على حماية دين المسلمين وإقباله على مجاهدة المشركين، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لإشفاته، ولم يزل محافظاً على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة والاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله، ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاضي من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته، ويؤيد ما شرحته ، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة، وصل الله تشريفها وتعظيمها، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم، وحصاره لهم، وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولي الأمر لاسيما هذا الأمير، وقد حظي بفضائل منها الدين المتين، والعدل المستبين، وطاعة الإمام، ابتدأ جهاده بالمحاربة على إظهار دعوته، وجميع المسلمين على طاعته والارتباط بحماية ثغور المسلمين، وهو ممن يقسم بالسوية، ويعدل في الرعية ووالله ما في طاعته مع

سعتها دان منه، ولا ناء عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم مكس، وسبل المسلمين آمنة، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشوب، مطرزة باسم الخلافة، ضاعف الله تعظيمها وجلالها.

هذه حقيقة حاله، والله يعلم إني ما أسهبت ولا لغوت، بل لعلي قد أغفلت أو قصرت، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، والطول العميم في الأمر، تشريفه بقبول تأميله، وفي الإشارة إليه بما يقوي أمره، ويشد أزره ويؤيد سلطانه ويعلي شأنه مجرياً له على السُنن الكريم، والطول العميم، فوالله ما في الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء من يجوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه، ولا يلبس من النصيحة من الخلافة المقدسة المبنيةعلى طريق النبوية، ما يصل بده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطول.

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن، فقد بعد عنه سبعة أعوام، وأقاما في الجناب الخضب الظليل والكنف الرحب المأهول مدة عامين، يستدران النعم الحافلة جملاً بعد جمل، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة عللاً بعد نهل، فلله الهام الشريفة التي مسحت على شكيتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام، فأزاحت عنهما جميع الشكايات والآلام.... لا أعدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعالي وسعادة تحرز أسنى الآمال، وكفاية يستمد بها حرية الأيام والليالي، فذلك بيده وغيره معجزة، وهو المنعم الجواد، وكل خير من طوله مستفاد، لا شريك له، ولا توفيق إلا به والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين، وعترته المنتخبين الراشدين، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين، وحسبي الله ونعم الوكيل» (١).

---

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي (ص ٤٧٦)

إذا تأملنا في الرسالة المذكورة فإنها تدلنا على طابع رسائل الحكام في فترة المرابطين، وتدلنا على حسن اختيار دولة المرابطين لممثليها عند الخلافة العباسية حيث إنها اختارت عالماً فقيهاً ذا دراية وخبرة كبيرة في مخاطبة الحكام والخلفاء، وبذلك نجحت تلك الوفادة وحققت أهدافها، ورجعت تحمل معها ثمارها.

ثانياً: رد الخلافة العباسية على طلب دولة المرابطين:

لا شك أن الخلافة العباسية دخلها سرور عظيم وكسبت مكسباً معنوياً كبيراً ولذلك حرص الخليفة على أن يرد بنفسه على خطاب ابن تاشفين حيث كتب سبعة وثلاثين سطراً جاء فيها: «عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الإمامة المطهرة المكرمة، زاد الله جلالها، وسبوغ ظلالها، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الإخلاص معتصماً، ولشرطه ملتزماً، وإلى أداء فروضه مسابقاً، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق من الولاء، طويل نجاده، إذ كان من غدا بالدين تمسكه، وفي الزيادة عنه مسلكه، حقيقاً بأن يستتب صلاح النظام على يده، ويستشف من يومه حسن العقبى في من يليه من الكفار، وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، اتباعه لقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذا هو الواجب اعتماده الذي يقوم به الشرع، وأن يؤلف شمل من في جملته من الأنجاد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى واستقراه قوله تعالى العمل به، والبدار إلى التشبث بسببه: ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله الزلفى ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾.

[آل عمران: ٣٠].

وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذي يضفى عليهما برده، ويصفوا لهما وُدَّه ، وليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر، ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر، فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء الله » (١) .

لقد استطاعت دولة المرابطين أن تكون سنداً قوياً معنوياً للخلافة العباسية السنية وبذلك تكون نفذت أوامر ربها واسترشدت بتوجيهات نبيها، فأصابها بركة ذلك من سمعتها العالمية في ديار المسلمين، وأصبحت جزاءاً من الخلافة العباسية التي اكتفت منها بالطاعة المعنوية، وبذلك تحصل أمراء المرابطين من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم حيث إن المرابطين كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه لن يعتبر ملكهم مشروعاً إلا إذا باركته الإمامة القرشية العباسية .

واختلف المؤرخون في زمن اتصال المرابطين بالخلافة العباسية فابن الأثير يقول:

إن أول اتصال بين المرابطين والعباسيين قد حدث عقب انتصار الزلاقة واستيلاء يوسف على الأندلس ويتفق مع ابن الأثير في هذا الرأي كل من ابن خلدون والقلقشندي والذهبي (٢) .

وأنا أميل إلى : أن اتصال المرابطين كان قبل ذلك بكثير حيث إن واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين الفقيه « أبو عمران الفاسي القيرواني من أتباع الخلافة العباسية وكل الفقهاء الذين من مدرسته سنيون مالكيون، وبذلك يكون زعماء المرابطين ساروا على نفس التعاليم السنية المالكية » .

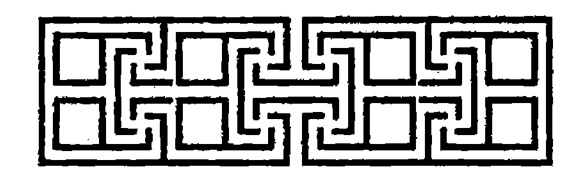
ونجد أن نقود المرابطين قد نقش عليها أسماء الخلفاء العباسيين منذ عام ٤٥٠هـ أي منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمران، وظل اسم الخليفة العباسي يذكر مقروناً

---

(١) دارسات في تاريخ المغرب (ص ٤٧٨) .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس ، د . حمدي عبد المنعم (ص ٢٣٧) .

باسم أبي بكر بن عمران إلى أن توفي في عام ٤٨٠هـ وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على السكة مع اسم الخليفة العباسي، وهذا يدل على صلة المرابطين بالعباسيين قبل الزلاقة، ولا شك أن كتابة اسم الخليفة على عملة المرابطين تم بعد اتصالهم بالخليفة العباسي، وبعد أن تلقوا منه إجابة بقبول طاعتهم وتقليداً بولايتهم (١) .



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٣٦) .

المبحث الرابع
علاقات الأمير يوسف مع بني حماد

حرص الأمير يوسف على علاقة حسن الجوار مع دولة بني حماد الصنهاجية التي تقع في شرق دولة المرابطين، وكان الحماديون يتحينون الفرصة لضم أطراف من مملكة المرابطين، وتم لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف الأندلس عام ٤٧٩هـ، فتحالفوا مع عرب بني هلال وغزوا المغرب الأوسط وعادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم، وسكت يوسف عن الانتقام منهم وصالحهم، ولم يرغب في الدخول في حرب معهم مع وجود أسبابها حقناً لدماء المسلمين وحفظاً لشوكتهم وقوتهم.

وعندما توفي الناصر بن علناس الحمادي في عام ٤٨١هـ بعث الأمير يوسف بكتاب تعزية إلى ولده وخليفته المنصور مما يدل على نيات يوسف السليمة تجاه بني حماد، واستمرت حالة السلم بين الفريقين أكثر من عشر سنوات ثم نشب خلاف بين والي تلمسان المرابطي تاشفين بن تنغمير وحكام بني حماد فهاجم الأمير يوسف واستطاع بحكمته وسياسته أن يحقن دماء المسلمين، وعزل حاكم تلمسان تاشفين وعين مكانه الأمير مزدلي، وبعد أن ضم الأمير يوسف الأندلس أضحت مملكة بجاية ملاذاً للفارين من الأندلس، ومع ذلك لم يحرك الأمير يوسف ساكناً تجاه عمل بني حماد وبقي الأمر كذلك حتى وفاته (١).

لقد كان للتوجه السُني في دولة الحماديين أثر في تخفيف الصراع مع المرابطين، كما أن لصلة القرابة الصنهاجية سبب آخر، وإلا ما كانت تستطيع دولة الحماديين أن تقاوم جيوش المرابطين الفتية، وفي نظري أن بقاء دولة الحماديين كانت من الأسباب التي أضعفت الدولة الزيرية الصنهاجية، وسببت توتراً وارتباكاً لدولة المرابطين، ولو ضمت لدولة المرابطين لكان أفيد للإسلام والمسلمين وللمغرب الأوسط والأقصى.

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٥٨).

المبحث الخامس

علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف

مرت علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف بمراحل متعددة، وهي: المسالمة، التحالف، القتال.

أولاً: مرحلة المسالمة:

لما وصلت دولة المرابطين ذروة قوتها وحطت بجيوشها وأساطيلها على سهل البحر المتوسط ارتعد ملوك الطوائف، وأصابهم الخوف وركبهم الهم، وأصبحوا بين قبضتين قويتين بين النصارى الذين يمكن مداراتهم بالأموال وبالتنازل عن بعض الحصون بين المرابطين الذين عرفوا بجهادهم واستعلائهم على متاع الدنيا، وحبهم للشهادة ورفع المظالم عن العباد، وقد وصلهم ظلم ملوك الأندلس، وقد اشتهر جنود المرابطين بصيت عظيم في تحقيق النصر في المعارك، وبأس شديد في القتال مما أدخل الرعب في قلوب ملوك الطوائف، فعقدوا اجتماعاً للتشاور في أمر الخطر القادم من الجنوب، واستقر رأيهم أن يكتبوا للأمير يوسف يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته، وهذا نص الكتاب: «أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبنا فاختر لنفسك أكرم نسبتك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام» [1].

وأرسلوا مع حامل الكتاب هدايا وتحفاً نفيسة.

وبعد أن تشاور الأمير يوسف مع مستشاريه رأي أن يسالمهم ويرضى بما قدموا

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٥٩).

له من طاعة، ورد عليهم بهذا الكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف ابن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم عليكم وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصين منا أكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام».

وقد قرن الأمير يوسف الكتاب بالتحف وبدرق اللمط التي لا توجد إلا في ديار المرابطين، ولما وصل كتابه إلى ملوك الطوائف فرحوا بذلك، وتقوت نفوسهم على قتال الإسبان، وأحب أهل الأندلس دولة المرابطين حكامهم ومحكوميهم [١] .

ثانياً: مرحلة التحالف :

وبعد سقوط طليطلة في يد الإسبان النصارى عام ٤٧٨هـ اضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا النجدة من الأمير يوسف الذي لبى نداءهم، وكان سبباً في إيقاف زحف النصارى على ممالك الأندلس، وانتصر على ألفونسو في معركة الزلاقة المشهورة.

وبعد أن احتك الأمير يوسف بملوك الطوائف ووقف على خيانتهم وتحالفهم مع النصارى واتصالهم بأعداء المسلمين انتقلت العلاقة من التحالف إلى العداوة.

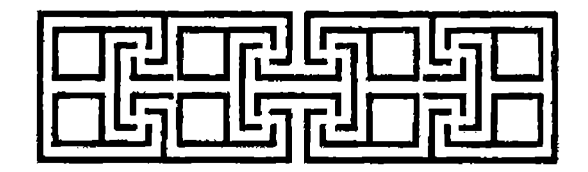
ثالثاً: مرحلة العداوة:

حيث استعرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف انتهت بضم كافة ممالك الأندلس لدولة المرابطين إلا سرقسطة التي حكمها أحمد بن هود ، والذي كان كالشوكة في حلق النصارى ، فقد قاومهم زمناً طويلاً، وتراجع النصارى أمام صمود بني هود البطولي، وأظهر بنو هود مقدرة فائقة على قتال النصارى ،

---

(١) دولة المرابطين(ص ١٦٠) .

مما جعل المرابطين يحترمونهم، وتوطدت العلاقات الودية بين الأمير يوسف والأمير أحمد بن هود الذي كان وفياً في عهوده ومخلصاً في جهاده وحريصاً على أمته، ورضي المرابطون ببقاء أحمد بن هود حاكماً تابعاً لهم وبذلك أصبحت الأندلس ولاية تابعة لدولة المرابطين، وتوارت العناصر والزعامات الهزيلة وانهار سلطان العصبيات الطائفية [١] .



(١) انظر : الأندلس في عصر المرابطين (ص ١١٢) .

المبحث السادس
علاقة المرابطين مع الإسبان والنصارى

كانت علاقة المرابطين مع نصارى الإسبان عدائية بصورة دائمة إذ لم يتخللها أي اتصال ودي خصوصاً في زمن الأمير يوسف بن تاشفين، والاتصال الوحيد الذي حدث عن طريق الرسائل بين الأمير يوسف وألفونسو أثناء قيام هذا الأخير بحملته العدائية على مملكة المعتمد، ووصوله إلى مضيق جبل طارق إذ أرسل إلى الأمير يوسف رسالة تفيض تهديداً ووعيداً، ويذكر فيها حالة ملوك الطوائف. وكان جواب الأمير يوسف مختصراً: الجواب ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله تعالى وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا ... ولا رسل إلا الخميس العرمرم [1]

واستمر جهاد المرابطين للنصارى الذين امتنعوا عن دخول الإسلام ورفضوا دفع الجزية وحملوا السيف ضد المسلمين، أما الذين دفعوا الجزية وعاشوا داخل دولة المرابطين فكانت أحكام الإسلام في أهل الذمة تحفهم وتحفظ حقوقهم.

أولاً: عاملتهم دولة المرابطين معاملة أهل الذمة:

فكانت عليهم واجبات في دولة المسلمين منها:

﴿١﴾ التزام الجزية، وإجراء أحكام أهل الذمة عليهم.

﴿٢﴾ ترك ما فيه ضرر على المسلمين في أنفسهم وأموالهم كالتعدي على المسلمين بضرب أو نهب.

﴿٣﴾ تحاشي ما فيه غضاضة على المسلمين، كذكر الإسلام أو القرآن، أو الرسول ﷺ بما لاينبغي.

---

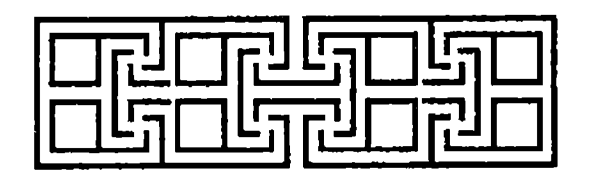
(١) دولة المرابطين (ص ٦٦).

﴿٤﴾ تجنب ما فيه إظهار منكر، كشرب الخمر في الأماكن العامة للمسلمين.

﴿٥﴾ التميز عن المسلمين بعلامة خاصة يُعرفون بها، كأن تكون في اللباس أو غيره [١].

ثانياً: حقوقهم في دولة المسلمين:

الكف عنهم والحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين [٢] روى نافع عن ابن عمر قال: «احفظوني في ذمتي» [٣] والأحكام فيما يتعلق بأهل الذمة كثيرة يرجع إليها في كتب الفقه المختصة.



(١) **انظر**: المغني لابن قدامة(جـ١٠/٦٠٦ ، ٦١٨) .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ،(ص ١٤٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

الفصل الرابع

سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة

المبحث الأول

نظم الحكم والإدارة في دولة المرابطين

أولاً: النظام الإداري:

[١] نظام إمارة المسلمين :

كان النظام السائد في إمارة المسلمين عند المرابطين يعتمد على اختيار الأمير وفق فقه الشورى، وكانوا حريصين على تطبيق قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) ﴾.

[الشورى: ٣٨].

وكان زعماء المرابطين يتشاورون في الوسائل التي تعين على تمكين الحق وإظهار الصواب، ونشر الصلاح بين العباد، واقتدوا بالقرآن الكريم في توجيهه للرسول ﷺ: ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«أي لا يصدنك ما كان منهم من خطأ رأيهم فيما بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنما كان قد حصل فلتة تغفر وعثرة تُقال وشاورهم في أمر الحرب وأمثاله مما يجري فيه المشاورة» (١).

وقد دلت الآية على أن الشورى قد أمر بها الرسول ﷺ في مهمات الأمة ومصالحها كالحرب ونحوها، وذلك في أمر التشريع، لأن أمر التشريع إن كان فيه

(١) انظر: تفسير أبي السعود (جـ١/ ٥٥٨)

وحي فلا محيد عنه، وهي توجيه لكل ولاة الأمر بعده أن يشاوروا عن أمر الدين والدنيا، وما ليس فيه نص واضح، وهي تشمل هنا المشاورة في شئون الأمة ومصالحها [١] .

وكان مذهبهم في الشورى مذهب المالكية وليس الخصوص ، قال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وفيما يشكل من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها» [٢] .

وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب الصواب، فقال: «والشورى مسار العقل وسبب الصواب» ، ويشير إلى أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة وما يتوقف على الواجب فهو واجب [٣] .

ويذهب ابن عطية أيضاً إلى الوجوب، بل يؤكد هذا الوجوب فيقول:

«الشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم فعزله واجب، وهذا ما لا اختلاف فيه» [٤] .

لقد كان نظام الشورى هو الأساس الذي اعتمده المرابطون في نظام حكمهم في بداية دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشفين، فقد كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيسهم الذي يتم تعيينه بعد عقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين، الذي لم يحرص على استمرار الإمارة في أسرته، كما أنه لم يباشر أي ضغط على المرابطين في اختيار يحيى بن عمر ثم أبي بكر بن عمر، بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين قوله: «إياكم والمخالفة والتحاسد على

---

(١) **انظر** : تفسير القرطبي (جـ٤ / ٢٠٥) .
(٢) المصدر السابق ، (جـ٤ / ٢٠٥)
(٣) ابن العربي .
(٤) ابن أبي زرع القرطاس ، (ص ٩٠)

الرياسة فإن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، ولقد ذهبت عنكم فانظروا من تقدمونه منكم، يقوم بأمركم ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيئكم، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»(١) .

من هذه الوصية يتبين أن الزعيم الأول للمرابطين، لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده وأن تنفصم عرى هذه الوحدة، وتنتهي هذه الدعوة التي عمل جاهداً على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف أن يعين والياً للعهد يستخلفه بعد موته، وهكذا حدث انحراف في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً ولياً لولاية العهد، وكان اجتهاد يوسف بن تاشفين في هذا التعديل الخطير يعتمد على رأيه أن اجتهاده ذلك يحفظ وحدة بلاده ودولته، ويقضي على التنافس من أجل الحكم ورأي مصلحة بلاده وشعبه تقتضي اختيار ابنه.

كان من الطبيعي أن يمهد لفكرته في اختيار ولي العهد، ولذلك شاور كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار، ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م) ، وناقشهم في المبررات التي دفعته إلى اختياره، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه، وعلى أثر ذلك قرئ مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار، والشروط الواجب توافرها فيه، والمبادئ التي ينبغي أن يسير عليها، وهذا المرسوم كتبه الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور، وكان من أعلام البلاغة في ذلك العصر»(٢) .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) **انظر** : الحلل الموشية (ص ٥٦ ، ٥٧)

ونستخلص من نص الوثيقة التي ذكرتها فيما مضى: أن يوسف بن تاشفين اتبع مبدأين في اختياره ولده أبي الحسن علي ولياً لعهده:

أولهما: مبدأ الاختيار:

فقد أشارت الوثيقة التي ذكرتها إلى أن يوسف قد اختار من بين أولاده من هو أصلح لقيادة تلك الدولة المترامية الأطراف: «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان إليه دعا»[١].

ثانيهما: مبدأ الشورى:

فقد أخذ يوسف به، وتمسك بما جاء في القرآن الكريم وما جاء على لسان نبيه ﷺ وما سار عليه الخلفاء الراشدون: «ودعاه لما كان إليه دعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي»[٢].

كما أشار مرسوم البيعة إلى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها الأمير يوسف على ابنه، وأهم تلك الشروط التمسك بالمبادئ التي دعا إليها الإمام عبد الله ابن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء، والعمل على إقامة العدل بين الرعية، وبالإضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق بضمان أمن الدولة من وضع سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أقطار معلومة، يكون منها بإشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمرابطية في الحصون المعاينة للعدو[٣].

وفي عام ٤٦٩هـ دخل يوسف بن تاشفين قرطبة، وجمع كبار رجال الدولة وأمراء لمتونة وأشياخ البلاد، وقادة الرأي والفقهاء والعلماء والقضاة، وتلا عليهم

---

(١)، (٢) **انظر**: الحلل الموشية (ص ٥٦، ٥٧).
(٣) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٥١).

عقد البيعة لابنه علي الذي سبقت الإشارة إليه، وضمنه الأسباب التي حملته على اختياره ولياً للعهد، ثم أخذ البيعة له من جميع الحاضرين، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء، ثم وقعوا على عقد البيعة، وقام على أثر ذلك، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وترسم السياسة التي رسمها أبوه، ثم أشهد الكتاب ووقع على الوثيقة (١) .

[أ] وفاة الأمير يوسف :

ثم عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب، حيث مرض مرضه الأخير الذي استمر زهاء عامين وشهرين، وانتهى بوفاته عن مئة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله، وكانت سنة وفاته (٥٠٠هـ /سبتمبر ١١٠٦م) وكان ولي العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه، ونجح نجاحاً كبيراً في إدارة دفة الحكم لدولة المرابطين، وكانت آخر وصية من يوسف لابنه في مستهل سنة ٥٠٠هـ أوصى ولده وولي عهده بعده أبا الحسن علياً بثلاث وصايا :

أولها: « ألا يهيج أهل جبل درن ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة » .

والثانية: « أن يهادن بني هود بالأندلس وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم » .

والثالثة: « يقبل مِن مَن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم » (٢) .

[ب] لقب أمير المسلمين:

كان زعماء المرابطين يطلقون على أنفسهم لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمير على كل زعيم يتولى أمرهم ابتداءً من عهد أمير لمتونة أبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته، وعندما تولى يوسف بن

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٢٥١) .

(٢) ابن أبي الزرع (ص ١٠٣) .

تاشفين زعامة المرابطين منذ ٤٦٤هـ ظل يتلقب بالإمارة إلى سقوط أبي بكر بن عمر شهيداً في أحد المعارك في سنة (٤٨٠هـ /١٠٨٧م)، وعندئذٍ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين، واجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقب بأمير المؤمنين، لأن حقه أكبر من أن يلقب بالأمير فرفض ذلك قائلاً: «حاش أن أسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم» (١) ، ولكنهم قالوا له : أن لا بد له من اسم يمتاز به على سائر الأمراء واقترحوا عليه لقب أمير المسلمين وناصر الدين، وأصبح العمل جارياً به عند سائر المرابطين، وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب بعد وفاة أبي بكر بن عمر على القول الأرجح وهذا نص الكتاب الذي أرسله إلى الولاة والقادة والعلماء: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف ابن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم برضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد حمد الله أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله، وأنه لما مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة محمد المصطفى نبينا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام» (٢) .

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٢)

(٢) دولة المرابطين (ص ١٦٢، ١٦٣)

ويرى بعض المؤرخين من أمثال أبي زرع في «روض القرطاس» إلى أن الأمير يوسف تلقب بأمير المسلمين في يوم الزلاقة ، ولم يكن يُدعى به من قبل، وإن ملوك وأمراء الأندلس وكانوا ثلاثة عشر ملكاً بايعوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو أول من سمي به من ملوك المغرب .

وقد تأثر شعب النيجر بشكل خاص بالمرابطين وأطلق على حكامه لقب أمير المسلمين وكانوا مالكيين في المذهب ويرجع ذلك إلى أن المرابطين هم الذين نشروا الإسلام في تلك الربوع النائية [١] .

[جـ] نائب الأمير :

كان اتساع مملكة المرابطين سبباً في اتخاذ نواب ينوبون عنه حيث كان من المستحيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدولة المترامية الأطراف، فعين بعض النواب المقربين إليه، فعين نائباً على شئون الأندلس ونواباً على إقليم المغرب، وكان يراعي في اختيار النائب أن يكون أقرب الناس إلى أمير المسلمين، وأن يتوفر فيه حسن الإدارة والكفاية العسكرية ويعتبر ممثلاً أولياً لأمير المسلمين ويستمد نائب الأمير سلطته من الأمير شخصياً، وكان ولي العهد نائباً للأمير، وتولى نيابة الأندلس، وكانت قرطبة هي المفضلة لإقامة ولي العهد لمكانتها السامية في نفوس الأندلسيين، وأول نائب عينه الأمير يوسف على الأندلس القائد سير بن أبي بكر اللمتوني، ثم بدلَّ به ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف، وتلي نيابة الأندلس من حيث الأهمية نيابة فاس بالمغرب وكان النائب يستقر فيها عندما كان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كي لا تحدث ازدواجية في السلطة [٢] .

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٢ – ١٦٣).

(٢) حركات النظام السياسي والحربي عند المرابطين (ص ٦٥)

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية إذ كان عليه أن يخوض الحروب ويقمع الفتن وحركات التمرد يعاونه قادة كبار من لمتونة [١] .

وكان من سياسة يوسف بن تاشفين مع نوابه مراقبتهم ولا يتيح لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال، فكان النواب دائماً معرضين للنقل من ولاية إلى أخرى.

وكانت نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتابًا يقومون عنه بالمكاتبات أو تسند إليهم بعض الأعمال الإدارية، وممن ظهر من كتّاب نواب المسلمين علي بن يوسف في الأندلس الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال كاتب الأمير محمد بن الحاج، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبي بكر بن إبراهيم، والزبير بن عمر اللمتوني كاتب تاشفين بن علي، وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المسلمين صورة مصغرة من حياة هذا الأمير فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والأعوان [٢] .

[د] تولية الولاة :

كان الأمير يوسف يعين الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام فولى أمراء قومه الأقاليم، فقبل ضم الأندلس كان سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فزاز، وولي عمر بن سليمان المسوفي مدينة فاس وأحوازها، وداود بن عائشة سلجماسة ودرعة، وتميم بن يوسف مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا ، وبعد ضم الأندلس عين يوسف بن تاشفين القائد سير بن أبي بكر حاكماً على الأندلس، وفوض له تعيين والياً على كل بلد يفتحه ويكون من لمتونة.

---

(١) مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد (١١) ، (جـ٢ /٢٧) ، تحت عنوان الثغر الأعلى في عهد المرابطين د . جسين مؤنس .

(٢) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين (ص ٢٦٣)

وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير، ومنح الأمير يوسف سلطات واسعة منها حق التصرف في عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين، ومن يليهم من رجال السلطة ، وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، وكان الأمير يوسف وابنه من بعده يراقبون ولاتهم مراقبة شديدة، ويجري تبديلهم وعزلهم إذا أساءوا، وكانوا يضعون مصالح الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة (١) .

[هـ] نظام الوزارة:

كان الأمير يوسف بعيداً كل البعد عن اتخاذ الألقاب والألفاظ والاهتمام بالمناصب، فلم يتخذ وزراء بالمعنى المتعارف عليه، ولم يمنح لقب وزير لأي شخص إلا أنه اتخذ لنفسه أعواناً يرجع إلى مشورتهم، وكتاباً يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء، وكانت لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء، والأعيان والكتاب يلازمونه في قصره وتنقلاته يبدون آراءهم في المشاكل المطروحة للبحث وتبقى الكلمة الفاصلة للأمير. أما في الأمور المهمة فكان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء، وكان الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان من السهولة بمكان، وساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زهد في الدنيا وتطلع للآخرة وحب للبساطة، وميل للتواضع.

ويذهب الأمير يوسف في مذهبه إلى أن الشورى معلمة وغير ملزمة وله في ذلك أدلة حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الشورى غير ملزمة مستندين في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

ذهب الإمام الطبري ـ رحمه الله ـ إلى القول: «إذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به، وافق

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٥) .

ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك على ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم» [١] .

ويرى بعض العلماء : أن رأي الشورى ولو أنه غير ملزم لكنه ينير الطريق أمام الحاكم [٢] .

وأضاف العلاقة أبو الأعلى المودودي في قضية الشورى هل هي معلمة أو ملزمة بعداً آخر وهو طبيعة المجتمع وما يسوده من أخلاق حيث يقول: «ما وجدت حكماً قاطعاً في هذا الباب في أحاديث الرسول ﷺ، غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسئول الحقيقي عن شئون الدولة، وعليه أن يسيرها بمشاورة أهل الحل والعقد، ولكنه ليس مقيداً بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء وبكلمة أخرى أنه يتمتع بحق الاعتراض على آرائهم».

ولكن هذا الرأي في صورته المجملة كثيراً ما يسبب سوء الفهم بالقياس إلى أحوالهم وأوساطهم الحاضرة، ولا ينظرون إلى ذلك الزمان ولا الوسط الذي قد أخذنا هذا الرأي من أعمال الأمة فيه، فما كان أهل الحل والعقد في عهد الخلافة الراشدة منقسمون إلى أحزاب متفرقة، بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص.. ثم يوازن الخليفة بين الحجج الموافقة والمعارضة ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل، ويبين رأيه، وكان هذا الرأي في عامة الأحوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم...» ثم قال: «لم نعثر في تاريخ الخلافة الراشدة كله على مثال واحد نرى فيه أهل تفريق جميل بين المجتمع

---

(١) تفسير الطبري(جـ٧ /٣٤٦) .

(٢) د. عبد الحميد متولي، مبدأ الشورى في الإسلام(ص ٥٢)

الإسلامي في حاضرنا وبين المجتمع الإسلامي القائم على أسس دولة القرآن التي تربي المسلم على خشية الله فلا ينحرف عن الجادة ».

وربما كان يوسف بن تاشفين وأمراء المرابطين محقين في أخذهم بالرأي القائل بأن الشورى معلمة للأمير وليست ملزمة، ولهم أدلة كثيرة للتدليل على هذا المبدأ.

إلا أنني أرى الفائدة الكبرى والاستفادة العظمى في زمننا هذا الأخذ بالرأي القائل بأنها ملزمة، **والقائلون بهذا القول لهم أدلتهم منها**:

أن الشورى ملزمة للحاكم طالما أنها مؤيدة بالشرع والعقل، فيقول ابن تيمية: « وإذا استشارهم فإن بين له بعضهم ما يجب أتباعه من كتاب أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا، لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩] [١].

ولو كانت الشورى غير ملزمة، لكان بإمكان النبي ﷺ أن يجنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها في غزوة أحد ـ لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستنداً إلى رؤياه ... ولم يستشر أصحابه، أو لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع... ولكنه ـ وهو يقدر النتائج كلها ـ أنفذ الشورى... ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى ـ بعد المعركة ـ تثبياً للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة » [٢]، وبهذه الأدلة التي ذكرتها نسترشد بهذا المبدأ في مسيرتنا الحركية والدعوية والتنظيمية التي تسعى لإعادة الإسلام كنظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعاً، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.

---

(١) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون(ص ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٢) السياسية الشرعية، لابن تيمية(ص ١٨١، ١٨٢).

[و] ديوان الرسائل والمكتبات عند المرابطين:

كان المرابطون يهتمون بديوان الإنشاء، ولذلك حرصوا على أن يتولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الفترة جلهم أندلسيون، واهتم الأمير يوسف بجلب الأدباء والبلغاء والفقهاء لهذا العمل ، واستفاد من كتاب ملوك الطوائف وتوسع ديوان الرسائل مع امتداد رقعة دولة المرابطين، وانتفع المرابطون انتفاعاً عظيماً بخبرة الأندلسيين أصحاب الحضارة والأدب، وأقبل المغاربة على ثقافة الأندلس ينهلون منها في تواضع المستفيدين، وحدث تنافس بين الكتاب، وحاولوا أن يثبتوا جدارتهم في هذا الفن، وأصبح ديوان الأمير يوسف متألقاً بالحضارة.

وقام ابنه علي بتطوير ديوان الرسائل وجلب له كتاباً في غاية البلاغة ودقة الأسلوب وجمال التعبير ومما دفع الأمير علياً على تطوير دولته تربيته الرفيعة وذكاءه الوقاد واهتمامه بكتاب ملوك الطوائف وتقريبهم إليه في زمانه، فشعر بحاجته إلى طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة، ومن أشهر أولئك الكتاب والأدباء والبلغاء، محمد بن سليمان الكلاعي المتوفى عام ٥٠٨هـ، وصفه ابن خاقان في « القلائد » بقوله: « غرة في جبين الملك، ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك، باهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور، وانسربت إليه أماني انسراب الماء إلى الغور » [١] .

ويقول عنه ابن الصيرفي : « الوزير الكاتب الناظم الناشر، القائم بعمود الكتابة، والحامل للواء البلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أبداً أنواره، اجتمع له براعة النشر، وجزالة النظم، رقيق النسيج حصيف المتن رقعته وما شيت في العين واليد » [٢] .

وكذلك انضم إلى البلاط المرابطي أبو محمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى

---

(١) قلائد العقبان (ص ١٠٤) .

(٢) المركش ، عن ابن الصيرفي في المعجب (ص ١٦٤) .

سنة ٥٢٠هـ ، وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري المتوفى في عام ٥١٥هـ ، وابن أبي الخصال الغافقي المتوفى ٥٤٠هـ ، وأبو زكريا بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى سنة ٥٧٠هـ في غرناطة، وأحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الذي نكبه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتاب الذي عملوا في خدمة دولة المرابطين زمن أمير المسلمين علي بن يوسف [1] ولا ننسى أن الوزارة في زمن علي بن يوسف تطورت تطوراً ملحوظاً ، وأصبح الوزير بمنزلة السمع والبصر واللسان والقلب بالنسبة لأمير المسلمين، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير.

كان الحكم في دولة المرابطين قائم على أسس عسكرية، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى، ومعاونوه هم قواد الجيش، لهذا كان من الطبيعي أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك، ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً، كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ،**فقد وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء:**

﴿ ١ ﴾ وزراء عسكريون من قادة الجيش وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافهم دولة المرابطين.

﴿ ٢ ﴾ وزراء كتاب وهم من الفقهاء.

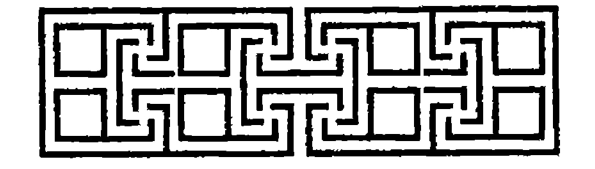
وكان المغاربة يطلقون كلمة فقيه على العالم بالأحكام الشرعية إلا أن أهل المشرق أصبح ذلك المصطلح عندهم يطلق على دارس الفقه عموماً من الطلبة.

وتوسع الأمير علي بن يوسف في اتخاذ الوزراء والمستشارين من الفقهاء وكبار العلماء، وكان من أخص وزرائه الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي شارك في جميع العلوم، ونظم الشعر، وكتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ، وهذا الفقيه

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس ، للدكتور حمدي عبد المنعم (ص٢٧٠ ، ٢٧١) .

هو الذي أشار على سلطان المرابطين علي بن يوسف بقتل محمد بن تومرت زعيم دولة الموحدين فيما بعد، حيث تفرس فيه حدة نفسه وذكاء خاطره، واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله، قبل أن يستفحل خطره، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، غير أن علي بن يوسف توقف في قتله واعتقاله، وأبي ذلك عليه دينه، لعدم ثبوت التهمة عليه، وقد صح ما تفرسه مالك بن وهيب، إذ أنه على يد هذا المدعي المهدية الكذاب ابن تومرت قامت دولة الموحدين التي قضت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس (١) .



(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس ، للدكتور حمدي عبد المنعم ، (ص ٣٦٨)

المبحث الثاني

النظام القضائي في دولة المرابطين

تمهيد :

للقضاء مكانه عظيمة ومنزلة شريفة، وفاصل بين الناس في خصوماتهم ، وحاسم للتداعي، وقاطع للتنازع، وكان العرب في جاهليتهم يعرفون منزلة القضاء ويختارون له اهله ويطلقون عليهم الحكام، واهتم المسلمون بهذا الأمر ومارسه رسول الله ﷺ في زمانه، وسار الخلفاء من بعده على دربه، وأصبح القضاء بعد رسول الله ﷺ في عداد الوظائف الداخلية تحت الخلافة، وتطور القضاء مع تطور دولة الإسلام فكان الخليفة يتخذ قاضياً في حاضرة الخلافة وقضاة آخرين في الولايات والأمصار.

كان القضاء في الأمصار أول الأمر مضافاً إلى الولاة حتى كانت خلافة عمر بن الخطاب فجعله مستقلاً عن نظر الوالي، عين له من يتفرد بالنظر فيه ومع استقلال القضاء عن نظر الوالي، فإن تقليد القضاء في الولايات كان يتم في الغالب عن طريق الولاة بتفويض الخليفة لهم، أما في العاصمة فكان الخليفة هو الذي يعين القاضي إلى أن جاء الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي انحرف بالقضاء نحو مركزية الدولة، وأخضع المؤسسات القضائية لرقابته المستمرة، وجعل تقليد القضاة على قضاء الأمصار من قبله، وتابعه على ذلك خلفاء بني العباس، إلى أن استحدث منصب قاضي القضاة في فترة تالية، فتولى قاضي القضاة النظر في مؤهلات المرشحين للقضاء ومراقبة الكفاءة المهنية للقضاة في عاصمة الخلافة وخارجها [١] واهتمت كل الدول التابعة للخلافة بتطوير نظامها القضائي

---

(١) تاريخ الحضارة العربية والإسلامية ، د . محمد بطاينة (ص ٧٩) .

وخصوصاً المرابطين الذين حرصوا على إقامة العدل ونشره في ربوع بلادهم، فكان لمنصب القضاة أهمية كبيرة، ولذلك حرص أمراء المرابطين على تعيين القضاة ممن برزوا في العلم والفقه وتميزوا بالمقدرة على تولي هذه المناصب في دولتهم دون الاستناد على العصبية القبلية، حتى أصبح أكثر القضاة من غير قبيلة صنهاجة وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام.

وقد منحهم رتبة عالية في الدولة حتى كثرت أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وكانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها، يحكمون وفق المذهب المالكي، ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحكام المحليين، وقد شارك القضاة في معارك الجهاد في الأندلس، واستشهد بعضهم في معركة الزلاقة منهم القاضي عبد الملك المصمودي قاضي مراكش (١).

وكانت السلطة القضائية تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية، وكان تعيين القاضي يصدر بمرسوم عن أمير المسلمين، وكذلك عزله، وكان لأهل البلدان التابعة لدولة المرابطين حق الترشيح لمن يرونه مناسباً لمنصب القضاء في بلدهم.

وإذا أراد أمير المسلمين عزل قاضٍ في بلد معين فعليه أن يوضح الأسباب لأهل ذلك البلد.

[أ] منصب قاضي الجماعة في الأندلس :

يعتبر منصب قاضي الجماعة من أرفع المناصب القضائية في الأندلس، كان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس، ومن المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه إلا كل من يثبت كفاءة عالية في أمور القضاء،

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٦٦) .

وكان قاضي الجماعة في الأندلس يتمتع بسلطات واسعة، ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز التغلبي الذي وجهه الأمير يوسف بن تاشفين إلى اتباع الحق في الأحكام دون أن يخاف في الله لومة لائم، فكتب له: «ولا تُبالِ برغم راغم وتشفق من ملامة لائم، فآس بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوي في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه...» [(١)].

ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة في الأندلس في عصر علي بن يوسف أبو الوليد محمد بن محمد بن أحمد بن رشيد المالكي وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج [(٢)].

[ب] وقاضي الجماعة في المغرب:

كانت رئاسة القضاء في المغرب في زمن دولة المرابطين تسند إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي كان يُسمى بقاضي قضاة المغرب أو بقاضي الحضرة، وكان على من هذا يتولى هذا المنصب أن يكون من المقربين إلى قلب أمير المسلمين يستفتيه في كل ما يعرض له من شئون ، ومن أشهر من تولى هذا المنصب: أبو محمد عبد الله بن محمد ابن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله.

لقد قطع المرابطون في تنظيم القضاء شوطاً أبعد من مجرد تقسيم قضاء الأندلس والمغرب وجعل زعامة القضاء في كل منهما لقاضي القضاة، أحدهما

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (جـ٢ /١٠٦) ابن بسام .

(٢) تاريخ المرابطين (ص ٢٨٧) .

يختص بالأندلس والآخر بالمغرب، بل إن المرابطين اتخذوا فقيهاً له السلطة العليا على قضاء المغرب والأندلس على السواء ومن المرجح أن زعامة القضاء في العدوتين كانت أحياناً من نصيب قاضي مراكش أو قاضي سبتة أو طنجة، وأحياناً أخرى لقاضي الجماعة بقرطبة (١) .

[جـ] مجلس الشورى القضائي:

كان للقاضي في صحبته مجموعة من فقهاء البلد التي تولى قضاءها ليشاورهم قبل أن يصدر الأحكام وكان قاضي المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته، ممن يعرفون بالورع والتقوى والتبحر في الفقه والعلوم الدينية، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء المشاورين بأربعة: اثنين يشتركان في مجلس القاضي، واثنين يقعدان في المسجد الجامع (٢) .

[د] القضاء العسكري:

عرفت دولة المرابطين ما يمكن تسميته بالقضاء العسكري، وكان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند في مواضع خاصة بالمعسكرات، كما كانوا يشتركون في القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند، وممن ذكرهم التاريخ في من تولوا منصب القضاء العسكري: عبد الرحيم بن إسماعيل الذي عين قاضياً في معسكر أمير المسلمين علي بن يوسف بمدينة سلا (٣) .

[هـ] قضاء الذميين في دولة المرابطين:

أما بالنسبة لأهل الذمة في الأندلس، فقد كان رجال الدين النصارى واليهود يتولون القضاء لهم، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين، أجاز الفقهاء تقليد

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس ،(ص ٢٨٨) .
(٢) المصدر السابق ،(ص ٢٨٩) .
(٣) تاريخ المغرب والأندلس ،(ص ٢٩١) .

الذمي القضاء لأهل الذمة، وفي الأندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضياً يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم، أما إذا كانت الخصومة بين ذمي ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهم، وفي هذا الصدد يشير أشياخ إلى أن النصارى كانوا «يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم» (١) .

[و] شجون وأحزان وآلام وآمال :

إن السعي لإقامة دولة الإسلام في أي بقعة من بقاع العالم يحتاج للطلائع التي تسعى لهذا الهدف العظيم فيحتاج إلى معرفة فقه الأخذ بأسباب التمكين في كافة الأصعدة ومختلف الميادين.

وإذا نظرنا في النظم القضائية التي لا بد منها في أي دولة دينية أو علمانية وسألنا أنفسنا ما حظ الحركات الإسلامية من هذا الفقه؟ وما هي الخطط التي وضعت لإيجاد هذه النظم القضائية الشرعية التي لا بد منها في أسلمة الدولة؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها؟ وهل بدأنا في إيجاد الكوادر التي تجمع فقه الشريعة والنظم المعاصرة بحيث تستطيع أن تقدم نموذجاً لقدرة الإسلام على مواكبة التطور والتقدم بمفهومه الصحيح المنبثق من عقيدة الأمة ودينها وشريعتها لكانت الإجابة محزنة.

إن السعي لتحقيق هذه الجزئية من الجزئيات المطلوبة في إقامة الدولة يحتاج من العاملين في هذه الميادين إلى جهد مضنٍ وسهر متواصل، وتصميم أكيد على الوصول للهدف، وسعي دءوب ممزوج بالدموع والعرق والدماء، وهمم لا تعرف الوهن، وعزائم تنخر في هياكل الجاهلية ليدخل من خلال تلك الثقوب نور الإيمان وهدي القرآن لينتشر رويداً زاحفاً على الظلام والضلال والظلم والكفران،

---

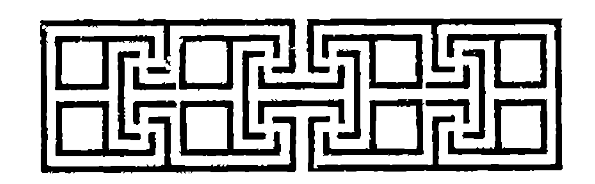
(١) **انظر** : تاريخ الأندلس، لأشياخ (ص ٨٢) .

وإعادة دولة الإسلام في أثوابها الزاهية، وتيجانها الناصعة، وعدلها المنتظر، وآفاقها الواسعة، ووظائفها المتعددة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المستضعفين ومقارعة الظالمين، وفتح أبواب الجهاد وشراء سلعة الجنة بالمهج والأنفس والأرواح ثمناً لها. إن أصحاب تلك الأهداف السامية والنبيلة لا بد لهم من أن يتميزوا في حياتهم عن غيرهم ، فإن الآمال العظيمة لا يصل إليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة:

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت من مرادها الأجسام

إن تحديات الحركات الإسلامية كثيرة جداً فعليها أن تستعين بخالقها على تحقيق أهدافها وعليها أن تكثر العمل وتقلل من الجدل، وتهتم بالرواحل وتترك المثبطين، وتصعد بأبنائها على كافة المجالات والأصعدة وتهتم بتربيتهم وتزكيتهم وتفجير طاقاتهم وتوجيهها حتى تسد الثغرات المتعددة، وعليها أن تحرص على أقوات أبنائها وتشغلهم بالنافع المفيد للأمة ولهم.

إن تحريك الشعوب الإسلامية نحو التغيير لإقامة شرع الله مقيد بسُنن الله في المجتمعات والدول الأشخاص، وسُنن الله لا تجامل ولا ترحم ولا تتغير ولا تتبدل، فعلينا أن نفقه سُنن الله لنحسن التعامل معها ونأخذ بها في خطواتنا لإقامة دولة الإسلام ونشر شريعة الرحمن.



المبحث الثالث

النظم العسكرية

أولاً: صفات المجاهدين في سبيل الله:

تمهيد :

إن الجهاد في سبيل الله عظيم الكلفة والمشقة على النفس البشرية قال تعالى: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ .

[البقرة: ٢١٦].

ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالجهاد الإسلامي على أصوله الصحيحة إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام بهذه العبادة الكريمة.

والأصل العظيم الذي تنبثق منه كل صفات المجاهدين سواء كانوا قادة أو جنوداً، أو صفات الجيش كله هو الإيمان بالله العلي العظيم الذي بقوته تقوى صفات المجاهدين وبضعف تلك الصفات الرفيعة في القادة والأفراد والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه ولايته لله تعالى، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى، وكان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بسبب تفاضلهم في الإيمان والتقوى» [١] .

والذي يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبراً وعلماً وتذكراً وتقوى وإحساناً وإخلاصاً واعتزازاً بدينه[٢] قال تعالى: ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي**

---

(١) الفتاوى (جـ١١ / ١٧٥) .

(٢) انظر : الجهاد في سبيل الله ، د . عبد الله القادري (جـ٢ / ٥)

الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب (٩) قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب (١٠) قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين (١١) وأمرت لأن أكون أول المسلمين (١٢) ﴾ [الزمر: ٩ - ١٢].

إن زعماء المرابطين في تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المجاهد على صفات المجاهدين سواء على مستوى الأفراد أو القادة أو الجيش أو الشعب.

[أ] صفات القائد العسكري عند المرابطين :

إذا نظرنا في سيرة قادة المجاهدين في دولة المرابطين نجد أن خيار قادتهم تميزوا بصفات أهلتهم لقيادة الجيوش وتحقيق النصر وإلحاق الهزائم بالأعداء ، ومن أشهر أولئك القادة الذين تميزوا بصفاتهم القيادة أبو بكر بن عمر، ويحيى بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبو محمد مزدلي، وسير بن أبي بكر، وأبو عبد الله محمد ابن الحاج، وداود بن عائشة، وعبد الله بن فاطمة وغيرهم كثير.

نلاحظ أنهم تميزوا بأمور أهمها :

[١] الإكثار من طاعة الله إعداد النفس لتحمل المشاق:

حيث تربوا على حسن صلتهم بربهم الذي يمدهم بالعون بقدر ما يحققون له العبودية فكان لهم حظ من القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق في سبيل الله، وكان لتربية عبد الله بن ياسين لهم في رباطه أكثر كبير لازمهم على طول حياتهم، فكان في مرحلة التكوين يربي أتباعه على الذكر والتوكل على الله والصبر على الأذى في سبيل الله ، وكان يعلمهم أساليب إتعاب النفس في ذات الله حتى تستطيع أن تتحمل المشاق في سبيله، وكان منهجه في ترسيخ هذه المعاني في نفوس أتباعه القرآن الكريم:

﴿ يا أيها المزمل (١) قم الليل إلا قليلا (٢) نصفه أو انقص منه قليلا (٣) أو زد

عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴿٤﴾ إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا ﴿٥﴾ إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ﴿٦﴾ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴿٧﴾ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴿٨﴾ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴿٩﴾ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل: ١ - ١٠].

ويقول سيد قطب رحمه الله في ظلاله « في ترسيخ هذه المعاني في نفوس الدعاة»: إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحاً ولكنه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل العبء فماله والنوم، وماله والراحة، وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله ﷺ حقيقة الأمير وقدره ، فقال لخديجة رضي الله عنها وهي تدعوه أن يطمئن وينام: « مضى عهد النوم يا خديجة » أجل مضى عهد النوم وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق » [١] .

لقد كان قادة المرابطين في تربيتهم الرشيدة جادين بعيدين عن الهزل واللهو واللعب وتميز فيهم أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين، فكان لهما السبق على أتباعهم في كل مجال من المجالات التي تعتبر من ضرورات القائد الناجح.

[٢] القدوة الحسنة للجنود:

حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم فقتل عبد الله بن ياسين في ساحات الوغى، ويحيى بن عمر كذلك وأبو بكر بن عمر جهاده في الصحراء الكبرى. كما كان يوسف بن تاشفين يقود الحرس الخاص الذي أعده لانتزاع النصر من الأعداء في الساعات الحرجة، ويندفع بجواده في ميادين الجهاد عندما يشتد وطيس المعركة. وضربوا أمثلة رائعة في إيمانهم وعملهم الصالح وشجاعتهم وكرمهم الفياض وحزمهم وإيثارهم وإقدامهم.

---

(١) انظر : في ظلال القرآن جـ٦ / ٣٧٤٤)

[٣] حرصوا على تزكية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم طاعة الله :

إن بُعد الجنود عن التعليم والتربية والتطهير يكون سبباً في قسوة قلوبهم وانغماسهم في الآثام والذنوب ومن ثَم الهزيمة.

قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)** ﴾ .

[آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢)** ﴾ [الجمعة: ٢].

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ :

« ويزكيهم ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة ، وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم »[(١)] .

[٤] الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها:

وظهر ذلك في قادة المرابطين في جهادهم من أجل توحيد المغرب الأقصى كله والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وما خاضوه من حروب ومعارك ظهرت فيها خبرتهم الحربية ومقدرتهم على تنفيذ أساليب الكر والفر، وظهرت خبرة القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي أكسبت أركان خبرات عميقة ساعدتهم في جهادهم من أجل ضم الأندلس لدولتهم الفتية تحت راية الإسلام

---

(١) في ظلال القرآن (جـ١ /٥٠٧) .

بمنهجه السني القويم، والقضاء على الخطر النصراني في الأندلس.

وفي القرآن الكريم نجد إشارة لطيفة تبين صفات القائد العسكرية وهما: العلم والقوة كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾ .

[البقرة: ٢٤٧].

وقد ظهر علمه وخبرته في اختبار جنده ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده وصبره ومصابرته ونجاحه في جهاده.

قال سيد قطب - رحمه الله -:

«وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة وعدم التفاته للتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الصادقين المؤمنين» [١].

[٥] البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة:

وظهر لي هذا المعني في شخصية الأمير المجاهد الزاهد أبي بكر بن عمر فعندما لمس من ابن عمه مقدرة علي القيادة أسند الأمر إليه، ودخل متوغلاً في الصحراء

---

(١) دولة المرابطين(ص ٧٥).

الكبري من أجل الدعوة والجهاد حتي أكرمه الله بالشهادة، وكان أمراء المرابطين يرون الإمارة قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده وليست مغنماً من جاه أو منصب أو مال.

[٦] إسناد الأمور إلى أهلها:

وهذه الصفة ظهرت لي في سيرة يوسف بن تاشفين في تعينه للولاة والقادة والفقهاء، وما كان ليمتنع عن عزل من قصر في عمله ويعين من هو أفضل منه.

[٧] تربية الجندي علي التسليم المطلق لله لا لشخص القائد:

وكان أمراء المرابطين يضربون أروع الأمثلة في زرع هذه المعاني في نفوس المجاهدين فهذا أمير المسلمين رفع يديه نحو السماء مناجياً المولى عز وجل: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه» (١).

وفي وسط معركة الزلاقة وهو يبث الحماس في نفوس المجاهدين: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداد الله الكافرين ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة» (٢)وهكذا القائد المسلم هو الذي يربي جنوده بالمواقف على تحقيق العبودية الخالصة لله.

ولهذا لما قتل عبد الله بن ياسين لم يتأثر المرابطون وقتل يحيى بن عمر ومن بعده أبو بكر بن عمر وما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً، وهذا يدل على حسن تربيتهم للمجاهدين وتعلقهم وتسليمهم لله لا للأشخاص، أما تربية اليوم في جيوش المسلمين شبيهة بالفرعونية حيث يربي القائد جنوده على طاعته المطلقة في الخير والشر كما يربيهم على الخضوع الكامل لشخصه.

ووصف الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ هذه التربية فقال: «إن الذي

---

(١)، (٢) دولة المرابطين (ص ٧٥).

يدرس المجتمعات الفاسدة ويتغلغل في بحث عللها، والذي يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة، ويستقصي وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى القمة، والذي يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور، فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم، أما إذا جاء غيرهم فهو البلاء المبين» (١) .

وقال سعد جمعة: «والفرق بين الإسلام والنظم المعاصرة أن الولاء في الإسلام هو لله وحده، بينما الولاء في النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية ، هو للطاغية ، أو الدكتاتور أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدي أو الإيدلوجية المتسلطة، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط فكري وقهر بوليسي، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والأخوة» (٢) .

وكم نحن محتاجون إلى منهج الإسلام الصحيح في غرس الربانية والتسليم المطلق لله لا للأشخاص.

[٨] الحرص علي قاعدة الشوري:

كان لأمير المسلمين في دولة المرابطين ونائبه مجلسٌ حربيٌّ يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية، وتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورى فيما بينهم.

فكان قرار الجهاد ضد النصارى في الأندلس بعد شورى شارك فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء، وكان قرار ضم ممالك الطوائف بعد شورى كذلك واشتهر الأمير يوسف بمشاورة ذوي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة فيما يعرض له من أمور.

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي (ص ٣٥) . (٢) الله أو الدمار ، (ص ١٨١) .

[٩] الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير:

ظهرت هذه الصفات في شخصية يوسف بن تاشفين الذي أظهر مهارة إدارية عندما فتح مدينة سجلماسة واستطاع أن يحقق أهداف المرابطين بعد جهاد دام ربع قرن جنى بعدها المرابطون ثمرة أتعابهم وبسطوا سيطرتهم على المغرب الأقصى، ونشر الأمن في ربوعه، واستطاع يوسف بحسن سيرته وعدله أن يؤثر بقوة الحق الذي التزمه على قبائل المصامدة وزناتة وغمارة وغيرها.

[١٠] الشجاعة والكرم:

وظهرت هاتان الصفتان في قادة المرابطين في جهادهم في الأندلس فبعد معركة الزلاقة عفَّ الأمير يوسف وجنوده عن الغنائم وتركوها لملوك الطوائف مع كونهم بذلوا من الدماء والنفوس في تلك المعركة ما لا يعلمه إلا الله، فدل فعلهم ذلك على شجاعتهم وكرمهم.

[١١] التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:

وظهرت لي هذه الصفة عندما تدخل الحماديون من الحدود الشرقية واعتدوا على دولة المرابطين من أطرافها جرد المرابطون لهم جيشاً وردوهم إلى حدودهم وعقدوا معاهدة أمن وسلام، وعندما أخطأ والي تلمسان المرابطي وشن هجوماً على بني حماد بدون إذن من القيادة العليا عزل ذلك القائد وعين مكانه من هو أفضل منه وتراضوا مع بني حماد، وعندما تأكد الأمير يوسف من خيانة ملوك الطوائف أسر بعضهم وقتل بعضهم، وضرب الحصار على ممالكهم حتى أسقطها جميعاً، وساعده على تحقيق تلك الأهداف قادة عظام اتصفوا بصفات عظيمة انعكست على جنود المرابطين.

هذه بعض الصفات التي حرص المرابطون على غرسها في قياداتهم وزعمائهم فكانت خيراً وبركة على تلك الدولة السنية الفتية.

[ب] المنهج التربوي لجيش المرابطين :

اهتم المرابطون بتربية جنودهم تربية جهادية اهتموا بجميع جوانبها الروحية والنفسية والفكرية والجسدية، وقد تميزت تربيتهم الروحية بربط المجاهد بالجنة والاشتياق إليها، فشهدت المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم على حبهم للموت كحب خصومهم النصارى للحياة.

وغرس علماء المرابطين في نفوس جنودهم عقيدة الإيمان بالقدر، فأصبح الفارس منهم ينطلق كالسهم في صفوف الأعداء يضرب ذات اليمين وذات الشمال لا يخشى إلا الله تعالى مؤمناً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على تعميق هذا المفهوم في نفوس المجاهدين.

■ قال تعالى:

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

■ وقال تعالى:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) ﴾

[التوبة : ٥١].

■ وقال ﷺ : «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أو سعيد...» (١).

وكانت وسائل المرابطين في تقوية الجانب الروحي في جنودهم وشعبهم المقاتل تعتمد على إحياء شعيرة الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن،

---

(١) رواه البخاري رقم (٣٠٣٦).

والذكر. وأما وسائلهم في التربية النفسية فتعتمد على جهود العلماء والفقهاء الذين يقومون بتزكيتهم وإيضاح حقيقة النفس والكون والحياة وغرض الإنسان وهدفه في هذه الدنيا.

وكانوا يرون أن أهم أسباب تربية النفوس أن تستعد دائماً للجهاد وأن تتربى على خشونة العيش والطعام والشراب وقلة النوم لتنمية فضيلة الصبر في نفوسهم.

[جـ] أبرز الجوانب التربوية في جيش المرابطين:

[١] الأخوة الإسلامية :

كانت من أسباب قوة الجيش المرابطي سريان روح الأخوة بين جميع فصائل الجيش، وامتلأت قلوبهم ونفوسهم بهذا المعنى السامي الذي كان سبباً في تذويب النعرات الإقليمية والعرقية، وجيوشهم تتكون من الزنوج، ومن قبائل صنهاجة المتفرقة ومن العرب ومن مسلمي الإسبان وكل هذه الفصائل المتعددة والمتنوعة كونت أمة واحدة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) ﴾ [الحجرات : ١٠].

قال تعالى: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد تحلى جيش المرابطين بهذه الصفة الربانية العظيمة فقوت رابطة المجاهدين وجعلتهم صفاً وحداً كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء.

[٢] التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

فعندما أصيب عبد الله بن ياسين بجراح بالغة وحمل على أثرها إلى معسكره جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذرهم من

عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرئاسة وما لبث أن فارق الحياة [١] .

وهكذا جند الله المجاهدين لا يتباطئون في مناصحة بعضهم بعضاً ، لعلمهم بأن في هذا التباطؤ هلاكهم جميعاً الذي وصفه لهم الرسول ﷺ في حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنهما فقال: «**مثل القائم في حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا**» [٢] .

إن مفهوم الجندية الإسلامية يترعرع في بيئات التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

[٣] إصلاح ذات البين :

حرص المرابطون على نبذ الشقاق والقضاء على الخلاف وعلى رأب الصدع وإصلاح ذات البين، لعلمهم أن فساد ذات البين يقضي على جند الجهاد أكثر مما يقضي عليهم عدوهم الخارجي مهما قويت شوكته وكثر جنده، فاتخذوا أسلوب الحكمة واللين والرفق من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، وإذا خرجت فئة تستمرئ الشقاق أو تعمل على إيجاده جردوا لها الجيوش وأخضوعها بالقوة، وهذا ما قام به الأمير أبو بكر بن عمر عندما تمردت بعض قبائل الصحراء على مبادئ المرابطين واشتبكوا مع بعض القبائل الأخرى في قتال فخرج إليهم بجيشه الكثيف وأصلح ذات البين مستعملاً في ذلك القوة، ومن أجل الضرورة وإصلاح ذات البين أذن النبي ﷺ لمن أراد أن يستعمل الكذب الذي لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً ولا سيما إذا كان من باب التورية والتعريض كما في حديث أم

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٤) .
(٢) البخاري رقم (٢٤٩٣) ، فتح الباري (جـ٥ / ١٣٢)

كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ليس الكاذب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً »[(١)].

وجعل النبي ﷺ إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام والصدقة وحذر النبي ﷺ من فساد ذات البين، قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل درجة من الصيام والصلاة والصدقة؟»، قالوا بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة»[(٢)].

[٤] نصر الحق والثبات عليه:

لما أرسل فقهاء سجلماسة ودرعة إلى الفقيه ابن ياسين، يرغبونه في الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله تعالى »[(٣)].

ولما طلب ملوك الطوائف العون من المرابطين لنصرتهم على النصارى لبوا نداء الحق: لقد كان جيش المرابطين حريصاً على نصرة الحق وإحقاقه والقتال عليه.

لقد حرص المرابطون على أن يشملهم قول رسول الله ﷺ: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»[(٤)]، وقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة»[(٥)].

---

(١) البخاري رقم (٢٦٩٢)، فتح الباري (جـ٥/ ٢٩٩).
(٢) رواه الترمذي (جـ/ ٦٣٣).
(٣) رواه الترمذي (ج/ ٦٦٣).
(٤) تاريخ المغرب والأندلس (ص٤٢).
(٥) البخاري رقم (٣٦٤١)، فتح الباري (جـ٦/ ٦٣٢).

إن صفة نصر الحق والثبات عليه والقتال عليه ليست دعوى تقال أو شعار يرفع على مستوى الجماعات أو الدول أو الطوائف وإنما حقيقة لها دلالتها الواقعية في حياة الناس. وأي جماعة أو دولة تفقد صفة الفقه في الدين ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلاً لأن تكون هي الطائفة المنصورة.

وأي خلل يقع في أي جماعة فلا بد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معاً أو ضعف في إحداهما أو فيهما معاً (١) .

إن دولة المرابطين في جيلها الريادي حققت صفة الفقه في الدين متمثلاً في فقهائها العظام فاستحقت أن تكون من الطائفة المنصورة التي حالفها نصر الله وتوفيقه وعندما ضعفت تلك الصفات آل أمرها إلى طائفة مغلوبة، بل زالت من الوجود.

[د] عناصر جيوش المرابطين :

[١] الملثمون أو المرابطون :

كانوا هم النواة الأولى التي تكون منها الجيش المرابطي، وقد قامت الدولة على أكتافهم، وقد اشتهر هؤلاء الملثمون بقوة بأسهم في الحرب، وكانوا أثبت من الجبال الرواسي في المعارك، ومهما تفوق عليهم عدوهم في العدد فلا يتقهقرون، ولقد حققوا انتصارات رائعة في معاركهم في المغرب الأقصى أو في معارك الجهاد في الأندلس.

[٢] العرب :

وشكلوا فرقة أصبحت من أهم فرق الجيش المرابطي وشاركوا في معارك الأندلس، وتنتمي بعض العناصر العربية إلى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الأدارسة، ويرجع البعض الآخر إلى قبائل بني هلال التي انخرطت في سلك جيش

---

(١) الجهاد في سبيل الله (جـ٢ / ٩٥) .

المرابطين، وشاركوا في معارك الجهاد ومن أشهر تلك المعارك معركة كنسويجرة يقول ابن الكردبوس: « فجر ابن تاشفين عسكراً جراراً من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج، فالتقوا بكنثرة فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين، وولوا مدبرين.. » (١).

كما شاركوا في معركة إقليش فيقول ابن القطان: « واستشهد في هذه الموقعة - أي إقليش - الإمام الجزولي، وكان رجل صدق، وجماعة من الأعيان والعربان... » (٢).

[٣] الحرس الخاص :

كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة، يقول أشباخ: « جمع يوسف بن تاشفين من تجار الرقيق من أقليم غانا، عدداً كبيراً من العبيد واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل، ودربهم على جميع فنون القتال، وأنشأ حرسه الخاص الأسود من ألفي رجل، وأنشأ على هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين، وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد » (٣).

وبين الدكتور سعدون عباس نصر الله أن النصارى في جيش المرابطين اعتنقوا الإسلام (٤)، وأصبح الحرس الخاص ركناً أساسياً من أركان الجيش المرابطي، ولاسيما أن علي بن يوسف ضم إليه الكثير من أسرى الحروب وشارك هذا الحرس

---

(١) الاكتفاء (ص ١٠٧، ١٠٨).
(٢) نظم الجمان (ص٩-١٠)، انظر : الثغر الأعلى، الأندلس (ص ١٢٩).
(٣) تاريخ الأندلس، لأشباخ (ص ٤٧٩، ٤٨٠).
(٤) دولة المرابطين (ص ١٧٠).

الخاص في حراسة معاقل المغرب، بل حتى في حروب الدولة ضد الموحدين [١] .

[٤] الحشم :

كانت فرق الحشم من أهم فرق الجيش المرابطي وكانت تتكون من زناتة والمصامدة وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية في القتال [٢] .

[هـ] فنون القتال :

لما تولى الأمير يوسف مقاليد حكم المرابطين عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل، وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء، أما حرب المدن والحصون فإنها تتطلب وسائل وأسلحة تتلائم مع الوضع الجديد الناشئ عن حرب الحصار، ولهذا ابتكر الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري، وخطة التقري تعتمد على توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن [٣] .

وسلح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلسية ونصرانية وكان سلاح كل فرقة من الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط.

وكان للأمير يوسف الفضل في تنظيم جيش المرابطين ومعرفة الرجال ومواهبهم الفذة وقد أعادوا إلى الأذهان تاريخ الفتوحات الأولى للإسلام، لقد كانت حركة المرابطين مقنعة للعالم في زمانها بأن الإسلام قادر في كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ ، أمثال سير بن أبي بكر، وداود بن عائشة، وابن فاطمة، وابن ميمون ومزدلي وغيرهم، وعلى رأس الجميع القائد الرباني الذي أنقذ الله به

---

(١) ، (٢) تاريخ المغرب في عصر المرابطين (ص ٢٩٨) .

(٣) دولة المرابطين (٤٤) .

الإسلام في الأندلس والمغرب يوسف بن تاشفين.

كان الأمير يوسف أثناء المعارك يرتب جيشه وفق نظام خماسي: المقدمة ويحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان الميمنة والميسرة، حملة القسي والنبال وأكثرهم من أهل الثغور، والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة، والمؤخرة ويقودها الأمير بنفسه وتتألف من صفوة الجنود والحرس، وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص، ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربي لتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى يوسف (١).

وتطورت فنون القتال عند المرابطين ، وأهدى ابن الصيرفي إلى الأمير تاشفين بن علي قصيدة احتوت على فنون الحرب والقتال فقال:

أهديك من أدب السياسة ما به ... كانت ملوك الفرس قبلك تولع

لأنني أدري بها ولكنها ... ذكرى تحض المؤمنين وتنفع

خندق عليك إذا ضربت محلة ... سيان تتبع ظاهراً أو تتبع

حارب من يخشى عقابك بالذي ... يخشى وهو في جود كفك يطمع

قبل التهارش عبئ جيشك مفسحاً ... حيث التمكن والمجال الأوسع

إياك تعبئة الجيوش مضيقاً ... والخيل تفحص بالرجال وتمزع

حصن حواشيها ولكن في قابها ... واجعل أمامك منهم من يشجع

واحذر كمين الروم عند لقائها ... وأمض كمينك خلفها إذا تدفع

لا تبقين خلفك عندما ... تلقي العدو فشره متوقع

واصدمه أول وهلة لا ترتدع ... بدءاً تقدم فالنكوص يضعضع (٢)

---

(١) المرجع السابق، (ص ٧٢).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٠٠).

ونستطيع أن نستخرج بعض فنون الحرب التي أوصى بها الشاعر في قصيدته للأمير تاشفين بن علي:

﴿ ١ ﴾ ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أي خطر خارجي.

﴿ ٢ ﴾ ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كاف لكي تدخل هذه الجيوش إلى المعركة، وهي على أهبة الاستعداد، وحتى لا يأخذها العدو على غرة.

﴿ ٣ ﴾ ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية في جناحي الجيش، وفي المقدمة، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من قلب جنده.

﴿ ٤ ﴾ ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو.

﴿ ٥ ﴾ عدم القتال وظهورهم إلى الماء، لأن في ذلك هلكة لجيوشهم.

﴿ ٦ ﴾ ضرورة إحداث عنصر المفاجأة في بداية المعركة، عن طريق الصدام مع العدو، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر.

هذه بعض الفنون العسكرية التي طبقت في دولة المرابطين.

وكان المرابطون في بداية أمرهم قليلي الخبرة بفن الحصار لاعتمادهم على قوات الفرسان المستعدة دائماً للهجوم إلا أنهم بعد فترات من جهادهم استطاعوا أن يتقنوا فن الحصار، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنتيرين الحصينة، وتمكنهم من التغلب عليها، كما ظهرت براعتهم في هذا الفن أثناء الحصار الذي فرضته الجيوش الإسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها من ألفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للأندلس التي كان يهدف من ورائها تلبية دعوة النصارى المعاهدين في مدينة غرناطة إلى نصرتهم.

وضرب المرابطون الحصار، وكان موفقاً وحقق نتائجه المطلوبة.

وكما أتقن فن ضرب الحصار، فقد تفوقوا أيضاً في فن التخلص من الحصار،

كما حدث في تخلصهم من الحصار الذي ضربه الموحدون على مراكش عام ٥٢٤هـ ودام ما يقرب من أربعين يوماً، ثم تمكنوا وأوقعوا بالوحدين هزيمة منكرة عند البحيرة [١].

واهتم المرابطون بجميع الأسلحة المعروفة في زمانهم من نشاب وسهام ورماح وسيوف ودروع ورعادات ومزاريق ودرق لمطية والأطاس.

[و] الأسطول:

ومع توسع المرابطين في المغرب الأقصى ودخولهم معظم مدنها ولم تبق إلا طنجة وسبتة، شعر الأمير يوسف بأهمية الأسطول البحري لما وصلت دولته إلى شواطئ البحر الأبيض، وبعد القضاء على دولة برغواطة صاحبة الأسطول البحري بدأ يوسف يهتم بتطوير أسطوله، واستفاد من خبرات أهل الأندلس في ذلك، وأصبح أسطول المرابطين يتقدم نحو الهيمنة على البحر المتوسط، وأثمرت جهود يوسف في الاهتمام بالأسطول في زمن ابنه علي.

وأصبح أسطول المرابطين بفضل الله تعالى، ثم قادته الكبار، وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون قوة ضاربة، هددت النصارى في جنوب البحر المتوسط، ونفَّس الله به كربات مسلمي الشمال الإفريقي، وحقق أسطول المرابطين انتصارات تجاوزت كل تقدير وحسبان [٢].

[ز] استيلاء المرابطين على جزر البليار:

كانت جزيرة البليار خاضعة لمجاهد العامري صاحب دانية الذي استقل بملكها سنة ٤٠٥هـ، وولى عليها بعض الولاة، ولما قتل مجاهد في سنة ٤٣٦هـ تولى ابنه علي الذي وقع في أسر بني هود عام ٤٦٨هـ ومات في سرقسطة سجيناً عام ٤٧٤هـ، وكانت جزيرة ميورقة تابعة لجزر البليار وكان بها مبشر بن سليمان

---

(١)، (٢) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣١١).

الذي أعلن استقلاله بميورقة، وأما مدينة دانية فضمها المقتدر بن هود إلى سرقسطة، ولما ضم المرابطون ممالك الطوائف تركوا مبشر بن سليمان صاحب البليار حراً تقديراً لجهوده التي بذلها لصد النصارى، وما اشتهر به من غيرة على مصالح المسلمين، وقدرته الفذة في حماية ملكه من غارات النصارى المتتابعة فضلاً عن كونه أقر العدل وأرضى الرعية، وهكذا أصبح مبشر يحكم الجزائر الشرقية في عهد يوسف بن تاشفين وفي السنوات الأولى من حكم علي بن يوسف إلى عام ٥٠٨هـ.

وعندما تحالف النصارى من أمراء فرنسا والبرتغال وإسبانيا وقرروا القضاء على جزر مبشر بن سليمان خرجوا له في خمسمائة سفينة وضربوا على جزيرة ميورقة حصاراً عنيفاً وراسل مبشر أمير المسلمين علي بن يوسف لنجدته ونصرة المسلمين، وتوفي مبشر بن سليمان أثناء الحصار وقام بعده قريبه الربيع بن سليمان بن ليون وسقطت ميورقة عام ٥٠٨هـ وقتل النصارى من المسلمين وسبوا نساء المسلمين وعاثوا في الأرض فساداً ونهباً وتخريباً.

وعندما اقترب أسطول المرابطين بقيادة القائد البحري ابن « تافرطاست » وجد النصارى قد رحلوا وتركوها كأن لم تكن بالأمس وفي الحال شرع ابن تافرطاست في تعمير الجزيرة وأعاد إليها الفارين من سكانها، وكان قد لجأ منهم إلى الجبال جموع غفيرة، وبذلك أصبحت تلك الجزر تابعة لدولة المرابطين الفتية.

وكان لإسطول المرابطين الفضل بعد الله في التصدي لأطماع النورمانديين في مدن الشمال الإفريقي. وكان لإسطول المرابطين جهاد مشكور في سواحل أوربا الجنوبية مما عزز من هيبة المسلمين في نفوس النصارى الحاقدين فأغار على سواحل جليقية وقطونية وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية [1].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، (ص ٣١١).

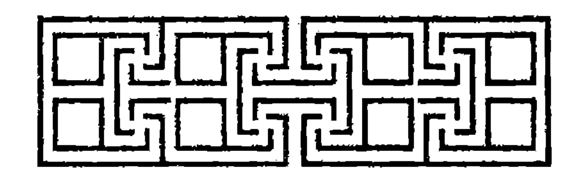
ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي أبو عبد الله بن ميمون وتوارث أبناؤه من بعده قيادة أساطيل المرابطين ولعبت أسرة بني ميمون دوراً رياديأً في حماية ثغور المسلمين والذود عن حوزتهم وأعراضهم وأموالهم وعقيدتهم.

[حـ] موانئ أسطول المرابطين :

كانت المرية من أكبر موانئ الأسطول المرابطي في الأندلس، وكان بهم قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون، وكان بالمرية دار صناعة للسفن، ثم تأتي بعد المرية مدينة دانية التي تعتبر مقر قيادة الأسطول المرابطي في الأندلس.

وكانت موانئ أسطول المرابطين تنتشر على شواطئ سواحل المغرب والأندلس، ومن أشهرها طنجة، وبجاية وإشبيلية والجزيرة الخضراء، وجزر البليار (١) .

إن الشمال الإفريقي لا عزة لشعوبه ولا كرامة إلا بالتمسك بالمنهج الرباني وتربية شعوبه على الانقياد لمنهجه الرشيد، ويحتاج ذلك لعلماء ربانيين وقادة سياسيين يعرفون قيمة دينهم، ويؤمنون بمنهج ربهم، ويستعدون لجهاد عدوهم ويهتمون بإحياء روح الجهاد، ويغرسون معاني الشهادة في شعوبهم حتى تتدفق دماء الإسلام من جديد في شرايينهم، ليعملوا على إرجاع الأندلس المفقود ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً.



---

(١) المصدر السابق (ص ١١٢)

المبحث الرابع

النظام المالي في عصر المرابطين

حرص المرابطون في دولتهم على إسقاط الضرائب غير المشروعة عن كاهل شعوبهم التي فرضها الزناتيون في المغرب وملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق، ولم يفرض المرابطون في دولتهم رسم مكس أو معونة خراج لا في حاضرة ولا في بادية، واتبعوا نظاماً مالياً يقوم على قواعد الإسلام، وكان هذا النظام ظاهر المعالم في زمن الأمير يوسف بن تاشفين الذي التزم بالكتاب والسُّنَّة في جمع الأموال وتوزيعها، فاعتمد على الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم، وجب بذلك من الأموال على الوجه الشرعي ما لم يجبه أحد، وترك في خزائنه مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمساً وأربعين ألفاً من دنانير الذهب [١] ، وأما في عصر علي بن يوسف فاختلف الأمر وفرض الضرائب على بعض السلع، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة، وكان يخصص داخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة، وكان سبب فرض هذه الضريبة دخول ألفونسو المحارب للأندلس غازياً عام ٥١٩هـ فاضطر لتحصين المدن وترميم الأسوار وتقوية الجيوش ففرض ضرائب تساعده في تسديد هذه النفقات التي لا غنى عنها.

أولاً: العملة:

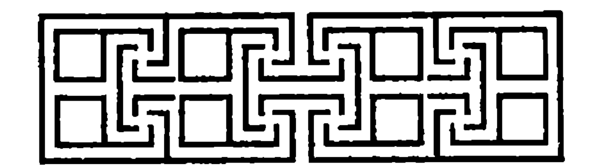
كانت العملة الرئيسية لدولة المرابطين هي الدينار الذهبي الذي كان عماد الاقتصاد في الدولة، وظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون حتى بعد سقوط الدولة المرابطية. كما استخدم المرابطون العملة الفضية المعروفة

---

(١) دولة المرابطين (ص ١٧٩).

بالدرهم الفضي، لتسهيل المعاملات التجارية.

وانتشرت دور سك العملة في مختلف أجزاء الدولة سواء في المغرب أو في الأندلس، مثل أغمات، تلمسان، سجلماسة، فاس، مراكش، سبتة، مكناسة، طنجة، شاطبة إشبيلية، دانية وغرناطة، قرطبة، مالقة، مرسية، سرقطة، وغيره [١].



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٢٠).

الفصل الخامس
أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية

المبحث الأول
الآثار المعمارية في المغرب والأندلس

إن دولة المرابطين تركت آثاراً معمارية بارزة ظلت باقية على مر الدهور وكر العصور لترشيد الأجيال المتعاقبة على سمو حضارة المرابطين المعمارية ومن أعظم هذه الآثار على الإطلاق:

[١] جامع القرويين:

من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية عريقة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وكانت هذه الجامعة تقارع الأزهر الشريف في العلم وتخريج الدعاة والعلماء والفقهاء.

ولقد مر جامع القرويين بثلاثة أدوار:

الأول : عند تأسيسه سنة (٢٥٤هـ/٨٥٩م)

والثاني : عند الزيادة فيه سنة (٣٤٥هـ /٩٥٦م)

والثالث: عندما زيدت مساحته في عصر علي بن يوسف سنة ٥٣٠هـ/١١٣٥م

وتولى مشروع زيادة مسجد القرويين وتوسيعه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بسبب ضيق المسجد بالناس واضطرارهم للصلاة في الشوارع والأسواق في يوم الجمعة، وحرص على أن يكون المال من أوقاف مساجد المسلمين، وأشرف القاضي أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحضاري العظيم وكان تمام التوسعة عام (٥٢٨هـ) .

ولقد تخرجت من جامع القرويين على مر العصور وكر الدهور أفواج عديدة

من فقهاء الأمة وعلماء الملة ودعاة الشريعة والمجاهدين الأبرار والقادة العظام، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة في نفوسهم.

وتذكر كتب التاريخ أن منبر جامع القرويين من أجمل منابر الإسلام، وتدل على روعة المغاربة في اختياراتهم الذوقية الرفيعة (١).

[٢] المسجد بتلمسان:

وكان مقراً لنشر علوم الإسلام وتربية المسلمين على معاني القرآن، وتم بناء هذا المسجد عام ٥٣٠هـفي إمارة علي بن يوسف، وكانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، ورأى بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمسات أندلسية وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلدوا جامع قرطبة تقليداً مباشراً في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزار واجهة المحراب بتلمسان، وكذلك سقف المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط شبيهاً به أيضاً.

والذي يظهر أن دولة المرابطين انصهرت في بوتقتها حضارة المغاربة والأندلسيين والأفارقة فتجد تلك المعالم الحضارية المختلفة في كافة بقاع دولة المرابطين، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعمارية الأندلسية في كافة مدن الدولة.

[٣] الآثار الحربية:

اهتم المرابطون بالحصون والقلاع ولذلك انتشرت في المدن والثغور.

وزاد اهتمامهم بالتحصينات العسكرية في زمن علي بن يوسف الذي أكثر من الأسوار والقلاع والحصون للدفاع عن دولته في المغرب من الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين، وواصل الأمير علي اهتمامه بهذا الأمر

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، (ص ٣٦٦).

كذلك في الأندلس.

ومن أروع آثار المرابطين الحضارية الحربية أسوار مراكش حيث بدأ الأمير علي بن يوسف في بناء سور المدينة ٥٢٠هـ وكمل بناء السور عام ٥٢٢هـ [١].

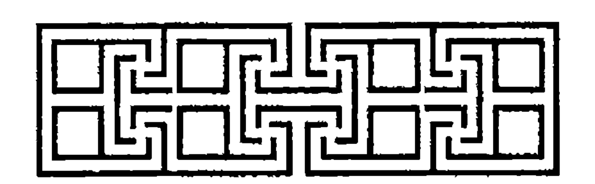
وانتشرت فكرة بناء الأسوار في الأندلس، وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الجهادي الدفاعي.

ومن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس، أسوار المرية وأسوار قرطبة التي امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة المتقاربة، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادي الكبير، وبنى المرابطون في المناطق الوعرة حصوناً بالحجر، وشحنوها بالجنود والأقوات لكي تصمد للحصار مدة طويلة.

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل ٢٠٠ فارس و ٥٠٠ راكب في كل حصن.

ومن أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منقوط التي تقع على بساتين مرسية، ومن أشهر قلاع المرابطين في المغرب تاسغيموت التي تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوب شرق مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرق أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف يصعب على الغازين ارتقاؤها، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها.

إن قلاع المرابطين وحصونهم تدل على أن فن العمارة في زمانهم تأثر بالغ التأثر بفن العمارة الأندلسي [٢].



---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٣٧٢)

(٢) انظر: تاريخ المغرب (ص ٣٧٧)

المبحث الثاني

الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين

[١] الحركة الأدبية :

ازدهرت الحركة الأدبية في دولة المرابطين في عهد الأمير علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشعراء والأدباء فتوافدوا على بلاطه من أهل الأندلس، ومن الذين مدحوا الأمير علي بن يوسف الشاعر الكبير أبو العباس أحمد ابن عبد الله القيسي المعروف بالأعمى التطيلي حيث قال :

يا علي العلاء في كل يوم ... وما أنت للملك بالسائس
يا ربيع البلاد يا غيمة العالم ... من بين مؤتل ومؤال
يا قريع الأيام عن كل مجد ... يا سليل الأذواء والأقيال
لك من تاشفين أو من أبي ... يعقوب ذكر مكارم وفعال [١]

وكان الشعراء يقصدون ولي عهد الدولة في زمن الأمير علي بن يوسف لمدح ابنه تاشفين، ومن أشهرهم الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف، كما حظي الشعراء في عصر علي بن يوسف بمكانة عظيمة لدى الأسرة الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الأقاليم المختلفة :

وكان الأمير عبد الله بن مزدلي موضع اهتمام الشعراء منهم ابن عطية الذي قال فيه :

ضاءت بنور إيابك الأيام ... واعتز تحت لوائك الإسلام [٢]

---

(١) الأعمى التطيلي ، الديوان (ص ١٠٤).

(٢) قلائد العقيان ، لابن خاقان (ص ٢١٠).

ومن قبل مدح الشعراء والده الذي قال فيه أبو عامر بن أرقم:

أنت الأمير الذي للمجد همته ... وللمسالك يحميها وللدول

لمزدلي لواء كان يرفعه ... مناسب كالضحا والشمس في الحمل

يا أيها الملك المرهب صولته ... وارتجى غوثه في الحادث الجلل(١)

ووصل المديح إلى الفقهاء والعلماء لمكانتهم العالية في دولة المرابطين فهذا الأعمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن أحمد قاضي الجماعة بقوله:

إليك ابن حمدين وإن بعد المدى ... وأن غربت بي عنك إحدى المغارب

صبابة ودلم يكدر جمامة ... مرور الليالي وازدحام الشوائب

وذكر عساها أن تكون مهزة ... ترى على أعقابه كل شاغب

بأيه ما كان الهوى متقارباً ... وخطوى فيه ليس بالمتقارب(٢)

ولا ننسى أن أعداء المرابطين من الشعراء قاموا بالتندر بالمرابطين، وبفقهاء دولتهم، وممن اشتهر بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكي، الذي هجا المرابطين من ذلك قوله:

في كل من ربط اللثام دناءة ... ولو أنه يعلو على كيوان

ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا ... من بطن زانية لظهر حصان

المنتمون لحمير لكنهم ... وضعوا القرون مواضع التيجان

لا تطلبن مرابطاً ذا عفة ... واطلب شعاع النار في الغدران(٣)

وازدهر في عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعني الطبيعة، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير من الشعراء الذين نبغوا في هذا الفن الشعري، نذكر

---

(١) المصدر السابق (ص ١٣٣).

(٢) الأعمى التطيلي، الديوان (ص ٤، ٥).

(٣) تاريخ المغرب (ص ٤٨٦).

منهم ابن سارة الشنتريني، وابن الزقاق، وابن خفاجة البلنسي، وعبد الحق بن عطية ، من ذلك قول الشنتريني الشاعر يصف البركة :

لله مسجورة في شكل ناظرة ... من الأزهر أهداب لها وطف
فيها سلاحف ألهاني تقصمها ... في مائها ولها من عرمض لحف
تنافر الشط إلا حين يحضرها ... برد الشتاء فتستدلي وتنصرف
كأنها حين يبديها تصرفها ... جيش النصارى على أكتافها الجحف [1]

وهذا أبو الحسن علي بن عطية بن الزقاق يصف فرساً أغر :

وأغر مصقول الأديم تخاله ... برقاً إذا جمع العتاق رهان
يطأ الثرى متبختراً فكأنه ... من لحظ من في متنه نشوان
فكأن بدر التم فوق سراته ... حسناً وبين جفونه كيوان [2]

وهذا أبو جعفر بن سلام المعافري يصف في شعره الثلج :

ولم أر مثل الثلج في حسن منظر ... تقر به عين وتشنعه نفس
فنار بلا نور يضيء له سنا ... وقطر بلا ماء يقلبه اللمس
ترى الأرض منه في مثال زجاجة ... كأن كئوس الماء يجمعه كأس [3]

وهذا شاعر آخر يصف لنا قوساً :

يا رب مائسة الأعطاف مخطفه ... إذا دنا نزعها فالعيش منتزح
ظلت ترن فظل النزع يعطفها ... كما ترنم نشوان به قزح
وقد تألف نصل السهم مندفعاً ... عنها فقل كوكب يرمي به قزح [4]

---

(١) قلائد العقبان (ص ٢٧١) .
(٢) المطرب من أشعار أهل المغرب ، لابن دحية (ص ١٠٦)
(٣) تاريخ المغرب (ص ٣٨٨) .
(٤) المصدر السابق نفسه .

وهذا ابن خفاجة يصف الربيع وهو ممن عاصر الأمير علي بن يوسف :

أذن الغمام بديمة وعقار ... فأمزج لجينا منهما بنضار

وأربع على حكم الربيع بأجرع ... هزج الندامى مصفح الأطيار

وكمامة حدر الصباح قناعها ... عن صفحة تندى من الأزهار

في أبطح رضعت ثغور أقاحه ... أخلاف كل غمامة مدرار

نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا ... دور الندى ودارهم النوار

وقد ارتدى غصن النقى وتقلدت ... حلى الحباب سوالف الأنهار

فحللت حيث الماء صفحة ضاحك ... جذل وحيث الشطر بدء عذار

والروح تنفض بكرة لمم الربا ... والطل ينضج أوجه الأشجار [١]

لقد ازدهر الشعر والأدب في عصر الأمير علي بن يوسف ازدهاراً عظيماً شهدت بذلك قصائد شعراء المرابطين التي سجلت في ذاكرة التاريخ الخالدة.

وما قيل عن انحطاط الشعر والأدب في عصر المرابطين أكذوبة استشراقية بان زيفها أمام حقائق التاريخ التي لا تجامل ولا تعرف التحايل.

ولا ننسى شيوع فن الموشحات والأزجال في عصر المرابطين، يقول ابن خلدون عن نشأة فن الموشحات: «وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً يسمونه بالموشح ينظمونه أسماطاً وأغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها

---

(١) ابن خفاقة ، الديوان (ص ٢٩٠ - ٢٩١)

ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاوزا في ذلك إلى الغاية واستطرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقة» [١] .

ومن أشهر وشاحي عصر المرابطين الأعمى التطيلي، ومن موشحاته:

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار ... ما اجتمعا إلا لأمر كبار

بئس لعمري ما أراد العذول ... عمر قصير وعناء طويل

يا زفرات نطقت عن غليل ... ويا دموع قد أعانت مسيل [٢]

وأما نشأة الزجل فقال ابن خلدون عنه: «أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة» [٣] .

ويعتبر أبو بكر بن قزمان القرطبي أول من ابتكر الزجل.

ومن أشهر أزجاله ما كان في مدح القاضي أحمد بن الحاج قوله:

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام [٤] .

هذه نبذة مختصرة عن بعض فنون الأدب التي ازدهرت وترعرعت في ظل دولة المرابطين.

---

(١) ابن خلدون، المقدمة (ص ٤٣٦).

(٢) ابن خلدون، المقدمة (ص ٤٤١).

(٣) الزجل في الأندلس، لعبد العزيز الأهواني، (ص ٢٠١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

المبحث الثالث

من مشاهير علماء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة أن تحكم بشرع الله بدونهم ، ولذلك كثر المحدثون والفقهاء ، نذكر منهم :

أولاً : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشيد الجد : (ت ٥٢٠هـ).

هو الإمام العلامة شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد .

[أ] شيوخه :

من أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم أبو جعفر أحمد بن رزق، وأبو مروان بن سراج، ومحمد بن خيرة، ومحمد بن فرج الطلاعي، والحافظ أبو علي وأبو العباس ابن دلهات .

قال ابن بشكوال فيه: « كان فقيهاً عالماً، حافظاً للفقه مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى ، بصيراً بأقوال أئمة المالكية ، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدي الصالح، ومن تصانيفه كتاب « المقدمات » لأوائل كتب المدونة، وكتاب « البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل »، واختصار « المبسوطة »، واختصار « مشكل الآثار » للطحاوي، سمعنا عليه بعضها، وسار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة، ثم استعفى منه، فأعفي، ونشر كتبه، وكان الناس يُعولون عليه ويلجأون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته جميل العشرة لهم، باراً بهم » (١) .

---

(١) سير أعلام النبلاء جـ١٩ / ٥٠٢ .

[ب] أشهر فتاوى ابن رشيد :

ومن أشهر فتاوى ابن رشيد الجد ، ما أفتاه في شأن المعاهدين من النصارى في بلاد الأندلس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب [١] ، عاش هذا العالم الجليل سبعين عام ومات في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وروى عنه أبو الوليد بن الدباغ فقال: « كان أفقه أهل الأندلس، وصنف شرح العبية، فبلغ فيه الغاية » [٢] .

ثانياً: الشهيد القاضي الفقيه أبو علي الصدفي:

هو العالم الفقيه القاضي المحدث الحسين بن محمد بن سكُرة .

[أ] شيوخه :

روى عن أبي الوليد الباجي، ومحمد بن سعدون القروي، وحج سنة إحدى وثمانين ، ودخل مصر على أبي إسحاق الحبّال، وقد منعه المستنصر العبيدي الرافضي من التحديث .

قال : فأول ما فاتحته الكلام أجابني على غير سؤالي، حذراً أن أكون مدسوساً عليه، حتى بسطته وأعلمته أنني من أهل الأندلس أريد الحج، فأجاز لي لفظاً، وامتنع من غير ذلك .

رحل للعراق، فسمع بالبصرة من جعفر بن محمد بن الفضل العباداني، وعبد الملك بن شغبة، وبالأنبار: الخطيب أبا الحسن علي بن محمد بن محمد الأقطع، وببغداد: علي بن الحسن بن قُريش بن الحسن صاحب ابن الصلت الأهوازي، وعام بن الحسن الأديب، وأبا عبد الله الحميدي .

وتفقه ببغداد على: أبي بكر الشاشي، وأخذ بالشام عن الفقيه نصر المقدسي،

---

(١) تاريخ المغرب (ص ٢٣١)
(٢) سير أعلام النبلاء (جـ١٩ / ٥٠٢)

ورجع إلى بلاده في سنة تسعين بعلم كثير، وأسانيد شاهقة، واستوطن مُرسية، وجلس للإسماع بجامعها.

ورحل الناس إليه، وكان عالماً بالحديث وطرقه عارفاً بعلله ورجاله، بصيراً بالجرح والتعديل، مليح الخط، جيد الضبط، كثير الكتابة، حافظاً لمصنفات الحديث، ذاكراً لمتونها وأسانيدها، وكان قائماً على« الصحيحين » من « جامع » أبي عيسى الترمذي، ولي قضاء مُرْسِيّة، ثم استعفي عنه فأعفي، وأقبل على نشر العلم وتأليفه، وكان صالحاً ديناً، عاملاً بعلمه، حليماً متواضعاً، وخرج القاضي عياض شيوخه وذكر أنه أخذ عن مائة وستين شيخاً، وأنه جالس نحو أربعين شيخاً من الصالحين والفضلاء وأنه أكره على القضاء فوليه، ثم اختفى حتى أعفي منه.

وتصدر في زمن علي بن يوسف في نشر الكتاب والسُّنَّة في مرسية بالأندلس وتوافد عليه الطلاب من كل حدب وصوب لينهلوا من علمه الجم الغزير ونفع الله به المسلمين في تملك الأقطار.

[ب] **وفاته :**

استشهد أبو علي الصدفي في وقعة قُتُنْدَة بثغر الأندلس، لست بقين من ربيع الأول، وهو من أبناء الستين، وكانت هذه الوقعة على المسلمين وكان عيش أبي علي من كسب بضاعة مع ثقات إخوانه [١] .

انظر رحمك الله إلى هذا الطود الشامخ، والجبل الراسخ، والبحر الزاخر في حب لطلب العلم ونشره، والدعوة إلى دينه والدفاع عنه، وحبه للجهاد والرباط، وحرصه على أكل الحلال، والتحري في لقمة العيش، والاستعلاء على الدنيا وزخرفها الكاذب ، ويا ترى كم نفس أحياها خبر استشهاد هذا العالم الفقيه

---

(١) سير أعلام النبلاء(جـ١٩ / ٣٧٨) .

الزاهد وكان ـ رحمه الله ـ يتذوق الشعر الذي فيه الذود عن سُنَّة سيد المرسلين ويكتبه لتلاميذه منه ما قاله أبو عبد الله محمد بن علي الصوري لنفسه:

قل لمن أنكر الحديث وأضحى عائباً أهله ومن يدعيه
أبعلم تقول هذا؟ أين لي أم بجهل فالجهلُ خُلُقُ السفيه
أيُعاب الذين هم حفظوا الدّين من الترهات والتمويه؟
وإلى قولهم وما قد رَوَوْه راجعُ كلّ عالم وفقيه [١]

ثالثاً: القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي:

من أعظم فقهاء الأندلس في عصر المرابطين، هو القاضي أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي، الإشبيلي، الإمام العلامة ، المتبحر في العلوم .

ولد عام (٤٦٨هـ / ١٠٧٦م) وتأدب ببلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، والشام وبغداد ومكة كان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه ، والأصول وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر، وعاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق [٢] .

[أ] مكانته العلمية :

قال الشيخ صديق حسن خان عن ابن العربي: «إمام في الأصول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله» [٣] .

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي ، وفيات عام (٥١١ ــ ٥٢٠) (ص ٣٦٩)
(٢) ، (٣) انظر : أحكام القرآن في المقدمة .

قال عنه القاضي عياض، وهو ممن أخذوا عنه: «استقصى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سيرة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة ، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه» (١) .

قال عنه الشيخ أحمد بن محمد المقري: «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الأبواب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في الإسلام أمضى من النصل» (٢) .

[ب] **مؤلفاته :**

قضى أربعين سنة في الإملاء والتدريس، وفي بث ما حصله من العلوم، وصنف رحمه الله في فنون متعددة منها: علوم القرآن، والحديث، و«مشكل القرآن والحديث»، وأصول الدين، وكتب الزهد، وأصول الفقه، وكتب الفقه، والجدل والخلاف، واللغة والنحو والتاريخ، ومن أشهر المؤلفات التي انتفع بها المسلمون «العواصم من القواصم»، «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»، «أحكام القرآن»، «القبس في شرح موطأ ابن أنس»، «المسالك على موطأ مالك»، «الإنصاف في مسائل الخلاف»، «أعيان الأعيان»، «المحصول في أصول الفقه»، «قانون التأويل» (٣) .

كان الإمام ابن العربي يصول ويجول بفقهه في بلاد الأندلس ينور طرق الظلام بعلمه، ويقضي على الشبهات بحججه، ويدمغ البدع المنتشرة بصبره وحلمه ودعوته، وكان من أعمدة دولة المرابطين في نشر الكتاب والسُّنَّة وتفقيه الناس وتربيتهم على مبادئ الإسلام وأخلاق الإيمان ودرجات الإحسان.

---

(١) انظر: أحكام القرآن في المقدمة.
(٢) انظر: العواصم من القواصم (ص ١٣).
(٣) انظر: ترجمته في كتاب العواصم من القواصم.

وله فوائد علمية سجلها في كتبه وانتفع بها طلاب العلم من بعده منها :

﴿١﴾ **قوله** :قال علماء الحديث ـ ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة، لقوله ﷺ : «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها...».

قال: وهذا دعاء منه ﷺ لحملة علمه، لا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته.

﴿٢﴾ **ومنه قوله**:كنت بمكة في سنة ٤٨٩هـوكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت العلم والإيمان، فنويت العلم والإيمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشرب للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدر فكان صفوي للعلم أكثر منه للعمل [١] .

وفاته :

أتاه أجله «بمغلية» قرب مدينة «فاس» في ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ، ودفن في فاس خارج بابِ المحروف على مسيرة يوم من فاس غرباً منها [٢] .

رابعاً: القاضي الفقيه عياض:

هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة، ولد في سبتة في عام ٤٧٦هـ وتتملذ على شيوخها ومن أشهرهم: القاضي أبو عبد الله بن عيسى، والخطيب أبو القاسم والفقيه إسحاق بن الفاسي، وإبراهيم بن جعفر اللواتي، وإبراهيم بن

---

(١) انظر : العواصم من القواصم (ص ١٦).
(٢) وفيات الأعيان (جـ٣ ٤٨٣).

أحمد القيسي، وأبو بكر القاسم بن عبد الرحمن الكومي وغيرهم كثير [١] .

[أ] رحلته إلى الأندلس :

كان خروجه للأندلس من بيتهيوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى ٥٠٧هـ ، وكان عمره إذ ذاك واحداً وثلاثين عاماً، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم في قرطبة أبو محمد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن عتاب القرطبي وقاضي الجماعة أبو عبد الله بن الحاج، والفقيه أبو جعفر بن رزق، وأبو مروان عبد الملك بن سراج، وأبو الوليد بن رشيد الجد، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعد الأندلسي الإشبيلي وأبو علي الصدفي.

وتحصل على علوم غزيرة وتصدى للتعليم والتدريس، وعين في القضاء، ونبغ فيه واشتهر بعلمه وعبادته وعدله وجوده، وكانت مؤلفات القاضي عياض أكثرها في الحديث الشريف، ثم فى التاريخ والطبقات ثم في الفقه، ثم في القرآن [٢] .

[ب] مؤلفاته:

﴿١﴾ «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»، وموضوعه في السيرة النبوية والعقيدة والأصول والتفسير والحديث.

﴿٢﴾ «مشارق الأنوار على صحيح الآثار»، وموضوعه تفسير غريب الحديث في الصحاح الثلاثة: «موطأ مالك» و«صحيحي البخاري ومسلم»، فضبط أسماء الرجال والألفاظ ونبّه على مواضع الأوهام والتصحيفات .

وفي هذا الكتاب قال الشاعر :

مشارق أنوار تبدت بسبتة عجب كون المشارق بالمغرب

---

(١) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة(ص١٢٤) .

(٢) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة(ص ١٢٥ ، ١٣٦) .

فأجابه آخر بقوله:

ومـا شـرف الأوطان إلا رجـالهـا وإلا فـلا فـضل لِتُـرب على تُرْب

﴿ ٣ ﴾ كتاب «الإكمال»، أكمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازري الفقيه المالكي المحدث المتوفي سنة ٥٣٦ هـ.

﴿ ٤ ﴾كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف» وهو في شرح مشكل الحديث.

﴿ ٥ ﴾ كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الراوية وتقييد السماع» في مصطلح الحديث.

﴿ ٦ ﴾كتاب «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد».

﴿ ٧ ﴾كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» في الفقه وجمع في هذا الكتاب فوائد وغرائب.

﴿ ٨ ﴾ كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» في العقيدة.

﴿ ٩ ﴾كتاب «الخطب» يحتوي على خمسين خطبة من خطب الجمع.

﴿ ١٠ ﴾ كتاب «جامع التاريخ» في التاريخ والطبقات.

﴿ ١١ ﴾كتاب «تاريخ سبتة» وهو مسودة.

﴿ ١٢ ﴾ «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك».

﴿ ١٣ ﴾ الغنيمة وذكر فيه شيوخه وترجم لهم.

﴿ ١٤ ﴾ «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان».

﴿ ١٥ ﴾ «غنية الكتاب وبغية ا لطالب»، في الأدب والإنشاء وغيرها من المخطوطات والكتب التي تدل على سمو منزلته وسلامة منهجه.

لقد برع القاضي عياض في أمور عدة منها: القضاء والفقه والحديث واللغة والأدب، وكان شاعراً مجيداً وله موهبة رائعة تدل على قدرته على نظم الشعر، ومن أبرع ما قاله القاضي عياض من القصائد تلك التي أنشدها وهو يودع قرطبة

في عام (٥٠٨ هـ) :

أقوال وقد جدَّ ارتحالي وغرَّدت حُداتي وَزُمَّتْ للفراق ركائبي
وقد غمضتْ من كثرة الدمع يستحثُّها وداعي للأحباب لا للحبائب
رعى الله جيراناً بقرطبة العُلا وسقى ربأها بالعهاد السواكب
وحيَّا زماناً بينهم قد ألفته طليق المُحيَّا مُستلان الجوانب
إخواننا بالله فيها تذكروا معهاد جار أو مودة صاحب
غدوْتُ بهم من برهم واحتفائهم كأني في أهلي وبين أقاربي [١]

ومن أشعاره الإخوانية التي وصف فيه ليلة جمعت من أصحابه كل ذي مكانة وفضل وجاه :

سَمَحَ الزمانُ بليلةٍ غراءَ جامعة السرورْ
أجنتْ أكفُّ جُناتِها قَطفَ الأماني والحبور
ما فضَّ طينُ ختامها فيما تقدم من دهور
دارت على فلك السعود بمثل أشباه البدور
ما إن ترى إلا أميراً حاز إرثاً عن أمير
تخَذُوا القلوب أسرة وثَوَواْ بها عِوض السرير
فعليهم وقف العلاءُ وإن تُدوولَت الأمور [٢]

لقد اهتم الأمير علي بن يوسف بالقاضي عياض لما كان شاباً وظهر ذكاؤه واشتهر صيته ، فأكرمته دولة المرابطين وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل التفقه في الدين .

---

(١) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة (ص ١٣٦ ، ١٤٦) .
(٢) المغرب والأندلس ، د . مصطفى الشكعة (ص ١٤٩) .

وكان القاضي عياض لا يحب كثرة الأسفار والارتحال، ويلاحظ المتتبع لسيرته وحياته أنه كان قليل الارتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه من العلماء والفقهاء والمحدثين، وكانت له نظرية عجيبة في ذم السفر وبيان أضراره وعيوبه نظمه في الشعر، وخالفه كثير من العلماء في نظرته المتفردة وإليك الأبيات التي ذكرها في ذم السفر:

تقعدَّ عن الاسفار إن كنت طالباً ... نجاةً ففي الأسفار سبعُ عوائق
تشوفُ إخوانٍ وفقدُ أحبةٍ ... وأعظمها يا صاح سكُنى الفنادق
وكثرةُ إيحاشٍ وقلةُ مؤنسٍ ... وتبذيرُ أموالٍ وخيفةُ سارق
فقدْ كان ذا دهراً تقادم عهده ... وأعقبه دهر شديدُ المضايق
فهذا مقالي والسلام كما بدا ... وجرِّب ففي التجريب علمُ الحقائق [(١)]

وهذه فسلفة غريبة في الأسفار أخالف القاضي عياض ـ رحمه الله ـ فيها إلا أنني أقول إن الإنسان في أسفاره العلمية أو التجارية عندما يقضي مآربه عليه أن ينتقل إلى غيرها حتى يحقق أهدافه ويرجع إلى وطنه وقومه غانماً سالماً مفيداً لأهله وشعبه ، **وقد ذكر العلماء في الأسفار فوائد فقال الشافعي رحمه الله :**

تغرب عن الأوطان في طلب العلى ... وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ ... وعلمُ وآداب وصحبةُ ماجدٍ [(٢)]

وقال الإمام الشافعي في الاغتراب أيضاً :

ما في المقام لذي عَقْلٍ وذي أدبِ ... من راحة فَدَعِ الأوطان واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه ... وانصبْ فإن لذيدَ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ

---

(١) **انظر** : النبوغ المغربي ، عبد الله كنون (جـ٣/ ١٣١) .
(٢) ديوان الشافعي (ص٥٧) .

والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست … والسهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يُصب
والشمسُ لو وقفت في الفلك دائمة … لملها الناسُ من عُجم ومن عرب (١)

وكان ممن عاصر القاضي عياض العلامة الشيخ يعلى أبو دبل وكان له رأي يخالف رأي القاضي عياض في السفر نظمه في هذه الأبيات:

سافر لتكسب في الأسفار فائدة … فَربُّ فائدةٍ تُلقى مع السفر
ولا تُقم بمكان لا تُصيبُ به … نصحاً ولو كنت بين الظل والشجر
فإن «موسى» كليم الله أعوزهُ … علم تكسَّبَهُ في صحبة الخضر (٢)

ومن شعره في الأشواق ما نظمه من أبيات واصفاً فيها شوقه وحنينه لزيارة المدينة المنورة فقال:

يا دار خير المرسلين ومن به … هدى الأنام وخُصَّ بالآياتِ
عندي لأجلك لوعة وصبابة … وتشوقٌ متوقدُ الجمرات
وعليَّ عهدٌ إن ملأت محاجري … من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرنَّ مصونَ شيبي بينها … من كثرة التقبيل والرَّشقات
لولا العوادي والأعادي زرتها … أبداً ولو سعيا على الوجنات (٣)
لكن سأهدي من جميل تحية … لقطين تلك الدار والحُجُراتِ
أذكر من المسك المفتق نفحةً … تغشاه بالآصال والبُكرات
وتخصه بزواكي الصلوات … ونَوامي التسليم والبركات (٤)

وله أبيات يصف فيها نفسه وشوقه إلى وطنه قالها في مدينة «داي» ببلاد المغرب سنة ٥٤١هـ وكان قد ناهز الخامسة والستين من العمر، وكان مرغماً على

---

(١) ديوان الشافعي (ص٣٤).
(٢) المغرب والأندلس، (ص١٥٠).
(٣) انظر: المغرب والأندلس (ص١٥٠).
(٤) أزهار الرياض (جـ٤/ ١٨٠).

البقاء فيها ممنوعاً من الرجوع إلى بلاده في زمن دولة الموحدين.

يعلم الله وأنا أمر على هذه الأبيات التي فجرت الأحزان في نفسي، وألهبت مشاعري وهيجت الأشواق إلى مدينتي «بنغازي» ومنطقتي «الحدائق» ، وذكرتني ببلادي العزيزة ليبيا قد تملكتني دموع الشوق إلى مسقط رأسي ، التي طالت مدة غيابي عنه أكثر من أربعة عشر عاماً نصفها مسجوناً في بلادي ، والنصف الآخر قضيتها متنقلاً بين البلدان ، ولم تكن تهمتي التي كلفتني هذه العقوبة القاسية التي احتسبها عند الله إلا أن رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ﷺ .

إن أبيات القاضي عياض في غربته أضفت علي وأنا أترجم حياته مسحة من الحزن ولوعة من الأسى وإحساساً بالحنين إلى أهلي ووطني، وأحبتي وإخواني، فقال القاضي ـ رحمه الله ـ وهو يحاور حمامة مرت به:

أقمرية الأدواح بالله طارحِي ... أخا شجي بالنوح أو بغناء

فقد أرقتني من هديلك رنة ... تهيج من شوقي ومن بُرحائي

لعلك مثلي يا حمامُ فإنني ... غريب «بداي» قد بُليتَ بداءِ

فكم من فلاةٍ بين «داي» و«سبتة» ... وخَرق بعيد الخافقين قواءِ

تصفقُ فيه للرياح خوافقٌ ... كما ضعضْعتني زفرةُ الصعداء

يذكرني سحُّ المياه بأرضها ... دموعاً أريقتْ يوم بنتُ ورائي

ويعجبني في سهلها وحزونها ... خَمائل أشجارِ ترف لِرائي

لعلَّ الذي كان التفرق حكمهُ ... سيجمع مناً الشمل بعد تنائي [1]

---

(١) انظر : المغرب والأندلس(ص١٥٠) .

عياض والقضاة :

رجع القاضي عياض إلى سبتة بعد أن أتم ما أراد من علوم من الأندلس ، وكان دخوله لمدينته الجبيبة إلى نفسه عام (٥٠٨ هـ) وفرح أهل سبتة بابنهم البار، وتصدر للتعليم والتدريس بعد أن امتحنه علماء مدينة سبتة في الفقه المالكي، وأصبح من أهل مجلس الشورى، وكان ذلك في الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً، وكانت تلك المرحلة سبباً في إعداده ليتسنم سدة القضاء الشريفة الرفيعة في بتة [١] .

ولما كان عياض في التاسعة والثلاثين من عمره تولى القضاء، وكان ذلك عام ٥١٥هـ ، وظل متربعاً على كرسي القضاء في بلده سبتة ستة عشر عاماً فسار فيها أحسن سيرة وكان محمود الطريقة مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله وترك في بلده آثاراً محمودة [٢] .

ويبدو أن بعض الأمراء لم يعجبهم حزم وعدالة القاضي عياض، كما خافوا من كثرة أتباعه وانتشار صيته ومحبة الناس له، فلذلك عزموا على نقله إلى غرناطة ولم يذكروا سبباً مقنعاً، مما جعل الفقيه أبو الحسن بن هارون المالقي يمدح القاضي عياضاً في أبيات سجلتها ذاكرة التاريخ :

ظلموا عياضاً وهو يَحْلُمُ عنهم ... والظلمُ بين العالمين قديمُ

جعلوا مكانَ الراءِ عيناً في اسمه ... كي يكتموه فإنه معلوم

لولاه ما فاحتْ بطائحُ سبتة ... والروض حول فنائِها معدوم [٣]

---

(١) انظر : المغرب والأندلس ،(ص١٥٠)

(٢) انظر : أزهار الرياض(جـ٣ / ١٠)

(٣) انظر : المغرب والأندلس(ص١٦٢)

وانتقل القاضي عياض إلى غرناطة ممتثلاً لأمر الأمير فهب أهل غرناطة لاستقباله كما يستقبل الفاتحون ، وبالله إنه لحق فاتح للعقول ومنور للقلوب ومطهر للنفوس بعلمه العزير، وخلقه المتواضع وسيرته العطرة .

وسار في الناس سيرة العدل، ورفع الظلم، وإحقاق الحقوق دون خوف من أمير أو وزير، ونشط وضاق به ذرعاً من تعرضت مصالحه للخطر، ولا يستطيع الحصول عليها إلا بالظلم، وأسفرت مكايد الأشرار في غرناطة عن عزل القاضي النزيه في عام ٥٣٢هـ ، ورجع إلى بلده ليكون بعيداً عن القضاء قريباً للطلاب العلم وحلقاته وقصده الناس وانتفع به العباد ونشر نور الكتاب والسنة في البلاد، واستمر على تلك الحالة الدعوية سبع سنين، وفي أواخر دولة المرابطين عام ٥٣٩هـ دعي ليتولى قضاء سبتة من جديد، وهو في الثالثة والستين من عمره، وكان شيخاً جليلاً وعاملاً عظيماً، وقاضياً حكيماً، وأباً رحيماً، فابتهج الناس لعودته وسار فيهم سابق سيرته، وما مضت شهور قليلة حتى سقطت دولة المرابطين على يد دولة الموحدين البدعية فاضطر القاضي الجليل إلى خوض الحياة السياسية والحربية (١) .

[د] معارك السياسة والحرب:

إن ظهور دولة الموحدين على يد المبتدع الكبير محمد بن تومرت كانت من أسباب سقوط دولة المرابطين، فطبيعي جداً أن يخوض حرباً ضد دولة الموحدين، وتولى قيادة جيوش الموحدين عبد المؤمن بن علي الذي استطاع بجيشه أن يحتل مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرها.

ورأى القاضي عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظاً على الأعراض والأموال، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل وقبل

---

(١) المصدر السابق نفسه .

أمير الموحدين تلك البيعة الإضطرارية ، وما أن قام محمد بن هود بثورته على الموحدين حتى استجاب أهل سبتة لذلك بزعامة القاضي عياض، وقام السبتيون بقتل عامل الموحدين وأصحابه، وسار القاضي عياض إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية في قرطبة وبايعه، وكان متمسكاً بدعوة المرابطين وطلب منه أن يعين والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي وأصبحت بذلك مدينة سبتة خارجة عن دولة الموحدين وعادت إلى حكم المرابطين.

إلا أن جيوش الموحدين استطاعت إخضاع مدينة سبتة وأهلها وأعادوا البيعة من جديد للموحدين الذين قبلوا ذلك واشترطوا إبعاد القاضي عياض عن مدينته إلى مراكش، وقيل: تدلا إلى أن توفاه الله تعالى.

إن موقف القاضي عياض كان منسجماً مع عقيدته وعلمه ودعوته في محاربته للموحدين الذين اعتقدوا عصمة إمامهم محمد بن توترت وغير ذلك من العقائد البدعية التي سنفصلها بإذن الله تعالى عند كلامنا عن الموحدين.

إن القاضي عياض ليس من أهل السُنَّة وحسب، ولكنه فقيه أهل السُنَّة آنذاك على الإطلاق، وهو كذلك يرى وجوب الوقوف أمام دعوة ابن تومرت، وينبغي التخلص منها متى حانت أول فرصة، وإن يكن قد بايع فالبيعة آنذاك كانت حفاظاً على سلامة بلدته وأهلها. أما وقد لاحت الفرصة بخروج بعض المدن على سلطان الموحدين القائم على بدعة الإمامة المعصومة، أما وقد جرت الريح بما لا تشتهي السفن فإن من العقل الاستسلام ثم المبايعة وله حكم المضطر في ذلك.

وإن سلطان الموحدين عبد المؤمن كان على مقدرة عجيبة من الدهاء والمكر، ولذلك رأى لمصلحة دولته أن يضع الفقهاء والعلماء الذين يشك في ولائهم له في مراكش، ومنعهم من العودة إلى بلادهم، أو يضعهم في مدن أخرى ليخدموا مخططات الدولة الناشئة [1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (ج٢٠/٢١٧) .

[و] وفاة القاضي عياض :

توفي رحمه الله في منفاه بعيداً عن وطنه في عام ٥٤٤هـ ودفن في مراكش [١] فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان على ما قدمه للإسلام .

هؤلاء بعض العلماء الذين كان لهم سبق ومكانة في دولة المرابطين وانتفع الناس بعلمهم وفقههم، ترجمت لهم ترجمة متواضعة، كما برز في علوم الفقه والحديث كثير من العلماء والمحدثين في عصر دولة المرابطين منهم : أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقوق وله مختصر في أصول الفقه سماه « بالمقتضب الأشفى من أصول المستصفى » ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي، ويعرف بالرشاطي، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتاب سماه « اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار »، ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري، وأبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن محمد الخزرجي، وقد ألف كتاباً في أحكام الرسول ﷺ سماه « آفاق الشموس وأعلاق النفوس »، وكتاباً آخر سماه « مقاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان »، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي وله كتاب يُسمى « بالوجيز في التفسير »، وكذلك برز في عصر علي بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث : أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر المعروف بابن الدباغ، وأبو عبد الله محمد ابن أحمد ابن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

المبحث الرابع
علوم اللغة في زمن المرابطين

ونبغ في علوم اللغة في عصر علي بن يوسف عدد كبير من العلماء المبرزين في النحو وعلوم اللغة نذكر منهم: أبا محمد، عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي ت ٥٢١هـ، وكان حجة في علمه عالماً متبحراً في النحو وعلوم اللغة، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرءون عليه، ومن تواليفه كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» وكتاب «التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة»، وكتاب آخر في شرح الموطأ وبالإضافة إلى ذلك كان شاعراً مطبوعاً فمن نظمه قوله:

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو جهل ميت وهو ماشٍ على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم في عصر علي بن يوسف: أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري النحوي، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة، متقدماً في علم القراءات، وأبو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله النحوي المعروف بابن اللجاش، وكان عالماً متبحراً في النحو، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري ت٥٥٥ هـ ومن تواليفه «نظم القرطين وضم أشعار السقطين» وجمع فيه أشعار «الكامل» للمبرد و«النوادر» لأبي علي البغدادي، كما له كتاب «التوطئة في العربية» وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب، وله في شرح أبيات جمل الزجاجي كتاب سماه «شفاء الصدور»، وكتاب «الفوائد والفرائد»، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان القري، وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض، وله أرجوزة مزدوجة في قراءة نافع وثانية في قراءة ابن كثير، ومن تواليفه كتاب «فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضاح» [1].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص٣٩٨، ٣٩٩، ٤٠٠).

المبحث الخامس

علوم التاريخ والجغرافيا في عصر المرابطين

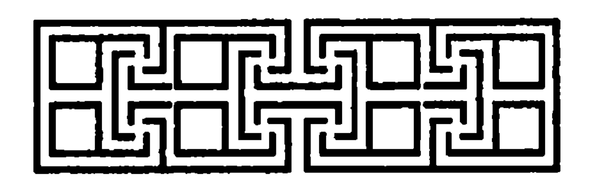
ظهر في عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكر في مقدمتهم:

أبو زكريا بن يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي كان من أعلام عصر علي بن يوسف في البلاغة والأدب والتاريخ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن علي بن يوسف أيام أن كان والياً على الأندلس، وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتاباً سماه «الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية»، وكتاباً آخر سماه «قصص الأنباء وسياسة الرؤساء» وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الأول سوى شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، وقد توفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠هـ ، وهناك أيضاً أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت ٥٤٢هـ صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجري ١١١٠م ، وأبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، ويعرف بابن علقمة، وهو من أهل مدينة بلنسية سماه «البيان الواضح في الملم الفادح» وتوفي ابن علقمة، وهو من أهل مدينة بلنسية سماه «البيان الواضح في الملم الفادح» وتوفي ابن علقمة عام ٥٠٩هـ / ١١١٤م ، وأبو طالب عبد الجبار عبد الله بن أحمد ابن أصبغ، وله كتاب يسمى «عيون الإمامة ونواظر السياسة»، وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي المعروف بالسالمي، وقد ألف كتاباً في التاريخ سماه «درر القلائد وغرر الفوائد»، وأبو نصر الفتح ابن

محمد القيسي الإشبيلي، والمعروف بالفتح بن خاقان، ومن تواليفه كتاب «قلائد العقيان في محاسن الأعيان»، وكتاب «مطمع الأنفس ومسرح التأنس» وكتاب «رواية المحاسن وغاية المحاسن» وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال، وكان من أعلام المؤرخين في عصر المرابطين، وأشهر تواليفه كتابه المعروف «بالصلة»، الذي جعله تتمة لكتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، ومن تواليفه أيضاً كتاب «الغوامض والمبهمات» في اثني عشر جزءاً وكتاب «المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل» في أحد وعشرين جزءاً وقد توفي ابن بشكوال في رمضان ٥٧٨ هـ.

وفي مجال الجغرافية: نبغ عدد من كبار جغرافيي الأندلس والمغرب عصر المرابطين نذكر منهم: الشريف أبو عبد الله محمد الإدريسي، صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وقد ألف الإدريسي لرجار الثاني صاحب صقلية، ولذا يعرف هذا الكتاب في كتب الجغرافية العربية باسم الرجاري.

ومن جغرافيي عصر المرابطين عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري صاحب كتاب «المسهب في غرائب المغرب»، وقد اتخذ بنو سعيد كتابه أساساً لكتابهم المعروف باسم «المغرب في حلى الغرب» [1].



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠١، ٢٠٤، ٤٠٣).

المبحث السادس

علوم الطب في عصر المرابطين

تقدمت العلوم الطبية والصيدلانية في عصر المرابطين تقدماً يشهد له الأسماء والأعلام التي تألقت في حضارة الأندلس والمغرب، وأشهرها ابن زهر وهو اسم طبيب أندلسي من أعظم أطباء الإسلام، ممن تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبعيية والكيميائية عميدها الأكبر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبعيية والكيميائية عميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن الأزهر الأيادي الإشبيلي، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين في علم الحديث في إشبيلية، وقد رحل أبو مروان في شبابه إلى المشرق وسمع في القيروان ومصر، وتتملذ على أيدي علماء المشرق في الطب، ورجع إلى الأندلس، وأصبح من أشهر علماء الطب فيها توفي في إشبيلية، وورثه في علم الطب ابنه أبو العلاء الذي تبوأ مكانة عظيمة في دولة المرابطين، ومن تواليفه «الخواص» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح» في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحاق في كتاب المدخل إلى الطب، وكتاب «النكت الطبية» وكتاب «الطرر» ومقالة في تركيب الأدوية، وتوفي أبو العلاء في قرطبة ٥٢٥هـ وحمل إلى إشبيلية ودفن بها، وأمر الأمير علي بن يوسف بجمع كتبه ونسخها، وتم ذلك عام ٥٢٦هـ، وورث ابنه أبو مروان من والده صناعة علوم الطب، ونبغ في هذا المجال، ولم يكن في زمانه من يماثله أو ينافسه، وكان له حظوة لدى أمراء المرابطين، فقد صنف للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين كتاباً سماه «الاقتصاد في صلاح الأجساد»، ومن تواليفه أيضاً كتاب

« التيسير في المداواة والتدبير » وقد ألفه القاضي أبو الوليد بن رشد وهذا الكتاب يعد من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى، وله أيضاً كتاب « الأغذية »، ومقالة في علل الكلى، ورسالة في علتي البرص والبهق، وتوفي هذا العالم في عام ٥٥٧هـ في إشبيلية.

ومن الأطباء الذين برعوا في عصر علي بن يوسف: أبو عامر محمد بن أحمد ابن عامر البلوي، وله في الطب كتاب سماه « الشفا » وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن سعيد السعدي وغيرهم.

ومما يؤكد اهتمام دولة المرابطين بالطب وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية وهو منصب هام يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة، إذ كان فيما يبدو المسئول الأول أمام الأمير في صناعة الطب وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير (١).

أمراء دولة المرابطين :

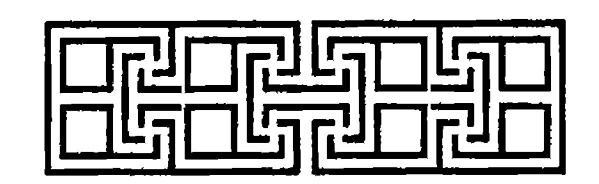
[١] أبو بكر عمر اللمتوني ٤٤٨ ـ ٤٨٠ هـ / ١٠٥٦ ـ ١٠٧٨ م .

[٢] يوسف بن تاشفين ٤٨٠ ـ ٥٠٠ هـ / ١٠٧٨ ـ ١١٠٦ م .

[٣] علي بن يوسف بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ / ١١٠٦ ـ ١١٤٢ م .

[٤] تاشفين بن علي ٥٣٧ ـ ٥٤٠ هـ / ١١٤٢ ـ ١١٤٥ م .

[٥] إبراهيم بن تاشفين بن علي ٥٤٠هـ / ١١٤٥م .



(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩) .

المبحث السابع

أسباب سقوط دولة المرابطين

﴿ ١ ﴾ ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حكام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقق قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** (١٦) ﴾.

[الإسراء: ١٦] [١].

يقول سيد قطب رحمه الله: « والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأرض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يَضْرِبُ على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها.. ».

والآية تقرر سُنَّة الله هذه في إهلاك من انغمس في الشهوات وأسرف في الملذات وتحلل من القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

﴿ ٢ ﴾ ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير علي بن يوسف تفقد طهرها وصفاءها الذي اتصف به جيلهم

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس (ص ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩).

الأول، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف والفساد وتستجيب لدعوة محمد بن تومرت الذي أظهر نفسه للناس بالزاهد والناسك والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

﴿ ٣ ﴾ انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي الذي سبب نزاعاً عنيفاً على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير علي ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقاً داخلياً، ففقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثوارت عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرها ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

﴿ ٤ ﴾ الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس ومحاربة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصباً لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير علي بن يوسف، كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين [١]، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سبباً في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، قال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني :

---

(١) الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين (ص ٩٨) .

أهل الرياء لبستم ناموسكم　　كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك　　وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب　　وبأصبغ صبغت لكم في العالم [١]

ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلماءها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي ومحمد بن فاطمة ومحمد بن الحاج وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادئ والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة [٢].

﴿ ٦ ﴾ ومن أهم العوامل التي أنهكت دولة المرابطين، أنها مرت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام (٥٢٤هـ- ٥٣٠م) [٣].

﴿ ٧ ﴾ ومن أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين - في نظري - صدامها المسلح مع جيوش الموحدين، ورأيت أن أفراد له مبحثاً مستقلاً [٤] ويكون ذلك عند دراسة دولة الموحدين إن شاء الله.

---

(١) ،(٢) **انظر** : سقوط دولة الموحدين ، للدكتور / مراجع الغناي (ص٣١) .
(٣) ،(٤) نفس المرجع السابق .

نتائج البحث

[١] إن في معظم القبائل في العالم الإسلامي رجال لهم عقول راجحة وبعد نظر وتقدير للأمور، وفي أغلب الأحيان يتولى أمر القبيلة أرجح الناس عقلاً وأكثرهم جوداً، وأعظمهم شجاعة، وأخلصهم لأهله وعشيرته، شخصية الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي خير دليل على ما قلت، ولذلك من الدروس العميقة من هذا البحث هو أهمية دور زعماء القبائل في دعوة قبائلهم وعشائرهم، وإيجاد الحماية اللازمة للدعاة إلى الله في أواسط القبائل، فعلى الحركات الإسلامية العاملة أن توثق علاقتها مع هذه الشريحة من المجتمع، وتحرص على دعوتها للإسلام لتنصهر في الدعوة الربانية التي تبذل جهدها لتحكيم شرع الله تعالى.

[٢] إن أبا عمران الفاسي العالم الرباني والفقيه المالكي سيد الفقهاء في القيروان في زمانه يعتبر هو واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين وكان ـ رحمه الله ـ يميز بين العمل العلني في الدعوة وفقهها وتعليم الناس، وبين العمل السري لإقامة دولة سنية، وكان رحمه الله على اتصال بفقهاء أهل السُنَّة في مدن وقرى الشمال الإفريقي، ولذلك لما تعرف أبو عمران الفاسي على الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم، وعلم بأحوال قومه وحاجتهم لمنهج الإسلام ومن يربيهم على ذلك، اتصل بأخيه الشيخ وجاج بن زلوا اللمطي فقيه المالكية بالسوس الأقصى، وكان فقيهاً صالحاً يقيم بمدينة ملكوس، وأطلعه على المهمة التي جاء من أجلها الأمير يحيى، فاختار لهذه المهمة تلميذه الذكي الفقيه العابد الألمعي عبد الله ابن ياسين الجزولي صاحب العلوم المتنوعة والشخصية الجاذبة التي تجري

في دمائها صفات الدعاة المتعددة ، وسار رحمه الله وفق خطة محكمة بصبر وحلم وشجاعة في قبائل الملثمين.

[٣] كانت مرحلة التعريف التي نفذها الإمام عبد الله بن ياسين في قبائل جزولة ولمتونة وغيرها من أصعب المراحل، وكادت تودي بحياته واستطاع أن يحارب مظاهر الشرك والجهل في مجتمع صنهاجة الصحراوى، وأن يتحمل الكثير من أجل تعليمهم الإسلام وأركان الإيمان ومقامات الإحسان.

[٤] ثم كانت مرحلة التكوين واختار الإمام عبد الله بن ياسين رباطه على مصب نهر السنغال بعيداً عن نفوذ الأمراء وأصحاب الجاه والأموال، وشكَّل نخبة صفوية ألزمها بلوائح تنظيمية ومبادئ سلوكية واجتهد في تربيتها وشكل منها مجلس الشورى.

[٥] وفي مرحلة التنفيذ بعد أن أصبحت للإمام ابن ياسين شوكة وقوة ومنعة استطاع أن يقضي على قوة الشر في قبائل لمتونة وجذولة وغيرها، وأن يوحدها على منهج الإسلام وعقيدة الرحمن ودعوة الإيمان.

[٦] كانت تربية عبد الله بن ياسين لاتباعه رفيعة المستوى غرست في نفوسهم حب الشهادة، والتلذذ بمتاعب الجهاد والحرص على هداية الناس واختار لأتباعه اسماً يدل على الرابطة السامية التي ربطت هذه المجموع التي كانت متناحرة وأصبحت متآخية متعاونة ألا وهو «المرابطون».

أصبح فقهاء المغرب الأقصى والأحرار المتطلعون لتحكيم شرع الله في مدنهم يتصلون بالمرابطين، ويطلبون منهم مساعدتهم لأزالة الظلم الواقع عليهم من حكام زناتة، وبالفعل لبى المرابطون هذا النداء وتحركت جيوشهم القوية لإزالة المظالم ونشر العدل، والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وعلى بقايا الروافض، وأصبحت جبهاتهم متعددة نحو السنغال

والنيجر ونحو فاس ومكناس وطنجة، وحققوا انتصارات رفيعة ودخلت أمم من الزنوج والوثنيين في الإسلام.

[٨] استمر الإمام ابن ياسين يقود معارك التوحيد للمغرب الأقصى من أجل إقامة دولة سنية، واستشهد في تلك المعارك بعد أن ترك خلفه رجالاً آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم وروعة أهدافهم.

[٩] تولى قيادة المرابطين بعده الإمام أبو بكر بن عمر الذي تميز بزهده وعبادته وبساطته وحبه للجهاد والاستشهاد، وكان إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف مقاتل من المرابطين، فوضع هذا القائد الخطوط الأولى لدولة المرابطين وأناب ابن عمه على المغرب، وتحرك بجيش عظيم نحو الصحاري القاحلة لنشر الإسلام في النيجر والسنغال ومالي، وأبلي بلاءً عظيماً، ودخلت أمم وشعوب وقبائل لا يحصيها إلا خالقها في دين الفطرة ودعوة الإسلام الخالدة، ثم رجع إلى ابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين في المغرب وجده قد حقق فتوحات عظيمة، ووحد البلاد وقضى على الفساد، وأزال الظلم ونشر العدل، فتنازل عن الإمارة لابن عمه يوسف بعد أن أوصاه بتقوى الله وذكره قدومه على الله، ثم ودعه، ودخل في الصحراء الكبرى بجيشه الداعي إلى رضوان الله وصراطه المستقيم وأكرمه الله بالشهادة في قلب الصحراء الكبرى.

[١٠] تولى أمر المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين فنظم المدن وأرسى نظم الحكم وخطط للدولة المرابطية، فشرع في إنشاء دواوينها ومجالسها وإدراتها وجيوشها ووضع الأمراء والفقهاء والقضاة على المدن والقرى، وأشرف على تنفيذ أحكام الله، وأثبتت الأيام والحروب والمحن التي مر بها على أنه قائد عسكري وسياسي من الطراز الأول وأحبه المرابطون والتفوا حوله وتطايرت الركبان في نشر سيرته وعدله وأحبه المسلمون.

[١١] أصاب المسلمين في الأندلس أضرار جسيمة بسبب خنوع ملوك الطوائف للنصارى وضعفهم في الحكم، مما عرض ممالك الأندلس لأطماع النصارى الحاقدين الذين جاسوا خلال الديار في الأندلس يقتلون ويذبحون ويسبون وأصبحت ممالك الأندلس الإسلامية تتساقط في أيديهم مدينة بعد مدينة وقرية إثر قرية، وحصن خلف حصن، وركب المسلمين فزع عظيم فاضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا الغوث والنصر من الأمير الرباني والقائد الميداني يوسف بن تاشفين، وكان قرار حكام الأندلس في استدعاء يوسف حكيماً وتبناه الملك المعتمد بن عبّاد بكل ما يملك من حجة وقوة، ولما قالوا للمعتمد سيضم الأمير يوسف إليه الأندلس، فقال قولته المشهورة التي أصبحت مثلاً رائعاً على العصور وكر الدهرو تتعلم منه الأجيال الوفاء لدينها والولاء لعقيدتها حيث قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير»، وقال المعتمد لابنه إن استدعاء الأمير يوسف أمر يرضي الله تعالى، ولن أكون أبداً سبباً في ضياع ديار المسلمين.

[١٢] استجاب الأمير يوسف لدعوة إخوانه في العقيدة وعرض الأمر على أهل شورته وتحصل على موافقة العلماء والفقهاء ورجال الدول المرابطية، وحرك كتائب المرابطين بفرسانها الشجعان وجنودها الأبطال وعبر المضيق، وقاد الأمير يوسف كتائب المسلمين في الأندلس، ووضع مع أركان جيشه خطة محكمة للقضاء على جيش ألفونسو النصراني وسطر المرابطون في تاريخ أمتنا ملاحم العقيدة والفداء في معركة الزلاقة، وانتصر المسلمون وانهزم النصارى وحفظ الله الإسلام في الأندلس لقرون بعد تلك المعركة التاريخية، وبعد هذا النصر الرائع والنفيس الذي حققه المرابطون ورفعوا به راية الإسلام في سماء الأندلس رجع الأمير يوسف إلى المغرب وترك الغنائم لملوك الأندلس الذين اختلفوا بعد ذلك وكادوا أن يضيعوا الإسلام

من جديد في تلك الديار فطلب فقهاء الأندلس من الأمير يوسف ضم الأندلس لحكم المرابطين، وشجعه علماء المغرب وتحصل على فتاوى من علماء المشرق من أمثال أبي بكر الطرطوشي في مصر، وأبي حامد الغزالي في العراق.

[١٣] استطاع يوسف بن تاشفين أن يفتح مدن الأندلس، وأن يضم الممالك إلى دولة المرابطين، وأسر بعض ملوك الأندلس الذين ثبت تعاونهم مع النصارى ووضعهم في المغرب إلى أن توفاهم الله، وبذلك قضى على مهزلة ملوك الطوائف.

[١٤] حاول المستشرقون أن يلطخوا دولة المرابطين وخصوصاً الأمير يوسف إلا أنهم اصطدموا بحقائق التاريخ الناصعة التي دلت على عظمة الأمير يوسف ودولته الميمونة وحاول المستشرق رينهارت دوزي أن يشوه دولة المرابطين ويصفها بالبربرية والتخلف، ويصف السلطان علي بن يوسف بالرجل التافه، ويمدح ملوك الطوائف في الأندلس الذين تحالفوا مع النصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، وشنّ حملة مسعورة على جهاد المرابطين الذين حققوا وحدة صفوف المسلمين، وهزموا أعداءهم النصارى، وخلصوا المسلمين من هؤلاء الملوك الضعفاء، لقد شتم دوزي المستشرق الأمير يوسف ووصفه هو وابنه بأنهم تافهون، وأنا لا أستغرب من دوزي المستشرق أن يفقد توازنه ويخرج عن نهج المؤرخين النزهاء، لقد كان المستشرق دوزي ملحداً زنديقاً عدواً للإسلام والمسلمين، كيف تريده أن يتحمل شعارات المرابطين الدالة على سمو عقيدتهم وطهارة منهجهم، وكأني بالمستشرق دوزي وهو يقلب الدينار المرابطي والمكتوب على وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** (٨٥) ﴾[آل عمران: ٨٥].

وقد اشتاط غضباً وفقد عقله وغرق في كفره، فأباح لنفسه الكذب والافتراء والزور ليهدئ من روعه وانفعاله كيف يكون تافهاً من يوحد المغرب الأقصى ويضم إليه الأندلس ويقضي على ملوك الطوائف؟ لقد وصف المؤرخون المنصفون الأمير يوسف بأنه كان حازماً ضابطاً للنفس ماضي العزيمة عالي الهمة تحركه عقيدته الإسلامية وشريعته الربانية، أما دولة المرابطين فقد أثبت التاريخ أنها دولة حضارة وعلم وثقافة، وأما ما قام به أعداؤهم في وصفها بالتخلف الحضاري والتعصب المذهبي فهو قول باطل لا تسعفه الأدلة عارٍ من الحقائق، وما كان دافع خصومهم من الموحدين والأندلسيين الذين حملوا عليهم حملة ظالمة إلا من باب التعصب الديني أو المذهبي، أو كراهية سياسية أو قومية حاولوا النيل من دولة المرابطين السنية، وتابع أولئك الأقوام الذين مضوا بعض المستشرقين المحدثين أمثال المتعالم الحاقد الهولندي راينهارت دوزي وتابعه على ذلك نفر من المعاصرين أمثال ارشيبالد لويس في كتابه «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط».

[١٥] يعتبر ضم الأندلس إلى دولة المرابطين من أعظم أعمال الأمير يوسف بن تاشفين الجهادية.

[١٦] كانت نظرة دولة المرابطين إلى الخلافة الإسلامية ا لعباسية في بغداد صائبة صحية لكونها منبثقة من منهج أهل السُنَّة والجماعة، ولذلك بايعوا الخليفة العباسي ورفعوا أعلامه وشعاره ودعوا له على منابرهم.

[١٧] كانت علاقة الدولة المرابطية بالخلافة العبيدية في مصر عدائية لاختلاف العقائد والمناهج والمذاهب، ولذلك حرص المرابطون على اقتلاع بقايا الرفض والتشيع من دولتهم.

[١٨] كانت علاقة دولة المرابطين بالدولة الزيرية الصنهاجية ذات أبعاد

استراتيجية تعاونية، بسبب وحدة المنهج والمعتقد والمذهب والقرابة التي بين زعماء الدولتين، ولذلك نجد تنسيقاً في البحر المتوسط للإغارة على أساطيل النصارى، ونجد دعماً اقتصادياً من دولة تميم بن المعز الزيري لدولة المرابطين عندما خاضوا جهادهم المقدس ضد النصارى.

[١٩] أما علاقة بني حماد بالمرابطين فهي محفوفة بالتخوف من الطرفين، حيث نجد أن لبني حماد أطماعاً توسعية تستهدف أطرافاً من دولة المرابطين كما نجد أن المعارضين الأندلسيين للمرابطين استقروا في حماية بني حماد، إلا أن سياسة الأمير يوسف مع بني حماد تميزت بالحكمة وبعد النظر والابتعاد عن الصدام مراعياً في ذلك أموراً عديدة منها قرابتهم واتحادهم في المنهج والمعتقد والمذهب.

[٢٠] كانت علاقة المرابطين مع ملوك النصارى عدائية، أما مع أهل الذمة فكانت محكومة بحكم الشريعة فيهم، فقامت على العدل والإنصاف.

[٢١] كانت الأندلس مليئة بالشعراء والأدباء والفقهاء، إلا أن الولاء والبراء ضاع مفهومه عند كثير من ملوكهم.

[٢٢] استطاع الأندلسيون أن يثروا دولة المرابطين بالشعراء والأدباء، وأن يأثروا في كثير من جوانبها المعمارية والفنية والثقافية.

[٢٣] الحضارة الإسلامية في زمن دولة المرابطين امتزجت بالعناصر الإفريقية والعربية والأندلسية مما جعلها متميزة في كثير من جوانبها الحضارية.

[٢٤] كان في زمن المرابطين علماء وفقهاء ، لا زال أثرهم في الأمة سارياً إلى يومنا هذا ، من أمثال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي، وأبو الوليد ابن رشد، والقاضي عياض ، والمحدث الفقيه أبو علي الصدفي ، وغيرهم كثير.

[٢٥] وكان النظام العسكري والقضائي والإداري والمالي مواكباً لعصره، منضبطاً بأحكام الإسلام في دولة المرابطين.

[٢٦] استطاع أسطول المرابطين أن يحقق الأمن والأمان لمسلمي الشمال الإفريقي، وأن يكبل النصارى في جنوب البحر المتوسط خسائر هائلة.

[٢٧] إن اهتمام الأمير علي بن يوسف بالزهد والعبادة وتسليمه لأمور الملك في آخر أيامة للأمراء خطأ عظيم كلف دولة المرابطين متاعب عظيمة، ومن أعظم الأخطاء التي وقع فيها الأمير علي عدم أخذه بنصيحة وزيره الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي أشار على الأمير علي بقتل محمد بن تومرت الكذاّب زعيم الموحدين وقال للأمير: «هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته ، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع في بلاد المصامدة صار علينا منه شر كبير».

إلا أن الأمير علي بن يوسف رفض قتله، فلما يئس مما أراده من قتل ابن تومرت، أشار عليه بسجنه حتى يموت، فقال أمير المسلمين نسجنه، ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل، ولكن نأمره يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء [١] .

[٢٨] إن من أعظم أسباب سقوط الدولة الذنوب والمعاصي وارتكاب الكبائر والمظالم.

[٢٩] في زمن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كانت مقومات النصر متجسدة في دولته، ومن أبين وأهم ما ظهر لي في هذا البحث من مقومات النصر من أهمها، أولاً: الإعداد قبل المعركة، ثانياً: معرفة قوة العدو وإمكاناته ، التوجيه المعنوي، التعمية على العدو، والتحام القيادة مع الشعب، متانة

---

(١) موسوعة المغربي العربي(جـ٢ / ١٨٨ ، ٢٨٩) .

العقيدة ووضوحها، القيادة المثلى، عدم القتال لدنيا ، الحكمة في اتخاذ القرارات، صفات المجاهدين الخلقية والروحية، مما مهدت لهم طريق النصر.

[٣٠]من أخطر ما تمر به الدول والحركات عدم قدرتها على توريث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للجيل الذي بعدها.

[٣١]إن الاستهانة بالخصوم تؤدي إلى انهزام المستهزئ وانتصار المستهزأ به.

[٣٢]كان لنفوذ المرابطين في بلاد الأندلس أثر واضح المعالم في الحروب الصليبية في الشام، إذ إن دخولهم الأندلس منع الممالك الصليبية التي كانت تتجه إلى بلاد الشام، بل إن ظهورهم في تلك المرحلة التاريخية في المغرب والأندلس قد حال دون اشتراك القوى الأوربية بكل ثقلها في الحروب الصليبية في الشرق، وبذلك قدم المرابطون خدمات عظيمة وجليلة للشرق الإسلامي (١).

[٣٣]كانت حضارة المرابطين في الأندلس والغرب مقصداً لأبناء العلم من الأوروبيين الذين توالوا وتوافدوا على الأندلس لتلقي العلوم والصناعات، بل إن بعض ملوكهم أرسل بعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك، وكل ما يؤدي إلى سير الأمور في الدولة والسير بها في مضمار الحضارة والتقدم.

[٣٤]تركت دولة المرابطين التي لم يصل عمرها الزمني إلى مئة عام وهي فترة قصيرة في عمر الدول آثاراً واضحة جلية في جميع مجالات، بل إن تلك المآثر الحضارية تعدت حدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخرى من العالم الإسلامي.

---

(١) موسوعة المغرب العربي (جـ٢ /١٨٨ - ١٨٩)

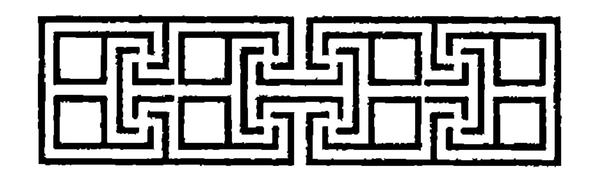
[٣٥] إن ظهور دولة الموحدين وانقضاضها بعنف على دولة المرابطين تسبب في ضعف النواحي الحضارية والثقافية والسياسية والعسكرية عند المغاربة عموماً، وفتحت مجالاً لملوك النصارى للقضاء على الإسلام في الأندلس فيما بعد.

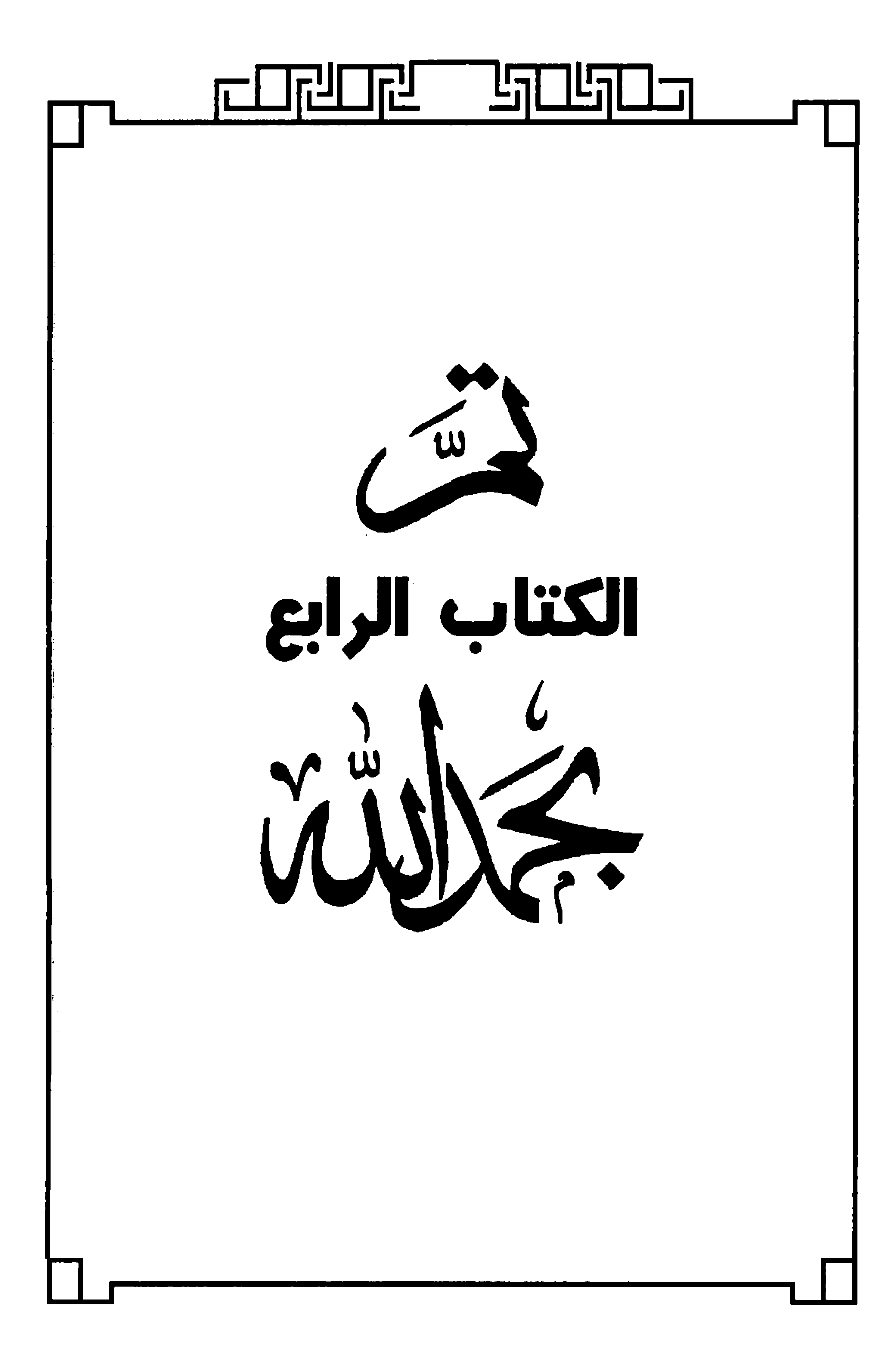
[٣٦] سُنَّة الله جارية في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، ونزع الملك ممن يشاء وإعطائه لمن يشاء.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين





تم
الكتاب الرابع
بحمد الله



الكتاب الخامس

دولة الموحدين

سقوط الأندلس الإسلامية ومحاكم التفتيش البربرية

مُقَدِّمَة

إن الحمدلله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا** ﴾ [النساء : ١] .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)** ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

أما بعد :

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت .

هذا الكتاب الخامس [**صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي**] يتحدث عن [**دولة الموحدين**] ، فيعطي صورة واضحة عن مؤسس الدولة محمد ابن تومرت ويوضح عقيدته المنحرفة والأُسس الفكرية التي عليها دعوته الباطلة ، ويبين أعماله الظالمة والجائرة ، ويقف على حقيقة الصراع مع دولة المرابطين ، ويتكلم عن بواعث القتال وسفك الدماء ، وهتك الأعراض عند الموحدين ، ويسلط الضوء على المراحل التي مرت بها دعوة ابن تومرت والأسباب التي اتخذها للوصول إلى أهدافه ويشير إلى أهمية تحصين الأمة بعقائد أهل السُّنَّة

والجماعة حتي تسلم من العقائد الفاسدة والدعوات الباطلة والمناهج المنحرفة، ويعطي نبذة مختصرة عن سلاطين الموحدين ابتداء من عبد المؤمن بن على الذي سقطت على يديه دولة المرابطين ووحدالشمال الإفريقي بقوة السلاح والذي وضع معالم سياسية لدولة الموحدين سار أبناؤه وأحفاده عليها من بعده ، ويتكلم عن المعارك الفاصلة في تاريخ الموحدين مثل معركة الأرك التي قادها أبو يوسف يعقوب المنصور في عام (٥٩١ هـ) فيتعرض لوصف حي للمعركة وأسباب انتصار المسلمين فيها والنتائج التي ترتبت عليها ويثني على المجهودات العظيمة التي بذلها السلطان يعقوب المنصور من أجل إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم من منهج أهل السُنَّة والجماعة ويتحدث عن طلب صلاح الدين الأيوبي من السلطان يعقوب المنصور بإمداده بالسفن والمعدات الحربية ، ويذكر الأسباب الّتي منعت السلطان يعقوب من تلبية طلب صلاح الدين والوقوف معه في جهاده ضد النصارى.

ويسلط الأضواء على الثورات التي في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والأدنى ضد دولة الموحدين وكيف تعامل الموحدون مع هذه الثورات وما هي أسبابها وما هي الآثار التي تركتها تلك الثورات في الشمال الإفريقي.

ويقف وقفات متأملة مع أسباب سقوط دولة الموحدين، فيشير إلى السُنن الإلهية والأسباب القريبة والبعيدة التي ساهمت في سقوطها.

ويتحدث عن الدويلات في الأندلس والشمال الإفريقي، فيتكلم عن مملكة غرناطة وأسباب صمودها ضد النصارى ودور المرينيين حكام المغرب الأقصى في الوقوف مع مسلمي الأندلس ويتعرض لسقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ويقف عند الأسباب التي ساهمت في ضياع الأندلس ويتكلم عن دولة بني مرين في المغرب الأقصى ومنهجها التي قامت عليه ومحاولاتها المستمرة لتوحيد الشمال الإفريقي ويتحدث عن أسباب سقوطها وكيف تولى الوطاسيون الحكم بعدهم

ثم كيف انتزعه السعديون منهم ويثني على أعمال السلطان عبد الملك السعدي الذي حقق نصراً عزيزاً على نصارى البرتغال في معركة وادي المخازن بالمغرب الأقصى في عام (٩٨٦هـ) ، والذي استشهد في المعركة وتولى أخوه أبو العباس أحمد المنصور القيادة من بعده ويمضي بالقارئ الكريم إلى فترة انهيار الدولة السعدية ليقف على أسباب سقوطها ويتعرض لدولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ويتحدث عن تنظيمهم الإداري وأسباب بقائهم لمدة ثلاثة قرون ويقف على أسباب سقوطها وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وانتزعوا المغرب الأوسط من قبضة الإسبان الغزاة.

ويتحدث عن الدولة الحفصية في إفريقية وأسباب قيامها ونظام ولاية العهد عندهم وعلاقة الدولة الحفصية بطرابلس الغرب ، ويقف على أسباب سقوط الدولةالحفصية ، وكيف جاء العثمانيون المجاهدون وحرروا طرابلس من فرسان ما يُسمى بالقديس يوحنا.

إن هذا الجهد المتواضع لم يأت بجديد وإنما هو جمع وترتيب ومحاولة للتحليل والتفسير للأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الحقبة الزمنية، فإن كان خيراً فمن الله وحده وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه.

وهدفي من الكتاب :

[١] بيان خطورة الدعوات التي بنيت على أسس فكرية منحرفة ، وعقدية فاسدة.

[٢] أهمية تحصين الأمة وأجيالها بعقيدة أهل السُنَّة والجماعة وتربية أبنائها عليها ، حتي يسهل للأمة معرفة المعتقدات الباطلة والمناهج المنحرفة التي تخالف القرآن الكريم وسُنَّة سيد المرسلين ﷺ ، وإجماع العلماء الراسخين.

[٣] تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب

سقوطها ، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات .

[٤] التعريف ببعض العلماء العاملين والفقهاء الراسخين الذين سقطوا شهداء في ساحات الجهاد ضد النصارى الحاقدين .

[٥] إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة ، وتصور سليم بعيدة عن سموم المستشرقين ، وأفكار العلمانيين الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل أهدافهم .

[٦] كشف المغالطات التاريخية التي أضفت على المفسدين ثوب الإصلاح وجعلتهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام .

[٧] بيان أن حركات الإصلاح التي تستحق التقدير والاحترام من الأمة ؛ هي التي سارت وتسير على منهج أهل السُنَّة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات .

[٨] بيان أن الذين كفَّروا المسلمين ، وسفكوا دماءهم وهتكوا أعراضهم قادةٌ في الفساد والدمار والإجرام .

هذا وقد قمت بتقسيم الكتاب إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول :محمد بن تومرت :

ويشتمل على خمسة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ورحلاته في طلب العلم .

المبحث الثاني: البعد التاريخي عند ابن تومرت.

المبحث الثالث: مسيرة العودة وخطواته الحركية.

المبحث الرابع: الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت.

المبحث الخامس: المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت.

الفصل الثاني : ويشتمل على أربعة مباحث:

الفصل الثالث: الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين:

ويشتمل على أربعة مباحث:

ثم الخلاصة :

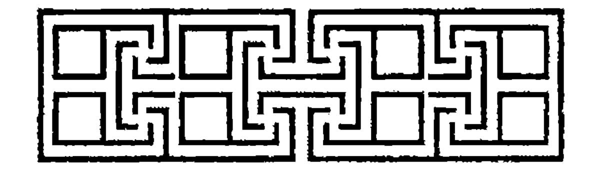
وأخيراً: أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي ، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب .

إنه ولي ذلك والقادر عليه ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين





الفصل الأول

محمد بن تومرت

المبحث الأول

اسمه ونسبه، ورحلاته في طلب العلم وشيوخه

[أ] اسمه ونسبه :

اختلف المؤرخون في تحديد نسب ابن تومرت فبعضهم قال: إنه عربي، وينتهي نسبه إلى الرسول ﷺ عن طريق ابنته فاطمة من زوجها عليّ، والبعض الآخر يجعل نسبه بربرياً صرفاً. والبعض الآخر يجعله نسباً مختلطاً بين البربر والعرب هذا وإن كان ابن تومرت والموحدون من بعده يصرون على أن المهدي عربي النسب، قرشي الأصل من صلب الرسول ﷺ [١] .

والمتتبع لتاريخ ابن تومرت يدرك أنه لم يظهر ادعاءه النسب القرشي دفعه واحدة بل إنه تدرج في هذا الأمر، حتي يضمن قبول الناس له، فبعد أن اطمأن لقبول دعوته، وإلي تمكنه من أتباعه، أخذ يشوقهم إلى المهدي ونسبه ، فلما قبلوا هذا الأمر ، ادعى ذلك الأمر لنفسه.

ويذهب ابن خلدون إلى إثبات أن نسبه يرجع إلى الرسول ﷺ ، حيث قال: (وأما إنكارهم نسبه في أهل البيت فلا تعضده حجة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وانتسب إليه ، فلا دليل يقوم على بطلانه ؛ لأن الناس مصدقون في أنسابهم » [٢] .

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين ، د . مراجع عقيلة(ص ٣٦)

(٢) ابن خلدون ، المقدمة(ص ٢٦) .

وقول ابن خلدون فيه نظر؛ لأن المؤرخين الأثبات والثقات أثبتوا أن محمد بن تومرت لا يتورع عن الكذب والدجل من أجل الوصول إلى أهدافه [١].

ووافق ابن خلدون من المعاصرين الدكتور عبد المجيد النجار [٢] في صحة نسب ابن تومرت إلى بيت النبي ﷺ وادعي أن صحة هذا النسب تبقي قائمة من حيث الإمكان التاريخي والجغرافي والعقلي.

ويرى محمد بن عبد الله عنان من المعاصرين أن هذا الادعاء ما هو إلا نحلة باطلة، وثوباً مستعاراً قصد وراءها ابن تومرت أن يدعم بها صفة المهدي الذي انتحلها أيضاً شعاراً لإمامته ورياسته [٣].

والذي يظهر من البحث العلمي النزيه ، أن محمد بن تومرت ادعى النسب القرشي الهاشمي كوسيلة لكسب الأنصار لدعوته الناشئة ، **والذي قادنا إلى هذا الاستنتاج ما يلي:**

[١] أنه لم يشتهر بين المؤرخين لا سيما علماء الأنساب منهم أن ابن تومرت يعود إلى أصل عربي ، وإنما معظم الذين قالوا بهذا من مؤرخي الدولة الموحدية الذين سجلوا تاريخها بوحي من سلاطينها وأمرائها، أو بتأثر بدعوة ابن تومرت [٤].

[٢] أن هذا الادعاء كان مألوفاً عند أصحاب المطامح الدينية والسياسية في بلاد المغرب كما لا حظنا في دراسة الدولة العبيدية الرافضية.

[٣] ويضاف إلى ما سبق أن انتساب ابن تومرت إلى الأصل العربي لم يكن معروفاً عند أتباعه إلا بعد ادعى ذلك لحاجة في نفسه [٥].

---

(١) **انظر** : الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٩/٥٣٩) .

(٢) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، د . عبد المجيد (ص ٥٦) .

(٣) **انظر** : عصر المرابطين والموحدين (ص ٥٥٧) .

(٤) من هؤلاء المؤرخين ، أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيذق ، وابن القطان ، وغيرهم .

(٥) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٥٨) .

أما تاريخ ميلاده :

فقد ذكر المؤرخون عدة روايات تدل على اضطرابهم في تحيد سنة الولادة، فمنهم من قال :٤٧٣هـ [١]ومنهم من قال :٤٨٥هـ [٢] ومنهم من قال :٤٦٩هـ ، ورجح الدكتور عبد المجيد النجار أنه ولد سنة ٤٧٣هـ [٣] .

ولم تعط المصادر التاريخية نبذة موسعة عن أسرته ، وإنما وردت الأخبار التي تدل الباحث على أن أسرته كانت من أواسط القوم غير بارزة الجاه والثروة وكانت على مكانة دينية حيث يقول ابن خلدون : « وكان أهل بيته أهل نسك ورباط » [٤] ، كما أنها كانت تحافظ على العلاقات الأسرية الحميمة بين أفرادها كما يبدو من شوق والد ابن تومرت وأخويه عيسى وعبد العزيز وأخته زينب إليه لما طالت غيبته بالمشرق،ثم احتضانه ومؤازرته بعد عودته من تلك الغيبة » [٥] .

وعندما كان طفلاً تلقى دراسته الأولية بالكتاتيب في قريته، فتعلم القرآن حفظاً ورسماً وقراءة على عادة المغاربة كما وصفها ابن خلدون في قوله: (أما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذ هم أثناء الدراسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه . . .إلى أن يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة [٦] .

وربما قبل رحلته إلى المشرق تعلم العربية وأدبها وشيئاً من الفقه، لقد ظهر اهتمامه وشغفه بالعلم منذ شبابه قال ابن خلدون : « وشب محمد هذا قارئاً للعلم، وكان يسمى «آسفو» ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج في القناديل

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين(ص ٣٦) .

(٢) **انظر** : وفيات الأعيان لابن خلكان(٥/٥٢) .

(٣) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت(ص ٥٧) .

(٤) ابن خلدون ، العبر(٦/٢٢٦) .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة(ص ٥٠٦) .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة(ص ٥٠٦) .

بالمساجد لملازمتها»[١].

[ب] رحلته في طلب العلم:

تاقت نفسه للمزيد من العلوم الشرعية، فقصد المشرق الإسلامي لينهل من منابع العلم، ومصادر المعارف، ومهد الحضارات ما يفيده في تحقيق أهدافه التي يرنو إليها.

فبدأت رحلته في عام ٥٠٠هـ، فحج وشرع في طلب العلم، ودامت رحلته خمسة عشر عاماً كان لها الأثر المباشر في تشكيل شخصيته والتأثير في آرائه وأفكاره.

ومكث في العواصم الإسلامية من أجل التعلم والتتلمذ على العلماء في كل من بغداد، والإسكندرية والحجاز، وكان قبل الرحلة المغربية سافر إلى الأندلس حيث نزل بقرطبة[٢] ودرس بها على القاضي أبي جعفر حمدين بن محمد بن حمدين إلا أن الأقامة في قرطبة لم تدم طويلاً بل كانت محطة للعبور[٣].

ومن الأندلس توجه المهدي إلى تونس بحراً ونزل بالمهدية حيث درس بها على أبي عبد الله المازري، ثم قصد مصر عن طريق جزيرة جربة حيث أقام بها بعض أيام[٤].

ثم توجه إلى الديار المصرية وتلقى دروساً وأخذ علماً من الشيخ أبى بكر الطرطوشي ولم يمكث طويلاً في مصر حيث فضل الذهاب إلى الحجاز لحج البيت الحرام أداء الفريضة[٥] وتوجه من الحجاز نحو العراق ومكث بها ما يزيد على

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٦ / ٢٢٦).

(٢) البيان المغرب (١ / ٤٣٥).

(٣) نفس المصدر السابق (١ / ٤٣٥).

(٤) **انظر**: تجربة الإصلاح لابن تومرت (ص٥٩).

(٥) **انظر**: ابن خلدون (٦ / ٢٢٦).

عشر سنوات وهناك تبحر في علم الكلام وعقائد الاعتزال، والأشاعرة وأخذ من كل ما يخدم فكرته طرفاً قال ابن خلدون: ودخل العراق، ولقي جلة العلماء يومئذ وفحول النظار، وأفاد علماً واسعاً [١].

ومن أشهر شيوخه في بلاد المشرق الإسلامي: الغزالي، وآلكيا الهراسي، والمبارك بن عبد الجبار، وأبو بكر الشاشي.

وكان الإمام الغزالى (ت ٥٠٥هـ) مبرزاً في علم أصول الدين والتصوف ومتبحراً في علم الكلام ووقع في أغلاط وأخطاء، قال الذهبي عن كتابه الإحياء: (أما الإحياء ففيه من الأحاديث الباطلة جملة، وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم، وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية نسأل الله علماً نافعاً.

تدري ما العلم النافع؟ هو ما نزل به القرآن وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه قال ﷺ: « **من رغب عن سُنَتي فليس مني** » [٢].

فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في الصحيحين، وسنن النسائي، ورياض النووي، وأذكاره، تفلح وتنجح. وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات، وجوع الرهبان وخطاب طيش رءوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم، نعم» ولم ينس الذهبي أن يوفي الإمام الغزالي حقه قائلاً: «فرحم الله الإمام أبا حامد فأين مثله في علومه وفضائله؟ ولكن لا ندعي عصمة من الغلط والخطأ، ولا تقليد في الأصول» [٣].

وقال الشيخ الطرطوشي [٤] **في رسالة له إلى ابن مظفر:** (فأما ما ذكرت

---

(١) ابن خلدون، العبر (٦/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح رقم (٥٠٦٣)، ومسلم رقم (١٤٠١).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٤٠، ٣٤٦).

(٤) توفى عام (٥٢١هـ).

من أبي حامد فقد رأيته، وكلمته فرأيته جليلاً من أهل العلم واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وفاق على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له العدول عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال ثم تصوف وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الأحياء» عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه، وشحن كتابه بالموضوعات» [١] .

وأما شيخ الإسلام، ابن تيمية فقد أثني على كتاب الإحياء قائلاً بأن غالبه جيد وأن فيه فوائد كثيرة لكنه أشار إلى أن فيه بعض مواد مذمومة وفا سدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، وأضاف أن بعض أئمة الدين أنكر على أبي حامد هذا الذي في كتبه وقالوا أمرضه الشفا - يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة - وقال: «وفي الإحياء أحاديث وآثار ضعيفة بل موضوعه كثيرة. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم ،وفيه مع ذلك كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسُنة وما هو أكثر مما يرد منه» [٢] .

وقد كان يتعرض دائماً لآراء الغزالي في أكثر كتبه ، وينقد ما جاء فيها بأسلوب هادىء علمي وغالباً ما كان يختم الكلام عنه بأنه مات على أحسن أحواله بعد أن كان في أواخر عمره مقبلاً على كتب الحديث ، وأنه قد مات وصحيح البخاري على صدره [٣] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٣٤١) .

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٦ / ٢١٠) .

(٣) فتاوى ابن تيمية (١٠ / ٥٥١-٥٥٢) ، (٦ / ٥٥) .

إن بعض الكتاب عرضوا الغزالي كعالم قد تتلمذ على يديه ابن تومرت وأن الغزالي كان ينزع منزع التحرر العقلي ويشجب الجمود على التقليد[1] وإن ابن تومرت تأثر به ، وكان ابن تومرت رجلاً متحرراً من الجمود والتقليد ومتنوراً في أطروحته التغييرية.

ولا بد من بيان إن الغزالي كان مضطرباً في منهجه العقدي ولم تكن مسائل العقائد التي طرحها منسجمة مع أصول منهج أهل السُنَّة والجماعة، وأن ابن تومرت تأثر به واستفاد منه في بعض المسائل ووظفها لأهدافه السياسية.

وأما شيخه أبو علي بن محمد الملقب بعماد الدين، والمعروف بالكيا الهراسي (ت ٥٠٤هـ/ ١١١٠م)، فقد كان عالماً في الفقه والأصول والخلافيات والتفسير، وله في التفسير كتاب (أحكام القرآن).

وأما المبارك بن عبد الجبار (ت ٥٠٠هـ/١١٠٦م) فقد كان محدثاً مكثراً، إلا أن ابن تومرت لم يطل تتلمذه عليه حيث توفي في نفس السَّنة التي قدم فيها إلى بغداد.

وأما أبو بكر الشاشي (ت٥٠٧هـ)، فقد كان عالماً في أصول الدين وأصول الفقه، كما كان في الفقه رأس الأئمة الشافعية بالعراق، وألف في المذهب كتابه «المستظهري»[2] وكان من شيوخه أيضاً أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت٥٢١هـ) الذي أخذ عنه ابن تومرت العلم في الإسكندرية، وكان متميزاً في الفقه، ومتمكناً في السياسة الشرعية التي ألف فيها كتاب «سراج الملوك»، كما كان الطرطوشي مهتماً بنشر السُنَّة ومحاربة البدعة وألف كتابه «الحوادث والبدع».

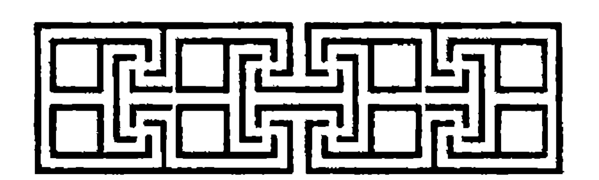
لقد استطاع ابن تومرت أن يستفيد من رحلته المشرقية وأن يتحصل على

(١) انظر : تجربة الإصالح في حركة ابن تومرت(ص٦١) .
(٢) انظر : تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت(ص ٦١) .

علوم متنوعة تجمع بين العلوم العقلية ، فضبط الأصول ، وعلم الكلام وعقائد الأشاعرة وتأثر بالمعتزلة وغيرذلك من العلوم [١] .

ورأى عن كثب أقطاب المدارس الفكرية من الأشاعرة والمعتزلة والشيعة وغيرها من المذاهب وحضر مناقشتهم وندواتهم واطلع على فلسفتهم وروح حركاتهم وبذلك تبلورت آراؤه وأفكاره.

وساعدته رحلاته المغربية والمشرقية على الوقوف على أحوال العالم الإسلامي، واستوعب أسباب الانهيار والتدهور التي تعانيها دول إمارات بلاد المغرب. وكان ذلك من الأسباب القوية التي دفعت به إلى الطموح في القضاء على أنظمة الحكم الموجودة في المغرب، والتخطيط لإقامة دولة موحدية قوية لا في بلاد المغرب وحدها، بل والعالم الإسلامي كله [٢] .



(١) المصدر السابق نفسه (ص ٦٢).
(٢) **انظر** : سقوط الموحدين (ص ٣٧ ، ٣٨).

المبحث الثاني

البعد التاريخي عند محمد بن تومرت

نظر ابن تومرت في المدارس الفكرية الرئيسية التي وجدت في بلاد المغرب قبله ، وخصوصاً تلك المدارس والأفكار والمذاهب التي كان لها ثقل مذهبي وسياسي تحميه دولة وشوكة وقوة والتي أكسبت تلك الاتجاهات هيبة ومكانة عند الناس، مما ساعد على شيوعها وانتشارها في مناطق متعددة في الشمال الإفريقي وأهم تلك الاتجاهات والأفكار التي قامت على أسس تحميها دوله في بلاد المغرب والتي استقى منها ابن تومرت أفكاره وزاد عليها .

[١] الاتجاه السني ويمثله دولتا الأغالبه والمرابطين والدولة الزيرية الصنهاجية في اخر عمرها:

وقد أسس دولة الأغالبة في المغرب الأدنى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ، الذي عينه الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧١-١٩٣هـ) سنة١٨٤هـ على ولاية إفريقية ، ثم ما لبث أن عرض على الرشيد الاستقلال الجزئي على الخلافة العباسية،والاكتفاء بالتبعية الاسمية مقابل دفعه للخلافة العباسية مبلغاً من المال في كل سنة، فوافق له الرشيد على هذا الطلب . وقد توالى على عرش دولة الأغالبة عدد من الأمراء كان آخرهم زيادة الله بن عبد الله بن الأغلب (٢٩٠-٢٩٦هـ) حيث حصل في فترة حكمه انقسام داخلي بين الأغالبة أنفسهم، مما ساعد الدولة العبيدية على القضاء على دولتهم سنة ٢٩٦هـ وقد عمل الأغالبة ـ حين مدة حكمهم ـ على توطيد المذهب السني ونشره في البلاد التي خضعت لنفوذهم في بلاد المغرب ، وصقلية، كما عملوا أيضاً على نشر الحضارة الإسلامية في تلك الديار [1] ، أما دولة المرابطين (٤٥١-٥٤١هـ) فقد قامت في

---

(١) انظر : الأغالبة سياستهم الخارجية (ص٤٤) ، للأستاذ / محمود إسماعيل .

جنوب بلاد المغرب الأقصى بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين ، والأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ثم يحيى بن عمر اللمتوني وتوسعت حتى ضمت المغرب كله والأندلس في عصر القائد الأمير يوسف بن تاشفين وكانت دولة المرابطين على أسس إسلامية سليمة، حيث نهجت نهج أهل السُّنَّة والجماعة، ولم تتأثر بأي نزعة دينية أخرى، وكان من أهم الأسس التي تبنتها «الجهاد في سبيل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام أحكام الدين في فروض الزكاة والأعشار وسائر أمور الدولة [١] ، وكان من مآثرهم العظيمة جهادهم ضد النصاري في الأندلس وتحقيق نصرهم على النصارى في معركة الزلاقة بقيادة المجاهد الكبير يوسف بن تاشفين ، وجهادهم في بلاد السنغال والنيجر وجنوب الصحراء الكبرى بقيادة الأمير الرباني العابد الزاهد المجاهد أبي بكر بن عمر الذي استشهد في قلب الصحراء الكبرى (٤٨٠هـ).

وفي مستهل القرن السادس الهجري بدأ الضعف ينتاب دولة المرابطين لاسيما بعد ظهور دعوة ابن تومرت في بلاد المغرب الأقصى، ثم ما لبث الموحدون أن قضوا عليها حينما دخلوا مدينة مراكش وقتلوا السلطان إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين (٥٣٩-٥٤١هـ) [٢] وبهذا تمكن الموحدون من أن يقيموا دولتهم على أنقاض دولة المرابطين في المغرب والأندلس [٣] ، وبالإضافة إلى هاتين الدولتين السنيتين، فإن الدولة الزيرية الصنهاجية قد نهجت النهج السُّنِّي في آخر عمرها ،وذلك حينما أعلن المعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣هـ) انفصاله عن الدولة العبيدية في سنة ٤٤٠هـ حيث خلع طاعتهم، وأخذ بمذهب أهل السُّنَّة ، كما لعن الرافضة وقتل من وجده في دياره منهم ، ثم ما لبث أن دعا للخليفة

---

(١) **انظر** : قيام دولة المرابطين ، لحسن محمود (ص ١٦٦) .

(٢) **انظر** : البيان المغرب (٣ / ٢٣) .

(٣) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس (ص ٥٤١) .

العباسي القائم بأمر الله (٤٢٢-٤٦٧هـ) [١] وبهذا تحول اتجاه هذه الدولة إلى الاتجاه السني، بعد أن كان اتجاهها رافضياً [٢] .

ولقد فصلت في تاريخ دولة الأغالبة في كتابي الثاني (صفحات من التاريخ الإسلامي لله الشمال الإفريقي)، وتكلمت عن الدولة العبيدية الرافضية وكيف قضى عليها سيف السُّنَّة ومزيل البدعة المعز بن باديس في كتابي الثالث (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي) وتحدثت عن دولة المرابطين وفقه التمكين عن قادتها العظام في كتابي الرابع (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي).

[٢] الاتجاه الخارجي: ويمثله دولتا المدراريين (١٤٠-٣٣٧هـ) والرستميين (١٤٤-٢٩٦هـ).

وقد قامت دولة بني مدرار في سجلماسة جنوب المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ، على يد عيسى بن يزيدالمكناسي والذي كان يدين بالمذهب الصفري أحد الاتجاهات الرئيسية عند الخوارج ، حيث بسطت هذه الدولة سلطانها على منطقة سجلماسة جنوب بلاد المغرب الأقصى [٣] .

وفي سنة ١٥٥هـ قتل أهل سجلماسة زعيمهم عيسى المكناسي لمآخذ أخذوها عليه، ثم ولوا بعده أبا القاسم سمعون بت واسول الملقب بمدرار (١٥٥-١٦٧هـ) وقد تولى على عرش الدلة أبناؤه وأحفاده من بعده حيث تذبذبوا في ولائهم المذهبي والسياسي، فمنهم من خطب للعباسيين، ومنهم من خطب للعبيديين، فلما تولى محمد بن ميمون بن مدرار (٣٣٢ - ٣٤٧هـ) أعلن خروجه على المذهب الخارجي، وأخذ بالمذهب السني، لكن العبيديين قضوا عليه حينما

---

(١) **انظر** : ابن خلدون (٦/ ١٥٩) .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د . أحمد العبادي (ص ٤٦) .

هاجم جوهر الصقلي سجلماسة سنة ٣٤٧هـ وبوفاته انتهت دولة بني مدرار. أما دولة الرستميين، والتي تنهج المذهب الإباضي، فقد أسسها في بلاد المغرب الأوسط عبد الرحمن بن رستم (١٤٤-١٧١هـ) سنة١٤٤هـ حيث اتخذ مدينة تاهرت حاضرة له (١).

ولما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة١٧١هـ ترك الأمر شورى، بين سبعة من رجال الدولة الرستمية، وقد اختلف هؤلاء السبعة، فبينما رأى بعضهم مبايعة ابنه عبد الوهاب، رأى آخرون (٢) مبايعة مسعود الأندلسي أحد السبعة الذين ترك عبد الرحمن الأمر فيهم، لكن مسعوداً تنازل لعبد الوهاب، بعد أن كادت الفتن تعصف بالدولة (٣) وقد استمرت هذه الدولة تحكم بلاد المغرب،حتى قضى العبيديون على آخر أمرائها ، وهو اليقظان بن أبي اليقظان (٢٩٢-٢٩٦هـ وذلك سنة ٢٩٦هـ) (٤)، لكن سقوط هذه الدولة لا يعني سقوط المذهب الخارجي في بلاد المغرب ، فقد استمر وجود هذا المذهب هناك حتي بعد سقوط تلك الدولة (٥).

[٣] الاتجاه الرافضي وتمثله دولة العبيديين :

وهذا الاتجاه كان آخر المذاهب الفكرية دخولاً لبلاد المغرب عن طريق الدولة العبيدية التي نشرت هذا المذهب هناك، ولم تقم في بلاد المغرب الأدنى إلا في سنة (٢٩٦هـ).

وبالرغم من كون الدولة العبيدية قد تمكنت من القضاء على الأغالبة، والرستميين، والمدراريين، والأدارسة فاستطاعت بذلك - إلى حد ما - أن تبسط سلطانها السياسي على معظم أقاليم بلاد المغرب ، إلا أنها لم تتمكن من فرض مذهبها الديني على أهالي تلك الديار؛ وذلك لأن الناس لم يتقبلوا أفكار

---

(١) **انظر** : المغرب الكبير (٣/٥٨٣).
(٢) المصدر السابق (٢/٥٥٢-٥٥٣)
(٣) **انظر** : الأزهار الرياضية للباروني (٢/٩٩٠).
(٤) انظر المغرب الكبير (٢/٥٦٥)
(٥) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس د . أحمد العبادي (ص ٤٨).

العبيديين لما فيها من غلو وشطط لم يألفه سكان تلك الديار؛ بل إنهم تطلعوا إلى خلافة سنية جديدة قامت في الأندلس هي الخلافة الأموية بالأندلس (١) كما أن أهل السُنَّة قاموا بمقاومة المد الرافضي العبيدي بكل ما يملكون وهذا مما جعل الروافض يرحلون إلى مصر عام ٣٦٢هـ .

[٤] الاتجاه الاعتزالي: ويمثله دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٧٢ ـ ٣١٣هـ) :

أقام هذه الدولة إدريس بن عبد الله الحسن سنة١٧٢هـ ، رذلك حينما آوته قبيلة أوربة البربرية، حيث امتدت حدود دولة الأدراسة من المحيط الأطلسي غرباً إلى تلمسان ووهران شرقاً (٢) .

ولما توفي إدريس بن عبد الله سنة١٧٧هـ بقي الأمر في سلالته حتي قضى على دولتهم العبيديون عام٣١٣هـ (٣)، وكان الأدارسة يطمحون إلى توحيد العالم الإسلامي تحت قيادتهم مستندين في ذلك إلى أصلهم الشريف (٤) ، وقرب نسبهم للرسول ﷺ ولكنهم لم يظهروا شيئاً من التشيع كما يبدو هذا من خلال استقراء تاريخ تلك الدولة.

أما تبني دولة الأدارسة للمذهب الاعتزالي، فالذي يبدوا هو أن زعماء هذه الدولة لا سيما القدماء منهم وجدوا أن المذهب قد انتشر في بلاد المغرب الأقصى خاصة بين أفراد قبيلة أوربة التي ساعدت إدريس الأول في إقامة دولته، ولهذا لم يجدوا مناصاً من إظهار موافقتهم الظاهرية لهذا الفكر ليبقى في دولتهم بعد قيامها مراعاة منهم لزعماء قبيلة أوربة الذين تبنوه وعملوا على نشره، لكن الأدارسة لم يظهروا حماساً لجعله مذهباً رسمياً لدولتهم (٥) .

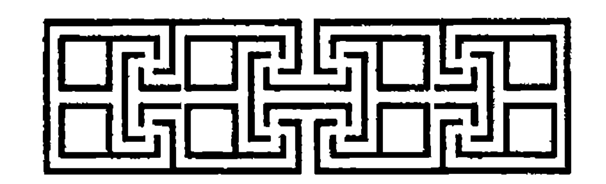
---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٥٥) .
(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب (ص ٥٠) .
(٣) تاريخ المغرب الكبير (٢ / ٤٨٦) .
(٤) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص٥١) .
(٥) مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود (ص ٥٤٦) العدد السادس .

سنلاحظ من خلال دراستنا التحليلية أن محمد بن تومرت استفاد من جميع المذاهب السابقة وزاد عليها مما يخدم ميوله ويحقق أهدافه ولذلك جاءت الأسس وقضاياها التي تطرحها وتناقشها وتعمل على تثبيتها ونشرها.

ولم يكن ابن تومرت رجل فكر بحت فقط، ولا كان رجل سياسة فقط؛ بل إنه في الحقيقة جمع في شخصه رجل الدين ورجل العلم ورجل السياسة ، فهو في دينه، ذهب في عبادته وتقشفه إلى درجة التصوف وهو في علمه، متبحر ودفع بالعلم وتشجيع العلماء والحركة العلمية في عهد الدولة الموحدية وآتى هذا الغرس نتاجه في عهد يوسف بن عبد المؤمن ، ويعقوب بن يوسف ويعتبر رجل السياسة ؛ لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها [١] .

إن ابن تومرت لم يتأثر بمدرسة واحدة من مدارس الفكر التي كانت تعيش في زمانه ، بل تأثر بمدارس فكرية متعددة وأخذ من المذاهب الفقهية والفكرية ما يتواءم مع شخصيته ومعتقداته ويحقق أهدافه ، وسنرى ذلك في مبحث مستقل بإذن الله تعالى .



---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٣٨) .

المبحث الثالث

مسيرة العودة وخطواته الحركية

في عام ٥١٠هـ [١] شرع محمد بن تومرت في رحلته للعودة إلى الشمال الإفريقي واستغرقت مدة عودته حتى وصل إلى مسقط رأسه أربع سنوات، وكان خلالها يتوقف بكل القرى والمدن التي يمر بها وينشط في نشر العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويتحمل المصاعب والمشاق ويشكل خلايا تابعه له في بعض المدن، فتحرك من مكة إلى مصر ومكث في الإسكندرية وأخرج منها بسبب أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وقصد طرابلس بحراً حيث بقي مدة يعلم الناس العقيدة على الطريقة الأشعرية، ثم انتقل إلى المهدية بتونس واتخذ أحد مساجدها مقراً يدرس به مركزاً على علم الأصول وأحدث اضطراباً في المدينة بسبب أسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم اضطر للخروج إلى المنستير ثم إلى مدينة تونس وكان في الطريق يختار بعض رفقائه المخلصين وتوجه بهم نحو قسنطينة، ثم بجاية التي وصلها سنة ٥١١هـ وأقام بها مدة واشتهر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وناظر الفقهاء وظهر عليهم [٢].

وفي مدينة ملالة التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن علي الذي كان متجهاً إلى الشرق لطلب العلم برفقة عمه يعلو فاستطاع أن يصرفه عن وجهته ويقنعه بملازمته وقد لمح ابن تومرت في عبد المؤمن بن عليّ علامات الذكاء وصفات النبوغ وملامح الفطنة وأخبر ابن تومرت تلميذه بحقيقة ما ينوي القيام به [٣] فبايعه على مؤازرته في الشدة والرخاء والأمن والخوف والعسر واليسر والمنشط والمكره.

---

(١) روض القرطاس(ص ١٢٠) .

(٢) انظر : تجربة الإصلاح في تجربة المهدي ابن تومرت(ص ٦٣) .

(٣) انظر : المغرب الكبير(٢/ ٧٧٤ ، ٧٧٥) .

لقد نسجت حول لقاء الرجلين رواية يغلب عليها طابع الخيال والدعاية من أجل ترسيخ مكانتهما في نفوس الأتباع، فالرواية تقول: إن الدلائل والإشارات كانت تبشر بقرب ظهور عبد المؤمن الذي على يديه يتحقق النصر، أن صفاته موجودة في كتاب يمتلكه ابن تومرت يسمى الجفر وأنه رأى فيه أنه لا يتم هذا الأمر إلا على يد رجل هجاء اسمه (ع بدم و م ن) ويجاوز وقته المئة الخامسة وتستمر الرواية في سرد قصة اللقاء الأسطورية بينهما وكيف استطاع ابن تومرت أن يتعرف على عبد المؤمن ويبشر بقدومه .

وكتاب الجفر هذا يقصد به جلد المعز الذي كتب فيه ، وهذا الكتاب يزعم الإمامية أن جعفراً الصادق رحمه الله كتب لهم كل ما يحتاجون إليه، وكل ما سيقع ويكون إلى يوم القيامة، وكان مكتوباً عنده في جلد ماعز، فكتبه عنه،هارون ابن سعيد العجلي رأس الزيدية ، وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب فيه، وهذا زعم باطل، فإن جعفراً الصادق كجده أمير المؤمنين لا يعلم الغيب، وقال تعالى: ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** (٦٥) ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال تعالى:﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (٥٩) ﴾ [الأنعام: ٥٩].

إن كتاب الجفر لا تصح نسبته إلى جعفر الصادق رحمه الله، الذين نسبوه إليه من أجهل الناس بمعرفة المنقولات والأحاديث والآثار، والتمييز بين صحيحها وضعيفها، وعمدتهم في المنقولات التواريخ المنقطعة الإسناد، كثير منها من وضع من عرف بالكذب والاختلاف، كأبي مخنف لوط، وهشام بن محمد السائب، وأمثالهما، وغير خاف على طلبة العلم أن ما لا يعلم إلا من طريق النقل

لا يمكن الحكم بثبوته إلا بالرواية الصحيحة السند، فإذا لم توجد، فلا يسوغ لنا شرعاً وعقلاً أن نقول بثبوته [١].

إن ابن تومرت لم يكن أول من قام بعملية الاستدلال بالحروف، ويظهر للباحث أنه أخذها من بعض الفرق الباطنية خلال إقامته بالمشرق، فقد كانت الباطنية تهتم اهتماماً كبيراً بمثل هذه الأمور [٢].

لقد تقاربت أفكار عبد المؤمن مع شيخه وخصوصاً ما يتعلق بالخروج على السلطان ونضجت أفكاره بعد أن لازم ابن تومرت، وأخذا يعملان سوياً من أجل تقويض دولة المرابطين [٣].

ومن الذين انضموا إلى ابن تومرت ولعبوا دوراً هاماً في دعوته عبد الله الونشريسي الذي كان على درجة كبيرة من الثقافة. وقد اتفق معه ابن تومرت على أن يتستر على ما هو عليه من العلم والفصاحة عن الناس، ويظهر العجز والغباء والتعري من الفضائل مما يشتهر به عند الناس على أن يدوم على أخذ العلم في السرثم يفصح عن ذلك دفعه واحدة عندما يطلب منه ابن تومرت ذلك فيكون بمثابة المعجزة فيصدقه الناس ويزداد إيمانهم بدعوته، فقام الونشريسي بذلك وأتقن الخداع والمكر والحيل والكذب والدجل على الناس [٤].

واستمر ابن تومرت في تنقله إلى المدن ووصل إلى فاس، واستمر في إلقاء دروسه فيها حتى عام (٥١٤هـ) وكان خلال هذه المدة ملتزماً ببرنامجه الذي وضعه لنفسه، والذي كان من ضمن أهدافه العمل على تقريب أشخاص من ذوي القوةالجسمانية قليلي التجربة، إضافة لاستمراره في الأمر بالمعروف والنهي

---

(١) انظر : مجلة المنار (٤ / ٦٠) لمحمد رشيد رضا.
(٢) انظر : دولة المرابطين (ص١٠١).
(٣) انظر : دولة المرابطين، للمؤلف / سلامة محمد (ص ١٠٢).
(٤) انظر : خلكان (٥ / ٤٨).

عن المنكر مما أفضي إلى طرده من فاس، فتوجه إلى مراكش [١] مقر حكم المرابطين. وخلال رحلته إليها كان ينبه عبد المؤمن بن علي للمواقع ذات الأهمية الإستراتيجية [٢] ويدل ذلك على أنه كان يخطط لحرب طويلة الأمد ضد المرابطين.

ودخل ابن تومرت مدينة مراكش في عام٥١٤هـ في زي الزهاد وعلى عادته خرج مع تلاميذه إلى أسواق مراكش يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر دون إذن أمير المسلمين ، أو إذن أحد قضاته أو وزرائه؛ لأنه شاهد في مراكش من المفاسد ما لم يره في مدينة ثانية [٣] وصدف أن أخت أمير المسلمين حاسرة قناعها فوبخها فشكته إلى أخيها ، ثم ذهب ابن تومرت إلى مسجد علي بن يوسف في صلاة الجمعة فوجد أمير المسلمين جالساً وحوله الوزراء وقوفاً ، فاستنكر عليهم ذلك وعاب عليهم لبس النقاب ، وخاطب علياً قائلاً: «الخلافة لله ، وليس لك يا علي بن يوسف» [٤] .

ولما كثر نشاط ابن تومرت في مدينة مراكش خاصة في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والطعن في أمير المسلمين علي بن يوسف استدعاه على للاطلاع على حقيقة أمره، فلما حضر بين يديه استطاع ابن تومرت أن يقنعه بأنه زاهد وليس له أي مطمع دنيوي، وإنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتفشي المفاسد والبدع في ملك أمير المسلمين الذي هو مكلف بإزالتها، والعمل على إحياء السُّنَّة ، وكان يتحدث بأسلوب مؤثر وقع في نفس أمير المسلمين فذرفت دموعه على وجنتيه [٥] .

---

(١) **انظر** : البيذق أخبار المهدي ابن تومرت (ص ٢١ - ٢٦) .
(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، للمؤلف / سلامة محمد (ص ١٠٣) .
(٣) تاريخ الإسلام السياسي ، حسن إبراهيم حسن (٤ / ٢٨٢) .
(٤) **انظر** : دولة المرابطين ، للمؤلف / سلامة محمد (ص ١٠٣) .
(٥) **انظر** : دولة المرابطين ، لسلامة محمد سليمان ، (ص ١٠٤) .

ولم تعم فصاحة وأسلوب ابن تومرت المؤثر أمير المسلمين علي بن يوسف عن خطورة دعوته فدعا العلماء من كل صوب لمناظرته لمعرفة حقيقة هذا الرجل، فإن كان على حق اتبع وإن كان على جهل أدب [١] .

وكانت المناظرة فرصة لا تعوض لابن تومرت ؛ لأنها ستتيح له إبراز ما لديه من علم ، وإظهار علماء مراكش بمظهر العاجزين أمام سطوع حجته. وهي أيضاً وسيلة دعائية ممتازة لدعوته؛ لأن ما ستسفر عنه ستتناقله الألسن، وستطير أخبار هذه المناظرة ونتيجتها في الآفاق ، فهي بحق بطاقة تعريف جيدة لداعية مغمور.

وسيدفع الفضول كثيرين من الحضور وأفراد الرعية إلى مقابلة الداعية الجديد للاستفسار عن حقيقة دعوته، وعن بعض القضايا التي أثيرت في المناقشة مما يتيح له فرصة ممتازة لتوضيح فكره، وهذا ما يسعى إليه لضم أعداد جديدة إلى صفوفه.

وقبل بدء المناظرة في مجلس أمير المسلمين على الغاص بالعلماء والأعيان، قدم علماء الدولة المرابطية ـ الذين كانوا يجهلون علم الأصول والجدل ـ عنهم قاضي المرية محمد بن أسود ليمثلهم في هذه المناظرة.

وأخذ ابن تومرت يسخر كل كلمه في المناظرة لتصور فساد الأوضاع في الدولة المرابطية، فأوضح أن الخمور تباع جهاراً نهاراً، وأن الخنازير تمشي في الشوارع وأن أموال اليتامى تؤكل، ويبين أن الذي يتحمل المسئولية هم حاشية أمير المسلمين لإخفائهم تلك الأوضاع عنه [٢] .

وبعد أن كشف عن سوء الأوضاع أراد أن يثبت عجز علماء مراكش عن مجاراته في العلم، فطرح عليهم بعض الأسئلة التي لم يستطيعوا الإجابة عليها. فلما رأى عجزهم عن الإجابة بدأ يوضح ما عجزوا عنه بأسلوب أخاذ، يسخر له

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، سلامة محمد (ص ١٠٤) .
(٢) انظر : ابن خلكان (٥ / ٤٦) .

كل ثقافته وفصاحته، وهكذا انتهت المناظرة لصالح ابن تومرت [١] .

لقد تنبه الفقيه مالك بن وهيب الأندلسي إلى أن ابن تومرت ليس طلب آخرة وإنما هو طالب دنيا ، وأشار على الأمير علي بن يوسف بقتله ليكتفي شره؛ لأنه إذا وقع في بلاد المصامدة ألبهم على المرابطين. ولكن وزيراً علي بن يوسف ينتان بن عمر، وسير بن وربيل، أقنعا أمير المسلمين علي بن يوسف بعدم الأخذ برأي مالك ابن وهيب.

وألح مالك بن وهيب على أمير المسلمين بتخليده في السجن إذا لم يقتله، وقال له: «اجعل عليه كبلاً كي لا تسمع له طبلاً» فوافقه على ذلك [٢] . وحال ينتان مرة ثانية دون الأخذ برأي مالك بن وهيب والذي خاطب أمير المسلمين قائلاً: «يا أمير المسلمين ، هذا وهن في حق الملك أن تلتفت لهذا الرجل الضعيف ، فخل سبيله إنه رجل لا يملك سد جوعه». لقد أصابت كلمات الوزير ينتان عزة نفس أمير المسلمين فاستصغر شأنه ، وأمر بإطلاق سراحه على شرط أن يخرج من بلاد أمير المسلمين [٣] .

وتوجه ابن تومرت إلى مقبرة ابن حيدروس، بالقرب من مراكش وبنى فيها خيمته وكان ذلك الاختيار يدل على ذكاء خارق، فهو إيماءة لأمير المسلمين بأنه رجل يريد الآخرة فيقطع بذلك دابر كل وشاية عليه من المناوئين له. كما أن اختيار هذا المكان سيدفع الكثير من الفضوليين إلى القدوم إليه للاستفسار عن أحوال هذا العابد الذي نبذ الحياة وزخرفها وارتضى الحياة بين الأموات فيبث أفكاره بينهم فمن اقتنع ضمه إليه.

والمقبرة من ناحية أخرى مكان مناسب وهادىء ، وبعيد عن الأعين، فيتحدث

---

(١) انظر : دولة المرابطين ، سلامة محمد(ص ١٠٥) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان(٥/ ٤٩ ، ٥٠) .

(٣) انظر : دولة المرابطين (ص ١٠٦) .

هناك بما يشاء إلى تلاميذه، وفعلاً توافد عليه الطلاب حتى كثر جمعه.

إن ابن تومرت لكي يضمن لدعوته النجاح والانتشار سلك الخطوات التالية:

﴿ ١ ﴾ إظهـار الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكر، وتقـمـصـه لأسـاليب وشخصيات المصلحين ، فقد انتحل ابن تومرت صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ بهذا النهج منذ وقت مبكر وذلك حينما كان بمكة بعد عودته من العراق حيث استغل تجمع المسلمين فيها، فأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى ناله شيء من الأذى بسبب ذلك [١] .

ويبدو أن ابن تومرت كان يهدف من وراء إظهاره للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى تحقيق غرضين:

الأول منهما : هو لفت أنظار الناس إليه من البلاد التي مر بها حتى يعد من المصلحين.

أما الثانـي : فهو تكوين بعض الخلايا السرية في تلك البلاد من الأفراد الذين يعجبون بمنهجه، ذلك ليكونوا دعاة إلى أفكار ه ومبادئه، وقد نجح في ذلك حيث يذكر البيذق أنه كان لابن تومرت بمصر واحد وخمسون رجلاً من أهلها «وكانوا له مثل أعضائه وجسده ، سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به . ولما اطمئن بذلك اختار لهم الإقامة هناك . . .» [٢] .

إن ابن تومرت لما وصل إلى بلاد المغرب انتقل من الجانب التنظيري في دعوته، إلى الجانب العلمي حيث جد في تكوين قاعدة لدعوته، وكانت وسيلته المعلنة في ذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة حلقات للتدريس ينشر من خلالها أفكاره ليستقطب ذلك من يتقبلها من تلاميذه.

---

(١) **انظر** : وفيات الأعيان (٥/ ٤٩ ، ٥٠).

(٢) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٤٩).

ويبدو أن جرأة ابن تومرت في الكلام، وتظاهره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى جانب كونه يتوجه في دعوته إلى التجمعات الشعبية العامة كانت من العوامل القوية لنجاح دعوته في هذه المرحلة [١] حيث يذكر تلميذه البيذق، أنه ما أن حل ببلاد المغرب الأدنى حتى اجتمع حوله المؤيدون والأنصار، فاختار بعضهم ممن يتوسم فيهم القبول المطلق لدعوته ومخايل الذكاء والنجابه، وتوجه بهم إلى بلاد المغرب الأقصى.

كانت هذه الخطوة الأولى التى نهجها ابن تومرت لنشر دعوته، من خلال تتبعنالهذه الخطوة ندرك أن ابن تومرت قد نهج عدداً من السبل حتى يظهر دعوته للناس ويجمع حوله المؤيدين والأنصار، **ومن هذه السبل ما يلى:**

[أ] أنه تدرج في إظهار دعوته، كما ألبسها الصبغة الإصلاحية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

[ب] أنه خاطب بها الجهال والسذج من الناس، الذين لا يدركون حقيقة ما فيها من انحراف عن منهج أهل السُنَّة والجماعة، حيث توجه بها إلى قوم صيام عن جميع العلوم كما يقول المراكشى [٢].

[جـ] أنه كان يبالغ في إنكار المنكر على الحكام الذين يمر بديارهم كما فعل مع العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد صاحب بجاية [٣]، ومع علي بن يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين وذلك لكي يكسب بهذه الجرأة مكانة عند الناس.

[د] مما يلحظ على ابن تومرت أثناء هذه المرحلة من دعوته أنه بالرغم من تظاهره بالتقى والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلا أنه كان لا

---

(١) **انظر**: الدعوة الموحدية بالمغرب، عبد الله علام (ص ٨٥).
(٢) المعجب (ص ٢٧٠).
(٣) ابن خلدون (٦/ ٢٢٧).

يتورع عن الكذب حتى أثناء قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث يذكر البيذق أنه كان إذا خشي بطشاً وهو يأمر بالمعروف خلط في كلامه حتى ينسب إلى الجنون [١] وهذا النهج منهج كثير من الفرق الباطنية حيث يلجئون إلى الكذب وإلى العبارات الموهمة حتى لا تنكشف حقائقهم [٢].

يقول ابن العماد: « جره إقدامه وجرأته على حب الرياسة والظهور وارتكاب المحظور ودعوى الكذب والزور من أنه حسني وهو هرغي بربري وأنه معصوم وهو بالإجماع مخصوم... » [٣].

﴿ ٢ ﴾ وكانت الخطوة الثانية التي نهجها ابن تومرت في بداية دعوته، أنه جد في تكوين قاعدة مؤمنة بالمبادىء التي يدعو إليها حيث أعد أفرادها إعداداً خاصاً،وذلك لكي يكونوا قاعدة شعبية لدعوته ثم لدولته، وقد بدأ بهذا النهج منذ مستهل دعوته حيث تمكن من تكوين خلية في بلاد مصر قوامها واحد وخمسون رجلاً [٤]، ولما انتقل إلى المغرب زاد من جهوده في هذا الميدان حيث أنشأ حلقات للتدريس كان يبث أفكاره من خلالها ولكي يؤصل تلك الأفكار في أذهان أتباعه، ألَّف لهم كتاباً في العقيدة يتضمن الخطوط العريضة لأصول دعوته، حيث طالبهم بحفظه [٥].

وإلى جانب اهتمامه بتكوين القاعدة الشعبية، فإنه كان يحتمي بشوكة بعض القبائل البربرية حتى يضمن لنفسه الأمان، ولدعوته الانتشار في ظل حماية تلك القبائل، فهو حينما وصل إلى بجاية بعد عودته من مصر خشي من بطش

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت (ص ٢٢).

(٢) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس (ص ٥٥٠).

(٣) شذرات الذهب (٤ / ٧٠).

(٤) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد الخامس (ص ٥٤٩).

(٥) ابن القطان، نظم الجمان (ص ٤٦).

الحماديين فلجأ إلى قبيلة بنورياكل - إحدى قبائل صنهاجة - فآووه وأجاروه ومنعوا الحماديين من النيل منه [١] ، ولما انتقل إلى بلاد المغرب الأقصى وخاف من سطوة المرابطين ذهب إلى بلاد هرغة حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة فاحتمى بشوكتيهما من المرابطين،كما توفر له عندهم الجو المناسب لمواصلة الدعوة.

هكذا تمكن ابن تومرت من تكوين قاعدة شعبية قوية لدعوته ، وقد كانت هذه القاعدة في غاية التلاحم والتفاهم مع القيادة ، مما أدى إلى إعجاب الناس بها ومن ثم تقبلهم لمبادئها [٢] .

• ﴿ ٣ ﴾ ومن الخطوات التي سلكها ابن تومرت تحديد موقفه من دولة المرابطين والتي كانت تبسط سلطانها السياسي على بلاد المغرب، وقد جاء عمله بهذه الخطوة إذا ما قورن بالخطوتين السابقتين، وذلك لأن ابن تومرت لم يرد أن يحدد موقفه من دولة المرابطين، إلا بعد أن يشيع بين الناس ذكره، ويكون قاعدة شعبية يتكيء عليها في ساعات الخطر، فلما اطمأن إلى وجود هذه القاعدة، وإلى أنه لم يصبح نكرة عند كثير من الناس، أعلن رأيه في دولة المرابطين، متخذاً الأمر بالمعروف ستاراً لتحقيق غايته وطريقاً لإظهار مفاسد دولة المرابطين فبدأ بالطعن في عقيدة المرابطين ووصفهم بالتجسيم والكفر والنفاق كما قال لأتباعه بأن غزوهم ومقاومتهم أوجب من حرب النصارى والمجوس [٣] .

وعندما أدرك ابن تومرت المخاطر التي تهدده من قبل المرابطين، لا سيما أن دعوته قد وصلت إلى مرحلة الظهور والجهر بالأهداف، فقرر الانتقال بلاد السوس مسقط رأسه حيث نزل على قومه وقبيلته مصمودة سنة ٥١٥هـ وذلك لضمان

---

(١) ابن خلدون(٦ / ٢٢٧) .

(٢) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود العدد السادس(ص ٥٥١) .

(٣) البيذق ، أخبار المهدي ابن تومرت(ص ٩) .

الحماية اللازمة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين وفي بلاد السوس أسس ابن تومرت مسجداً يجتمع به مع تلاميذه وزعماء قبيلته، حيث التف حوله الكثير من المؤيدين والأنصار، فاختار منهم نخبة لتكون قاعدة لدعوته ضد خطر دولة المرابطين [١] .

وحيث شرع في تدريسهم على شكل حلقات ودروس منظمة، وكان يؤصل في نفوس أتباعه موقفه من دولة المرابطين من خلال تلك الحلقات والدروس وبهذا استطاع أن يوجد حاجزاً قوياً بين كثير من تلاميذه ودولةالمرابطين، وهذا بلا شك مما يساعد على تهيئة كثير من الموحدين للتصدي للمرابطين ، ومقاومتهم وهو ما كان يهدف إليه ابن تومرت.

ولما شعر ابن تومرت بقبول دعوته في أوساط الهرغيين أراد توسيع نفوذه على القبائل المجاورة، فانتدب مجموعة من تلاميذه لدعوتهم وأوصاهم باتباع أسلوب اللين والمداراة مع من سيدعونه، لأن أسلوب العنف الذي كان مجدياً في الحواضر الكبرى أمثال: فاس، ومراكش، والهدية، لا يجدي عند القبائل ذات الأنفة وعزة النفس، والتي لا تبالي بمقابلة العنف بالعنف، فهم بحاجة لمداراة ورفق لكسبهم وهذه الخطوة تدل على دهاء ومقدرة ابن تومرت الذي كان خبيراً بطبائع الجماعات التي يبث بينها دعوته، فكان يتخذ لكل فئة أسلوباً مناسباً لها، لعلمه أن الأمزجة والعادات تختلف باختلاف البيئات وهذا لا يفطن إليه إلا من أوتي حظاً وافراً من الفطنة والدهاء ونجح ابن تومرت في تشويق الكثير من أفراد القبائل للرحيل إلى ابن تومرت عن طريق وصفهم لأخلاقة وسجاياه فكان يتلقفهم ابن تومرت ويضمهم إلى صفوفه [٢] .

---

(١) **انظر** : ابن خلدون(٦/ ٢٢٨) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، للمؤلف سلامة محمد(ص ١٠٩) .

ورسخ دعاة ابن تومرت في أذهان القبائل بأن الفساد والظلم والجور، لا تُزال إلا بالمهدي لذا فالإيمان به واجب ، ومن يشك فيه فهو كافر، وأن هذا الوقت وقته وأنه سيفتح المشرق والمغرب، ويملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً [١] .

ولما اقتنع ابن تومرت بأن جهوده قد أثمرت، وأن نفوس أتباعه قد تشربت بفكرة المهدية، قرر أن يعلن بأنه هو المهدي المنتظر. فبعد أن جمع أصحابه قام فيهم خطيباً موضحاً لهم أن جميع صفات المهدي متوفرة فيه، فبادر إليه العشرة الملازمين له فبايعوه على الوقوف بجانبه في العسر واليسر، وتتابع بعد ذلك عليه البربر مبايعين على نصرته وبذل مهجتهم دونه ولما كملت بيعته لقبوه المهدي القائم بأمر الله،وكان قبل ذلك يلقب بالإمام [٢] وكان تاريخ هذه البيعه على الراجح في جبل إيجليز [٣] في عام (٥١٨هـ - ١١٢٤م) وهو العام الذي انتقل فيه إلى تينمل؛ لأنه لا يعقل أن يعلن مهديته الكاذبة فور وصوله إلى إيجليز بل الأمر كان يحتاج إلى وقت، وهذا ما حدث فعلاً إذ استمر يروج هو ودعاته لهذه الفكرة فلما تقبلها القوم أعلن مهديته الزائفة.

لقد كان على مقدرة عظيمة من القدرة على التخطيط وكانت خطواته محكمة نحو تأسيس قواعد دولة الموحدين وساعده نجاحه ما كان يتسم به كثير من أفراد القبائل البربرية من سذاجة وجهالة، فضلاًعما كان يتمتع به ابن تومرت من ذكاء، وعلم وقدرة فائقة على التنظيم والتأثير [٤] .

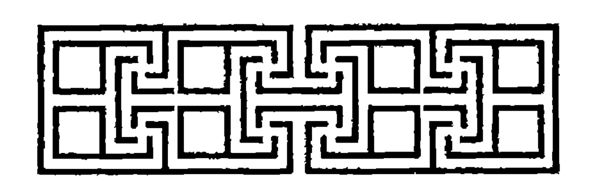
لقد ركب الحرام، فسفك الدماء، وهتك الأعراض، وغصب الأموال من أجل أهدافه المنحرفة وكان من شعره الذي يردده على أصحابه قبل خروجه بالمغرب:

---

(١) **انظر** : الكامل لابن الأثير (٦/ ٥٦٢) .
(٢) ابن خلدون (٦/ ٢٢٨) .
(٣) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١١١) .
(٤) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٥٤) .

دَعْني ففي النفس أشياء مخبأة لألبسن لها درعًا وجلبابًا
كيما أطهر دين الله من دنس وأوجب الفضل للسادات إيجابا [١]
تالله لو ظفرت كفي بمطلبها ما كنت عن ضرب أعناق الورى آبى [٢]

إن ابن تومرت بعد مبايعته بالمهدية نظم جبهته الداخلية بعناية فائقة ، فقسم أتباعه إلى طبقات حسب أسبقيتهم إلى بيعته، وسمي الأتباع بشكل عام بالموحدين تعريضاً بالمرابطين والذين اتهمهم بالتجسيم وهم براء منه ، وبعد أن فرغ من تثبيت ركائزه اللازمة لدولته المستقبلية رأى أنه من غير المناسب بقاؤه في جبل إيجليز لقربه من العاصمة المرابطية فانتقل إلى تينمل [٣] في قلب جبال الأطلس الكبير عام (٥١٨هـ - ١١٢٤م) ، واتخذه قاعدة لدولته الناشئة، ولقد بقي فيها حتى وفاته عام (٥٢٤ هـ - ١١٢٩م) [٤] .



(١) **انظر** : الذهبي ، سير أعلام النبلاء(١٩ / ٥٥٢) .
(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، للمؤلف سلامة محمد(ص١١١) .
(٣) نفس المصدر السابق(ص ١١٢) .
(٤) نفس المصدر السابق(ص ١١٢) .

المبحث الرابع
الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت

أن الأسس الفكرية والعقدية لحركة ابن تومرت بعيدة عن الإسلام الصحيح ولا تتفق مع منهج أهل السُنَّة والجماعة الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه .

ومن أظهر الانحرافات الفكرية في دعوة ابن تومرت :

أولاً : أنه ادعى المهدية وقال بأنه هو المهدي الذي وعد الرسول ﷺ بخروجه في آخر الزمان، حيث قال في خطبته حين مبايعته إماماً للموحدين سنة٥١٥هـ : (الحمد لله الفاعل لما يريد القاضي بما يشاء لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلاً كما ملئت جوراً يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور مكانه بالمغرب الأقصى واسمه اسم النبي ونسبه نسب النبي » [١] .

ولم يكتف ابن تومرت بهذا الإجراء بل إنه أكد لهم هذا الاتجاه الفكري في مؤلفاته التي طالب أتباعه بحفظها، والعمل بما جاء بها، ومما جاء بها عن قضية المهدي قوله : (إن العدل ارتفع، وإن الجور عم وإن الرؤساء الجهال استولوا على الدنيا، وإن الملوك الصم البكم استولوا على الدنيا، وإن الدجالين استولوا على الدنيا، وإن الباطل لا يرفعه إلا المهدي، وإن الحق لا يقومْ إلا بالمهدي، وإن المهدي معلوم في العرب، والعجم، والبدو والحضر، وإن العلم به ثابت في كل مكان وفي كل أوان . . .) [٢] .

وبعد أن قرر ابن تومرت مبدأ ظهور المهدي، عدد صفاته بقوله : (إنه فرد

---

(١) نظم الجمان لابن القطان(ص ٧٥) .

(٢) انظر : أعز ما يطلب لابن تومرت(ص ٢٥٧) .

زمانه صادق في قوله، وإنه يملأها بالعدل ـ يعني الأرض ـ ثم ذكر بعد ذلك المهام التي سيقوم بها المهدي حيث بيَّنها بقوله: «وإنه يعني المهدي ـ معصوم فيما دعا إليه من الحق لا يجوز عليها الخطأ وإنه لا يكابر، ولا يضاد، ولا يدافع ولا يعاند، ولا يخالف ولا ينازع... وأنه صادق في قوله، وأنه يقطع الجبابرة والدجاجلة، وإنه يفتح الدنيا شرقها وغربها، وأنه يملؤها بالعدل كما ملئت بالجور...» (١).

هكذا كان رأى ابن تومرت في المهدي، كما يصور ذلك تراثه الفكري، ويلاحظ هنا كيف تجرأ ابن تومرت فكذب على الله ورسوله حينما حدد مكان ظهور المهدي بالمغرب الأقصى مع أن الأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي لم تشر إلى ذلك.

إن الأحاديث الصحيحة بينت أنه يخرج في آخر الزمان رجل من أهل البيت يؤيد الله به الدين، يملك سبع سنين يملأ الأرض عدلاً وسلاماً كما ملئت جوراً وظلماً، تنعم الأمة في عهده نعمة لم تنعمها قط، وتخرج الأرض نباتها، وتمطر السماء مطرها، ويعطى المال بغير عدد.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «في زمانه تكون الثمار كثيرة، والزروع غزيرة والمال وافر والسلطان قاهر، والدين قائم، والعدو راغم والخير أيامه دائم» (٢).

لقد بينت الأحاديث الصحيحة اسمه وصفته ومكان خروجه:

[أ] اسمه وصفته:

وهذا الرجل اسمه كاسم رسول الله ﷺ، واسم أبيه، كاسم أبي النبي ﷺ فيكون اسمه محمد – أو أحمد – بن عبد الله، وهو من ذرية فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم من ولد الحسن بن علي.

---

(١) ابن تومرت أعز ما يطلب (ص ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) النهاية، الفتن والملاحم (١/٣١)، تحقيق د. طه زيني.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في المهدي:

« وهو محمد بن عبد الله العلوي الفاطمي الحسني ﷺ » (١) .

وصفته الواردة: « أنه أجلى الجبهة ، أقنى الأنف » (٢) .

[ب] مكان خروجه :

يكون ظهور المهدي من قبل المشرق، فقد جاء في الحديث عن ثوبان ، قال رسول الله ﷺ : « **يقتتل عند كنزكم ثلاثة. كلهم ابن خليفة، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق، فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم** .. (ثم ذكر شيئاً لا أحفظه) فقال... **فإذا رأيتموه، فبايعوا، ولو حبواً على الثلج، فإنه خليفة الله المهدي...** » (٣) .

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

(والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة، يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء، حتى يكون آخر الزمان، فيخرج المهدي، ويكون ظهوره من بلاد المشرق « لا من سرداب سامراء » كما يزعم جهلة الرافضة من أنه موجود فيه إلى الآن، وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان،فإن هذا نوع من الهذيان، وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذلا دليل على ذلك، ولا برهان لا من كتاب، ولا من سُنة، ولا معقول صحيح ولا استحسان . .إلى أن قال:« ويؤيد بناس من أهل المشرق ينصرونه، ويقيمون سلطانه، ويشيدون أركانه، وتكون راياتهم سوداً « أيضاً » وهو زي عليه الوقار » لأن راية رسول الله ﷺ كانت سوداء يقال لها: « العقاب » إلى أن قال:(والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق، ويبايع له عند

---

(١) النهاية ، الفتن والملاحم(١ / ٢٩) .

(٢) **الأجلى** : الخفيف شعر ما بين النزعتين من الصدغين ، والذي انحسر الشعر عن جبهته .

(٣) أخرجه ابن ماجة، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي(٢ / ١٣٦٧) .

البيت، كما دلت على ذلك بعض الأحاديث...) [١] .

[١] وذكر الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وأمامكم منكم ؟!**» [٢] .

[٢] وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**» **إلى أن قال**: «**فينزل عيسى ابن مريم ، فيقول أميرهم : تعال صل بنا . فيقول: لا ، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة**» [٣] .

والأحاديث التي وردت في الصحيحين تدل على أمرين :

أحدهما: أنه عند نزول عيسى ابن مريم ﷺ من السماء يكون المتولي لإمرة المسلمين رجل منهم.

والثاني: أن حضور أميرهم للصلاة، وصلاته بالمسلمين، وطلبه من عيسى عليه السلام عند نزوله أن يتقدم ليصلي لهم يدل على صلاح هذا الأمير وهداه.

وجاءت الأحاديث في المسانيد وغيرها مفسرة لهذه الأحاديث التي في الصحيحين، ودالة على أن ذلك الرجل الصالح يسمى: محمد بن عبد الله ، ويقال له المهدي ، والسنه يفسر بعضها بعضاً .

[١] فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**منا الذي يصلي عيسى ابن مريم خلفه**» [٤] .

[٢] وعن جابر ﷺ قال:قال رسول ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم ، فيقول**

---

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١ / ٣١) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب نزول عيسى عليه السلام (٦ / ٤٩١) ، مع الفتح ، حديث رقم (٣٤٤٩) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى عليه السلام (٢ / ١٩٣) .

(٤) رواه أبو نعيم في « أخبار المهدى » ، صححه الألباني – رحمه الله – صحيح الجامع الصغير (٥ / ٧١٧٠)

أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضهم أمير بعض، تكرمة الله لهذه الأمة» (١).

[٣] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المهدي مني أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين..**» (٢).

ولقد تكلم العلماء في أحاديث المهدي:

[١] **قال الشوكاني:** « الأحاديث في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثاً، فيها الصحيح والحسن والضعيف والمنجبر، وهي متواترة في جميع الاصلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي، فهي كثيرة أيضاً لها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك..» (٣).

[٢] **وقال صديق حسن خان:** « الأحاديث الواردة في المهدي على اختلاف رواياتها كثيرة جداً، تبلغ حد التوتر المعنوي، وهي في السنن وغيرها من دواوين الإسلام ومن المعاجم والمسانيد » (٤).

[٣] **وقال الشيخ محمد جعفر الكتاني:** «والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام » (٥).

وأما العلماء الذين صنفوا كتباً في المهدي، بالإضافة إلى كتب الحديث

---

(١) المنار المنيف لابن القيم(١٤٧-١٤٨).

(٢) سنن أبي داود، كتاب المهدي(١١ / ٣٧٥)، رقم(٤٢٦٥).

(٣) التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجال والمسيح.

(٤) الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة(ص ١١٢).

(٥) نظم المتناثر في الحديث المتواتر(ص ١٤٧).

المشهورة، كالسُنن الأربعة، والمسانيد، مسند أحمد، مسند البزار، ومسند أبي يعلى، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومستدرك الحاكم، ومصنف بن أبي شيبة، وصحيح ابن خزيمة، وغيرها من المصنفات (١) التي ذكرت فيها أحاديث المهدي فإن طائفة من العلماء أفردوا في المهدي المنتظر مؤلفات ذكروا فيها جمعاً كبيراً من الأحاديث الواردة فيه. مما يؤسف له أن طائفة من الكتاب من أمثال الشيخ الكريم محمد رشيد رضا في تفسير المنار وصف أحاديث المهدي بالتناقض والبطلان وأن المهدي ليس ألا أسطورة اخترعتها الشيعة، ثم دخلت كتب أهل السُنَّة (٢) وممن أنكر أحاديث المهدي صاحب «دائرة معارف القرن العشرين» (٣) محمد فريد وجدي وسار على نفس الخط أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام.

ويبدو أن هؤلاء الكتاب تأثروا بما ذكره المؤرخ ابن خلدون من تضعيفه لأحاديث المهدي، مع العلم أن ابن خلدون ليس من فرسان هذا الميدان حتى يقبل قوله في التضعيف والتصحيح، ومع هذا فقد قال بعد أن استعرض كثيراً من أحاديث المهدي وطعن في كثير من أسانيدها: «فهذه جملة الأحاديث التي خرجها الأئمة في شأن المهدي، وخروجه آخر الزمان، وهي - كما رأيت - لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه (٤).

قال يوسف الوابل في أشراط الساعة تعليقاً على قول ابن خلدون:

«ونقول: لو صح حديث واحد، اكفى به حجة في شأن المهدي، كيف والأحاديث فيه صحيحة متواترة» (٥).

---

(١) انظر: عقيدة أهل السُنَّة والأثر في المهدي المنتظر (ص ١٦٦ - ١٦٨).

(٢) تفسير المنار (٩/ ٤٩٩ - ٥٠٤).

(٣) دائرة المعارف القرن العشرين (١٠/ ٤٨٠).

(٤) مقدمة ابن خلدون (١/ ٥٧٤).

(٥) أشراط الساعة للوابل (ص ٢٦٧).

قال الشيخ أحمد شاكر رداً على ابن خلدون: « إن ابن خلدون لم يحسن قول المحدثين » الجرح مقدم على التعديل ولو اطلع على أقوالهم وفقههم ، ما قال شيئاً مما قال، وقد يكون قرأ وعرف ولكنه أراد تضعيف أحاديث المهدي بما غلب عليه من الرأي السياسي في عصره » [١] ثم بين أن ما كتبه ابن خلدون في هذا الفصل عن المهدي مليء بالأغاليط في أسماء الرجال ونقل العدل، واعتذر عنه بأن ذلك قد يكون من الناسخين، وإهمال المصححين وما ذهب إليه محمد رشيد رضا وابن خلدون ومحمد فريد رحمهم الله ليس صواباً وإنما الحجة في كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ والروايات المذكورة في خروج المهدي صحيحة متواتراً تواتراً معنوياً وهذا يكفي، وأما كون الأحاديث قد دخلها كثير من الإسرائيليات، وأن بعضها من وضع الشيعة وغيرهم من أهل العصبيات، فهذا صحيح ولكن أئمة الحديث قد بينوا الصحيح من غيره، وصنفوا الكتب في الموضوعات وبيان الروايات الضعيفة، ووضعوا قواعد دقيقة في الحكم على الرجال، حتى لم يبق صاحب بدعة أو كذب إلا وأظهروا أمره، فحفظ الله السُنَّة من عبث العابثين وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وهذا من حفظ الله لهذا الدين.

وإذا كانت هناك روايات موضوعة في المهدي تعصباً فإن ذلك لا يجعلنا نترك ما صح من الروايات فيه، والروايات الصحيحة جاء فيها ذكر صفته واسمه واسم أبيه فإذا عين إنسان شخصاً، وزعم أنه هو المهدي، دون أن يساعده على ذلك ما جاء من الأحاديث الصحيحة فإن ذلك لا يؤدي إلى إنكار المهدي على ما في الحديث ، ثم إن المهدي الحقيقي لا يحتاج إلى أن يدعو له أحد ، بل يظهره الله إلى الناس إذا شاء ، ويعرفونه بعلامات تدل عليه.

وأما دعوى التعارض، فقد نشأت عن الروايات التي لا تصح ، وأما الأحاديث

---

(١) تعليق : أحمد شاكر على مسند الإمام أحمد (٥ /١٩٧ ، ١٩٨) .

الصحيحة، فلا تعارض فيها والحمد لله .

وأيضاً، فإن خلاف الشيعة مع أهل السُنَّة لا يعتد به ، والحكم العدل هو الكتاب والسُنة الصحيحة، وأما خرافات الشيعة وأباطيلهم، فلا يجوز أن تكون عمدة يرد بها ما ثبت من حديث الرسول ﷺ [١] .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في كلامه عن المهدي :

« وأما الرافضة الإمامية، فلهم قول رابع، وهو أن المهدي هو محمد بن الحسن العسكري المنتظر، من ولد الحسين بن علي لا من ولد الحسن الحاضر في الأمصار الغائب عن الأبصار، الذي يورث العصا،ويختم الفضا، دخل سرداب سامراء طفلاً صغيراً من أكثر من خمسمائة سنة، فلم تره بعد ذلك عين، ولم يحس فيه بخبر ولا أثر، وهم ينتظرونه كل يوم ويقفون بالخيل على باب السرداب ويصيحون به أن يخرج إليهم: اخرج يا مولانا ! اخرج يامولانا ! ثم يرجعون بالخيبة والحرمان، فهذا دأبهم ودأبه، ولقد أحسن من قال:

ما آن للسرداب أن تلد الذي ... كلمتموه بجهلكم ما آنا ؟

فعلى عقولكم العفاءُ فإنكم ... ثلثتم العنقاء والغيلانا

ولقد أصبح هؤلاء عاراً على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل) [٢] .

وبذلك يتضح لطالب الحق حقيقة المهدي المنتظر ويعرف الميزان الصحيح لكل من يدعى المهدية ، إن ابن تومرت في دعواه بأنه المهدي المنتظر انحرف عن المنهج الإسلامي الصحيح.

لقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة الزم بها أتباعه، وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادعاه لنفسه أمر العصمة حيث قال عن نفسه: بأنه المهدي المعصوم، ثم أشاع ذلك بين أتباعه حتى أصبحوا يطلقون عليه لفظ المعصوم ، دون حرج أو

---

(١) انظر : أشراط الساعة (ص ٢٦٧) .

(٢) انظر : المنار المنيف (ص ١٥٢ ، ١٥٣) .

تردد، وقد أكد هذا الأمر في مؤلفاته التي انتشرت بينهم إذا جاء فيها: «ويجب أن يكون الإمام معصوماً من الباطل ليهدم الباطل، كما يجب أن يكون معصوماً من الضلال.. ولا بد أن يكون الأمام معصوماً من هذه النتن وأن يكون معصوماً من الجور؛ لأن الجائر لا يهدم الجور بل يثبته... وأن يكون معصوماً من الكذب؛ لأن الكذب لا يهدم الكذب بل يثبته، وأن يكون معصوماً من الباطل.. ولا يصح الاتفاق إلا باستناد الأمور إلى أولى الأمر وهو الإمام المعصوم من الباطل والظلم» (١).

كما قال بعصمة الإمام من الزلل والفساد حيث قال:

«لا يقوم بحقوق الله إلا العدل الرضا المعصوم من الفساد» (٢)وهكذا نرى كيف أن القول بالعصمة للأئمة أصبحت اتجاهاً قويا من اتجاهات دعوة ابن تومرت الفكرية، وقد تمكن من تأصل هذا الأمر عند أتباعه حتى أطلقوا عليه لقب المعصوم، وأصبح هذا اللقب من أشهر ألقاب ابن تومرت لدرجة أنهم كانوا يطلقونه عليه دون ذكر لاسمه بسبب اشتهاره به (٣).

وقد حاول ابن تومرت أن يتدرج في إظهار هذا في بادىء أمره، فبدأ أولاً بالتلميح لهم، ثم صرح بدعوى العصمة لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروي في ذلك أحاديث كثيرة ولم يتورع عن الكذب في دعواه أنّها تتمثل فيه، لقد سلك مع أتباعه مسلك التدرج فأقنعهم بنسبه العربي الهاشمي، ثم بالمهدية ثم بالعصمة.

والعصمة عند أهل السُنَّة والجماعة لم تثبت إلا للأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما يبلغون عن الله من شرع ولم يقولوا بها لسواهم حتى لكبار

---

(١) **انظر**: أعز ما يطلب (ص ٢٤٥ - ٢٤٦).

(٢) أعز ما يطلب (ص ٢٤٦).

(٣) **انظر**: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس.

الصحابة الذين خصهم الله بالفضل كأبي بكر، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم رضي الله عنهم [(١)] .

إن ابن تومرت بهذا النهج يكون وافق الرافضة الاثنى عشرية الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان [(٢)] كما قالوا : إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً، كما يجب أن يكون معصوماًمن السهو والخطأ والنسيان » [(٣)] وهكذا نرى كيف غالى ابن تومرت في القول بالعصمة لنفسه، وهذا بلا شك انحراف عقدي خطير « لأن من جعل بعد الرسول معصومًا يجب الإيمان بكل ما يقوله ، فقد أعطاه معنى النبوة وإن لم يعطه لفظها » [(٤)] .

ولكي يؤصل هذا الادعاء الكاذب عند أتباعه ، ألف لهم كتاب « أعز ما يطلب » [(٥)] وأمرهم بقراءته بل حفظه، هذا بلا شك مما أصل فكر ابن تومرت ومحبته في نفوس أصحابه.

ولقد أخطأ الدكتور عبد المجيد النجار عندما قال (وما قال به ـ أي محمد بن تومرت ـ من عصمة الإمام يخالف أيضاً العصمة عند الشيعة، بل هو أقرب إلى أن يكون صيغة مبالغاً فيها للشروط التي يشترطها أهل السُنَّة في الإمام» [(٦)] ولقد ذكرت شروط أهل السُنَّة في الإمامة في الكتاب الثاني من « صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي».

إن عقيدة العصمة والمهدية التي غرسها ابن تومرت في أصحابه سهلت له

---

(١) **انظر** : النبوة والأنبياء ، للصابوني(ص ٥٥ ، ٥٦) .

(٢) **انظر** : الملل والنحل ، للشهرستاني(١ / ١٩٥) .

(٣) **انظر** : عقائد الإمامية ، محمد رضا ظافر(ص ٧٢) .

(٤) ،(٥) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود(ص ٥٦٠) .

(٦) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت(ص ١٢٧) .

القضاء على خصومه ودفع قبائل المصامدة ومن حالفها إلى مقاتلة المرابطين.

ثانياً : لقد تأثر ابن تومرت بمذهب المعتزلة حيث قال ببعض آرائهم ، وحيث سمى مرتكب الكبيرة بالفاسق ، ولم يسمه بالمؤمن أو الكافر ، وهذا قريب من مذهب المعتزلة (١) .

كما وافقهم في الصفات عن الله ـ سبحانه ـ حيث قال حينما تحدث عن صفات الله : « واشتغلوا بتعليم التوحيد فإنه أسس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه،والشريك، والنقائص، والآفاق، والحدود والجهات، ولا تجعلوه سبحانه في مكان ولا في جهة فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات فمن جعله في جهة ومكان فقد جسمه ومن جسمه فقد جعله مخلوقاً ومن جعله مخلوقاً فهو كعابد وثن» (٢) لقد تبنى ابن تومرت مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات حيث نفى كل ما عساه أن يوهم الشبه والمثلية لله سبحانه حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله في الكتاب والسُنة ، ولهذا سمى أصحابه بالموحدين (٣)؛ لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله لنفيهم الصفات عن الله سبحانه وتعالى كما كان يسمي أتباعه بالمؤمنين ، ويقول لهم: ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم » (٤) .

كما نهج ابن تومرت نهج الأشاعرة في تأويل بعض صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ حيث يذكر ابن خلدون أن ابن تومرت هو الذي حمل أهل المغرب على القول بالتأويل والأخذ بالمذهب الأشعري في كافة العقائد، كما ذكر المراكشي أن ابن تومرت ضمن تصانيفه مذهب الأشاعرة في كثير من المسائل، حيث كان

---

(١) **انظر** : سير أعلام النبلاء للذهبي (١٩/٥٤٨) .

(٢) **انظر** : أعز ما يطلب ، (ص ٢٠٤) .

(٣) **انظر** : عقد بيعة بولاية العهد في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد (١٢) (سنة ١٩٥٠م) ، (ص٤٩) ، حسين مؤنس .

(٤) **انظر** : المراكشي المعجب ، (ص٢٧٦) .

« . . . جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريقة الأشعرية . . .) [١] أما المقريزي فيرى أن ابن تومرت تعلم المذهب الأشعري أثناء وجوده في بلاد العراق، فلما عاد إلى بلاد المغرب، وأخذ بتعليم أصحابه علمهم المذهب الأشعري، فكان ذلك سبباً في انتشار هذا المذهب في بلاد المغرب [٢] .

إن ابن تومرت من كبار الدعاة إلى مذهب الأشعري؛ بل أخذ أكثر المسائل إلا أنه في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها [٣] .

لقد وظف ابن تومرت المدارس الكلامية في العقائد لخدمة أهدافه السياسية ولذلك نجده يهاجم المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السُّنَّة والجماعة واتهمهم بالتجسيم والكفر؛ لأنهم في زعمه يضيفون صفات بشرية ومادية على ذات الله .

واستطاع ابن تومرت عن طريق هذا المنفذ، أن يظهر المرابطين كمجسمة كفار في أعين رعيتهم، مما دفع الكثيرين من هذه الرعية؛ لأن تنفض يدها منهم وتبتعد عنهم، كما أنه اتهم من يخضع لهم ويدين بالطاعة لهم بموافقتهم على الكفر، ومن ثم يحل للموحدين قتاله ومعاملته معاملة الكفار وأن هذا المبدأ جعل الموحدين يؤمنون بأنهم يعملون على نشر مبدأ حق ، ويكافحون الكفر وطواغيته، وأن معتقدهم يبيح لهم دماء أعدائهم وأموالهم، وأن الموت في سبيل ذلك شهادة ترفع شهيدهم إلى جنان الله الخالدة ، فاجتمعت للموحدين قوتان، هما الروح المعنوية العالية والدافع المادي. فانطلقوا كالإعصار يحطمون أعداءهم وينشرون مبادئهم [٤] .

إن الدكتور عبد المجيد النجار في كتابه تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن

---

(١) المراكشي المعجب (ص ٢٧٦) .

(٢) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٦٤) .

(٣) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٣٩) .

(٤) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٣٩ ، ٤٠) .

تومرت والذي نشره المعهد العالي للفكر الإسلامي والذي قدم له الدكتور طه العلواني يثني على المنهج العقدي لابن تومرت ويلمز من طرف خفي منهج المرابطين الذين ساروا على منهج أهل السُّنَّة والجماعة حيث يقول: (وفي المجال العقدي حققت دعوة المهدي الهدف المرسوم، حيث أقلع أهل المغرب عن الفهم الذي كان يعتمد إمرار النصوص على ظواهرها، واعتنقوا فهماً جديداً يقوم على تأويل تلك النصوص بما يحقق التنزيه الكامل لله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ولذلك وجدت الأشعرية طريقها إلى السيطرة المطلقة على المغرب منذ قيام الدولة الموحدية بسبب موافقة التقرير العقدي لابن تومرت في أغلبه للمذهب الأشعري، وقد قامت رسائله المبسطة الموجزة في العقيدة ، وخاصة رسالة المرشدة بالدور الكبير في ذلك حيث أصبحت مقرراً للحفظ والدراسة في كثير من مناطق المغرب على مر الأيام » [١] .

لقد استعمل الموحدون القوة في فرض عقائدهم المختلطة على الشمال الإفريقي واقتدوا بالمعتزلة في زمن المأمون العباسي في فرضهم على الناس عقائدهم تحت شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لقد سئل ابن تيمية عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها ؟، وهل تجوز قراءتها أم لا ؟ .

فقال: الحمد لله رب العالمين. أصل هذه: أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت: الذي لقب بالمهدي، وكان قد ظهر في المغرب في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة ، وكان قد دخل إلى بلاد العراق ، وتعلم طرفاً من العلم. وكان فيه طرف من الزهد والعبادة.

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب، إلى قوم من البربر وغيرهم: جهالاً

---

(١) تجربة الإصلاح عند ابن تومرت ، (ص ١٣٨) .

لا يعرفون من دين الإسلام إلا اليسير فعلمهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام واخترع لهم أنواعاً من المخاريف، ليدعوهم بها إلى الدين، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم، ويشهدوا له بما طلبه منهم، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي، الذي بشر به رسول الله ﷺ الذي يواطيء اسمه اسمه، واسم أبيه وأنه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً، وأن من اتبعه أفلح، ومن خالفه خسر،ونحو ذلك من الكلام، فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره. ثم إن أولئك المغمورين يهدم عليهم القبور ليموتوا، ولا يظهروا أمره، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا، وأنه يجوز له اظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه. وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعاً وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه...[1] . واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية، الذين كانوا أهل الكتاب والسُنة على مذهب مالك وأهل المدينة. يقرءون القرآن والحديث: كالصحيحين، والموطأ وغير ذلك والفقه مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك القول بالتشبيه والتجسيم.

واستحل أيضاً أموالهم وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة ـ كالفلاسفة والمعتزلة وسائر نفاة الصفات ـ الذين فعلوا ذلك مع أهل السُنَّة والجماعة...

ومذهب السلف وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفة به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، فلا ينفون عن الله

---

(١) انظر: الفتاوى (١١/ ٤٧٧).

ما أثبته لنفسه، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه، بل يعلمون أن الله ليس كمثله شيء. لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات، فصفاته لا تشبه الصفات.

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل، ونفي مجمل، وأعداء الرسل: الجهمية والفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل وإثبات مجمل، فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بإنه: بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير وأنه حي قيوم، وأنه عزيز حكيم، وأنه غفور رحيم، وأنه سميع بصير، وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين، وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر، وأنه رضي عن المؤمنين ورضوا عنه ، وأنه يغضب على الكفار ويلعنهم ، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه، وأنه كلم موسى تكليماً، وأن القرآن نزل به الروح الأمين ، من الله على نبيه محمد ﷺ كما قال: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)** ﴾[الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] .

وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ .

[القيامة: ٢٢ - ٢٣].

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ أنه قال: « **إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد : ياأهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه: فيقولون: ماهو؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار، قال فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة** » ، وقد استفاض عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال: «**إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، لا تضامون في رؤيته**»و « أن الناس قالوا: يارسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: « **هل تضامون في رؤية الشمس صحوا ليس دونها**

حجاب » ؟ قالوا: لا. قال: « **فإنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر** » فشبه ﷺ الرؤية ولم يشبه المرئي فإن العباد لا يحيطون بالله علما، ولا تدركه أبصارهم. كما قال تعالى: ﴿ **لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ** ﴾.

[الأنعام:١٠٣] .

وقد قال غير واحد: من السلف والعلماء إن « الإدراك » هو الأحاطة فالعباد يرون الله تعالى عيانا ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله.

وقال تعالى في النفي: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الشورى:١١] ﴿ **فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا** ﴾ [البقرة:٢٢] وقال تعالى: ﴿ **هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا** ﴾ [مريم : ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ** (٤) ﴾ [الإخلاص : ٤] فيبين في هذه الآيات أن الله لا كُفواً له ، ولا ند له، ولا مثل له ولا سمي له، فمن قال: إن علم الله كعلمي، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي، أو إرادته ومحبته ورضاه وغضبه مثل إرادتي ومحبتي ورضائي، أو استواؤه على العرش كاستوائي، أو نزوله كنزولي ، أو إتيانه كإتياني، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه. تعالى الله عما يقولون ، وهو ضال خبيث مبطل بل كافر .

ومن قال : إن الله ليس له علم، ولا قدرة ولا كلام، ولا مشيئة، ولا سمع ولا بصر، ولا محبة ولا رضى، ولا غضب، ولا استواء ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خبيث مبطل بل كافر، بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالمخلوقات ، إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل ، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف به نفسه ولا رسوله تشبيهاً.

ومما يبين ذلك : أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماء ولبناً وخمراً وعسلاً

ولحماً وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة وغير ذلك. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا كانت المخلوقات في الجنة توافق المخلوقات في الدنيا في الأسماء، والحقائق ليست مثل الحقائق، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه في الاسم؟! .

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير، وأخبر عن الإنسان إنه سميع بصير، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه حي، وعن بعض عباده أنه حي، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه رءوف رحيم، وأخبر عن نبيه أنه رءوف رحيم، وليس هذا مثل هذا، وأخبر أنه عليم حليم ، وأخبر عن بعض عباده بأنه عليم حليم، وليس هذا مثل هذا، وسمى نفسه الملك، وسمى بعض عباده الملك، وليس هذا مثل هذا وهذا كثير في الكتاب والسُنة، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب مثل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم، على هذا: إثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل، نفاه الصفات، ولا بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوق، فهذه طريقة الرسل ومن آمن بهم وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة وأشباههم - فيصفون الرب تعالى «بالصفات السلبية» ليس كذا، ليس كذا، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات، بل بالسلب الذي يوصف به المعدوم فيبقى ما ذكروه مطابقاً للمعدوم، فلا يبقى فرق بين ما يثبتونه وبين المعدوم وهم يقولون: إنه موجود ليس بمعدوم، فيثبتونه من وجه ، ويجحدونه من وجه آخر، ويقولون: إنه وجود مطلق، لا يتميز بصفة.

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً، فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين، ولا يتميز عن غيره ، وأنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه، فيقدر أمراً مطلقاً، وإن كان لا حقيقة له في الخارج، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مباينا

لخلقه، بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات، أو يقولون : هو عين وجود المخلوقات، ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات، وخلقها فلم يدخل فيها، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وعلى ذلك دل الكتاب والسُنة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم ـ الذين امتحنوا المسلمين، كما تقدم ـ كانوا على هذا الضلال، فلما أظهر الله تعالى أهل السُّنَّة والجماعة، ونصرهم . بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية، وتارة مع الجهمية الاتحادية وتارة يوافقونهم على أنه وجود مطلق، ولا يزيدون على ذلك.

وصاحب المرشدة كانت هذه عقيدته كما صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن وجود الله تعالى وجود مطلق، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم.

ولهذا لم يذكر في «مرشدته» الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السُنَّة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية، وأهل الكلام! من الكلابية والأشعرية والكرامية وغيرهم، ومشائخ التصوف والزهد، وعلماء أهل الحديث فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم، قادر بقدرة ؛ كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقال تعالى: ﴿ **لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ** ﴾ [النساء : ١٦٦].

وقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً** ﴾.

[فصلت:١٥].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها،

كما يعلمهم السورة من القرآن يقول:

«إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة. ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه: واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى في الآخرة، وأن القرآن كلام الله .

فصاحب «المرشدة» لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السُنَّة والجماعة، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي ﷺ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي ﷺ من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي ﷺ في أهل الكبائر. فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السُنَّة والجماعة. ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة؛ بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق، وهو قول المتفلسفة والجهمية والشيعة ونحوهم، وهو قول قد اتفقت طوائف أهل السُنَّة والجماعة وأهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطاله.

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله، والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله فيجب التصديق به، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من

السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله عليهم. وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً؟.

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وباطلاً، فالحق يجب اتباعه والباطل يجب اجتنابه، وقد بسطنا الكلام [1] على ذلك في كتاب كبير وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين، فإن هذا مما أنكره المسلمون إذ جميع أمة محمد ﷺ موحدون ، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد و (التوحيد) هو ما بينه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ ، كقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)** ﴾ [الإخلاص] وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، وقوله: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)** ﴾[الكافرون] ، وقال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)** ﴾ .

[الأنبياء: ٢٥].

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سموا نفي الصفات توحيداً ، فمن قال: إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق. أو إن الله يرى في الآخرة أو قال: «**أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك**» لم يكن موحداً عندهم، بل يسمونه مشبها مجسماً، وصاحب «المرشدة» لقب أصحابه موحدين ، اتباعا لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزله الله به من سلطان ، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن.

---

(١) الذي بسط الكلام العلامة ابن تيمية .

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى: إنه قادر على ما يشاء وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلى الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون: إنه لا يقدر على غير ما فعل، ومذهب المسلمين أن الله على كل شيء قدير، سواء شاءه أو لم يشأه. كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا** ﴾[الأنعام:٦٥].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ قال: هاتان أهون.

قالوا: فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسُنة عامة. وقد قال تعالى: ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤)** ﴾ [القيامة:٣، ٤]، فالله قادر على ذلك، وهو لا يشاؤه، وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا** ﴾ [السجدة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً** ﴾ [هود: ١١٨]، فالله قادر على ذلك، فلو شاءه لفعله بقدرته، وهو لا يشاؤه وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة وبيَّنا ما فيها من صواب وخطأ، ولفظ مجمل في كتاب آخر.

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ويعرف ما جاء به الكتاب والسُنة لا يضره ذلك، فإنه يعطي كل ذي حق حقه، ولا حاجة لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسُّنَّة، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك، أو يوقع الناس في ذلك، وليس لأحد أن يضع الناس عقيدة ولا عبادة من عنده؛ بل عليه أن يتبع ولا يبتدع، ويقتدي ولا يبتدي، فإن الله سبحانه بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى

بالله شهيداً .

وقال له: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] ، والنبي ﷺ علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم.

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسُنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل فهو باطل، وليس في الكتاب والسُنة والإجماع باطل، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنى باطلاً ، فالآفةمنهم لا من الكتاب والسُنة، فإن الله تعالى قال : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل :٨٩] [١] وهذا رد علمي رصين على المرشده التي وضعها ابن تومرت لأصحابه يبين للقارىء فساد ابن تومرت في منهج العقائد وبعده عن القرآن والسُنَّة واعتماده لمناهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة وكان رد العلامة ابن تيمية مليئاً بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الدامغة ، كيف لا وهو ينهل من كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ وطريق السلف الصالح ، إن فحول علماء الكلام وأئمة هذه المناهج من أمثال أبي الحسن الأشعري (٣٣٠هـ)، وأبي حامد الغزالي (٥٠٥هـ)، والفخر الرازي (٦٠٦هـ)، وإمام الحرمين (٤٧٨هـ) رجعوا إلى مذهب أهل السُنَّة والجماعة في آخر حياتهم ، ونبذوا علم الكلام وراء ظهورهم .

[أ] أبو الحسن الأشعري :

وهذا العالم الجليل ترك منهج الاعتزال وشرع في الرد على باطله يقول في

---

(١) **انظر** : الفتاوى (١١ / ٤٧٦ إلى ٤٩١) .

كتابه الإبانة : (فإن قال قائل قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرِّفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون، قيل له قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسُنة نبينا ﷺ وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك، معصمون، بما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته نحن قائلون، ولما خالف قوله مجانبون » [١] .

[ب] إمام الحرمين الجويني :

(لقد خضت البحر الخضم ، وتركت أهل الإسلام وعلومهم وخضت في الذي نهوني عنه ، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لفلان ، وها أنا أموت على عقيدة أمي . . .) [٢] .

[جـ] الإمام الغزالي:

(إن الصحابة ﷺ كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية ، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن، ومنبع التشويش، ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان) [٣] .

[د] وأما الفخر الرازي :

فقد قال في وصيته: (ولقد اختبرت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق في إيراد المعارضات

---

(١) الإبانة لأبي الحسن الأشعري (ص١٧) .

(٢) انظر : الحموية لابن تيمية (ص ٧) .

(٣) إلجام العوام من علم الكلام (ص ٨٩ ، ٩٠) .

والمناقضات... فلهذا أقول: كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجود وجوده، ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية، والتدبير والفعالية، فذلك هو الذي أقول به وألقى الله تعالى به.. والذي لم يكن كذلك أقول ديني متابعة محمد سيد المرسلين...) (١).

وقد أملى الرازي في هذه المرحلة من حياته، والتي أحس فيها بالندم والتوبة:

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذىً ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا (٢)

كذلك قال:

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعًا كف حائر على ذقن أو قارعًا سن نادم(٣)

إن ابن تومرت استخدم في حربه ضد المرابطين أساليب متعددة، منها: رميهم ظلماً وزوراً بالتجسيم وجعل عقائد مختلطة من الاعتزال والأشاعرة، والرافضة أساساً اعقيدة دولة الموحدين الجديدة، **وأصبح فيما بعد من أعلام مدرسة الأشاعرة لسببين:**

﴿١﴾ لأنه هو الذي فتح الباب في بلاد المغرب لدخول التأويل الكلامي ، ولم يقتصر الأمر على هذا بل تبنى - بصفته إمامًا مطاعًا - هذا الجانب ، فكان لسلطته الدور الأكبر في انحسار مذهب السلف ، وفشو مذاهب المتكلمين .

﴿٢﴾ تأليفه للمرشدة، وقد تكلمنا عنها وهي مستقاة من مذهب الأشاعرة، ولم يقتصر الأمر على هذا بل كان يفرض هذه العقيدة على الناس، بحيث تدرس

---

(١) **انظر** : القائد لتصحيح العقائد (ص ٧٤) .
(٢)، (٣) **انظر** : إيثار الحق على الخلق (ص ٨) .

للعوام ، مما جعلها تشتهر بسرعة .

وفيما عدا ذلك فابن تومرت يبدو أقرب ما يكون إلى مذهب المعتزلة، ومذهب الشيعة وقد كان أحد أتباعه لما كتب تاريخ ابن تومرت لا يسميه إلا الإمام المعصوم، وليس قربه من هؤلاء بأقل من قربه من الأشاعرة؛ بل أخذ من الخوارج لا سيما في التساهل في الدماء ومقاومة السلطان الجائر حتى جعله ضرباً من الجهاد في سبيل الله، كما أخذ برأيهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها، وقد أدرك هذا التأثر علماء المرابطين كما يذكر ابن الخطيب (١) .

إن دعوة ابن تومرت قد تأثرت بآراء كثير من الفرق والمذاهب فهي ليست أشعرية بحتة، وليست معتزلية تقوم على الأدلة العقلية وحدها، وليست خارجية كما ظنها علماء المرابطين، وهي أيضاً ليست رافضية في كل اتجاهاتها، بل هي مزيج مضطرب من أغلب الفرق والمذاهب الإسلامية ولهذا فإنه يبدو من المقبول أن يطلق عليها العقيدة التومرتية، وذلك لتميزها عن كل المذاهب السابقة بمنهج مستقل (٢) .

ومما لا شك فيه أن الخليط التومرتي في الأفكار والعقيدة ، كان له أثره بعد ذلك على بلاد المغرب، وخصوصاً بعد أن أصبح لهذه الأفكار كيان سياسي يحميها وأصبح له نفوذه على معظم بلاد المغرب .

وقد تحدث المؤرخ المغربي السلاوي عن هذا الأمر بقوله:

« . . . وأما حالهم - يعني أهل المغرب - في الأصول والاعتقادات فبعد أن طهرهم الله من نزعة الخارجية أولاً والرافضية ثانياً على مذهب أهل السُنَّة والجماعة مقلدين للجمهور من السلف في الإيمان بالمتشابه وعدم التعرض له بالتأويل مع التنزيه عن الظاهر. . . واستمر الحال على ذلك مدة إلى أن ظهر

---

(١) ،(٢) **انظر** : الدعوة الموحدية ، لعبد الله علام(ص ١٥١) .

محمد بن تومرت مهدي الموحدين في صدر المائة السادسة » [١] .

لقد اشتط ابن تومرت وانحرف عن المنهج الصحيح من أجل تحقيق أهدافه ولذلك نجده كفر من لم يؤمن بما يقول، ويعتنق ما يدعو إليه، واستباح دمه حتى ولو كان من أتباعه كما قال بكفر دولة المرابطين ووجوب جهادها، ولتأصيل هذا المبدأ في نفوس أصحابه فقد صرح به في أكثر من مناسبة، كما ضمنه كتبه التي ألفها لهم، ورسائله التي كان يبعثها إلى الموحدين حيثما كانوا، حيث جاء في إحدى رسائله أن المرابطين قد عملوا « ... على إهلاك الحرث والنسل، والاعتداء على الناس في أخذ أموالهم، وخراب ديارهم، وفساد بلادهم، وسفك دمائهم واستباحوا أكل أموال الناس بالباطل، وأخذ أموال اليتامى والأرامل... » [٢] .

ويذكر المراكشي أنه لما توجه جيش الموحدين إلى قتال المرابطين سنة ٥١٧ هـ أوصى أفراد ذلك الجيش بقوله: « إقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين يسمون بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإضرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السُّنَّة قتالهم... » [٣] .

وبالإضافة إلى هذه التهم الواضحة الصريحة التي قال بها ابن تومرت ضد دولة المرابطين، فإن القارىء لكتاب « أعز ما يطلب » يدرك أن ابن تومرت قد شحنه بالافتراءات والدعاوي الباطلة ضدهم؛ بل إنه قد أفرد فصولاً خاصة منه لهذا الغرض [٤] .

وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة ضدهم ، فأخذوا بالتصدي لها حيث

---

(١) السلاوي (١ / ١٢٦ ١٢٧) .
(٢) أعز ما يطلب (ص ٢٦) .
(٣) المعجب (ص ٢٨٢) .
(٤) من هذه الفصل على سبيل المثال « باب في بيان طوائف الملثمين والمجسمين » .

بينوا للناس كذب تلك التهم التي ألصقها بهم ابن تومرت، وأنها مخالفة للحقيقة، ولكن هذا العمل لم يثن ابن تومرت عن حربه الدعائية؛ بل إنه كثف جهوده في هذا الميدان، ومما جاء في إحدى رسائلة التي يوجهها لهذا الغرض: « واعلموا وفقكم الله - يعني أتباعه - أن المجسمين والمكابرين وكل من نسب إلى العلم ، أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله ».

كان هذا هو توجيه ابن تومرت لأتباعه في حملته الإعلامية الكاذبة ضد دولة المرابطين السنية التي أقامت كيانها على مذهب أهل السُنَّة والجماعة والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله على هدي من سُنة رسول الله ﷺ ، فقد طعن في عقيدتهم ووصفهم بأنهم مجسمون وكفار لا تجوز طاعتهم، ولا الولاء لهم، بل يجب جهادهم، ولهذا قاتل الموحدين، قتال المسلمين للكفار حسب اعتقادهم، وما ذلك إلا بسبب أن ابن تومرت قد نحى في حربه للمرابطين منحى فكرياً عقدياً غالى فيه حتى أصبح العداء للمرابطين اتجاهاً فكرياً واضحاً عند ابن تومرت وأتباعه المخلصن لدعوته، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه الذي حدده ابن تومرت من دولة المرابطين، قد أثر على معنوياتها، ثم على كيانها السياسي وذلك لأن كثيراً من الناس قد تبنوه، ومن ثم انبروا للعمل على هذه الدولة، والسعي إلى إسقاطها لتقوم دولة ابن تومرت على أنقاضها [١] .

وتساهل ابن تومرت في إراقة الدماء دونما مسوغ شرعي، حيث كان لا يتردد في ذلك، حينما يرى أنه يخدم دعوته، أو يحقق من مطامحه مهما كانت التضحيات المقدمة لهذا الغرض، وقد تأصل هذا العمل عند ابن تومرت حيث ألبسه لباساً دينياً حتى أصبح اتجاهاً دعوياً واضحاً في دعوته،ومن نماذج عمله في

---

(١) انظر : الدعوة الموحدية بالمغرب (ص١٨١) .

هذا الميدان ما ذكره ابن القطان - أحد تلاميذ ابن تومرت - أنه كان يعظ تلاميذه وأنصاره في كل وقت « ... ومن لم يحضر أدب فإن تمادى قتل، وكل من لم يحفظ حزبه عزر بالسياط، وكل من يتلكأ يتأدب بما أدب به ضرب بالسوط بالمرة والمرتين و فإن ظهر منه عناد وترك امتثال الأوامر قتل ومن داهن . .قتل».

كما ذكر كل من البيذق [١] وابن القطان [٢] ، وغيرهما من المؤرخين [٣] أن ابن تومرت كان يقوم بما يسمى بعملية التمييز لأتباعه حيث يقتل كل من يشك في ولائه لدعوته، وقد ذكر لنا البيذق وصفاً لعملية التمييز التي قام بها ابن تومرت قبل موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ حيث قال: «فأمر بالميز فكان البشير [٤] يخرج بالمخالفين المنافقين والخبثاء من الموحدين، حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً، وازداد الذين آمنوا إيماناً وذاق الظالمون النار، فظنوا أنهم مواقعوها، وما لهم عنها من محيص... فمات يومئذ من الناس خمس قبائل...» [٥] . وكانت مخادعة ابن تومرت للناس في قضية التمييز باتفاق مع الونشريسي حيث طلب منه ابن تومرت أن يخفي علمه وحفظه للقرآن ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلما كان عام تسعة عشر وخمسمائة ، خرج يوماً فقال: تعلمون أن البشير - يريد الونشريسي - رجل أمي، ولا يثبت على دابة، فقد جعله الله مبشراً لكم، مطلعاً على أسراركم، وهو آيه لكم، قد حفظ القرآن، وتعلم الركوب، وقال: اقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصاناً وساقه، فبهتوا، وعدوها آيه لغباوتهم، فقام خطيباً، تلا: ﴿ **لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ** ﴾[الأنفال: ٣٧] ،

---

(١) **انظر** : أخبار المهدي ، تحقيق عبد الحميد حاجيان (ص ٧١ ، ٧٢) .

(٢) نظم الجمان (ص ١٠٢ ، ١٠٤) .

(٣) كابن الأثير ، وابن خلدون ، وابن العماد ، والسلاوي .

(٤) هو عبد الله بن محسن الونشريسي .

(٥) **انظر** : مجلة جامعة الإمام ، محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٦٨) .

وتلا ﴿ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران: ١١٠] ، فهذا البشير مطلع على الأنفس، ملهم، ونبيكم ﷺ يقول: « **إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم**» (١) ، وقد صحبنا أقوام أطلعه الله على سرهم، ولابد من النظر في أمرهم، وتيمم العدل فيهم، ثم نودي في جبال المصامدة: من كان مطيعاً للإمام، فليأت، فأقبلوا يهرعون،فكانوا يعرضون على البشير، فيخرج قوماً على يمينه ويعدهم من أهل الجنة، وقوماً على يساره، فيقول هؤلاء شاكون في الأمر، وكان يؤتى بالرجل منهم، فيقول: هذا تائب ردوه على اليمين تاب البارحة، فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب،حتى كان يطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل ، فلا يفر منهم أحد ، وإذا تجمع منهم عدة ، قتلهم قراباتهم حتى يقتل الأخ أخاه..» (٢) .

قال شعيب الأناؤوط في استدلال ابن تومرت بحديث رسول الله ﷺ : « **إن في هذه الأمة محدثين، وإن عمر منهم** » في الونشريسي بأنه مُلهم: (واستشهاد ابن تومرت بالحديث في غير محله، وهو دال على سوء طويته، وجراءته على الله ورسوله، فإن البشير الونشريسي قد باع نفسه من الشيطان، وصار يستلهم منه الحيل الماكرة، والأساليب الخبيثة لإضلال الناس وإفسادهم إرضاءً لسيده ابن تومرت الذي اتخذه مطية لأطماعه، وتحصيل مرامه، فهو من أبعد الناس عن منزلة التحديث الجليلة التي اختص بها أمير المؤمنين عمر.....) (٣) .

ويبدو أن الذي دفع ابن تومرت للقيام بعمليات التمييز هو تراجع عدد كبير من الداخلين في دعوته عنها، وذلك بسبب ما تحمله من غلو وشطط، فقام بهذه العملية للتخلص من الذين يشك في إخلاصهم خشية أن يقوى رد الفعل المضاد

---

(١) البخاري (٧ / ٤٢) رقم (٣٦٨٩) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٦) .

(٣) الذهبي ، سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٦) .

لدعوته [١] ولما حل ابن تومرت تينمل، آواه أهلها وأعلنوا طاعتهم له، لكنهم كانوا كثيري العدد وافري العدة ، وفي منعة بسبب حصانة مدينتهم، فأمرهم ابن تومرت بأن يحضروا إلى المسجد بغير سلاح فلما فعلوا ذلك عدة مرات أمر بعض أتباعه المقربين أن يقتلوهم ففعلوا، ثم دخلوا المدينة وقتلوا منها عدداً كبيراً من الرجال حتى بلغ عدد الذين قتلوا بهذا الحادثة خمسة عشر ألف رجل [٢] ولكي لا تحدث هذه الأعمال رد فعل عند أتباعه ، أو تلقى معارضةعند الناس، فإنه كان يظهر بشيئ من الخوارق والمعجزات حتى يؤصل في نفوس الناس شرعية ما يقوم به ، ويدعو إليه ، فقد ذكرالمؤرخون أنه كان يتواطأ مع بعض أصحابه على أن يدفنهم في المقابر وهم أحياء حيث يترك لهم مكاناً للتنفس ، ويأمرهم بأن يكلموه إذا دعاهم ، ويشهدوا له بما يطلبه منهم كأن يشهدوا بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ﷺ ، وأنه هو الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ،كما ملئت جوراً وظلماً وأن من اتبعه أفلح، ومن خلفه خسر، وحينما يسمع أتباعه أن الموتى يكلمونه ، ويشهدون له بصحة ما يدعو إليه ، ويعظم اعتقادهم فيه ، وتتأكد طاعتهم له ، أما أولئك المقبورون فإنه بعد أن ينهوا المهمة التي من أجلها قبروا يستبيح دماءهم ، حيث يهدم عليهم قبورهم حتى يموتوا لكي لا يفشو سره بعد ذلك [٣] .

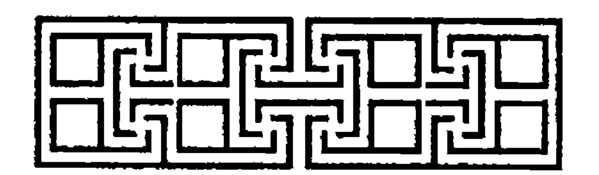
هذه صور وأمثلة للأعمال التي قام بها ابن تومرت واستحل بها دماء الناس المعصومة بغير حقها، حتى ولو كانوا من أنصاره أو المقربين إليه ، ولا شك أن هذا العمل يعد في نظر الإسلام كبيرة من كبائر الذنوب ، حتى ولو كان المقتول شخصاً واحداً ، فكيف يجوز لابن تومرت أن يقدم على هذه الأعمال المتنافية مع

---

(١) **انظر** : الدعوة الموحدية ، لعبد الله علام(ص ١٩١ ، ١٩٢) .
(٢) **انظر** : الكامل في التاريخ ، لابن الأثير(٦/٥٦٣) .
(٣) **انظر** : الفتاوى(١١/٤٧٧) .

الشرع الحنيف وهو يحسب نفسه داعيه إلى الله ؛ بل مهدياً معصوماً ؟!! [١] .

وإني لأستغرب من الدكتور عبد المجيد النجار في تسمية كتابه « تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت » وكان الأولى به أن يسميها « تجربة الإفساد والتدمير في حركة المهدي ابن تومرت » ، ومن العجب أن المعهد العالي للفكر الإسلامي جعل كتاب الدكتور عبد المجيد النجار من ضمن سلسلة حركات الإصلاح ومناهج التغير !! ، وهذا يدل على غياب المنهج الصحيح لتقويم أعمال القادة والدول والشعوب والحركات.



---

(١) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس (ص ٥٦٩) ، لقد استفدت من مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، العدد السادس في مبحث الأسس الفكرية والعقدية لدعوة ابن تومرت .

المبحث الخامس

المنهج التربوي والسياسي عند ابن تومرت

أولاً: المنهج التربوي :

جعل ابن تومرت منهجية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصلاً في دعوته،ولذلك اجتهد في محاربة المنكرات التي انتشرت بين عوام الناس بكل ما يملك من قوة، ووجه سهامه نحو الفقهاء والعلماء للتقليل من هيبتهم، وإضعافهم ليتسنى له أن ينشر عقيدته المختلطة، ويؤصل ما يريد من الأحكام والأقوال على النهج الذي يخدم أهدافه ولذلك نجده عندما استقر في منطقة السوس ينهج وجهتين رئيسيتين:

[١] التربية العقيدية الروحية:

استغل ابن تومرت جعل أتباعه من البدو والأميين الذين لا يستطيعون أن يفهموا الشريعة من أصولها المعتمدة وكتب لهم شيئاً في العقائد والعبادات بعضها باللسان البربري وبنى مكاناً للعبادة، ولتعلم الطلبة على منهجه الذي رسمه وتربيتهم عليه.

قال ابن خلدون: (فنزل على قومه وذلك سنة عشرة وخمسمائة ، وبنى رابطة للعبادة، فاجتمعت إليه الطلبة والقبائل يعلمهم المرشدة في التوحيد باللسان البربري) [١] .

وألزم أتباعه بحفظ شيء من القرآن والحديث النبوي تعلم المرشدة واستيعاب حقائق التوحيد بمذهب علم الكلام، وتحقيق أحكام العبادة وكان يوزع أصحابه في حلقات كل عشرة يكون مسئولاً عليهم أحد الطلبة النابهين، ونهج منهج

---

(١) ابن خلدون(٦ / ٢٢٧ ، ٢٢٨) .

الشدة في التعليم والتربية وأحدث أحكاماً تبلغ إلى الضرب بالسياط لمن يظهر منه التهاون في حضور الأوقات أو في حفظ ما يطلب منه حفظه [١] .

وكان هذا المنهج يسود جميع أفراد المجتمع الجديد أما من برز في العلم من أصحابه فألف لهم كتباً ورسائل خاصة وهي كتب ورسائل خصص معظمها للاستدلال العقلي على العقيدة التي جمعها من مذاهب شتى وفرق عدة.

واهتم بالجانب الروحي واعتمد في تربيته لأصحابه على التزهيد في متاع الدنيا، والترغيب في الآخرة، والإعداد للجهاد في سبيل الله طلباً للشهادة، مما خاطب به أتباعه في ذلك قوله: «ولا تنازعوا ولا تغتروا بالدنيا فإنها وكل من عليها فان واحذروا من مكرها وتقلب أحوالها.. وتزودوا منها إلى دار الآخرة واستعدوا منها بالعمل الصالح تفوزوا بذلك عند الله فوزاً عظيماً...) [٢] .

[٢] التربية الاجتماعية:

وبعد أن حرص على بناء الأفراد علمياً وروحياً شرع في بناء المجتمع الجديد على أسس من التعاون والتناصر والتآخي وجعل أهل جبال أطلس في تينملل الأنصار ومن جاءهم من غيرهم المهاجرين وقعد قواعد في هذا المجتمع للتآخي لعقاب من يتعداها وربط المجتمع الجديد بوشائج القربى بين القبائل المختلفة بطريق المؤاخاه بينها أو بطريق المصاهرة المتبادلة وخاطب قيادة مجتمعه الجديد بقوله:(ما في الأرض من يؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة الذين عنى النبي ﷺ بقوله: «لا يزال أهل المغرب ظاهرين» [٣] وأنتم تفتحون الروم وتقتلون الدجال، منكم الذي يؤم بعيسى، وحدثهم بجزئيات اتفق وقوع أكثرها، فعظمت فتنة القوم به..) [٤] .

---

(١) **انظر** : نظم الجمان لابن القطان (ص ٢٦ ، ٢٧) .

(٢) ابن تومرت : رسالة إلى الموحدين (ص ٩) نقلاً عن كتاب عبد المجيد النجار (ص ١٦٦) .

(٣) **انظر** : فتح الباري (١٣ / ٢٩٥) الطبعة السلفية .

(٤) **انظر** : سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٩) .

ويصف الأمير عزيز في كتابه (أخبار القيروان) المجتمع الموحدي (لهم تودد وأدب وبشاشة، ويلبسون الثياب القصيرة الرخيصة ولا يخلون يوماً من طراد ومثاقفة ونضال. . .) [١] .

ويصف ابن خلكان محمد بن تومرت فيقول: « قبره بالجبل معظم، مات كهلاً ، وكان أسمر ربعة، عظيم الهامة، حديد النظر مهيباً، وآثاره تغني عن أخباره، قدم في الثرى، وهامة في الثريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون إراقة ماء المحيا، أغفل المرابطين ربطه وحله، حتى دب دبيب الفلق في الغسق، وكان قوته من غزل أخته رغيفاً بزيت، أو قليل سمن، لم ينتقل عن ذلك حين كثرت عليه الدنيا، رأى أصحابه يوماً، وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه، فأمر بإحراق جميعه ، وقال :من أراد الدنيا، فهذا له عندي، ومن كان يبغي الآخرة، فجزاؤه عند الله ، وكان يتمثل كثيراً:

تجـــرد من الدنـيـا فـإنــك إنمــا ... خرجت إلى الدنيــا وأنت مجرد[٢]

ثانيا: المنهج السياسي:

حـــرص ابن تـومـرت بعــد رجـوعــه أن يسلك طريق النصح والإرشـــاد والوعظ ،ولذلك اتصل بالأمراء وولاة الأمر في المدن والعواصم يعظهم ويرشدهم ويبين لهم مواقع الانحراف والفساد ويحملهم المسئولية في ذلك، ويحثهم على القيام بالأمر الواجب من محاربة المنكر ونشر المعروف وتوج أمره بنصح أمير المسلمين علي بن يوسف ونبهه إلى انتشار المنكرات ووعظه وأغلظ له القول وقال له: (إنما أنا رجل فقير أطلب الآخرة ولست بطالب دنيا ولا حاجة لي بها ، غير أني آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسئول عنه، وقد وجب عليك إحياء السُّنَّة وإماتة البدعة، وقد ظهرت بمملكتك

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (١٩ / ٥٤٩) .

(٢) وفيات الأعيان (٥ / ٥٤) .

المنكرات، وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السُّنَّة بها إذ لك القدرة على ذلك وأنت المأخوذ به والمسئول عنه) [١] .

وبعد أن غادر مراكش بمدة يسيرة بادر بأن « خلع مبايعة علي بن يوسف من أعناق تابعيه وأصحابه ، وأعلن الجميع بخلعه » [٢] ، وانتهج ابن تومرت سياسة واضحة المعالم للقضاء على النظام القائم وبناء نظام جديد وكانت خطته تسير في سبل ثلاثة ، حملة نقدية للمرابطين، وإقامة تنظيم سياسي، وتعبئة نفسية للأنصار:

[٢] الحملة النقدية ضد المرابطين :

جعل ابن تومرت من أهدافه شن هجوم على حكام المرابطين، ومحاولاً فسخ ولاء القبائل للمرابطين فسخاً نهائياً وترسيخ ولائهم له: « فكل من أطاعهم في معصية الله وأعانهم على ظلمهم في سفك دماء المسلمين وأخذ أموالهم، وكل من أعانهم من القبائل فادعوهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الكتاب والسُنة وترك معونة المجسمين والمرتدين والمعتدين، فإن قبلوا منكم ورجعوا إلى السُنَّة وأعانوكم على جهاد الكفرة فخلوا سبيلهم وهم إخوانكم في دين الله وسُنة رسوله، وإن عاندوا الحق وأصروا على معونة أهل الباطل والفساد فاقتلوهم حيث وجدتموهم » [٣] ، وشن حرباً نفسية على حكام وأمراء وأتباع المرابطين في رسالته إليهم « إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمان، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية لمتونة ، أما بعد قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم، ولزوم طاعته،وأن الدنيا مخلوقة للفناء والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السُّنَّة، فإن أديتموها

---

(١) تاريخ الدولتين للزركشي (١٢١)

(٢) نظم الجمان لابن القطان (ص ٢٩)

(٣) رسالة إلى الاتباع لابن تومرت (ص ٢)

كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم حتى نمحو آثاركم، ونكدر دياركم، ويرجع العامر خالياً ، والجديد بالياً،وكتابنا هذا إليكم إعذاراً، وقد أعذر من أنذر ، والسلام عليكم سلام السُنَّة لا سلام الرضى » [١] .

وهكذا شرع ابن تومرت في توجيه حملة نقدية إلي دولة المرابطين ووسع نطاقها واستهدف بها كافة الناس من أهل المغرب موالين أو معادين وحاول أن يعزل الحكام عن عامة الناس بفضح سياستهم، وتضخيم أخطائهم، تنفيراً للنفوس منهم وتمهيداً لنزع ولائهم ثم لمعاداتهم وإمعانا منه في تهجينهم وتشويه صورتهم اخترع الألقاب المشينة ورماهم بها كـ (المجسمون) و (الزراجنة) تشبيهاً لهم بطائر أسود البطن أبيض الريش يسمى الزرجان؛ لأنهم بيض الثياب سود القلوب، و (الحشم) لا تخاذهم اللثام كما يتخذه الحشم [٢] .

[٢] التنظيم السياسي :

وضع ابن تومرت لدولته الجديدة تشكيلاً سياسياً بحيث يضم وينظم ويرتب جميع أفراد الدولة حتى يضمن ويعمق ولاءهم للدعوة ويمكن مراقبتهم والإشراف عليهم ولذلك نظم ابن تومرت أتباعه في طبقات متباينة في عددها، مختلفة في واجباتها الملقاة على عاتقها. وقد بلغت طبقات الموحدين التي صنفوا بموجبها أربع عشرة طبقة .

كانت الطبقات الثلاثة الأولى، أهم هذه الطبقات، من حيث انتماء أكبر رجال الموحدين إليها، من مشائخ القبائل وزعماء المصامدة وكبار الشخصيات، الذين تتوفر لهم الكفاءات العقلية والقدرات العسكرية، وكانت أهم واجبات هذه الطبقات هي معالجة أمور الموحدين وتيسير دفة الحكم. أما الطبقات الأخرى فكانت واجباتها عسكرية وعلمية ودينية [٣] .

---

(١) رسالة لابن تومرت ضمن الحلل الموشية لابن الخط .

(٢)**انظر** : نظم الجمان لابن القطان (ص ٨٥).

(٣)سقوط دولة الموحدين (ص ٤٠).

وقد جعل الدكتور عبد المجيد النجار هذه الطبقات في أربعة أجهزة أساسية وبين مهماتها التي أنيطت بعهدتها :

الجهــــاز الأول : جهاز سياسي، ويشتمل على المجالس الثلاثة المتقدمة الذكر: مجلس العشرة، ومجلس الخمسين، ومجلس السبعين.

الجهاز الثاني: جهاز علمي ثقافي، يشتمل على طبقة الطلبة، وهم الذين بلغوا درجة مرموقة من العلم، وطبقة الحفاظ وهم صغار الطلبة.

الجهاز الثالث: جهاز عسكري، ويشتمل على طبقة الجند وطبقة الرماة والغزاة.

والجهاز الرابع: جهاز شعبي، يضم مجموعة من القبائل وهي: هرغة، وأهل تينمل، وجدميوه، وجنفيسة، وهنتاتة، وأهل القبائل [1] قال ابن الخطيب: (لكل صنف من هذه الأصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر، لا ينزل كل صنف إلا في موضعه لا يتعداه، فانضبط مراده» [2] .

لقد عالجت هذه الأجهزة المشاكل المطروحة على الجماعة الجديدة معالجة تقوم على التخصص ضماناً للمزيد من النجاح واجتنابا للعفوية والفوضى،وقد كانت المهام الكبرى المطروحة على هذه الجماعة مهام ثلاثة: مهمة سياسية تتعلق برسم المسار السياسي للجماعة الناشئة، وهي التي تكفل بها الجهاز الأول. ومهمة تربوية تتعلق بنشر المبادىء العقدية التي قامت عليها الدعوة، وهي التي تكفل بها الجهاز الثاني، ومهمة دفاعية تتعلق بحماية الجماعة والعمل على نموها وامتدادها وهي التي تكفل بها الجهاز الثالث.

ويبدو أن الجهاز الرابع وضع لحصر الأتباع وإحكام ارتباطهم، وربما قام بمهمة دفاعية أو دعائية، فيكون بدور ما نسميه بالمنظمات الشعبية المرتبطة بالدولة.

---

(١) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة المهدي ، ابن تومرت (ص ١٢٠ ، ١٢١) .
(٢) الحلل الموشية لابن الخطيب (ص ٨٠) .

وقد لخص ابن الخطيب هذه الأدوار والمهام المتكاملة في قوله: «أهل الجماعة للتفاوض والمشورة.. وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو» (١) .

لقد كانت الآفاق السياسية واضحة المعالم في فكر محمد بن تومرت ولذلك أسس بديلاً سياسياً اجتماعياً تربوياً ليحل محل النظام السياسي والاجتماعي والتربوي في دولة المرابطين (٢) .

لقد أظهر ابن تومرت في منهجه السياسي ملكة تنظيمية كبرى، وقبض بيد من حديد على أنصاره، فأعطى مجلس العشرة سلطاناً كبيراً وحكمهم في الناس، وجعل مجلس الخمسين كلهم رؤساء القبائل، وسيطر بواسطتهم على القبائل، وجعل الجميع عيوناً له بعضهم على بعض، يوافونه بكل صغيرة أو كبيرة مما يقع حوله أو يصلهم من أنباء مما جعل ابن تومرت مطلعاً على أمور مجتمعه الجديد وأصبح مطلعاً ومرهوباً في جماعة كبيرة من المصامدة تطيعه طاعة عمياء حقا،وتخاف منه خوفاً شديداً...) (٣) .

[٣] تعبئة الأنصار:

كانت مهمة ابن تومرت صعبة جداً حيث إنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى وفي إسبانيا وكان لها الفضل بعد الله في توحيد المغرب الأقصى مع الأندلس واشتهر حكامها بالصلاح والعدل والجهاد وحب الخير لعموم الأمة (٤) ، ولذلك حرص على تعبئة أنصاره وإقناعهم على درب الحق ، وأن خصمهم على درب الباطل واعتمد في تعبئته لأنصاره على:

---

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٢٢) .

(٢) **انظر** : تجربة الإصلاح في حركة المهدي ، ابن تومرت (ص ١٢٢) .

(٣) **انظر** : معالم تاريخ المغرب والأندلس د . حسين مؤنس (ص ١٨١) .

(٤) يعني دولة المرابطين .

[أ] غرس الثقة في نفوسهم وبأنهم على الحق:

ولذلك خاطبهم بقوله: (ما على وجه الأرض من مؤمن إيمانكم، وأنتم العصابة المعنيون بقوله ﷺ: « **لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم، ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة...** ») [١].

وحرص ابن تومرت على رد كل ما يوقع في نفوس أصحابه من الوهن من طعون المرابطين الموجهة إلى هذه الدعوة التي أصبحوا من أنصارها، فكان لا يكل ولا يمل في تنفيذ كل ما وجهه المرابطين من حملة مضادة ضد دعوته البدعية وقاد ابن تومرت حملة دعائية مضادة، ومن ذلك ما خاطب به أصحابه قائلاً: « واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والمكارين وكل من نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه، فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتبهوا وفقكم الله على الافتراء لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشهم ودنياهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله، حتى عكسوا الحقائق وقلبوها وحرفوا الكلام عن موضعه، ونسبوا من دعا إلى التوبة والتوحيد واتباع السُنَّة إلى الخلاف وسموه مخالفاً ببغيهم.. » [٢].

لقد استطاع ابن تومرت أن يقنع أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة والتي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله وشحن بذلك النفوس، وأقنع العقل، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته وبسط هيمنته على أتباعه وزعم بأنه المهدي المنتظر والإمام المعصوم.

---

(١) المعجب للمراكشي (ص ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) رسالة إلى الأتباع (ص ٤) وأيضاً رسالة المنظمة (ص ١٠٨).

[ب] الثقة بالإمام :

وسلك مسالك متعددة من أجل إقناع أصحابه وأتباعه بأنه المهدي المعصوم، فحرص على الظهور بمظهر الاستقامة والتدين والإخلاص، فزهد في متاع الدنيا من مأكل وملبس ومسكن، ثم جعل ثقة أنصار به ذات اتجاه عقدي بحيث تمنع نفوس الأتباع من الضعف والتراجع أمام أوامره وتوجيهاته، فأقنعهم بأنه الإمام المنتظر والمهدي المعصوم وبأن نسبه يرجع ضارباً في أعماقه في آل البيت المطهر، وبذلك استطاع بهذه التعاليم المتعلقة بالإمامة أن يرسخ ثقة أتباعه به ، وأن يضمن ولاءهم الدائم وطاعتهم المطلقة [١] ، ولم ينس أن يحرك نفوس المصامدة للتطلع إلى إنشاء دولة لهم، فهم معظم سكان المغرب الأقص، وهم قبائل ضخمة ذات قوة وعدد،تمتد من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه، ولا ينقصها إلا توحيد الصفوف والقيادة السليمة، وأقنعهم بأنهم القيادة المثلى لهذه القبائل [٢] .

[٤] المنهج العسكري:

وبعد أن نظم صفوفه وأحكم تنظيمه، أصدر إنذاره وتهديده إلى المرابطين: «قد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السُنَّة ، فإن أديتموها كنتم في عافية، وإلا فنستعين بالله على قتالكم . . . » [٣] .

وكانت هذه الخطوة تمهيداً منه نحو قتال المرابطين ، وحرصاً على ترسيخ عقيدة الجهاد وحببه لجنوده، وأقنعهم بأن جهاد المرابطين فرض عليهم، كما فرض على الصحابة جهاد الكفرة «فالدين الذي جاهدوا عليه هو الدين لا يحول ولا

---

(١) تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت (ص ١٢٧) .
(٢) انظر : معالم في تاريخ المغرب ، د . حسين مؤنس (ص ١٧٧) .
(٣) الحلل لابن الخطيب (ص ٨١) .

يزول، حتى ينفخ في الصور، والسُنَّة التي قاتلوا عليها هي لا تتبدل ولا تتغير حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. فجهاد الكفرة الملحدين قد تعين على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر لا عذر لأحد في تركه ولا حجه له عند الله ، فإنهم سعوا في هدم الدين ، وإماتة السُنة » [١] .

ولما بذل ابن تومرت جهده في إعداد أصحابه إعداداً عقدياً جعل يعد العدة المادية، فجعل يجمع المقاتلين متخيراً الأقوياء الصادقين وتخلص من كل من شك فيه في صفوفه ومن أعلي جبال الأطلس واصل ابن تومرت حملته الإعلانية التشويهية على المرابطين واصفاً إياهم بأقذع الأوصاف فاضطر الأمير علي بن يوسف أن يسل الحسام لإخماد تلك الفتنة ، فوجه إليه وزيره ينتان بن عمر على رأس جيش كبير للقضاء عليه إلا أن ذلك الجيش رجع بدون قتال واستغل ابن تومرت ذلك وجعلها منة من الله عليهم ، وما فعله ينتان في حقيقته هروب و خوف من لقاء الموحدين وتعاظم خطر ابن تومرت واستمر علي بن يوسف في إرسال الحملات تلو الحملات لا ستئصال شأفته ولكن جميعها كان مصيرها الفشل والهزيمة ومن هذه الحملات حملة أبي إسحاق إبراهيم الذي وجهه إليه على رأس جيش كبير ولكنه انهزم أمام ابن تومرت دون قتال وتعقبتهم القوات الموحدية وقتلت أعداداً كبيرة منهم وغنموا حملتهم، وقد اغتم أمير المسلمين لهزيمة جيشه، وبادر بإرسال حملة أخرى بقيادة الأمير سير بن مزدلي اللمتوني الذي أضاف هو أيضاً هزيمة إلى سجل الهزائم المرابطية على يد الموحدين [٢] .

وكان ابن تومرت يبشر أصحابه بالغنائم والنصر قبل نشوب المعارك فيقول لهم: « انظروا إلى أعدائكم، واعلموا أن كل ما جاءوا به من خيل وعدة، إنما هو هدية من الله تعالى لكم ، على غربتكم وفقركم، فأعطاكم وأغناكم »[٣]وكان

---

(١) الرسالة المنظمة (ص ١٠٥) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين ، تأليف سلامة محمد سلمان (ص ١١٣) .

(٣) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د . حمدي عبد المنعم (ص ١٠١) .

ينزل في المعارك بنفسه ويبدو أن ابن تومرت لم تكن تعوزه الخبرة العسكرية، فقد تمرس بالقتال في الميدان وتعرض في كثير من الأحيان إلى السقوط في خضم المعركة، كما تعرض إلى جراحات السيوف وكثيراً ما كان يشير على عسكره بقواعد حربية ناجحة مثل سلوك المراقي العالية، وحمل العدو على الصعود دون أن يهبط عسكره إلى الوطاء، والأمر باتخاذ الأبراج العالية للمراقبة.

ولكي يكون ابن تومرت وعسكره في منعة من مباغتة الجيش المرابطي اتخذ عاصمة له مقراً منيعاً هو مدينة تينملل التي قال ابن الخطيب في وصف منعتها: «لا يعلم مدينة أحصن منها، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها، وهو الطريق إليها من مراكش، المصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة من الخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد»[1].

لقد كانت لتلك الانتصارات المتوالية التي حققها الموحدون أثرها الكبير في ذيوع عقيدة المهدي وظن كثير من الناس بأنه ابن تومرت وبذلك كثر أتباعه، وعظمت ثقته بنفسه وقوته، فأرسل علي بن يوسف أمير المسلمين رسالة كلها تهديد ووعيد، فيما يلي نصها: «من القائم بدين الله العامل بسُنة رسول الله محمد بن عبد الله وفقه الله، إلى المغرور بدنياه علي بن يوسف، أما بعد فإنا ما وجدنا لأكثركم من عهد، وإن وجدنا أكثركم لفاسقين، لم تخشو عقوبة رب العالمين، ولم تتفكروا فيمن حولكم من الظالمين، الذين غووا فأصبحوا نادمين، فتبعهم الناس أجمعين، فإذا هم أخسر الخاسرين، وقد أمرني الله بإدحاض حجة الظالمين، ودعاء الناس إلى اليقين، ونسأل من الله أجر المحسنين لا تغتروا فإن المسلمين إليكم قادمون، لقتال من زاغ وجنف وكفر بنعمة الله، وقد جاء في التنزيل أنكم لستم بمؤمنين ولا تؤمنون بلا إله إلا الله، وأنها كلمة تقولونها عند

---

(١) انظر: تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت (ص ١٢٩).

الخوف والتعجب وتارك واحدة السُنَّة كتاركها كلها، من أجل ذلك دماؤكم حلال ومالكم فيء وقد بينا لكم وأوضحنا السبيل وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينفلب ينقلبون، والسلام على من اتبع الهدى وخشى الرحمن» [١] لقد كانت هذه الرسالة بمثابة إعلان حرب بين الموحدين والمرابطين .

إن الذي يستوقف الباحث هو كثرة هزائم المرابطين على يد الموحدين على الرغم من أن قادة جيوش المرابطين كانوا من أفضل قادة الدولة، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش المرابطية تصد أعتى وأقوى الجيوش النصرانية في الأندلس، وتعبث بين الفينة والفينة في أحواز طليطلة وتتجاوزها في بعض الأحيان نحو الشمال والشرق والغرب .

يبدو أن هناك عدة عوامل أسهمت في صنع هذه الهزائم ، منها الإستراتيجية العسكرية التي اتبعها ابن تومرت في قتاله مع المرابطين، وقد ساعدته وعورة أرضه على عدم مواجهة أعداد كبيرة من جيوش المرابطين دفعة واحدة . كما أن الجيوش المهاجمة عادة تحتاج إلى وقت للتأقلم على ساحة المعركة الجديدة ، بينما كان ابن تومرت وأتباعه يقاتلون على أرض خبروها وعرفوا مسالكها، وهذا عامل مهم من عوامل نصر الجيوش، والأهم من ذلك أن أتباع ابن تومرت كانوا يقاتلون بمعنويات عالية بعد أن بايعوا ابن تومرت على أنه المهدي في الوقت الذي كانت فيه معنويات الجند المرابطي منهارة فكانوا ينهزمون دون قتال لغلبة التردد عليهم وعدم وضوح الهدف ، فالجندي المرابطي كان في حيرة فهو يقاتل مسلمين من أبناء جلدته، وهويسمع كل يوم بأن القبائل تتوافد على ابن تومرت وتبايعه، بعد ما شاعت الأخبار عما يتمتع به من علم وزهد وتقشف وأنه هو المهدي. كل

---

(١) أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق (ص ١١١)

هذه الأمور كانت تجعل من الجندي المرابطي مضطرب النفس متردداً في إقدامه على قتال ابن تومرت ولذلك كان يفضل الفرار على الصدام [١] .

وازدات ثقة ابن تومرت بنفسه بعد تحقيقة تلك الانتصارات، فبادر بإرسال رسالة إلى المرابطين يعرض عليهم الدخول في طاعته وإما القتال مهدداً ومتوعداً من عدم الانقياد له، ومما جاء فيها: «إلى القوم الذين استزلهم الشيطان، وغضب عليهم الرحمن، الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية اللمتونية أما بعد: فقد أمرناكم بما نأمر به أنفسنا من تقوى الله العظيم ولزوم طاعته، وأن الدنيا مخلوقة للفناء، والجنة لمن اتقى، والعذاب لمن عصى، وقد وجبت لنا عليكم حقوق بوجوب السُنَّة فإن أديتموها كنتم في عافية وإلا فنستعين بالله عليكم على قتالكم حتى نمحو آثاركم إعذار وإنذار، وقد أعذر من أنذر والسلام عليكم سلام السُنَّة لا سلام الرضى) [٢] .

وتعتبر هذه الرسالة مؤشراً على انتقال ابن تومرت من دور الدفاع إلى دور الهجوم، وقد ارتكزت إستراتيجيته في هذه المرحلة على استنزاف قوى الدولة المرابطية باستخدام أسلوب حرب العصابات وتجنب الدخول معها في معارك فاصلة ، فأخذت جيوش ابن تومرت تروح وتغدو على محلات المرابطين القريبة من مقره مكبدة إياها خسائر فادحة.

وقبل أن يعطي ابن تومرت الأمر لجيوشه بالانقضاض على المرابطين للاستيلاء على عاصمتهم مراكش أراد أن يطهر صفوفه من بعض الأشخاص الذين يشك في ولائهم له فأوعز في عام٥١٩هـ/ ١١٢٥م لصديقه الحميم الونشريسي ، الذي كان يظهر البلاهة بينما هو عالم يظهر ما لديه من علم دفعة واحدة ليكون ذلك بمثابة المعجزة لا بن تومرت وكان الونشريسي باتفاق مع ابن تومرت قد حفظ

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين (١١٤) .

(٢) **انظر** : دولة المرابطين (١١٥) .

أسماء من شعر أنهم يشكون في مهدية ابن تومرت، وكان أيضاً ابن تومرت قد طلب من القبائل تزويده بأسماء المشاغبين إلى الونشريسي فحفظها. وبعد صلاة الفجر تقدم الونشريسي (الكاذب) وأعلن أنه جاءه البارحة ملكان وشقا قلبه وغسلاه وحشواه علماً وحكمة، فاختبره القوم فعجبوا من شدة حفظه ثم شهد لابن تومرت بالمهدية . ثم قال اعرض علي أصحابك حتى أميز أهل الجنة من أهل النار، وقد أنزل الله تعالى ملائكته إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي، وكان بالمهدية قد وضع فيها رجالاً لهذا الغرض فسار المهدي وأتباعه إلى ذلك البئر، وبعد أن وقف على رأسها قال: «ياملائكة الله إن عبد الله الونشريسي قد زعم كيت وكيت» فقال من فيها صدق، فصدقه الناس، ثم أمر بطمر البئر بحجة أنها مقدسة. وواضح أن طمره للبئر كان بسبب خوفه من أن يفضحوا أمره مما سيكون له أسوأ الأثر على دعوته وكشف زيفها.

ونادى ابن تومرت في أهل الجبل للحضور للتمييز، فأخذ الونشريسي يعمد إلى الرجال الذين يخاف من ناحيتهم ويضعهم على يساره فيقول هؤلاء من أهل النار ويضع إلى يمينه الغمر [١] ، فيقول هذا من أهل الجنة. ثم أمر القبائل بقتل الأفراد الذين قيل إنهم من أهل النار وكان عددهم حسب بعض الروايات سبعين ألفاً، فلما فرغ من ذلك أمن ابن تومرت على نفسه وأصحابه واستقام أمره [٢] .

وعلم ابن تومرت أن الباقين من أهل وأقارب المقتولين لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشرهم بانتقال مراكش إليهم واغتنام أموال المرابطين، فسرهم ذلك وسلاهم على أهلهم، ثم ندبهم إلى قتال المرابطين وتحول موقف الموحدين من الدفاع إلى الهجوم وبعد سلسلة من الحملات الناجحة التي قام بها ابن تومرت على معاقل المرابطين أراد أن يحسم الأمر بإسقاط عاصمة المرابطين مراكش.

---

(١) **الغمر** : هو غير المجرب .

(٢) **انظر** : ابن خلكان (٦ / ٥٢-٥٣) .

وتضطرب الروايات حول تحديد تاريخ هذا الزحف، وسبب ذلك يعود أن المعركة الفاصلة بين الطرفين جاءت بعد سلسلة معارك دامية. فالوصول إلى أسوار مراكش لم يكن بسهولة بل كلف الموحدين اختراق كل الخطوط الدفاعية التي أقامها المرابطين وحصنوها بالقلاع، على أي حال صمم ابن تومرت على القضاء على المرابطين لإسقاط عاصمتهم مراكش، فأخذ يستدعي القبائل إلى تينملل ليحشدهم ويوجههم إلى ذلك الهدف المنشود.

وتوافدت القبائل على ابن تومرت وقد استعدت للقتال وتجمع منهم نحو أربعين ألفاً منهم الفرسان والغالب رجالة، وقدم عليهم الونشريسي ووجههم نحو مراكش فبدءوا بالزحف نحوها عام٥٢١هـ/١١٢٧م وقبل وصولهم إلى أسوار مراكش خاضوا معارك عديدة مع المرابطين كانت جميعها لصالحهم.

وضرب الموحدون الحصار حول مدينة مراكش مدة أربعين يوماً على أرجح الروايات [١]، وطوال فترة الحصار كانت تدور رحى معارك ضارية بين المرابطين المدافعين عن عاصمتهم والموحدين الذين كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية لكثرة انتصاراتهم على المرابطين.

ومن المعارك الحاسمة التي دارت خلال فترة الحصار الموقعة التي خرج فيها أمير المسلمين علي بن يوسف لفك الحصار عن عاصمته ولكنه لم يوفق وتشتت شمل جيشه، وفرت مجموعة من جنده عندما لم تسعها أبواب مراكش لشدة مطاردة الموحدين لها حتى وصلوا وادي أم الربيع. لقد أخذت الغيرة القائد عبد الله بن همشك الذي كان مع أصحابه الأندلسيين المائة محصوراً داخل المدينة، فخاطب أمير المسلمين قائلاً: (ما نعير إلا بالمقام تحت الحصار). فأوضح إليه أمير المسلمين أن قتال المصامدة ليس مثل قتال النصارى، فأكد إليه ابن همشك بأنه يعرفهم

---

(١) **انظر**: دولة المرابطين (ص ١١٨).

لوجود نخبة منهم في الأندلس، وبين لأمير المسلمين أنه ما زال يملك العدد الكافي من الجند وخاصة الرماة، وان البقاء على هذا الحال لا يكون إلا مع قلة العدد ، ثم عرض رغبته عليه بأن يعطيه ثلاثمائة فارس ليخرج بهم فسمح له ، وقبل خوضه للمعركة أراد أن يعدل أسلحة جنده ، لتتلائم مع طبيعة المعركة المقبلة، فرأى أن يقصروا رماحهم، ثم برز للموحدين فما انتصف النهار حتى دخل بثلاثمائة رأس من رءوس المصامدة فارتفعت معنويات الجند وصمموا على تخليص مدينتهم من الحصار [١] وأرسل أمير المسلمين علي بن يوسف رسائله إلى سائر ولاته وقواده طالباً المدد والعون، فجاءت إليه النجدات من كل صوب، وكان أعظمها المدد القادم من سجلماسة بقيادة واليها وانودين بن سير، وخرج علي بن يوسف من المدينة وانضمت إليه النجدات، وقدم أبو محمد بن سير قائداً عاماً للقوات المرابطية، وقيل قدم الزبير بن علي بن يوسف [٢] .

وقبل بدء القتال دارت أحاديث كان الغرض الأساسي منها تحطيم نفسية الخصم قبل مقارعته بالسنان. فبادر الموحدون بإرسال رسالة إلى المرابطين يطلبون منهم الاعتراف بمهدية ابن تومرت والانصياع إليه، فرد أمير المسلمين عليهم محذراً إياهم من عاقبة مفارقة الجماعة، وهكذا لم يستجب أي طرف لآخر.

وأخذ الونشريسي القائد العام للقوات الموحدية وعبد المؤمن إمام الصلاة لهم بتنظيم القوات الموحدية لخوض المعركة الفاصلة ، وما هي إلا مدة وجيزة حتى اشتبك الطرفان في معركة مروعة استمرت من الصباح حتى الغروب قتل فيها في بداية النهار الونشريسي، فخلفه عبد المؤمن في قيادة الجيش. ولما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوتهم أسندوا ظهورهم إلى بستان هناك، والبستان عندهم يسمى

---

(١) انظر : دولة المرابطين (ص ١١٩) .

(٢) انظر : عصر المرابطين والموحدين ، لعنان (ص ١٨٨) .

البحيرة [١] وما أن جن الليل حتى قتل معظم المصامدة وفر عبد المؤمن بنفر يسير لا يتجاوز الأربعمائة ما بين فارس وراجل، وبعد انتهاء المعركة بحث الموحدون عن جثة الونشريسي بين جثث القتلى فلم يعثروا عليها لأن عبد المؤمن كان قد واراها فوراً فأشاعوا فيما بينهم أنه رفع إلى السماء [٢] .

وتابع عبد المؤمن مع من نجا من القتال سيره نحو تينمل. وعندما وصل إلى هيلانة [٣] استعاد أنفاسه وحشد جنوده وأعاد الكرة على مراكش فهزم أيضاً وقتل من أتباعه نحواً من اثني عشر ألفاً فعاد أدراجه مع خمسين رجلاً من أتباعه إلى تينملل وكان البيذق قد سبق عبد المؤمن إلى ابن تومرت وأخبره بخبر الفاجعة التي حلت بهم في البحيرة، فسأله ابن تومرت عن عبد المؤمن، فقال: هو حي، فرد معزياً الأمر باق، وأوصاهم بعدم الجزع.

واستثمر المرابطون فوزهم في البحيرة وأسرعوا بإرسال أربعة جيوش بقيادة أربعة من مشاهير قوادهم وهم: سير بن ورابيل، ومسعود بن وزتيغ، ويحيى بن سير ويحيى بن كانجان إلى تينملل للقضاء على الموحدين في معقلهم الحصين. وتقابل الطرفان بموقع يقال له أبكر متاع بني كوربيت، إلا أنه لم يحدث قتال بينهما . ويعلل البيذق [٤] ذلك بأن المرابطين قد حلت في قلوبهم الرهبة من جموع الموحدين التي تدفقت عليهم النجدات من هنتانة وكنفيسة ومزالة فرجعوا إلى مراكش.

وعلى الرغم من ذلك فقد ترددت أصداء هزيمة البحيرة بين قبائل الموحدين فزلزلت ثقتهم بابن تومرت، فالمهدي مؤيد من السماء فكيف يهزم من كان خليفه الله . . . وترتب على هذا التساؤل إعادة المهدي وعلى الرغم من كل

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٦/٥٦٥) . (٢) ابن خلكان (٥/٥٣)
(٣) اسم قبيلة بربرية كانت تسكن بالقرب من مراكش .
(٤) أخبار المهدي بن تومرت (ص ٣٩ - ٤١) .

الجهود التي بذلها ابن تومرت لإقناعهم بأن قتلاهم في الجنة، فقد بقيت رواسب الشك في مهديته تساور نفوسهم. عندها لجأ ابن تومرت إلى أسلوب المكر والخداع حتى يعيد الثقة بدعوته وقيادته ومهديته. فاتفق مع مجموعة من أتباعه على أن يدفنهم أحياء وجعل لكل واحد منهم متنفساً في قبره وأوصاهم بأن يقولوا إذا سئلوا: «قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً من مضاعفات الثواب على لمتونة وعلو الدرجات التي نلنا بالشهادة فجدوا في قتال عدوكم فإن ما دعاكم إليه الإمام المهدي صاحبكم حق»، ووعدهم إذا نفذوا ذلك بأن يخرجهم ويجعل لهم منزلة رفيعة . ولما ذهب أكثر الليل اجتمع بأشياخ الموحدين وأوضح لهم بأنهم حزب الله وأنصار دينه وطالبهم بالجد في قتال أعدائهم ، وطلب منهم إن كانوا في شك مما يقول أن يذهبوا سوياً إلى قبور قتلاهم في معاركهم مع المرابطين ليحدثوهم بما لقوا من خير ونعيم، وذهب معهم إلى مكان إحدى المعارك التي نشبت مع المرابطين وسقط فيها عدد كبير من الموحدين، والتي يوجد فيها ذلك النفر الذين دفنهم أحياء ولقنهم ما يقولون . ولما وصل رفع صوته في المقبرة قائلاً: يا معشر الشهداء خبرونا ما لقيتم من الله عز وجل. فقالوا: وجدنا ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر إضافة إلى ما لقنهم إياه ابن تومرت، عندها ذهل الناس وعادت ثقتهم بالمهدي، وبدلاً من أن يخرج المدفونين قام بإغلاق المنافس التي كان قد تركها لهم فماتوا من فورهم؛لأنه خشي أن يخرجوا فيذيعون سره فيفتضح أمره فتكون كارثة عليه [١] .

ورأى ابن تومرت في قرارة نفسه أن الهزائم التي منيت بها قواته ما هي إلا نذير شؤم للإطاحة بكل مخططاته التي كرّس حياته من أجلها ليقيم دولته المنشودة، فتفاعلت هذه الأحداث في نفسه لتوريثه المرض الذي أودى بحياته

---

(١) انظر : دولة المرابطين (ص ١٢٢) .

بعد فترة وجيزة.

وتكاد تجمع معظم المصادرعلى أن وفاته كانت عام٥٢٤هـ، ١١٣٠م [(١)] وتذكر المصادرالموحدية أنه لما شعر بدنو أجله استدعى أصحابه المسمين بالجماعة، وأهل الخمسين، فلما حضروا أخذ يعظهم واعداً إياهم بالنصر على المرابطين، ومحذراً إياهم من الفرقة والتناحر، وأمر عليهم عبد المؤمن، وطلب منهم السمع والطاعة له ما دام مطيعاً لربه [(٢)].

وبهذه المواعظ ودع ابن تومرت أصحابه معلماً إياهم بأنه راحل إلى ربه في هذه السنة. ولما اشتد عليه مرضه قدم عبد المؤمن بن علي للصلاة وأمره بإخفاء وفاته حتى تجتمع كلمة الموحدين على أمير، وأن يتكفل بغسله ودفنه بجامع تينملل.

وعندما توفي ابن تومرت كفنه عبد المؤمن بن علي وصلى عليه، ودفنه سراً بمسجده كما أوصاه، وقد كتم أصحابه وفاته مدة ثلاثة أعوام ولم يعلنوها إلا في عام ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي [(٣)].

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول بسبب ما حاق بأتباعه من هزيمة نكراء في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح في ترسيخ دعوته في قلوب أتباعه حتى صدقوه وآمنوا بمهديته، وأطاعوه ولو في قتل أبناءهم، وهذا ما حصل فعلاً في عملية التمييز التي تقشعر لهولها الأبدان حيث قتلت كل قبيلة بعض فلذات أكبادها دون تردد أو حيرة.

لقد كان ابن تومرت شخصية فريدة في التاريخ لما امتاز به من صفات المكر والدهاء واستغلاله كل الفرص، واستخدامه كل الأساليب من أجل تحقيق حلمه بإقامة دولة يكون هو زعيماً ومرشداً روحياً لها، وليدفع بقبيلته مصمودة إلى مركز الصدارة بعد أن سلبتها لمتونة ذلك الشرف.

---

(١)، (٢) انظر: دولة المرابطين (ص ١٢٢).

(٣) انظر: المغرب الكبير (٢/ ٧٨١).

واجتمعت في شخصية ابن تومرت صفات قلما تجتمع في شخصية قيادية في ذلك الوقت. فقد كان على قسط وافر من العلم ، وقد ساعده ذلك على الاستفادة من كل الأفكار المطروحة في العالم الإسلامي لينتقي منها ما يلائم دعوته الجديدة ويساعد على تقوية مركزه بين أتباعه. كما مكنه تكوينه العلمي من أن يرد على أي انتقاد أو اتهام يوجه ضده من قبل الخصوم ، فيساعد في ذلك فصاحة لسان وسحر بيان وضعف حجج الخصوم، لقد استطاع أن يجمع القلوب حوله وأملى عليها ما يريد فانقادت له مبهورة.

لقد ساعد ابن تومرت في تحقيق أهدافه سذاجة المجتمع وجهله وما عشعشت في ذهنه من الأساطير وانحرافات حتى عاد غريباً عن منهل الإسلام الصافي، فعلى الرغم من الجهود الكبيرة للمرابطين لإفهام هؤلاء أمور دينهم فقد بقي قطاع كبير منهم متمسكاً بعلائق الجاهلية مما أوقعه فريسة سهلة لمخططات ابن تومرت فأملى عليهم تعاليمه البعيدة كل البعد عن منهج السُنَّة والجماعة فتقبلوها دون نقد أو تمحيص، وقدموا أرواحهم دفاعاً عنها بعد أن أوهمهم أنه المهدي المنظر الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً.

ومن افتراءات ابن تومرت أنه ادعى أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وأن من لم يؤمن بمهديته فهو كافر وألف عقيدة أوجب حفظها على أتباعه[١]، وأحدث في أذان الصبح (أصبح ولله الحمد)، وتطاول وادعى أنه يعلم الغيب[٢].

إن دعوة تقوم على الخداع والزيف وتذكيها العصبية القبلية لا يمكن أن تستمر فترة طويلة دون اكتشاف حقيقتها؛ لقد وصفه بحق لفيف من المؤرخين بأنه منتحل ومبتدع، وانبرى له شيخ الأسلام ابن تيمية لهدم عقيدته بمعاول الحق

---

(١) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١٢٤) .

(٢) **انظر** : عصر المرابطين والموحدين لعنان (ص ٢١٦)

والحجج والبراهين وقد بينت ذلك [١].

وأكبر دليل على فساد عقيدته وزيف مهديته أنه ما كاد يمضي على وفاته قرن من الزمان حتى خرج أحد خلفائه الملقب بالمأمون على الملأ معلناً في مدينة مراكش من فوق منبر مسجدها بطلان عقيدة المهدي ابن تومرت لارتكازها على الزيف والخداع، كما أسقطه من السكه ومن الخطبة، وقال: لا ندعوه بالمهدي، وكتب بذلك إلى الآفاق [٢] وبناء على هذا الإعلان حذف اسم «المهدي» من السكة الموحدية واستعيض عنه بـ «القرآن حجة الله» في المركز، وفي الهامش نقش اسم «خليفة الموحدين المأمون» [٣] إن عقيدة أهل السُنَّة والجماعة الضاربة في أعماق أهالي الشمال الإفريقي حطمت كل الأفكار الخارجية والرافضية والاعتزالية والتومرتية بصلابتها وقوتها ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاس فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد:١٧].

إن حركة ابن تومرت حركة تدميرية عملت على هدم أركان دولة المرابطين، تلك الدولة التي قامت على تعاليم الإسلام النقية، واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس هدفاً أسمى لوجودها، فما أفزعهم من مقر حكمهم في مراكش إلى الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق الفونسو السادس وبذلك أخروا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون.

ولكن ما إن بدأت ثورة المهدي ابن تومرت حتى أخذت تشغلهم بعض الشئ عن واجبهم المقدس في الأندلس، فأخذ أمير المسلمين يستصرخ قواده العظام من الأندلس أمثال تاشفين بن علي لمقارعة الموحدين، وأدى ذلك إلى ازدياد ضغط النصارى على المسلمين في الأندلس، وبدءوا يلتهمون المدن الأندلسية الواحدة

---

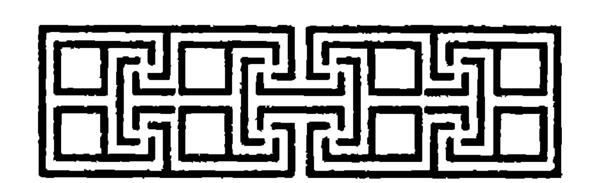
(١) انظر: الفتاوى (١١/٤٩٢).

(٢) انظر: دولة المرابطين (١٢٥).

(٣) مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا والأندلس (ص ١٩١) رسالة ماجستير.

بعد الأخرى، في هذا الوقت استطاع ابن تومرت بواسطة المؤمنين بمهديته أن يطيحوا بدولة المرابطين، فأثلج ذلك قلوب النصارى الذين أدركوا أن الخلاص من الوجود الإسلامي في الأندلس أضحى وشيكاً (١).

إن رجال الإصلاح في تاريخنا الإسلامي هم الذين ساروا على منهج أهل السُنَّة والجماعة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، أما الذين كذبوا وسفكوا الدماء وهتكوا الأعراض، وكفروا المسلمين الأولى بنا أن نطلق عليهم رجال التدمير والإفساد، وإنها لمغالطة تاريخية خيانة للأمانة العلمية عندما نضفي على المفسدين ثوب الإصلاح ونجعلهم من زعماء الأمة ومن قادتها العظام. إن حركات الإصلاح في التاريخ الإسلامي هي التي التزمت بكتاب ربها وسُنَّة نبيها واستوعبت فقه التمكين وأخذت بأسبابه ، وحرصت على تنفيذ شروطه جديرة بالدراسة الواعية من أجل إخراج فقهاً للعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، وإنها لكفيلة بربط الحاضر بالماضي وجديرة بإثراء واقعنا بفقه بناء الدول وأسباب النهوض وعوامل السقوط وكيفية الأخذ بأسباب النجاح واتقاء المزالق.



(١) **انظر** : دولة المرابطين (١٢٦) ، لقد استفدت من كتاب تجربة الإصلاح في حركة المهدي ابن تومرت للأستاذ / عبد المجيد النجار ، ودولة المرابطين للأستاذ سلامة محمد سلمان الهرفي في مبحث المنهج التربوي والسياسي والعسكري عند ابن تومرت وغيرهما من المراجع وهذا للأمانة العلمية .

الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وأبناؤه وأحفاده

المبحث الأول

عبد المؤمن بن علي

أولاً: اسمه ونسبه :

عبد المؤمن بن علي بن علوي، سلطان المغرب الذي يلقب بأمير المؤمنين، الكومي، القيسي، المغربي. ولد بأعمال تلمسان. وكان أبوه يصنع الفخار [١] .

قيل: إنه قال: أعني عبد المؤمن: إنما نحن من قيس بن غيلان بن مضر بن نزار، والكومية علينا حق الولادة ، والمنشأ فيهم، وهم أخوالي [٢] .

وكان الخطباء إذا دعوا له بعد ابن تومرت، قالوا: قسيمه في النسب الكريم، وكان مولده سبع وثمانين وأربعمائة [٣] وصفه الذهبي فقال: (وكان أبيض جميلاً، ذا جسم عمم [٤] ، تعلوه حمرة ، أسود الشعر، معتدل القامة، جهوري الصوت، فصيحاً جزل المنطق، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة، وكان في كبره شيخاً وقوراً، أبيض الشعر، كث اللحية، واضح بياض الأسنان، وكان عظيم الهامة، طويل القعدة، شثن الكف، أشهل العين.

[أ] لقاؤه بمحمد بن تومرت :

عندما رجع ابن تومرت إلى إفريقية هو ورفيقه الشيخ عمر الهنتاني صادف عبد المؤمن، فحدثه وانسه، وقال: إلى أين تسافر؟ قال: اطلب العلم. قال: قد

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٦) .

(٢) نفس المصدر (٢٠/ ٣٦٦) .

(٣) نفس المصدر (٢٠/ ٣٦٧) .

(٤) عظمُ الخلق في الناس وغيرهم .

وجدت طلبتك. ففقهه، وصحبه،وأحبه وأفضى إليه بأسراره لما رأى فيه من سمات النبل [١] وكان ابن تومرت يمدحه بهذه الأبيات:

تكاملت فيك أوصاف خُصِصت بها فكلنا بك مسرور ومغتبطُ
السن ضاحكة والكف مانحة والنفس واسعة والوجه منبسط [٢]

وكان ابن تومرت يقول لأصحابه: صاحبكم هذا غلاب الدول، لقد كان ابن تومرت يعمل على أن يكون عبد المؤمن صورة حقيقية له ولذلك أعده الإعداد اللازم للقيادة والزعامة والرياسة، وعلمه ودربه وأمر أتباعه بإطاعة عبد المؤمن في كل ما يقول وأن يقتدوا به في كل ما يفعله، وكان عبد المؤمن له من الاستعداد الفطري بحيث يستطيع أن يتقن كل ما يقال له من تعليم وتدريب، فعرف كيف ينهض وينظم الدولة ويسير بها خطوات ناجحة لكي تتبوأ دولة الموحدين الزعامة والسياسة في عالم المغرب والأندلس [٣] .

[ب] بيعته :

بايع أصحاب ابن تومرت المقربون عبد المؤمن بن علي في شهر رمضان ٥٢٤هـ وقد أطلق المؤرخون على هذه البيعة ، البيعة الخاصة ؛ لأن موت ابن تومرت ظل في طي الخفاء أكثر من سنتين ثم بايع الموحدون عبد المؤمن البيعة العامة قيل في ٢٠ ربيع الأول سنة ٥٢٦هـ وقيل ٥٢٧هـ وذلك بجامع تينملل. وقد اختار الموحدون عبد المؤمن لزعامتهم؛ لما عرفوه من اختصاص ابن تومرت له وتقريبه إليه وإطرائه لصفاته وتقديمه إياه في الصلاة، وإلى ما لمسوه من فضله وعلمه ودينه وقوة عزيمته وحسن سياسة ورجاحة عقله وشجاعته [٤] .

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٧ ، ٣٦٨) .
(٢) انظر : النجوم الزاهرة (٥/ ٣٦٣) .
(٣) انظر : موسوعة المغرب العربي للغنيمي (٣/ ٢٠٣ ، ٢٠٤) .
(٤) انظر : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم (٤/ ٢٠٨) .

وقد ذكر الذهبي خطبة ابن تومرت قبل وفاته أشار فيها إلى توليه عبد المؤمن من بعده: (استدعي ابن تومرت قبل موته الرجال المسمّين بالجماعة وأهل الخمسين والثلاثة عمر أرتاج، وعمر إينتي، وعبد الله بن سليمان، فحمد الله ـ سبحانه، وله الحمد ـ من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم بحقيقة توحيده، وقيض لكم من الأبطال، فهداكم الله به ونصركم، وجمعكم بعد الفرقة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبت أيديهم، فجددوا لله خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً مما يزكي به سعيكم واحذروا الفرقة وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا في طاعتكم، وإن لم تفعلوا شملكم الذل، واحتقركم العامة وعليكم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه بعد أن بلوناه، فرأيناه ثبتاً في دينه، متبصراً في أمره، وهو هذا ـ وأشار إلى عبد المؤمن ـ فاسمعوا له ما أطاع ربه فإن بدل ففي الموحدين بركة وخير، والأمر أمر الله يقلده من يشاء. فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت) [١].

وقال ابن خلكان: [٢] ما استخلفه بل أشار إليه، وما قاله الذهبي نقله عن عبد الواحد المراكشي [٣].

كما أن هناك سبباً آخر جعل زعماء الموحدين يبايعون عبد المؤمن ألا وهو أن عبد المؤمن، كومي وليس من المصامدة وهذا يجعل حداً لتطلع زعماء القبائل إلى هذه الخلافة، وبالتالي ستقضي على الخلافات التي كان وقوعها محتملاً بين قبائل المصامدة في سبيل الزعامة.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٦٩)

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٣/ ٢٣٩)

(٣) انظر: المعجب (ص ٢٨٥، ٢٨٧)

وما أن أعلنت طبقة الجماعة، وفاة ابن تومرت وبيعتها لعبد المؤمن بن علي حتى قامت بقية الطبقات له بالبيعة ولم يكن له من خلافة الموحدين إلا الاسم، أما الإدارة الفعلية والإشراف الكامل، فقد كانت للطبقات المختلفة حسب اختصاص كل منها ولذلك لم يستطع بادىء الأمر، أن يستبد بأمر من الأمور ولا أن يبت في حكم من الأحكام إلا بموافقة ذوي الشأن وكان الموحدون الأولون يدركون ذلك ويحرصون عليه ، فهم لم يتركوا لعبد المؤمن العنان لأن يستبد بهم، ولا أتاحوا له الفرصة لأن ينفرد في قرارات الحكم بل نجدهم يناقشون وينتقدون أعمال عبد المؤمن ويتجرءون عليه وقد وصل الحال ببعضهم أن قتل أخا عبد المؤمن، لما جاء لزيارة أخيه الخليفة وجلس في المكان المخصص له. فما كان منه إلا غضب لنفسه واعتبر ذلك إهانة له، فثار بأخي عبد المؤمن الخليفة وقتله. ولما غضب عبد المؤمن وأراد الاقتصاص من قاتل أخيه، وقف الموحدون في وجهه ومنعوه من ذلك (١).

ويروي البيذق هذا الحادث ضمن أخبار سنة ست وثلاثين وخمسمائة (٥٣٦هـ) فيقول: «وفيها جاء إبراهيم إلى الخليفة أمير المؤمنين بالتوحيد وأعطاه الخليفة الخيل والعبيد والخباء. وأنزله في موضع محمد بن بكر بن بيكيت. فتغابر إبراهيم أخو له أبو حفص وأبو الحسن يوكوت بن واكاك وقالا له: ألم يقل المهدي : بأن الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا. فصمت ذلك الخليفة..» (٢).

لقد أسرها عبد المؤمن في نفسه وشرع في أخذ الخطوات التي آلت للقضاء على نظام الطبقات الذي وضعه ابن تومرت ووضع نظاماً جديداً يكرس الولاء لشخصه وأسرته وسنرى ذلك بإذن الله ، ويبدو أن عبد المؤمن لا يعتقد اعتقاداً

(١) انظر : سقوط الموحدين (ص ٥١ ، ٥٢).
(٢) أخبار المهدي للبيذق (ص ٩٣).

راسخاً في عصمة ابن تومرت ومهديته وإلا فكيف يتجرأ على نسف ما وضعه ابن تومرت بعد أن مهد لذلك وجعل الزمن جزءاً من هدفه. لقد كان الظلم في تعاليم ابن تومرت واضحاً فهذا خليفة الموحدين يقتل أخاه ويمنع الأخذ بالقصاص من القاتل بحجة أن القاتل من أهل الجماعة، و كل من في الأرض عبيد لهم، لا شك أن ذلك الحدث أثر في عبد المؤمن بن علي .

ثانياً: قتال عبد المؤمن للمرابطين وتوحيد المغرب :

في ظروف حالكة منذرة بالفتنة تولى عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين وكانت مهمته عسيرة وصعبة، فقد كان عليه أن يعيد الثقة إلى نفوس الموحدين وأن يعيد تنظيم صفوفهم تمهيداً للمعركة المقبلة، ولهذا السبب شغل طوال الشهور الأولى من خلافته في رأب الصدع، وتأليف القلوب وتعبئتها لمدافعة المرابطين، فلما تم له ذلك اعتزم مواصلة الجهاد ضد المرابطين، فكانت أولى غزواته كخليفة على حد ما رواه ابن أبي زرع موجهة إلى مدينة مراكش فقد هاجمها أياماً ثم ارتحل عنها [١] ، غير أن ابن القطان [٢] وابن خلدون يتفقان على أن أول غزواته هي غزوته لتادلة في وادي درعة، وفيها خرج عبد المؤمن من تينملل في شهر ربيع الأول سنة٥٢٦هـ في جيش ضخم قوامه ثلاثون ألف مقاتل، فسار أولاً نحو حصن تازاجورت وكانت تدافع عنه حامية مرابطية بدر بن ولكوط وقيل يحيى بن مريم الزرجاني [٣] ، فتمكن عبد المؤمن من اقتحام الحصن وقتل واليه وقتل معه نحو عشرين ألفاً من المرابطين، وهو رقم مبالغ فيه فليس من المعقول أن يضم أحد الحصون المرابطية عدداً من المدافعين يتجاوز العشرين ألف مقاتل، وهذا الرقم من الصعب تصديقه إذا أخذنا بالاعتبار كثرة عدد القلاع والحصون المرابطية في المغرب فضلاً عن انشغالهم بالجهاد ضد النصارى في الأندلس.

---

(١) ،(٢) ،(٣) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس ، د . مهدي عبد المنعم(ص ١١١) .

رحل عبد المؤمن عن تازاجورت بعد أن سبى ميمونة بنت ينتان بن عمر أرملة والي الحصن المذكور وصحبها معه إلى تينملل، حيث ظلت أسيرة لديه حتى افتديت فيما بعد، بمن كان في تلمسان من أسرى الموحدين، ثم سار عبد المؤمن إلى درعة واستولى عليه، كما استولى في نفس العام ٥٢٦هـ على حصن هزرجة، فقد اقتحمه وأحرقه وقتل معظم حاميته، ومنها سار إلى بلدة جثجال وأضرم فيها النيران وقتل أهلها، ثم سار إلى بلدة أخلاحال ، وكان أهلها قد قتلوا أحد أصحاب ابن تومرت وامرأته في يوم العيد، فجمع عبد المؤمن أهلها وقتل منهم ما يزيد على ثلاثمائة رجل ، وفي نفس العام استولى الموحدون على حصن جلاوة افتتحه الشيخ أبو حفص عمرو بن يحيي الهنتاتي أحد أصحاب ابن تومرت العشرة ومعه بعض وجوه الموحدين ، وكان أهل الحصن قد جرحوا ابن تومرت في إحدى غزواته، فدخله الموحدون عنوة وقتلوا كل من فيه، وفي هذا العام أيضاً افتتح الموحدون حصن تاسيغيموث أمنع حصون المرابطين ، وكان قد تولى بناءه ميمون بن ياسين، كما كانت تقوم على حراسته حامية ، من هزرجة قوامها مائتي وجمسمائة راجل ، فلما يئس الموحدون من فتحه لمناعته لجأوا إلى الحيلة فداخلوا بعض أفراده من حامية الحصن وتواطئوا معهم على فتحه ، فاقتحموه ليلاً ، وقتلوا أبا بكر بن واصول اللمطي واليه المرابطي ومن معه من المرابطين، ونقلوا أبواب الحصن الحديدية إلى تينملل حيث ركبت على باب الفخارين [١] .

ثم عاد عبد المؤمن إلى تينملل، وكانت قد وقعت خلال غيبته حادثة خطيرة، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الطموح إلى الرئاسة كان ما يزال يضطرم في نفوس بعض منافسي عبد المؤمن وأن الرغبة في القيادة والتطلع إلى الزعامة كانت لا تزال في نفوس أقرب المقربين إلى عبد المؤمن وأعنى بهم أصحاب

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٣ ، ١١٤) .

ابن تومرت العشرة وتتلخص هذه الحادثة في إقدام عبد الله بن ملوية أحد أصحاب ابن تومرت العشرة، على شق عصا الطاعة على عبد المؤمن بن علي أثناء غيابه تينملل غازياً، وإعلانه الطاعة لأمير المسلمين علي بن يوسف الذي لم يتردد في إعلان رضاه عن عبد الله بن ملوية ، ووضع تحت تصرفه قوة عسكرية مرابطية لمهاجمة تينملل، فسار ابن ملوية بتلك القوة إلى موضع يسمى تامد غوست قاعدة قبيلة جنفيسة بهدف استمالتها إلى جانبه ثم يزحف بقواته المجتمعة إلى تينملل، غير أن عبد الله بن وسيدرن أحد زعماء جنفيسة المقيمين في تينملل جمع شيوخ جنفيسة وأعلنوا تمسكهم بالعهد الذي قطعوه لابن تومرت، ونعوا إلى ابن عبد المؤمن تلك الخيانة وفي الحال قام أبو سعيد يخلف بن الحسن آتيكي أحد أهل خمسين ومعه غلامه، وسارا إلى محلة ابن ملوية وقتلاه، وحملا جثته إلى تينملل حيث صلبت، ولما عاد عبد المؤمن وعلم بما حدث شكر لجنفيسة إخلاصها وقسم الغنائم عليها [١] .

ويبدو أن عبد الله بن ملوية لم يكن متطلعاً للزعامة وإنما أراد الرجوع إلى الحق والتوبة وخصوصاً وهو أحد العشرة الذين يعرفون الكثير من الكذب وباطل وظلم وجور ابن تومرت بدون مسوغ شرعي ، ولذلك أعلن طاعته لأمير المسلمين علي ابن يوسف .

وفي عام٥٢٦هـحدث أمر عظيم يحمل في طياته مغزى عظيماً ومبشراً بقرب أفول عهد المرابطين، فقد انضم القائد المرابطي المشهور الفلاكي[٢]ومعه طائفة من جنده إلى الموحدين، وكان الفلاكي من أهل إشبيلية وكان في بداية أمره شقيا وقاطع طريق، ثم تاب فعفا عنه والي إشبيلية، وقدمه على الرماة والرجالة، ثم انتقل إلى خدمة أمير المسلمين علي بن يوسف، الذي قدمه على فرقة من جند

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب في الأندلس (ص ١١٤)

(٢) **انظر** : دولة المرابطين (ص ١٢٧)

المرابطين ووجهه إلى السوس لمدافعة الموحدين، فجد في محاربتهم وأظهر بطولة وشجاعة نادرتين، ثم لم تلبث العلاقات بينه وبين أمير المسلمين أن ساءت فانضم إلى الموحدين، وأخذ يهاجم الحصون المرابطية الواقعة في منطقة السوس، ويفعل بها مثلما كان يفعل في الحصون الموحدين من قبل،وظل في خدمة الموحدين إلى أن ارتد بعد ذلك عن الطاعة وعاد إلى طاعة المرابطين وفي عام ٥٢٨هـقتل قائد المرابطين إبراهيم بن يوسف بن تاشفين واستطاع الموحدون فتح مدينة تارودنت أعظم معاقل المرابطين في بلاد السوس.

وفي عام ٥٢٩هـسار عبد المؤمن لغزو بني بيغز وظل عبد المؤمن يحاصرهم نحو أربعين يوماً، فلما يئس من إخضاعهم رفع الحصار وعاد إلى تينملل واستمرالصراع من عام ٥٣١هـ، ٥٣٢هـوفي هذا العام ٥٣٢هـتحرك عبد المؤمن من تينملل إلى جبل غياثة، فعسكر بجرائده على مقربة من المقرمدة عند وادي أبي حلوا، كما انضمت إليه قوة عسكرية يتولى قيادتها عبد الله بن يحيي بن أبي بكر بن تيفلويت، فعسكر بالقرب من محلة سير، وفي نفس الوقت حشدت زناتة الموالية للمرابطين خمسة آلاف فارس يتقدمهم يحيي بن فانو غير أن زيري بن ماخوخ أحد شيوخ زناتة لم يلبث أن أعلن انضمامه إلى الموحدين، وراسل عبد المؤمن بن علي وطلب منه عسكراً لمهاجمة عسكر المغرب الذي يقوده عبد الله بن يحيي بن أبي بكر، فأمده بقوة موحدية، أغاربها علي محلات عسكر المغرب، والحق بهم خسائر فادحة. وفي نفس الوقت توفي القائد يحيي بن فانو قائد العسكر الزناتي الموالي للموابطين، فأسند الأمير سير القيادة إلى القوة الزناتية لمحمد بن يحيي ابن القائد المتوفي، الذي واصل سيره بقوات أبيه حتى نزل على مقربة من وجدة. وكانت الأنباء قد وصلت إلى سير ابن علي بأن عبد المؤمن يريد بلاد غمارة، فوضع له سير ألفي فارس في طريقه ليمنعه من تحقيق هدفه، واستمرت هذه القوات المرابطية ما يقرب من الشهرين تتناوب حراسة الطريق

ومراقبة تحركات عبد المؤمن، وفي أثناء ذلك راسل زيري بن ماخوخ ذويه من زناتة واتفق معهم على أن يخذلوا المرابطين في المعركة المقبلة بين المرابطين والموحدين فأرسل عبد المؤمن سرية من جنده مع زيري بن ماخوخ ، خرجت من جبل غياثة إلى محلة زناتة، وهاجمتها، ونشبت بين الفريقين معركة انهزمت فيها زناتة [١] .

وفي عام (٥٣٣هـ) تحرك عبد المؤمن بن علي من تينملل، ونزل في بلد ملول من منانة في أراضي حاحة، فزحف إليه الأمير تاشفين بن علي بن يوسف ولي عهد المرابطين من مراكش ومعه الروبرتير قائد فرقة الجند للمرابطين ، ونزل تاشفين بقواته في تاحكوط في حاحة، كان علي بن يوسف قد قتل عدداً من أعيان قبيلة منانة، وكان ذلك سبباً في دخولها في طاعة الموحدين ولكنها ارتدت عن الطاعة ثلاث مرات، فأقام عبد المؤمن في بني ملول شهراً وثلاثة أيام، وهو يشن عليهم الغارات، ثم تركهم وسار بعد ذلك إلى قبيلة بني وجدرزران ثم بني سوار من منانة الجبل، وكان أبو بكر بن علي بن يوسف قد قتل أشياخهم وأعيانهم لدخولهم في طاعة الموحدين ثم سار عبد المؤمن إلى أجر فرجان، فتبعه تاشفين ابن علي في قواته وسد عليه الطريق، فنشبت في أجر فرجان معركة عنيفة بين الفريقين، هزم فيها تاشفين ، وتكررت هزيمته ثلاث مرات إلى أن فر بنفسه إلى جهة الميزتانوت،فاستولى الموحدون على أسلابه من السلاح والثياب والدواب والعبيد وفي هذه اللحظات وصلت قوة مرابطية من مراكش مدداً لتاشفين ولكنها وصلت بعد فوات الأوان أي بعد هزيمة تاشفين، فطمعت في انتزاع الغنائم من الموحدين، فلما علم عبد المؤمن بذلك لجأ إلى الحيلة فأمر برصد الكمائن في مضايق الجبل وقدم الغنائم بين يديه اجتذاباً للقوة المرابطية التي كانت من قبيلة

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٧) .

جزولة وأمر الكمائن بالاندفاع نحوهم إذا ما سمعوا قرع الطبول. نجحت خطة عبد المؤمن بن علي نجاحاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، فقد هاجمت جزولة ساقة الغنيمة وقتلت بعض حراسها، فلما تواسطوا مواضع الكمائن، دقت الطبول فجأة، فاندفعت الكمائن صوب جزولة فأبادوهم عن آخرهم واستولوا على أسلحتهم ودوابهم وما إن تم لعبد المؤمن ذلك حتى تراجع صوب بلاد جنفيسة.

وفي عام ٥٣٤هـ، خرج الأمير تاشفين بجيش ضخم من لمتونة وزناتة لقتال الموحدين، وانضمت إليه فرقة بقيادة الروبرتير، وتمكن المرابطون من حصارهم في موقع يقال له تيزغور ما يقرب من شهرين، وشددوا عليهم الحصار، وقطعوا عنهم الميرة، حتى اضطر الموحدون إلى أكل حيواناتهم، ثم نشبت بين الفريقين معركة عنيفة رجحت في بدايتها كفة المرابطين، ولكنها انتهت بهزيمتهم وانسحاب تاشفين إلى مراكش حاملاً معه الروبرتير جريحاً.

وفي عام (٥٣٥هـ) (١١٤٠-١١٤١م)، خرج الجيش المرابطي من مراكش بقيادة الروبرتير، فاشتبك مع الموحدين بقيادة الخليفة عبد المؤمن بن علي في مكان يسمى امسيميصي يقع في أرض كدميوه شمال تينملل وقيل: إن اللقاء حدث بجبل خدميره، ولا يذكر البيذق، نشوب معركة بين الجانبين، وإنما يؤكد أن كل فريق عاد إلى بلاده، بينما يؤكد ابن عذاري حدوث قتال بين قوتي المرابطين والموحدين، وأن المعركة انتهت بهزيمة المرابطين وعودة الروبرتير جريحاً إلى مراكش. ثم عاد الروبرتير إلى الخروج بقوات لمتونة، واشتبكت قواته مع قوات عبد المؤمن بموضع يسمى اكظرور، فهزم المرابطون، وارتد الروبرتير جريحاً إلى مراكش ، وعاد عبد المؤمن إلى تينملل [١].

واصل عبد المؤمن بن علي صراعه ضد المرابطين، فخرج في قواته نفس العام

---

(١) انظر : تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٠)

٥٣٥هـ ـ وحاصر حصن تينلين، وكان يدفع عنه واليه المرابطي يركين بن وبدرن، واستمر يحاصر الحصن ثلاثة أيام، اضطر بعدها إلى فك الحصار والاتجاه نحو بلاد السوس، وذلك عندما علم بتحرك قوات المرابطين بقيادة الروبرتير صوب تينلين، ومع ذلك فقد تمكن عبد المؤمن من فتح بعض حصون المرابطين في السوس من بينها ايرمناد، وتاسلولت وتيونوين وايجلي وغيرهم، وفي نفس الوقت هاجم الروبوتير محلة تيغيغايين الموحدية، وسبى نساءها وأخذهن معه إلى مراكش.

أما عبد المؤمن فقد عاد من غزوته في أرض السوس وكان من جملة سباياه فيها «تما كونت» ابنة ينتان ابن عمر أحد وزراء علي بن يوسف، التي رجته أن يعفوا عنها ويطلق سراحها،وذكرته بشفاعة أبيها ينتان بن عمر في ابن تومرت، عندما كان ماراً بمراكش، وحاول الفقهاء تحريض أمير المسلمين على التنكل به، فلم يتردد عبد المؤمن في قبول رجائها وأمر على الفور بإطلاق سراح جميع النساء وأرسلهن إلى مراكش معززات مكرمات ، فأعجب علي بن يوسف بصنيع عبد المؤمن وأمر بدوره بإطلاق سراح سبايا تيغيغايين وأرسلهن آمنات مكرمات إلى تينملل ، رأى عبد المؤمن بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الموحدون على المرابطين أن ينقل مسرح الصراع إلى قلب دولة المرابطين مستهدفاً القضاء عليها وإسقاطها، وشرع في تنفيذ تلك الخطة في بداية ٥٣٥هـ ، ويورد البيذق وكان شاهد عيان لأحداث هذه الفترة وصفاً دقيقاً لحملة عبد المؤمن الكبرى ضد المرابطين فيذكر أنه خرج من تينملل في حشود ضخمة متجهاً نحو الشمال الشرقي، فنزل بموضع يسمى وانزال ثم زحف إلى أشبار وتقع جنوب شرقي مراكش ثم غادرها إلى تاساوات فدمنات بعد أن بلغه خروج تاشفين بن علي في إثره وأنه نزل بأشبار وتابع سيره نحو دمنات مروراً ببلدة يمللو القريبة منها، ثم تابع الموحدون زحفهم نحو «واويزغت» دون أن يشتبكوا مع المرابطين في معركة حاسمة باستثناء موقعة محلية حدثت في تيزي ودارت فها الدائرة على المرابطين.

ثم تقدم الموحدون إلى « داي » فولى حاكمها المرابطي علي بن ساقطر الأدبار وأرغم أهلها على بذل الطاعة للموحدين وواصل الموحدون زحفهم صوب « تازاكات » ولم تلبث هذه البلدة أن سقطت في أيديهم وتبعتها قلعة واوما، ثم آزرو التي تقاعس حاكمها في الدفاع عنها فدخلها الموحدون، واتخذها عبد المؤمن قاعدة لقيادته ، ووجه منها عدداً من الحملات لإخضاع المناطق المجاورة، وفي نفس الوقت أرسل بعض أشياخ الموحدين إلى تينملل يبشرون أهلها بانتصارات عبد المؤمن.

وهكذا دخل أهل فازاز جميعاً في طاعة الموحدين وأقام عبد المؤمن فترة في آزرو حيث تزوج من إحدى نسائها. واصل عبد المؤمن زحفه، فخرج من آزرو حيث اعترضته قوة مرابطية على طريق مكناسة، ففتك بها وأباد معظمها، واستولى على كميات كبيرة من المؤن والعتاد، ثم هاجم قواعد المرابطين في غريس الواقعة جنوبي آزرو، وتمكن من بسط نفوذه على جميع المناطق الواقعة جنوبي آزرو، وعندئذ اتجه نحو سجلماسة،فبادر واليها أبو بكر بن صارة بالدخول في طاعة الموحدين . وفي أوائل عام ٥٣٦هـ قامت سرية موحدية على رأسها عبد الرحمن بن زكو بمهاجمة مدينة صفروي واقتحمتها، وتابع ابن زكو زحفه إلى الشمال الشرقي نحو الفلاج الواقعة شمال شرقي صفروي. وفي هذه الأثناء غادر تاشفين بن علي مدينة فاس إلى جبل العرض فعسكر به، ثم بعث الروبرتير في قوة إلى الفلاج لا ستنقاذها، فخرج إليه الموحدون بقيادة يحيي آغوال، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم يحيي، واحتز رأسه وأرسل بها إلى فاس ثم تقدم الموحدون نحو أرض غياثة الواقعة شرقي فاس، وضربوا محلتهم على سفح جبل عفوا ، بينما عسكر المرابطين في موضع يسمي النواظر يقع على مقربة من جبل عفوا .

ولم يمض وقت قصير حتى حل فصل الشتاء وكان قاسياً تعرضت فيه المنطقة

خلال أسابيع لعواصف عاتية وسيول مدمرة اكتسحت السهول والقرى والوديان وقاسى بسببها العسكران أيما عناء وشدة، إلا أن وقعها على المرابطين كان أشد وأنكى، حيث تساقطت الخيام، وعامت أوتادها لرخاوة الأرض، وغرقت الدور وهلك عدد كبير من عسكر المرابطين بسبب البرد القارس وقلة الأقوات والوقود في كل من المعسكرين وبلغ الحطب عند تاشفين ديناراً للرطل. ومع حلول فصل الربيع استأنف الموحدون زحفهم فكان أول موضع قصده عبد المؤمن هو قلعة الولجة من حصون المنطقة المعروفة باسم لكاي وتقع إلى الشمال من فاس. وفي نفس الوقت تقدم تاشفين بن علي ومعه الروبرتير في إثر الموحدين، فاضطر الموحدون إلى ترك أرض لكاي إلى أرض بني غمارة من بطون صنهاجة، وكانوا قد أظهروا ولاءهم للموحدين ودخلوا في طاعتهم. وعندئذ سار تاشفين والروبرتير إلى أرض بني تاودا ونزلوا بها، وأصبح العسكران كفرسي رهان، كلما تقدم الموحدون فسار وراءهم المرابطون، ثم خرج الروبرتير واشتبك مع الموحدين في معركة عنيفة في موضع يقال له «تازغدرا» أسفرت عن قتل عدد من القوتين، ارتد الروبرتير على إثرها إلى بني تاودا بينما سار الموحدون إلى «تاغزوت» ومنها إلى بني مزكلدة، ثم إلى ايلانة ثم إلى أيجن. وفي أيجن مرض الشيخ أبو حفص عمر علي بن أزناج أحد جماعة العشرة، فلما شعر بدنو أجله وعظ أشياخ الموحدين ونصحهم بالتزام الصبر والتمسك والإخلاص لمبادىء ابن تومرت، وطاعة عبد المؤمن، ثم توفي في مساء نفس اليوم ودفن في موضع يسمى «يجدار نمضى»، ثم واصل الموحدون سيرهم في الريف، مروراً بتامقريت ووادي لو أرض بني سعيد. ومن ورائهم الروبرتير يتعقبهم إلى أن وصل إلى مدينة تطوان، في الوقت الذى وصلت قوات الموحدين إلى قلعة باديس المطلة على البحر المتوسط، ومكنت نفوذها في تلك النواحي، وواصلت من هنالك تقدمها إلى ثغر المزمة ومنها إلى جبل تمسامان، حيث وجه عبد المؤمن قائده عبد الرحمن بن زكو في

قوة من الموحدين لغزو مليلة، فاقتحمها وظفر بغنائم وفيرة ثم رحل الموحدون إلى ندرومه من بلاد كوميه، قبيلة عبد المؤمن ومنها واصلوا تقدمهم شرقا إلى تاجرا مسقط رأس عبد المؤمن ، **وفي هذه البلدة وجه عبد المؤمن ثلاث حملات** :

الأولى : بقيادة عبد الرحمن بن زكو، وجهتها ثغر وهران، تمكنت من اقتحامه والاستيلاء عليه .

والثانية : بقيادة الشيخ أبي إبراهيم إسماعيل، وكانت وجهتها قبائل بني وانوان .

والثالثة : بقيادة يوسف بن واندوين وسارت إلى جبل مديونة من أحواز تلمسان، فخرج إليها المرابطون من تلمسان بقيادة أبي بكر بن الجوهر، ومحمد ابن يحيي بن فانو، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة في وادي الزينون، انهزم فيها المرابطون وقتل القائدان ابن الجوهر وابن فانو، وهكذا واصل الموحدون سلسلة انتصاراتهم، على قوى المرابطين وإن كانت كلفتهم كثيراً طوال حياة أمير المسلمين علي ابن يوسف لمحبة الناس له وعظم هيبته في نفوس المرابطين، ثم جاءت وفاته سنة ٥٣٧هـ بداية لنهاية دولة المرابطين [١] ، وتولى الحكم بعده تاشفين الذي كان متفرغاً في حياة والده لقتال الموحدين، لذلك خف الضغط على الموحدين لانشغال تاشفين عنهم بعض الوقت بشئون الحكم الداخلية وبالمحافظة على هيبة المرابطين في الأندلس ومما زاد الأمر سوءاً أن النورمان أدركوا حرج الدولة المرابطية في ذلك الوقت، وداهموا سبتة بأسطول يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية في عام (٥٣٨هـ) فتصدى لهم الأسطول المرابطي بقيادة عليّ بن ميمون وأنزل بهم هزيمة نكراء.

وفي هذا الوقت أيضاً حدث خلاف بين لمتونة ومسوفة من قبائل المرابطين

---

(١) **انظر** : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين (ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤) .

فانضمت مسوفة إلى الموحدين. وفي عام (٥٣٩هـ/ ١١٤٤م) تمكن عبد المؤمن ابن عليّ من قتل القائد المرابطي الروبرتير ودخل تلمسان وفي ٢٧ رمضان من نفس العام قتل تاشفين ودخل الموحدون وهران، وفي (١٤ ذي القعدة ٥٤٠هـ) دخل الموحدون فاس، وفي (١٨ شوال) تمكنوا من دخول مراكش [١] .

وهكذا نجح الموحدون في إسقاط دولة المرابطين بعد سلسلة طويلة من الصراع المرير استخدم فيه الطرفان مختلف الخطط ضد بعضهما البعض.

ولكن خطط الموحدين كانت أحكم من خطط المرابطين، فقد اعتمد الموحدون أسلوب الحرب الطويلة مستخدمين أسلوب حرب العصابات فقضوا على اقتصاديات دولة المرابطين. كما شجع هذا الوضع الإسبان النصارى على تشديد الضغط على المرابطين لتحويل المعركة لصالحهم وقد صور صاحب الحلل الموشية [٢] ذلك بقوله: (وتأججت نار الفتنة بالمغرب ، وبسبب هذه الفتنة اتصلت الحرب، وغلت الأسعار وتوالت الفتن ، وعم الجدب وقلت المجابي وكثر على أهل الإسلام المحن بالعدوتين ، ووجه كثير من حماة الأندلس إلى العدوة ونقل إليها كثير من أسلحتها وعددها فكان ذلك أعظم فساد حل بالأندلس واحتيل عليهم وألح النصارى بالضرب على جهات بلاد الأندلس ، حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع لما فيه من الفتن حتى تغلبوا على كثير من بلادها، وكان الإسلام بها عزيزاً والكفر مقهوراً والجزية مرفوعة منذ ملكها يوسف بن تاشفين إلى زمان خروج المهدي فساءت الأحوال وكثرت الشدائد والأهوال)[٣] .

وبعد دخول الموحدين مراكش أصبح عبد المؤمن سيد المغرب الأقصى كله، فكان لا بد من توطيد أركان دولته الجديدة في الأندلس والمغرب الأدنى والأوسط.

---

(١) **انظر** : المغرب الكبير (٢ / ٧٨٣ - ٧٨٦)

(٢) مؤلفه مجهول .

(٣) الحلل الموشية (ص ١٢)

ثالثاً: اهتمام الموحدين بالأندلس:

بعد أن احتل عبد المؤمن علي مدينة فاس وحاصر مراكش تلقى من أهل سبتة بيعتهم له، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهنتاتي ولكن أهل سبتة انتفضوا على يوسف بن مخلوف وقتلوه هو ومن معه من الموحدين، وجاز القاضي عياض واليهم السابق إلى يحيي بن علي بن غانية المسوفي والى الأندلس، فلقيه بالجزيرة الخضراء وطلب منه والياً على سبتة، فأرسل معه يحيي بن أبي بكر المعروف بالصحراوي فقام بأمر سبتة وشكل حلفاً مع القبائل الخارجة عن الموحدين من أمثال برغواطة ودلكالة، فاضطر عبد المؤمن إلى قتال هؤلاء الخارجين عليه، فاستطاع أن ينكل فيهم بالقتل والأسر والسبي حتى انقادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مراكش وتقدم الصحراوي بطلب العفو عنه ، فعفا عبد المؤمن عنه، وراجع أهل سبتة طاعتهم، وكذلك أهل سلا الذين كانوا خرجوا عليه [١] .

وبعد هذه المعارك الطاحنة في المغرب الأقصى استتب الأمر لعبد المؤمن فوجه نظره إلى الأندلس ، وكانت كثير من مدنها قد استغلت الصراع بين المرابطين والموحدين فأعلنت ثوراتها وانفصالها عن المرابطين وزادت عنفاً هذه الثورات بعد وفاة تاشفين ابن علي عام ٥٣٩هـ وكان علي بن عيسى بن ميمون من بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠هـ كذلك قام أحمد بن قيس الصوفي الثائر في مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدراى على جاز ابن قيس إلى عبد المؤمن بمراكش عام ٥٤١هـ ورغبه في احتلال الأندلس وضمها إلى دولة الموحدين فسير عبد المؤمن معه جيشاً بقيادة براز ابن محمد المسوفي، في شعبان ٥٤١هـ ، ثم أمده بجيش آخر بقيادة موسى بن سعيد وجيش آخر بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي. فلما عبروا

---

(١) انظر : المغرب الكبير (٢/ ٧٨٨) .

الزقاق ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز بشريش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا لبلة وأخضعوا يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها وافتتحوا بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدراي ابن وزير في طاعتهم، كما انضوت إشبيلية في سنة ٥٤١هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها براً وبحراً، ثم دخلوا مالقة في هذه السنة. غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين، وحول الدعوة عنهم، كما ارتد عن طاعتهم ابن قيس في شلب، وعلي بن عيسى بن ميمون في قادس، ومحمد بن علي بن الحجام في بطليوس، بينما بقي أبو القمر بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة.

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان ،فنزل يوسف بإشبيلية التي اتخذها الموحدين حاضرة لهم في الأندلس، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية قادس وشلب ولبلة، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة (٥٤٣هـ) ولم تبدأ سنة ٥٤٥هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثوراتهم على المرابطين، واستقلوا بمدنهم، وقد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته وبذلك فرض الموحدون طاعتهم على قادس وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في عام ٥٤٦هـ وحاصروها ، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرسى وحرق السفن والأجفان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع.

وفي سنة (٥٤٩هـ) تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون ابن بدر اللمتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، والي الجزيرة ومالقة وغرناطة أمر أبيه بمحاصرة المرية

براً وبحراً لتخليصها من النصارى، فتقدم أبو سعيد إلى المرية للجهاد بصحبة أخية أبي حفص، ونصب الموحدون المجانيق على القصبة بعد أن احتلوا المدينة وحاصروها حصاراً محكماً. وحاول ألفونسو السابع الملقب بالسليطين أن ينقذ النصارى من هذا الحصار فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ألف مقاتل، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش في قوة من ٦ آلاف مقاتل، اضطر السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطية ومعه الأمير أبو يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن والي إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدومه واضطر ابن مردنيش أمام وخز الضمير ولوم النفس الشديد للرجوع من حيث أتى، إذ رأى «العار على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى فارتحل» . وولى عسكر ألفونسو الأدبار تاركين حامية قصبة المرية لمصيرها التعس، ومات ألفونسو في طريقه إلى بياسة سنة (٥٥٢هـ) وخلا الجو للموحدين، فشددوا الحصار على القصبة، واستولوا عليها في سنة (٥٥٢هـ) وهكذا استرد الموحدون المرية، وقد تهدمت أبنيتها، وتغيرت محاسنها [١] .

وفي سنة (٥٥٥هـ) أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل الفتح وتحصينه، فتم بناؤه على يدي الحاج يعيش المهندس، وعلى إثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس، فنزل بجبل الفتح وأقام شهرين أشرف خلالهما على أحوال الأندلس، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ثم أمر بغزو غرب الأندلس، فسير الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة، ففتح حصن أطرافكمش من أحواز بطليوس، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراكش [٢] .

---

(١) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩١) .

(٢) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٢) .

رابعاً: فتح المغربين الأدنى والأوسط :

تمت سيطرة الموحدين على الأندلس عام ٥٥٦هـ وكانت أخبار المغرب الأوسط والأدنى تصل إلى خليفة الموحدين عبد المؤمن من آختلاف الأمراء وتطاول العرب من بني سليم وهلال على إفريقية بالبعث والفساد، كما بلغه استيلاء النورمانديين على سواحل إفريقية، فزحف في سنة ٥٤٦هـ من مراكش قاصداً مملكة يحيي بن عبد العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية، فدخل مدينة الجزائرعلى حين غفلة ، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيي بن تميم، وكان انتقل إليها بعد سقوط المهدية في أيدي النورمان، فقدمه أهلها على أنفسهم، فلما علم بقدوم عبد المؤمن بن علي خرج للقائه بحفاوة بالغة وصحبه في غزو إفريقية ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية، فأخرج يحيي بن العزيز أخاه سبع للقاء جيوش عبد المؤمن، فانهزم هزيمة نكراء، ودخل الموحدون بجاية ولما رأى يحيي أن لا طاقه له بمحاربة عبد المؤمن، هرب في البحر إلى صقلية بقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحمل معه ما استطاع من الذخائر والجواهر والذهب والأموال، ثم عدل عن ذلك ونزل في بونة على أخيه الحارث، ثم رحل عنه إلى قسنطينة، فنزل على أخيه الحسن. أما عبد المؤمن فقد قصد بجيوشه قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم،وحرزهم الأمنع، واقتحمها عنوة، فخربها، وأضرم النار في مساكنها، وقتل جوش بن العزيز ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها، استعمل عليها ابنه عبد الله، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها وكر عائداً إلى مراكش. وكان يحيي بن العزيز قد نزل عن قسنطينة لعبد المؤمن على أن يؤمنه،فأمنه وأصحبه معه إلى مراكش في سنة (٥٤٧هـ) وأسكنه بها، ثم انتقل يحيي إلى سيلا سنة ٥٥٨هـ فسكن قصر بن عشيرة إلى أن توفي في هذه السنة.

أما الحسن بن علي فقد صحب عبد المؤمن في غزواته الأولى إلى إفريقية ، كما

صحبه في سنة ٥٥٤هـ في غزوته الثانية، فحاصر معه المهدية،ثم دخلها وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فرحل بأهله إلى مراكش، وتوفي يتامسنا في سنة ٥٦٣هـ ثار عرب الأثيج ورياح وزغبة في سطيف على عبد الله بن عبد المؤمن بن علي من أجل إعادة دولة بني حماد، فأرسل عبد المؤمن بن علي إلى ابنه مدداً، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن بهم في سطيف، فانهزم العرب، وأعلنوا استسلامهم للموحدين، وقدم إليه وفد من كبرائهم طائعين، فأكرمهم، ووصلهم وأعادهم إلى إفريقية معززين. وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته ، فاتخذ منهم جنداً وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد ثم إنه استنفرهم إلى الغزو بالأندلس، فاستجاب له منهم جمع عظيم. فلما أراد الجواز إلى الأندلس في سنة٥٥٥هـ أدخلهم بها، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة،وبعضهم في إقليم إشبيلية، مما يلي شريش وأعمالها، وقد استكثر منهم أبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو (٥ آلاف) فارس سوى الرجالة (١) .

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير من المصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس سنة ٥٥٢هـ ، فحاصرها، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها، وكان قد استقل بها عبد الله بن خراسان، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين، وانضم إليهم محرز بن زياد أمير بني علي من بطون رياح هو وقومه من العرب فهزموا الموحدين (٢) .

وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، فخلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز ابن خراسان، وعاد عبد الله بفلول أصحابه إلى بجاية فكتب إلى أبيه بذلك.

---

(١) المراكشي (ص ٢٢٦) .
(٢) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٥) .

فخرج أبوه من مراكش في جيوش لا تحصى في ١٠ شوال سنة (٥٥٣هـ) بعد أن استخلف على مراكش أبا حفص بن يحيي، وترك معه ولده السيد أبا الحسن. ثم زحف إلى مدينة تونس ففتحها عنوة، ثم واصل زحفه إلى المهدية، وضرب عليها الحصار. وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر، ثم افتتحها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية، ودخلها في سنة ٥٥٤هـ ، وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهدية قد بعث ابنه عبد الله لمحاصرة قابس، فاستولى عليها من بني كامل من رياح، المتغلبين عليها، كما استولى على قفصة من بني الورد، وعلى طبرقة من مدالع بني علال، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي، والأربس من بني فثانة العرب، ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس الغرب أيضاً ، وافتتح بلاد الجريد كلها [١] ، وعاد بعد ذلك إلى مراكش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى السوس الأقصى غرباً، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ عصر الولاة [٢] .

خامساً: سياسته مع النصارى واليهود وتخريج الساسه لضبط نظام الدولة :

﴿ أ ﴾ عندما استولى عبد المؤمن على مراكش، قتل المقاتلة،وكف عن الرعية، وأحضر اليهود والنصارى، وقال إن المهدي أمرني أن لا أقر الناس إلا على ملة الإسلام، وأنا مخيركم بين ثلاث، إما أن تسلموا، وإما أن تلحقوا بدار الحرب، وإما القتل. فأسلمت طائفة ولحقت أخرى بدار الحرب، وخرب كنائسهم، وعملها مساجد، وألغى الجزية، فعل ذلك في جميع مدائنه، وانفق بيوت الأموال، وصلى فيها اقتداء بعلي وليري الناس أنه لا يكنز المال، وأقام كثيرًا من

---

(١) المراكشي (ص ٢٣٠) .

(٢) **انظر** : المغرب الكبير (٢/ ٧٩٩) .

معالم الإسلام مع سياسة كاملة، ونادى: من ترك الصلاة ثلاثاً فاقتلوه ، وأزال المنكر، وكان يؤم بالناس، ويتلو في اليوم سبعاً، ويلبس الصوف الفاخر، ويصوم الاثنين والخميس، ويقسم الفيء بالشرع فأحبوه، وكان يأخذ الحق إذا وجب على ولده ، ولم يدع مشركاً في بلاده لا يهودياً ولا نصرانياً ، فجميع رعيته مسلمون (١) .

ورأى عبد المؤمن أنه من الحزم والفطنة أن يضع للدولة نُظُماً موطدة الدعائم، فأطلق حرية العلوم والمعارف، وسار في ذلك مع نهج الدين الحنيف، وبنى عدداً من المسجد والمدارس الفخمة التي غدت مراكز للعلوم والآداب، وقرنها بالخدمة العسكرية دوماً، مع التمرين على فنون الحرب، ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدي الانقطاع إلى العلم والدرس إلى إضعاف الهمم، وفتور الحماسة الحربية لدى الموحدين.

كما أنشأ عبد المؤمن مدرسة لتخريج رجال السياسة، وموظفي الحكومة، وقادة الجيش، وكان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة في قصره، ويمتحنهم فيما درسوا، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه تشجيعاً لهم على الاجتهاد، ولكي يجعل منهم رجالاً أكفاء قادرين على نفع البلاد في السلم والحرب.

وفي أيام أخرى كان يمتحن تدريباتهم العسكرية، فيختبرهم في الطعن بالحراب والرمي بالقوس والسهام والمبارزة وركوب الخيل، وفي السباحة والمعارك البحرية في بحيرة أعدها ووضع فيها سفناً كبيرة وصغيرة ليتدرب الشباب على قتال البحر، وقيادة السفن، والوثب على سفن العدو، ويقدم للمهرة الممتازين الهدايا الثمينة بنفسه (٢) .

لقد استطاع عبد المؤمن في نحو عشرين سنة أن ينشىء نظاماً جديداً للدولة،

---

(١) **انظر** : الذهبي ، سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٧٠ ، ٣٧١) .

(٢) **انظر** : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشباخ (٢ / ٥٠) .

إذ لم يبق من قدماء الموظفين المعارضين من يعمل على مناوأته. وكان أشد ما يعنى به عبد المؤمن ـ وهو من أعظم قادة عصره ـ تنظيم شئون الحرب والجهاد التي بث فيها الروح بجهوده ومتابعته ، وقام بنهضة إحياء شاملة وإليك وصف نظام سير الموحدين، وتقسيمات الجيش، كما كان عندما استولى على تونس والمهدية من النورمان الصقليين [١] .

كان مسير الجيش بعد الصلاة الصبح قبيل شروق الشمس، وكانت علامة المسير ثلاثة قرعات من طبل ضخم دوره خمسة عشر ذراعاً، مدهون بلون الموحدين الأخضر، ومحلى بالذهب، وقد خشب رنان، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع في يوم ساكن لا ريح فيه، وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص، وهو يحمل مطوياً أثناء السير، ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق، وعليه هلال مذهب، وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب، وهذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام تسير تحت إشراف الرعاة، وتخصص لغذاء الجند، وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف ـ فضلاً عن الفرسان ـ من سبعين ألفاً من المشاة ، وكان ينقسم إلى أربعة جيوش، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع في الماء أو ضيق في المكان ، وإذا كان معظم الجند مثقلاً بالسلاح فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط، وكان يقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر، حتى يتسنى للجند أن يبدءوا السير في اليوم التالي بقوى مجددة، وترتب على هذا التمهل في مسير الجيش أن اقتفى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرقة الفرسان الخفيفة في

---

(١) انظر : الآراك د . شوقي أبو خليل (ص ٢٩) .

نحو شهرين فقط. وكان عبد المؤمن إذا ركب أحاط به الأشياخ والقادة، وأدوا معه الصلاة، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه، وإلى قيادة الجند التابعين له، وكان يتقدمه مائة شيخ وقائد، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة، ويرتدون ثياباً فخمة، وكان يحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدين من قرطبة، تبركاً وتيمناً ، وقد وضع في ـ صندوق ـ بديع الصنع، محلى بصفائح الذهب: مرصع بأروع الآليء والأحجار الكريمة، حتى إنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين، وبني عباد ملوك إشبيلية ، وبني هود ملوك سرقسطة، والمرابطين، قد اجتمعت فيها جميعاً وتكدست. وهذا الصندوق يحمل في هودج ثمين، على جوانبه الأربعة أربعة أعلام، ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن، وإلي جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص والي تلمسان، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف، ويتبعه على قيد مسافة قصيرة الأمراء وأبناؤه الآخرون[١] الذين يرافقون الجيش، ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها، وعدد من قارعي الطبول على خيول عالية، والنافخون في الأبواق والقرون [٢] وغيرهم رجال الموسيقى العسكرية، ثم الولاة والقضاة والوزراء والكتاب، وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم، فإذا حل الوقت الذي ينتظم فيه المعسكر، أفرد لكل قسم مكانه المعين ولا يسمح لإنسان أن يترك المعسكر دون إذن القائد المختص، ثم توزع الأقوات التي يحمل الجيش منها مقادير وافرة، على الجند بأنصبة متساوية، فلا يقتر على أحد منهم.

نستنتج من هذه النظم الصارمة، ومن المثابرة على التمارين الحربية، ومن دراسة حياة الموحدين:

﴿ **١** ﴾ أن عبد المؤمن كان يعتني عناية خاصة باختيار مواقع القتال.

---

(١) كان لعبد المؤمن ثلاثة عشر ولداً .

(٢) القرن هنا : آلة موسيقية تعتمد على النفخ ، تشبه تماماً القرن المعروف على رأس البقر أو غيره .

﴿ ٢ ﴾ كان يتولى القيادة بنفسه في كل الأمور الحاسمة الهامة.

﴿ ٣ ﴾ وكان يتبع نظاماً جديداً في منتهى البساطة، ولكنه جم الفوائد.

﴿ ٤ ﴾ وأن قيمة الجيش ليست في عدده، إنما هي قبل كل شيء في مقدرته وكفاءته ومعنوياته وإيمانه ، وكان عبد المؤمن يرى أن القوة الرئيسية يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب، حسنة التسليح، فهي العامل الحاسم في مصير المواقع وفي اقتحام المدن، مع وجود جيش ضخم من الفرسان لا يستغنى عنه في المعارك.

ومن أعمال عبد المؤمن : مسح جميع أراضي مملكته، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية، وعن خواصها وثروتها وغلاتها. وكان يرمي من ذلك إلى تقرير الضرائب من ناحية، وأن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه من ناحية أخرى، فسكان الثغور في المغرب والأندلس يقدمون البحارة والسفن، والمناطق الصحراوية والفنية بالخيل تقدم الفرسان ودواب الخيل والجمال، وعلى الولايات الأخرى في المدن الداخلية مثلاً ـ تقديم الجند المشاة والسلاح، كل بنسبة سكانها .

وكان عبد المؤمن يحتفظ بالسلاح بكميات وافرة، وبمقادير جيدة في المخازن المعدة له. وأنشأ مصانع السلاح في كثير من قواعد مملكته تعطي القسي والنشاب والخوذات والدروع والسهام.. وآلات الرمي والمنجنيقات التي تستخدم في الحصار[١] وعزم عبد المؤمن على تغير نظام الطبقات؛ ولذلك قام بحركة واسعة للقضاء على كل العناصر الغير موالية له، وتخلص من كل العناصر التي لم يكن ولاؤها له غير مؤكد. ومشاغبتها عليه محتمل وقوعها وخافه الموحدون خوفاً عظيماً، وأرعبت النفوس منه وساعدته الظروف على تحقيق أهدافه

---

(١) **انظر** : معركة الآراك(ص ٣٢) .

الشخصية وطموحه الذاتي، فمن هذه الظروف أن طبقة الجماعة قد تناقص عددها تناقصاً كبيراً. فقد قتل خمسة أفراد من أعضاء هذه الطبقة في موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ التي هزم فيها الموحدون من قبل القوات المرابطية. وهؤلاء هم: أبو محمد عبد الله بن محسن الونشريسي وسليمان بن مخلوف الحضرمي، وأبو عمران موسي بن تماري الكدميوي وأبو يحيي ابن بيكيت وأبو عبد الله بن سليمان. أما أبو حفص عمر بن علي آصناك ، فقد توفي سنة (٥٣٦هـ) ، وقتل عبد الله يعلي بن ملوية سنة (٥٢٧هـ) بعد أن خرج على الخليفة عبد المؤمن. إذ إنه حقد على الموحدين بيعتهم له أما أبو الحسن بن واكاك ، فقد قتله طلحة غلام أبي إسحاق أمير المسلمين المرابطي سنة (٥٤١هـ) .

وإذن فقد توفي في طبقة الجماعة، المكونة من عشرة أشخاص، ثمانية أفراد، ولم يعد باقياً على قيد الحياة منهم إلا أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتي وعبد المؤمن ابن علي، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لطبقة الجماعة، فإنه من المؤكد أن الكثيرين من أعضاء طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين ، وغيرهما من الطبقات قد تناقص بسبب الحروب المستمرة التي خاضها الموحدون. ولذلك أتاحت وفاة الكثيرين من أعضاء طبقات الموحدين، فرصة طيبة لعبد المؤمن بن علي لأن يجري تعديلاً في نظام الطبقات [١] .

وبعد أن تخلص من أكثر من معارضيه شرع لتنفيذ المخطط الهادف لتغيير نظام الطبقات، فأصدر أوامره لجميع الموحدين من المصامدة وغيرهم بالحضور إلى حضرته في مراكش فحضروا والرعب يملأ جوانحهم والخوف يملأ قلوبهم، خوفاً ورهبة مما يخبئه لهم الخليفة. لقد رسم عبد المؤمن خطته في أناة وروية، ونفذها على خطوات وعلى مهل وفي غير استعجال، حتى إذا ما استوفى ربط الحلقات

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٥٨)

وإحكامها، جاءت نتيجة خطته محققة لما وضعها من أجله، وهي أن يكون له في الدولة كل شيء ولا يكون للموحدين أي شيء، هكذا أصبح عبد المؤمن خليفة الموحدين اسماً وفعلاً.

ولما أن أصبحت الحال تلك، وأحضر الموحدين إلى حاضرة مراكش، أعلن فيهم تغيير نظامهم الطبقي، وأعلن عليهم النظام الجديد، وحدد فيه مكان كل منهم وتغيرت الطبقات من أربع عشرة طبقة إلى ثلاث طبقات

فالطبقة الأولى :

هم السابقون الأولون الذين بايعوا ابن تومرت، وصحبوه وغزوا معه وصلوا خلفه، والذين شاهدوا البحيرة وباءوا بفضلها واشتملوا بردة شرفها وارتقوا إلى ذروة الحظوة بها، وشهد لهم بالفضل الذي لا يوازي والرتبة التي لا تعادل. ويتلو هذه الطبقة: من آمن بهذا الأمر ودخل في هذا الحزب وانضوى تحت لواء هذا الشعب من بعد البحيرة إلى فتح وهران.

والطبقة الثانية

من فتح وهران إلى هلم جرا. ومن النظر إلى التنظيم الجديد لطبقات الموحدين، يتبين أن عبد المؤمن ألغى طبقة الجماعة إلغاءً نهائياً، وهي الطبقة التي كان لها الحق الأول في إدارة شئون الموحدين ومراقبة الخليفة. هذا بالإضافة إلى أنه ألغى طبقتي أهل خمسين وأهل سبعين وهما الطبقتان التاليتان لطبقة الجماعة في النفوذ والسيطرة. وهكذا أزاح عبد المؤمن من أمامه الطبقات ذات الشأن في نظام ابن تومرت. بل إن عبد المؤمن ألغى الأربع عشرة طبقة، وجمعها كلها في طبقة واحدة، وهي الطبقة الأولى في نظامه. وهو قد ذهب إلى مدى أبعد، إذ جعل في هذه الطبقات كل من رأى ابن تومرت وبايعه وصلى خلفه واشترك معه في حروبه. ليس هذا فقط، بل وكل من اشترك في غزوة البحيرة التي هزم فيها الموحدون عند أحواز مراكش من قبل المرابطين، يوم الثاني عشر من جمادى

الثانية من سنة خمسمائة وأربعة وعشرين هجرية الموافق الثالث عشر من مايو سنة ١١٣٠م.

ومعنى هذا أن عبد المؤمن حطم نفوذ الطبقات المتنفذة الأولى في نظام ابن تومرت ثم إنه ساوى بين أعضاء الطبقات الأخرى والطبقات الثلاثة الأول، وجعل مكانة الجميع على قدم المساواة. بين أفراد الطبقات أتاحت لأفراد الطبقات الإحدى عشر الأخيرة في النظام الملغي، كسباً معنوياً كبيراً وفائدة مادية جليلة. وبهذا استطاع أن يكسب ود وإخلاص وتأييد أفراد هؤلاء الجماعة لإتاحته لهم هذه الفرصة الذهبية. كما وأن التنظيم الجديد أتاح للكثيرين ممن كانوا خارج الطبقات الموحدية، فرصة الانتماء للنظام الموحدي واكتسابهم شرف الانضواء تحت رايته.

أما الطبقة الثانية: فهي تشمل كل الذين دخلوا في حركة الموحدين، منذ موقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ وحتى فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وهذا يعنى أن النظام الجديد أتاح الفرصة للجماعات والقبائل المختلفة التي دخلت في طاعة الموحدين بعد سنة ٥٢٤هـ وحتى سنة ٥٣٨هـ، سواء كانت هذه الطاعة قد جاءت طواعية واختياراً أو إجباراً وقسراً بحد السيف. وهكذا استطاع عبد المؤمن بحركة بارعة أن يستل الضغينة من نفوس الذين فرضت عليهم طاعة الموحدين بعد عام البحيرة وحتى فتح وهران. وذلك بمساواتهم بغيرهم من الموحدين الأولين، وإدراجهم في الطبقة الثانية من النظام الجديد. وهذا بطبيعة الحال أدى إلى انتشار الرضى بينهم واطمئنانهم إلى مستقبلهم الذي يبشر به انضواؤهم في النظام الطبقي للموحدين، وهي إلى جانب الكسب المعنوي والسياسي، قد أُتيحت لهم فرصة الاستفادة المادية إلى أبعد مدى.

وهذه الطبقة سوف تنظر بعين الرضى والتأييد للخليفة عبد المؤمن بن علي، الذي أقدم بشجاعة فائقة على تغيير النظام القديم، وأتاح لأفرادها شرف الانتماء إلى النظام الموحدي، بل وفي الطبقة الثانية منه، وبهذا استطاع عبد المؤمن أن

يجعل أفراد هذه الطبقة من المخلصين له والمؤيدين لسياسته والدافعين لأعدائه.

والطبقة الثالثة: تضم من دخل حركة الموحدين منذ فتح وهران سنة ٥٣٨هـ وإلى أي زمن تلا ذلك، فاتحاً الباب لكل من يطيع الموحدين لأن ينتظم في سلك الطبقة الثالثة.

ثم إن عبد المؤمن لما أن افتتح المغرب الأوسط وأدخله في دولة الموحدين، بعد أن قضى على إمارة بنى حماد فيه، قام بمحاربة قبائل بني هلال، الذين وقفوا في وجهه، وتمكن الموحدون من هزيمتهم في أكثر من موقعة وأرغموهم على الخضوع والطاعة، وبدلاً من أن يقوم عبد المؤمن بالانتقام من هذه القبائل وزعمائها، نجده ينقل معه ألفاً من كل قبيلة منهم وينزلهم بالمغرب الأقصى كما قام في نفس الوقت برد الأموال والحرم التي غنمت من تلك القبائل ومنحهم جزيل العطاء. وعن هذه الأحداث يذكر البيذق قائلاً: «وأما ما كان من أمر غنائم العرب وسبيها، فترك منها أمير المؤمنين في فاس ومكناسة وفي سلا وحمل مع نفسه سلاطينهم إلى مراكش وعيالهم وهم: ديفل بن ميمون وحباس بن الرومية وابن الزحامس وابن زيان، وأبو قطران، وأبو عرفة، والقائد ابن معرف. فهؤلاء الملوك رد لهم الخليفة عيالهم وأعطاهم المال وصرفهم إلى بلادهم. فقالوا للخليفة تأمرنا بالرجوع إليك. فقال لهم الخليفة مجاوباً لهم نحن نصل إليكم وردهم كافة بنسائهم حملها لهم القبائل وكان ذلك في عام ٥٤٧هـ» (١).

هذا بالإضافة إلى أن الخليفة بعد غزوته للمغرب الأدنى، أحضر معه الكثير من قبائل العرب وأنزلهم بالمغرب الأقصى. وهو في الواقع قام بهذا العمل، ليبعد شر هذه القبائل عن إفريقية والمغرب الأوسط ويجعلها في متناول يده، كما أنه كان يرمي إلى كسب ودها واستخلاص ولاءها. كما وأن جلبه لتلك الآلاف منهم

---

(١) البيذق، أخبار المهدي (ص ١١٦)

وإنزالهم بالقرب منه، يخفي وراءه سياسته في أن يتقوى بهم ويجعلهم كعصبية له ضد ثورة المصامدة المحتملة [١] .

وحرص على ملاطفة العرب واستمالتهم ، وحرضهم على قتال النصارى ودخول الأندلس معه فقال :

أقيموا إلى العلياء هوج الرَّواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُردْ الصواهلِ

وقوموا لنصر الدين قومة ثائرٍ ... وشدوا على الأعداء شدة صائل

فما العزُّ إلا ظهرُ أجرد سابح ... وأبيض مأثور وليس بسائل

بني العمِّ من عليا هلال بن عامر ... وما جمعت من باسل وابنِ باسل

تعالوا فقد شُدَّتْ إلى الغزو نيَّةٌ ... عواقبها منصورة بالأوائل

هي الغزوة الغراء والموعدُ الذي ... تنجَّزَ من بعدِ المدى المتطاولِ

بها نفتح الدنيا بها نبلغ المنى ... بها نُنْصِفُ التَّحقيقَ من كلِّ باطلِ

فلا تتوانوا فالبدارُ غنيمةٌ ... وللمُدلْج السَاري صفاء المناهلِ [٢]

وكانت الشعراء تقصد عبد المؤمن لمدحه، ولما قال فيه التِّفاسي قصيدته :

ما هزَّ عطفيه بين البيض والأسلِ ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن عليّ

أشار إليه أن يقتصر على هذا المطلع، وأمر له بألف دينار [٣] ، ولما سار عبد المؤمن بجيوشه ونزل جبل طارق ، وسماه الفتح، فأقام أشهراً ، وبنى هناك قصوراً ومدينة ، ووفد إليه كبراء الأندلس، وقام بعض الشعراء منشداً :

ما للعدي جُنَّةٌ أوقى من الهرب ... أين المعزُّ وخيلُ الله في الطلب

وأين يذهب من في رأس شاهقة ... وقد رمته سهامُ الله بالشُّهُب

حدِّث عن الروم في أقطار الأندلس ... والبحر قد ملأ البرَّين بالعَرَبِ

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠) .

(٢) ، (٣) **انظر** : سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٣٧٣) .

فأعجب بها عبد المؤمن وقال: بمثل هذا يمدح الخلفاء[١]، وبعد أن اطمأن عبد المؤمن إلى سلامة الخطوات التي اتخذها في سبيل أن تكون له السيادة الكاملة في الدولة، وضمن تحطم نفوذ الشخصيات البارزة في مجموعة الموحدين، وتأكد له ولاء أغلب الطبقات في النظام الجديد، وبعد أن ضمن حماية نفسه وأسرته بمجموع بني هلال وسليم التي أنزلها في أحواز مراكش، أقدم على الخطوة الخطيرة التي ما فتىء يستعد لها ويمهد الطريق أمامها ألا وهي جعل الحكم في دولة الموحدين في عقبه، وتولية أحد أبنائه ولياً لعهده[٢].

وفي عام (٥٤٩هـ) أعلن عبد المؤمن للملأ من طبقات الموحدين والقبائل الداخلة في طاعتهم، من بني هلال وصنهاجة، توليته لابنه محمد وليا لعهده، وقامت تلك الجماعات في الحال بالموافقة على ذلك الأمر، وبايعت لولي العهد. وقد بين الخليفة في رسالة بعث بها إلى طلبة الموحدين في سبتة وطنجة، الظروف التي تمت فيها تولية ابنه لخلافته والعوامل التي فرضت عليه ذلك، فجاء فيها: سؤلكم أن كثيراً من أولياء هذه الدعوة العلية وإخوانها من أشياخ الأنظار وأعيانها، تقدمت رغبتهم في أمر أخرته الخيرة لميقاتها، وأرجأته التؤدة إلى خير أوقاتها... وكانت العشائر العربيةوذوي ألبابها وحلومها، يشيرون إلى ذلك على انشراحهم ويعلمون أنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم، ولم تزل مخاطبتهم في ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد لما كان عندهم فيه من ثلج ويقين. فلما اتفق بحمد الله وصولهم في هذه الوفادة، للأخذ بأطناب المنيفة بهم على مقتضى الآمال والإرادة، صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه. واعلموا أن محمداً ـ وفقه الله ـ هو الذي ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه، ورغبوا في تقديمه على بلادهم وانفاذه معهم على قصده في توليته

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٧٣)

(٢) انظر: سقوط الموحدين (ص ٦٠)

مرادهم . . . فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع في هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم في ذلك المسئول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل، ونلقى إليهم حديث القوم المذكورين، بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على ما أقصد وذكروا في الأمر على ما أتوخى فيه وأعتمد . وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما أعتقد . . . وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو عمر بن يحيي ـ أعزه الله بتقواه ـ هذا أمر نحن أولى يتقديمه وأعلم بوجوبه ولزومه وأولى بتأميره علينا وتحكيمه، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه، فهو مختارنا للدين والدنيا وسؤلنا المأمول للحياطة والرعية . . وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء ومن جرت مذاكرته في مثل هذه الآراء : هذا أمر في ضمائر أكثرنا معقود، وفي نفوس جمهورنا موجود، وهو الذي ليس عليه من آمالنا مزيد . . . وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه، قصد اعتقادها على أكرم وجه وأسناه، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم، وسرى النعيم بها في أبشارهم ومناتهم، وباشرها من حضرها من القبائل الموحدين وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلاً بعد قبيل »(١) .

يتبين لنا من هذه الرسالة نقاط :

أولها : أن عبد المؤمن يبعد عن نفسه شبهة التفكير في تولية أحد أبنائه لخلافته في الحكم .

وثانيها : أن هذه الفكرة إنما أثارتها قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية . وهي التي لم تكتف بإثارة الموضوع، بل وألحت عليه . ومسألة تعيين الحاكم أو الخليفة في دولة الموحدين، ليست من الأمور البسيطة التي يمكن لمثل

---

(١) انظر : سقوط الموحدين(ص ٦٢) .

هذه القبائل أن تبدي رأيها حولها وتتدخل فيها. فهي مسألة حساسة وتمس الحركة الموحدية في جوهرها فالواجب أن يثيرها الموحدون أنفسهم لا هذه القبائل التي أخضعت بحد السيف. وتدخل هذه القبائل في مثل هذا الموضوع، يثير الشك بأن الخليفة عبد المؤمن هو الذي أوحى لها بأن تثير وتلح عليه.

والنقطة الثالثة: هي أن الموحدين وأشياخهم لما أن جمعهم الخليفة في حضرته، وعرض عليهم رغبة قبائل هلال وصنهاجة والقبائل الشرقية في أن يتولى ابنه محمد الحكم بعده، بينوا أنهم أولى من غيرهم في اقتراح مثل هذا الأمر وأنهم أولى بعقد النية والعزم عليه، والحقيقة أن تغيير نظام الطبقات جعل عبد المؤمن السيد المطاع بلا منازع في دولة الموحدين ولذلك بادروا وسارعوا بالموافقة لما أراد، وتقدموا للبيعة لولي عهده.

النقطة الرابعة: يبدو أن أبا حفص عمر بن يحيي وجد نفسه أمام أمر واقع؛ ولذلك بادر بإظهار الرضى عن هذه البيعة، وكان أول المبايعين لا بن عبد المؤمن وتنازل أمام ضغط الواقع عن حقه الطبيعي لعبد المؤمن في الحكم.

وهكذا استطاع عبد المؤمن أن يجعل الحكم وراثيا في عقبه، وبذلك يكون انحرف عن تعاليم ابن تومرت في قضائه على الطبقات وجعل الحكم وراثياً.

وبهذا الفعل ثارت حفيظة الكثيرين من الموحدين مما دفع بعضهم بالثورة عليه ومن الطبيعي أن يكون أهل ابن تومرت أول المعارضين لعبد المؤمن، ولذلك قامت خيانات في الجيش الموحدي بقيادة يصلتين بن المعز الذي انفصل بجيشه في معارك الموحدين مع العرب في المغرب الأوسط؛ مما سبب في انتصار بني هلال على جيش ابن واندوين والقضاء على أغلبه، وقتل قائد الجيش الموحدي في المعركة. وطمع بنو هلال إثر هذا الانتصار في الموحدين، الذين اهتزت روحهم المعنوية لهذه الهزيمة. ولكن عبد المؤمن بقدرته العسكرية الفذة استطاع أن يهزم تلك القبائل، وأن يحافظ على وحدة الجيش الموحدي وارتفاع روحه المعنوية،

وظهر للموحدين بمظهر الرجل الفذ القادر على الوقوف في وجه العواصف الهوج، ففوت بعمله ذاك الفرصة على يصلتين الذي كان يرمي إلى القضاء على جيش عبد المؤمن بفعله ذاك، وألقي القبض على يصلتين وقتل في سبتة عام ٥٤٦هـ بتهمة الخيانة العظمى.

وفي عام ٥٤٩هـ حاول أخوا ابن تومرت، عيسى وعبد العزيز في مدينة مراكش القيام بثورة على عبد المؤمن والاستيلاء على مقاليد الحكم، إلا أن المخلصين من أنصار عبد المؤمن وأهل مراكش قضوا على تلك المحاولةالفاشلة، وكان عبد المؤمن بعيداً عن مراكش في سلا، وقبض على المتآمرين وكان تعدادهم ثلثمائة شخص، وقتلوا جميعاً، وأعدم أخوا ابن تومرت . وفي عام ٥٥٥هـ حاول بيت ابن تومرت اغتيال عبد المؤمن إلا أن تلك المؤامرات أحبطت في مهدها، وشعر عبد المؤمن بضرورة جلب قبيلته لحمايته من المؤامرات المتكررة، فأنفذ الأموال إلى زعماء قبيلته، وأمرهم أن يأتوه ركبانا ويركبوا معهم كل من تجاوز سن الحلم من أبناء القبيلة.

وقد وصل رجال قبيلة كومية سنة٥٥٧هـ إلى مراكش في تعداد تجاوز الأربعين ألفاً وفرح بهم عبد المؤمن فرحاً عظيماً وأنزلهم في مراكش وأعطاهم الدور ووزع عليهم البساتين، وجعل منهم حرسه الخاص الذي يقف بين يديه في جلوسه ويحيط به في تسياره، وبذلك اطمأن على نفسه وعلى حكم أبنائه من بعده.

إن الخطوات التي اتخذها عبد المؤمن من إبعاد قبائل المصامدة وشراء خدمات قبائل بني هلال، وإسناد أمر الحماية إلى قبيلته كومية، والقضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات جعل من الموحدين خدماً لمصلحة فرد وأطماعه المادية بعد أن كانوا يخدمون فكرة ويدافعون عن مبدأ، ففقدت نفوسهم تلك الروح المتوثبة والحماس الشديد في سبيل تقدم الدولة ونجاح الدعوة.

إن مسلك عبد المؤمن في جعل الحكم وراثياً ساهم في إيجاد تنافس شديد

وتنازع مميت بين أبناء عبد المؤمن فيما بعد،بل سفكت دماء، وحيكت مؤامرات دنيئة بين الأخوة في سبيل تولي الحكم، وكان من نتيجة ذلك كله ضعف الدولة، وتدهورها السريع في فترة ليست بالطويلة (١) . لم يكتف عبد المؤمن ببيعة الموحدين لابنه، بل قام بتعيين أبنائه على أغلب ولايات الدولة، وجعل إلى جانبهم وزراء من الطلبة ليكونوا مرشدين وناصحين لهم. ومن الأمور المهمة والأحداث ذات الدلالة في تاريخ دولة الموحدين، ظهور التكتلات التي ساهمت في إضعاف الدولة، وكانت سبباً في وقوع وزيرين في نكبتين عظيمتين على يد عبد المؤمن وهما: الوزير أبو جعفر أحمد بن عطية، وعبد السلام الكومي(٢) .

شيء من سيرة عبد المؤمن ووفاته :

﴿ ١ ﴾ لما نزل عبد المؤمن سلا وهي على البحر المحيط ينصب إليها نهر عظيم ويمر في البحر عبر النهر، وضربت له خيمة، وجعلت جيوشه تعبر قبيلة قبيلة، فخر ساجداً، ثم رفع وقد بل الماء لحيته ، فقال: أعرف ثلاثة وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد، فراموا عبور هذا النهر، فبذلوا الرغيف لصاحب القارب على أن يعد بهم، فقال: لا آخذه إلا عن اثنين، فقال أحدهما وكان شاباً: تأخذ ثيابي وأنا أسبح، ففعل، فكان الشاب كلما أعيا، دنا من القارب ، ووضع يده عليه يستريح ، فيضربه بالمجذاف، فما عدي إلا بعد جهد فما شك السامعون أنه هو السابح ، والآخران ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي (٣) .

﴿ ٢ ﴾ ذكر ابن العماد في شذرات الذهب عبد المؤمن بن علي فقال: (كان ملكاً عادلاً سايساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل وكان يقرأ كل يوم سبعاً من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير ويصوم الاثنين

---

(١) انظر : سقوط الموحدين (ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨) .

(٢) انظر : سقوط الموحدين (ص ٦٩) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٣٧٣) .

والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الملك كأنما خلق له، وكان سفاكاً لدماء من خالفه سأل أصحابه مسألة ألقاها عليهم فقالوا لا علم لنا إلا ما علمتنا فلم ينكر ذلك عليهم؛ فكتب بعض الزهاد هذين البيتين ووضعهما تحت سجادته وهما:

يا ذا الذي قهر الأنام بسيفه ... ماذا يضرك أن تكون إلهًا
الفظ بها فيما لفظت فإنه ... لم يبق شيء أن تقول سواها

فلما رآها وجم وعظم أمرهما وعلم أن ذلك بكونه لم ينكر على أصحابه قولهم لا علم لنا إلا ما علمتنا فكان عبد المؤمن يتزيا بزي العامة ليقف على الحقائق فوقعت عيناه على شيخ عليه سيما الخير فتفرس فيه أنه قائل البيتين فقال له: اصدقني أنت قائل البيتين؟ قال: أنا هو فقال له: لم فعلت ذلك؟ قال: قصدت إصلاح دينك فدفع إليه ألف دينار فلم يقبلها. ومن شعره وقد كثر الثوار عليه:

لا تحلفن بما قالوا وما فعلوا ... إن كنت تسموا إلى العليا من الرتب
وجرد السيف فيما أنت طالبه ... فما ترد صدور الخيل بالكتب[1]

﴿٣﴾ بعد أن أتم عبد المؤمن افتتاح المغرب الأوسط وإسقاط إمارة بني حماد فيه، وافتتاح المغرب الأدنى وإجلاء النورمانديين منه إلى صقلية، وضمها إلى دولة الموحدين، وأصبحت دولة خلافته تمتد من حدود برقة شرقاً حتى البحر المحيط غرباً، ويشمل سلطانه معظم بلاد الأندلس الإسلامية، وبعد أن تم له تعين ابنه ولياً لعهده، وعقد لأبنائه على أغلب ولايات الدولة وقضى على أغلب المتآمرين ورءوس الفتنة، وخضد شوكة أفراد بيت ابن تومرت، وعمل على تقوية جانبه باصطناع أعراب بني هلال وتقوية ظهره بعصبية قبيلة، شرع في الإعداد للمشروع العسكري الكبير الذي نوي القيام به، ألا وهو دخول الأندلس بجيش لم يسبق له مثيل للقضاء على الممالك والإمارات الإسبانية وكل من تمرد على

---

(١) **انظر**: شذرات الذهب (٤٠/١٨٣)

دولة الموحدين ولذلك استعد عبد المؤمن لهذه الحملة [١] .

يقول ابن صاحب الصلاة :

(تم إعداد مائتي قطعة بحرية جديدة في دور الصناعة بمرسى المعمورة عند حلق البحر على ضفاف وادي سبو، وغيره من الدور في بلاد المغرب وسواحل الأندلس، وهذه القطع تعتبر إضافة لقطع الأسطول الموحدي الزاخر، وكانت الاستعدادات في نفس الوقت تجري لتدريب الرجال على أفانين القتال البحري والتهيئة له. كما أنه: «أعد من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادي سبو بالمعمورة المذكورة، ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال بما لم يتقدم الملك قبله.. ونظر في استجلاب الخيل له من جميع طاعاته بالعدوة وإفريقية، وانتخاب الأسلحة من السيوف المحلاة والرماح الطوال على الهيئات والدروع والبيضات والترسة، إلى غير ذلك من الثياب والكسا والعمائم والبرانس، ما استغربتهاالأذهان ولا تقدم بمثله زمان. وقسم ذلك كله على الموحدين...)[٢] .

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش في جموع الموحدين ومختلف القبائل يوم الخميس خامس عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وخمسمائة هجرية (٥٥٨هـ) وانتهى به السير في رباط الفتح من مدينة سلا. ونزلت الجيوش في الفحوص الواقعة ما بين عين غبولة وأرض بندغل وكان تعداد الجيش حوال مائة ألف راجل ومائة ألف فارس.

وتقرر في مجلس الحرب الذي عقده الخليفة، تقسيم الجيش أربعة أقسام ، وتوجيهها إلى أربع جهات مختلفة من بلاد إسبانيا :

﴿ ١ ﴾ **الجيش الأول :** يتجه إلى مدينة قلمرية عاصمة البرتغال.

---

(١) انظر : سقوط دولة الموحدين (٧٧) .

(٢) ابن صاحب الصلاة (ص ٢١٣٣ ، ٢١٥) .

﴿ ٢ ﴾ **الجيش الثاني**: إلى فرناند ودي ليون.

﴿ ٣ ﴾ **الجيش الثالث**: إلى ألفونسو الثامن ملك قشتالة.

﴿ ٤ ﴾ **الجيش الرابع**: يسير إلى برشلونة.

غير أن الذي غير هذا المخطط وجمد هذا العمل الكبير، مرض عبد المؤمن بن علي المفاجيء، وانتظار الموحدين شفاءه، إلا أن المرض أصاب قوته وأظهر ضعفه حتى أسلمه إلى منيته مساء يوم الخميس العاشر من جماد الآخرة من سنة ٥٥٨هـ[١] قال ابن كثير في عام ثمان وخمسين وخمسمئة: (فيها مات صاحب المغرب عبد المؤمن بن علي، وخلفه من بعده في الملك ابنه يوسف والذي سار إلى مراكش على صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته فعزاه الناس وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازماً شجاعاً، جواداً معظماً للشريعة، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، وكان إذا أذن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المسجد، وكان حسن الصلاة ذا طمأنينة فيها، كثير الخشوع، ولكن كان سفاكاً للدماء حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله يحكم فيه بما يشاء...)[٢].

إن المتتبع لتاريخ عبد المؤمن بن علي يلاحظ بوضوح أن حماسه لدعوة ابن تومرت تبدد حيث انشغل بالأمور السياسية والعسكرية، واكتفى بالقيام بزيارة قبر ابن تومرت بين الفينة والأخرى، كرمز على محبته له ولدعوته، أما العمل على تأصيلها في نفوس الناس ونشرها في أماكن جديدة فلم يذكر المؤرخون -على حسب اطلاعي- أنه قام بشيء من هذا، ويدل على ذلك أن عبد المؤمن لما بسط سلطانه على بلاد المغرب والأندلس لم تنتشر دعوة ابن تومرت في تلك الديار، ولم تتأصل محبتها في قلوب سكانها كما تأصلت عند سكان بلاد

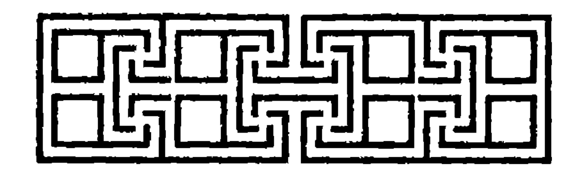
---

(١) **انظر**: سقوط دولة الموحدين (ص ٧٨).

(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٢٦٤).

المغرب الأقصى الذين انتشرت بينهم تلك الدعوة في عصر ابن تومرت، ولم يسر ظل الدعوة الموحدية جنباً إلى جنب مع ظل السياسي للدولة في عهد عبد المؤمن وإن كان استمر على نفس البرنامج التعليمي الذي وضعه ابن تومرت، وأصدر أوامره إلى كافة الموحدين بشأن ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها، وكان ذلك تكتيكاً من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

إن تاريخ عبد المؤمن يشير إلى أنه لم يكن جاداً في الالتزام الحرفي بدعوة ابن تومرت، ولعل ما تحمله دعوة ابن تومرت من شطط وغلو في بعض أفكارها من الأسباب الرئيسية التي جعلته يعرض عن العمل على نشرها حتى لا يحدث رد فعل مضاد له، مما يعرض دولته للخطر [١].



(١) انظر: مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس (ص ٥٧٢، ٥٧٣).

المبحث الثاني
أبو يعقوب يوسف

هو السلطان الكبير، أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبد المؤمن بن علي، صاحب المغرب.

قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشه، وشربه الخمر، فخلع بعد شهر ونصف، وبويع أبو يعقوب، وكان شاباً مليحاً، أبيض بحمرة، مستدير الوجه، أفوه، أعين، تام القامة حلو الكلام فصيحاً، حلو المفاكهة، عارفاً باللغة والأخبار والفقه، متفننا، عالي الهمة، سخياً، جواداً، مهيباً، شجاعاً خليقاً للملك[١] .

أولاً: علمه وبيعته :

[أ] علمه :

قال عبد الواحد بن علي التميني :

صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، أظنه البخاري. قال: وكان سديد الملوكية، بعيد الهمة، جواداً، استغنى الناس في أيامه. ثم إنه نظر في الطب والفلسفة ، وجمع كتب الفلاسفة، وتطلبها من الأقطار، وكان يصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف، فكان لا يصبر عنه، وسمعت أبا بكر بن يحيي الفقيه، سمعت الحكم أبا الوليد بن رشد الحفيد يقول: لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب، وجدته هو وابن طفيل فقط، فأخذ ابن طفيل يطريني، فكان أول ما فاتحني أن قال: ما رأيهم في السماء؟ أقديمة أم حادثة، فخفت، وتعللت، ،أنكرت الفلسفة، ففهم، فالتفت إلى ابن طفيل، وذكر قول أرسطو فيها، وأورد حجج أهل الإسلام فرأيت منه غزارة حفظ، لم أكن أظنها في عالم،

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٩٩) .

ولم يزل يبسطني حتى تكلمت، ثم أمر لي بخلعة ومال ومركوب [١] .

وقال عنه العلامة شوقي أبو خليل: (أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثارها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام، وأحسن الناس حفظًا لألفاظ القرآن الكريم ، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية وكان بعيد الهمة، سخياً جواداً ، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إيثار للعلم شديد وتعطيش إليه مفرط، صح أنه كان يحفظ أحد الصحيحين وأغلب الظن أنه البخاري، حفظه في حياة أبيه بعد تعلُّم القرآن الكريم ، هذا مع ذكر جميل من الفقه ، وكانت له مشاركة في علم الأدب واتساع في حفظ اللغة وتبحر في علم النحو حسبما تقدم. وطمع به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة والطب... وجمع مكتبة، كان ما فيه قريباً مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي ثاني الخلفاء بالأندلس (٣٥٠-٣٦٦هـ) حيث احتوت مكتبته على أربعمائة ألف مجلد .

[ب] بيعته:

يرى الأستاذ الدكتور مراجع عقيله الغنائي أن بيعة يوسف بن عبد المؤمن تمت بمؤامرة دبرت بزعامة الأخوين عمر ويوسف ابني عبد المؤمن والحزب الموالي لهما وأن أبا حفص عمر بن عبد المؤمن حرص على أن يسيطر منذ توليه الوزارة لأبيه على الأمور في الدولة وأن ينظر كتلة من الموحدين ترتبط مصالحها به، ولذلك أصبح عليه من السهل تدبير أمر خلع أخيه غير الشقيق، محمد ، ووضع أخيه الشقيق يوسف على الحكم بدلاً منه. ولربما كان عمل الأمير عمر، بجعل الإمارة لأخيه يوسف بدلاً منه وهو الشخصية ذات القوة والنفوذ إنما يبعد نفسه عن شبهة التآمر، والذي يرجع الفرض القائل بوقوع المؤامرة في خلع محمد ورفع أخيه

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ١٠٠) .

يوسف، أن بعضاً من أبناء عبد المؤمن رفضوا في أول الأمر المبايعة لأخيهم يوسف فقد رفض السيد أبو سعيد عثمان والي غرناطة، والسيد أبو محمد عبد الله والي بجاية، أن يبايعا لأخيهما بالإمارة.

ولذلك لم يستطع يوسف بن عبد المؤمن أن يسمى باسم أمير المؤمنين وإنما اكتفى باسم الأمير. كما وأن رائحة المؤامرة قد تسربت إلى جموع الموحدين والجيوش الكثيفة التي كانت نازلة بمدينة سلا (١)، لذلك ألغي مشروع العبور إلى الأندلس، وأعطيت الجنود الأمر بالرجوع إلى مواطنها، كما أخذ شيوخ الموحدين يعملون على إزالة الشكوك من نفوس الموحدين (٢)، فابن صاحب الصلاة يقول: (ووعظ الشيخ المرحوم الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم وذكرهم بما يجب عليهم في دينهم وصلاح يقينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً بالوفاة واشتد عليهم في لزوم الصلاة والضرب بالسياط أهل الفسق والجناة، وشغلهم بأنفسهم من الحديث بالخزعبلات، وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح بقراءة الحزب، واشتد عليهم في ملازمة ذلك بأعظم الاشتداد، ثم نفذ الأمر من الأمير بانصراف العساكر المجتمعة إلى قبائلهم ومواضعهم وتأخر العرض إلى وقت يأذن الله به من إزماعهم واجتماعهم) (٣).

وسعى شيوخ الموحدين في سبيل الإصلاح بين الأخوة والتوفيق بينهم وصفا الجو بين أبناء عبد المؤمن بعد جهد جهيد، وتمت البيعة العامة ليوسف بن عبد المؤمن في منتصف جمادى الآخرة من سنة ثلاثة وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ) ومنذ هذا التاريخ تسمى يوسف باسم أمير المؤمنين، وهو الاسم الخلافي عند الموحدين (٤).

---

(١)، (٢) سقوط دولة الموحدين (ص ٨٥).

(٣) ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة (ص ٢٣١، ٢٣٣).

(٤) **انظر**: سقوط الموحدين (ص ٨٨).

ثانياً: سياسة يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس:

كانت سياسة الموحدين بالأندلس في عهد يوسف بن عبد المؤمن تدور على ثلاثة محاور:

[١] المحـور الأول :

استكمال السيادة الموحدية على الأندلس، ولذلك استهدفوا كل الإمارات الخارجة عن سيادتهم من أجل إدخالها تحت نفوذهم.

[٢] المحور الثاني :

العمل على الحد من أطماع الممالك والإمارات الإسبانية.

[٣] المحور الثالث :

المساهمة في ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس.

إلا أن الثورات العنيفة التي تعرضت لها دولة الموحدين أثخنتها وكانت حركة التمرد التي قادها محمد بن مردنيش في الأندلس من أعنفها.

ينسب محمد بن مردنيش إلى الأصول العربية وكان والده سعيد بن محمد والياً للمرابطين على افراغه [١].

تولى محمد بن سعد بن مردنيش : حكم بلنسية بعد وفاة صهره ابن عياض، يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة (٥٤٢هـ الموافق ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧م). ثم قام علي بن عبيد والي مرسيه بالتنازل لابن مردنيش يشمل شرق الأندلس، ومن بلنسية شمالاً حتى قرطاجة جنوباً.

واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على وحدة إمارته وتماسكها ودخل في أحلاف وعهود ومواثيق مع مماليك النصارى وإمارتها ضد الموحدين وكان غرض

---

(١) انظر : سقوط الموحدين (٨٩).

الإسبان النصارى في الوقوف مع ابن مردنيش وشد أزره، أنهم وجدوا فيه خصماً عنيداً للموحدين، كما أنهم رأوا فيه أندلسية مسلمة تستطيع أن تحارب المسلمين بنفس القوة والأسلوب، كما أنه كان من الدوافع الرئيسة لمعاضدة أمراء وملوك النصارى لابن مردنيش، هو أن لا يتيحوا الفرصة للموحدين بالسيطرة على كل الأندلس الأسلامية، وثانيا إبقاء المسلمين في حالة فرقة وتفكك.

إلا أن توسع الموحدين في بلاد الأندلس وشدة شوكتهم جعلت الكثير من الممالك والإمارات الإسبانية النصرانية توقع معاهدات هدنة وحسن جوار معهم أو تحالفهم وبهذا فقد ابن مردنيش الكثير من حلفائه الإسبان السابقين الذين كان وجوده يعتمد عليهم في المقام الأول. ولما أن أخذ سلطان الموحدين يتسع في البلاد الأندلسية، وأن أغلب إماراته وولاياته دخلت في حوزتهم، وأن معظم أمراء الأندلس سلموا ما بأيديهم للموحدين سواء عن طواعية أو كره منهم، رأى ابن مردنيش أن الحلقة أخذت تضيق عليه وأن مآل إماراته التي جهد من إقامتها، هو الوقوع في أيدي الموحدين، خاصة وبعد أن فقد الكثير من حلفائه؛ ولذلك أخذ الحقد يملأ نفسه وأخذت نفسيته تشذ في تصرفاتها ، بل وبدا الشك يختمر عنده تجاه عماله وكبار رجالات دولته الذين يعتمد عليهم، ونتيجة لهذه الأحقاد والشكوك والتبلبل الفكري، أخذ يتصرف تصرفات طائشة تكاد لا تصدر إلا عن رجل مجنون . ومنها أنه قتل وزيريه ابني الجذع ، إذ بنى لهما بناء ورماهما فيه ومنع عنهما الأكل حتى ماتا.

كما أنه قتل أخته وطفلها إغراقاً في البحر، وارتكب الكثير جداً من أمثال هذه الأعمال، ولذلك امتلأت منه النفوس رعبا خاصة أقرب الناس إليه، وتوالت النكبات على ابن مردنيش ، ولم يخلصه من مأساته إلا موته المفاجىء عام (٥٦٧هـ) ، وهو لم يتجاوز من العمر الثامنة والأربعين. وبموته قدم آل محمد ابن سعد بن مردنيش طاعتهم للموحدين، وبذلك آل حكم شرق الأندلس كله

إلى الموحدين وبذلك شملت سيادتهم كل الأندلس الإسلامية [١] .

آثار حركة ابن مردنيش على دولة الموحدين :

لقد تأثرت دولة الموحدين بحركة التمرد الواسعة في شرق الأندلس وهزت هيبتهم وسلطانهم وقوتهم في نفوس النصارى الإسبان أولاً، ثم أمراء الأندلس ثانياً، ثم المغاربه ثالثاً، وبالرغم من أن الموحدين استطاعوا آخر الأمر أن يقضوا على إمارة ابن مردنيش، وضم أملاكه ضمن حدود خلافتهم، لقد استطاع ابن مردنيش أن يقف فترة طويلة أمام الموحدين، وأن يستولي على الكثير من القواعد المهمة التي كانت في أيديهم وأن ينزل بهم الخسائر الفادحة، لقد انشغل الموحدين بحربهم مع ابن مردنيش وركزوا جل قواهم أمام ابن مردنيش مما أتاح الفرصة للطامعين والمتذمرين من أهل المغرب أن ينتهزوا تلك الفرصة ويشقوا عصا الطاعة ، وبذا كانت مقاتلة ابن مردنيش الطويلة للموحدين، واستنزافه للكثير من جهدهم ورجالهم ووقتهم، كانت إحدى البذور التي أضعفت دولة الموحدين منذ قيامها [٢] .

ثالثاً: الثورة في المغرب الأقصى:

وفي عام (٥٥٩هـ / ١١٦٤م) قامت قبائل صنهاجة بالثورة ضد خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن وتزعم تلك الثورة مرزدغ الصنهاجي وانضمت إلى تلك الحركة بطون من صنهاجة وغمارة وأوربة وقام الثوار بمهاجمة النواحي ودخلوا تازا، حيث قُتِلَ رجالها وسُبِيَ نساءها واحتوى أموالها ولم يتوان خليفة الموحدين في إرسال جيش للثوار ففض جموعهم وقضى على زعمائهم [٣] .

وكانت هذه الثورة هي أول شرارة للثورات التي قامت في المغرب الأقصى منذ

---

(١) انظر : سقوط الموحدين(٩٠ ، ٩١) .

(٢) انظر : سقوط الموحدين(ص ٩١ ، ٩٢) .

(٣) انظر : المصدر السابق(ص ٧٥) .

٥٦٠هـ، فقد تبعتها ثورة كبيرة أخرى، قادها سبع بن منحفاد وخلفه قبيلة غمارة، وكانت هذه الثورة أخطر من سابقتها على دولة الموحدين، ولذلك خرج لهم الخليفة الموحدي على رأس جيوشه الجرارة للقضاء عليها وفي الثالث من شهر رمضان من سنة اثنتين وستين وخمسمائة تمكن الموحدون من إنزال الهزيمة بقبائل غمارة المنحازة إلي هذا الجبل. وكانت هذه الهزيمة سبباً في دخول الكثيرين من غمارة في طاعة الموحدين وأصبحت قوات المواحدين تحرز انتصاراً بعد انتصار وتلاحق المتمردين من الثوار حتى استطاعت أن تلقي القبض على سبع بن منحفاد ثم قتل وصلب ليكون عبرة لغيره وكان ذلك في عام ٥٦٢هـ. وهكذا تمكن الموحدين من القضاء على الثورة التي هزمت كيان دولتهم وأضعفت قوتهم وأوهنت شوكتهم وبذلك الانتصار اضطرت كثير من القبائل المغربية إلى الطاعة والإذعان لدولة الموحدين.

غير أن الموحدين ما كادوا يقضون على ثورتي صنهاجة وغمارة، حتى التهبت ثورة أخرى في سنة ثلاث وستين وخمسمائة (٥٦٣هـ)، ووقعت بجبل تاسررت في المغرب الأقصى ونواحيه وجرد جيش موحدي قوي إلى الثوار، بقيادة السيد أبي حفص عمر، تمكن من إخماد الثورة والقضاء على رؤوسها.

بعد ذلك هدأت الأمور في دولة الموحدين بعض الوقت وهدأت البلاد، سواء في المغرب أو الأندلس، ودخلت دولة الموحدين في فترة من الهدوء عمها الاطمئنان والراحة، فانتعشت الزراعة والصناعة وراجت الحركة التجارية [1].

رابعاً: الثورة في المنطقة الشرقية من المغرب الأقصى:

بسبب الظلم الذي تعرض له أهل قفصة في المغرب الأوسط اندلعت ثورة ابن الرند في عام (٥٧٥ هـ) واستطاع المعز بن المعتز الرندي أن يتخلص من حكم

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ٩٦، ٩٧، ٩٨).

الموحدين في قفصة وساعدته عدة أسباب في تحقيق هدفه منها، ما فعله قراقوش التقوى من أعمال ضد سيطرة الموحدين ونجاحه في الاستيلاء على الكثير من البلاد من أيدي الموحدين وكان قراقوش هذا مرسلاً من قبل الأيوبيين في مصر لضم ما يمكن ضمه للدولة الأيوبية السنية الخاضعة للخلافة العباسية في بغداد، وكما أن الانشغال الذي حدث للموحدين بسبب الثورات في الأندلس والمغرب الأقصى شجع ابن الرند وأهل قفصة في السعي من أجل التخلص من الهيمنة الموحدية المتعصبة لمذهب وعقيدة ابن تومرت المنحرفة، ولذلك اهتم الموحدون بأمر هذه الثورة، وخاصة وأن قراقوش التقوى اشتهر صيته في إفريقية وقوي سلطانه وتحالفت معه قبائل من بني هلال وبني سليم، فخشيت دولة الموحدين من اندلاع الثورات وانتشار أعمال التمرد ومن حدوث تحالف ثلاثي في المغرب الأوسط والأدني بين ابن الرند وقراقوش وقبائل بني هلال وسليم بادر خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن بالخروج على رأس جيش من مراكش في عام ٥٧٥هـ واستطاع يوسف بن عبد المؤمن أن يحتل قفصة في عام ٥٧٦هـ ثم أخذ الخليفة بعد ذلك في المرور على بعض ولايات إفريقية ومدنها، ليتفقد أحوالها ويطمئن عليها، وبعد أن رتب الخليفة أمور إفريقية رجع إلى قاعدة حكمه وبمعيته قائد التمرد على ابن الرند الذي لجأ إلى الخليفة مستسلماً وتائباً وطالباً للعفو عند حصار الموحدين لمدينة قفصة [١] .

لقد ساهمت الثورات التي حدثت ضد دولة الموحدين في تشجيع ملوك وأمراء الإسبان ، على الطمع في دولة الموحدين، وأحيت فيهم روح القتال والحرب كادت تنتهي في عهد عبد المؤمن بن علي؛ ولذلك تجددت روح العداء للموحدين من جديد [٢] .

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٠٠) .

(٢) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٠١) .

خامساً: غزو الخليفة الموحدي لبلاد الأندلس:

لما استتب الأمر ليوسف بن عبد المؤمن في بلاد المغرب، انصرف إلى الجهاد في الأندلس وكان أول عبوره لمضيق جبل طارق إلى إسبانية في صفر سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧١م) ، واستطاع أن يوجه ضرباته الشديدة إلى ابن سعد بن مردنيش الذي توفي عام ٥٦٧هـ فتنازل أبناؤه عن أملاكهم كلها للموحدين، فتفرغ بذلك أبو يعقوب يوسف إلى حرب النصارى، ومكث في الأندلس أربعة أعوام، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى، حقق فيها نجاحات رائعة، ثم عاد إلى مراكش عام (٥٧١هـ/١١٧٦م) ، بعد أن بنى جامع إشبيلية، وأدخل الماء إليها وأقام جسراً على واديها.

واستمرت الحرب بين المسلمين والنصارى في الأندلس على شدتها، برية وبحرية ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في جهاده ضد النصارى، عبر إلى الأندلس في صفر (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) وصمم على قتال مملكة البرتغال من البر والبحر، ثم الزحف على ضفاف نهر التاجة إلى قلب مملكتي قشتاله وليون، بينما تنشغل قوات إسلامية أخرى بالزحف من الجنوب على قوات النصارى القشتالية والليونية، وساعده في تحقيق خطته حشوده الضخمة، وقوة مسلمي الأندلس. سار أبو يعقوب على رأس الجيش الرئيسي متجها إلى بطليوس معتزماً حصار إشبونة، وكان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح، أن يستولي على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجة اليسرى، وعلى ذلك فما كاد يعبر نهر التاجة بجيشه، حتى ضرب الحصار حول قلعة شنترين مؤملاً أن تسقط في يده قبل مقدم الأسطول الذي خصص لمحاصرة أشبونة من جهة البحر.

وبعد أحد عشر يوماً من حصار شنترين بدأ يضربها بآلات الحصار ولم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة، حتى استولى أبو يعقوب عليها، خلا قلعتها،

وذلك في (٢٢ ربيع الأول سنة ٥٨٠هـ) ، وكان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه معتبراً القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته، وكان ذلك يسبب المرارة الشديدة في نفوس أولئك القادة المجربين، فاعترضوا على تحويل المعسكر من شرقي شنترين إلى شماليها وغربيها، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء ولكن إرادة أبي يعقوب يوسف هي التي نفذت دون سواها، فكان الخطر ولما دخل الليل أمر أبو يعقوب ولده إسحاق والي إشبيلية أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة، فهل وقع سوء فهم، أم كانت ثمة فتنة؟.

إن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعبر نهر التاجة وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش، حتى انتشر الاضراب والروع في أنحاء المعسكر الإسلامي، وتفاقم، الأمر، حيث زحف سانو ابن ملك البرتغال على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشرة ألف مقاتل، وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة، ألقى بنفسه أمام الجيش البرتغالي وجهاً لوجه.

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب، خلافاً لنصح قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ومسير القوات الأندلسية إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه غير طبيعي، وأخيراً ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر للنصارى أعظم من سابقه ، كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحدين نوعاً من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر أبي يعقوب لا قيمة لها. وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل، وانضم إلى جيش البرتغال الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادر النصارى

بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وساعدت حامية قلعة شنترين جيش النصارى بالخروج من القلعة، ومهاجمة المسلمين [١] ، ولما كان قسم كبير من الموحدين قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه الخاص، وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع التي لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف. ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطاً، أنه وقع ضحية خيانة، أو ضحية سوء تفاهم، لقد وجد نفسه أمام الأعداء وخاض معركة كانت كفة النصارى فيها أرجح فقد قتل حرس أبي يعقوب وحمل أبو يعقوب على النصارى بسيفه وقتل ستة من الرجال، وأخيراً طعنه أحد النصارى بسيفه طعنة نافذة فسقط على الأرض ملطخاً بدمائه [٢] .

ولما بلغ اشتباك الخليفة مع النصارى بقية الجيش رجع الأمير أبو إسحاق بقواته وهاجم بها النصارى وسالت دماء الفريقين غزيرة، فتح المسلمون في نهايتها قلعة شنترين [٣] .

استشهد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في (١٢ ربيع الأول ٥٨٠هـ/ ٢٤أيار) (يوليو سنة ١١٨٤م) ، وكانت مدة حكمه اثنين وعشرين عاماً.

لقد حمل الجنود خليفتهم إلى إشبيلية، وأرسل منها في تابوت إلي تينلل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن [٤] .

سادساً: أسباب فشل أبي يعقوب يوسف في توحيد الأندلس:

لم يستطع السلطان يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس لعدة أسباب منها:

﴿ ١ ﴾ لم تكن قيادة يوسف بن عبد المؤمن قد وصلت إلى درجة النضج العسكري والسياسي ولذلك نجده يحشد الجيوش الكبيرة التي تحتوي على

---

(١) ، (٢) ، (٣) **انظر** : الآراك شوقي أبو خليل (ص ٤٢) .
(٤) **انظر** : المعرب الكبير (٢ / ٨٠١) .

عناصر مختلفة من قبائل بني هلال وسليم وقبائل الموحدين ومقاتلة الأندلس والجند الموحدي وليست لهذا الجيش خطة مرسمة يسير عليها، كما حدث عند غزوه لمدينة وبذة عام (٥٦٧هـ) حيث كان قرار الغزو قد جاء متأخراً عن وقت وصوله إلى الأندلس بقرار فردى من خليفة الموحدين والذي كان هو صاحب الرأي النهائي والقاطع في إدارة قيادة الجيش وكان من سماته أخذه للقرارات بسرعة مذهلة وبدون تروٍ أحياناً ، فقد قرر أن تكون وجهة حملته الكبيرة مدينة ونده، بمجرد اقتراح وفد شرق الأندلس ذلك عليه، ثم إنه أثناء مسيره إلى وندة ، غير وجهة مسيرة الجيش لافتتاح حصني بلج والكرسي وذلك لمجرد اقتراح ابن همشك عليه بذلك.

﴿ ٢ ﴾ ومما يعيب كفاءة خليفة الموحدين ، عدم تقديره للظروف وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق وعلى سبيل المثال ما حدث من رفضه لعرض أهل مدينة ونده تسليم مدينتهم مقابل حصولهم على الأمان وكان من المشرف له أنه قبل هذا العرض وحصل على المدينة بدون أي جهد كان.

﴿ ٣ ﴾ كانت للخليفة الموحدي ميولات فكرية طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية ولذلك نجد الخليفة الموحدي بدلاً من أن يكون مشرفاً على تيسيير دفة المعارك وهو القائد الوحيد والمسئول الأول، مشغولاً بمناقشة مسائل فكرية لا تمت إلى المواقف العسكرية بصلة، فعندما كانت جيوش الموحدين مدينة وندة جاءه أحد قادة الموحدين وطلب من الخليفة إمداد ببعض الجند حتى يتمكن من إحراز النصر لم يلتفت بإليه واستمر في مناقشة تلك المسائل [١] .

﴿ ٤ ﴾ لم يكن ولاء المسلمين قوي لدولة الموحدين؛ ولذلك كلما تحين فرصة للطعن فيها والثورة عليها يستغلها خصومهم الذين تعرضوا للظلم والقهر من

---

(١) **انظر** : سقوط الموحدين (ص ١٢٠) .

زعماء الموحدين.

﴿ ٥ ﴾ انتشار الخيانة في أداء الواجب والتعدي على أموال الدولة من قبل الولاة في عهد يوسف بن عبد المؤمن؛ ولذلك اضطر الخليفة لمحاسبة الولاة ومعاقبة الجناة في الأموال التي اغتصبوها، ونفيهم من البلاد إلى أن أنزل بهم عقوبة الإعدام ، لقد شمل ظلم الولاة الكثير من رعايا الدولة وتولدت قاعدة عريضة من المجتمع تعارض سياسة الولاة الظالمة القمعية وواصلوا جهادهم السلمي بمطالبة الدولة بمحاسبة بعض الولاة، واضطر الخليفة لمحاسبة بعض مسئولي الدولة ومن أشهر هذه الحوادث :

■ محاسبة محمد بن أبي سعيد مسئول الأعمال المخزنية في إشبيلية وثبتت عليه خيانته للدولة فصودرت أمواله وممتلكاته وامتحن في نفسه طويلا ثم ضرب وكان ذلك عام ٥٧٣هـ [١] .

﴿ ٦ ﴾ انتشار الطاعون في بلاد المغرب والأندلس في زمن يوسف بن عبد المؤمن في عام ٥٧١ هـ واستمر لمدة عام تقريباً ، بالمغرب الأقصى وامتد إلى الأندلس وإلى المغرب الأوسط والأدنى. وقد قضى على الكثيرين من السكان وعلى بعض زعماء دولةالموحدين منهم أربعة من أبناء عبد المؤمن بن علي . وقد أصيب الخليفة الموحدي نفسه وأخوه السيد أبو حفص عمر، ولكنهما شفيا من المرض وعوفيا، وكاد هذا المرض أن يقضي على من كان بدور الخليفة وأهله، أما أهل مدينة مراكش فقد قضى على الكثيرين منهم وضاق المصلى بالموتى، فأمر الخليفة بأن يصلى عليهم في عامة مساجد مراكش، ونتيجة لهذا الوباء الفاتك، فقد خيَّم جو من الكآبة والحزن على مراكش الزاهرة ، ولم يعد يخرج منها أحد أو يأتي وافد إليها [٢] .

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين(ص ١٢٧) .

(٢) المصدر السابق ،(ص ١٢٩) .

ومن كبار الشخصيات التي قضى عليها هذا الوباء الشيخ أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاتي، وهو أحد طبقة الجماعة، ومن كبار الشخصيات التي ساهمت في إقامة دولة الموحدين، فقد كان قادماً من قرطبة إلى مراكش فأصيب في الطريق ومات عام ٥٧١هـ، وكان لهذا الوباء الذي فتك بالكثيرين من أهل المغرب والأندلس أثره في إضعاف المعنويات، وفي قلة الأيدي العاملة، وتعطل التجارة، وتوقف الحياةالزراعية والصناعية، وقد ترتب على ذلك أزمة اقتصادية حادة كانت ذات أثر مادي ومعنوي سيء على الرعية، وشجعت هذه الظروف العصيبة التي تمر بها دولة الموحدين ممالك وإمارات النصارى من النيل من الموحدين؛ ولذلك نقضت تلك الممالك والإمارات المعاهدات التي بينها وبين الموحدين وأخذت تعبث في بلاد الأندلس بالفساد[١] «وكان الناس من ضعف المرض لا يستطيعون الحركة»[٢] ونتيجة لهذه الظروف القاسية لم يستطع الموحدون أن يقوموا برد حاسم على التو والحين[٣].

﴿ ٧ ﴾ تمرد قبيلة هرغة على الخليفة الموحدي: وهذه القبيلة ينحدر - منها محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، ففي سنة ٥٧٨هـ وصلت الأخبار إلى الخليفة الموحدي في مراكش بأن قبيلة هرغة قد استولت على معدن الفضة الذي يستخرج بقربهم من جبل السوس فاهتم الخليفة بهذا الحادث لأمرين:

الأمر الأول:

وهو وجوب القضاء على تمرد هذه القبيلة التي تشعر بسموها لانتهائها إلى ابن تومرت وخوفاً من التفاف قبائل الموحدين حولها.

---

(١) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩).
(٢) البيان المغرب (٣ / ١١٠).
(٣) انظر: سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩).

والأمر الثاني :

فإن معدن الفضة يمثل مورداً مالياً مهما لخزانة الموحدين، ولذلك فإن فقده يصيب هذه الخزانة بضربة عنيفة.

ولذلك بادر الخليفة بالخروج من مراكش في صفر سنة ٥٧٨هـ على رأس قواته. ولما وصل إلى جبل السوس أرغم قبيلة هرغة على تجديد الولاء والتوبة مما ارتكبته واسترجع منها ما كانت اغتصبته من المعدن. ثم بعد ذلك أمر ببناء حصن منيع حول المنجم، ووضع عليه جنداً لحراسته، لقد كان لهذه الثورة أثر في إضعاف شوكة الموحدين واضطراب هيبتهم ، وتشجيع خصومهم على محاربتهم [(١)] .

﴿ ٨ ﴾ ضعف التكتيك العسكري عند الخليفة الموحدي وحرصه على أن يتولى جميع الأمور بنفسه وعدم إصغائه لنصح الناصحين ، ويظهر ضعف تكتيكه العسكري في حصر جيوشه الضخمة في مهاجمة نقطة صغيرة، كما حدث في مهاجمته لمدينة وبذة وشنترين على التوالي، مما أتاح للملوك وأمراء الإسبان التحالف فيما بينهم ومواجهة الموحدين وهم في مركز قوة.

ولو اعتمد أسلوب الكر والفر بالجيوش الصغيرة ذات القوة والحركة السريعة لجعل الإسبان يضطرون إلى مدافعة كل فريق عن مملكته وإمارته وإلى مواجهة الموحدين متفرقين مع حالة الضعف التي تؤدي إلى انهزام النصارى [(٢)] .

﴿ ٩ ﴾ استطاع النصارى أن يوحدوا صفوفهم وجهودهم ضد الموحدين ويتخذوا موقفاً عدائياً واحداً منهم [(٣)].

هذه أهم الأسباب التي منعت خليفة الموحدين من ضم الأندلس للمغرب ومن ثم الانطلاق لتوحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ونفوذهم وسلطتهم، لقد كان

---

(١) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٢٩) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٤٥) .

(٣) **انظر** : سقوط دولة الموحدين (ص ١٥٤) .

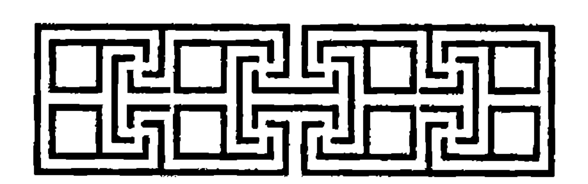
يوسف بن عبد المؤمن يتطلع إلى توحيد العالم الإسلامي كله، وقد عبر عن تلك الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره في قوله يمدح خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن:

ستملك أرض مصر والعراقا ويجري نحوك الأمم استباقا [١]

إلا أن قدرته ومواهبه كانت محدودة، ولم يتح الفرصة لظهور قادة عظام من الذين يستطيعون أن ينظموا ويقودوا الجيوش الضخمة بعكس يوسف بن تاشفين الذي أبدع في صقل قادته ودفعهم نحو المعالي،فعرفوا كيف ينزلون الهزائم بالإسبان.

وعلى أي حال فأبو يعقوب يوسف كان دائماً رجلاً مريضاً وفي تتبعنا لتاريخه نجده يصاب بالمرض المرة بعد المرة ، حتى لقد ظل مرة سنة كاملة مريضاً طريح الفراش، ولهذا يذهب بعض المؤرخين إلى أنه مات إثر مرض أصابه أثناء الحصار [٢] .

توفي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في السابعة والأربعين من عمره، وكان رجلاً شهماً بذل أقصى جهده في بناء الدولة، وهو يعد من كبار الخلفاء والسلاطين في تاريخ المغرب الإسلامي [٣] .



(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، العبادي (ص ١١٥).

(٢) **انظر** : معالم تاريخ المغرب والأندلس ، حسين مؤنس (ص ١٥٤).

(٣) **انظر** : نفس المصدر السابق (ص ١٩٤).

المبحث الثالث

أبو يوسف يعقوب المنصور

أولاً: اسمه وشيء من سيرته :

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي صاحب بلاد المغرب - كان صافي السمرة جداً، إلى الطول مائل ، جميل الوجه أفوه أعين شديد الكحل ضخم الأعضاء جهوري الصوت جزل الألفاظ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابة بالظن ، مجرباً للأمور ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور، ولما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجده ولقبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر في أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات [(١)] .

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرر في مراكزها ومهد مصالحها في مدة شهرين [(٢)] .

[أ] إصلاحاته في منهج دولة الموحدين:

صرح زمن حكمه بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت [(٣)] وجالس

---

(١) ، (٢) وفيات الأعيان (٧/٤) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٦) .

الصلحاء والمحدثين ومال إلى الظاهر، وأعرض عن كتب المالكية، وأحرق ما لا يحصى من كتب الفروع [١] .

قال عبد الواحد بن علي: كنت بفاس فشهدت الأحمال يؤتى بها، فتحرق، وتهدد على الاشتغال بالفروع، وأمر الحفاظ بجمع كتاب في الصلاة من « الكتب الخمسة »، و« الموطأ » ومسند ابن شيبة ومسند البزار وسنن الدارقطني وسنن البيهقي وكان يملي ذلك بنفسه على كبار دولته وحفظ ذلك خلق، فكان لمن يحفظه عطاء وخلعة [٢] ، وكان لا يحب التعمق في آراء الفقهاء البعيدة عن الدليل، قال مرة لعبدالواحد بن علي: (أنا أنظر في هذه الآراء التي أحدثت في الدين، أرأيت المسألة فيها أقوال، ففي أيها الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له، فقطع كلامي، وقال: ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا ، وأشار إلى « سنن » أبي داود، أو هذا، وأشار إلى السيف[٣] .

قلت: والذي ينبغي للحاكم أن يوسع دائرة المذاهب، والاطلاع على ما دلَّتْ عليه أصول أهل السُنَّة والجماعة ، وهذا ما فعله السلطان الكبير والقائد الفذ نور الدين محمود زنكي حيث ترك مذاهب أهل السُنَّة والجماعة تنشط في دعوتها ودعم مدارس المالكية والحنابلة والشافعية مع كونه حنفياً، واهتم بالمحدثين ووفر لهم ما يحتاجون من أجل تبليغ رسالتهم وكذلك القراء والحفاظ وبذلك الفعل الجميل استطاع أن يجند أهل السُنَّة والجماعة ضد الرافضة وضد النصارى وواصل السير بعد وفاته تلميذه المخلص صلاح الدين وتحققت الانتصارات الكبرى والفتوحات العظمى.

إن هذا التضييق الذي فعله أبو يوسف يعقوب الناصر وبعض حكام الموحدين جعل أسباب الثورات الدخلية متواجداً .

---

(١) نفس المصدر السابق (٢١/ ٣١٣) .

(٢) ، (٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٤) .

لقد نظر الموحدون إلى الذين خالفوهم في ميدان العقائد والمبادىء نظرة معادية اتسمت بالحقد والكراهية، على أنهم من غير أهل الإيمان فعاملوهم بقسوة بالغة، مما أثار لدى بعض العلماء والفقهاء موجة من الذعر والخوف، ولعل أوضح مثال على هذه الحالة ما جاء على لسان الوهراني بعد سقوط دولة المرابطين بقوله: (لما تعذرت مآربي واضطربت مغاربي، ألقيت حبلي على غاربي، وجعلت من مذهبات الشعر بضاعتي ومن أخلاق الأدب رضاعتي)[1].

وعبر الوهراني عن كرهه الشديد من خلال جواب على سؤال حول رأيه في عبد المؤمن بن علي الموحدي وأولاده وسيرته ببلاده فقال: (مؤيد من السماء خواض للدماء مسلط على من فوق الماء حكم سيفه في المعمم وأعمله في رقاب الأمم.. ولوأن للعلم لساناً والورقة إنسانًا لتألمت وتظلمت.. ولكن السكوت على هذا الحال أرجح ومسالمة الأفاعي أنجح)[2].

وهذا أبو الوليد محمد بن عبد الله القرطبي، الذي يصف المقرى أحواله في كتاب نفح الطيب بقوله: (وخرج من الفتنة بعد ما علا ذكره في قرطبة وأقام بالإسكندرية خوفاً من بني عبد المؤمن بن علي، ثم قال: كأني والله بمراكبهم قد وصلت إلى الإسكندرية، ثم سافر إلى مصر، وأقام بها مدة ثم قال فوالله ما مصر والإسكندرية بمتباعدين، ثم سافر إلى الصعيد وحدث بقوص بالموطأ ثم قال ، ويصلون إلي هذه البلاد ولا يحجون ما أنا إلا هربت منه إليه، ثم دخل اليمن ولما رآها قال: هذه أرض لا يتركها بنو عبد المؤمن فتوجه إلى الهند، حيث أدركته منيته بها سنة ٥٥١هـوقيل باليمن)[3].

ولله در الإمام مالك في نصحه لأبي جعفر المنصور العباسي عندما أراد أبو

---

(١) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ، د . عليّ أحمد (ص ٨٦) .
(٢) نفس المصدر السابق (ص ٨٥ ، ٨٦) .
(٣) الدور الفكري للأندلسيين والمغاربة في المشرق ، د . عليّ أحمد (ص ٨٧) .

جعفر أن يحمل الناس على الموطأ:

قال أبو مصعب: سمعت مالكاً يقول: دخلت على أبي جعفر بالغداة حين وقعت الشمس بالأرض، وقد نزل عن شماله إلى بساط، وإذا بصبي يخرج ثم يرجع، فقال: أبو جعفر:- أتدري من هذا؟ قال: لا، قال: هو والله ابني وإنما يفزع من شيبتك، وحقيق أنت بكل خير، وخليق بكل إكرام، يقول مالك: وقد كان أدناني، وألصق ركبته بركبتي، فلم يزل يسر لي حتى أتاه المؤذن بالظهر، فقال لي: أنت أعلم الناس،فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، فقال: بلى ولكنك تكتم ذلك، ولئن بقيت لأكتبن كتابك بماء الذهب، ثم أعلقه في الكعبة، وأحمل الناس عليه. فقلت: ياأمير المؤمنين لا تفعل، فإن في كتابي حديث رسول الله ﷺ، وقول الصحابة، وقول التابعين، ورأياً هو إجماع أهل المدينة لم أخرج عنهم، غير أني لا أرى أن يعلق في الكعبة [١] .

وفي رواية: يا أمير المؤمنين إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد ، فأفتى كل في مصره بما رآه « فلم يزل يؤخذ عنهم كابراً عن كابر إلى يومنا هذا، فإن ذهبت تولهم عما يعرفون إلى ما لا يعرفون رأوا ذلك كفراً، فأقر كل أهل بلد على ما فيها من العلم، وخذ هذا العلم لنفسك [٢] .

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب الناصر من أفضل عصور دولة الموحدين ولا يمنع ذلك أن نعلق على بعض الأخطاء التي حدثت في فترته، وإن كان الرجل استطاع أن يصلح بعض الانحرافات العقدية عند الموحدين مثل زعمهم العصمة لابن تومرت [٣] وينكر على من قدم كتبه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

ذكر الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور سأل الفقيه أبا بكر بن هاني الجياني

---

(١) **انظر** : الإمام مالك بن أنس ، عبد الغني الدقر (ص ١٣٣) .

(٢) نفس المصدر السابق (ص ١٣٤) .

(٣) **انظر** : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣١٦) .

ما قرأت؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت - قال: فزوروني [١] ، وقال ما هكذا يقول الطالب! حكمك أن تقول: قرأت كتاب الله، وقرأت من السنة، ثم بعد ذلك قل ما شئت [٢] .

وكان مجلسه عامراً بالعلماء وأهل الخير والصلاح يقول تاج الدين ابن حمويه: دخلت مراكش في أيام يعقوب، فلقد كانت الدنيا بسيادته مجملة، يقصد لفضله ولعدله ولبذله وحسن معتقده، فأعذب موردي، وأنجح مقصدي، وكانت مجالسه مزينة بحضور العلماء والفضلاء، تفتح بالتلاوة ثم الحديث، ثم يدعو هو، وكان يجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحاً، مهيباً، حسن الصورة، تام الخلافة، لا يرى منه اكفهرار، ولا عن مجالسه إعراض، بزي الزهاد والعلماء وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله «فتاو»، وبلغني أن السودان [٣] قدموا له فيلاً فوصلهم، ورده، وقال: لا نريد أن نكون أصحاب الفيل وكان يجمع الزكاة ويفرقها بنفسه، وعمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبي، وعشرة معلمين. حكى لي بعض عماله: أنه فرق في عيد نيفا وسبعين ألف شاة [٤] .

وكان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق، وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمر، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا ، فعظموا عند الموحدين [٥] .

وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة واهتم

---

(١) أي : نظر إليه نظرة المغضب .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣١٦) .

(٣) تطلق على بلاد غرب إفريقيا وجنوب الشمال الإفريقي سابقًا .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٣١٤) .

(٥) المصدر السابق نفسه .

بالمرضى وبنى لهم مارستان ، وغرس فيه من جميع الأشجار، وزخرفه وأجرى فيه المياه، ورتب له كل يوم ثلاثين ديناراً للأدوية،وكان يعود المرضى في الجمعة (١) .

ولم تكن للفلاسفة عنده مكانة وأحرق كتبهم واهتم بالطب والهندسة (٢) .

وحارب الخمر في ملكه وتوعد عليها فعدمت (٣) .

قال عنه ابن كثير- رحمه الله -:

« كان دينًا حسن السيرة صحيح السريرة ، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهرياً حزمياً ثم مال إلى مذهب الشافعي واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مده ملكه خمس عشرة، وكان كثير الجهاد رحمه الله، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه الله» (٤) .

وقال عنه ابن العماد: (كان ذكياً شجاعاً مقداماً محباً للعلوم كثير الجهاد ميمون النقيبة ظاهري المذهب، معادياً لكتب الفقه أباد منها شيئاً كثيراً بالحريق وحمل الناس على التشاغل بالأثر) (٥) .

وربما كان فعل أبي يوسف بن يعقوب المنصور في حرقه لكتب الفروع إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت والتي أخذ كثير من الموحدين بما فيها دون سواها، ولا أستبعد أن يكون هذا العمل من قبل أبي يوسف يعقوب المنصور إنما كان من أجل مؤلفات ابن تومرت لكنه لم يستطع أن يفردها دون غيرها حتى لا يثير الناس (٦) .

إن هذا السلطان طلب من العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري – أحد

---

(١) المصدر السابق (٢١/ ٣١٥) .

(٢) ، (٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٧) .

(٤) البداية والنهاية ، المجلد السابع ، الجزء (١٣ / ٢٢) .

(٥) شذرات الذهب (٤ / ٣٢١) .

(٦) ربما هذا التعليل لا يكون صحيحًا .

المقربين إليه أن يشهد له بين يدي الله عز وجل بأنه لا يقول بالعصمة - يعني عصمة ابن تومرت ولم يكتف المنصور بهذا بل إنه حاول إرجاع الناس إلى الكتاب والسُّنَّة واستئصال ونبذ تعاليم ابن تومرت التي توغلت في قلوب بعض الناس في المغرب والأندلس.

ولقد استخف السلطان يعقوب بن يوسف بمن بالغوا في تعظيم ابن تومرت وتقديسه، والعمل بما قال به، أو دعا إليه «لانه لا يرى شيئاً من هذا كله وكان لا يرى رأيهم في ابن تومرت..» [1].

ولعل هذا الشعور هو الذي دفعه إلى أن يؤثر في الطلبة الذين جاءوا من أنحاء بلاد المغرب والأندلس لطلب العلم في حاضرة الدولة على شيوخ الموحدين الذين تأصل حب ابن تومرت وما دعا إليه في نفوسهم فلما بلغه حسد شيوخ الموحدين لهؤلاء الطلبة على مكانتهم عنده وتقريبه لهم خاطبهم قائلاً: «.. يا معشر الموحدين أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا فمهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون» [2].

إن الخليفة الثالث للموحدين عمل على محو الباطل من دعوة ابن تومرت وسعى لتقويضه بعد نصف قرن من انتشار تعاليم ابن تومرت، وهي مدة قصيرة في عمر الدعوات ؛ لأن ما تحمله دعوة ابن تومرت من جنوح في بعض أفكارها جعلت أقرب الناس منها يسعون لتقويضها ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [يونس: ٨١] ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ .

[الرعد: ١٧].

إن المنصور الموحدي لم يعلن صراحة بطلان ما دعا إليه ابن تومرت، لأن الكثير

---

(١) **انظر** : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ،(ص ٥٧٥) .

(٢) **انظر** : نفس المصدر السابق(ص ٥٧٦) .

من الناس ببلاد المغرب، الأقصى، لا سيما العامة وشيوخ الموحدين، وزعماء القبائل، قد تعلقوا بدعوة ابن تومرت، واقتنعوا بصحة ما قال به أو دعا إليه، فلو واجههم المنصور بالنقد الصريح أو العمل الجاد للقضاء على دعوة ابن تومرت لنشأ عن ذلك رد فعل خطير من قبل أولئك القوم قد لا يستطيع رده أو التصدي له، وهذا بلا شك جعله يكتفي بموقفه منها دون اتخاذ أي خطوات عملية ضدها، ولكن وبالرغم من قلة ما قام به المنصور من جهد، أو عمل مضاد لدعوة ابن تومرت، إلا أن عمله هذا كانت له نتائج إيجابية وطيبة، حيث إنه بهذا الإجراء كسر ذلك السياج الذي أحيطت به دعوة ابن تومرت، مما دعى الكثير من الموحدين لا سيما المنصفين منهم إلى التمعن في حقيقة دعوة ابن تومرت ودراستها بموضوعية وإنصاف، فبانت لهم حقيقتها وما تحمله من جنوح في تفكير ها مما دفعهم إلى الأخذ بالتحلل من تعاليمها شيئاً فشيئاً [١] .

ثانياً: سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب :

تعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور، ثالث الخلفاء الموحدين، العصر الذهبي للدولة الموحدية والذروة التي وصل إليها التطور السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الكبرى الموحدية.

ولقد كان ذلك العصر الذهبي قصيراً، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف غزيرة الثروة والموارد مثل دولة الموحدين، فإن خلفاء الموحدين حكموا بلاداً تضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوتهم، وكانت تحت إمرتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك لم تتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي، فقد كانت جيوش الموحدين تعج بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن اجتذبتهم الدولة الموحدية

---

(١) انظر : مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود ، (ص ٥٧٥) .

بقوتها وهيبتها، ثم أضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة،ولم يخل الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة [١] .

رغم هذه القوات كانت القوة العسكرية الموحدية دائماً مفككة، تنقصها القيادة الحازمة التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتوجه الأعمال وفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازماً موهوباً في شئون الإدارة والقيادة العسكرية، وكان شديد الإيمان فانتقل إيمانه إلى رجاله ، وكسبت جيوش الموحدين في أيامه قوة ضاربة كبرى [٢] .

[أ] الصراع مع بني غانية المرابطين :

استطاع بنو غانية أن يقودوا في المغرب الأوسط ضد أبي يعقوب يوسف المنصور، واستطاعوا أن يحتلوا مدينة بجايه بأربعة آلاف من الطوارق الملثمين بسبب ضعف حامية الموحدين هناك، وكان من سوء حظ دولة الموحدين أن ابتليت بمشكلة بني غانية التي لم تقدرها الدولة حق تقديرها وأصبحت في النهاية من أسباب سقوط الدولة.

كان زكريا بن يحيي بن غانية قد تولى بعض الأعمال في قرطبة في عهد الخليفة المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ثم تولى أخوه ابن غانية حكم جزر البليار وهي الجزر الشرقية منذ عام (٥٤١هـ /١١٤٦م) وظل يحكمها حتى سقطت دولة المرابطين وعندما بسط الموحدون سلطانهم على الأندلس ظل بنو غانية لا يخضعون لسيطرتهم وظل عدم خضوعهم حتى موت محمد ابن مردنيش عام (٥٦٧هـ /١١٧١م) ، وبسط الموحدون سيطرتهم على بلنسية

---

(١) انظر : معالم تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٩٤) .

(٢) المصدر السابق (ص ١٩٥) .

ومرسية وشاطبة وبلاد الساحل الشرقي وكان على حكم جرز البليار في ذلك الوقت محمد بن إسحاق بن محمد بن غانية، وقد كان يريد الدخول في طاعة الموحدين، لكن إخوته عزلوه ورفضوا ذلك وولوا بدلا منه أخاه علي بن إسحاق الذي بادر بإعلان الثورة على الموحدين وخاض ضدهم معركة طويلة الأجل .

ويرجع أصل بني غانية إلى مسوفة الصنهاجية وعرفوا ببني غانية على اسم أمهم ، **وأمثال هذه التسميات كانت معروفة عند المرابطين:**

لقد كان بنو غانية شوكة ضد الموحدين، كانوا من خيرة المجاهدين ضد القوى الصليبية، واشتهروا بالغزو البحري لجنوب فرنسا وقطلونيا ، وساروا على سنة أسلافهم في العقائد والتزام منهج أهل السُنَّة والدعاء للخليفة العباسي في بغداد واتخاذ ألويتهم السوداء شعاراً لهم وهادنوا الموحدين بعض الوقت، ولما مات خليفة الموحدين يوسف بن عبد المؤمن واضطربت أحوال الدولة الموحدية بعض الشيءاستغل بنو غانية هذا الاضطراب وأظهروا العصيان وخرجوا عن سياسة المهادنة واستولوا على أسطول موحدي ضخم عندما كان في زيارة الجزر الشرقية، ثم خرجوا بأساطيلهم ورجالهم إلى المغرب الأوسط عام ٥٨١هـ / ١١٨٥م وتحالف بنو غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال ومع جنود الغزو المملوكي الذي كان يقوده قراقوش التقوى وأعلنوا ولاءهم للدولة العباسية ورفعوا شعارها ، وأصبح المغرب الأوسط والأدنى تابعاً وخاضعاً لأتباع الخلافة العباسية .

وكان أول عمل قام به المنصور يعقوب بن يوسف هو الشروع في القضاء على بني غانية، فأرسل العيون والأعوان إلى المغرب الأوسط وإفريقيا وحاول تفكيك التحالف الثلاثي بين بني غانية والقبائل العربية أتباع قراقوش وواعد زعماء القبائل وأعيان البلدان بالعفو والإحسان وشرع في إرسال الجيوش تتلوها الجيوش وانكسرت بعض جيوش الموحدين وارتفعت معنويات بني غانية أمام الموحدين إلا أن السلطان يعقوب ابن يوسف استمر في إرسال الحملات وفقد الألوف من

جنوده ومن خيرة رجاله، وأنفق الملايين من الأموال وكان بنو غانية وحلفاؤهم قد اتخذوا الصحراء ملجأهم فكلما تضيق عليهم الدائرة يفرون إلى الصحراء ثم لا يلبثون أن يعودوا من جديد، واستمرت هذه المعارك سنوات طويلة ولكن في النهاية استطاع أبو يوسف يعقوب بن يوسف أن يسحق هذه الثورة العنيفة ويقبض على زعمائها وقاد العمليات العسكريةبنفسه عام (٥٨٢هـ /١١٦٨م) وجعل من مدينة تونس مقراً لقيادته، واستطاع بفضل حزمه شجاعته أن ينتصر على الثوار وفر علي بن غانية إلى الصحراء وظل بها إلى أن مات عام ٥٨٤هـ وانضم إلى جيوش الموحدين كثير من الأعراب والأتراك واستطاع يعقوب بن يوسف أن يوحد بلاد المغرب كلها غربها وشرقها إلى المحيط الأطلسي غربا. ولقد استعمل يعقوب بن يوسف الدهاء والمكر والحنكة والسياسة والمال ضد خصومه وقبل رجوعه إلى المغرب الأقصى رتب أمور القبائل ونظم أمور الولاة، واهتم بإدارة الأموال، ونقل معه كثيراً من القبائل العربية إلى المغرب الأقصى، ليستخدمها في الجهاد ضد النصارى ويأمن من ثوراتها المستمرة.

لقد استطاع أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحدي من الداخل، وأمن خطر القبائل العربية ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس، لقد كان هذا العمل الحاسم القوي في توحيد الجبهة الداخلية سبباً انتصاره على النصارى في الأندلس في معركة الأرك الكبيرة.

لقد كانت أهداف أبي يوسف يعقوب المنصور واضحة المعالم في حركته ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهذا يدل على عمق تفكيره الإستراتيجي وبعد نظره العسكري[١] .

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣١/٢٢٤ - ٢٢٧)

إننا ونحن ندرس التاريخ أمام درس عظيم ومهم في حياتنا المعاصرةألا وهو إذا أردنا بالفعل استرداد الأندلس فإن ذلك الأمر العظيم وهذا الهدف السامي الجميل يسبقه عمل جاد ومتواصل من أجل توحيد بلاد المغرب على أصول منهج أهل السُنَّة والجماعة وبعد ذلك تبدأ حركة الدعوة والجهاد المقدس نحو أراضينا المفقودة وعزنا المنشود.

إن تحرير بيت المقدس ما تم إلا بعد توحيد العراق ومصر والشام وإزالة البدع بالحجة والبرهان وقلع دولة الرافضة بالسيف والسنان مع التدرج المدروس والهمة العالية في تحقيق الأهداف السامية.

[ب] جهاده في الأندلس:

بعد استشهاد السلطان الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في الأندلس (٥٨٠هـ) ، هدأت الحرب بضعة أعوام لسببين مهمين:

﴿١﴾ انشغال الموحدين بثورات قامت في إفريقية، ومرض أبي يوسف المنصور في مراكش، فقد كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه.

﴿٢﴾ الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفترة، فحرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده فيغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين « مارتن دي بسيرجا » مطراناً لطليطلة، شَرَعَ الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الإسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية والحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حمله دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم،فانتسفت الغلات والكروم، وقطعت أشجار الزيتون، وخربت الضياع والقرى، وسيقت الماشية، وسبي المسلمون العزل رجالاً ونساء، وقتل قسم كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى

أقصى جنوب الأندلس، وهم يتابعون العبث والتخريب [١] .

وظهر غرور ألفونسو الثامن ملك قشتالة واعتزازه بالنصرانيةولم يقتنع بالغنائم العظيمة التي رجع بها المطران مارتن إلى طليطلة، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يشابه كتاب ألفونسو السادس إلى يوسف بن تاشفين يدعوه إلى القتال .

وهذا نص الخطاب كما ورد في وفيات الأعيان:

«باسمك اللهم فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الرسول الفصيح . أما بعد.. فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب ، أنك أمير الملة الحنيفية، كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمت الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري، وأمثل بالرجال، ولا عذرلك في التخلف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم، فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً، ونحن الآن تقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعاً ولا تملكون امتناعاً، وقد حُكِي لي عنك أنك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك عاماً بعد عام، تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فلا أدري أكان الجيش أبطأ أم التكذيب بما وعد ربك؟ ثم قيل لي إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها، أنا أقول لك ما فيه الراحة لك وأعتذار لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وترسل إلى جملة من عبيدك بالمراكب والشواتي والطرائد والمسطحات، وأجوز بحملتي إليك، وأقاتلك في أعز الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جلبت إليك، وهدية عظيمة مثلت بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي

---

(١) انظر : تاريخ الأندلس ، يوسف اشباخ(٢ / ٨١) .

العليا عليك، واستحقيت إمارة الملتين والحكم على البرين، والله تعالى يوفق للسعادة، ويسهل الإرادة، لا رب غيره ولا خير إلا خيره إن شاء تعالى » [١] .

فلما وصل كتابه إلى الأمير أبي يوسف المنصور مزقه وكتب على ظهر قطعة منه: ﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** (٣٧) ﴾ [النمل : ٣٧]. الجواب ما ترى لا ما تسمع.

ولا كُتبَ إلا المشرفية عنده ... ولا رُسُل إلا الخميس العرمرم [٢]

لقد اشتد غضب أبي يعقوب المنصور على ألفونسو الثامن وغطرسته، وأخذته غيرة الإسلام، فبادر بالتأهب للجهاد في الأندلس، وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم ، وضج الناس وصاحوا بشعارات الجهاد ، وأمر السلطان الموحدي بإخراج أخراق القبة الحمراء وسيفه الكبير إيذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد ، والعبور إلى الأندلس.

ودوت صيحات الجهاد في جميع أنحاء المغرب، من مدينة سلا على المحيط الأطلسي، حتى برقة شرقاً على حدود مصر، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام. في الوقت نفسه الذي كانت أخبار انتصار صلاح الدين على الصليبيين في حطين واستعادة مدينة القدس من أيدي الصليبين قد وصلت إلى مسامع المغاربة وأحيت قلوبهم وطهرت نفوسهم وتعلقوا بالشهادة في سبيل الله؛ بل نجد أن بعض المغاربة فضَّل الذهاب إلى الشام والانضواء تحت لواء الناصر صلاح الدين الأيوبي.

لقد استجاب الرجال والشيوخ والشباب وسكان الصحاري والمدن والقرى والهضاب والشواطىء والجبال في أنحاء المغرب الكبير إلى نداء الجهاد وانضموا إلى ألوية الجهاد في إسبانية، وبدأ الخطر الداهم ينذر الغرب في الوقت الذي

---

(١) وفيات الأعيان (٧/٦) .

(٢) وفيات الأعيان (٧/٧) .

حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق .

وبعد أن سير أبو يوسف المنصور جميع قواته إلى الأندلس، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ، ولم يسترح بها إلى قليلا ، ثم أسرع بالسير إلى قشتالة خشية من نفاذ المؤن، ولكي يكسب حماسة جنده وظمأهم للجهاد وحبهم للاستشهاد.

وكانت خطة زعيم الموحدين ترمي أولاً إلى اختراق قلب إسبانية وافتتاح طليطلة، ومتى ظفر ببغيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة، ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة قد حشد قوات شمال قلعة رباح، على مقربة من قلعة الأرك ، اتجه بجيشه إلى ذلك المكان . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين من جيش النصارى، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة (٥٩١هـ / ١١٩٥م) ، وعقد مجلساً من القادة والأشياخ للبحث في الخطط التي يجب اتباعها لخوض المعركة [١] .

ثالثا: معركة الأرك:

(الأرك): حصن على بعد عشرين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع وادي آنه وهي نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس، وفي حينه تجهز ألفونسو الثامن ملك قشتالة للقاء الجيش الإسلامي منذ سمع بعبور الموحدين وطلب العون من ملكي ليون ونبارة [٢] واستفز كل ملوك إسبانيا المسيحية ، واستصرخ البابا في روما ، وقدمت إليه جيوش من فرنسا وألمانيا وهولندا وغيرها من الديار الأوربية،ووافته جنود أوروبية كبيرة يقودها فرسان ذوو خبرة عسكرية طويلة وتجربة ماهرة وممتازة في الحروب ضد المسلمين حتى لقد قدرت القوات الأوروبية التي احتشدت في مواجهة القوات الإسلامية بـ(١٥٠

(١) **انظر** : الأراك ، شوقي أبو خليل (ص ٥٣ ، ٥٤) .

(٢) المصدر السابق ، (ص ٥٤) .

ألف جندي) تزيد عن ثلاثة أضعاف القوات الإسلامية [١] .

وتحركت تلك القوات ونزلت في الأرك، ونزل أبو يوسف يعقوب المنصور على مقربة من المعسكر القشتالي، ومرت عدة أيام لم يقع فيها اشتباك [٢] .

خطة الموحدين :

اجتمع المجلس الحربي الاستشاري للموحدين برئاسة زعيمهم أبو يوسف يعقوب المنصور وتناقشوا في الخطة التي يجب اتباعها في المعركة، واستمع الزعيم لرأي الجميع، ثم التفت إلى زعماء الأندلس، وطلب رأي أبي عبد الله بن صناديد، لقد كان من أعقلهم وأخبرهم بمكائد الحروب وكان أبو يوسف المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع، فهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم، وكان من رأي ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة لتسيير دفة الحرب، إذ كان هذا التوحيد والنظام والتنسيق التام ينقص الموحدين في حروبهم السابقة، ولا سيما في معركة شنترين، وأنه يجب أن يختار أمير الموحدين قائداً عاماً للجيش كله، فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه أبي يحيي بن أبي حفص، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع.

وكذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعماؤهم، وهو ما لم يتبع دائماً، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم، على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسماً مستقلاً من الجيش ينضوي تحت لواء القائد العام أبي يحيي بن أبي حفص، ولما كان الأندلسيين والموحدين أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (ص ٢٣١) .

(٢) انظر : معركة الأرك (ص ٥٥) .

الجيش الرئيسية، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء لقاء العدو والمواجهة الأولى ، وأما بقية الجيش وهي المؤلفة من قبائل البربر، ومعظمهم غير النظاميين، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين الأندلسيين، تقوم بالعون والإمداد. أما أبو يوسف المنصور فيستطيع بحراسه أن يرجح كفة الموقعة كلها، ويجب أن يرابط بقوته وراء التلال على مسافة قريبة، ثم ينقض فجأة بجنوده المتوثبين على الأعداء المتعبين، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسوب، كل هذه الآراء أبداها الزعيم الأندلسي، وأعجب أبو يوسف المنصور بها ، وأمر بتنفيذها [١] .

قلت: وهذه الخطة شبيهة بخطة المرابطين التي وضعوها في معركة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ وهذا يدل على اهتمام أبي عبد الله ابن صناديد بالدراسة التاريخية الواعية.

وفي تلك الأثناء كان ألفونسو يستعد لمهاجمة المسلمين ونتيجة للأعداد الضخمة التي في حوزته رأى أن يترك أساليب الإسبان القديمة في الحرب، وهي تقضي بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع في القلاع، حتى تُرغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب، إما لنفاد المؤن، أو لتفشي الأمراض، أو لحلول الشتاء ، ولكن ألفونسو رأى ـ وهو سيد جيش ضخم حسن الأهبة ـ أنه من العار أن ينسحب أمام العدو، خصوصاً ، وقد كان يؤمل أن يستطيع بقيادته أن يحرز نصراً باهراً على جيش الموحدين [٢] .

وفي (٩ شعبان ٥٩١هـ/٨تموز يوليه ١١٩٥م) كانت موقعة الأرك الفاصلة الحاسمة . وفي صباح هذا اليوم، أذاع أبو يوسف يعقوب المنصور بين سائر الجند، لكي يذكي حماستهم للقتال، خبر حلم رآه في الليلة السابقة، مفاده أنه رأى

---

(١) انظر : معركة الأرك(ص ٥٦) .
(٢) انظر : معركة الأرك(ص ٥٧) .

في نومه فارساً بهي الطاعة، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء، وبيده رايه خضراء، وقد انتشرت في الآفاق، يقول له : إنه من ملائكة السماء السابعة، وإنه جاء يبشره بالنصر بحَوْلِ الله .

ونظم أبو يوسف يعقوب المنصور جيشه، الذي قدرته الروايات الأوروبية الكنسية بستمائة ألف مقاتل وهذا بالطبع مبالغ فيه، فقد كان في الأغلب يساوي عدد جيش النصارى [١] ، فاحتل الموحدون ـ أو القوات النظامية ـ القلب، واحتل الجناح الأيسر الجند العرب أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى تحت ألويتهم الخاصة، واحتل الجناح الأيمن قوة الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد . وتولى أبو يوسف المنصور قيادة الاحتياط والمكونة من صفوة الجند والحرس الملكي، ووضعت صفوف المتطوعين ومعظمها مكون من الجند الخفيفة،ولا سيما حملة النبال، تحت أعلامها الخضراء، وهو لون الموحدين، إلى المقدمة، لتفتتح القتال، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بالشهادة في سبيل الله تعالى[٢] . وحين كمل الحشد قال القائد العام للجند إن المنصور أمير المؤمنين يقول لكم « اغفروا له ـ فإن هذا موضع الغفران ـ وتغافروا فيما بينكم، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم »[٣] .

فبكي الناس وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وما جرى من حسن معاملتهم وعدله بينهم[٤] .

وقام وخطب وحرض على الجهاد وبين فضله ومكانته وقدره، وأخذ الناس مواقعهم وقد تنورت بصائرهم، وخلصت لله ضمائرهم وسرائرهم، وقويت أنفسهم وعزائمهم، وتضاعفت نجدتهم وإقدامهم [٥] .

---

(١) ،(٢) **انظر** : معركة الأرك (ص ٥٨) .
(٣) ،(٤) صلاح الأمة في علو الهمة ، د . سيد العفاني (٦ / ٢٤٠) .
(٥) **انظر** : تاريخ الأندلس لعبد الرحمن الحجي (ص ٤٨٦) .

ونظم ملك قشتالة في تلك الأثناء جنده المتوثبة إلى القتال، وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال، ولا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة، وكان الجيش القشتالي يحتل موقعا عالياً، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال (١) .

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على إثر كلمات قائدها الملتهبة، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين المثقلين بالدروع على المسلمين كالسيل الجارف المندفع من علٍ (٢) .

وفي « البيان المغرب » في معرض الحديث عن القشتاليين، لما رأوا الجيش الإسلامي في سهل الأرك، وهم في المرتفع المشرف عليه: « فهبطوا من مراكزهم كالليل الدامس والبحر الزاخر، أسراباً تتلوها أسراب، وأفوجًا تعقبها أفواج، ليس إلا الصهيل والضجيج والحديد على وقع العجيج، فدفعوا حتى انتهوا إلى الأعلام، فتوقفت كالجبال الراسيات، فمالوا على الميسرة فتزحزح قوم من المطوعة وأخلاط من السوقة والأحرجة، فصعد غبارها إلى الجو، فقال « أبو يوسف، المنصور لخاصته ومن طاف به: جددوا نياتكم وأحضروا قلوبكم ثم تحرك وحده وترك ساقته على حالها، وسار منفرداً من خاصته مقدماً بشهامته ونجدته، ومر على الصفوف والقبائل، وألقى إليهم بنفسه كلاماً وجيزاً في الهجوم على عدوهم والنفوذ إليه، وعاد إلى موضعه وساقته » (٣) لقد رد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين، ولكن العرب والبربراستنفذوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم الشرس، ولما عززت صفوف النصارى بقوى جديدة، هجموا للمرة الثانية، وضاعفوا جهودهم واقتحموا صفوف المسلمين وفرقوها، وقتلوا قسماً منها،

---

(١) ،(٢) انظر : معركة الأرك(ص ٥٩) .
(٣) انظر : البيان المغرب(ص ١٩٤ / ١٩٥) .

واضطر الباقون إلى التقهقر والتراجع، وأكرم الله الآلاف من المسلمين بالشهادة، منهم القائد العام أبو يحيي بن أبي حفص، الذي سقط شهيداً وهو يقاتل بمنتهى الشجاعة والرجولة والعزة والبسالة، وظن النصارى أنهم أحرزوا النصر بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين، ولكن الجناح الأيمن للمسلمين بقيادة القائد الأندلسي أبي عبد الله بن صناديد انقض على النصارى انقضاض الأسد على فريسته وأصابوا قلب جيشه القشتالي إصابة دامغة وكان ملك قشتالة يقود جيشه بنفسه ويحيط به عشرة آلاف فارس، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح، ولقد استمرت المعركة وهي حامية الوطيس ساعات متتالية واستبدل المسلمون النقص في العدد، بالإقدام والشجاعة، حتى أنه لمّا زحف زعيم الموحدين في حرسه وقواته الاحتياطية ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين واضطرهم إلى الفرار في غير انتظام ، لم يغادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم في القلب، ذلك لأنهم أقسموا جميعاً بأن يموتوا ولا يتقهقروا، فاستمرت المعركة على اضطرامها المروع، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار، وأرجاء المكان تدوي بوقع حوافر الخيل، وقرع الطبول، وأصوات الأبواق، وصلصلة السلاح، وصياح الجند، وأنين الجرحى [١] .

وأيقن الموحدون بالنصر حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفّت حول ملك قشتالة ، وهجم أمير الموحدين في مقدمة جيشه لكي يجهز على هذه البقية، أو يلجئها إلى الفرار، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى، والعلم الأبيض يخفق أمامه منقوشاً عليه: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، لا غالب إلا الله» . ولم يشأ ألفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين عليه من كل صوب، ومواجهته لخطرالهلاك والسحق المحقق، أن ينقذ نفسه بالفرار، وأن يتحمل عار الهزيمة ، وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لعهدهم، ولكن بقية

---

(١) انظر : تاريخ الأندلس لأشباخ (٢ / ٨٦) .

قليلة منهم استطاعت أن تنجو وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته [١] .

لقد انتهى يوم الأرك بهزيمة النصارى على نحو مروع، وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل، بينهم زهرة الفروسية الإسبانية، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين [٢] .

وسرعان ما ارتفع نجم الموحدين الحربي في كل مكان بعد انتصارهم في موقعة الأرك، وأمر يوسف المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع مملكته الشاسعة، وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد ضخم في إشبيلية، اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ مائتي متر[٣] ،كما بنى حصناً كبيراً في مراكش لتخليد ذكرى الموقعة.

وعامل أبو يوسف يعقوب المنصور الأسرى بالإحسان ومنحهم الحرية دون افتداء وكان عدددهم عشرين ألفاً ، قد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين واعتبروه خطأ لكون ذلك العدد الهائل سيكون قوة عسكرية كبيرة ستشد أزر مملكة قشتالة فيما بعد وستسعى للانتقام من المسلمين [٤] .

لقد رأى أبو يوسف المنصور أن ينتهز فرصة انهزام ملك قشتالة وتفرق النصارى،فقام في أوائل سنة (٥٩٢هـ/ ١١٩٦م) بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية واخترق ولاية «أستراما دورة » وعبر النهر الكبير «الوادي الكبير» في اتجاه نهر التاجة، وبعد أن فتح عدة حصون وقلاع، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة، فامتنع ألفونسو مع جيشه الصغير بعاصمته ولم يجرؤ أن

---

(١) انظر : الأرك (ص ٦١) .

(٢) انظر : روض القرطاس (ص ١٤٥) .

(٣) ، (٤) انظر : معركة الأرك (ص ٦٣) .

يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده الأرك ، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً بسب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعدأن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش أسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لا حتلال طليطلة [١] .

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ، ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معها حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة؛ لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش [٢] .

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى	ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من غدا بالمكرمات مقلدا	وموشحاً ومختماً ومتوجاً
عمرت مقامات الملوك بذكره	وتعطرت منه الرياح تأرجا [٣]

.

رابعاً: نتائج الأرك :

[١] ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك

(١) **انظر** : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤/ ٢١٥) .
(٢) **انظر** : معرك الأرك (ص ٦٥) .
(٣) **انظر** : نفح الطيب (١/ ٤١٩) .

يحارب المسلمين في ميدان مكشوف نظراً لهبوط معنويات جنده الأرك ، ولقلة عددهم، وحاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عشرة أيام محاولاً اقتحام أسوارها المنيعة، لكنه لم ينجح، فعاد منسحباً بسبب نقص التموين، بعد أن انتسفت الزروع بيد القشتاليين قبيل الأرك، فدب المرض في صفوف الموحدين، وكثر الموت بينهم، فاضطر أبو يوسف المنصور إلى الانسحاب بعدأن وصل إلى مقربة من ضفاف دويرة، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش أسلامي، وكانت حملتهم هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لا حتلال طليطلة (١) .

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور أن يفرق بين ممالك النصارى بعقد أحلاف معها وساعده على ذلك موقعه القوي ، ولذلك استجاب لطلب ملك ناقار وليون وعقد معها حلفاً واضطر ملك قشتالة إلى مقاومة هذه الأحلاف، فعقد في سنة ٥٩٢هـ/١١٩٦م الهدنة مع الموحدين لكي يستطيع التغلب على أعدائه ورحب أبو يوسف المنصور بعقد هذه الهدنة؛ لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية كانت تستدعي عودته إلى مراكش (٢) .

ولما جاءت رسل ألفونسو المهزوم لمصالحة الموحدين قال الشاعر في مدح المنصور:

أهل بأن يسعى إليه ويرتجى	ويزار من أقصى البلاد على الرجا
من غدا بالمكرمات مقلدا	وموشحاً ومختماً ومتوجاً
عمرت مقامات الملوك بذكره	وتعطرت منه الرياح تأرجا (٣)

رابعاً: نتائج الأرك :

[١] ارتفعت الروح المعنوية لمسلمي الأندلس بعد أن نزل بهم الويل والهلاك

---

(١) **انظر** : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤ / ٢١٥) .

(٢) **انظر** : معرك الأرك (ص ٦٥) .

(٣) **انظر** : نفح الطيب (١ /٤١٩) .

والدمار من قبل النصارى الإسبان.

[٢] سقوط هيبة ملوك النصارى أمام مسلمي الأندلس والمغرب والعالم الإسلامي كله .

[٣] حقق الموحدين نصراً عظيماً جعلهم يفكرون بجد في توحيد العالم الإسلامي كله تحت سلطانهم.

[٤] ارتفاع نجم السلطان أبي يوسف يعقوب المنصور والموحدين في العالم أجمع.

[٥] انصاعت بعض قبائل المغرب التي تفكر في الثورة على الموحدين وكانت تنتظر فرصة الوثوب على دولتهم.

[٦] عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب، وسر العلماء والفقهاء والأدباء وعامة المسلمين بهذا النبأ السعيد .

[٧] أصيب نصارى الإسبان بهزيمة نفسية أثرت في نفوسهم وتحطمت آمالهم في الاستيلاء على أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

[٨] جعلت ملوك النصارى يتسارعون في عقد المعاهدات مع دولة الموحدين وإيقاف الحروب والإذعان للشروط التي يضعها الموحدين.

[٩] تفجرت أحقاد القساوسة والرهبان في نفوسهم، فعملوا على توحيد الممالك وترتيب الأمور ورص الصفوف والدعوة إلى التنازل عن صراعات النصارى الداخلية.

[١٠] دخلت معركة الأرك سجل التاريخ الإسلامي المجيد وسجلت على صفحات الزمان بماء الذهب الصافي. وغير ذلك من النتائج.

خامساً: أسباب انتصار الموحدين في معركة الأرك :

لا شك أن النصر العظيم الذي حدث في معركة الأرك ، له أسباب عدة

منها :

﴿ ١ ﴾ الاهتمام بتصحيح العقيدة ومحاولة الرجوع إلى الفهم الصحيح والتصور السليم وهذا قام به خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب بن يوسف حيث أعلن براءته من الاعتقاد بعصمة ابن تومرت واستخف بمن بالغوا في تقديسه واهتم بالقرآن والسنة وشجع على الاهتمام بكتب الحديث المعتمدة وهذه محاولة جادة في إصلاح المنهج والاقتراب من منهج أهل السُنَّة والجماعة.

﴿ ٢ ﴾ اهتمام دولة الموحدين بالمرضى والضعفاء والأيتام والفقراء ، وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور يشرف بنفسه على هذه الأعمال لعلمه أن طريق النصر والتمكين من أسبابه الواضحة الاهتمام بالضعفاء .

﴿ ٣ ﴾ محاربة المنكر والتضييق على الفساق وتغليظ العقوبة على أهل الكبائر بإشراف السلطان بنفسه ونشر العدل بين الرعية والسعي لتنفيذ أحكام الشرع ولو على نفسه وأهله وأقاربه وحارب الظلم وعاقب العمال الذين تشكو الرعايا منهم وكان يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس.

﴿ ٤ ﴾ فتح باب الاجتهاد وحارب الجمود وألغى اهتمام الدولة بفروع الفقه وألزم العلماء بأن لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية، ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين[١] ، بل تكون أحكامهم بما يؤدي إليه اجتهادهم من استنباط القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس وبذلك فتح باب الاجتهاد لمن اجتمعت فيه شروطه. وأبطل التقليد[٢] ومن هؤلاء العلماء الذين مشوا على هذه الطريقة: أبو الخطاب بن دحية وأخوه أبو عمر وغيرهم[٣] .

---

(١) كان الأولى أن يفتح باب الاجتهاد لمن توفرت فيه شروطه ، وترك من أراد أن يقتدي في فتاويه بالأئمة الأعلام من أمثال أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد الزهري والأوزاعي – رحمهم الله – .

(٢) انظر : الأعلام للزركلي (٨/٢٠٣) .

(٣) انظر : معركة الأرك (ص ٧١) .

﴿ ٥ ﴾ احترام العلماء والقضاة والفقهاء في زمن أبي يوسف يعقوب بن يوسف وهذه قصة رائعة تدل على احترام أبي يوسف يعقوب المنصور للقضاة ووقوفه عند الشرع، روى ابن خلكان : أن الأمير الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر والد الأمير أبي زكريا يحيي بن عبد الواحد صاحب إفريقية، كان قد تزوج أخت الأمير أبي يوسف المنصور، وأقامت عنده، ثم جرت بينهما منافرة فجاءت إلى بيت أخيها ، فسير الأمير عبد الواحد لطلبها فامتنعت عليه، وشكا الأمير عبد الواحد ذلك إلى قاضي الجماعة بمراكش، وهو القاضي أبو عبد الله بن علي بن مروان، فاجتمع القاضي المذكور بأبي يوسف المنصور وقال له : إن الشيخ أبا محمد عبد الواحد يطلب أهله، فسكت الأمير أبو يوسف المنصور. ومضت بعد ذلك أيام . ثم إن الشيخ عبد الواحد اجتمع بالقاضي المذكور في قصر الأمير بمراكش، وقال له :أنت قاضي المسلمين، وقد طلبت أهلي فما جاءوني، فاجتمع القاضي بأبي يوسف المنصور وقال له : ياأمير المؤمنين، الشيخ عبد الواحد قد طلب أهله مرة وهذه الثانية، فسكت الأمير يعقوب. ثم بعد ذلك بمدة لقي الشيخ عبد الواحد القاضي بالقصر المذكور وقد جاء إلى خدمة الأمير أبي المنصور فقال له : ياقاضي المسلمين، قد قلت لك مرتين وهذه الثالثة، أنا أطلب أهلي وقد منعوني عنهم. فاجتمع القاضي بالأمير ، وقال له : يا مولانا إن الشيخ عبد الواحد قد تكرر طلبه لأهله، فإما أن تسير إليه أهله وإلا فاعزلني عن القضاء. فسكت الأمير يعقوب أبو يوسف المنصور، ثم قال : ياأبا عبد الله ما هذا إلا جد كبير، ثم استدعى خادماً وقال له في السر: تحمل أهل الشيخ عبد الواحد إليه فحملت إليه في ذلك النهار ولم يتغير على القاضي ولا قال له شيئاً يكرهه، لقد تبع في ذلك حكم الشرع المطهر وانقاد لأوامره ، هذه حسنة تعد له، وللقاضي أيضاً، فإنه بالغ في إقامة منار العدل [1] .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان (٧ / ١٠،١١) .

﴿٦﴾ الحزم والقيادة الرشيدة التي تميز بها أبو يوسف المنصور في قيادته لدولة الموحدين حيث استطاع أن يوحد البيت الموحدي من الداخل وأن يقضي على ثورات الأعراب وبني غانية والمتمردين وقاد المعارك بنفسه وأسند المهام الكبرى لأصحاب خبرة وحكمة ودراية وتجربة واسعة.

﴿٧﴾ الاهتمام بمبدأ الشورى والابتعاد عن التسلط والإعجاب بالرأي وتهميش الآخرين، ولذلك استمع أبو يوسف إلى الآراء في مجلس حربه، وأعطى لأهل الاختصاص مكانة معنوية واستمع لزعيم الأندلسيين، واستفاد من خبرته الطويلة في محاربة النصارى، واعتمد خطة أبي عبد الله بن صناديد ذات الأبعاد المتعددة.

﴿٨﴾ الاهتمام بمعرفة نفسية الأقوام المشاركة في الجهاد، فمثلاً الأندلسيين يفضلون أن يكون زعيمهم منهم وترتفع معنوياتهم وتنشط هممهم ويندفعون كالأسود عندما يكون قائدهم منهم، ويحدث العكس عندما يكون قائدهم من غيرهم، ولذلك جعل المنصور قيادة الأندلسيين لزعيمهم العظيم أبي عبد الله بن صناديد.

﴿٩﴾ جودة التخطيط، وظهر ذلك في حشد الألوف من المجاهدين وتوفير العدة والعتاد وتقسيم المواقع وإحكام الخطة في المعركة الفاصلة.

﴿١٠﴾ الاهتمام بتوحيد القيادة في المعارك الفاصلة ولذلك عين أبو يوسف المنصور أبا يحيى بن أبي حفص قائداً أعلى لجيوش الموحدين لما تميز به من حنكة وشجاعة ومهارة في القتال.

﴿١١﴾ إذكاء روح الجهاد في الجنود وكان من عادة الموحدين من زمن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن قبل الحرب أن يذكروا المجاهدين بأحاديث الجهاد، ولقد أمر السلطان أبو يعقوب العلماء بأن يجمعوا أحاديث الجهاد على الموحدين من أجل دراستها وحفظها وأصبح ذلك الفعل سنة في دولة الموحدين.

﴿ ١٢ ﴾ تواضع القيادة، ويظهر ذلك عندما طلب الأمير أبو يوسف المنصور من رعيته أن يغفروا له وأن يتغافروا فيما بينهم ، فتأثر الناس وبكوا مما سمعوا من زعيمهم.

﴿ ١٣ ﴾ سريان روح الأمل والتفاؤل بالرؤى ، ويظهر ذلك عندما أخبر أبو يوسف المنصور جيشه بما رأى من نزول فارس بهي الطلعة، على فرس أبيض من باب فتح من السماء وبيده راية خضراء وقد انتشرت في الآفاق يقول له: إنه من ملائكة السماء السابعة، وأنه جاء ليبشره بالنصر بحول الله وقوته.

وغير ذلك من الأسباب التي ظهرت من خلال دراسة عصر أبي يوسف يعقوب المنصور.

سادساً: السفارة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي وأبي يوسف يعقوب المنصور:

توجت الأعمال العظيمة التي قام بها عماد الدين زنكي ومن بعده نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بتوحيد الشام مع مصر وتولى القيادة بعد نور الدين صلاح الدين الأيوبي فاستمر صلاح الدين في دفع حركة الجهاد، وأخذ يستولي على مواقع الصليبيين حتى استولى على بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، فتأهب الصليبيون لحرب صلاح الدين وتتابعت أساطيلهم على الإسكندرية. لذلك فكر صلاح الدين في طلب النجدة من يعقوب المنصور الموحدي وأرسل إليه هدية تشتمل على مصحفين ومائة درهم من دهن البلسان،وعشرين رطلاً من العود، وستمائة مثقال من المسك والعنبر،وخمسين قوساً عربية بأوتارها، وعشرين من النصول الهندية وعدة سروج موشاة [(١)] .

وقد بعث صلاح الدين مع هذه الهدية كتاباً رقيقاً [(٢)] جاء فيه:

«الحمد لله الذي استعمل على الملة الحنفية من استعمر الأرض، وأغنى من

(١) انظر : تاريخ الإسلام ، د . حسن إبراهيم حسن (٤ / ٢١٦).

(٢) الاستقصا للسلاوي (٢ / ١٦٣).

أهلها من سأله الفرض، وأجرى على يده النافلة والفرض وزين سماء الذراري، التي بعضها من بعض» وكان عنوان الكتاب: من صلاح الدين إلى أمير المسلمين، وفي أوله: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب.

ويذكر السلاوي أن يعقوب المنصور لم يعجبه أن يخاطبه صلاح الدين بلقب أمير المسلمين لاأمير المؤمنين، وأن يعقوب أسرها في نفسه، ولكنه أكرم وفادة رسول صلاح الدين دون أن يحقق له غرضاً. وقد قيل: إن يعقوب المنصور جهز مع ذلك مائة وثمانين سفينة ، وحال دون استيلاء الصليبيين على سواحل الشام، وقد دلل ابن خلدون [١] بذلك على تفوق المغرب على ملوك الشرق في إنشاء الأساطيل الجهادية [٢] .

ولا يبعد أن يكون استنجاد صلاح الدين بيعقوب المنصور الموحدي راجعاً إلى حاجة الأسطول المصري إلى بعض قطع من الأسطول الموحدي لدفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغيرون على بلاد الشام بحراً، إذ عني المغاربة في عهد الموحدين خاصة ببناء الأساطيل البحرية لاجتياز البحر إلى عدوة الأندلس وليكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لحرب نصارى الأندلس الذين كانوا يتطلعون إلى اغتصاب الأندلس من أيدي المسلمين بسبب الحروب المتصلة التي كانت تدور بين المغاربة ونصارى الأندلس. على أن ما ذكره بعض المؤرخين من أن يعقوب المنصور الموحدي لم يقابل كتاب صلاح الدين بالارتياح؛ لأنه لم يلقبه بلقب أمير المؤمنين لا ينهض دليلاً على عدم استجابة يعقوب المنصور الذي كان دائماً على أهبة الاستعداد لحرب النصارى في الأندلس[٣] .

وذكر بعض المؤرخين سبباً آخر منع أبو يوسف المنصور من دعم صلاح الدين وذلك لأن توسع صلاح الدين في غرب مصر، بحروب قام بها بعض أتباعه

---

(١) انظر : العبر (٦ / ٤٩٠) .
(٢) ، (٣) انظر : تاريخ الإسلام (٤ / ٢١٦) .

وخصوصاً قراقوش التقوي الذي حالف بعض أعداء الموحدين كعرب بني هلال، وابن غانية الذي كان يدعو إلى المرابطين، وهذا سبب وجيه [١] .

ويبدو أن ظهور دولة صلاح الدين الأيوبي على أنقاض الدولة العبيدية الرافضية في مصر ساءهم؛ لأن ذلك ترتب عليه ظهور شعار العباسيين من جديد في تلك الديار؛ ولأن الموحدين لم يعترفوا بخلافة العباسيين، وكانوا يرون أن دار الخلافة الشرعية هي مدينة مراكش لا بغداد وكانت طموحات خلفاء الموحدين ظاهرة من أجل توحيد العالم الإسلامي تحت لوائهم ولا سيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الذي ينسب إليه صاحب المعجب تصريحات تدل على رغبته في الرحلة إلى المشرق وتطهيره من عيوبه [٢] .

وقد أثار الذهبي إلى تصريح السلطان أبي يوسف المنصور برغبته من قصد مصر [٣] .

وقد عبر عن هذه الرغبة بوضوح شاعر الموحدين أبو العباس ابن عبد السلام الجراوي في بعض أشعاره كقوله في مدح الخليفة الموحدي يعقوب المنصور:

إن الخلافة نالت من محاسنكم ... أوفى الحظوظ فأبدت منظراً عجبا

أعلى المراتب من بعد النبوة قد ... حبا بها الله أعلى الخلق وانتخبا

سينظم السعد مصراً في ممالكه ... حتى يدوخ منها خيله حلبا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى ... أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا

هو الذي كانت الدنيا تؤمله ... وكل عصر له ما زال مرتقبا [٤]

---

(١) انظر : معركة الأرك (ص ٧٠) .

(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب (ص ١١٤) .

(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/٣١٥) .

(٤) انظر : دراسات في تاريخ المغرب ، للعبادي (ص ١١٥) .

لاشك أن الموحدين كانوا يخططون لغزو بلاد المشرق الإسلامي، وأن أولى الخطوات المستهدفة هي البلاد المصرية لقد صرح سلطان الموحدين المنصور برغبته في غزو البلاد المصرية وذكر ما فيها من المناكر والبدع، وقال: نحن إن شاء الله مطهروها، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات رحمه الله (١) .

إذن فقد كان الموحدون يخططون لغزو المشرق كله. ولا شك أن أمراء الدولة النورية والأيوبيون يعلمون بهذا. ولذلك أرادوا أن يأخذوا زمام المبادرة في أيديهم. فقام الأيوبيون بتكليف بعض كبار شخصياتهم بالتوجه إلى بلاد المغرب وإيجاد مراكز نفوذ لهم بها. وذلك حتى تكون هذه المراكز خط الدفاع الأول والإمارات المشرق في وجه الأطماع الموحدية، وكانت غزوة قراقوش على المغرب هي إحدى هذه الخطوات التي بادر الأيوبيون باتخاذها (٢) .

لقد تحركت الحملات الأيوبية نحو المغرب واتخذت الطريق الصحراوي، لقصره أولاً ثم لقلة الأخطار التي يمكن أن يتعرضوا لها ولذلك تركوا الطريق الساحلي الذي كان مليئاً بقبائل بني سليم وبني هلال الذين استطاعوا أن يُخضِعُوا شرق ليبيا لسيادتهم ونعموا فيها برغد العيش ورفاهته، ولذلك عملوا على التمسك بهذه البلاد ومقاتلة كل من يحاول النزول فيها أو الاستيلاء عليها منهم (٣) .

وقد رفض المنصور إرسال النجدة لدوافع نفسية، وحزازات سياسية، وموقف داخلي متوتر، خارجي متربص، ولقد أكرم سلطان الموحدين سفير صلاح الدين وبالغ في إكرامه ، ولما مدحه سفير صلاح الدين ابن منقذ في قصيدة عدتها أربعون بيتاً أعطاه بكل بيت ألفاً .

---

(١) ،(٢) ،(٣) انظر : سقوط دولة الموحدين(ص ١٩٨) .

ومن القصيدة :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته — إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إلى معدن التقوى إلى كعبة الندى — إلى سمت بالذكر منه الأوائل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل — إلى بابك المأمول ترجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا — بأن نداك الغمر بالنجح كافل
وحزت بقصيدك العلا فبلغتها — وأدنى عطياك العدد والفواضل
فلا زلت للعلياء والجود بانياً — تبلغك الآمال ما أنت آمل [١]

إن صلاح الدين الأيوبي يعترف بخلافة السلطان الموحدي ولم يخاطبه بلقب أمير المؤمنين في الخطاب الذي أرسله إليه مع رسوله ابن منقذ وهذه مسأله لها أهمية خاصة على أساس أن الاعتراف بالخلافة الموحدية وبشرعية الدولة الموحدية القائمة في العلن على تعاليم ابن تومرت المنحرفة وهذا ما بينه القاضي الفاضل مستشار صلاح الدين الأكبر عندما قال : (... بأن الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابة حجة تقيد اللسان عن الإنكار، ومتى قرئت على منبر من منابر المغرب جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتباعه، مرخصين الغالي، منحطين عن العالي شاقين عصا المسلمين، مغرقين كلمة المؤمنين مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلدين لمن لا تصح ولا يته [٢] .

لو قدر الله أن يلتقي صلاح الدين مع السلطان يعقوب المنصور في غرفة مباحثات مغلقة ، لتوصلا إلى حل إلى أمور الأمة كلها ، نظراً لما تميز به صلاح الدين من مرونة سياسية منقطعة النظير ، ولما وصل إليه السلطان المنصور من حرصه على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب من منهج أهل السُنَّة والجماعة ولكن الله غالب على أمره .

---

(١) انظر : معركة الارك (ص ٧٤) .

(٢) دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين عمر أحمد موسى (ص ٣٩) ، وانظر دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٧) ، للعبادي .

ومهما يكن من شيء فإن هذا الخلاف السياسي والعقدي الذي وقع بين عاهل المشرق والمغرب، لم يحل دون تعاون شعوبهما في السراء والضراء كما هو الحال في كل زمان ومكان فمن المعروف من كتب التراجم المختلفة أن عدداً كبيراً من المغاربة، قد ساهموا في الحروب الصليبية إلى جانب إخوانهم المشارقة، واستشهد منهم عدد كبير دفن في فلسطين [١] .

ويشير الرحالة ابن جبير وكان معاصراً لزمن صلاح الدين إلى الضريبة الإضافية التي فرضها الإفرنج في الشام على تجار المغاربة دونًا عن سائر تجار المسلمين «لأن طائفة من أنجاد المغاربة غزت مع السلطان نور الدين محمود زنكي أحد الحصون فكان لهم في أخذه غنى ظهر واشتهر، فجازاهم الإفرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رءوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافهم على بلادهم... » ثم يشير ابن جبير في مكان آخر من كتابه إلى اهتمام الملوك وأهل اليسار والخواتين من النساء في المشرق العربي بفداء الأسرى من المغاربة: فكل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها إنما يعينها في افتكاك المغاربة خاصة لبعدهم عن بلادهم[٢] .

سابعاً: وفاة السلطان وبعض أعماله وأخلاقه:

لقد كان عصر أبي يوسف يعقوب المنصور من أفضل عصور دولة الموحدين ولقد اهتم بالبناء والعمارة، فسعى لإكمال مدينة الرباط التي رسم حدودها وبدأ بناءها والده، وبنى بها مسجداً عظيماً متسع الفناء له مئذنة شامخة على هيئة منارة الإسكندرية، يصعد إليها بغير درج، وتسمى الآن منارة حسان.

كان عبد المؤمن بن علي قد هدم مدينة فاس في أثناء حروبه مع المرابطين، فأقام حفيده يعقوب المنصور هذا السور. ومما ساعد على إقامة هذه المنشآت هذه

---

(١) **انظر**: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١١٨).

(٢) **راجع**: رحلة ابن جبير (ص ٢٧٤، ٢٨٠)، نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص١١٩).

الأموال الضخمة التي تدفقت على دولته [١] .

وقد أحاط المؤرخون موت يعقوب المنصور ببعض القصص التي هي أقرب إلى الخيال. فقال بعض : إنه بايع ابنه الناصر بعد عودته من وقعة الأرك، ثم زهد في الدنيا وساح في الأرض حتى وافته منيته. وقال بعض آخر: إنه ذهب للحج وعاد منه زاهداً فمات في الطريق ودفن في الشام [٢] .

ولم يذكر أحد من المؤرخون أنه مات بالمغرب سوى عبد الواحد المراكشي، فقد ذكر أن يعقوب المنصور كان يتوق إلى فتح مصر وأن ذلك لم يزل عزمه حتى مات في مستهل سنة ٥٩٥هـ ودفن بتينملل مع آبائه ويبدو أن ما ذكره المراكشي أقرب هذه الروايات إلى الصواب [٣] .

يروى ابن زرع أن المنصور لما أشرف على الموت قال: ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي إلا على ثلاث وددت أني لم أفعلها :

الأولى: إدخال البدو – العربان – من إفريقية إلى المغرب، مع أني أعلم أنهم أهل فساد .

والثانية: بناء (رباط الفتح)، أنفقت فيه المال وهو بعد لا يعمر .

والثالثة: إطلاق إسارى الأرك، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم .

وصدقت فراسة يوسف المنصور في الأولى والثالثة ، وكتب لربط الفتح أن يعمر، ولكن بعد قرون من وفاته، حيث غصت هذه المدينة بالأسر المهاجرة من الأندلس [٤] .

لقد توفى هذا السلطان المجاهد الذي أصلح ما استطاع من عقائد الموحدين عام ٥٩٥هـ [٥] فرحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه .

---

(١)، (٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) انظر : معركة الأرك (ص ٧٦) .

(٤) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣١٩) .

(٥) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦) .

المبحث الرابع

الخليفة الموحدي أبو محمد عبد الله الناصر

توفي الخليفة الموحدي يعقوب المنصور عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م وقد أثارت وفاته حزناً عميقاً في الأوساط الإسلامية المغربية ، وذلك لأن كثيراً من الناس كذبوا وفاته وقال البعض: إنه قد تخلى عن الملك وذهب خفية إلى الأندلس حيث يرابط في ثغورنا لجهاد الكفار، وقال البعض الآخر : بل إنه توجه إلى البيت الحرام وجاور في المدينة عند قبر الرسول ﷺ حيث يخفي أمره، وقال فريق ثالث : بل إنه رحل إلى الأراضي المقدسة بفلسطين لجهاد الصلبيين هناك .

وقد كذب المؤرخون هذه الروايات وكما علمنا فإنه قد مات في المغرب ودفن بجوار آبائه في تينملل [١] إلا أنه في الوقت نفسه حركت وفاته أطاع الطامعين من خصوم دولة الموحدين من جديد، وقد خلفه في الإمارة أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر وكان عمره يوم ارتقاء عرش سلطنة المغرب والأندلس ثمانية عشر عاماً ، حيث إنه ولد في عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م.

توالى الحكم عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م وقد كان شاباً طموحاً معتزاً بنفسه وبرأيه قليل الذكاء ولا يحترم أصحاب الخبرات الواسعة من رجالات دولة الموحدين،واستبد بالأمور ورفض النصائح من أقرب المقربين من رجاله، وكان والده قد أطلعه على سير الأمور في البلاد وأمره بأن لا يقطع برأي حاسم يهم البلاد دون مشاورة أبي حفص محمد أبي حفص إلا أن أبا محمد الله الناصر استبد بالأمر [٢] .

---

(١) ، (٢) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣ / ٢٣٦) .

أولاً: ثورة بني غانية:

شغل محمد الناصر عند استلامه حكم الموحدين بثورة آل غانية التي نشطت من جديد والتي تمكنت من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين، واستطاع عبد الله بن غانية أن ينظم فلول المرابطين ويجعلهم شوكة في حلق الموحدين، لقد كانت أسرة بني غانية لها نفوذ من زمن المرابطين، واستعمل السلطان المرابطي على بن يوسف رجلين منهما في الأندلس وهما محمد ويحيى، وكان يحيى وهو الأكبر من أخيه محمد، حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس، منها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل، والتعظيم له والاحترام للصالحين، هذا مع علو قدم في الفقه، واتساع في رواية الحديث، وكان مع هذا شجاعاً فارساً إذا ركب عد وحده بخمسمائة فارس. وكان بن يوسف بن تاشفين الملثمي يعده للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس،ودفع به عن المسلمين غير مرة مكاره كانت قد نزلت بهم، منها إنقاذ جزيرة فراغة في شمال شرق الأندلس عام ٥٢٩هـ من ألفونسو ملك أراغون، بعد ما احتل هذا سرقسطة وطليطلة قلعة أيوب.

ولى علي بن يوسف بن تاشفين يحيى بن غانية بلنسيه، ثم عزله عنها ليوليه قرطبة، فلم يزل بها والياً إلى أن مات، وبموته كانت أولى الفتن على المرابطين، فبدأ أخوه محمد بن غانيه يجول الأندلس والفتنة تتزايد، ودعوة الموحدين تنتشر، ولما اشتد خوف محمد بن غانية، وصل دانية وعبر منها إلى جزيرة البليار (منورقة ويابسة مع ميورقة).

ضبط محمد إمارة جزيرة البليار تحت سلطة المرابطين ، داعياً للخلافة العباسية ، وبعد محمد ملك ابنه إسحاق، فَأَمَّهُ بقايا المرابطين ، فأحسن إليهم وأكرمهم حسب طاقته.

وأقبل إسحاق بن محمد على الجهاد في سبيل الله وسجل صفحات عطرة خالدة في جهاده الميمون، وكان في كل عام يغزو مرتين بلاد الروم - غرب إيطاليا وجنوب فرنسا - فيغنم وينكى في الأعداء أشد نكاية، واشتد بذلك عوده وقوي أمره، وتشبه بالسلاطين العظام ولم تزل هذه سيرته إلى أن توفي عام ٥٧٩هـ .

وكان إسحاق هذا له سياسة مرنة مع الموحدين، فلاطفهم وأرسل لهم الهدايا الثمينة وهادنهم وأشغلهم عنه، ولم يلتفت الموحدون إلى جزر البليار باهتمام يذكر، فلما كان سنة ٥٧٨هـ كتبوا إليه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ويتوعدونه إن لم يلب مرادهم، فأعطاهم العهود المؤجلة، واستشار وجوه أصحابه، فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بعدم طاعة الموحدين والامتناع عنهم بجزر البليار، ومنهم من رأى أن الدخول أسلم لحماية الأنفس والأعراض وخرج ذلك المجاهد الكبير في غزوة من غزواته، فأكرمه الله بالشهادة، فتولى الأمر من بعده ولده الأكبر عليّ بعهد من والده، والذي دخل في حرب مع الموحدين طويلة المدى، واستطاع الخليفة الموحدي المنصور أن يكسر شوكته وجرد الجيوش لحربه وقادها بنفسه واستطاع أن يخمد ثورة بني غانية في المغرب الأوسط وإفريقية وطرابلس بحد السنان ومزق تحالف بني غانية مع قبائل بني سليم وبني هلال وأمراء الأيوبيين (١) .

ومع وفاة الخليفة الموحدي المنصور عاد بنو غانية الميورقيون إلى شن غاراتهم على إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسي جرياً على عادة أسلافهم المرابطين وكان عبد الله بن غانية قد حاول في عام (٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م) أن يسترد جزيرة يابسة من الموحدين ، إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الهدف.

---

(١) انظر : العقاب ، شوقي أبو خليل (ص ١٥ ، ١٦).

ورأى الخليفة الموحدي الجديد أبو عبد الله الناصر لدين الله ابن المنصور أن استقرار نفوذ الموحدين في إفريقية لن يستتب إلا إذا استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية، ومصدر المتاعب التي يواجهها الموحدين في إفريقية؛ لهذا صمم الناصر على بسط نفوذه في تلك الجزر مصدر القلق المستمر للموحدين وشرع أبو محمد الناصر بتوجيه حملة بحرية كبرى للجزائر الشرقية كان قد أعدها لهذا الغرض في ثغر دانية ، وأسند قيادة الأسطول إلى عمه أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن كما أسند قيادة الجيش إلى شيخ الموحدين أبي سعيد عثمان بن حفص .

كانت الحملة تتكون من ألفين ومائتي فارس وسبعمائة من الرماة وخمسة عشر ألف من الرجال، وغير رجال الأسطول وكان الأسطول في ثلاثمائة جفن (سفينة) (أو أنواع السفن) وأقلعوا يوم السبت ٢٤ ذي حجة (٥٩٩هـ /١٢٠٣م) من جزيرة يابسة قاصدين ميورقة ونزلوا فيها وأحاطوا بها وخرج إليهم عبد الله بن غانية لكنه هزم وقتل وتغلب رجال الأسطول والجيش على المدينة ودخل أبو العلاء إدريس قائد الأسطول والشيخ أبو سعيد عثمان قائد الجيش ثم تحرك الأسطول إلى جزيرة منورقة فدخل البلد عنوة وأرسل حاكمها إلي العاصمة مراكش وبذلك تم للموحدين احتلال الجزر الشرقية أو جزر البليار وتم لهم ذلك سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٣م) وأقيم عليها عبد الله ابن طاع الله الكومي والياً عليها وبذلك يكون الموحدين قد قطعوا جذور بني غانية في الجزر الشرقية (جزر البليار وهي ميورقة ومنورقة ويابسة) .

وبقي عليهم أن يقطعوا فروعهم في إفريقية والمغرب الأوسط، فتحرك إليهم الناصر بجيشه وأسطوله عام (٦٠١هـ/١٢٠٤م) واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانية بأهله وولده إلى صحراء ليبيا وأقام الناصر الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي جد ملوك الحفصيين والياً على إفريقية وأعطاه مطلق

التصرف في إدارتها.

واستطاع الوالي الموحدي الجديد أن يقضي على مقاومة الأعراب وبني غانية وأحلافهم في إفريقية، ونستطيع أن نقول: إن عام ٦٠٤هـ الذي كانت فيه الزاب النهاية الحقيقية لنشاط بني غانية في إفريقية، لقد تعقب أبو محمد الحفصي جيوش يحيى بن غانية حتى أنهكها وشتت جموعها وأحلافها، وفي عام (٦٣١هـ-٦٣٣هـ/ ١٣٣٤م أو١٢٣٦م) توفي يحيى بن إسحاق بن غانية في مدينة مليانة على نهر شلف في الجزائر وكانت هذه نهاية ثوار المرابطين الذين قضوا حياتهم في معارك طاحنة مع الموحدين. وقد أضعفت هذه الحركة قوات الموحدين نحو نصف قرن من الزمان (١).

لقد كان الدافع العقدي لثورة بني غانية واضح المعالم؛ لأنهم رأوا في الموحدين دولة منحرفة عن أصول منهج أهل السُّنَّة والجماعة؛ ولأنهم حرصوا على وحدة الأمة تحت لواء الدولة العباسية ولذلك سعى بنو غانية إلى تأسيس دولة سنية على نهج دولة المرابطين التي كسبت سمعة طيبة عطرة بسبب إخلاصها وصدقها للإسلام الصحيح، وهذا يفسر لنا وقوف أهالي المغرب الأوسط وإفريقية لمدة تزيد على أربعة عقود مع ثورة بني غانية.

لقد كان تلك المحاولة الجادة التي قام بها بنو غانية بسبب الضربات الموحدية القوية والمركزة وبسبب ضعف الخلافة العباسية التي لم تستطع أن تمد بني غانية بالعدة والسلاح والرجال في حربهم الطويلة مع دولة الموحدين وبسبب انشغال الأيوبيين بمشاكلهم الداخلية بعد وفاة صلاح الدين وبحروبهم مع الحملات الصليبية الحاقدة.

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٣٦ إلى ٢٤٠).

ثانياً: جهاد الناصر لدين الله في الأندلس :

لقد كانت معركة الأرك من المعارك الخالدة في تاريخنا المجيد، ولقد تركت آثاراً عميقة في نفوس النصارى وخصوصاً ألفونس الثامن ملك قشتالة الذي لم يستطع أن ينسى مرارة الهزيمة، فشرع يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدودالإسلامية تحصيناً قوياً عام (١٢٠٩م) ، ثم نقض القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، لذا لم يكد الخليفة الناصر لدين الله يخمد ثورات المغرب حتى سمع باستعداد ألفونسو في الأندلس، الذي سعى في توثيق عهوده مع ملكي نافار وأراغون، وحصل منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند عند الخطر لمحاربة المسلمين واعتزم بعد ذلك محو وصمة هزيمة الأرك ، بإحراز نصر على الموحدين (١) .

لقد تغيرت الأوضاع السياسية في الأندلس في ذلك الوقت، واستطاع الإسبان النصارى أن يوحدوا جبهتهم الداخلية، وأن يدعو نصارى أوروبا لحرب صليبية باركها البابا أنوسنت الثالث، فحركت تلك الدعوة الحاقدة جموع النصارى في أوروبا وتوافدوا بجيوش جرارة من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا لمناصرة الصليب في الأندلس (٢) .

وشرع النصارى الحاقدون في إحراق الزروع والحقول، ونهب القرى وقتل السكان وسبى منهم جموعاً كبيرة.

وأمام هذه الاعتداءات الهمجية المتكررة على الأندلس، أعلن الناصر لدين الله الجهاد ، فحشد قوات كبيرة وشرع في إرسالها من المغرب ، **وقسمها إلى خمسة جيوش :**

---

(١) **انظر** : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل (ص ٢٣) .

(٢) **انظر** : موسوعة المغرب العربي (٣ / ٢٤٠) .

﴿ ١ ﴾ الجيش الأول من قبائل البربر.

﴿ ٢ ﴾ والثاني من الجنود المغاربة.

﴿ ٣ ﴾ والثالث من الجنود الموحدية النظامية.

﴿ ٤ ﴾ والرابع من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة.

﴿ ٥ ﴾ والخامس هو جند الأندلس.

وقدر جيش أبي عبد الله محمد الناصر بنصف مليون مجاهد وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧هـ أوائل أيار (مايو) سنة ١٢١١م، جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس، ونزل في جزيرة طريف، ثم سار بعد أيام إلى إشبيلية وهناك كان الخطأ الفادح [١] .

نتيجة لصغر سنه ولقلة خبرته، واستبداده بالرأي حيث أرسل خيرة جنده إلى حصن سلبطرة، فأنهك بذلك قواهم، ولبث الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر وهو ممتنع عليه وأصر أبو عبد الله محمد الناصر نزولاً على نصح حاجبه أبي سعيد ابن جامع، وكان الموحدون يشكون في صدق نياته - ولكن أبا عبد الله محمد الناصر وضع فيه كل ثقته، وأصر أبو سعيد بن جامع على ألا يتقدم جيش الموحدين قبل الاستيلاء على حصن سلبطرة.

وهكذا استمر الحصار طوال الصيف حتى دخل الشتاء، وعانى المغاربة في الجبال الوعرة المحيطة بالحصن من قسوة الطقس ما لا يطاق كما أودى المرض بحياة الآلاف منهم، وأخذت وسائل التموين لهذا الجيش تصعب وتتعثر يوماً فيوماً.

وحاول ملك قشتالة ألفونسو أن ينقذ الحصن ويرغم الموحدين على رفع الحصار ولكن هذه المحاولة لم تفلح، وفجع ألفونسو بفقده لولده الذي قاد الجيش لإنقاذ الحصن، وسقطت قلعة سلبطرة أخيراً بيد الموحدين، بسبب الجوع الذي

---

(١) انظر : معركة العقاب ، شوقي أبو خليل (ص ٢٣) .

حل بها بعد انتهاء مخزونها من التموين.

لقد فجر سقوط سلبطرة براكين الغضب النصراني في أوروبا ، وتحرك الرهبان والقساوسة والملوك ليثيروا بذلاقتهم حماسة الشعوب النصرانية لكي تساهم في كفاح الصليب المقدس (١) .

وقام البابا أنوسنت الثالث بدور كبير في نفخ روح الحقد في النصارى وطلب من الأساقفة في جنوبي فرنسة (بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة وأنه -أي البابا - يمنح كل من لبى الدعوة الغفران التام) (٢) .

وتحركت الأمواج البشرية النصرانية من أوروبا للوقوف مع نصارى الإسبان وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن المختلفة، وقد تولوا الإنفاق على حشودهم (٣) .

ووفدت على إسبانية جموع المحاربين من جميع البلدان الأوروبية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصلبان، وكان الفرنسيون أكثر الوافدين عدداً، وقاد أرنولد مطران أريونة جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية وكان يضطرم شوقاً للقاء المسلمين. ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك وهو أن يحمل بذلاقته وضراعته ملك نافار - بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة - أولاً على أن يؤيد قضية إسبانية بالمال والجند، ثم - وهو الأهم - على التعهد بأن يسير في فرسانه، وأن يشترك بنفسه في القتال .

واجتمع في مملكة قشتالة ما لا يحصى من جنود النصارى المتعطشين لسفك دماء المسلمين ، وكان في مقدمة تلك الحشود الضخمة ألمان من البارونات مع حاشياتهم، وبيدور الثاني ملك أراغوان في جيشه الضخم، كما توافدت

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٢٦) .
(٢) **انظر** : العقاب (ص ٢٧) .
(٣) **انظر** : العقاب (ص ٢٩) .

إمدادات ليون وجليقية والبرتغال، وكانت القوات البرتغالية تتكون من عدد من الفرسان والمشاة البارعين، يقودهم أمير برتغالي هو بيورو الثالث، أحد أبناء الملك سانشو الأول.

لقد تجمعت هذه الحشود في طليطلة التي لم تستطع أن تستوعبهم ، فاضطرت الألوف الكثيرة أن تقيم في الخيام خارج المدينة، بأنواع من السلاح والملابس واللغات والعادات، لقد اشتركت أوروبة فعلياً بأمر من البابا وقامت فرنسا وإيطاليا بإرسال الأموال اللازمة والسلاح والمؤن كل ذلك مكن ألفونسو من أن يمد جيش الوافدين بالمؤن والرواتب المالية المغرية والهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء (١) .

وفي روما أمر البابا أنوسنت الثالث بالصوم ثلاثة أيام، والاكتفاء بالخبز والماء التماساً لانتصار الجيش النصراني ، وأقيمت الصلوات العامة، وعمد الأكليروس والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب في الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى، ومن دير إلى آخر، وألقى البابا أنوسان الثالث موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يتضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبان.

وفي (٢٠ حزيران – يونية – ١٢١٢م)، تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاءالمسلمين، ونظمت القوات في ثلاثة جيوش، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن، وسار في الطليعة جيش القادمين من أوربا وكان تعداده ما بين ستين ومائة ألف محارب تحت قيادة إمرة القائد القشتالي (ديجو لويبزدي هارو) ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة، ومطران بوددو (بردال) وأسقف نانت.

---

(١)انظر : العقاب (ص ٣٠ ، ٣١).

وكان الجيش الثالث يقيادة بيدور الثاني، وهو مؤلف من الأراغوانيين والقطلونيين فقط مع فرسان الداوية.

أما الجيش الثالث، وهو أضخم الجيوش الثلاثة، ويتألف من جنود قشتالة،ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان، الأمير الليوني سانشو فرنانديز، والأمير البرتغالي بيورو، وردريك مطران طليطلة، وخمسة أساقفة أُخر.

وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفاً، ولكنها لم تحدثنا عن عدد المشاة لحشدهم الضخم الكبير (١) .

[أ] حصار قلعة رباح :

وفي اليوم الخامس في بدء السير من طليطلة في الرابع والعشرين من حزيران (يونية) ١٢١٢م ، هاجم جنود النصارى حصن (مجلون)، وأبادوا جميع من فيه، بعد ذلك ساروا إلى قلعة رباح، وكانت بها حامية قوية من الموحدين، ولقي النصارى في عبور وادي يانة الذي يقع عليه المدينة صعاباً فادحة، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبي الوادي الصانير والخوازيق الحديدية.

وهاجمت الجيوش الثلاثة قلعة رباح في جوانبها الثلاثة المنيعة، حتى سقطت المدينة في أيديهم، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية، والأسوار المنيعة، وكان يخشى أن تقتضي حصاراًطويلاً. وأبدى ملك أراغون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر ، **ويقول يوسف أشياخ :** (٢)

(وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربي للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة، دون محاولة

---

(١) **انظر** : العقاب(ص ٣٢) .

(٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين(٢ / ١١٣) .

افتتاحها، وأن يبدأ بالسير توًّا لمهاجمة المسلمين) [١] .

لقد تغلب الرأي القائل بمهاجمة القلعة، إذ كان من المعروف أنها تحوي أموالاً هائلة، وكميات عظيمة من المؤن التي بدأ النصارى يشعرون بنقصها.

لقد ضيق النصارى على مسلمي القلعة واضطر قائدها أبو الحجاج يوسف بن قادس بأن يفاوض النصارى وانسحب بجنوده وترك القلعة ووجد ألفونسو في القلعة رباح كميات عظيمة من المؤن [٢] .

وسار النصارى إلى لقاء المسلمين بعزم أقوى، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك، وهو المكان الذي لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمته الشنعاء، وأذكى شجاعتهم قدوم شانشو ملك نافار، وقد اشتهروا بالبراعة في الحرب والشجاعة في القتال.

وعلى إثر ذلك تحرك الملوك الثلاثة، ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وسانشو ملك نافار، وبيدرو الثاني ملك أرغوان نحو مدينة سلبطرة، وهي القلعة التي افتتحها الموحدون في العام السابق بعد حصار طويل.

وعرض الملوك الثلاثة هنا جيشًا لم تخرج إسبانية النصرانية مثله من قبل ، بيد أنهم لم يقفوا بسلبطرة لمناعتها ، واتقاء لحصار لا طائل منه، فاخترقوا ممر « ورادال » في جبال سيارا مورنيا « جبل الشارات » لكي يلقوا المسلمين في ناحيتها الأخرى [٣] .

[ب] مقتل البطل يوسف بن قادس أبو الحجاج :

عندما سقطت قلعة رباح ورجع قائدها الذي بذل ما في وسعه وطاقته من أجل الإسلام والمسلمين غضب السلطان الناصر على أبي الحجاج وبدسٍ من وزيره

---

(١) انظر : العقاب (ص ٣١) .
(٢) انظر : العقاب (ص ٢٣) .
(٣) انظر : العقاب (ص ٣٥) .

أبي سعيد بن جامع أمر السلطان الناصر بقتل هذا المجاهد العظيم جهاراً، فكان لهذا الفعل أثر سيىء في الجيش الإسلامي كله ، ولا سيما في جند الأندلس، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم ، وهذا خطأ آخر وقع فيه السلطان الناصر [١] .

قلت : وهذا الفعل يدل على ضيق أفق السلطان الناصر وعلى ظلمه لقادته، وعلى تأثره بنصائح لا تنفع الأمة ولا تقوي صفها ووحدتها في صفوف الأعداء، ولو كان هذا السلطان لديه فقه في السياسة الشرعية ومعرفة بنفوس جنوده لكان الموقف غير ذلك ونجد في الشريعة الغراء قواعد واضحة المعالم في دفع المفاسد وجلب المصالح ، ومعرفة مقاصد الشريعة.

إن هذا العمل الخاطىء الذي قام به الناصر لدين الله يجر على الأمة الهلاك والدمار والعار.

المعركة :

قام ملوك الإسبان في صباح ١٦ تموز « يولية » بترتيب جندهم لخوض المعركة، فرابط بعضهم على سفح الجبل، والبعض فوق الربى، تزعم ألفونسو ملك قشتالة قلب الجيش مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله، وكان القلب يضم أربعة فرق :

﴿ ١ ﴾ تتألف الفرقة الأولى من سكان الجبال القشتالية، ويقودها « ديجولويز » .

﴿ ٢ ﴾ وتتألف الفرقة الثانية من فرسان قلعة رباح، وشنب ياقب، والاسبتارية والداوية، وبعض جند الحدود القشتالية، ويقود هذه الفرقة الكونت « جونزالو نونيز دي لارا » .

﴿ ٣ ﴾ والفرقة الثالثة وتتألف من جند وفرسان قشتالة القديمة واشنترويش،

---

(١) انظر : العقاب (ص ٣٦) .

وبسكونية، ويقودها الكونت «ردريك دياز كاميروس».

﴿٤﴾ وتتألف الفرقة الرابعة من الجند الاحتياطي من طليطلة، وبعض قوات ليون، ويقودها ألفونسو نفسه، فهو هنا يقلد تنظيمات المرابطين والموحدين، وكان يرافق القوات الاحتياطية فضلاً عن المطران «ردريك الطليطلي» [١] ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم.

وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا، وفيه فرسان فرنسيون بقيادة آرنولد مطران أربونة، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي.

أما الجناح الأيسر، فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق، ويتألف من قوات أراغون، ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين، ويقوده الملك بيدروا، ومن حوله الأحبار والأرغونيون.

أما جيش الموحدين ، فقد قسمه أبو عبد الله محمد الناصر إلى خمس فرق ، كانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم، وبدافع ذاتي محض للجهاد والموت في سبيل الله، ونشر الإسلام. وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل. واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة، والقبائل البربرية في الميسرة، وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش، من الجند المغاربة والنظاميين، أو بعبارة أخرى من جند الموحدين. وضرب أبو عبد الله محمد الناصر قبته الضخمة الحمراء في وسط الصفوف، وربط أمامها جواده المسرج. وقعد في داخلها على درقته [٢] ، إيذاناً باقتراب المعركة، ومن حوله حرسه من مشاة وفرسان. وشهر الجند حرابهم في اتجاه معسكر النصارى الإسبان ومن معهم من قوات أوربية صليبية، فكانت سداً

(١) انظر : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ، لأشباخ (٢/١١٧).
(٢) انظر : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ، لأشباخ (٢/١١٨).

منيعاً دون اختراقه الموت.

ولما تمت استعدادات المعركة ، خرج سلطان الموحدين من قبته وهو يرتدي عباءة سوداء من مخلفات جده عبد المؤمن، وقد رفع المصحف الشريف بإحدى يديه، وشهر سيفه بالأخرى بينما كان قرع الطبول الضخمة يدوي بشدة في ساحة المعركة (١) وسارع جند المتطوعة المسلمين للقتال وطلب الشهادة في سبيل الله وكان هجومهم عنيفاً قوياً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخترقوا صفوف النصارى التي كانت مدعومة بجماعات الفرسان الدينية - الاسبتارية والداوية - فاستطاعوا أن يردوا جموع المسلمين ، وأن يمزقوها.

واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل الله والإسلام ، ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة المتطوعة المسلمين، وتقدموا بذلك ظافرين من قلب الجيش الإسلامي، حيث حشدت صفوة الجند، لقوا أشد مقاومة، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية، وارتدوا فارين، فتابعهم الفرسان المسلمون في ارتدادهم وفرارهم.

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيىء، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة، وكانت كلماته التي قالها لمطران طليطلة وهي: «إن الساعة قد حانت لتلقي الموت المجيد» (٢).

تدل على أنه لم يكن يأمل النصر بعد ، ولكن اعتراضات المطران ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار، وأرسلت في الوقت ذاته قوات من أشجع الجند لإمداد الجيش المرتد، وسار الأحبار أنفسهم على رأس الجند إلى

(١) **انظر** : العقاب (ص ٤٢) .
(٢) **انظر** : تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين (٢/ ١١٨) ، نقلاً عن العقاب (ص ٤٥) .

قلب المعمعة ، وهم يرفعون أعلاماً عليها صورة المسيح، يثيرون بذلك أعظم الحماسة الصليبية في نفوس جنودهم . وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجبليين فرصة تقدم الإمدادات الجديدة، ليلموا شعثهم، وينظموا جموعهم، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة، وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامي، حيث كان الناصر لدين الله وحرسه، وفي الوقت الذي ضربوا فيه هجومهم على السلاسل الحديدية التي احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحراس شاهرين الحراب، كان جناحا الجيش الإسلامي قد حُطِمَا ، ذلك أنه ما إن بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الإسلامي، ولم يصمد في ذلك القتال إلا جند الموحدين النظاميين، والحرس المغاربة ، فقد صمدوا في مقاومة هجمات النصارى ، وصدوهم في كل ناحية بشجاعة فائقة، وبسالة نادرة، ورجولة فريدة، وجلد لا مثيل له، ولكن الدائرة حطمت وأصبح نصر النصارى لا مفر منه ، وحاول الناصر لدين الله أن يلهب مشاعر جنوده ويذكي حماسهم حتى اللحظات الأخيرة مع نفر من جنوده ، واتجه نحو بياسة ولكنه لم يقف بها بل سار منها إلى إشبيلية .

لقد كانت هذه المعركة الخاسرة للمسلمين السبب في هلاك الأندلس وبداية أفول شمس الإسلام في الأندلس، حيث كانت النهاية، أو نهاية البداية مصرع غرناطة .

لقد كانت حشود النصارى في معركة العقاب ضخمة جداً وكانت التعبئة والنفير العام على مستوى أوروبا كلها يدفعهم الحقد الصليبي، للانتقام من المسلمين والقضاء على شوكتهم وإضعاف قوتهم [١] .

---

(١) انظر : العقاب (ص ٤٦ ، ٤٧) .

لقد استشهد في المعركة الألوف من المسلمين ومن العلماء العاملين المجاهدين ومن أشهر هؤلاء العلماء:

﴿١﴾ أبو عمر أحمد بن هارون بن عات النضري (٥٤٢-٦٠٩هـ) ، من أهل شاطبة، صاحب التآليف الذي «كان أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخل بحفظ شيء منها . موصوفاً بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجشب، ويلبس الخشن، وربما أذن في المساجد، وله تآليف دالة على سعة حفظه، مع النظم والنثر .. ثم توجه إثر ذلك غازياً. وشهد وقعة العقاب التي أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحيف الروم بلادها حتى استولت عليها ففقد حينئذ ولم يوجد حياً ولا ميتاً ، وذلك يوم الإثنين منتصف صفر سنة تسع وستمائة..» [(١)] .

﴿٢﴾ القاضي الفقيه أبو إبراهيم إسحاق بن يعمر المجابري. من سكان فاس الذي تولى قضاء سبتة ثم بلنسية «فقد في كائنة العقاب يوم الإثنين الرابع عشر من صفر سنة تسع وستمائة...».

﴿٣﴾ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري. من أهل سبتة، الذي «استوسع في الرواية. وكان معروفاً بالزهد، واستشهد في كائنة العقاب» [(٢)] .

﴿٤﴾ أبو محمد تاشفين بن محمد المكتب، من أهل فاس «كان زاهداً، عابداً معلماً للقرآن له حظ من قرض الشعر، ودخل الأندلس غازياً وقدم قرطبة في ذي الحجة سنة ثمان وستمائة، فأقام هنالك أياماً يلقى الزاهدين.. ثم خرج إلى غزوة العقاب. ذكره ابن الطيلسان وقال: أراه استشهد بها فإنه انقطع عني خبره..» [(٣)] .

---

(١) التكملة(١/١٠١-١٠٢) رقم(٢٦٢) نقلاً عن التاريخ الأندلسي(ص ٤٩٤) .
(٢) المصدر السابق(١/٢٠٢) رقم(٥٣٦) نقلاً عن التاريخ الأندلسي(ص ٤٩٥) .
(٣) المصدر السابق(١/٢٣٥) رقم(٦٢٣) نقلاً عن التاريخ الأندلسي(ص ٤٩٥) .

﴿ ٥ ﴾أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الحضرمي،من أهل اليُسَّانة عَمِل في قرطبة «ولي قضاء موضعه مدة طويلة، مضافاً ذلك إلى الصلاة والخطبة بجامعه. وله تأليف في رجال الموطأ ، واستشهد في وقيعة العقاب منتصف سنة ٦٠٩» [١] .

لقد كان ديدن العلماء المسلمين وفقهائهم وقضاتهم تصدر المقدمة عند الأحداث والملمات وفي المخاطر ويتسابقون في بذل دمائهم وأرواحهم من أجل الإسلام والمسلمين.

ثالثاً: أسباب الهزيمة في العقاب:

﴿ ١ ﴾ الإعجاب بالكثرة، وكأن غزوة حنين تتكرر بعد حوالي ستة قرون في هضاب الأندلس. إن الثقة بآلاف الجند، وبمقدرة القادة، أفقد القائد وأفقد الجند اعتمادهم على الله سبحانه، وهذا يفسر لنا عبارة الناصر لدين الله التي قالها قبيل انسحابه ، ألا وهي : «صدق الرحمن ، وكذب الشيطان» [٢] .

﴿ ٢ ﴾ لم يكن التكتيك الحربي على مستواه المطلوب، ولم تكن المجالس الاستشارية ذات قيمة بالنسبة للناصر لدين الله ولذلك رفض نصيحة أصحاب الخبرة برفع الحصار عن سلبطرة ، وأخذ برأي الوزير أبي سعيد بن جامع الذي أصر على ملازمة الحصار واستمر لمدة ثمانية أشهر، وتعرض الجيش الموحدي لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين والمؤن بسبب الأخذ بالرأي الفردي وترك الرأي الجماعي.

﴿ ٣ ﴾ ضعف شخصية الناصر لدين الله الذي أصبح ألعوبة وخاتماً في يد الوزير أبي سعيد بن جامع.

﴿ ٤ ﴾ سبب مقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس أمير قلعة رباح استياء في الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس لعلمهم أن ابن قادس قد بذل كل

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٨٥ -٥٨٦) رقم (١٥٥٩) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (ص ٤٩٥).

(٢) انظر : العقاب (ص ٥٠).

المستطاع ، وأن قتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميم، كل هذا مهد للفرار وانسحب الأندلسيون من المعركة وركنوا إلى ترك القتال بعد معارك قصيرة وكان هذا الانفصال الغير متوقع من أسباب وعوامل الهزيمة النكراء.

﴿ ٥ ﴾ إصرار ملك قشتالة على الانتقام من هزيمة الأرك وأخذ بكافة الأسباب التي تعين على تحقيق النصر الحاسم، فعمل على توحيد الجبهة الداخلية وطلب إمدادات من البابا ومن ملوك أوربا وجعل الحرب مقدسة من أجل العقيدة.

﴿ ٦ ﴾ الثورات التي حدثت في المغرب من قِبل بني غانية جعلت الموحدين ينفقون فيها نفائس أموالهم ويقدمون خيرة رجالهم [١] .

لقد فقد المسلمون ثلث قواتهم في هذه المعركة وقام النصارى بقتل كل الأسرى الذين وقعوا بين أيديهم وباشر ألفونسو احتلال حصون المسلمين والمدن: فرال، تولوزا، بياسة، بلقيس، بانيوس، وأبدة التي أعملوا السيف في رقاب أهلها وحطموا كثيراً من مبانيها، بينما كان الرهبان والقساوسة يرتلون الصلوات فرحاً بنكاية المسلمين، ولولا الأمراض التي فتكت بجيوش النصارى لتابعوا بطشهم بالمسلمين، فاضطروا إلى الرجوع إلى طليطلة حاملين مئات الأسرى من النساء والصبية، ولكن بعد ارتكابهم المجزرة الرهيبة [٢] .

لقد كانت المجزرة الإنسانية في مدينة بياسة . يقول أشباخ في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين [٣] : «ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش، وكان هؤلاء التعساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ينتظرون مصيرهم جزعين، فشاءت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف، ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى؛ بل ذهب

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٥١) .

(٢) **انظر** : العقاب (ص ٥٢) .

(٣) **انظر** : تاريخ الأندلس ، ليوسف أشباخ (٢/ ١٢٣) .

النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك، حينما هاجموا مدينة أبدة التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المنهزم وسكانها العزل،وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء.

ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً عاماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ولم يسفر عن أي نجاح، لولا أن استطاع الأرغونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها، وأن يحتلوها، ولكن القلعة وباقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الإسبان، وعندئد رأى الملوك، أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرغونيين قد خشوا العاقبة ، وأرسلوا إلى ملوك النصارى يعرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب « مليون دينار » على أن يتركوا المدينة حرة يسكنهاالمسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم، وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة إتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صعاب في افتتاحها.

ولكن الأحبار الظامئين إلى دماء المسلمين، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد أو شرط،فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع، منتحلين لذلك عذراً هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى، لم يؤدوا الضريبة المضروبة عليهم في الحال، وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكودين، فقتل في أبدة زهاء ستين ألفاً، وسبي مثل هذا العدد، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها، وعندئذ أبدى الأحبار رضاهم، ورتلوا أناشيد الشكر ضارعين إلى المولى أن يشملهم برحمته [١] .

---

(١) انظر : العقاب (ص ٥٣) .

أين هذا من سماحة الإسلام ورحمته وإنسانيته ووفائه للعهود واحترامه للأديان؟ .

قال الشاعر:

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وحللتم قتل الأسارى وطالما ... غدونا على الأسرى نمن ونصفح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضح [1]

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تحطيم قوى السلطان الناصر بالأندلس فقط ولكنها أدت فوق ذلك إلى تدمير سلطان الموحدين في المغرب أيضاً. فقامت دويلات في المغرب وبدأ عصر ظهور ملوك الطوائف الثاني بعد الموحدين وآل الأمر إلى سقوطها بيد النصارى.

جاء في نفخ الطيب: (كانت العقاب سبب ضعف المغرب والأندلس، أما المغرب فبخلاء كثير من قراه وأقطاره، وأما الأندلس فبطلب العدو لها..) [2] .

وبعد هزيمة العقاب غادر الناصر لدين الله ميدان الحرب الذي غص بالقتلى من جنده مسرعاً إلى إشبيلية، وهنالك صب حُمَام غضبه على شيوخ الموحدين المحليين وسحقهم وأذل القادة والزعماء وفصل وعين ثم رجع إلى الأندلس حزيناً كئيباً ولكي ينسى حزنه وكدره قضى بقية أيامه في الملذات والشهوات، ولم يقم بشيء من شئون الحكم سوى أن عين لولاية عهده ولده أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله، وكان يومئذ طفلاً في العاشرة من عمره، ولما انتهى من هذا التعيين، ترك شئون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحدائقه بمراكش، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه وقضى أمداً لا يجاوز العام في هذا اللهو الصاخب ثم دس له خدمه السم وتوفي مسموماً بأمر من وزرائه ؛ لأنه كان قد

---

(١) **انظر** : صلاح الدين بطل حطين ، لعبد الله بن علوان (ص ٨٤) .

(٢) نفح الطيب (١ / ٤٢٠) .

عزم على قتلهم، فعاجلوه بالقتل. فمات ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره في (١١ شعبان ٦١٠هـ/٢٥ كانون الأول «ديسمبر» سنة ١٢١٤م) ، بعد أن حكم خمسة عشر عاماً وبضعة أشهر [١] .

وبعد موت السلطان الناصر بدأ الانحدار في دولة الموحدين والصراع الداخلي والأهداف الخسيسة تظهر بين زعماء الموحدين.

والذي يقلب صفحات تاريخ ذلك الفترة من الدولة الموحدية يدرك مدى الخزي والعار والاستهانة بديار المسلمين من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب الشعوب والعقيدة. وهكذا توضع أمور الدول في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه وشعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس ويقرر العبور إلى المغرب معتمداً على محالفة العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع داخلي عنيف كلف الموحدين دماء وأموالاً، وتفككاً داخلياً وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طو يلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م رغم أن الدولة كانت قد انتهت فعلاً عام ١٢١٢م وليس عام ١٢٦٩م إذ أن الدولة استمرت تمارس وجودها طوال سبعة وخمسين عاماً بعد معركة العقاب ولكنها لم تكن دولة بمعنى الكلمة؛ إذ بدأت عوامل الانهيار والانقسام والتفكك تنتاب الدولة، وأخذت تتهاوى مع الأيام حتى كانت أيامها الأخيرة على أيدي بني مرين ومن قبلهم بني عبد الواد في تلمسان وبني حفص في تونس [٢] .

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٥٧) .

(٢) **انظر** : موسوعة المغرب العربي (٣/٢٤٨ إلى ٢٥٣) .

رابعاً: أسباب سقوط دولة الموحدين:

﴿١﴾ ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم، مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم؛ ولذلك كفروهم واستحلوا دماؤهم وأموالهم وسبوا نساءهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحياناً واهية ، أو ليس لها ما يبررها ، فمضت فيهم سُنَّة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سُنَّة الله في الظلم والظالمين - يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير- ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه وحيث أن دعوة المظلوم مستجابة لقوله ﷺ : لمعاذ ابن جبل ﷺ حين بعثه الله إلى اليمن.. «... **واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب**» .

ومن سُنَّته تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا وإن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود [١] .

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يجعل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره الله لها بموجب سننه العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثره وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله [٢] .

---

(١) **انظر** : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د . عُبادة كُحيلة (ص ١١٩) .

(٢) **انظر** : السُنن الإلهية ، د . عبد الكريم زيدان (ص١٢١) .

قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) ﴾ [الأعراف : ٣٤].

قال الألوسي ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أي لكل أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم [1] . ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى [2] .

إن سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾

[هود: ١٠٠-١٠٢] .

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ .

فبين الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد . فالآية تحذر من وخامة الظلم.

---

(١) **انظر** : تفسير الألوسي (٨ / ١١٢) .

(٢) **انظر** : السُّنن الإلهية في الأمم (ص١٢١) .

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم(١) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ .

[هود : ١١٧] .

قال الإمام الرازي - رحمه الله - في تفسيره :

(إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك . والمعنى أن الله تعالى لا يهلك القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد)(٢) .

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى : ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أي بشرك وكفر ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق . ومعنى الآية : إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط (٣) .

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق – أي في

---

(١) **انظر** : السُنن الإلهية في الأمم والأفراد (ص ١٢٢) .

(٢) تفسير الرازي (١٨ / ٧٦) .

(٣) تفسير القرطبي (٩ / ١١٤) .

الآخرة - وإن لم تقم بالعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة) [١] .

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال .

[٢]من أسباب سقوط دولة الموحدين، ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين:

حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السُنَّة والجماعة وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم ، واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية ، كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها .

[٣] ثورات الأعراب المتتالية :

حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت إفريقية والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحياناً تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوى ضد الموحدين، وأحياناً تخضع لدولة الموحدين ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين ، لقد قَدِمَ

---

(١) **انظر** : رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - تحقيق صلاح المنجد (ص٤٠) .

الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدي عام ٥٨٤هـ ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠ هـ أصبحوا يتدخلون في شئون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين ، ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر «ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم» [١] .

[٤] ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين :

ومن أشهر هذه الثورات، ثورة محمد ابن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليها إلا بعد قرن من تحافله مع النصارى ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس، ولقد كلفت هذه الثورة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بلنسيةالذي التجأ إلى ملك ليون.

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب [٢] .

[٥] النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم :

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، بل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة ، مما ساعد اضمحلالها وزوالها.

---

(١) **انظر** : العقاب (ص ٦٨) .

(٢) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي عز الدين عمر أحمد موسي (ص ٨٣) .

ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختيار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثةمظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد، والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف (١) .

﴿ أ ﴾ ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في ٦٢٣هـ/١٢٢٦م السيد أبو محمد عبد الله العباسي وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيي بن الناصر، وظل كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طوال خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤-٦٣٣هـ/ ١٢٢٧-١٢٢٦م) ، وفي عام (٦٢٩هـ/ ١٢٣١م) ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس. ولا ريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة، وانتشرت الفتن، وقلت المجابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضارية بين بني عبد المؤمن (٢) .

﴿ ب ﴾ دخل زعماء الموحدين من البيت الحاكم في محالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه، فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم ، فهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ٦٣) .

(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ٨٤) .

﴿ جـ ﴾ إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخة أو باحثين عن ملذاتهم[١].

إن ضعف الخلفاء يسر الطريق لمجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها. وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدارية أم قبلية أم عسكرية[٢].

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور، فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[٣].

إن أشياخ الموحدين الذين احتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم ويمسكون بزمام الحكم في أيديهم ولهذا استبدوا ، ولما كانت مصالحهم متضاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ[٤].

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن، وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين على العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكش. لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٥) .

(٢) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٦) .

(٣) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٧) .

(٤) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٩) .

وحسن ضبطه، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة [١] .

[٦] الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي:

لاشك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي، ولذلك حققوا انتصارات هائلة على خصومهم وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي انهزم فيهاالموحدين وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطيعوا بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدوا جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدون مسيرته الهابطة ، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف انحلال الجيش، ضعف مبادىء الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين عَمَدوا إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٩١ ، ٩٢) .

لقد كان لإدخال العربان في الجيش الموحدي أثره الخطير على أهدافه ونظامه إذ لا هم لهم سوى السلب والنهب واكتساب المال ، ولا يعرفون نظاماً ولا يتقيدون بأوامر وبعد النزاع بين السادة والتسلط من مراكز القوة ، وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل جعل من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة (١) .

[٧] الترف والانغماس في الشهوات :

الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشئون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأُول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جل أم صغر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، و يوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضة وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً (٢) وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال ، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهون عنها لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب الملذات فقط ، ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها . قال تعالى : ﴿ **فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (١١٦)** ﴾ [سورة هود : ١١٦]. وقوله تعالى : ﴿ **وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا**

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٦٥ ، ٩٦) .

(٢) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ٨٦) .

أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها، والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء [١].

وقد مضت سُنَّة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: **﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣)﴾** [الأنبياء: ١١-١٣].

ومن سنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)﴾**.

[الإسراء: ١٦].

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد [٢]، وهذا أحد وجوه تفسير الآية.

[٨] تقلص أراضي الدولة في إفريقية والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقية،

---

(١) **انظر**: السُنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد (ص ١٨٦).

(٢) **انظر**: تفسير الآلوسي (١٥/٤٢).

وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين.

ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب (٦٢٥هـ/١٢٢٨م) في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر ابن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم)[١].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام في سنة (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) زيان بن مردنيش وفي سنة (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام (٦٣٦هـ/١٢٣٩م) إلا وقد سيطر على غرب الأندلس[٢].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى فسقطت قرطبة عام (٦٣٣هـ/١٢٣٦م)، وبلنسية في عام (٦٣٦هـ/١٢٣٩م)، ومرسية (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) وإشبيلية (١٢٤٦م) وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً.

وانفصلت إفريقية سنة (٦٢٧هـ/١٢٣٠م)، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة

---

(١) انظر: البيان المغرب (٣/٢٦٩) نقلاً عن دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ١٠٨).

(٢) انظر: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ١٠٨).

وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب ، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها ، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، واتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعة (١) .

وفي الوقت نفسه انفصلت الأندلس، وإفريقية وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل (٢) ، فسيطرت قبائل بني مرين على وادي المغرب، وانفصل بني عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية.

[٩] فتور مبادىء ابن تومرت في نفوس الموحدين بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزة على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين والذي توصلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة، يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: « ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك حداً عظيماً ، لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه ، لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » (٣) . ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكر إلى دولة الوراثة، فكان هناك

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ١٠٩) .
(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي(ص ١١١) .
(٣) المعجب ،(ص ١٩١) .

انحراف في المبادىء التي قامت عليها فكرة الموحدين؛ لأن دولة الفكرة والمبادىء تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادىء التي عليها ويلتزمها وتبعد من يحيد عنها.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوياً بها وولاهم المناصب في الدولة ، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة ، فالمنصور يصرح بذلك لخاصته والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسد عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجر ويغدو آفة عليهم (١) .

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فرض على الناس بالسيف والقوة ، مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس تنسل من المنظومة الموحدية والعقدية وتحاول أن تبحث لها عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

هذه بعض الأسباب التي ساهمت في إسقاط دولة الموحدين.

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي (ص ١١٧) .

خامساً: خلفاء الموحدين:

[١] عبد المؤمن بن علي ٥٢٤-٥٥٨هـ/ ١١٢٠-١١٦٣م .

[٢] أبو يعقوب يوسف ٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٣٦-١١٨٤م .

[٣] أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠-٥٩٥هـ/ ١١٨٤-١١٩٩م .

[٤] أبو محمد عبد الله الناصر ٥٩٥-٦١٠هـ/ ١١٩٩-١٢١٣م .

[٥] أبو يعقوب يوسف المستنصر ٦١١-٦٢٠هـ/ ١٢٠٣-١٢٢٤م .

[٦] عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢٠-٦٢١هـ/ ١٢٢٤م .

[٧] أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) ٦٢١-٦٢٧هـ/ ١٢٢٤-١٢٢٧م.

[٨] يحيي بن الناصر ٦٢٤-٦٢٤هـ/ ١٢٢٧-١٢٣٠م .

[٩] المأمون بن المنصور ٦٢٧-٦٣٠هـ/ ١٢٣١-١٢٣٢م .

[١٠] الرشيد بن المأمون بن المنصور ٦٣٠-٦٤٠هـ/ ١٢٣٢-١٢٤٢م :

[١١] السعيد علي أبو الحسن ٦٤٠-٦٤٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٤٨م .

[١٢] أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦-٦٦٥هـ/ ١٢٤٨-١٢٦٦م .

[١٣] أبو دبوس الواثق بالله ٦٦٥-٦٦٨هـ/ ١٢٦٦-١٢٧٠م .

الفصل الثالث

الأندلس والشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ونصف ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٧هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الإفريقي بعد سقوط الموحدين، فانقسم إلى دول، لا تجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تجاوز في أحيان إطار القبيلة واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزاعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية، وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها ، ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة؛ لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة،وخرج من ذلك المخاض الطويل، دول من أهمها: دولة بني حفص في إفريقية، دولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين (ثم بني وطاس في المغرب الأقصى).

وسنحاول بإذن الله تعالى في الصفحات القادمة أن نتحدث عن تلك الدويلات التي قامت في الأندلس والشمال الإفريقي، مستخلصين العبر والعظات والدروس المستفادة من دراسات تلك الدويلات ، التي أصبحت كأن لم تغن بالأمس.

المبحث الأول

مملكة غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرينيين في المغرب الأقصى، وملك محمد بن يوسف هود قواعد شرقي الأندلس، وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض.

وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها التي استطاعت أن تجند رجالاً يعملون لحسابها،فرأت أن الفرصة حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في (٢٣ شوال ٦٣٣هـ/ ٢٩ حزيران ـ يونية ـ ١٢٣٦م) ، صيحة النذير المدوية، لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فقد الأوطان والأرض ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام (٦٣٦هـ /١٢٣٨م) ثم شاطبة ودانية وفي عام (٦٤٦هـ) سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين مجيد ، ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت المدينة لفرديناند الثالث، على أن يخير المسلمون بين البقاء في إشبيلية، أو يهاجروا وفي الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلوها في الحواضر الإسلامية الباقية.

لقد كان سقوط إشبيلية إيذاناً بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على : شريش، شذونة، قادس،شلوقة، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية ، وغيرها... وتحالف ابن الأحمر مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة (١) .

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس ووضح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حل بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية ومرسية بيد النصارى.

لقد صور الشاعر المسلم أبو البقاء الرندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألماً وحزناً، فلله دره فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات .

قال الشاعر:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغتر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان

---

(١) انظر : سقوط غرناطة (ص ٣٠) .

أتى على الكل أمر لا مرد له | حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة | وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها | وما لما حل بالإسلام سلوان
وهي الجزيرة أمر لا عزاء له | هوى له أحد وانهد ثهلان [1]
أصابها العين في الإسلام فامتعنت | حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية | وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم | من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه | ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما | عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف | كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية | قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما | فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي جامدة | حتى المنابر ترثي وهي عيدان
ياغافلاً وله في الدهر موعظة | إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه | أبعد حمص تغرُّ المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها | وما لها مع طول الدهر نسيان
يا أيها البيضاء رايته | أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة | كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة | كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة | لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس | فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهم كما تفرقت أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان [١]

« وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية - قد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس - يهرعون إلى احتذاء مثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة » [٢] .

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر، فغزوا أراضيه وشنوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم، فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه

---

(١) نفح الطيب (٤ / ٤٨٦,٤٨٧,٤٨٨) .
(٢) انظر : نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين (ص ٣٣) .

يقطر حزناً وأسى [١] .

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس وحاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى الحرب عليه في عام (٦٦٠هـ/ ١٢٦١م)، فردهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار مبين منذ انهيار الموحدين. وفي عام (٦٦٢هـ) استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش وتخليصها من يد النصارى.

شدد النصارى هجماتهم بدءاً من عام (٦٦٣هـ) وبدأت الهزائم تتلاحق على محمد بن يوسف ابن الأحمر على يد (دون نوينو دي لارا) صهر ملك قشتالة، فبايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث المستنصر لابن الأحمر هدية وعوناً، ولكنها لم تجد نفعاً، فسوء المصير لاح في الأفق، فاضطر ابن الأحمر أن يهادن ملك قشتالة ثانية في أواخر سنة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) متنازلاً له عن أكثر من مائة موضع معظمها غربي الأندلس، منها شريش والمدينة والقلعة.

ودخلت غرناطة في حرب داخلية بين ابن الأحمر وبعض أصهاره وهو أبو محمد بن أشقيلولة وكان في مالقة وتحالف ابن الأحمر مع الإسبان عام (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) وحاصروا أبا محمد بن أشقيلولة في مالقة ولكنهم لم ينالوا منه مأرباً [٢] .

وفي عام (٦٦٨هـ) ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في (٢٩ جمادي الثانية

---

(١) المصدر السابق (ص ٣٤) .

(٢) انظر : مصرع غرناطة (ص ٣٣) .

٦٧١هـ كانون الأول «ديسمبر» ١٢٧٢م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى [١].

أولاً: ترجمة ابن الأحمر:

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف محمد بن أحمد بن خمسين ابن نصر بن قيس الخزرجي. يرجع في نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصارى، أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، وكان نقيباً شهد العقبة وبدراً [٢].

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرجونة من حصون قرطبة في جهة الشرق سنة ٥٩١هـ، (١١٩٥م) وهو عام الأرك. كان جندياً وافر العزم والجرأة دعا لِلَم الشمل، فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة ٦٣٥هـ[٣].

[أ] شيء من سيرته:

كان في أوقات السلم ينصرف إلى شئون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة. نظم الشرطة والقضاء، وطبق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعدما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتلقي المظالم،فكان قريباً من شعبه. ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل والملبس فيبدو في مظهره الخارجي كسائر الناس[٤]. يقول فيه لسان الدين بن الخطيب: «كان هذا السلطان آية في السذاجة والسلامة، عظيم التجلد رافضاً للدعة والراحة، مؤثراً التقشف بعيداً غن التصنع، شديد الحزم، فظًا في طلب حقه، مباشراً للحرب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر التبدي» [٥].

---

(١) ابن خلدون (٧/١٩٠)، نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ٣٣).

(٢)، (٣) **انظر**: التاريخ الأندلسي (ص ٥١٧).

(٤) **انظر**: غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات (ص ٣١).

(٥) ابن الخطيب: اللمحة البدرية (ص ٤٣).

وكانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر يتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة ربما لأنه اضطر إلى محالفة أعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر إلى جانب بنائه القصر المشهور، أنه أنشأ مأوى للعميان وداراً للعجزة، وبنى مستشفى كبيراً ونشر المدارس، وأعد المنازل للغرباء دون تمييز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد رعيته متستراً بعيداً عن مظاهر الأبهة وعظمة الملك [١] «وكان يعقد للناس مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ترتفع إليه الظلامات ويشافهه طلاب الحاجات وينشده الشعراء وتدخل إليه الوفود ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة وأولو الرتب النبيهة» [٢] .

كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة «فتوفر ماله، وغصت بالصامت خزائنه، فأفعم الأهراء، وملأ بطن الجبل المتصل بمعقله حبوباً مختلفة» [٣] . ولما ابتنى قصر الحمراء جلب له المياه التي أوصلها كذلك إلى المدينة، فكثرت البرك والنوافير وسبل المياه والحمامات العامة، ومد إلى سهول غرناطة قنوات الري التي ما يزال بعضها قائماً حتى اليوم [٤] .

لقد نجح هذا السلطان في تأسيس دولة غرناطة في الأندلس، وكان لقيام هذه الدولة وثباتها عدة أسباب منها:

﴿١﴾ موقعها الجغرافي، حيث كانت في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الأندلسية التي قد تبدو منقطعة ، حيث البحر من الجنوب والعدو من الشمال

---

(١) **انظر** : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري فرحات (ص ٣٢) .
(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية (ص ٤٤) .
(٣) المصدر السابق (ص ٤٣) .
(٤) **انظر** : غرناطة في ظل بني الأحمر ، د . يوسف شكري فرحات (ص ٣٢) .

فكانت مملكة غرناطة أبعد مكان بالنسبة لمدن الأندلس للوقوع في يد عدو الأندلس من حيث الموقع ومن حيث قربها من بلاد المغرب وعدم وجود خط معاد أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون إعانة المغاربة في الشمال الإفريقي لإخوانهم في الدين والعقيدة.

﴿ ٢ ﴾ ظهور دولة بني مرين في المغرب وكان من أهدافها الكبرى مواصلة الجهاد في الأندلس، ولذلك لم تبخل بالوقوف بكل ما تملك من جهد لدعم مملكة غرناطة ضد النصارى في الأندلس، فقامت دولة بني مرين بالمرابطة والجهاد مع مسلمي الأندلس، فكان لهذا العمل الجليل أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس.

﴿ ٣ ﴾ هجرة المسلمين في الأندلس من مدنهم التي سقطت إلى مملكة غرناطة وأصبحت لهم ملاذاً يحتمون به ويلجئون إليه، فكثر في غرناطة أهل المهارات والكفايات والذين برعوا في كل الميادين العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية، فأضافت إلى قوات غرناطة قوات أخرى تتطلع إلى أن تعيش عزيزة أبية وتضع حضارة منبثقة من دينها وعقيدتها وتصورها وفكرها [١] .

﴿ ٤ ﴾ حب الجهاد في سبيل الله تعالى فجر طاقات المجتمع الغرناطي المتطلع للصمود أمام الغزاة النصارى، لقد كان للعقيدة الإسلامية والمعاني الإيمانية أثراً مباشراً في بقاء تلك الدول الصغيرة وصمودها وجهادها أمام ممالك النصارى الحاقدة.

﴿ ٥ ﴾ براعة حكام غرناطة في الاستفادة من الصراع بين ممالك النصارى وتقوية النزاعات بينها والتدخل في هذه النزاعات ومناصرة فريق على فريق آخر [٢] .

وغير ذلك من الأسباب.

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي (ص ٥٢١ ، ٥٢٢).

(٢) **انظر** : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د . عبادة كحيلة (ص ٢٦٩).

ثانياً : جهاد المرينيين في الأندلس :

تولى الملك في مملكة غرناطة بعد وفاة أبي عبد الله الغالب بالله ، ابنه محمد الذي اتصف بخلال حسنه من القوة والعزم وبعد الهمة، وسعة الأفق، مع علم وأدب، وكان شاعراً فقيهاً، حتى أنه دعي باسم « محمد الفقيه » وفي أول عهده تحركت قوات نصارى قشتالة بقيادة ألفونسو العاشر للقضاء على غرناطة وضمها تحت مملكة قشتالة، فاتجهت أنظار المسلمين في غرناطة إلى نصرة المرينيين في المغرب، فأرسلوا إليهم طالبين منهم الغوث والنجدة والمدد وتوالت الكتب على سلطان المغرب أبي يوسف يعقوب المريني من أهالي غرناطة يستنصرونه ويستدعونه إلى الجهاد، فخرج أبو يوسف من مدينة فاس ملبياً دعوتهم، وقاصداً نصرتهم، في النصف من شهر رمضان المعظم سنة (٦٧٣هـ) فسار حتى نزل مدينة طنجة، فكتب منها إلى صاحب سبتة يأمره بعمارة الأجفان [١] الغزواتية حتى يركبها المسلمون المجاهدون لتيسر بهم نحو الأندلس، ثم دعا ابنه أبا زيان وجعله على رأس خمسة آلاف من خيرة المجاهدين وأعطاه مالاً وبنوداً وطبولاً وجهزه بكل ما يحتاج إليه، ثم عقد له لواء الجهاد، وأوصاه بتقوى الله في سره وجهره، ودعا له ووجهه، وانصرف الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز، فركب الأمير مع جميع جيوشه من قصر المجاز، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس، وكان جوازه في١٧ ذي الحجة ٦٧٣هـ ، فأقام أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيل من هول البحر، ثم قصد منها الجزيرة الخضراء فغنمها وواصل السير في بلادالعدو حتى وصل إلى شريش، وهو يغنم ويفتح ما مر عليه من القرى والحصون والبروج، وتهاوت مقاومة الإسبان أمام جيشه المظفر، وجمع في طريقه غنائم ضخمة، وقفل بها إلى الجزيرة فدخلها

---

(١) أي ببناء السفن .

ففرح أهلها بدخوله، وارتفعت معنوياتهم وقويت نفوسهم وهكذا استطاع الأمير أبو زيان - حامل راية والده المنصور - أن يعز الإسلام ويذل النصارى الحاقدين في الأندلس.

وكانت غزوة أبي زيان غزوة ريادة واستطلاع، وعزم أبو يوسف يعقوب سلطان المرينيين على العبور بنفسه مع جيشه، فبعث سفارة يتزعمها حفيده تاشفين بن الأمير أبي مالك إلى يغمراس بن زيان أمير تلمسان يطلب منه الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجاهد في الأندلس وهو مطمئن على بلاده آمن عليها، فوافق يغمراس على مبدأ الصلح فتم الصلح بين بني مرين وبني زيان (بني عبد الواد) وأبعد الله عنهم التحاسد والتنافس والاقتتال وجمع الله كلمة الإسلام وألف بين المسلمين.

وسر أمير المسلمين أبو يوسف بذلك سروراً عظيماً، وتصدق بصدقات كثيرة، وكتب إلى زعماء بني مرين، وأمراء العرب، وشيوخ قبائل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وزناته يستفزهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز ٦٧٤هـ وأخذ في إرسال المجاهدين إلى الأندلس بالخيل العتاق، والعدة الكاملة والسلاح، فكان يبعث كل يوم قبيلة من بني مرين وطوائف من المطوعين وقبائل العرب، فلما فرغ من إرسال بني مرين والعرب أخذ في إرسال أجناده، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة، فكانت السفن والمراكب غاديات ورائحات آناء الليل وأطراف النهار، من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر.

قال الشاعر:

فالمرسلات تسوق العاديات إلى ... غزو العداة وتجويز صباح مسا
كأنما البحر أضحى للجياد مدى ... وكل عشية ماء حولت فرسا
كأنما اقترب البران واتصلا ... فصار ذاك طريقاً للورى يبسا [1]

---

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص ٤٣).

فلما وصلت عساكر المسلمين بلاد الأندلس انتشرت بين مدينة طريف إلى الجزيرة الخضرة، جاز أمير المسلمين أبو يوسف في آخرهم في خاصته ووزرائه وخدام دولته، ومعه جماعة من صلحاء المغرب، وكان جوازه يوم الخميس (٢١ صفر ٦٧٤هـ) ، وفي الأندلس تلقاه ابن الأحمر والرؤساء من بني أشقيلولة بعساكرهما، واهتزت الأندلس فرحاً وسروراً واستبشاراً بقدومه.

وكان بين محمد الفقيه ابن الأحمر وبين أشقيلولة منافسة ومخاصمة وشحناء فعمل أبو يوسف على إزالتها وأصلح بينهما، وتصافت القلوب وتعاهدوا على التقوى والجهاد ورجع محمد الفقيه إلى غرناطة لترتيب أمورها وسار بنو أشقيلولة إلى مالقة، ومضى المجاهد أبو يوسف بجيشه الجرار قاصداً جهاد النصارى، ولم يعقد، ولم يبال أو يكترث بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلف، ولم تستطب جفونه مناماً، ولم يلتذ شراباً ولا طعاماً ، ولم يزل يجد الرحيل، ويوالي المسير، حتى وصل إلى الوادي الكبير، فعقد هنالك لولده الأمير أبي يعقوب من شجعان بني مرين والعرب، فتقدم والده بمرحلة، وسار أبو يوسف في إثر ابنه في جميع جيوشه،فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض الإسبان، ووصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية ودخل حصن (بلمه) عنوة بالسيف، ثم سار إلى أحواز قرطبة ثم إلى إستجة.

ووصلت الأخبار إلى أبي يوسف بتحرك حشود النصارى بقيادة « دونونة » في جيش كبير في ثلاثين ألف فارس، وستين ألف راجل قاصدين هزيمة جيش المسلمين وأخذ ما في أيديهم من الغنائم (١) .

[أ] مجلس الشورى الحربي :

عقد أمير المسلمين أبو يعقوب مجلس شورى من قادة الأندلس وأشياخ

---

(١) انظر : مصرع غرناطة (ص ٤٥) .

قبائل مرين، وأمراء العرب، ومن في عسكره من الفقهاء والعلماء، ليشاورهم كيف يكون العمل في لقاء العدو المقبل إليهم وسمع أبو يوسف آراء الجميع ، وأخذ أجودها، وأمرهم بالاستعداد للقاء العدو، والصبر والثبات عند اللقاء والتطلع إلى معية الله وما عنده من الأجر والمثوبة للمجاهدين في سبيله وبينما هم كذلك أذ نظر الناس إلى طلائع النصارى قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل ودونونه في وسط الجيش، وكان ملك قشتالة حزمه بيده ، وزوجه ابنته، وفوضه على جيوشه وحروبه، وفوض إليه الأمر في جميع بلاده وجنوده، وكان النصارى قد سعدوا به؛ لأنه كان لم ينهزم قط، وكان وبالاً ودماراً ومصيبة على بلاد الإسلام، شديد الانتقام، ولا يمل من القتل وسفك الدماء وسبي نساء المسلمين في كل الأوقات، فأقبل في كبريائه وغروره تحت ضلال البنود وأصوات الأبواق تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد، والرجال والرماه أمام الجيش كلهم قد شرعوا [١] الحراب معتمدين على الكثرة ووفرة العدد.

[ب] ترتيب أبي يوسف لجيشه :

أمر أمير المسلمين أبو يوسف بالغنائم فبعث بها مع ألف فارس وألف راجل من المجاهدين المطوعين إلى الجنوب بعيداً عن أرض المعركة، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال النصارى، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه، وصلى ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي ﷺ يوم بدر للصحابة « اللهم انصر هذه العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها » فأجاب الله تعالى دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله، فلما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده، واستعد للقتال

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٤٦).

وجلاده، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادى على المسلمين فقال : يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين، أنتم أنصار الدين ،الذابون على حماه والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم،ومشهد جسيم، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها، وجدوا في طلابها، وابذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف، « وإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً ومن عاش منكم رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، ﴿ **اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ « فلما سمعوا منه هذه المقالة، تاقت أنفسهم للشهادة، وعانق بعضهم بعضاً للوداع، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع، وكلهم طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنَّة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير، فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم » [١] .

فالتقى الجمعان والتحم القتال، واشتد النزال، وعظمت الأهوال، وقسم « دونونة » جيوشه إلى خمسة أجزاء ليظهروا جموعاً متكاثرة، فكانت تقبل بجموعها ، فيدفعهم المسلمون، وتتلقاهم سيوف المجاهدين ، وحرابهم ، وقلوب المجاهدين أثبت من الجبال الرواسي في ساحات الوغى وسيوفهم تحصد رقاب الإسبان، وقتل زعيم الإسبان « دونونة » كما قتل ولده وهزم جيشه وتكسرت أعلامه [٢] .

لقد استطاعت الجيوش الإسلامية المتحدة بين المغاربة والأندلسيين بقيادة أبي

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي (ص ٥٣٨) نقلاً عن الذخيرة السنية (ص ١٤٩ – ١٥٠) .

(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٤٨) .

يوسف يعقوب أن تحقق نصراً حاسماً في هذه المعركة التي أعادت ذكريات الزلاقة في زمن المرابطين، وذكريات معركة الأرك في زمن أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي وبعد انتهاء المعركة رجع السلطان المريني منصوراً مظفراً إلى الجزيرة الخضراء للاستراحة ليعود إلى أراضي قشتالة وحاصر إشبيلية العاصمة التي طلبت الأمان والصلح فأجابهم وعاد إلى جزيرة الخضراء عبر البحر إلى المغرب في أواخر رجب سنة ٦٧٤هـ ، بعد أن قضى حوالي خمسة شهور في الأندلس، وبعد أن ترك في الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين في رد اعتداء جند قشتالة ومن معهم (١) .

لقد كانت المعركة التي انتصر فيها السلطان المريني على الإسبان قرب إستاجة ، وظهرت ملكات أبي يوسف يعقوب المريني القيادية في النقاط التالية:

﴿ ١ ﴾ الاهتمام بعنصر الاستطلاع حتى لا يفاجئه العدو ولذلك عقد لواء لابنه أبي يعقوب ليقدم جيش المسلمين لمراحل ثم يكون هو على إثره.

﴿ ٢ ﴾ إبعاده للغنائم عن ساحة المعركة حتى لا ينشغل بها المجاهدين وحتى يتفرغوا لمجاهدة عدوهم ، وهذا يدل على نظر عميق في التاريخ واستخرج الدروس والعبر من صفحاته الماضية.

﴿ ٣ ﴾ صدق السلطان المريني في خطبته لجنوده والتي ألهب فيها المشاعر وحرك بواعث الفداء، ورغبهم في الشهادة، فرفعت تلك الخطبة الصادقة معنويات جند المسلمين، فجاهدوا صابرين محتسبين، طالبين للشهادة على الرغم من أن عدوهم أقبل عليهم بقوة فتية وقيادة مجربة لم تعرف الهزيمة ومهرت في الحروب وخططها.

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي(ص ٥٣٨) .

﴿٤﴾ باشر الأمير المريني في هذه المعركة القتال بنفسه، وقتل عدداً من الإسبان بيده، وهذا يذكرنا بيوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور الموحدي، اللذين صنعا نصر الزلاقة ونصر الأرك العظيمين.

﴿٥﴾ أرسل أبو يوسف أعلام النصارى المنكسة إلى أعلى منار «القرويين» ومنار جامع الكتبيين بمراكش ليعاينها المسلمون ولترتفع معنوياتهم وتتحطم هيبة النصارى من نفوسهم[١].

لقد اهتز العالم الإسلامي فرحاً وسروراً لهذه الأخبار السارة، فتحركت قرائح الشعراء لتمجيد ذلك العمل العظيم، حيث أرسل ابن أشقيلولة كتاباً للتهنئة إلى السلطان المريني، **وفيه قصيدة من أبياتها:**

هبت بنصركم الرياح الأربع … وسرت بسعدكم النجوم الطلع

وأتت لنصركم الملائك سبقاً … حتى أضاق بها الفضاء الأوسع

واستبشر الفلك الأثير تيقنا … أن الأمور إلى مرادك ترجع[١]

وأمدك الرحمن بالفتح الذي … ملأ البسيطة نوره المتشعشع

لم لا؟ وأنت بذلت في مرضاته … نفساً تفديها الخلائق أجمع

وأتيت تنصر دينه متوكلاً … بعزيمة كالسيف بل هي أقطع

أين المفر ولا فرار لهارب … والأرض تنشر في يديك وتجمع

فلقد كسوت الدين عزاً شامخاً … ولبست منه أنت ما لا يخلع

إن قيل من خير الملوك بأسرها … فإليك يا يعقوب تومي الأصبع[٢]

---

(١) **انظر**: سقوط غرناطة (ص ٥٠).

(٢) أن الأمور مردها ومرجعها إلى الله تعالى.

[جـ] **الغزوة الثانية :**

عبر أبو يوسف يعقوب إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ، وتوغل بجيشه في أراضي قشتالة ، إلا أن النصارى استطاعوا أن يصانعوا ابن الأحمر زعيم غرناطة وأن يكسبوه لجانبهم ، ودخل معهم في أحلاف أضرت بالمسلمين واضطر سلطان المرينيين أن يرجع إلى المغرب بجيشه واستمر ابن الأحمر في تصرفاته الشاذة، وعقد تحالفاً مع قشتالة، فسارا إلى أقصى الجنوب لاحتلال « طريف » مدخل الأندلس كلها، واشترط ابن الأحمر على ملك قشتالة أن يسلمه ثغر طريف .

واستطاعت طريف أن تصمد أربعة أشهر إلا أنها اضطرت للخضوع والاستسلام فطالب بها ابن الأحمر ملك قشتالة، فامتنع عن تسليمها، مع أن ابن الأحمر تنازل له مقابلها عن عدد من الحصون الهامة، فأدرك ملك غرناطة محمد الفقيه ابن الأحمر عندئذ خطأه الفاحش والمزلق الخطير في الركون إلى وعود ملك قشتالة، وفي مغاضبة المرينيين حلفائه الطبيعيين، وإخوانه في الدين والمنهج والتصور والاعتقاد، فعاد يخطب ودهم من جديد [١] فأرسل الوفود من أجل الصلح مع المرينيين واعتذر عن مسلكه في شأن طريف، وأجابهم السلطان أبو يوسف المريني إلى طلبهم وبقي ملك غرناطة علي عهده مع المرينيين حتى توفي - محمد الفقيه - في شعبان سنة (٧٠١هـ/أيار « مايو » ١٣٠٢م) ، بعد حكم دام أكثر من ثلاثين سنة [٢] .

ومما يذكر أن أبا يوسف المنصور أرسل ابنه الأمير أبا يعقوب في أسطول مريني ضخم في أوائل سنة ٦٧٨هـ ١٢٧٩م، وانتصر على الأسطول القشتالي وحرر الجزيرة الخضراء. ولما تم الصلح مع ابن الأحمر أصبحت مالقة قاعدة لبني مرين

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٥١) .
(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٥٣) .

ومحطة لعبور جندهم إلى الأندلس للجهاد.

عبر أبو يوسف المنصور - عبوره الرابع - في صفر سنة ٦٨٤هـ إلى الأندلس، وجاهد في البر والبحر، وأرغم شانجة الرابع ملك قشتالة على طلب السلم، فأرسل شانجة وفداً من الأحبار يفوض السلطان المريني على ما يراه ووضعت شروط أهمها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعتداء على الأندلس [١].

توفي أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٥م ، بعد حياة حافلة بالجهاد في المغرب والأندلس.

هذه نبذة مختصرة عن حياته تغمده الله عزوجل برحمته :

كان رحمه الله صواما قواما، دائم الذكر، كثير الفكر، لايزال في أكثر نهاره ذاكراً، وفي أكثر ليله قائما يصلي، وسبحته في يده لا يزايلها أكثر أوقاته مكرمًا للصالحين، كثير الرأفة والحنين على الضعفاء والمساكين، وتواضعاً في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفاً في سفك الدماء كريماً جواداً، وكان مظفراً منصور الراية ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغز قط عدواً إلا قهره، ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمره، ولا قصد بلداً إلا فتحه [٢].

ولا ننسى أنه كان خطيباً يؤثر في نفوس جنده، شجاعاً مقداماً يبدأ الحرب بنفسه عليه رحمة الله.

لقد كان من صنف يوسف بن تاشفين، وأبي يوسف المنصور الموحدي [٣].

قال عنه ابن كثير - رحمه الله - في وفيات عام ٦٨٥هـ :

(أبو يوسف المريني سلطان بلاد المغرب، خرج على الواثق بالله دبوس فسلبه الملك بنظام مراكش، واستحوذ على بلاد الأندلس والجزيرة الخضراء، في سنة

(١) انظر : مصرع غرناطة ص ٥٤).

(٢) ، (٣) انظر : مصرع غرناطة ص ٥٥).

ثمان وستين وستمائة واستمرت أيامه إلى محرم هذه السنة، وزالت على يديه دولة الموحدين بها) [١] .

[د] مشيخة الغزاة :

نتيجة للمصالح المشتركة بين بني مرين وبني الأحمر ملوك غرناطة استطاعوا أن يصلوا إلى نتائج حسنة ومهمة للتعاون المشترك والتنسيق العريض لرد الخطر النصراني القادم، من مملكة قشتالة ولذلك رأت القيادتان المرينية والغرناطية ضرورة وضع قوات من المجاهدين في الأندلس للإقامة فيها، ليكونوا على أهبة الأستعداد من أجل الجهاد والدفاع عن مسلمي الأندلس، فظهر ما يعرف في تاريخ الأندلس بمشيخة الغزاة ، وهذا تعريف أطلق على الجنود المرابطين للذود عن العقيدة والدين وأطلق على اسم زعيمها شيخ الغزاة.

وتزعم بنو العلاء (من أقارب السلطان المريني) قيادة المشيخة، وهو منصب عسكري تولى رياسة المشيخة عبد الله بن أبي العلاء حتى استشهد سنة ٦٩٣هـ ، فكانت لأخيه أبي سعيد عثمان بن العلاء [٢] .

عن هذه المشيخة يذكر المقري في نفح الطيب أنه « لم يزل ملوك بن مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، عليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة » [٣] .

توفي محمد (الثاني) الفقيه سنة ٧٠١هـ (١٣٠١م) فخلفه ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع الذي خلع سنة ٧٠٨هـ ليتولى الحكم أخوه نصر وبويع يوم

---

(١) البداية والنهاية (١٣ / ٣٢٧) .

(٢) انظر : التاريخ الأندلسي (ص ٥٤٠) .

(٣) نفح الطيب (٤ / ٣٨٥) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (ص ٥٤٠) .

الجمعة غرة شوال عام (٧٠٨هـ) .

وكان مجبولاً على الهدنة محباً للعلم وأهله يخط التقاويم الصحيحة، ويصنع بيده الآلات الطريفة، نازل طاغية قشتالة على الجزيرة الخضراء، وطاغية أراغون في ثغر المرية، فهزم النصارى في المرية، وانتصروا عليه في الجزيرة الخضراء حيث سقط جبل طارق في أيديهم بعد حصار طويل مضن دام حتى آخر سنة ٧٠٩هـ .

وفي عهد أخيه، ثم عهده حصل جفاء وعداء بينه وبين بني مرين حكام المغرب بواسطة جواسيس النصارى المندسين بين المسلمين، واستغل النصارى ذلك التنافر، فشددوا على مملكة غرناطة الخناق، فاضطر السلطان نصر بن محمد إلى دفع الجزيرة لهم فثار الشعب في وجهه، وكان أن خلع سنة (٧١٣هـ) ورشح الخارجون عليه للملك بدلا عنه : أبا الوليد إسماعيل بن فرج، وحفيد إسماعيل بن يوسف أخي محمد يوسف رأس الأسرة النصرية، ومؤسس دولتها [١] .

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٩] .

امتاز عصر السلطان أبي الوليد إسماعيل بتوطيد الملك، واستقرار الأمور وإحياء عهد الجهاد، وحاول الاستنجاد ببني مرين المغاربة على أعدائه النصارى، ولكنهم نكلوا عن معاونتهم، بسبب سوء تصرفات سابقيه ضدهم [٢] .

في أوائل عهده غزا القشتاليون غرناطة وكان من ضمن القشتاليين جيش السلطان المخلوع، فهزموا المسلمين هزيمة شديدة في وادي فرتونة سنة (٧١٦هـ) واستولى النصارى على بعض القواعد والحصون [٣] .

وفي سنة تسع عشرة وسبعمائة ألب ملوك النصارى على غرناطة، وجاءها (دون بطرة) في جيش لا يحصى كثرة، وكان وصيا على الملك الصبى ألفونسو

---

(١) **انظر** : الأعلام للزركلي (٨/٢٨) .

(٢) **انظر** : نهاية الأندلس (ص ١١٧) .

(٣) **انظر** : ابن جزي ومنهاجه في التفسير ، لعليّ الزبيري (١/٥٦) .

الحادي عشر ملك قشتالة، ومعه خمسة وعشرون ملكاً أو أميراً بغرض استئصال ما تبقي من المسلمين بالأندلس، وكانت حملة قد باركها مرجعهم الكنسي «البابا» في طليطلة [١] وكان من ضمن هذا الجيش فرقة من المتطوعة الإنجليز بقيادة أمير إنجليزي [٢] .

كان عدد الجيش الإسلامي حوالي ستة آلاف ، منهم ألف وخمسمائة فارس والباقي رجالة . لكنهم صفوة مختارة بقيادة شيخ الغزاة أبي سعيد عثمان بن أبي العلاء [٣] ، وبعد أن يئس المسلمون من نصرة إخوانهم المغاربة ، لجئوا إلى الله تعالى ، وكان نصراً عزيزاً ، ويوماً مشهوداً . زاد عدد القتلى في هذه المعركة على خمسين ألفاً، وبلغ جملة السبي فقط سبعة آلاف نفس، وهلك الأمراء النصارى جميعهم، واستمر البيع في الأسرى، والأسلاب والدواب ستة أشهر، وإنه لنصر ما كان يؤمل لولا لطف الله بعباده لما رأى صدق توجههم إليه [٤] .

لقد كان السلطان أبو الوليد إسماعيل هذا من خيرة سلاطين بني الأحمر وأصلحهم فمما وصف به : (كان حسن الخلق، وسليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثابتًا في المواقف ، عفيف الإزار، ناشئاً في حجرة الطهارة بعيداً عن الصبوة، بريا من المعاقرة) [٥] .

وفي سنة (٧٢٤هـ) زحف السلطان إسماعيل على مدينة بياسة الحصينة، وحاصرها بشدة، وأطلق المسلمون عليها الحديد والنار من آلات قاذفة تشبه المدافع حتى استسلمت المدينة، ونزل أهلها على حكمه [٦] .

وفي رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة دخل موتش الحصينة التي تقع

---

(١) **انظر** : ابن جزي ومنهاجه في التفسير ، لعليّ الزبيري (١ / ٥٦) .

(٢) التاريخ الأندلسي (ص ٥٤١ ، ٥٤٢) .

(٣) المصدر السابق (ص ٥٤٢) .

(٤) **انظر** : ابن جزي ومنهاجه في التفسير ، (١ / ٥٧) .

(٥) الإحاطة (١ / ٣٧٧) **بريًا من المعاقرة** : أي بعيداً عن شرب الخمر .

(٦) **انظر** : نهاية الأندلس (ص ١٢٠) .

في جنوب غربي جيان عنوة ، وكانت من أعظم غزواته، وامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وعاد إلى غرناطة مكللاً بالنصر [١] .

لكنه ما لبث سوى ثلاثة أيام حتى قتل بباب قصره غيلة من قبل ابن عم له تربص به، وطعنه بخنجر له، وهو بين وزرائه وحشمه، فحمل جريحاً وتوفي على إثر ذلك في اليوم التالي رحمه الله وتقبل شهادته [٢] .

وفي عام (٧٣٣هـ) استطاع الغرناطيون في زمن السلطان محمد الرابع من تخليص جبل الفتح -أي جبل طارق - من أيدي النصارى بعد أن ظل تحت سلطانهم من عام (٧٠٩هـ) وكان للسلطان أبي الحسن عليّ بن عثمان المريني سلطان المغرب ، دور يشكر عليه في تخليص جبل طارق ، الذي كان ذا أهمية بالغة بالنسبة للأندلسيين ، إذ هو همزة الوصل بينهم وبين إخوانهم في العدوة المغربية [٣] .

هـ - موقعة طريف :

وقد تجلي تحالف ملك المغرب مع ملك غرناطة مرة أخرى في المعركة التي أصيب فيها الملكان بهزيمة فادحة في معركة طريف سنة ٧٤١هـ من قبل النصارى.

منذ استعاد الأندلسيون سنة (٧٣٣هـ) بمساعدة بني مرين - حكام المغرب - جبل طارق بعد أن ظل بأيدي النصارى أربعة وعشرين عاماً - إذ سقط في أيدي النصارى سنة (٧٠٩هـ) توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين بني الأحمر من جهة وبني مرين من جهة أخرى.

وكان الأندلسيون كلما أحسوا بخطر النصارى يحدق بهم سارعوا إلى

---

(١) انظر : نهاية الأندلس(ص ١٢٠) .
(٢) المصدر السابق(ص ١٢١) .
(٣) انظر : ابن جزي ومنهجه في التفسير(١/ ٥٩) .

الاستنجاد بإخوتهم في الدين العدوة المغربية من بني مرين، وكانوا يقومون بالدور الذي كان يقوم به المرابطون والموحدون من الجهاد في أرض الأندلس «وفي عهد أبي الحجاج يوسف (ولايته ٧٣٣-٧٥٥هـ)».

كثرت غزوات النصارى لأراضي المسلمين وكان ألفونسو الحادي عشر تحدوه نحو المملكة الإسلامية أطماع عظيمة فكان أن استنجد أبو الحجاج بأبي الحسن سلطان المرينيين، الذي أرسل ابنه أبا مالك إلى الأندلس، فاخترق سهول الجزيرة الخضراء معلناً الجهاد، فاجتاح أراضي النصارى وحصل على غنائم لا تحصى غير أن النصارى من قشتالة وأرجوان والبرتغال كونوا أسطولاً بحرياً متحداً ليستقر بالمضيق فيمنع الإمداد عن جيوش المغرب وسارت قوى النصارى المتحدة للقاء المسلمين وبارك البابا هذه الحملة، فباغتوا أبا مالك عند عودته بالوادي الذي يقع بين حدود النصارى وأرض المسلمين فكانت موقعة عظيمة قتل فيها أبو مالك، وهزم جيشه هزيمة منكرة ، وبلغ أبا الحسن المريني الخبر، فاحتسب عند الله ابنه وشرع في الجهاد من جديد على إثر هذه المعركة. تجهز السلطان أبو الحسن واستنفر معه أهل المغرب فتوافت أساطيل المغاربة بمرسى سبتة تناهز المائة فأخرج الطاغية أسطوله إلى الزقاق (مضيق جبل طارق) ليمنع السلطان من الجواز إلى الأندلس فوقعت معركة بحرية عظيمة أظفر الله المسلمين فيها بعدوهم وخالطوهم في أساطيلهم واستلحموهم هبراً بالسيوف ، وطعناً بالرماح، وألقوا أشلاءهم في اليم، وقتلوا قائدهم، واستاقوا أساطيلهم إلى مرسى سبتة [١] . ثم بعد أن جلس السلطان للتهنئة وأنشدت الشعراء بين يديه، استأنف إجازة العساكر فانتظمت الأساطيل سلسلة واحده من العدوة إلى العدوة. ونزل السلطان بعساكره بساحة طريف وأناخ بها ، ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج بعساكر الأندلس وأحاطو بطريف وأنزلوا بها أنواع القتل ونصبوا عليها الآلات .

---

(١) انظر : ابن خلدون (٧/ ٢٦١) نقلاً عن ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/ ٧٢) .

غير أن الطاغية جهز أسطولاً آخر اعترض به المضيق لقطع المرافق والمؤمن عن المعسكر، وطال ثواء المسلمين بمكانهم من حصار البلد، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات فوهن الظفر، واختلت أحوال المعسكر، وحشد الطاغية أمم النصرانية، وظاهره البرتغاليون وبالرغم مما قيل من أن جيش المسلمين كان زهاء ستين ألفاً، فإن طول محاصرتهم للبلد وانقطاع المؤن عنهم من أول المحرم سنة (٧٤١هـ) وإلى أوائل شهر جمادى الأولى من نفس العام، ثم المكيدة التي دبرها لهم أعداؤهم وعدم تلافيها كان وراء انكسار شوكتهم [١] وهذه المكيدة كما يصفها ابن خلدون تتلخص فيما يأتي: (ولما قرب معسكرهم سرب الطاغية إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس المسلمين، الذين أرصدوا لهم غير أنهم أحسوا بهم آخر ليلتهم، فثاروا بهم من مراصدهم، وأدركوا أعاقبهم قبل دخول البلد، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً منه وتزاحفوا. كما تولى السلطان يوسف قيادة فرسان الأندلس ولما نشبت الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر، وعمدوا إلى فسطاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدوا الحراب فاستلحموهم ، ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهن وخلصوا إلى حظايا السلطان فقتلوهن، واستلبوهن وانتهبوا سائر الفسطاط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختل مصافهم وارتدوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم فأحاطوا به، وتقبضوا عليه وولى السلطان متحيزاً إلى فئة من المسلمين واستشهد كثير من المسلمين من سادتهم وقادتهم [٢] .

---

(١) **انظر** : ابن جزي ومنهجه في التفسير (١ / ٧٣) .

(٢) **انظر** : العبر لابن خلدون (٧ / ٢٦١-٢٦٢) ، نقلاً عن ابن جزي (١ / ٧٤) .

وكانت محنة عظيمة لم يشهد المسلمون مثلها منذ موقعة العقاب [١] ، **يقول المقري في وصف هذه الفاجعة :**

« فقضى الله الذي لا مرد لما قدره أن صارت تلك الجموع مكسرة ورجع السلطان أبو الحسن مغلولاً وأضحى حسام الهزيمة عليه وعلى من معه مسلولاً .. وقتل جمع من أهل الإسلام ولمة وافرة من الأعلام .. واشرأب العدو والكفار لأخذ ما بقي من الجزيرة ذات الظل الوريف ، وثبت قدمه إذ ذاك في بلد طريف ، وبالجملة فهذه الموقعة من الدواهي المعضلة الداء ، والأرزاء التي تضعضع لها ركن الدين بالمغرب ،وقرت بذلك عيون الأعداء » [٢] .

ويرى الأستاذ نجيب زبيب البناني أن هزيمة المرينيين كانت بسبب الخيانة والعمل الاستخباراتي الذي قامت به ممالك النصارى ويرى أن حكام غرناطة كانوا يتجسسون لصالح النصارى : (فالقشتاليون على سبيل المثال اتخذوا من حكام غرناطة جواسيس لهم في جميع أنحاء المغرب . وفي المناطق المنفصلة عنه مثل المغرب الأوسط وإفريقية وكان بنو زيان في تلمسان والحفصيون في المغرب الأوسط على اتصال مستمر مع حكام غرناطة ، وينقلون إليهم كل المعلومات المستجدة عن الدولة المرينية ، حتى أنهم صاروا يقومون بدور مخلب القط للقشتاليين فكل المعلومات التي كانت ترد إليهم من الحفصيين والزيانيين كانوا يقدمونها إلى القشتاليين .

وكثيراً ما حث القشتاليون حكام غرناطة على طلب النجدة من المرينيين للإيقاع بالجيوش المرينية وأساطيلها في المكائد والشراك المنصوبة ..) [٣] .

ولاشك أن العمل الاستخباراتي من الأعمال التي تدمر الأمم إذا لم يكن لها

---

(١) **انظر** : نهاية الأندلس(ص ١٢٨) .

(٢) **انظر** : ابن جزي ومنهجه في التفسير(١ / ٧٤) ، نقلاً عن نفح الطيب(٦ /٣١٧) .

(٣) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، الأستاذ / نجيب زبيب(٣ /٨١) .

عمل مضاد ضد مخططات الأعداء؛ بل إن نجاح الدول في تحقيق أهدافها منوط بتحقيق هذا المفصل المهم في بنائها.

[و] العلماء الذين سقطوا شهداء في معركة طريف :

﴿ ١ ﴾ أبو محمد عبد الله بن سعيد السلماني، والد الوزير الغرناطي والأديب الكاتب لسان الدين بن الخطيب.

﴿ ٢ ﴾ القاضي أبو عبد الله محمد بن بكر الأشعري المالقي ، أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، « كان حسن التخلق عطوفاً على الطلبة محباً للعلم والعلماء مُجلاً لأهله مطرح التصنع عديم المبالاة بالملبس بادي الظاهر عزيز النفس نافذ الحكم صوالة معروفاً بنصرة من آوى إليه. تقدم للمشيخة ببلده مالقة ناظراً في أمور العقد والحل ومصالح الكافة ثم ولي القضاء بها فأعز الخطة وترك الهوادة ملازماً للقراءة والإقراء محافظاً للأوقات حريصاً على الإفادة ، ثم ولي القضاء والخطابة بغرناطة » [١] .

« وتصدر لبث العلم بالحضارة يقري فنوناً منه جمة فنفع وخرج ودرس العربية والفقة والأصول وأقرأ القرآن وعلم الفرائض والحساب ، وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعاً، على سبيل من انشراح الصدر وحسن التجمل وخفض الجناح » [٢] .

« واستمر على عمله من الجهاد إلى أن فقد – رحمه الله – في مصاف المسلمين، يوم المناجزة الكبرى بظاهر طريف، شهيداً محرضاً يشحذ البصائر و(يدمي) الأبطال، ويشير على الأمير من أن يكثر من قول: « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

﴿ ٣ ﴾ أبو القاسم محمد بن جزي وهو أحد أشياخ ابن الخطيب وصاحب

---

(١) الإحاطة (٢/ ١٧٦ ، ١٧٧) .

(٢) نفس المصدر السابق (٢/ ١٧٧) .

المؤلفات. كان «فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون من عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، حافظاً للتفسير، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتب، ملوكي الخزانة، حسن المجلس، ممتع المحاضرة، قريب الغور، صحيح الباطن، تقدم خطيباً بالمسجد الأعظم من بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله، وجرى على سنن أصالته» [١].

«فقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم، يوم الكائنة بطريف..» [٢].

وغير ذلك من الفقهاء والعلماء والصلحاء الذي كان همهم نصرة دين الله والموت في سبيل الله تعالى.

وبعد معركة طريف أصبحت مملكة غرناطة في مد وجزر، واعتورتها حالات الحرب والهدنة، والمسالمة والتحالف جنباً مع قشتالة ضد بني مرين، ومع بني مرين ضد قشتالة، وأراجون حيناً، ثم ما لبثت هذه المملكة أن أصابها الهرم، ولحقتها الشيخوخة وأضعفها الانقسام والتناحر الداخلي مع الانغماس في اللذات وفي نفس الوقت ضعفت دولة بني مرين المغربية التي كانت عوناً في كثير من الأحيان لمسلمي الأندلس ضد أعدائهم النصارى وكان زمن سقوط دولة بني مرين (٨٦٩هـ) [٣].

واندلعت الحرب الأهلية في داخل غرناطة بسبب النساء حيث إن ملك غرناطة أصبح أسيراً لحب امرأة رومية نصرانية تدعى «ثريا» وأصبح أداة سهلة في يد زوجته الفتية الحسناء وكانت كثيرة الدهاء والأطماع، فقد تطلعت إلى أن يكون ولدها الأكبر السيد يحيي ولياً للعهد، وكان المؤهل لولاية العهد ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد، وتمكنت ثريا من إقناع زوجها أبي الحسن لإقصاء عائشة

---

(١) نفح الطيب (٥/٥١٤).

(٢) نفس المصدر (٥/٥١٤) نقلاً عن التاريخ الأندلسي (٥٤٧).

(٣) **انظر**: ابن جزي ومنهجه في التفسير (١/٧٤).

وولديها حتى أقنعته باعتقالهم جميعاً، وفي برج قمارش أمنع أبراج الحمراء زجت عائشة الحرة مع ولديها، وشدد الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة وانقسم المجتمع الغرناطي إلى فريقين.

فريق يؤيد السلطان ومحظيته (سيدة غرناطة الحقيقية) المستأثرة بكل سلطة ونفوذ. وفريق آخر يؤيد الأميرة الشرعية (عائشة الحرة وولديها).

ولم تستسلم عائشة الحرة إلى واقعها المؤلم، واتصلت سراً بمؤيديها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج، وتمكنت من الهرب من قصر الأحمر في ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) بمساعدة بعض المؤيدين المخلصين.

وظهرت في وادي آش حيث مجمع أنصار ولدها.

وقرر فرديناند وازبيلا البدء بالحرب بعد أن سنحت الفرصة، وبعد أن دخلت مملكة غرناطة في صراعها الداخلي وسار القواد القشتاليون إلى جنوب غربي غرناطة إلى مكان اسمه الحمة، لضعف وسائل الدفاع عنها من أجل احتلالها ومن ثم احتلال غرناطة ومالقة معاً، وتم ذلك ولم يستطع أبو الحسن ملك غرناطة استردادها ، ولكنه استطاع أن يدعم أمير مدينة لوشة الواقعة على نهر شنيل شمال ألحامة وعلى مقربة منها وأن يردَّا معاً الإسبان في جمادى الأولى (٨٨٧هـ/ تموز « يولية » ١٤٨٢م) .

وتعاطف الشعب الغرناطي مع الأميرة الشرعية (عائشة الحرة واضطر ملك غرناطة أن يترك كرسي الملك وفر إلى مالقة، وكان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل يدفع عنها جيشاً جراراً سيره ملك قشتالة لافتتاحها، وجلس ابن عائشة الحرة أبو عبد الله محمد مكان أبيه على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ ، وعمره ٢٥ سنة وأراد أن يحذو حذو عمه الزغل في الجهاد، وباشر القتال بنفسه وحقق انتصارات على النصارى وانتزع منهم حصوناً وقلاعاً سنة (٨٨٨هـ نيسان « أبريل » سنة ١٤٨٣م) ، إلا أنه وقع أسيراً في يد

النصارى في إحدى المعارك.

واستطاع فرديناند أن يجعل من أبي عبد الله الصغير وسيلة لتدمير غرناطة من الداخل؛ ولذلك رفض الأموال الطائلة التي عرضت عليه من أجل فك أسره واستغل النصارى قلة خبرة أبي عبد الله الصغير، وانعدام حزمه، وضعف إرادته، وطموحه للحكم.

ولما تولى عرش غرناطة أبو عبد الله الزغل واستطاع أن يرد بكل جرأة وشجاعة وبطولة هجمات النصارى إلا أن الكيد النصراني الحاقد استخدام أسلوب تقوية الفتن الداخلية في غرناطة وفي أحرج الظروف أطلق فرديناند سراح أبي عبد الله الصغير، بعد أن وقعه على معاهدة أعلن فيها خضوعه وطاعته لملك قشتالة مدتها عامان، وأن تطبق في جميع البلدان التي تدين بالطاعة لأبي عبد الله الصغير، وأخذ يبث أبو عبد الله الصغير دعوته في شرق الأندلس، والحرب قائمة في غرناطة وزاد الأمر سوءاً سقوط مدينة لوشة بيد النصارى في أواخر جمادى الأولى (٨٩١هـ / أيار مايو ١٤٨٦م) ، وكان موقف أبي عبد الله الصغير أثناء هذه الحوادث الجسام مريباً .

فهو ما زال يشيد بمزايا الصلح المعقود مع النصارى.

وبقي يستظل بمظاهرته للنصارى وبتأييدهم له .

وأنه غداً آلة في يد ملك قشتالة يعمل بتوجيهه ، فهو الورقة الرابحة بيد فرديناند.

ودعم فرديناند أبا عبد الله الصغير ضد عمه وانقسمت غرناطة إلى شطرين وتحقق لفرديناند ما أراده وسعى إليه، فقد تمزقت دولة الإسلام بالأندلس وستمضي بخطوات سريعة نحو دمارها قبل أن ترجع إلى وحدة صفها مرة أخرى.

وشرع فرديناند في محاربة المناطق الشرقية والجنوبية التي تخضع لأبي عبد الله الزغل، وزحف على مالقة وطوقها براً وبحراً في **جمادى الثانية (٨٩٢هـ/ حزيران يونيه ١٤٨٧م)**، وخاف الزغل أن يسير إلى إنجادها من وادي آش، خاف غدر ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، فاستنجد بسلطان مصر الأشرف قايتباي، ولم يكن من المنتظر أن تقاوم مالقة حتى يأتيها المدد من القاهرة، فسقطت في **أواخر (شعبان ٨٩٢هـ/آب أغسطس ١٤٧٨م)**، ونكث فرديناند بوعده التي قطعها لأهل مالقة، فغدر بهم واسترقهم جميعاً، وهذا مثال لسوء طوية نفس فرديناند تجاه المسلمين.

كانت مصر في تلك الفترة لا تستطيع أن ترسل قواتها إلى الأندلس لأسباب عديدة ، إلا أن حاكمها المملوكي استعمل الضغط السياسي، فأرسل راهبين لسفارة مصرية مملوكية، إلى البابا أنوسان الثامن، وإلى ملوك النصرانية ليبين لهم أن النصارى في بلاد المسلمين في منتهى الأمان والاطمئنان والحرية والحماية، والمسلمون تسفك دماؤهم، وتُستحل حرمتهم، وتُغزى أراضيهم في الأندلس وتوعد سلطان المماليك فرديناند إن لم يغير خطته وسياسته تجاه غرناطة، وإلا اضطر إلى تغيير سياسته حيال النصارى في بلاد المسلمين كمعاملة بالمثل، استقبل فرديناند السفيرين، ولم يعبأ بوعيد السلطان الأشرف، ولم يغير خطته، ولكنه كتب إليه في أدب المجاملة: «أنهما – فرديناند وزوجه إيزابيلا – لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب يلقون منهما ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية» [1] .

وفشلت المحاولة الدبلوماسية ، وتركت غرناطة إلى قضاءها المحتوم ، ولم ينفذ

---

(١)نهاية الأندلس وتاريخ المنتصرين (ص ٣٦٩).

السلطان تهديده، فلم يضطهد أحداً؛ لأن الإسلام لا يجيز له ذلك. وأخذت المدن تتساقط تباعاً بيد فرديناند، فسقطت المرية في عام (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م) .

واستسلمت بشروط هي أنموذج لشروط سقوط باقي القواعد الإسلامية وأهمها :

[١] أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم .

[٢] تخفف عنهم أعباء الضرائب .

[٣] ألا يولى عليهم يهودي .

[٤] إلا يدخل نصراني في « الجماعة الإسلامية » .

[٥] وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات نصارى الدين الذي يريدون عند البلوغ . . وغيرها من الشروط إلا أن النصارى لا يلتزمون بشيء من ذلك بل يسبون النساء ويسترقون الرجال ويغتصبون الأموال .

وسقطت الثغور التي كانت تصل غرناطة بالمغرب حيث كانت تفد بعض المتطوعة، وانقطعت الصلة نهائياً بعدوة المغرب والشمال الإفريقي [١] .

وتطور سير الأحداث وخضع أبو عبد الله الزغل لملك قشتالة على الرغم من شجاعته وبسالته وبقي الزغل يحكم وادي آش تحت حماية ملك قشتالة، ولم تقبل نفسه الأبية هذا الوضع المهين، فترك الأندلس مهاجراً إلى المغرب، ونزل وهران، ثم استقر في تلمسان حزيناً على ضياع الأندلس .

وبقيت غرناطة وعلى عرشها أبو عبد الله الصغير تنتظر مصرعها والضربة القاضية من النصارى [٢] .

في سنة (٨٩٥هـ/ ١٤٩٠م) ، أرسل الملكان الكاثوليكيان - فرديناند

---

(١) انظر : مصرع غرناطة (ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧) .

(٢) انظر : مصرع غرناطة (ص ٧٧) .

وزوجه إزابيلا – وفداً يطلب تسليم غرناطة من أبي عبد الله الصغير، فثارت نفس عبد الله الصغير لهذا الغدر والخيانة، وأدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعاونته على بني دينه وعقيدته ووطنه فرفض الانقياد والخضوع وقرر المقاومة وسار فرديناند بجيش تراوح ما بين ٥٠ – ٨٠ ألفاً، مع مدافع وعدد ضخمة، وذخائر وأقوات، وعسكر على ضفاف نهر شنيل على مقربة من غرناطة في ١٢ جمادى الثانية سنة (٨٩٦هـ/ سنة ١٤٩١م) ، وأتلف الزروع والحقول والقرى كي لا تمد غرناطة بأي طعام ، وحاصر غرناطة المدينة الوحيدة المتبقية من عز تليد وملك مديد ضارب في ذاكرة التاريخ السحيق وأصبحت محاطة بالعدو من كل جهاتها .

لقد استبسل المسلمون وتحملوا الحصار بل خرجوا لقتال العدو المحاصر وأفسدوا عليه خططه وتدابيره .

وظهر في تلك المقاومة موسى بن أبي غسان، والذي قرر الموت دون الاستسلام ومن أقواله في ذلك : (ليعلم ملك النصارى أن العربي قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعاً عنه، من أفخر قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين) [١] .

وتولى موسى قيادة الفرسان المسلمين ، يعاونه نعيم بن رضوان ، ومحمد بن رائدة ، وتولى آل الثغري حراسة الأسوار ، وتولى زعماء القصبة والحمراء حماية الحصون .

وحل الشتاء ، وقلت المؤن والذخائر ، ودخل الوزير المسئول عن غرناطة « أبو القاسم عبد الملك » مجلس أبي عبد الله الصغير ، وقال : إن المؤن الباقية لا

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٨١) .

تكفي إلا لأمد قصير ، وإن اليأس قد دبَّ إلى قلوب الجند والعامة ، والدفاع عبث لا يجدي ، ولكن موسى بن أبي غسَّان قرر الدفاع ما أمكن،فقال للفرسان : « لم يبق لنا سوى الأرض التي نقف عليها ، فإن فقدناها فقدنا الاسم والوطن »[١] .

استمر الحصار سبعة أشهر، واشتد الجوع والحرمان والمرض، وأعيد تقييم الموقف في بهو الحمراء فأقر الملأ التسليم إلا موسى بن أبي غسان الذي قال بحزم: «لم تنضب كل مواردنا بعد . . ولنقاتل العدو حتى آخر نسمة، وإنه لخير لي أن أحصى بين الذين ماتوا دفاعاً عن غرناطة من أن أحصى بين الذين شهدوا تسليمها . . »[٢] .

وكانت هذه الكلمات الصادقة تخاطب أناساً انهزموا في داخلهم وخارت عزائمهم، وضعفت معنوياتهم، فقرروا المفاوضة والتسليم، وكلف لهذه المهمة الأليمة الوزير أبو القاسم عبد الملك[٣] جاء في نفح الطيب : « وفي ثاني ربيع الأول من السنة – أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة – استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوفاً من الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحدهم منهم إلا شريعتهم وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل وأن يفك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصاً أعياناً نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٨٢) .
(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٨٢ ، ٨٣) .
(٣) **انظر** : سقوط غرناطة (ص ٨٣) .

غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم من الكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبي الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاقب من قتل نصرانياً أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، وترفع عنهم جميعهم المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجداً من مساجدهم،ويسير المسلم في بلاد النصاري آمنا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن [1] .

ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ويقول المقري بعد هذا: «وأمثال هذا مما تركنا ذكره» من الشروط [2] .

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان:

وهذا أفضل ما يمكن الوصول إليه في مثل هذه المحنة، لو أخلص النصارى في عهودهم، لقد ارتضاها المسلمون والشك يساورهم في وفاء أعدائهم، ولما أنسى فرديناند وإزابيلا ريب المسلمين وتوجسهم أعلنا في يوم ٢٩ تشرين الثاني «نوفمبر» مع قسم رسمي بالله أن جميع المسلمين سيكون لهم مطلق الحرية في العمل في أراضيهم ، أو حيث شاءوا، وأن يحتفظوا بشعائر دينهم ومساجدهم كما كانوا، وأن يسمح لمن شاء منهم بالهجرة إلى المغرب، ولكن سوف نرى أن

---

(١) المدجنون هم الذين بقوا من المسلمين تحت حكم الإسبان .

(٢) نفح الطيب (٦ / ٢٧٧ / ٢٧٨) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ٨٣)

الأيمان والعهود لم تكن عند ملكي النصارى سوى ستار للخيانة والغدر، وأن هذه الشروط الخلابة نقضت جميعاً لأعوام قلائل من تسليم غرناطة، ولم يتردد المؤرخ الغربي بروسكوت نفسه أن يصفها بأنها أفضل مادة لتقدير مدى الغدر الإسباني فيما تلا من العصور» (١) وهذا ما تنبأ به فارس الأندلس موسى بن أبي غسان حينما اجتمع الزعماء في بهو الحمراء الكبير ليقعوا على قرار التسليم وقال: «اتركوا العويل للنساء والأطفال، فنحن رجال لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وإني لأرى روح الشعب قد خبت حتى ليستحيل علينا أن ننقذ غرناطة وسوف تحتضن أمنا الغبراء أبناءها أحراراً من أغلال الفاتح وعسفه، ولئن لم يظفر أحدنا بقبر يستر رفاته لن يعدم سماء تغطيه، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعاً عنها) (٢) .

وساد سكون الموت في ردهة قصر الحمراء واليأس ماثل في الوجوه، وغاص كل عزم في تلك القلوب الكسيرة ، عندئذ صاح أبو عبد الله الصغير : « الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولا رادَّ لقضاء الله ، تالله لقد كتب لي أن أكون شقياً، وأن يذهب الملك على يدي» (٣) ، وصاح من حوله على: «الله أكبر ولا راد لقضاء الله» وقرروا جميعاً التسليم وأن شروط النصارى أفضل ما يمكن الحصول عليه.

نهض موسى بن أبي غسان وصاح: «لا تخدعوا أنفسكم ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة ملكهم، إن الموت أقل ما نخشى، فأما منا نهب مدننا وتدميرها ، وتدنيس مساجدها، وتخريب بيوتنا ، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب الوحشي والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاق والمحارق وهذا ما سوف نعاني وهو أقل من

---

(١) نقلاً عن مصرع غرناطة (ص ٨٥) .

(٢) ، (٣) انظر : مصرع غرناطة (ص ٨٦)

الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه »[١]، ثم قام وخرج وجاهد حتى استشهد رحمه الله تعالى.

ولقد صاغ الشاعر عدنان مردم بك هذه الصورة على لسان موسى بن أبي غسان فقال:

أنا لن أقر وثيقة	فرضت وأخضع للعدا
ما كان عذري إن جبنت	وخفت أسباب الردى
والموت حق في الرقاب	أطال أم قصر المدى
إني رسمت نهايتي	بيدي ولن أترددا
كنت الحسام لأمتي	واليوم للوطن الفدى
أنا لن أعيش العمر	عبداً بل سأقضي سيدا [٢]

ثالثاً: وصف حي لتسليم غرناطة:

وفي الثاني من ربيع الأول (٨٩٧هـ)، كانون الثاني -يناير- سنة (١٤٩٢م) وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما أن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: « هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور - قصوري باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين»[٣].

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة. وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) سقوط الأندلس، د. ناصر العمر (ص ٦٥).

(٣) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٤).

وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس يعقوب ، وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قاتم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء [١] وتحرك الركب نحو منطقة البشرات وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعاً لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة : « إبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال » .

إن هذه الجملة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة:

« ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسى وخشوعاً وتهيباً من عظمتها لأنها أصبحت كلمة تاريخية. لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة » [٢] .

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها :

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع	مجداً ثوى وعاراً أقاما
هدني فوق خطبنا أنك ابني	يا لأم تسقى عذاب تؤاما
لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى	ركنه اندك فابكه كالأيامى [٣]

---

(١) نفس المصدر السابق (٣/١٢٥) .

(٢) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/١٢٦,١٢٧) .

(٣) انظر : سقوط الأندلس (ص ٧٠) .

يقول المؤرخ عنان: «وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، ليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير من الأعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية» [١].

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى المغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فارس [٢]، مستجيراً يالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه ونظم هذا الاعتذار شعراً أبو عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم

حتى غداً ملكه بالرغم مستلباً ... وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم

حكم من الله حتى لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم

وهي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم

كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول ... نمنا بها أفنان من النعم

فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يرمي بأفجع حتف من بهن رمي

فلا تنم تحت الملك نومتنا ... وأي ملك بظل الملك لم ينم

يبكي عليه الذي قد كان يعرضه ... بأدمعٍ مزجت أمواهها بدم [٣]

---

(١) نهاية الأندلس بتصرف (ص ١٩٧)، نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٦٩).

(٢) **انظر** : سقوط الأندلس (ص ٧٠).

(٣) نفح الطيب (٦/ ٢٧٨) نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ٩٦).

ومرت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً في نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المنتصرين «أو المور يسكين» لم تقف، وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً ، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب المتواجدين فيها ، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال «كمينسس» على ذلك، فأمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة، وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما تبقي من التفكير الإنساني وأحرقها [١] ، ولقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضي على الإسلام في إسبانيا وأنى هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من آثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور وإن للإسلام جولة وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا ، وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح، ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا**﴾ [الإسراء : ٥١] .

رابعاً: محاكم التفتيش:

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي اسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم

---

(١) انظر : سقوط غرناطة(ص ٩٨) .

نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة وفي تموز (يولية) ١٥٠١م أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته « أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها ، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال ».

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع،فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه ، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغصُّ بالحشرات والجرذان ، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم، لتدفع نفقات سجنهم. ومن أنواع التعذيب، ملء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً ، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الرجل وفسخ الفك.. ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب أن حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه [١] .

وقرار المحكمة لا يمكن استئنافه ، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً ، وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق [٢] .

ومما يذكر .. أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور،

(١) **انظر** : محاكم التفتيش(ص ٩١) نقلاً عن سقوط غرناطة(ص ١٠٠) .
(٢) **انظر** : سقوط غرناطة(ص ١٠٠) .

ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لاسيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعًا ورعباً (١) .

« لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ، إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان،وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم فيا لها من طامة ما أكبرها » (٢) .

« وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان ، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً وكان أمر الله قدراً مقدوراً» (٣) .

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

---

(١) **انظر** : محاكم التفتيش (ص ٩٣) ، نقلاً عن سقوط غرناطة (ص ١٠٩) .

(٢) **انظر** : نهاية الأندلس (ص ٣٢١) ، نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٧٢) .

(٣) **انظر** : سقوط الأندلس (ص ٧٢) .

فإذا علم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت ، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام.

لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك عُلم أنَّ الموت نهايته هو وأسرته [1] .

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء. فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق. أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب «الأوتودافي» وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضى بحرمانهم من تولى الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة [2] .

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل دقة ، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأثرياء بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته. وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد. هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام الكثيرة ولا يستطيع دفعاً لها ؛ ولأنه كان يرى

---

(١) انظر : سقوط الأندلس (ص ١٠) .

(٢) انظر : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ، محمد عبد الله عنان (ص٢٤ / ٣٢) ، نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٢٢٢) .

فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض، والريب وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، ولبثت تتوجس من رجعتهم وحنانهم لدينهم القديم وترى فيهم دائما منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة. وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام. وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون. وإذا عمدوا أطفالهم عادوا فغسلوهم سراً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية [١].

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضواءً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم، وكيف كانوا يتحايلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفية ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم [٢].

خامساً: فتاوى هامة :

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أُكرهوا على التنصر، حيث قدم لهم بعض النصائح التي تعاون اتباعها على

(١) أي : الأحكام الإسلامية .
(٢) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس(٣/ ٢٢٣) .

تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة، وكان تاريخ هذه الرسالة سنة (٩١٠هـ/٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م) .

وهذا نص الفتاوى :

«الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً»

إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته. وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وارثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيداً لله تعالى أحمد ابن بوجمعة المغراوي ثم الوهراني. كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ أولادكم،أن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى ، فاعلموا أن الأصنام خشب ومنجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع وأن الملك لله ، ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله. فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغُسل من الجنابة ولو عوماً في البحور وإن منعتكم فالصلاة قفاء بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء ، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالطهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه يالأيدي والوجه

إلى تراب طاهر حجر أو شجر مما يتيمم به، فاقصدوا بالإيماء. نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله ﷺ فأتوا منه ما استطعتم. وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله. وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر، فاشربوه لا بنية استعماله. وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه. وكذا إن أكرهوكم على محرم. وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل الكتاب وإن إكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه، وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم ولو وجدتم قوة لغير تموه. وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رءوس أموالكم وتتصدقوا بالباقي، إن تبتم لله تعالى وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة فافعلوا ، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك وإن قالوا اشتموا محمداً فإنهم يقولون له ممد، فاشتموا ممداً، ناوين أنه الشيطان أو ممد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية الكمال والتشريف من هذه وإماتته وصلبه وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وأنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينانرشدكم إن شاء الله على حسب ما تكتبون به. وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام. ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به ولا بد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً . بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره « يصل إلى الغرباء إن شاء الله تعالى » [١] .

---

(١) هذه الفتاوى عثر عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان خلال بحوثه في مكتبة الفاتيكان بروما، انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (١ / ٢٢٥) .

سادساً: القواعد النصرانية الإسبانية في معاملة من أكرهوا على النصرانية :

لقد نقل المؤرخ (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة [١] .

« يعتبر الموريسكي [٢] أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً . أم أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يبلغ عن ذلك . ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر العادات الإسلامية . ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح . وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية . أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة . أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية، أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة، أو يقول: إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب ، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر . أو يقوم للوضوء والصلاة . بأن يوجه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن . أو أن يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية . أو ينشد الأغاني العربية . أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية . أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رءوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه

---

(١) **انظر** : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس(٣/ ٢٢٦) .

(٢) الموريسكي يطلق على المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية .

القواعد . أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر. أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة منعتاً إياه بالنبي ورسول الله. أو يقول : إن الكعبة أول معابد الله ، أو يقول إنه لم ينصر إيماناً بالدين المقدس ، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله ؛ لأنهم ماتوا مسلمين . . » [١] .

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية، يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطلبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل، والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد استمرت محاكم التفتيش قروناً عدة ، وعندما احتل نابليون إسبانية بعد قيام الثورة الفرنسية أصدر مرسوماًسنة ١٨١٨م بإلغاء محاكم التفتيش في إسبانيا، ولكن رهبان « الجزويت » أصحاب المحاكم الملغاة استمروا في القتل والتعذيب، فشمل ذلك الجنود الفرنسيين، فأرسل المريشال « سولت » الحاكم العسكري الفرنسي لمدريد الكولونيل « ليمونكي » مع ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجم دير الديوان، وبعد احتلال الدير وتفتيشه عنوة لم يعثروا على شيء فقرر الكولونيل « ليموتكي » فحص الأرض، وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظرات قلقة فأمر الكولونيل جنده برفع الأبسطة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة، ففعلوا . فإذا الماء يتسرب إلى أسفل إحدى الغرف، فعرفوا أن الباب من هنا يفتح بطريقةماكرة بواسطة حلقة صغيرة ، وضعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس. وفتح الباب بقحوف البنادق، واصفرت

---

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب(٣/٢٢٦,٢٢٧) .

وجوه الرهبان وكستها غبرة. وظهر سلم يؤدي إلى باطن الأرض ونزل القائد الكولونيل وجنده. ويذكر هذا الإنسان في مذكراته ما يلي [١] .

فإذا نحن في غرفة كبيرة مربعة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة وأمام ذلك العمود عرش «الدينونة» كما يسمونه، وهو عبارة عن «دكة» عالية يجلس عليها رئيس الديوان [٢] ، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدة لجلوس جماعة القضاة ثم تواجهها غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجسام البشرية. وقد امتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض. وقد رأيت بها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى التقزز ما حييت رأينا غرفاً صغيرة في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقي سجين الأفقية ممداً بها حتى يموت. وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين، ، واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة ، وكان فيهم من جن لكثرة ما لاقى من عذاب ، وكان السجناء عرايا زيادة في النكاية بهم ، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات.

وانتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الأبدان ، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم وكانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام

(١) **انظر** : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ، لمحمد الغزالي نقلاً عن مصرع غرناطة .

(٢) رئيس ديوان محكمة التفتيش .

الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشم، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه الرأس المعذب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوى على الحركة وتقطر على رأسه من ثقب في إعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة. وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف، ويبقي المعذب على حاله تلك حتى يموت [(١)] .

وعثرنا على آله ثالثة للتعذيب تسمى السيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها ، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة. وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة. ثم يطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مزق الشاب وتقطع إرباً إرباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء ، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظم.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب جن جنونهم وانطلقوا – كمن به مس – فأمسكوا برئيس الدير ووضعوه في آلة التكسير، فدقت عظامه دقاً، وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا أمين سره، وزفوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهماالأبواب، فمزقته السكاكين شر ممزق، ثم أخرجوا الجثيين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك [(٢)] .

---

(١) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ١١٢) .

(٢) **انظر** : مصرع غرناطة (ص ٩٣) .

قلت: ومن سنن الله الجارية تسليط بعض الظالمين على بعض ؛ ولذلك انتقم الله من هؤلاء القساوسة والمتوحشين الذين نزعت من قلوبهم أدنى مشاعر وأحاسيس الإنسانية وانقادوا في حزب الشيطان اللعين.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً:

﴿١﴾ تفتت كيان الشمال الإفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس ، إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

﴿٢﴾ سعى ممالك إسبانيا نحو الاتحاد وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين (فرناندو) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون ، وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس [١] .

﴿٣﴾ الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: (العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها ، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات) [٢] .

أما شوقي أبو خليل فيقول: (والحقيقة تقول : إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة، والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل ، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية وغدا

---

(١) انظر : مصرع غرناطة (ص ٩٣) .
(٢) انظر : مصرع غرناطة (ص ٩٤) .

التهتك، والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلىء.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبون من بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون ، لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد ، أو يتكون منهم جيش قوي، كفء للحرب والمصاولة) [(١)] .

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سنة متبعة بينهم، وقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخين أن وفاة ابن هود **عام ٦٣٥هـ** كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود ، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد ﷺ [(٢)] دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان نشيد طارق في العبور « الله أكبر » ، وبقينا فيها زمناً حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قدم إليه خمر ليشرب قال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه [(٣)] .

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس:

(كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم أشربت نفوسهم حبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم) [(٤)] .

وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين

---

(١) مصرع غرناطة (ص ٩٤) .
(٢) انظر : سقوط الأندلس (ص ٢٩) .
(٣) المصدر السابق (ص ٢٧) .
(٤) انظر : التاريخ الأندلسي (ص ٢١١) .

دَوْزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا [1]

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام (٤٥٦هـ) خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إحسان بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحرير عليكم ألواناً
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا [2]

(٤) الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولة بني مرين وبني عبد الواد الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً،وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين؛ بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف .

قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

مابال شمل المسلمين مبدد فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في دينكم وتركتموه للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[3]

إن سُنَّة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال ﷺ في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: « **فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا** » وفي رواية «**فأهلكوا**» [4] .

---

(١) **انظر** : النصر والهزيمة لشوقي أبو خليل (ص ١٢٣) .
(٢) **انظر** : فقه التمكين عند دولة المرابطين ، لعلي محمد الصلابي (ص ٩٠) .
(٣) **انظر** : سقوط الأندلس (ص ٣٣) .
(٤) صحيح البخاري ، بشرح ابن حجر (٩/ ١٠١,١٠٢) .

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود رضي الله عنه: «**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**» [١].

قال ابن حجر العسقلاني: «وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف» [٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأمرنا الله تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف» [٣].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤل الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً [٤].

«وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول الله ﷺ؛ لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة؛ لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرىء العدو عليها فيطمع فيها ويحتل أراضيها ويستولي عليه ويستبعدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها» [٥].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقي الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها وإن أخطر ما نعاني منه الأن الخلاف في صفوف الحركات الإسلامية التي تقوم بواجب الدعوة إلى الله تعالى وهذا الخلاف قد يؤدي ضعف الحركات العاملة إذا لم نأخذ بسبل الوقاية منه.

---

(١)، (٢) المصدر السابق (٩/٢٠٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/١١٦).

(٤) انظر: السُنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان (ص ١٣٩).

(٥) انظر: السُنن الإلهية (ص ١٣٩).

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: «والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى الله ثم يهلكها؛ ولهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة، وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة أو أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفرق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة في أعين المتفرقين المختلفين فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة، وإنما يضعف تأثيرها في الناس وتجعل المغرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يئول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول» [١].

﴿٥﴾ موالاة النصارى والثقة والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه، فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ**

---

(١) السنن الإلهية (ص ١٤٠، ١٤١).

الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) ﴾ .

[المائدة: ٥٧] .

وقوله عز وجل : ﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ** ﴾ [آل عمران: ٢٨]

وقوله تعالى: ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ** ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

وقد أبان رسول الله ﷺ طريق الأمة في الولاء والبر فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله**» [١] .

ويقول ﷺ فيما يرويه عن ربه – عز وجل: « **من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب** » [٢] .

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسُنَّة نبيها وتخالفه ، فلا بد أن ترى فيها سُنَّة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم والأندلس عامة والإسلام وأهله ، ولكنك لا تجني من الشوك العنب.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم !! [٣] :

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده(٤/ ٢٨٦) .

(٢) البخاري مع الفتح ، كتاب الرقائق رقم(٦٥٠١) .

(٣) سقوط الأندلس(ص ٢٤) .

يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح. ولما سقطت مالقة وحول مسجدها الأعظم إلى كنيسة ، أرسل أبو عبد الله الصغير إلى النصارى يهنئهم في ذلك ، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب ، دون أن يجد النصارى في ذلك عناء يذكر !.

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه؟ ، لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب وفي ذلك يقول المقري – رحمه الله – : (ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس – حرسها الله – وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السُّؤال ، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز المذل ، المانح المانع لا إله إلا هو) [١] .

[٦] التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة :

لقد كانت أحاديث الرسول ﷺ في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه** » [٢] .

وقاله ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** » [٣] .

لقد تخاذل ملوك الشمال الإفريقي عن نصرة ما تبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم وأنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفيد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة ، وإليك ما حدث في طليطلة.

---

(١) **انظر** : سقوط الأندلس (٦٧ ، ٦٨) .
(٢) البخاري مع الفتح ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٢) (٥/١١٦) .
(٣) المصدر السابق ، كتاب المظالم ، رقم (٢٤٤٦) (٥/١١٧) .

قال د. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف :

قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها ، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد) [١] .

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي (٦٢٧-٦٥٥هـ) ، وكانت فترة سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس ، أقل من ثلاثين عاماً تنقلب خارطة الأندلس ، ويتمكن منها عُبَّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرضاً نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك ، من أجل سحقه ومحوه من الوجود .

يقول المقري في نفح الطيب عن استعداد النصارى لإحدى المعارك :

« وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له وتضرع، وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك» [٢] .

ويقول جوستاف لوبون في (حضارة العرب) إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مئة ألف مهاجر من قافلة واحدة ، كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية [٣] .

---

(١) **انظر** : التاريخ الأندلسي (ص ٣٣٢) .
(٢) نفح الطيب (١/ ٤٤٩ ، ٤٥٠) نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٤٥) .
(٣) **انظر** : عوامل النصر والهزيمة (ص ١٢١) .

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين واستماتة النصارى كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة ... فأهلك عليه أسى ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها ... من قانتين وراكعين وسجد
كم من أسير عندهم وأسيرة ... فكلاهما يبغي الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة ... فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقي بالسلاسل موثق ... يبكي لآخر في الكبول مقيد
ضجت ملائكة السماء لحالهم ... وبكى لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم إخواننا ... مما دهانا من ردى أو من ردي[1]
أفلا تراعون الأذمة بيننا ... من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعي الروم في إخوانكم ... وسيوفكم للثأر تتقلد
يا حسرتى لحمية الإسلام قد ... خمدت وكانت قبل ذلك توقد[2]

[٧] غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عباد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[3].

قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)** ﴾ [المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخاً مليئاً بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء.

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص ٤٦).
(٢) انظر: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣).
(٣) انظر: سقوط الأندلس (ص ٤٠).

قال تعالى: ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ⑩ ﴾ .

[التوبة : ١٠] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ .

[البقرة: ١٢٠] .

لقد استماتت النصارى في حروبهم مع المسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة ، واستطاعوا أن يوحدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة الإسلام وإزالتهم من الأندلس.

[٨] إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف :

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس كان بزوال الخلافة الأموية ، ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحداً وأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة في عمومهم ، **واسمع الى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام:** (والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين ، لعن الله جميعهم [•] وسلط عليهم سيفاً من سيوفه..) [٢] .

---

(١) انظر : سقوط الأندلس (ص ٣١) .

(•) في هذا اللعن نظر ، لكون هؤلاء الحكام مسلمين .... فليراجع .

(٢) مجموع رسائل ابن حزم (٣/١٧٦) .

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة، أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها.

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: « وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء، اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السلطة، ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيعوا من الحظ الخلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن المنهج الحنيف الذي به كانت الأندلس وحضارته » [١].

[٩] عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: (فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية ؛ لأنه نفخ في عظام ناخرة ، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، ولكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنباً يتوب) [٢].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، وانصرف عدد من العلماء إلى

---

(١) التاريخ الأندلسي (ص٣٢٥) .

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني (٩٥ ، ٩٦) .

العناية المبالغة [١] بالفقه المذهبي وفروعه ، ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم - رحمه الله - : «ولا يغرنك الفساق والمنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم» [٢] .

[١.] الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

«ففي عام ٦٤٣هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مئة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه!! فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلم ابن الأحمر جيان، وأرجونة، وبركونة، وبيغ، والحجاز وقلعة جابرللنصارى» [٣] .

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادى الأولى عام ٦٤٥هـ ، قدم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها. وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية ، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم وفي أوائل رمضان ٦٤٦هـ ، دخل فرناندوا الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة [٤] .

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال

---

(١) سقوط الأندلس(ص ٣٥) .
(٢) مجموع رسائل ابن حزم(٣/١٧٣) .
(٣) نهاية الأندلس(ص ٤٣) ، نقلاً عن سقوط الأندلس(ص ٢٢) .
(٤) انظر : سقوط الأندلس(ص ٢٢) .

شاعرالأندلس ابن الصلصال:

حثوا رواحلكم ياأهل أندلس	فيما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينشر من أطرافه وأرى	سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن عواقبه	كيف النجاة مع الحيات في سفط[١]

[١١] سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبابات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس، منها تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة ومنها الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها تخوين الأمين، وتأمين الخئون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها، إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والإتاوات والمكوس التي ما أنزل الله من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: « ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر ؛ إرضاء لأنانيته ورغبة في البقاء بمركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر »[٢].

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة ، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام (٦٣٥هـ وعام ٨٩٣هـ) من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدماً عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين؛ ولذلك

(١) نفح الطيب (٤ / ٣٥٢) ، نقلاً عن سقوط الأندلس (ص ٤٩) .

(٢) التاريخ الأندلسي (ص٣٦٨) .

غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادىء والمثل والقيم [١] .

[١٢] الثورات الداخلية في الأندلس:

وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة ، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين في العراق والأغالبة في إفريقية، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية **عام** (٨٩٩هـ) ، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية، وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث – الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم **« نصف قرن »**، فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ثم لحقت بها مدينة ألبيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت « ارخدونة » أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في **٩١٣م** وأخضع « ريه » التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس **٣٧ عاماً**، وحاصر طليطلة **سنة ٩٣٢م** واستسلمت له، وكان الأعداء يتربصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلون ولا يملون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين ، من أجل القضاء على الإسلام،والدولة العبيدية الرافضية في إفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصرانيْ المرتد ضد مسلمي الأندلس، وأرسلت الدعاة وأسسوا حزبًا عبيديًا رافضيًا في

---

(١) انظر : سقوط الأندلس (ص ٥١) .

الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية، وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن لله في خلقة شئون [١].

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها.

ولقد اكتشفت مخابرات دولة المرابطين تلك اللعبة المزدوجة التي كان يقوم بها بعض الخونة المندسين بين المسلمين، والذين يتجسسون على حكام الإسلام في الأندلس والمغرب لصالح ملوك النصارى، فاستفتى السلطان يوسف بن تاشفين بشأنهم الفقهاء فأفتوا بوجوب هدم الكنيسة القوطية في غرناطة التي كانت بؤرة الفساد والتجسس على الدولة المرابطية السنية وواصل ابنه الأمير علي بن يوسف متابعة الأعمال التخريبية، فألقى القبض بعد ثبوت التهم على عملاء النصارى، فأعمل في بعضهم السيف ونفى من تبقى منهم إلى المغرب، لقد أثبتت التحقيقات أنهم كانوا يتجسسون لصالح ملك النصارى القشتالي وغيره من ملوك القوط ولم تعط مخابرات دولة المرابطين أدنى فرصة لهؤلاء المندسين [٢].

ثامناً: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمي الأندلس:

﴿ ١ ﴾ إن الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى يجلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا وهلاكاً وعذاباً في الآخرة وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو

---

(١) **انظر**: ابن عذاري (١/٤٧)، نقلاً عن الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٢٦٢ إلى ٢٦٧).

(٢) **انظر**: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/٣٤٦)، لقد نقلت من الكتب الآتية في تحليل أسباب سقوط الأندلس، سقوط الأندلس، د. ناصر العمر، مصرع غرناطة، شوقي أبو خليل، عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل، السُنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي وغيرها من الكتب.

على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وإن الفتن تظل تتوالى تترى على الناس، حتى تمس جميع شئون حياتهم، قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

[النور:٦٣].

﴿٢﴾ لقد كان في ممارسة ملوك الطوائف للحكم البعيد عن شرع الله آثار على الأمة فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاباً بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي على قلبه، وأصبح في ضنكه من العيش ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه : ١٢٤].

أما الآثار على الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي فلا أمر بمعروف تأمر به ولا نهي عن منكر تنهى عنه وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾ [المائدة: ٧٨ ، ٧٩].

فإن أي أمة لا تعظم شرع الله أمراً ونهياً فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله ﷺ: **«كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً، ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله على قلوب بعضكم ببعض، ثم ليلعنكم كما لعنهم»**[١].

﴿٣﴾ أن ملوك الأندلس تحققت فيهم سُنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من

(١) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم (٤٦٧٠).

الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام الله: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال:٥٣] .

كما أن المجتمعات التي ترضخ تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم على شعب الأندلس كله، وفرط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وانعكس ذلك على حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت؛ ولذلك حرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلى هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا من رحم الله ، وتركوا الحق وانقادوا للضلال وابتلوا بالنفاق، وفضحهم الله بذلك ، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله.

﴿٤﴾ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولدت على إثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

﴿٥﴾ وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ سهلت مهمة النصارى في الأندلس فأصبحت شوكتهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم ، وبعض المدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم، وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

﴿٦﴾ أن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاض الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

﴿٧﴾ أن من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عصي الله تعالى ممن يعرفونه سلط عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط الله النصارى على المسلمين في الأندلس وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين في زمن المرابطين والتفوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم ثم خلص الله أهل الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين منقادين لشريعة رب العالمين.

﴿٨﴾ إن الذنوب التي يهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

- معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.
- كفر النعم بالبطر والأشر وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة الله واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقاناً عجيباً.

يقول الشاعر البسطي الأندلسي:

هذا جزاء مخالف مثلي أبي ... تقوى الإله ودان بالعصيان

وقال المرابط كاتب ابن الأحمر:

سودت وجهك بالمعاصي فالتمس ... وجهاً للقياه غير مسود
من ذا يتوب لربه من ذنبه ... أو يقتدي بنبيه أو يهتدي[1]

وكان من إجابة المتوكل بن الأفطس لأوفونس ملك النصارى:

«أما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك علمت أي مصاب أذقناك» [2].

---

(١) انظر: سقوط الأندلس (ص ٦١).
(٢) التاريخ الأندلسي، د. عبد الرحمن الحجي (٣٣٧)، نقلاً عن الحلل الموشية في ذكر الأخبار المركشية (ص٢٠، ٢٣)، كذلك الطوائف، محمد عبد الله غسان (ص ٩٠، ٩١).



المبحث الثاني

أولا : دولة بني مرين في المغرب الأقصى

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م وهم يتفرعون من قبائل (زناتة)، مثل (مغراوة) وبني (يفرن)، وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتقى وبسلامة العقيدة عن الأفكار التومرتية المنحرفة ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة :

أولاً - عبد الحق بن محيو المريني :

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وبسلامة العقيدة والابتعاد عن البدع ، والأفكار الغريبة ، والتزم بالمذهب المالكي في سيرته [١] وقد مات عبد الحق سنة ٦١٤هـ ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة [•]: أبو سعيد العثمان، مات سنة (٦٤٢هـ) ، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة (٦٥٦هـ) ، ويعقوب بن عبد الحق ، وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين ، وصار أمير المغرب سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م) ، وقد تكلمت عن سيرته الجهادية في الأندلس [٢] .

ثانياً - المنهج الذي قامت عليه الدولة :

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام؛ ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة

---

(١) **انظر** : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣ / ٥٥) .

(•) **انظر** : لم يذكر الشيخ [حفظه الله] الابن الرابع لعبد الحق بن محيو المريني .

(٢) **انظر** : قادة فتح بلاد المغرب (٢ / ٢٠٠) .

الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك إلا أن صدامهم مع الموحدين وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين [١] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية وبأنهم لم يمكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية، العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب، سواء من المنظور الشرعي أو السياسي.

واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم وبذلك حققوا مكاسب متعددة، منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وتضعيف التحالف بين بني زيان ودولة الموحدين بإدخال طرف قوي في النزاع [٢]، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص [٣].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية، من أجل تثبيت

---

(١) من أمثال عبد الفتاح الغنيمي، والدكتور احمد مختار العبادي.

(٢)، (٣) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/٢٠٧).

البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة، فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق، واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس وضم إقليم سجلماسة للدولة في صفر (٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م) ، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة الدولة المرينية الجديدة. وفي عام (٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م) أمر السلطان المريني ببناء عاصمة جديدة وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم [١] .

ثالثاً - حركة التوحيد للشمال الإفريقي :

حاولت دولة بني مرين أن توحد الشمال الإفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني (٧٣١/ ٧٥٢هـ -١٣٣١/ ١٣٥١م) وولده أبي عنان فارس (٧٥٢هـ / ١٣٥١م) أن يوحدوا الشمال الإفريقي بالقوة ، وعادت وحدة الشمال الإفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس وعادت حركة التوسع في الشمال الإفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس ودخل تونس في عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، لتمتد مملكته من مصراته في ليبيا إلى السوس الأقصى

---

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي(٣/ ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١) .

وإلى رندة من عدوة الأندلس.

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال والإحسان إليها، ففجروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.

وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلى عن السلطة في سنة (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م)، ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الإفريقي وأزال دولة بني زيان سنة (٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) وتابع سيره إلى إفريقية ودخل تونس في سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م) إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصاً في فاس وطمع بعض أقرباءه في السلطة جعله، يعود إلى عاصمته، فوافاه الأجل في العام التالي [١].

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الإفريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم.

وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ضعاف ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب واحتلوا طنجة سنة (٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م) واقتصرت الدولة المرينية على فاس [٢].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن سعيد العباس (٨٢٣-٨٦٩هـ/ ١٣٢٠- ١٤٦٥) قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت

---

(١) انظر: المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة (ص ١٤١).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر (ص ١٤٢).

الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد ابن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) وبذلك انتهت دولة بني مرين [١] .

رابعاً : أسباب سقوط دولة بني مرين :

[١] دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

[٢] دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات، المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات، وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الإفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

[٣] ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء العرب في شئونها، وتنازعت الأهواء والمصالح، فتولدت انفجارات داخلية ونزاع بين الأبناء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

[٤] المخاطر الخارجية والمكايد من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام (٨١٨هـ/١٤١٥م) ، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار [٢] .

[٥] تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين ، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبباً في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين

(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/٣٣٦,٣٣٧) .
(٢) تاريخ المغرب والأندلس في القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن العاشر لمجموعة من الباحثين (١٤٢) .

وإزالتها من الوجود.

[٦] أجل الله في هذه الدولة؛ لأن الدول لها آجال لا تتعداها وغير ذلك من الأسباب.

خامساً : الدولة الوطاسية :

ترجع الدولة الوطاسية إلى بني وطاس فرع من بني مرين وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية ، وأنزل بهم السلطان عبد الحق آخر سلطان للدولة المرينية نكبة عظيمة ونكل بهم أشد تنكيل ، واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه.

وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام ٨٦٨هـ ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده حيث استغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس ، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ(٣٠ ألف مقاتل) في زمن ملك البرتغال ألفونس الخامس، ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطاسيون عن أراض من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائس إلى جانب أصيلا، وأطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته [١] .

وكانت الفتن في المغرب على أشدها عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانىء المغرب مثل سبتة وطنجة وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين (١٤٩٢م) وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب، واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع

---

(١) انظر : موسوعة المغرب (٣/ ٢٣ ، ٢٤) .

وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الإستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط وكانت هذه الموانيء والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية ، ورفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية ، وتدرجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ود الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرروا الأراضي المحتلة وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين **عام ٩٥٦هـ** .

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فر من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ، ويهزم السعديين في فاس **عام (٩٦١هـ)** وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية في **نفس العام ٩٦١هـ** [(١)] .

سادساً: أسباب سقوط الدولة الوطاسية:

[١] دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبريغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

[٢] عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

[٣] ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها

---

(١) **انظر** : موسوعة المغرب العربي(٣/ ٥٣) .

وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

[٤] الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانىء.

[٥] التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة، بين المغاربة.

سابعاً : السعديون :

يرجع أصل السعديين من الجزيرة العربية ويرجعون في نسبهم إلى الإمام علي ابن أبي طالب رضي الله عنه [١] ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن في نسبها [٢]. وهي لم تعتمد في قيامها إلى (مهدوية) كاذبة، أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعدين، فيرى الأستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترىء أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر بن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر [٣] رسول الله ﷺ.

وكثير من العامة يعتقدون أنهم إنما سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم [٤] ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي: «وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف» [٥].

---

(١) انظر : وادي المخازن لشوقي أبي خليل (ص ٣١).

(٢) قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٢).

(٣) الظئر : المرضعة والعاطفة على غير ولدها .

(٤) انظر : وادي المخازن لشوقي أبي خليل (ص ٣٢).

(٥) المصدر السابق (ص ٣٢) نقلاً عن الاستقصاء (٥/٦).

أما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط علي بن أبي طالب رضي الله عنه [1].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب، وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعةو وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣هـ، وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد الأعرج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (٩٣٠هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة(٩٤٠هـ) رحل من (تادلة) [2] إلى (السوس)، وفر الوطاسيون من (تادلة) إلى المغرب الأوسط.

---

(١) انظر: موسوعة المغرب العربي (٣/١١٤،١١٥).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/٢٠٤).

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ الأخ الأصغر الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة (٩٦١هـ) ودخل مدينة فاس فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة (٩٦٤هـ) وتولى زمام الأمور من بعده إبنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة (٩٨١هـ) [(١)] فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً ، قتل اثنين من إخواته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر، فكرهته الرعية [(٢)] ووصفه السلاوي بقوله: (وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياهًا غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، عسوفاً على الرعية، **ومن شعره قوله :**

فقم بنا نصطبح صهباء صافية ... في وجهها عسجد في وجهه نقط

وانهض إليها على رغم العدا قلقاً ... فإن تأخر أوقات الصبا غلط

ومن شعره إيضاً :

ساروا فسار فوادي إثر ظعنهم ... وخلفوني نحيل الجسم حيرانا

لا افتر ثغر الثرى من بعد بينهم ... ولا سقى هاطل ورداً وريحانا [(٣)]

إلا إن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك،وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني، وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) انظر : وادي المخازن ،(ص ٢٣) .

(٣) الاستقصاء (٥ /٥٨) نقلاً عن وادي المخازن(ص ٣٤) .

كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم [١] .

وما أن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس ، حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستميل القواد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وبايع أهل المغرب عبد الله الملك بن محمد الشيخ سنة (٩٨٣هـ) .

ثامناً: من إصلاحات عبد الملك وأعماله :

[١] أمر بتجديد السفن،وبصنع المراكب الجديدة ، فانتعشت بذلك الصناعة عامة .

[٢] اهتم بالتجارة البحرية، وكانت الأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة .

[٣] أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب .

[٤] استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب .

[٥] فرض احترامه على أهل عصره ، حتى الأوروبيين ، احترموه وأجلوه .

قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة:

«كان عبد الملك جميل الوجه؛ بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفة لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك» [٢] .

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤) .

(٢) انظر : وادي المخازن (ص ٣٧) .

[٦] اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية، وأحوال السكان عامة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية، وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شئون الدولة [١] .

تاسعاً: معركة وادي المخازن :

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ: **(٣٠ جمادي الثانية ٩٨٦هـ الموافق: ٤آب ـ أغسطس ـ ١٥٧٨م)** ·

ولقد كان لتلك المعركة أسباب من أهمها :

{١} أراد البرتغاليون أن يمحو عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزمور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث آب **(١٥٢١-١٥٥٧م)** ·

{٢} أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنه بين ملوك أوروبا ، وزاد غروره بعد ما حققه البرنغاليون من اكتشافات جغرافية جديدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة، في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى ، فخطط

---

(١) المصدر السابق ،(ص ٣٩ ، ٤٠) ·

لغزو واحتلال المغرب [١] .

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عميه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له عن موانيء وشواطيء المغرب «فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك» [٢] .

[٢] حشود النصارى:

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الأسبان والبرتغاليين والطليان والألمان ، وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه ، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب [٣] .

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام ١٥٧٨م.

[٢] الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: «أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله».

والتفت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم ، فكتب إلى أهل المغرب ما استصرخت بالنصارى [٤] ، حتى عدمت النصرة من المسلمين ، **وقد قال العلماء :** إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه بكل ما أمكنه ، وتهددهم قائلاً: ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [البقرة: ٢٧٩] [٥] .

---

(١) **انظر** : وادي المخازن (ص ٤٥ ، ٤٦) .

(٢) **انظر** : الاستقصاء (٥/ ٦٩) ، نقلاً عن وادي المخازن (ص ٤٦) .

(٣) **انظر** : وادي المخازن (ص ٤٩) .

(٤) سمى النصارى أهل العدوة واستنكف عن تسميتهم نصارى .

(٥) **انظر** : وادي المخازن (ص ٥١) .

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته، برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها:

(الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه، ولا استنصروا به، حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله.

وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب. لو رجعت نفسك اللوم والعتاب، لعلمت أنك المحجوج والمصاب...

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله، أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك استعنت بالكفار على المسلمين.. قال ﷺ: **«إني لا أستعين بمشرك..»**، الاستعانة بهم - بالمشركين - على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه.. وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله..

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا، حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لا دين إلا دين محمد ﷺ، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ** ⑪﴾ [العنكبوت: ١١].

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعولت على بلوغ الملك

بحشودهم، وأنى لك مع قول الله تعالى: ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾[التوبة: ٣٢] [١].

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطئوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصين في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس.

وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان:(إن سطوتك ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن نتقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب بن كلب) [٢]. فليس من الشجاعة ، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل ، ولا ينتظر مقابلة المحاربين وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشه الذين أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر [٣]. وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

[٣] قوى الطرفين [البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي] :

الجيش البرتغالي :

١٢٥,٠٠٠، بما يلزمهم من المعدات، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب، فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠ راجل، و ٢٠٠ فارس، و٣٦ مدافعاً، مقابل: ٥٠,٠٠٠ راجل في الجيش المغربي، و ٢٢,٠٠٠ فارس، و ١,٥٠٠ من الرماة، و ٢٠ مدفعاً.

ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور: عدد الجيش البرتغالى مائة ألف

---

(١) الاستقصا (٥ / ٧٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٥٣).

(٢) انظر : وادي المخازن (ص ٥٣).

(٣) انظر : وادي المخازن (ص ٥٤).

وخمسة وعشرون ألفاً) [١] .

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن):

إن مجموعهم كان مئة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل [٢] .

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠,٠٠٠ إسباني، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي. وغيرهم عدد كبير، مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً... وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم، المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراواح ما بين: ٣٠٠-٦٠٠ رجل على الأكثر [٣] .

الجيش المغربي :

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوقاً في الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

﴿١﴾ ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة.

﴿٢﴾ التفاف الشعب حول القيادة، تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات ، وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاء حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون ، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعف عنها، ولم يأخذ منها شيئاً [٤] .

---

(١) ، (٢) الاستقصا (٥/٦٩) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٥٦) .

(٣) انظر : وادي المخازن (ص ٥٦) .

(٤) انظر : وادي المخازن (ص ٥٨) .

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي.

«لقد حنكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطىء بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة، عندما استدرج سبستيان إلى مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها» (١).

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف الرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة فرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقض في الوقت المناسب وهي في غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر (٢).

كان صباح الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ/١٥٧٨م يوماً مشهود في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام. وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، **مذكراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر**: (٣)

﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [الأنفال: ١٠].

كما ذكر بوجوب الثبات:

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥)** ﴾.

[الأنفال: ١٥].

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)** ﴾.

[الأنفال: ٤٥].

---

(١)، (٢)، (٣) انظر: وادي المخازن (ص ٦٢).

وبضرورة الانتظام:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[الصف: ٤] .

وذكر أيضاً حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة [١] .

ولم يأل القسس والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبة الذين يقودهم سبستيان، مذكرين أن البابا أحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى ، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله، وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر، ولا يضطربوا وكان حاجبه يقول للجند: (السلطان يأمر فلاناً أن يذهب إلى موضع كذا وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر) [٢] .

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي ، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة أثر بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم، فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر، وقتل من قتل، وصرع سبستيان، وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة

---

(١) انظر : وادي المخازن (ص ٦٤) .

(٢) الاستقصا (٥ / ٨٠) ، نقلاً عن وادي المخازن (ص ٦٦) .

غريقاً في نهر وادي المخازن .

واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة، وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين [١] .

جاء في (درة السلوك) لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة« مخطوطة بدار الوثائق بالرباط، د ٤٢٨، ص١٤ » [٢] .

وابن أخيه [٣] بالنصارى اعتصما ... وصار يستنجدهم لمن سما

أجابه اللعين بستيان [٤] ... بجيشه ومعه الأوثان

وعدد الجيوش الذي جمعا ... ينيف عن مائة ألف سمعا

فقيض الله له المنصورا [٥] ... ملكاً شجاعاً أسداً هصورا

فخلص الإسلام من يد اللعين ... بصبره على لقاء المشركين

ما منهم إلا قتيل وأسير ... في ساعة من الزمان [٦] ذا شهير

مات بها بستيان اللعين ... فما له عن الردى معين

ثم محمد [٧] الذي أتى به ... مات غريقاً [٨] يومه فانتبه

لحكمة الله العظيم القاهر ... أفقدهم وزين المنابر

بذكر عمه أبي العباس ... الحازم الرأي شديد الباس

نجل الرسول المصطفى المختار ... به زها المغرب على الأقطار [٩]

---

(١) **انظر** : وادي المخازن ، (ص ٦٦، ٦٧) .

(٢) دعوة الحق ، السنة (١٩) ، العدد (٨)، رمضان (١٣٩٨هـ) ، (ص ٥٦) نقلاً عن وادي المخازن (ص٦٧).

(٣) إشارة إلى المتوكل .

(٤) **بستيان** : لضرورة الوزن وإلا فهو سبستيان .

(٥) أحمد المنصور ، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه ، وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة .

(٦) إشارة إلى قصر مدة المعركة .

(٧) محمد المتوكل المسلوخ .

(٨) في نهر وادي المخازن .

(٩) برده الغزو الصليبي وانتصاره بالدهر في معركة وادي المخازن .

عاشراً: أسباب نصر وادي المخازن:

[١] القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور، وظهور مجموعة من القادة المحنكين من أمثال، أبي علي القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

[٢] التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

[٣] رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم، والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين الذين حكمهم في الأندلس.

[٤] اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

[٥] الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

[٦] القدوة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

[٧] تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.

[٨] استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال

دولته مما جعل القوب تتنافر.

[٩] وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد [١] .

[١٠] دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم.

وغيرذلك من الأسباب.

الحادي عشر : نتائج المعركة:

[١] أصبح سلطان المغرب بعد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.

[٢] وصلت أنباء الانتصار بوسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية، في زمن مراد خان الثالث، والى سائر ممالك الإسلام المجاورة للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

[٣] ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبة تخطب ودها واضطر ملك البرتغال الجديد « أنريك » أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودهم بالهدايا الثمينة. ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة [٢] .

وبعدها رسل ملك فرنسا وأصبحت الوفود (تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور) [٣] .

[٤] سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

---

(١) انظر : وادي المخازن (ص ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥) .

(٢) انظر : وادي المخازن (ص ٧٠) .

(٣) الاستقصاء (٥ / ٩٢) نقلاً عن وادي المخازن (ص ٧٠) .

يقول لويس مارية - المؤرخ البرتغالي - واصفاً نتائج المعركة:

« وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته - كما وصفه غيره من المؤرخين - لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وأنطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم، وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب » (١) .

[٥] مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد، عبد الملك المعتصم بالله.

[٦] سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

[٧] سادت فترة هدوء ورخاء وبناء في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

[٨] حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط - على مستوى أوروبا حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب (٢) .

الثاني عشر: السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦هـ/١٥٤٩م . أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة (٣) .

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المركز: (فارس، مراكش بتارودانت . . .) . ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث

---

(١) الاستقصاء(٥/ ٨٥ -٨٦) نقلاً عن وادي المخازن(ص٧١) .

(٢) انظر : وادي المخازن(٧٦) .

(٣) انظر : وادي المخازن(ص٣٧) نقلاً عن الاستقصا(٥/ ١٣٦) .

والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير.

[أ] من أشهر شيوخه:

[١] أبو العباس أحمد بن علي المنجور، المعروف بتبحره في العلوم واهتمامه بالفنون، وتوسعه في علم النحو والبلاغة والمنطق وعلم الكلام.

[٢] شقروان بن هبة الله الوهراني، درس عليه الفقه والتفسير وغيرها من العلوم.

[٣] أبو زكريا يحيى السرج.

[٤] محمد بن يوسف الدرعي.

[٥] سليمان بن إبراهيم.

[٦] موسى الروداني [١].

[ب] من مؤلفات أبي العباس أحمد المنصور:

[١] «المعارف في كل ما تحتاج الخلائق» يتكلم هذا الكتاب عن فقه الدولة وسياستها ويهتم بالطرق العلمية لصناعة الأسلحة والذخيرة، وبناء نقاط للدفاع، ويهتم بالطرق التقنية ويرسم التفكير الإستراتيجي القتالي.

[٢] مؤلفه في دراسة الحديث النبوي: « **نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة** » [٢].

[٣] كتابات أدبية وشعرية متميزة، تظهر فيها المحسنات البديعية أحياناً [٣].

وصَفَه السلاوي فقال:

(نشأ المنصور في عفاف وصيانة وتعاط للعلم ومثافنة [٤] لأهله عليه، كانت مخايل الخلافة لائحة عليه من نعومة أظفاره [٥]. كان طويل القامة ممتلىء

---

(١) **انظر**: وادي المخازن (٣٨).

(٢) حاول أن يزيح بعض الإشكالات العلمية المتعلقة ببحث الحديث والفقه.

(٣) **انظر**: وادي المخازن (ص ٣٨).

(٤) **ثافن الرجل**: لازمه حتى عرف باطن أمره.

(٥) أي: طفولته.

الخدين، واسع المنكبين، تعلوه صفرة رقيقة، أسود الشعر، أدعج أكحل ، ضيق البلج [١] براق الثنايا، حسن الشكل، جميل الوجه، ظريف المنزع، لطيف الشمائل) [٢] .

[جـ] إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والجيش، وترتيب وتنظيف الأقاليم التابعة للدولة.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراء وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية، أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية.

وأحدث حروفاً لرموز خاصة بكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تحمي به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية.

واهتم بالجهاز القضائى، وفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفذية تماماً، ومنع السلطة التنفذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في القرنين (١١و١٢هـ) ، (١٦و١٧م) فقال: «في الوقت الذي كانت أوروبة في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم» [٣] .

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة

---

(١) **البلج** : تباعد ما بين الحاجبين .

(٢) **انظر** : وادي المخازن (ص ٣٩) .

(٣) **انظر** : دعوة الحق نقلاً عن وادي المخازن (ص ٤١) .

ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد، يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلوا متراً بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن يمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطور عمل المؤسسات الأستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء، واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية ، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله.

وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلين المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع (١) .

وطور السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك ومن أهم هذه القيادات، إبراهيم بن محمد السفياني قائد الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي.

ودعم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، قام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول،خصوصاً في ميناءي العرائش وسلا (٢) .

(١) انظر : وادي المخازن (ص ٤٢ ، ٤٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٤).

ومد نفوذ الدولة السعدية نحو الجنود وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه ودخل في لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة، واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاهية والخصب لبلاده [١].

[د] انهيار الدولة السعدية :

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك ، آل به إلى الأمر سقوط الدولة السعدية ، **وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:**

[١] الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.

[٢] ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

[٣] دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود ،التوسع كل إمارة على حساب الأخرى ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها .

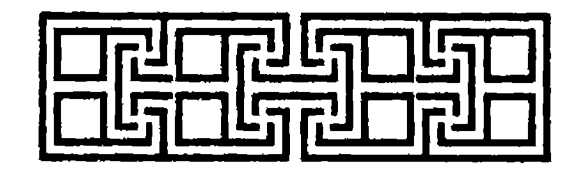
[٤] ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

[٥] تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والأنهيار ، حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم انتهى الأمر بإن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين

---

(١) **انظر** : تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، نور الدين حسام (ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨) .

عام (١٠٦٩هـ/١٦٥٨م) وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية بمقتل أبي العباس ، واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد ، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية ، وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام (١٠٧٥هـ - ١٤١٢هـ) ، وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد ، إلى يومنا هذا (١) .



(١) انظر : موسوعة المغرب العربي (٣/٣٤٨) .

المبحث الثالث

بنو عبد الواد «بنو زيان»

[أ] بنو عبد الوادُ « بنو زيان » :

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين وعندما ضعف أمر الموحدين، انفصلوا بالمغرب الأوسط وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد (١) .

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرحل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

انفصل زعيم بني عبد الواد يغمراسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعليا وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقرب الخمسين سنة (٦٣٣هـ/١٢٣٥م - ٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

كان يغمراسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الإفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسرشوكة المرينيين إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف

---

(١) انظر : تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤) .

وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م أمام الضربات المرينية قرب وجدة ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان، وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كامل ، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى (١) .

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس. وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني.

وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد وألحقوا بهم هزائم في عام (٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م) .

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم، وتنهزم قواتهم أمام المرينيين، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني، فيناصرون فريقاً على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بنا.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للإنهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك

---

(١) **انظر** : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب(ص ١٣٤) .

استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون ،**ويرجع ذلك إلى أسباب منها :** [١]

﴿١﴾ ظهور الزعيم يغمراسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن يقول ابن خلدون عنه : (كان يغمراسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابةً وإجلالاً ، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وصيرهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعاية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار واتخذ الألة ورتب الجند والمصالح وفرض العطاء) [٢] .

﴿٢﴾ حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها، وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.

﴿٣﴾ حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.

﴿٤﴾ إسناد مرافق الدولة للأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة، وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية

﴿٥﴾ اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين إفريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار بين ما يحملون من إفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج وبين ما يحمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.

---

(١) انظر : المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص ١٣٦) .

(٢) ابن خلدون في تاريخه (٧ / ٧٩) .

فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفضت عنهم الضرائب، واكتفت ما تحصله من رسوم فكان للتجارة سبب في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.

﴿٦﴾ اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء حتى أن يحيي بن خلدون (ت ٧٨٠هـ) وهو شقيق المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلي وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣هـ/١٣٥٢م - ٧٩١هـ/١٣٨٩م) وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء وكان هو نفسه أديباً شاعراً وله كتاب اسمه: (**نظم السلوك في سياسة الملوك**) ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال [١].

وفي عهد بني زيان على العموم نبغت جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف الجواهر الحسان، والمقري مؤلف نفح الطيب كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق [٢].

[ب] التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:

قسمت السلطات في الدولة إلى:

[١] **السلطة العسكرية** : ويتولاها صاحب السيف.

[٢] **السلطة الإدارية** : ويتولاها صاحب القلم.

[٣] **السلطة القضائية** : ويتولاها قاضي القضاة.

[٤] **السلطة المالية** : ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤلي السلطات السابقة شخص يطلق علية (مزاول) وله حق

---

(١) المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب (ص ١٣٦).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (٤/٢٥٢)

الإشراف على كل هؤلاء وهو ما يعرف في زماننا رئيس الوزراء وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي) وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب (١) .

[جـ] أسباب السقوط لبني عبد الواد :

[١] النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

[٢] قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها .

[٣] ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

[٤] مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) ثم استيلاؤهم على وهران (٩١٤هـ) ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية(٢)، وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

[٥] ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان وانتهى الأمر بزوال دولة بني زيان في عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م) ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني الذي استطاع أن يهزم الإسبان (٣) وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً؛ لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الواد ، فكان ذلك التخاذل

---

(١) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي د . أحمد شلبي (٢٥٣,٢٥٢)
(٢) ، (٣) انظر : المغرب الكبير (٢ / ٨٧٥) .

والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلاف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة وفي أواخر رمضان سنة (٩١٥هـ/ ١٥١١م) اقتحم النصارى الإسبان أسوار (بجاية) وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة [١] .

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء إخوانهم في العقيدة والدين الذين جاءوا من أجل الدفاع عن الإسلام وأهله في الشمال الإفريقي .

---

(١) **انظر** : قادة فتح المغرب العربي (٢/ ٢٣٥) .

المبحث الرابع

الدولة الحفصية

[أ] الدولة الحفصية :

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر ابن الخطاب كابن نخيل،الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية [١] .

ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة ، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم .

وموطنها بجبال درن القريبة لمراكش، ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت، وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين، من غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت يسمى بالأمام،وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[٢] . وبلغ من احترام عبد المؤمن له وحُسن تقديره إياه أن كان يأخذ برأيه في كل مشاكل الحكم،وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وإفريقية.

وعندما تولى الخلافة الموحديةالناصر بن المنصور[٣] أسند إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أمر إفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إداراتها كي يستطيع القيام بأعبائها علي الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب.

وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي، أن يقيم ثلاث

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب (١ / ٣٧٤).

(٢) انظر : بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية (ص ٢٢٠).

(٣) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعباد (ص ١٢١).

سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وإفريقية [١] .

ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) [٢] .

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال، منها :

﴿١﴾ انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة (١٢١٢م) .

﴿٢﴾ رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) لتعاليم ابن تومرت ثم إزالة اسمه من السكة والخطبة .

﴿٣﴾ قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين .

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال على التمسك بتعاليم ابن تومرت ، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان [٣] .

---

(١) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعباد (ص ١٢١) .

(٢)، (٣) **انظر** : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعباد (ص ١٨٠) .

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسنطينة وبجاية ودخل تلمسان وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسجلماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية تدل على دهاء ومكر زعماء المرينيين [١] ، ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس وإشبيلية والمرية وإلى الأمير أبي زكريا عبد الواحد وجه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجده أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشداً قصيدته السنية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جاراها [٢] وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاشى مما تعانيه حشاحشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
ياللجزيرة أصبح أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدُّها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقةٍ ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثني الزمان حذراً والسرور أسى
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الأشراك مبتسماً ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها القوادي العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرساً ... ومن كنائس كانت قلبها كنسا

---

(١) انظر : المغرب في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٧) .
(٢) انظر : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٠) .

ياللمساجد عادت للعدى بيعاً ... وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارسا للمثاني أصبحت درسا

وأربعاً نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا

كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها وعسى

وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا ... غيث الدبا في مغانيها التي كسبا

وابتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضراً ... وأين عصر جليناه بها سلسا

محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا

خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صل حبالها أيها المولى الرحيم فيما ... أبقي المراس لها حبلاً ولا مرسا

إلى أن قال :

طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطئ رأساً كل من رأسا

وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخساً

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء ما لم تباشر حسمه انتكسا

فاملأ هنيئاً لك التأييد ساحتها ... جرداً سلاهب أو خطيذة دعساً

واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى [1]

---

(١) **انظر** : الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣ / ١٢٠, ١٢١, ١٢٢) .

ولقد لبى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين (١) .

وفتح أبو زكريا أبواب إفريقية للهجرة الأندلسية وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى ، وكان من أعظم حكام دولة الحفصيين ، وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره .

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية قد حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في إفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقًا إلى مدينة الجزائر غربًا ، وبدا وكأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب (٢) .

[ب] ولاية العهد :

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م عين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وخوَّل له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها .

وتميز أبو يحيي بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد .

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ، ومما جعل في وصيته قبل موته في عام (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) :

[١] المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه .

---

(١)المصدر السابق (٣/١٢٣).

(٢)انظر : المغرب في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٨).

[٢] تفقده للجيش وحُسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفيه بالكبير ، فيجرىء السفيه عليه ، ويفسد نية الكبير ، فيكون إحسانه مفسده له في كلا الوجهين.

[٣] أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات؛ لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

[٤] إن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جميعاً، فإن في تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

[٥] عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم، ومهما دعّي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

[٦]أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات؛ لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

[٧] أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متماد في غيه في فساد صلاحهم، ومثل هذا ليس له إلا السيف.

أما الحسود فعليه أن لا يقيل عثرته ؛ لأن في إقالته يشجعه على القول والقول يدفعه إلى العمل ، ووبال عمله يضر غيره، فليسم داءه قبل انتشاره ويتدارك أمره قبل إظهاره.

[٨] عليه أن يزهد في الدنيا ، فلا ينشغل بلهوها وزينتها ، بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا ، وينال بها

مرضاة الله في الآخرة] [١] .

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أميراً للمؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام (٦٥٦هـ) وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين (٥٦٧هـ/١٢٥٩م) وبايعه شريف مكة بالخلافة [٢] .

وحاول الحفصيون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة،كالأصل العربي،والنسب النبوي، إلى جانب قرابتهم للموحدين. فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب [٣] ، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي ﷺ ابنته حفصة فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة [٤] .

وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية وذكر نسبهم يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم ويقول:

قوم أبو حفص أب لهم   وما أدراك والفاروق هو أول [٥]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى.

---

(١) ابن خلدون تاريخ الدول (١/٤٠٦، ٤٠٨).

(٢) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي (ص ١٢٣).

(٣) نفس المصدر السابق (ص ١٢٤).

(٤)، (٥) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، للعبادي (ص ١٢٤).

يقول السلاوي الناصري: «ولما بلغ بنو مرين بالمغرب، وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تأليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً لمرضاتهم، وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم إذ كانت صبغة دعوة الموحدين قد رسخت في قلوبهم...»[١] واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة. الحفصية، وكانت السياسة المصرية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية ومن أهم تلك الأهداف السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها، كالطولونيين، والإخشيديين والفاطميين (العبيديين) قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب «خدام الحرمين»[٢].

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨-٦٧٦هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وانتصر على الصليبين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال، رأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته،لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م)، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب...إلخ، ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوع

---

(١) **انظر**: السلاوي «الاستقصا» (٣/٢٨، ٢٩) نقلاً عن العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

(٢) **انظر**: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٧).

وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي ووضع مندوباً تابعاً له بجانب شريف مكة إلا أنه بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها [١] .

استطاع المستنصر أبو عبد الله محمد أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة، بعضها من السودان، وبعض آخر من أوروبا، واهتم بعاصمة الدولة، وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٧٠م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت، بسبب الوباء الذي عصف بحياة الملك نفسه [٢] .

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥هـ/١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبث أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس، وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شئون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات [٣] وأصبح الشمال الإفريقي في دوامة الصراع.

واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم إفريقية، لدى انسحاب المرينيين، وبزغت مرحلة جديدة من الأستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠-٧٩٦هـ/١٣٩٤م ، واستطاع أن يقف أمام

---

(١) انظر : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص ١٢٧) .

(٢) المغرب في تاريخ المغرب (ص ١٢٨) .

(٣) عام (١٣٤٦ ، ١٣٥٠ ، ١٣٤٧ م) نقلاً عن العبادي دراسات (ص ١٢٩) .

هجوم من النصارى على المهدية سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م) ، فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها وتمكن ابنه أبو فارس من الاستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي استقلت في حياة أبيه (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) ، وعلى بسكرة سنة (٨٠٥هـ/١٤٠٢م) ، ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة (٨١٣هـ/١٤١٠م)

وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحة خاصة ، ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر وتوفي أبو فارس سنة (٨٣٨هـ/١٤٣٤م) وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهراً ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة (٨٥٠هـ/١٤٤٦م) ويهزم عمه أبا الحسن [١] .

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده، وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا، وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزقت وحدة الحفصيين بعد وفاته، وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها وعبر أبو محمد الحفصي عن الحالة التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه :

وكنا أسوداً والرجال تهابنا   فجاء زمان فيه نخشى الأرانب [٢]

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والإسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان وبذلك دخلت تونس في حكم الدولة

---

(١) المغرب الكبير(٢/٨٧٩) .

(٢) انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي(٤/٢٠٥)

العثمانية الإسلامية عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) [١] .

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١هـ/١٥٧٣م[٢] .

[جـ] طرابلس والدولة الحفصية :

اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء على طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاتي، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (٦٤٧-٦٦٥هـ)فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.

لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الاضطراب قد بلغ أشده وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فاجتمع حوله الناس واختاروه أميراً لهم سنة ٧١١هورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس وجعل ابنه أميراً عليها ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس [٣] .

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بإفريقية حوالي ست سنوات، ثم

---

(١)انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/٢٠٥).
(٢)انظر : المُغرب في تاريخ المغرب (ص ١٣٢).
(٣)انظر : تاريخ الفتح العربي (ص ٣٤٢).

انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحيى أبو بكر سنة ٨١٨هـ الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس، بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر [١] .

[د] طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص :

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم آل إليهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤هـ وظلوا يحكمونها – بدون استقرار – حتى قبيل غزو الإسبان لها [٢] .

ومن ولاة بني ثابت :

- **ثابت بن محمد (الأول)** [٧٢٤هـ] .
- **محمد بن ثابت** [٧٣٠هـ] .

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨هـ [٣] .

ثابت بن محمد بن ثابت الثاني (٧٥٠هـ) :

استطاع تجار جنوه أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام ٧٥٥هـ وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوة، فتدخل بنو مكي وهم من البربر، ونسبهم في لواتة بزعامة أحمد بن مكي وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتم دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس ، وبعد ما مكث الجنويين بها حوالي خمسة أشهر.

---

(١)انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٨) .

(٢)، (٣)انظر : موسوعة التاريخ الإسلامي (٤/ ٣٧٩) .

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه في العقيدة (١) .

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام ٧٦٦هـ.

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيىء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر ، ووقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء (٢) .

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة (٧٩٢هـ)ولي طرابلس ابن أخيه علي بن عمران ابن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف استمر لمدة سنة إلا أنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يمتلكوا طرابلس ويقبضوا على واليها علي بن عمران. وأسند الحفصيون ولاية طرابلس إلى يحيى بن أبي بكر ثم رأى الأمير الحفصي أن يعزل يحيى بن أبي بكر وعين عليها رجلاً من قبله يثق فيه وأصبحت طرابلس تابعة له. وانقرض حكم بني ثابت من طرابلس، وإمارتهم عليها (٣) ، بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة(٤) .

---

(١)انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٢).
(٢)المصدر السابق نفسه (ص ٣٥٣).
(٣)المصدر السابق نفسه (ص ٣٥٥).
(٤)المصدر السابق نفسه (ص٣٤٦).

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام (٨٣٣هـ).

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروطًا :

[١]أن يبق واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي.

[٢]أن يستقل بالإدارة ولا يرد أمره في شيء.

[٣]أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد.

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات، وكثرت الأموال وبقي والياً إلى أن توفي عام ٨٥٨هـ وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة كانت أيام رغد وهنأ على أهل طرابلس [١].

[هـ] ثورة بني غراب :

ثار بنو عليّ والي طرابلس أبي بكر بن عثمان وألقوا القبض عليه وأرسلوه إلى ابن أخيه يحيى بن محمد المسعود بن عثمان في تونس فسجنه ثم قتله.

ودخلت البلاد في الانقسامات والتحزب وقام رجل يقال له منصور أصلح بين المتخاصمين وهدأت الفتنة واختار الطرابلسيون الشيخ منصوراً وهو الذي سعي في الإصلاح والياً عليهم بدلاً من الحاكم الحفصي أبي بكر وسمع سكان الدواخل ببيعة الشيخ منصور حاكماً على المدينة، فجاءته البيعة من غريان، وترهونة

---

(١)**انظر** : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٧).

ومسلاته وبني وليد وخلفه رجل يقال له يوسف مات بالطاعون عام ٨٨٥هـ وخلفه في الحكم مامي وبقي في الحكم نحو اثنتي عشرة سنة . وتوفي عام (٨٩٨هـ) ، واتفقت كلمة الطرابلسيين على تعيين الشيخ عبد الله بن شرف فولوه حاكماً عليهم، وكان رجلاً يميل إلى الزهد في الدنيا حتى لقب بالمرابط. وتغلب عليه أمر الزهد والانشغال بالعبادة ولم يكن أهلاً للولاية فأهمل تحصين البلاد، وتقوية أبراجها وأسوارها وإعداد الجند اللازم للدفاع عن المدينة، فأصبحت عرضة لطمع الأعداء ولم تكن ثورة بني غراب ذات أثر كبير على ثروة البلاد ودام حكم الشيخ عبد الله بن شرف نحو ١٨ سنة توسع أهالي طرابلس في التجارة وجمع الأموال والثروات [١] .

ويرى الشيخ طاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة (٨٣٣هـ) إلى أن احتلها الإسبان سنة (٩١٦هـ)كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع أهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الإفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم، وأخلاقهم وضعفت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع فيهم الأعداء من النصارى فتكالبوا عليهم [٢] وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية وانضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين. وفي ٨ من ربيع سنة (٩١٦هـ) تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة (٩١٦هـ) الخامس والعشرين من يوليو سنة (١٥١٠م) وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي

---

(١) انظر : تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٣٦٠) .

طرابلس ولم تكن القوات متكافئة وسقطت المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ ١٥٥١م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا ، وسنتعرض للتفاصيل في الكتاب السادس من سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي بإذن الله تعالى عندما نتحدث عن الدولة السنية العثمانية العلية ودورها في العالم الإسلامي عموماً والشمال الإفريقي خصوصاً.

[و] أسباب سقوط الدولة الحفصية :

﴿ ١ ﴾ اعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظَّر له ابن تومرت وحرصها على تبني عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الإفريقي فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

﴿ ٢ ﴾ الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

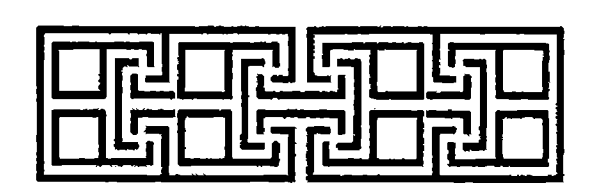
﴿ ٣ ﴾ استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصين، فتضطر أحياناً الدولة لتجريد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحياناً تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن المستقلة .

﴿٤﴾ استهدفت مدن إفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً فعملوا على تنصير الشمال الإفريقي من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

﴿٥﴾ ظهور قوة إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطنة العثمانية و التي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العالمين.

﴿٦﴾ تطلع أهالي الشمال الإفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

﴿٧﴾ كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى.



الخلاصة

[١] يعتبر محمد بن تومرت المؤسس الحقيقي لدولة الموحدين؛ لأنه وضع الخطوط العريضة التي قامت عليها الدولة.

[٢] يعتبر منهج ابن تومرت خليطاً من علم الكلام والمعتزلة والأشاعرة والإمامية والخوارج.

[٣] لم يتورع ابن تومرت عن سفك الدماء وسبي النساء وتكفير المسلمين، واستخدام الأساليب الملتوية من الكذب والخداع من أجل الوصول إلى أهدافه.

[٤] يعتبر ابن تومرت هو الناشر الفعلي لعقائد الأشاعرة في الشمال الإفريقي بقوة السلطان، وتأليفة لكتب في مجال العقائد حكم عليها علماء أهل السُنَّة بالابتداع.

[٥] أخطأ بعض المعاصرين عندما نظروا إلى حركة ابن تومرت كحركة إصلاحية؛ لأنها في الحقيقة كانت حركة تدميرية بعيدة عن معالم الإصلاح التي جاءت في الكتاب والسُنة؛ بل كانت حركة ابن تومرت من الأسباب البعيدة في ضياع الأندلس وتمزق وحدة الشمال الإفريقي.

[٦] كانت لابن تومرت عبقرية تنظيمية ومنهجية تربوية وأهداف سياسية سعى بكافة الوسائل والأساليب لتحقيقها.

[٧] ساعدت سذاجة المجتمع المغربي وجهله على تغلغل معتقدات ابن تومرت المنحرفة في أوساطه.

[٨] تزعم عبد المؤمن بن علي قيادة الموحدين بعد موت ابن تومرت وخاض حروباً ضارية انتهت بسقوط دولة المرابطين وتوحيد الشمال الإفريقي.

[٩] ظهرت مواهب سياسية فذة عند عبد المؤمن بن علي تمثلت في إبعاده لقبائل المصامدة عن الحكم، وتقريبه لقبائل بني هلال وبني سليم منه، وإسناد أمر حمايته إلى قبيلة كومية، وتدرج في القضاء على تنظيم ابن تومرت في الطبقات، وجعل الحكم وراثياً في أسرته.

[١٠] لم يلتزم عبد المؤمن بالمنهج التومرتي حرفياً وإنما استفاد منه فيما يحقق أغراضه وأهدافه السياسية ولذلك نجده ينحرف عن تعاليم ابن تومرت كلما

حانت له فرصة كما حدث عندما ألغي نظام الطبقات وهذا العمل يدل على عدم اعتقاده في عصمة ابن تومرت وإن كانت توجيهاته وأوامره إلى كافة الموحدين تحض على ضرورة المحافظة على تعاليم ابن تومرت والعمل على نشرها ويعتبر ذلك تكتيكًا من عبد المؤمن لكي يحافظ على مكانته بين الموحدين المخلصين لدعوة ابن تومرت.

[١١]تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٥٨هـبعد مؤامرة دبرت لخلع أخيه واستقر له الحكم وبايعه جميع الموحدين في (٥٦٣هـ)وكان أبو يعقوب مولعاً يحب الفلاسفة ولذلك قرب إليه ابن طفيل.

[١٢]عمل أبو يعقوب يوسف على ضم الأندلس بالقوة واستطاع محمد بن مردنيش أن يقاتل الموحدين لمدة طويلة واستنزف جهودهم وأخذ من أوقاتهم وقتل من رجالهم وشجع الأمراء الطامعين والمتذمرين من أهل المغرب لأن ينتهزوا فرصة انشغال الموحدين به ، وشقوا عصا الطاعة ولم يستطيع الموحدين أن يضموا شرق الأندلس لدولتهم إلا بعد موت ابن مردنيش عام (٥٦٧ هـ).

[١٣]اشتعلت ثورات المغرب الأقصى ضد دولة الموحدين عام (٥٥٩هـ)وكانت ثورات ضارية أضعفت قوات الموحدين وأوهنت شوكتهم إلا أن الموحدين استطاعوا أن يقضوا على ثورتي صنهاجة وغمارة عام ٥٦٣هـ.

[١٤]قامت في المغرب في قفصة في عام ٥٧٥هـثورة ضد الموحدين بقيادة علي بن المعز الرندي واستطاعت تلك الثورة أن تخلص قفصة من تحت حكم الموحدين إلا أن جيوش الموحدين الجرارة استطاعت إرجاعها في عام (٥٧٦هـ).

[١٥]عجز يوسف بن عبد المؤمن أن يحقق نصراً حازماً على النصارى في الأندلس، لعدة أسباب منها، نقص الخبرة العسكرية والسياسية عند الخليفة الموحدي، وعدم قدرته على تقدير الظروف، وعدم قدرته على الوصول إلى هدفه من أيسر الطرق، وميولاته الفكرية التي طغت على الاهتمامات العسكرية والسياسية وانشغاله بالمناقشات الفكرية حتى عند حصاره لأعدائه ، وبسبب ضعف ولاء المسلمين لدولة الموحدين بسبب انحراف منهجها وظلمها للرعايا، كما أن الخليفة الموحدي يوسف كان حريصاً على أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وعدم إصغائه لنصح الناصحين.

[١٦]توفي السلطان يوسف في ٥٨٠هـ ودفن في تينملل بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره وهو يعد من كبار الخلفاء الموحدين والسلاطين العظام في تاريخ المغرب الإسلامي.

[١٧]تولى أبو يوسف يعقوب بعد وفاة أبيه، فقام بالأمر أحسن قيام وأظهر أبهة الملك ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

[١٨]صرح السلطان يعقوب المنصور بعدم صحة الاعتقاد بعصمة ابن تومرت ، وحرص على مجالسة الصلحاء والمحدثين.

[١٩]عمل السلطان يعقوب على القضاء على ثورات بني غانية والأعراب واستطاع أن يخضد شوكتهم وأن يوحد الشمال الإفريقي كله.

[٢٠]عمل على استنفار المسلمين في بلاد المغرب كلها من أجل الجهاد ضد النصارى واستجاب له المسلمون وتوافدوا على معابر العبور استعداداً للجهاد ضد النصارى في الأندلس.

[٢١]استطاع يعقوب المنصور أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في الأندلس معركة الأرك عام (٥٩١ هـ) وترتب على هذا النصر الحاسم نتائج عظيمة للمسلمين في الأندلس والشمال من أهمها، ارتفاع الروح المعنوية لمسلمي الأندلس، وسقط هيبة ملوك النصارى.

[٢٢]نستطيع أن نقول بأن يعقوب المنصور أخذ بأسباب النصر المعنوية، والحسية حيث شرع في تحشيد الجيوش وترتيبها وتنظيمها، ووحد القيادة، وأعطى مجلس الشورى صلاحيات واسعة، وأسند المهمام إلى أهلها.... إلى آخره.

[٢٣]طلب السلطان صلاح الدين الأيوبي من يعقوب المنصور أن يمده بمدد ضد النصارى في المشرق إلا أن السلطان يعقوب امتنع لأسباب سياسية وعقدية ونفسية ومع هذا أكرم رسول صلاح الدين غاية الإكرام ، ولم يمتنع المغاربة من المساهمة في جهاد المسلمين ضد النصارى في المشرق تحت قيادة صلاح الدين.

[٢٤] توفي السلطان يعقوب المنصورعام ٥٩٥هـ بعد أن جاهد بالسيف وحرص على إصلاح عقائد الموحدين والاقتراب بهم نحو منهج أهل السُنَّة والجماعة.

[٢٥] تولى أبو محمد عبد الله الناصر لدين الله خلافة الموحدينعام ٥٩٥هـ واستطاع أن يقضي على ثورة بني غانية وأن يوحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى وعبر بجيوش ضخمة جبل طارق قاصداً جهاد النصارى في الأندلس وانهزم في معركة العقابعام (٦٠٩هـ) أمام الجحافل النصرانية ثم رجع إلى المغرب وانهمك في الشهوات والملذات حتى قتل مسموماًعام (٩١٠هـ) .

[٢٦] بعد هزيمة العقاب توغل النصارى في مدن وقرى المسلمين مرتكبين أشنع المجازر البشرية من قتل وهتك الأعراض وسبي النساء ويتقدمهم القساوسة بالأناشيد والتشجيع على استئصال المسلمين من ديار الأندلس.

[٢٧] تعتبر موقعة العقاب بداية الانهيار الفعلي لدولة الموحدين ولقد كان سن الخليفة وقلة خبرته وإعجابه بنفسه وتسلط الوزير ابن جامع عليه دور في هزيمة العقاب.

[٢٨] لقد ساهمت عوامل عديدة في سقوط دولة الموحدين ومن أهمها، هزيمة معركة العقاب وظلم الموحدين للمرابطين، والثورات المتتالية في الأندلس والمغرب الأقصى والأوسط والنزاع على الخلافة داخل البيت الموحدي، والانهيار العسكر الذي أصاب القوات الموحدية، وانكماش العقيدة التومرتية في نفوس الموحدين، وتحول الحكم إلى الوراثة.

[٢٩] بعد زوال دولة الموحدين فيعام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) انقسم الأندلس والشمال الإفريقي إلى دويلات من أهمها، دولة بني الأحمر في غرناطة، وبني مرين في المغرب الأقصى، وبني عبد الواد في المغرب الأوسط، وبني حفص في المغرب الأدنى.

[٣٠] كان لظهور مملكة غرناطة وصمودها أمام الهجمات النصرانية أسباب من أهمها، موقعها الجغرافي المتميز، ووقوف دولة بني مرين معها بكل ما تملك، هجرة الكوادر الأندلسية من المدن الإسلامية التي سقطت إليها، قانون التحدي عند الشعور بالخطر، حب أهالي غرناطة للجهاد في سبيل الله، براعة حكام غرناطة في إدارة الصراع العسكري والسياسي.

[٣١] ظهر في ميدان الجهاد الأندلسي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الذي استطاع أن يحقق نصراً حاسماً على النصارى في معركة قرب إستاجة وظهرت ملكات قيادية للسلطان المريني في أمور منها ، اهتمامه بعنصر الاستطلاع، أبعاده للغنائم عن ساحة المعركة ، خطبته المؤثرة في جنوده، دخوله في المعركة بنفسه وقتله للنصارى بيده.

[٣٢] كانت العلاقة بين بني الأحمر يعتريها الذبول والشك بسبب عملاء النصارى الذين استطاعوا أن يقنعوا بني الأحمر بعقد اتفاقيات مع ملوك النصارى إلا أنها سرعان ما تتبخر أمام الخطر الداهم وترجع علاقات المسلمين إلى مجاريها الطبيعية.

[٣٣] كان لمشيخة الغزاة دور عظيم في الدفاع عن غرناطة، لقد سجلت لنا كتب التاريخ انتصارهم الساحق على جيوش النصارى وكانت أعداد مشيخة الغزاة قليلة أمام قوات النصارى إلا أنهم عوضوا نقصهم بالإيمان وصحة اللجوء إلي الله فأنزل الله نصره عليهم وكان ذلك النصر العظيم الذي حصد فيه أمراء النصارى وملوكهم في عام ٧١٩ هـ وكان عدد الملوك والأمراء القتلى أكثر من عشرين والقتلى من الجنود أكثر من خمسين ألفاً.

[٣٤] كانت موقعة طريف في عام (٧٤١هـ) والتي انهزم فيها المسلمون وضعفت شوكتهم أمام النصارى من المواقع التي لم يشهد المسلمون مثلها منذ وقعة العقاب ولقد استشهد في هذه المعركة مجموعة من العلماء من أشهرهم المفسر الكبير محمد بن جزي ، ووالد الوزير الغرناطي لسان الدين بن الخطيب.

[٣٥] اندلعت الحرب الداخلية في غرناطة بسبب النساء واستغل ملوك قشتالة هذه الفرصة وتحركوا من أجل احتلال غرناطة في عام ٨٨٧هـ واستطاع أبو عبد الله الصغير أن يستولي على عرش غرناطة بعد أن أزاح والده عنه وباشر الحروب بنفسه ضد النصارى إلا أنه وقع أسيراً بيد النصارى عام ٨٨٨هـ .

[٣٦] استطاع ملك قشتالة أن يستفيد من أبي عبد الله الصغير ، وأطلق سراحه في الوقت الحرج فزاد من الصراع الداخلي في غرناطة ، بعد أن جعله يوقع على وثيقة الخنوع والخضوع لملك قشتالة.

[٣٧] في عام ٧٩٧هـ حاصرت جحافل النصارى غرناطة ونقضوا كل العهود والمواثيق وضيقوا الخناق على المسلمين حتى اضطروا إلى تسليمها، ليدخل المسلمون تحت ظلم وعسف وجور محاكم التفتيش بعد ذلك بسنين.

[٣٨] كانت محاكم التفتيش مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، ولقد ارتكبت في حق المسلمين ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان.

[٣٩] حاول المستضعفون من المسلمون أن يحافظوا على دينهم ومعتقدهم وراسلوا العلماء ليستفسروا عن بعض الفتاوى وقد دونت في هذا البحث إحدى الفتاوى الهامة.

[٤٠] كانت هناك أسباب عديدة ساهمت في سقوط الأندلس من أهمها، تفكك وحدة الشمال الإفريقي، الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف، الاختلاف والتفرق بين المسلمين ، موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة، غدر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية وظهور عصر الطوائف، عدم قيام العلماء بدورهم المطلوب، الرضا والخضوع والذل تحت النصارى والطاعة لهم، سوء سياسة الولاة وإرهاق الأمة بالجبايات.

[٤١] لقد تباعد أهالي الأندلس عن تحكم شرع الله، فترتب على ذلك ضنك في الحياة الاجتماعية والسياسة والاقتصادية وضياع الملك والعزة والتمكين.

[٤٢] زالت دولة الموحدين من الوجود عام (٦٦٨هـ) واستولى على مقاليد الحكم في المغرب الأقصى بنو مرين.

[٤٣] حاولت دولة بني مرين أن توحد المغرب كله الأقصى والأوسط والأدنى ونجحت في فترات قصيرة في هذا الهدف إلا أنها ضعفت وتقلصت ثم زالت من الوجود عام ٨٦٩هـ وسجل لها التاريخ جهادها العظيم ضد النصارى في الأندلس.

[٤٤] من أهم أسباب سقوط دولة بني مرين؛ دسائس ملوك الإسبان، وتحالف غرناطة معهم ضد بني مرين، ودخولهم في صراع مرير مع دويلات المغرب، وتولى الحكم بعض الأمراء الضعاف، الخطر الخارجي من البرتغال علي مواني الدولة، وغير ذلك من الأسباب.

[٤٥] بعد سنتين من تولي أبي عبد الله محمد الإدريسي الحكم بفاس خرج عليه الشيخ محمد الوطاسي واحتل فاس وأقام الدولة الوطاسية وكان دخوله لفاس عام (٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م) .

[٤٦] استطاع السعديون أن يسقطوا الدولة الوطاسية في عام (٩٥٦هـ) وساعدتهم عدة عوامل في نجاحهم الكبير منها: دخول الوطاسيين في معاهدات مع الإسبان والبرتغاليين، عجز الدولة الوطاسية عن حماية أراضيها وموانيها، فظهر السعديون كقادة لحركة جهاد تبنت أهداف الشعب المغربي، فالتف الشعب حولهم.

[٤٧] استطاع الأمير أبو مروان عبد الملك السعدي أن يتحالف مع العثمانيين فساعدوه على تخليص المغرب من ابن أخيه محمد المتوكل وبايعه أهل المغرب عام ٩٨٣هـ .

[٤٨] كان السلطان عبد الملك يمتاز بالذكاء والقدرة على التخطيط وله من بعد النظر حظ وافر، فأقام دولته على أسس علمية، وسلح جيشه وطور بلاده واستفاد من النظم الإدارية والعسكرية العثمانية.

[٤٩] حقق السعديون بقيادة السلطان عبد الملك وأخيه أحمد المنصور انتصاراً حاسماً على النصارى في معركة وادي المخازن في عام ٩٨٦هـ وتجلت عبقرية السلطان عبد الملك العسكرية في وضعه خطة محكمة وشرع في تنفيذها بنفسه.

[٥٠] استشهد السلطان عبد الملك في وسط المعركة وتولى أخوه أحمد المنصور الحكم من بعده وبايعه أهالي المغرب.

[٥١] كان السلطان أحمد المنصور الذهبي متبحراً في العلم وترك مؤلفات في فنون متعددة منها، أدبية وشعرية وحديثية ومن أشهر كتبه المعارف في كل ما تحتاج الخلائق.

[٥٢] استطاع السلطان أحمد المنصور أن يقطع بدولته أشواطاً نحو التقدم والازدهار وبناء الدولة على أسس علمية متطورة في كافة مجالات الدولة.

[٥٣] بعد وفاة السلطان أحمد المنصور في عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م ضعفت الدولة السعدية ودخلت في حالة من التفكك والصراع الداخلي وانفصلت عن كيانها

مجموعة من الأمارات والولايات وانتهت فعلياً على يد قبيلة الشبانات العربية في عام ١٠٦٩هـ/٦٥٨م وأزالوا نهائياً الأسرة السعدية.

[٥٤] لم تستطيع قبيلة الشبانات أن تقوم بالدور القيادي في المغرب فكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام (١٠٧٥هـ/١٤١٢م) وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش ولا تزال أسرة الأشراف العلويين إلى يومنا هذا في حكم المغرب الأقصى.

[٥٥] حكم المغرب الأوسط بنو عبد الواد بعد زوال دولة الموحدين واستمرت دولتهم لمدة ثلاثة قرون وتعرضت لمخاطر عظيمة من أشدها احتلال الإسبان لمدينة وهران وبجاية في عام (٩١٥هـ/ ١٥١١م) وزالت الدولة الزيانية من الوجود عام (٩٦٢هـ/ ١٥٥٤م) على يد الفاتحين العثمانيين.

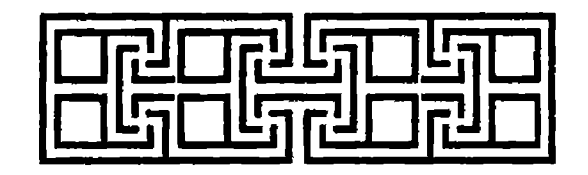
[٥٦] حكم إفريقية في فترة حكم الدويلات للشمال الإفريقي بنو حفص وتعرضت دولتهم للمد والجزر وزال ملكهم من الوجود في عام (٩٧٦هـ/١٥٦٨م) على يد العثمانيين.

[٥٧] سقطت مدينة طرابلس الحبيبة تحت قبضة الإسبان في عام (٩١٦هـ) ثم سلمت إلى فرسان القديس يوحنا في عام (٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م) واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام (٩٥٨هـ/ ١٥٥١م) حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار ويحرروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



أهم مراجع البحث

[١] ابن جزي ومنهجه في التفسير، علي محمد الزبيري، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.

[٢] ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة جمال، بيروت – لبنان.

[٣] أعز ما يطلب لابن تومرت، تقديم وتحقيق عمار الطالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر سنة ١٩٨٥م.

[٤] ابن ماجة للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، حققه محمد فؤاد عبد الباقي، دار التراث العربي.

[٥] أشراط الساعة للوابل، يوسف عبد الله الوابل،الطبعة الثالثة،١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار ابن الجوزي.

[٦] إلجام العوام عن علم الكلام، لأبي حامد محمد محمد الغزالي الطوسي.

[٧] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى المراكشي، الدار العربية للكتاب، بيروت، ط٣,١٩٨٣م.

[٨] المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

[٩] البيذق أخبار المهدي ابن تومرت، أبو بكر الصنهاجي، تحقيق ليفي بروفنسال، باريس ١٩٢٨م.

[١٠] الدعوة الموحدية بالمغرب، عبد الله على علام، دار المعرفة بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٤م.

[١١] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٦٣م.

[١٢] النهايةفي الفتن والملاحم للحافظ إسماعيل بن كثير، تحقيق د.طه زيني، دار النصر للطباعة، الناشر دار الكتب العلمية، بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

[١٣]المنار المنيف لابن القيم ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٣٩٠هـ.

[١٤]النبوة والأنبياء ، لمحمد علي الصابوني.

[١٥]الملل والنحل للشهرستاني، للعلامة أبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.

[١٦]الحموية ، لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية.

[١٧]أخبار المهدي ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بتونس ١٣٩٥هـ.

[١٨]الكامل في التاريخ لابن الأثير، لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي المكارم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٩م.

[١٩]الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مؤلف مجهول، اعتنى بنشره السيد بشير الفورتي، تونس ١٣٢٩هـ.

[٢٠]ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك بن محمد أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي.

[٢١]المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، دار الأندلس بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

[٢٢]الدور الفكري للأندلس والمغاربة في المشرق ، د. علي أحمد، دار شمال دمشق، ١٩٩٥م.

[٢٣]النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغرى بردى الآتابكي، وزارة الثقافة والأرشاد القومي في مصر.

[٢٤]المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب ، د. عبادة كحيلة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ -٩٩٧م.

[٢٥]التكملة لكتاب الصلة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ابن الأبار.

[٢٦]العقاب ، شوقي أبوخليل، دار الفكر، تصوير ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م عن ط١ ١٩٧٩م.

[٢٧]الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس ، نجيب زبيب، دار الأمير، الطبعة الأولى ٢٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

[٢٨]السنن الإلهية ، د. عبد الكريم زيدان مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

[٢٩]الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.

[٣٠]الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني.

[٣١]الأعلام ، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت.

[٣٢]الإمام مالك بن أنس ، عبد الغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.٣٣ –.

[٣٣]الأرك ، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

[٣٤]الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري.

[٣٥]الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، للسيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري، طبع دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٣٩٩هـ.

[٣٦]الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ،سليمان بن عبد الله الباروني النفوسي، مطبعة الأهار البارونية .

[٣٧]الإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري، نشر دار البيان، دمشق سنة ١٤٠١هـ.

[٣٨]بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مجموعة من البحوث التي ألقيت في ندوة الحضارة الإسلامية في ذكرى الأستاذ د. أحمد فكري ١٦–٢٠ أكتوبر ١٩٧٦م شباب الجامعة.

[٣٩]تاريخ الإسلام ، د. حسن إبراهيم حسن، دار الجيل، بيروت الطبعة الثالثة عشر (١٤١١هـ، ١٩٩١م) .

[٤٠] تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، الطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، الطبعة الثالثة.

[٤١] تاريخ عصر النهضة الأوروبية ، د. نور الدين حسام، دار الفكر طبعة (١٩٦٨م).

[٤٢] تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى القرن العاشر الهجري ، تأليف مجموعة من الأساتذة، دار الأمل للنشر والتوزيع.

[٤٣] تاريخ الأندلس ، عبد الرحمن الحجي، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.

[٤٤] تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين ، د. حمدي عبد المنعم محمد حسين مؤسسة شباب الجماعة، طبعة ١٩٨٦م.

[٤٥] تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت ، د. عبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

[٤٦] تفسير الرازي ، للإمام الفخر الرازي.

[٤٧] تفسير القرطبي لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي.

[٤٨] تفسير الألوسي ، روح المعاني للإمام الألوسي.

[٤٩] البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي، دار الريان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ،١٩٨٨م.

[٥٠] دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ، د. عبد الحليم عويس، دار الوفاء الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ،١٩٨٩م.

[٥١] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة.

[٥٢] دعوة الحق ، السنة ١٩ ، العدد ٨ ، رمضان ١٣٩٨هـ.

[٥٣] ديوان التحقيق والمحاكمات ، لمحمد عبد الله عنان.

[٥٤] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي ، عز الدين أحمد موسى، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

[٥٥]دولة المرابطين ، سلامة محمد سلمان الهرفي ، دار الندوة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
[٥٦]دائرة معارف القرن العشرين ، لمحمد فريد وجدي ، مطابع دائرة معارف القرن العشرين ، الطبعة الثالثة ١٣٤٣هـ .
[٥٧]رحلة ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .
[٥٨]تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، يوسف أشياخ ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
[٥٩]تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، دار المعرفة بيروت ، الطبعة الثانية بالأوفست .
[٦٠]درء تعارض العقل والنقل ، الإمام شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية .
[٦١]سقوط الأندلس ، د . ناصر العمر ، مؤسسة المؤمن ، دار الوطن ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ .
[٦٢]سقوط غرناطة ، شوقي أبو خليل ، دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٩٨١م .
[٦٣]سقوط دولة الموحدين ، د . إمراجع عقيلة الغناكي (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م) منشورات جامعة قاريونس .
[٦٤] سير أعلام النبلاء ، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢هـ .
[٦٥] سنن أبي داود ، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني .
[٦٦]شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي ، المسمى ابن العماد (ت : ١٠٨٩هـ) .
[٦٧]صحيح البخاري ، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى ٢٥٦هـ .
[٦٨]صحيح مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار إحياء التراث .
[٦٩]صحيح الجامع ، للألباني ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨هـ .

[٧٠] صلاح الأمة في علو الهمة، د. سيد بن حسين العفاني، مؤسسة الرسالة، الطبعة الإولى ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
[٧١] صلاح الدين بطل حطين، عبد الله علوان، دار السلام، القاهرة، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
[٧٢] عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، القاهرة، ١٩٦٤م.
[٧٣] عقيدة أهل السُنَّة والجماعة والأثر في المهدي المنتظر، للشيخ عبد المحسن ابن حمد العباد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى.
[٧٤] عقد بيعة بولاية العهد، في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، حسن مؤنس.
[٧٥] عقائد الإمامية، لمحمد رضا ظافر.
[٧٦] عوامل النصر والهزيمة، لشوقي أبي خليل، دار الفكر، دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ،١٩٨٧م.
[٧٧] غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ،١٩٨٢م المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
[٧٨] فقة التمكين عند دولة المرابطين، علي محمد محمد الصلابي، سلسلة صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي.
[٧٩] فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، ومكتبتها، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي.
[٨٠] فتاوى ابن تيمية، لأبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وترتيب، عبد الرحمن بن محمد قاسم.
[٨١] قيام دولة المرابطين، لحسن أحمد محمود القاهرة، ١٩٥٧م.
[٨٢] قادة فتح بلاد المغرب، محمد شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
[٨٣] موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، الطبعة العاشرة سنة ١٩٩٥م.

[٨٤] مجموعة رسائل ابن حزم.

[٨٥] موسوعة المغرب العربي للغينمي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي، الناشر، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

[٨٦] مسكوكات المرابطين والموحدين في شمال إفريقيا، رسالة ماجستير في الحضارة والنظم الإسلامية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز، مكة ١٩٧٩م لم تطبع.

[٨٧] معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٠م.

[٨٨] مسند الإمام أحمد بن حنبل، شرح وتحقيق أحمد شاكر، أتمه د. عبد الحسين عبد المجيد هاشم، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى.

[٨٩] مجلة المنار، لمحمد رشيد رضا.

[٩٠] الأغالبة سياستهم الخارجية، محمود إسماعيل.

[٩١] مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد السادس، ١٤١٣هـ،١٩٩٢م، مجلة محكمة.

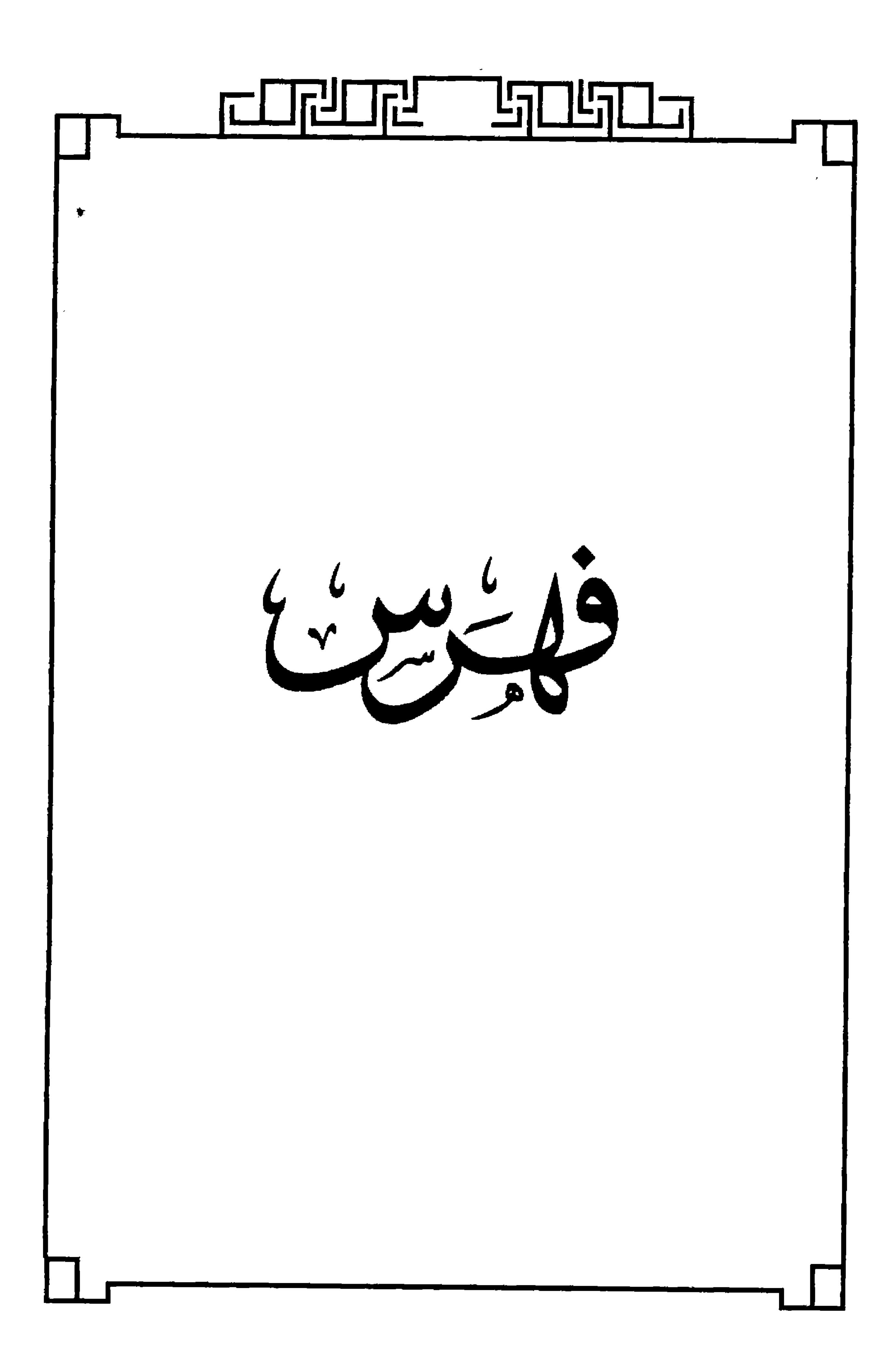
[٩٢] نظم الجمان في أخبار الزمان ، لابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الفاسي.

[٩٣] نظم المتناثر في الحديث المتواتر، للشيخ جعفر الحسني الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٠هـ.

[٩٤] نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، المقري، تحقيق، د. إحسان عباس.

[٩٥] وادي المخازن، لشوقي أبي خليل دار الفكر بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

[٩٦] وفيات الأعيان ، لابن خلكان، شمس الدين، أبو العباس ابن خلكان، دار صادر بيروت، حققه إحسان عباس.


فهرس

فهرس

الصراع بين أهل السنة والرافضة

الدولة العبيدية الفاطمية

رقم الصفحة

فهرس

دولة المرابطين

رقم الصفحة

فهرس
دولة الموحدين
شقوط الأندلس الإسلامية ومحاكم التفتيش البربرية

رقم الصفحة


تم
بحمد الله